تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

المُرخَّص لهم بالقتل

قتلة مستأجرون في الحرب على الإرهاب

نقله إلى العربية

عبداللطيف موسى أبو البصل

العبيكان
Obeikan

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

المُرخَّص لهم بالقتل

قتلة مستأجرون في الحرب على الإرهاب

روبرت ينغ بيلتون

نقله إلى العربية

عبد اللطيف موسى أبو البصل

العبيكان
Obeikan

Original Title:

LICENSED TO KILL

HIRED GUNS IN THE WAR ON TERROR

ROBERT YOUNG PELTON

Copyright © 2006 by Adventurist Corp

ISBN-13: 978-1-4000-9781-4

ISBN-10: 1-4000-9781-9

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

Published by Crown Publishers, an imprint of the Crown Publishing Group, a Division of Random House, Inc., New York (U.S.A.)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع كراون ببليشرز. راندوم هاوس، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية.

© العبيكان 2010 _ 1431

ISBN 2 - 971 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الأولى 1431هـ ـ 2010م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574/2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ⓒ مكتبة العبيكان، 1431هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بيلتون، روبرت ينغ

المرخص لهم بالقتل./ روبرت ينغ بيلتون؛ عبداللطيف موسى أبو البصل؛

عبداللطيف موسى أبوالبصل.- الرياض 1431هـ

448ص؛ 16،5× 24سم

ردمك: 2 - 971 - 54 - 9960 - 978

1 - الحراسة الأمنية أ. أبو البصل، عبداللطيف موسى (مترجم)

ب. العنوان

ديوي: 363,28 1431 / 1257

ردمك: 2 - 971 - 54 - 9960 - 978 رقم الإيداع: 1257 / 1431

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

المحتويات

توطئـة 9

المقدمة: السير بشدّة 17

القسم الأول: قتلة مستأجرون

الفصل الأول: اقتلهم جميعاً 29

الفصل الثاني: على حافة الإمبراطورية 63

الفصل الثالث: الحرس الإمبراطوري 99

القسم الثاني: الصنف الجديد

الفصل الرابع: قتل مؤكد 121

الفصل الخامس: جسر بلاك ووتر 157

الفصل السادس: تحت الحصار 187

الفصل السابع: مسار سباق الكلاب وأرض المستنقعات 215

الفصل الثامن: بين فكّي الكماشة 257

القسم الثالث: بين الأوغاد والأقطاب

الفصل التاسع: جيش من فردٍ واحد 301

الفصل العاشر: أساس النموذج العصري للمرتزقة 331

الفصل الحادي عشر: بين السيد والأمير 373

الفصل الثاني عشر: شركة خليج بنين 395

الخاتمة 431

تقدير وعرفان 447

عقيدة المتعاقد في الشركات الأمنية

أنا متعهد أمني أمريكي: أحرص على سلامتي، وسلامة العاملين عن يساري وعن يميني، ولا أحد غيرهم.

سأستغل دوماً مزيتي التي أصبحت تخولني أخيراً أن آمر ضباط الجيش النظامي بالزحف على الرمال، وسأفعل ذلك كلما سنحت لي الفرصة.

إنني كبش فداء بلدي، المحارب الذي «يمكن التنكر له والتبرؤ منه بسهولة»، وأنا أحب ذلك كثيراً.

إن أي أجر يقل عن 700 دولار أمريكي في اليوم هو أجر غير مقبول.

لقد تدربت على أكل أشياء لو أكلها الماعز لتقيّأ، ولكنني مع ذلك أرفض أي شيء أقل من 60 دولاراً مقابل وجبة الطعام لأنني جشع.

لا أعبأ بالأوسمة أو النياشين؛ ولا بمكافآت البسالة، بل أقوم بهذا العمل؛ لأن فيه فرصة تمكنني من قتل أعداء بلدي، وإشباع رغبة في نفسي لطالما تمنيت تحقيقها، وسأكون أفضل حالاً من 99% من الجنود النظاميين، مع أن هذا العمل غير شاق.

سأجهّز نفسي بأفضل وأحدث العتاد الموجود، وسأحتال على بندقيتي من نوع إم - 4 حتى يصبح وزنها أقل من 11 كلغم، وليس ذلك لأنها ستكون أفضل فاعلية؛ بل لأن منظرها سيكون أبهى في الصور الفوتوغرافية.

سأحمل من السلاح، والذخيرة، ووسائل القتل ما لا تحمله سرية مدفعية. وحين ألتحم مع العدو أدمّر كل شيء حولي.

سألعب وفق شروطي، وإذا ساءت ظروف العمل، فسأجد شركة أخرى تدفع لي أجراً أفضل.

- من رسالة إلكترونية راجت في أوساط العاملين في الشركات الأمنية الخاصة

توطئة

شـاب وسيـم، أشقر الشعر، مفعم بالحيويـة والنشاط، متوجـه إلى ردهة فندق ريتز كارلتـون في مدينة تايسون كورنر، بولاية فيرجينيا. إنــه إريك برنس، الذي بلغ من عمره ستــة وثلاثين عاماً، وهو جندي سابـق في قوات الصاعقة البحريــة الأمريكية -سيل-[1]، والمالــك الوحيد لشركة بلاك ووتر يو أس إيه، ووريث ثروة أسرة برنس، وربما يكون أقوى المناصريــن المثيرين للجدل لخصخصة الجهــاز الأمني. ومع أن المركــز الرئيس لشركة بــلاك ووتــر يقع في منشأة للتدريــب مقامة على أرض شاسعة تبلــغ مساحتها سبعة آلاف أكــر[2] في مدينة مويوك، بولاية نورث كارولينــا، إلا أن برنس وجد أن من الأنسب أن يتخذ مكتباً له في مدينة تايسون كورنر؛ لكي يبقى على مقربة من البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

تظهر وسائل الإعلام إريك بصورة الشخص المبهم المخاتل المخادع. وهو ليس كذلك، ولكنــه اكتسب هذه السمعة؛ لأنه كان يرفض دوماً طلبات وسائل الإعلام إجراء مقابلات معــه. ونظــراً لوجود عدد من الدعــاوى القضائية المرفوعة على بــلاك ووتر من قبل أسر عاملين سابقين في الشركة، تبرز حاجة قانونية إلى التزام السكوت والابتعاد عن مصائد الإعلام. ومع ذلك، وافق إريك على إجراء مقابلة معي. ولا أملك سوى التكهن بأن مكوثي شهــراً كامــلاً برفقة أعضاء فريق بلاك ووتر الأمني في دورياتهم على طريق مطار بغداد الدولي المهلــك، إضافة إلى حضوري عدداً من المناسبات الاجتماعية التي رأيته فيها عن قرب، جعلاه يقتنع برغبتي المخلصة في فهم عالمه الخاص.

1- كلمة سيل وبالإنجليزية (SEAL) هي اختصار لعبارة «بحراً، جواً، أرضاً». (sea air land) وهي قوات أمريكية خاصة متخصصة في حرب العصابات وعمليات الكوماندوز ومقاومة العصيان. وقد ورد في الكتاب ذكر لوحدات أخرى في الجيش الأمريكي من هذا القبيل، منها قوات المظليين البحرية وسنطلق عليها اسمها الشائع وهو المارينز؛ هناك قوات الجوالة وسيطلع عليها في هذا الكتاب قوات الرينجرز؛ بالإضافة إلى القوات الخاصة أو البوريات الخضر.

2- أي ما يساوي 28 كلم مربع تقريباً، أو 28 ألف دونم.

لقد أتيحت لي عبر عقود من الحلّ والترحال في المناطق التي مزقتها الحروب فرصة ممالحة عدد من الأثرياء الملاّك للجيوش الخاصة. غير أن إريك هو الوحيد من بينهم الذي قابلته في حجرة الجلوس الفارهة في فندق ريتز كارلتون. وقد خطر في بالي وأنا جالس تجاهه مراقباً سلوكه النشيط المتفائل، أنه لا أحد من الموجودين في ردهة الفندق يمكنه أن يخمن مهنة إريك الحقيقية. والمرة الوحيدة التي قاطع فيها ارتجاج هاتفه الخلوي، الذي لم يتوقف، كانت حين جاءته مكالمة من «الرئيس الكبير»، أي زوجه.

ولدى إريك كثير من الأسباب التي تدفعه إلى التفاؤل والحبور، ففي السنوات الخمس الماضية، نمت شركته حديثة التأسيس من مجرد شركة «لتصنيع أهداف للرماية» إلى أنجح شركة رائدة في تقديم التدريب الأمني والحرس المسلح. وامتد نشاط عمليات بلاك ووتر من مدينة نيو أورلينز في الولايات المتحدة إلى أفغانستان، ومن أذربيجان إلى العراق. ومع بداية عام 2006، كان لدى برنس ثماني مئة عنصر يعملون في العراق، ومئات آخرون يقودون الطائرات، ويوفرون الحماية الشخصية، وحراسة المنشآت، وتدريب الجنود حول العالم. ويبدي إريك تحمساً شديداً لأكاديمية بلاك ووتر الجديدة، التي ستقوم بتعبئة وتجنيد، ونشر جيش مؤلف من ألف شخص، وهي «الخطوة الثانية» التي يروج لها للارتقاء بشركته إلى مستوى أعلى. ويخضع المنتسبون إلى هذه الأكاديمية لبرنامج شاق منهك من التدريب واختبار اللياقة، ويعفى الذين يخفقون في اجتيازه من الرسوم والمصاريف؛ أما الذين يجتازونه، فيعوضون عما دفعوه من رسوم بضمان توظيفهم في بلاك ووتر. وحتى خريف عام 2006، أشارت الأرقام إلى أن بلاك ووتر عازمة على تدريب خمسة وثلاثين ألف رجل في السنة القادمة، وقامت بنشر ما يربو على ألف وثماني مئة عنصر في سبع دول. ويميل برنس إلى تشبيه علاقة بلاك ووتر بالمؤسسة العسكرية التقليدية بعلاقة شركة فدإكس بمصلحة البريد الأمريكي - من حيث إنها حل ناجع فاعل مخصخص للبيروقراطية الحكومية المتصلبة والمبذرة.

وعقب الرواج الكبير الذي طرأ على خدمات شركات الأمن الخاصة في حقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، تمكن برنس من تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من فطنته المهنية. وحين يتحدث عن قدوته ومثاله الأعلى في العمل، فإنه لا يستشهد بجندي شهير، أو

رائد من رواد المرتزقة، أو أحد القراصنة؛ بل برجل أعمال هو ألفريد سلون، الرجل الذي بنى شركة جنرال موترز لتصبح واحدة من كبريات الشركات وأكثرها ربحاً في العالم. وقد بدأت إمبراطورية المال التي تعود لأسرة برنس بداية متواضعة بالشركة التي أسسها أبوه، وهي الشركة التي اخترعت المرآة المضاءة التي توضع على واقية الشمس المستخدمة في السيارات أمام مقعد السائق والمقعد المجاور له. ثم نمت الشركة مع التوسع في نشاطها على يد والده.

ومن الواضح أن إريك هو نتاج التربية التي تلقاها في تلك الأسرة: «كان عمل أسرتي متخصصاً بتزويد لوازم السيارات، وهو أكثر الأعمال التنافسية المسعورة في العالم». وكان جلّ تركيز أبي منصباً على النوعية، والكم، وإرضاء العملاء. وكانت هذه الأمور مدار حديث الأسرة حول مائدة العشاء. وبالتركيز على هذه القيم، يعتقد إريك أن بإمكانه أن يقدم جيشاً أخف حملاً، وأسرع حركة، وأذكى أداءً، دون تطلب أعباء دعم البنية التحتية التي تتطلبها الجيوش التقليدية.

ونتيجة للجهود التي كانت تدفع باتجاه خصخصة الخدمات المساندة للجيش التي بدأت في تسعينيات القرن الماضي، أدركت حكومة الولايات المتحدة أن توظيف القطاع الخاص لحل المشكلات، يمكن أن يكون أقل كلفة من وضع حلول تعتمد على بيروقراطيات ضخمة. وكما حدث فعلاً، فإن إريك كان يجد دوماً داخل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وفي وزارة الخارجية، والبنتاغون جمهوراً متحمساً مصغياً لعروضه القائمة على الحلول العملية وعلى المصاريف الثابتة. وفي الوقت نفسه، يدرك إريك عدم تحمس الرأي العام لدعم ما يمكن عدّه جيشاً من «المرتزقة» لحل مشكلات العالم. ويعي برنس الذي لا يتردد في إظهار نزعته الحربية، وقيمه الأسرية المحافظة، وتبعيته العمياء للحزب الجمهوري، أن أفكاره لا تحظى بتأييد كل الناس، ويعترف كذلك أنه حين يخاطب زيداً وعمراً من الناس، فإن أمامه مهمة ليست سهلة في إقناعهم.

ويوجد لدى إريك حجة جاهزة للتصدي لوصمة «المرتزقة» والتصورات السلبية التي غالباً ما ترافقها. وقد بدأ حديثه بتذكيري أن الثورة الأمريكية ما كان لها لتنجح لولا قوات الميليشيات الخاصة التي أنشأها ملاّك المزارع الأثرياء. وينظر إريك إلى دور بلاك ووتر

في الشؤون الدولية بأنه شبيه بالدور الذي أداه كل من: بارون فان ستيوبن[1]، وكاسياسكو[2]، وروتشامبو[3]، ولافاييت[4]، من حيث كونهم جنودَ مغانمَ ساعدوا الأمريكيين العاديين على محاربة الجيش البريطاني الذي كان على درجة عالية من التسليح والتدريب. ويهوى كذلك الإشارة إلى أن استعانة الجيش الأمريكي بـ «المتعاقدين» يعود إلى عهد الحرب العالمية الثانية، حين استخدم الجيش الأمريكي «النمور الطائرة» - وهي مجموعة من الأمريكيين جرى تمويلهم سراً، وكانوا يقودون طائراتهم تحت شعار شركة كلير لي تشينولتز المعروفة اختصاراً بشركة كامكو. وأسقط النمور عدداً من الطائرات اليابانية وأصابوا أهدافاً أخرى في البنية التحتية اليابانية، وكانوا يتقاضون أجراً يعادل ثلاثة أضعاف ما يتلقاه الطيار العادي، إضافة إلى مكافأة مجزية عن كل طائرة يسقطونها.

هذه الأمثلة التي ضربها برنس تتجاوز الوظائف التي تؤديها الشركات الأمنية الخاصة المتعاقدة مع البنتاغون، التي تعمل في العراق أو أفغانستان، ولكنها تفصح عن تطلعات برنس. فالمعنى التقليدي «لقوات الأمن» هو رجال مدربون يحرسون الأشخاص أو الأماكن أو الأشياء، لكن برنس يريد أن يقدم المزيد. وبموجب خطوته التوسعية الثانية، يسعى إريك إلى أن يوسع من نشاط الأمم المتحدة في مجال ترتيبات حفظ السلام لتشمل قواته العسكرية الخاصة. وبحسب ما يقوله برنس، فإن الأمم المتحدة هي منظمة تنفق

1- ضابط ألماني، ولد في بروسية عام 1730، وتوفي في نيويورك في الولايات المتحدة عام 1794 اسمه بالمولد فريدريك ويلهم لودلوف غيرهارد أوغسطين فون ستيوبن، وربما حصل على لقب بارون بعد مشاركته في حرب السنوات السبع بين إنجلترة وبروسيا من جهة ضد فرنسة والنمسا (1756-1763). قدم إلى الولايات المتحدة عام 1777، بعد أن تقاعد من الخدمة العسكرية في الجيش البروسي ليشارك في حرب الاستقلال الأمريكية ضد الإنجليز، وعمل على تحويل الجيش الثوري إلى قوات نظامية. (بتصرف عن الموسوعة البريطانية 2008، شيكاغو).

2- جنرال بولندي قاتل إلى جانب الثوار الأمريكيين ضد الإنجليز في حرب الاستقلال، وعاد إلى وطنه بولندة ليشارك في حرب استقلال بولندة عن روسية.

3- جنرال فرنسي كان يتولى قيادة وحدة عسكرية مكونة من ستة آلاف جندي فرنسي متمركزة في أمريكة الشمالية شاركت في القتال إلى جانب الثوار الأمريكيين في حرب الاستقلال عن التاج البريطاني.

4- جندي ورجل سياسة فرنسي الأصل من الطبقة الأرستقراطية، كان ضمن الطاقم المساعد لجورج واشنطن في الثورة الأمريكية، وقاتل إلى جانب الثورة في حرب الاستقلال الأمريكية.

70% مـن ميزانيتهـا البالغة 10 مليـارات دولار على مَهمات حفـظ السلام، وهي مَهمة تضاعفـت إلى أكثر مـن ضعفين في السنـوات العشر الأخيرة. وبحسب رأيـه، فإن ذراع حفـظ السلام التابعة لـلأمم المتحدة هي ذراع مكسورة في جسم ينخر فيه الفساد. إنها «خدعـة تستخـدم لتحويل الأموال إلى جيوشـ العالم الثالث التي تفتقـر إلى الانضباط والتدريب والتجهيز».

قـام برنسـ بتوظيف السفير كوفر بلاك في شركته، وهـو موظف عمل في السابق لدى وزارة الخارجيـة ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكيـة، بغية الترويج للجيش الخاص التابـع لبلاك ووتـر في اللقـاءات والاجتماعـات التي يعقدهـا السفـراء والدبلوماسيون الأجانب. وأعلن السفير بلاك في شهر آذار/ مارس من عام 2006، أمام جمهور الحضور في معرضـ عمليات القوات الخاصة الذي عقد في العاصمة الأردنية عمان، أن باستطاعة شركة بلاك ووتر أن تنشر قوة بحجم لواء بسرعة عالية وكلفة زهيدة نسبياً. وقال بلاك: «إن القضية هي من هو الطرف الذي سيسمح لنا باللعب ضمن فريقه»، ثم أردف موضحاً تلك العبارة بقوله: «إن بإمكاننا أن نحصل على موافقة الحكومة الأمريكية على كل شيء نقدمه لأصدقائنا وراء البحار».

يملـك إريك برنس المقدرة على نشـر لواء مسلح مؤلف من جنود مختصين تابعين له، أو كمـا يحلـو له أن يسميه «النجـدة ذات الأنياب»[1]، وهو جيش مؤلـف من ألف وسبع مئة رجـل مدربين ومزوديـن بقوة جوية من طائرات مروحية وطائـرات نقل. ومن يملك المال بإمكانـه استئجـار «دعم ناري» كامل بما في ذلك الطائرات المـزودة بالمدفعية، وطائرات التجسـس، وطائـرات الاستطـلاع الجـوي، والطائـرات المروحيـة المسلحـة، والعربـات المصفحـة، والطائـرات التي تعمل دون طيار وتوجه عن بعد، وطائـرات الهجوم السريعة المـزودة بقذائف الهجوم المباشر الموجهـة، أو بالقنابل العنقودية. وسيكون هناك وحدات هندسية وإنشائية، وطبيّة، وتوريد ومؤن، إضافة إلى وحدات قتالية، موزعة بمعدل ضابط غربي متدرب تدريباً مهنياً لكل عشرة من جنود المشاة المستخدمين من دول العالم الثالث

1- فقدت التسميه مع الترجمة سجعها الإنجليزي الذي نجده في الشعارات والأمثال، وهو سبب شيوعها، وعبارة المؤلف الأصلية هي (Relief with Teeth).

العاملين في الشركة. ويشترط إريك أن يكون عملاؤه من حلفاء أمريكة، وأن تسترجع بلاك ووتر معداتها ذات التقنية العالية إلى مقرها الرئيس بعد انقضاء العقد. وفي الوقت الذي يطوّر فيه إريك هذه القدرات، فإنه لا يناقش إن كان هناك زبائن لخدماته الجديدة أم لا.

وفي معرض وصفه للنموذج الذي استخدمه في تنظيم قواته الخاصة، يستشهد إريك بهيكل تقليدي لقيادة عمليات المرتزقة كالذي استخدمته شركة النتائج التنفيذية[1] التي كانت تعمل في جمهورية جنوب إفريقية. ويكثر إريك من الإطراء على شركة النتائج التنفيذية على تدخلها الفاعل الذي وضع حداً للنزاع الدموي الذي وقع في سيراليون وأنغولا. ولكنه لا يذكر شيئاً عن قيام البرلمان في جنوب إفريقية بحظر تلك الشركة، ولا عن وصمة العار التي لحقت بها من جراء قيام أصحابها وعملائها باستخدامها أداة للاستيلاء على الموارد الطبيعية التي تدر أرباحاً طائلة.

وثمة فرق كبير بين المضامين الأخلاقية والقانونية لنشاطات شركة النتائج التنفيذية حين نقارنها بتطلعات بلاك ووتر، مع أن المنشأتين تقعان في النطاق العسكري الخاص نفسه.

ولتوضيح هذه الفكرة بعبارة مبسطة أقول: إن المرتزقة هم جنود يعرضون خدماتهم مقابل أجر، أما الجيش الخاص أو المتعاقدون «الأمنيّون» فهم حراس أمن يعرضون خدماتهم مقابل أجر. والمرتزقة يتقاضون أجرهم للإطاحة برؤساء دول وقواعد عسكرية، وسفن حربية معرضة للهجوم على يد قراصنة، وحقول نفط، ومناجم ماس ومعادن، وبرامج تابعة لمنظمات غير حكومية، إضافة إلى أعمال الإنقاذ والحماية في مدينة نيو أورلينز الأمريكية عقب الإعصار الذي عصف بها. ومع ذلك، فإن أكبر سوق للخدمات التي تقدمها الشركات الأمنية (والبوتقة التي صهرت الأحداث الجسام التي أوجدت تلك الصناعة) بلا منازع هي العراق في عهد ما بعد الاجتياح الأمريكي؛ حيث كان الاستمرار في محاولات إعادة البناء في الوقت الذي تتطاير فيه العيارات النارية من

1- Executive Outcomes.

كل حدب وصوب تعتمد على مستوى الأمن الذي يمكن المحافظة عليه. وقدم المتعاقدون الأمنيّون الحماية لبول بريمر، وجون نيغروبونتي، وسلطة التحالف المؤقتة، ومشروعات إعادة الإعمار الحكومية منها والتجارية، ولأنابيب النفط. وأصبح مألوفاً مشهد الحرس التابعين للشركات الأمنية الخاصة الذين يقومون بحماية قوافل الدبلوماسيين، ورجال الأعمال، والصحافيين (ومستلزماتهم) في تحركاتها من مكان إلى آخر. وكما تبين من الأحداث أن رحلة سريعة لجلب بعض معدات الطهو يمكن أن تسفر عن اشتباك مسلح، كما حدث حين قتل أربعة عناصر من المتعاقدين الأمنيين العاملين من شركة بلاك ووتر ومُثّل بجثثهم أمام الملأ، وعُلّقوا فوق جسر في الفلوجة في مارس من عام 2004. وقد دفع ذلك الحدث وسائل الإعلام إلى تسليط الضوء على الدور الذي يؤديه المتعاقدون العسكريون التابعون للقطاع الخاص، وهو ما نشأ عنه جدل حول دور المدنيين في مناطق الحرب، وحول الفرق بين المتعاقدين الأمنيين وبين المرتزقة.

المرتزقة يقاتلون، في حين يقدم المتعاقدون الأمنيّون بالحماية، ولا يطلقون النار إلا إذا تعرضوا هم أنفسهم أو من يحمونه إلى الهجوم، وذلك إلى أن ينسحبوا إلى مكان آمن. هذا هو -على الأقل- الخط الفاصل الذي يفترض وجوده بين المرتزقة والمتعاقدين الأمنيين. بيد أن أصحاب المشروعات التجارية التي تعمل في هذا القطاع مثل إريك برنس يدفعون باتجاه فتح أسواق جديدة لمنتجاتهم الأمنية، وسيطرأ نتيجة لذلك -وبحكم المؤكد- مزيد من الغموض على هذا الخط الفاصل المفترض الذي يعاني في الأصل من عدم الوضوح. بل إن بعض النقاد يجادلون بأن هذا الخط الفاصل غير موجود أصلاً.

لقد أمضيت أكثر شبابي أتتبع نشاطات المرتزقة والجنود الذين يعرضون خدماتهم مقابل أجر. وفي عام 1975، قمت بلصق ثلاث خرائط طرق للقارة الإفريقية على الحائط في شقتي السكنية لتتبع تقدم العقيد كالان وعصبته المنحوسة من المرتزقة في أنغولا. وفي أواخر تسعينيات القرن الماضي، كان لي أول لقاء مع شخص، كان من المرتزقة ثم أصبح متعاقداً أمنياً، هو كوبوس كلاسينس، الذي كان يعمل مع شركة النتائج التنفيذية. وما تعلمته من كوبوس هو أن الفرق بين المرتزقة والمتعهد الأمني يعتمد على الشخص نفسه لا على الوظيفة. ويكمن الرادع الأخلاقي الأسمى عند هؤلاء الأشخاص في نظرتهم هم

إلى أنفسهم، وليس في نظرة العالم إليهم. وحين التقيت بأولَ متعاقد أمنيٍّ، وقد كان يعمل ضمن مَهمة سرية تمولها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لتعقب ابن لادن في المناطق الحدودية لأفغانستان، أدركت أننا قد نكون على أعتاب تحوّل مفاجئ في أساليب الحرب الحديثة، أو ربما عودة إلى العهد البائد لأعمال القرصنة المرخصة من الدول، ومتعقبي الأشخاص المطلوبين للعدالة، للحصول على المكافأة المالية لمن يأتي بهم.

واستجابة للرغبة الملحة التي وجدتها في نفسي لتفهم هذه الظاهرة، عقدت العزم على شد الرحال وخوض غمار هذا العالم المغلق، من أحطّ مراتبه إلى أعلى قممه وأكثرها احتراماً. وفي الصفحات الآتية وصف لهذه الرحلة. وليس المقصد من هذا الكتاب أن يكون شاملاً لهذا الموضوع من كل أطرافه، فهو ليس مرجعاً أكاديمياً يعالج بالتفصيل الجوانب كلها المتعلقة بالقضايا التي يثيرها هذا التطور الجديد في الحرب. فعلى سبيل المثال، لم أتعرض لقضية التلاعب الذي يحدث في عملية طرح عطاءات الشركات الأمنية؛ لأن وسائل الإعلام قامت بعمل وافٍ لتغطية مثل هذه المخالفات. ومع ذلك، فقد تعلمت الكثير في رحلاتي -عن الرجال الذين اختاروا هذه المهنة، وعن العمل الذي عليهم أداؤه، وعن الأحداث التي كانت نقاط تحوّل في تاريخهم، والمشكلات الكبرى التي أفرزها نمو هذه الصناعة، والتنبؤات التي يمكن أن يقدمها كل ذلك عن المستقبل- وقد رأيت أن من الأهمية بمكان أن أضعَ هذه التجربة والخبرةَ التي اكتسبتها في متناول القارئ المهتم. ولست أحاول، في الصفحات الآتية، أن أقولَ للقارئ: كيف يفكر؛ بل أدعوه إلى مرافقتي في هذه الرحلة ليشاهدَ منظومة عريضة من الشخصيات ووقائع الأحداث. ومقصدي الوحيد هو أن أرشد القارئ إلى فهم جديد حول إمكان استغلال هؤلاء الأفراد وتلك الشركات في المستقبل بوصفها قوة للخير أو للشر.

المقدمة

السير بشدّة

«يوم جديد، ومَهمة جديدة»

- افتتاحية ملخص التعليمات المقدمة لأفراد فريق المهبة التابع لشركة بلاك ووتر

كان الذباب المنتشر في المطار مثيراً للسخط. صَرَخَ غرِيز بصوت مرتفع «تباً! اللعنة!»، وكان يزداد حنقاً في كل مرة يخفق فيها في الإمساك بواحدة منه. وثمة سبب آخر لسخط غريـز وهـو أنه قبل مـدة من الزمن حلق رأســه وحتى الآن لم تظهر أي بـادرة لعودة نمو شعـره. وكان زميلـه مياغـي يطلب منـه أن يُهَدِّئ من رَوعـه. اكتسب غريز هـذا اللقب[1] نسبـة إلى الـدب الأشيب الذي يعيش في منطقة شمال غربي الساحـل المحاذي للمحيط الهـادئ مـن القارة الأمريكيـة التي ينحدر منها غريـز. ولقد خدم غريـز في السابق في قـوات المارينز، ولكنه يفتقر إلى مهارة اصطياد الذبـاب الذي يحاول اقتحام فمه وأنفه. وفي خطوة غير عادية في التعبير عن تقديره للشركة التي يعمل فيها، قام غريز بدق وَشْم كبـير خلـف عضلة ساعده المفتولة يمثـل شعار شركة بلاك ووتـر - المكون من براثن دبٍّ بـارزة داخل دائـرة تمثل هدفَ قنّاصـة، ويحاكي هذا الشعار الـدب الأسود الذي يجوب المنطقـة الممتدة على مدى 24 كيلو متراً مربعاً في منطقة المستنقعات الموحشة العظمى في السهول الساحلية في جنوب شرق ولاية فيرجينيا وشمال شرقي كارولينا الشمالية. وكثيراً مـا يظهر هذا الشعـار في الأماكن التي يتوقع أن يُشاهَد فيها العَلَم الأمريكي على الرجال المسلحين والعربات المصفحة في العراق.

وصـل فريـق الحراسـة الشخصية التابـع لشركة بلاك ووتـر المؤلف مـن اثني عشر شخصـاً إلى مطار بغـداد الدولي لمرافقة فـوج جديد من زملائهـم العاملين في الشركة

1- غريز هي اختصار لكلمة غرزلي التي تعني بالإنجليزية الأشيب.

قـادم من عمّـان ليحلّوا محل زملائهـم في عملية تبديل روتينية. ومـع اقتصار الرحلات الجويـة القادمة على اثنتـين فقط، فإن المطـارَ الضخمَ ذا التصميم المعمـاري الأوروبي الجديـد تطغى عليه أجواء الهـدوء المخيف لواجهة مسرح مهجـور لتصوير الأفلام، فهو واحة معزولة خارج حدود واقع العنف في بغداد.

وانتظـار قـدوم الطائرة ينبـئ عن شعور أشبهَ مـا يكون باستراحـة قصيرة جداً من الأمـن بين رحلة الذهاب والإياب المحفوفـة بالمخاطر الشديدة من المنطقة الخضراء إلى المطار، والعودة على طريق المطار الذي أصبح يشتهر باسم جديد هو «الدرب الآيرلندي»[1] أو «درب العبـوات الناسفة». كان التوتر شديداً في هـذا اليوم بالذات؛ إذ أعلن في الموجز الصباحي أنه وقع في غضون الثماني والأربعين ساعة الماضية ستةَ عشرَ هجوماً على طول الطريـق الممتد أربعـة أميال. ويسلك الفريق التابع لشركة بـلاك ووتر الذي يعرف باسم فريـق الممبة[2] هـذا الطريق كل يوم ذهاباً وإيابـاً، يضطر فيها إلى السـير بسرعة وشدة علـى الطريق تفادياً لنيران الرشاشـات أو الألغام الأرضية التي تضعها المقاومة العراقية مستهدفة بها قوافلَ الجنود الأمريكيين.

ولا يخالـط أعضاء فريق الممبة فـرق الحراسة الأمنية الأخرى التي تتمركز في موقف السيـارات القريب مـن المطار؛ إذ يُعدّ التساهل في التركيز من بوادر الشؤم، كما أنه ليس من اللائق التوددُ إلى الشركات الأمنية الأخرى. وقد جرت عادة فريق الممبة التابع لبلاك ووتـر تحقير الشركات الأمنية الأخـرى -تربل كانوبي، وإم في إم (M.V.M)، و يو إس آي إسـ (U.S.I.S)، ودينكورب- كما يفعل أعضاء فريق كرة القدم حين يسخرون من الفرق

1- اعتـاد جنـود الجيش الأمريكي المتمركـزون خارج بلادهـم أن يسمـوا المناطق والمعـالم الجديدة التي يشاهدونها بأسماء تعكس أسماء معالم مشابهة في بلادهم أو بأسماء فرق رياضية مشهورة كما سيتبين في ثنايـا هـذا الكتاب. وتسمية الدرب الآيرلندي جاءت مـن اسم فريق كرة القدم الأمريكية في جامعة نوتـردام الـذي كان يطلق عليه فريق المقاتلين الآيرلنديين. كما أطلقوا على طرق أخرى في بغداد أسماء فرق رياضية أخرى مشهورة. (موسوعة ويكيبيديا).

2- جـاءت هـذه التسميـة نسبـة إلى عربات الممبة البيضـاء المصفحة التـي تصنع في جنـوب إفريقية التي يستخدمهـا العاملـون في بلاك ووتر في تنقلاتهم. وكلمة ممبة في الأصـل تطلق على أفعى إفريقية ذات سم قاتل في اللغات الإفريقية المحلية.

المنافسة الأخرى. وكلهم يومئون برؤوسهم تعبيراً عن الاعتراف بوجود الطرف الآخر، وغالباً ما يجري ذلك بهمسة غير مسموعة من الشتيمة والتحقير، غير أن ذلك هو أبعد ما يمكن أن يصل إليه التخاطب بينهم.

يبقى تي بوي وحدَه بعيداً محتفظاً بمسافة بينه وبين الأشياء التي من حوله، وهي خطوة يطلق عليها هو «تحديد النطاق»، مركزاً على المخاطر التي تحيط برحلة العودة إلى المنطقة الخضراء. ويبدو أن تي بوي يتبنى أسلوباً يعكس النظرة العامة للموت: خوذة سوداء، وقميصاً أسود، وقناعاً أسودَ، ونظارات شمسية سوداء، إضافة إلى جمجمة كبيرة وعظمتين تحتها على شكل إشارة X مطبوعة على ظهر سترته الواقية من الرصاص، ورسماً مشابهاً آخر على خوذته الواقية من الرصاص من نوع كيفلر. وكل هذه التجهيزات تغطي وُشُومَ[1] الجمجمة الموجودة على جسمه. ويتقدم تي بوي المجموعة مسلحاً برشاش بي كي إم (P.K.M) وعليه أن يبقى متيقظاً؛ لأن المقاومة العراقية قد بدأت في توظيف تكتيك جديد يقوم على تجاوز القافلة ثم الإبطاء فجأة لضرب القافلة العسكرية من المقدمة. ويرفض أن يضع سلاحه إلا بعد العودة إلى مقر الفريق.

أما باز، وهو جندي سابق في القوات الخاصة النيوزلندية (كيوي ساس)، فقد توجه هو وغيكو إلى السوق الحرة في المطار لشراء بعض المشروبات الغازية، في حين جلس كل من 86[2] وبغدادي، وكريتر والبقية يتحدثون. ينحدر 86 ذو الشعر الأشقر المنفوش من ولاية ميسيسيبي، وهو جندي سابق في قوات المارينز، وله سواعد مفتولة محاطة بوشوم قبلية سوداء، ويحب لبس قبعة متسخة بالية ونظارات طيران شمسية كبيرة من طراز ري بان.

1- جمع وشْم، وهو ما يدق على الجلد من رسوم وصور وأشكال.

2- يستخدم هذا الرقم ملفوظاً بصيغة فعل ويتصرف بتصريف الأفعال للدلالة على معنيين هما الطرد والإبعاد، وكذلك رفض تقديم الخدمة. أما كيف أصبح هذا الرقم يحمل هذه الدلالة اللغوية، فأقرب التفسيرات ترده إلى عنوان مطعم وبار يدعى تشوملي، ويقع على 86 بدفورك ستريت، في مدينة غرينويتش فيليج في ولاية نيويورك. ومن البَدِهي أن هذا المطعم كان يرفض تقديم خدماته لفئة معينة من الناس هم السود، علماً بأن هذا الاستخدام دخل القاموس الإنجليزي عام 1959، وهي مدة كان التمييز العنصري في الولايات المتحدة ضد السود يمارس في العلن، ويرد بعضهم هذا الاستخدام إلى سجع هذه الكلمة مع كلمة نكس (nix) التي تعني الرفض، والتفسير الأول أرجح للاعتبارات التاريخية. والله أعلم.

ولقد حصل على هذا اللقب 86 لأنه طرد من المفرزة الأمنية التابعة لوزارة الخارجية بعد أن دققوا في سجله وسحبوا منه التصاريح الأمنية التي أعطيت له، وهذا اللقب هو نكتة قديمة، ونظراً إلى كونه الشخصَ الوحيدَ المنحدرَ من الوسط الأمريكي في الفريق، فإن 86 لا يعدم تهكم زملائه في الفريق من حين لآخر.

ويبقى خوان، ذو الأصل المكسيكي، والشعر الداكن، والابتسامة العريضة التي لا تفارق وجهه، وهو من مدينة إلباسو، يبقى على مقربة من العناصر التشيلية في الفريق، يتحدثون ويتبادلون النكات باللغة الإسبانية. وهؤلاء التشيليون هم جنود سابقون من عهد الطاغية بينوتشيه، التحقوا ببلاك ووتر بوصفهم مواطني دولة ثالثة عن طريق غروبو تاكتيكو. ويتقاضى الواحد منهم 2.400 دولار في الشهر للقيام بأعمال «ثابتة» - أغلبها حماية مقر بلاك ووتر في المنطقة الخضراء، ويجري أحياناً الاستعانة بالضباط السابقين المتميزين ممن هم في أواخر الثلاثين وبداية الأربعين من أعمارهم للقيام بدوريات الممبة حين يكون هناك نقص في عدد الرجال، أو حين يشعرون بالضجر.

أما توول، ذو الشعر الأحمر، الجندي السابق في المارينز، الخبير بإصلاح السيارات والآلات، فيستغل أوقات الانتظار في تفحص سيارات الممبة للتيقن من خلوّها من الأعطال الفنية. وعربات الممبة هي من صنع جنوب إفريقية، مصممة لتحمّل انفجار الألغام وتقديم حماية من نيران القناصة - وتتفوق على العربة التي تصنعها شركة جي إم سي (G.M.C) من نوع سوبربان أو سيارة بي إم دبليو (B.M.W) المصفحة من الفئة السابعة. أما مساوئها فأولها بطء حركتها، وثقل وزنها، وتبدو قافلتها وكأنها موكب من فيلة سيرك بيضاء تمشي بخُطا متثاقلة وعلى ظهرها رجال يلبسون الخوذات الفولاذية، وتظهر أسلحتهم من فتحاتها العلوية الخمس، ولكنها ليست بالسبّاحات المتوارية عن الأنظار في بحر يعج بأسماك القرش.

يتولى مياغي، الذي حصل على هذا اللقب الذي يخاطب به عبر أجهزة اللاسلكي، لأنه يشبه بات موريشا الذي يمثل في أفلام طفل الكراتيه؛ ولحاجته إلى استخدام نظارات ثخينة للقراءة، عند قيادة القافلة إلى المقدمة. وهو شرطي سابق كان يعمل في القسم الذي تكثر فيه الجريمة من مدينة لوس أنجلوس، وهو يتحدث بلهجة مكسيكية

هادئـة. ويلبس وشاحاً خمرياً أرسلته إليه زوجه لجلب الحظ، وهو قصير القامة، يختلط السـواد والبياض في لحيته، وتتدلى أسلحته وعتاده عن كتفه، وتبدو عليه ملامح الارتياح التي نلحظها عادة في العاملين في الشركات الأمنية الخاصة. وهذا الفريق بمجموعه يبدو وكأنـه مجموعة من الممثلين الذين يمثلون فيلماً زهيد الميزانية عن المرتزقة. يقول مياغي واصفـاً المظهر الذي يسعى المتعهـدون الأمنيّون إلى تحقيقه: أخـي، إننا نسميها سي دي آي - الفتيـات يعشقنها. وحين ندخل المطـار وننظر إلى أنفسنا عبر مرايا النوافذ، نهتف جميعاً قائلين: «هيه، يا رفاق، سي دي آي». وضحك أعضاء الفريق.

ويتابع مياغي قوله، «ونستخدم كذلك عبارة أنت حاذق رائع»

فيرد عليه غريز مؤشراً بإصبعه إشارة مبالغاً فيها، «لا، بل أنت الحاذق الرائع!»

ثـم يرد مياغي مجيباً: «لا لا، بـل أنت الحاذق الرائع!» وضحك الآخرون. فهم يعلمون أن مياغـي يحـاول استثـارة الشخص الجديد بهـذه الكليشيه التي تقـول: إن المتعاقدين الأمنيين هم من رعاة البقر المغرورين.

عاد غيكو، وهو شاب، مربوع الجسم، حليق الرأس، عمل في السابق في قوات المارينز، حامـلاً بيديـه شراباً وطعاماً غنياً بالسعرات، فقيراً بالقيمـة الغذائية اشتراه من السوق الحرة في المطار. وأخذ يترحم على الأيام التي كانوا يجوبون فيها المطار دون الحاجة إلى نزع أسلحتهم وعتادهم، وقال متذمراً وهو يخرج علب الكوكا كولا وقطع الشوكلاتة: «أما الآن فعليك أن تنزع كل أسلحتك لدخول السوق الحرة».

استمر غريز في محاولاته طرد الذباب العراقي محاولاً بكل جهده منع دخوله إلى علبة الكوكاكولا. ونصحه مياغي ثانية بأن يهدئ من رَوعه، غير أن ترنيمة «تباًا تباًا تباًا» كانت أسـاس بقية الحديـث؛ لأن تلك الحشرات كانت تحسن الانفلات مـن قبضته الساخطة. والذبـاب هنا هو كعناصر المقاومة، منتشر في كل مـكان، مثابر، وجزء من الحياة والموت - شيء إضافي آخر لجعل الأمور أكثر تعاسة وبؤساً في صندوق الرمال.

وصلـت الطائـرة أخيراً. ونزل ركاب الطائـرة، وكان جلّهم عراقيـين يلبسون ملابس أنيقـة، ويسحبـون خلفهم حقائب جديـدة ذات عجلات. وذهب العراقيـون مع السائقين

المحليين، في حين تهيأ أفراد الحرس الشخصي التابعين للشركات الأمنية الخاصة لاستقبال الأجانب الغربيين، ثم صحبوهم إلى سيارات غير مرخصة من طراز بي إم دبليو و جي إم سي. وجرى إعداد خوذات، ودروع، وبنادق رشاشة من نوع إم 4 مع مخازن إضافية من الذخيرة لأعضاء الفريق الجدد الذين سيحلون محل الفريق القديم الذي جاء لاستقبالهم. وتميّز اللقاء بكثرة الترحاب، والعناق، ومقارعة البراجم، والربت على الأكتاف. وتلقوا جميعهم تعليمات سريعة من مياغي وهم يستقلون العربات المصفحة. حمل الجميع أسلحتهم، وعُبّئت الذخيرة، وجُهّزت للاستعمال. وحان وقت الانطلاق، غير أن فريق المبة تأخر عمدًا. فعناصر المقاومة التي تراقب طريق المطار لديها ساعة من الوقت لتجهيز قواتها لتنفيذ هجوم على الطريق في أثناء عودتنا؛ لذلك سندع الجماعات الأخرى تنطلق أولاً لتتلقى الضربة المتوقعة على طريق العودة إلى المنطقة الخضراء. ويرى الفريق أن لبسي الدرع الواقية من الرصاص والخوذة وحملي آلة التصوير بدلاً من البندقية شيئاً مثيرًا للضحك. وذكّروني بأن المقاومة، لو سنحت لها الفرصة، لن تتوانى لحظة في قتل كل فرد داخل العربة، وكل عربة في القافلة.

انطلقنا من مبنى المطار في تمام الساعة 2:30 لنبدأ رحلتنا باتجاه الجنوب في الطريق الذي يلتف حول المطار إلى البوابة الرئيسة. فنحن هنا «خضر» أي «في أمان». وسنتحول إلى «الأحمر» بعد مغادرة آخر نقطة للتفتيش في المطار لندخل في منطقة الخطر.

وفي الساعة 2.35 لوّحنا بأيدينا تحية لجنود الغورخا النيباليين العاملين في الجيش البريطاني، الذين يتولون حراسة بوابة المطار، وأبرزنا لهم علامة الإمدادات العسكرية، وخرجنا من منطقة الأمان النسبي في المطار. وعلى مخرج طريق المطار، ظهرت أمامنا لوحة تذكرنا بأن «كل الأسلحة حمراء»، وتعني أن التحذير قائم وأن الأمان غير مضمون. لا مجال للمزاح، وأعلن مياغي عبر اللاسلكي، «ليأخذ كل فرد مكانه»، وأطلق السائقون العنان للعربات، فانطلقت عربات المبة عبر البوابات المفتوحة كأنها ثيران اندفعت من حظيرة سباق الرديو لرعاة البقر، وظهر في الأفق أمامنا امتداد فسيح لأشجار نخيل محترقة ومقزّمة، ضحية انفجارات سابقة، وتضيف اللوحة الكبيرة المتفائلة للانتخابات العراقية سخرية مروّعة على الخطر الذي يحيط باجتيازنا الوشيك لهذه المنطقة. وفي

الجانب المقابل هناك طريق فرعي رافد مزدحم على بعد 46 متراً تقريباً باتجاه مواز لنا، وفي المنطقة المتوسطة بيننا أرض بلاقع فيها هياكل سيارات بي إم دبليو متفحمة وآثار حرائق. ومع لحظة دخولنا منطقة الخطر، أصبحت المدخلات مركزة ومضغوطة؛ تتجلى الأحداث للعيان في حركة بطيئة، وتأخذ الأوامر المرسلة عبر جهاز اللاسلكي والردود القادمة منه صورة مختصرة. ونحن مانزال في حالة تسارع على الطريق، ولا توجد حركة للسيارات في الشارع الرئيس، «الطريق مُهَيَّأ».

الساعة الآن تمام 2:37، ونحن نوشك على الاقتراب من أول جسر أمامنا، ويسمى جسر «ج» أي «جهاد». بثَّ جهاز اللاسلكي العبارة الآتية: «تذكروا الموجز الذي صدر هذا الصباح. قالوا لنا: احذروا المتفجرات التي توضع تحت الجسور». أنعم الرجال النظر حولهم بحثاً عن القناصة، أو القذائف المتفجرة، أو العراقيين الذين يلقون القنابل اليدوية. «تمام!» ثم جاءت لحظة دخولنا الطريق السريع. حيث تتدفق السيارات ويزدحم السير على طريق المطار، وهي نقطة ساخنة سيئة السمعة، حيث يندس الذين يقومون بعمليات التفجير وسط الازدحام المروري ليفجروا أنفسهم.

صاح مياغي بالعربية: «امشِ!»، ملوحاً بقبضة يده خارج النافذة عدة مرات. تجاهل سائق السيارة إشاراته. فانطلق وابل من الرصاص من البندقية الرشاشة على الشارع بمحاذاة السيارة. وحين تجاوزنا سيارته، كان الرجل وأسرته ينظرون إلينا وقد أخذ الذهول والخوف منهم كل مأخذ. كانت رائحة البارود الحادة تروح وتجيء. وأمامنا الآن مخرج آخر وجسر آخر. أخرج جميع الواقفين في أبراج العربات المصفحة أسلحتهم وصوبوها تجاه الجسر في حركة متناغمة عجيبة كتناغم حركات راقصات الباليه: «كل شيء على ما يرام. الطريق سالك!».

ثم بث جهاز اللاسلكي ثانية: «السيارات تتباطأ أمامنا!»، وأصبحنا على مشارف جسر آخر: «أمِّن الجسر!» فبرزت الأسلحة من أبراج العربات ووجهت نحو الجسر، ثم عدنا إلى حركة السير في تناغم كامل، وبدأت الحواجز البرتقالية تظهر في وسط الشارع. هل يحتمل وجود ألغام أرضية؟ أمعن المتعاقدون النظر في المكان بحثاً عن أشياء غير عادية. الساعة الآن 2:39. مزيد من السيارات متوجهة نحو الطريق السريع، لكن عربة المهمة

التـي في المؤخرة كانت تبقـي عليها بعيداً عن القافلة أو تجبرهـا على التوقف على جانب الطريـق. ثـم انبعثت نفحة من رائحة البارود. لا بـد أن يكون تي- بوي قد أطلق النار من رشاش بي كي إم مرة أخرى.

ثم صاح 86 عبر جهاز اللاسلكي «اللعنة! ما هذا؟». نظرنا إلى الأمام فرأينا مجموعة مـن النسـاء المتلفعات بالعبـاءات السوداء يقطعـن الطريق السريـع إلى الجهة الأخرى. صويـت البنـادق جميعها إلى الأمـام. هلعت النسوة مـن مشهد ثلاث عربـات مصفحة ثقيلة بيضاء محملة بالرجال المدججين بالسلاح متجهة نحوهن، ففررن وهن مذعورات. إنـذار كاذب. هل كان كذلك حقاً؟ لقد دأبت المقاومة على استخدام حيل لإرباك القوافل الأمنية، وحملها على تخفيف سرعتها أو التوقف لمهاجمتها.

ثم صاح غيكو محذراً من السيارات القادمة كما يحذر الظهير الخلفي بقية اللاعبين في لعبة كرة القدم الأمريكية: «سيارات مسرعة قادمة باتجاهنا، دقق في الركاب. سيارة قادمة نحونا... أربعة أشخاص في سيارة أجرة». ثم استخدم توول مرآة السيارة لمعرفة إن كان هنـاك سيارات مسرعة قادمة من الخلف. وعبرنا نصب صدام حسين. الساعة الآن 2:40. دخلنا إلى منطقة الموت. تظهر الرسوم البيانية الملونة باللون الأخضر، والبرتقالي، والأحمر الصادرة عن أجهزة الاستخبارات أن أكثر أعمال القتل تحدث في هذه المنطقة. اختلفـت نبرة الصوت عبر أجهزة الاتصال اللاسلكي. «انتبه!» أمامنا مخرج آخر. كانت الرؤيـة محجوبة بالأشجار القصيرة المقزمة المتسخـة، وشعرت برصاصة تمر من جانب رأسـي. لا أثـر لوجود قناصـة في المنطقة. انصـب التركيز على الطريـق. لزمنا الجانب الأيمـن من الشارع الذي يوصلنا إلى البوابة رقم 12، ومنها إلى المنطقة الخضراء الآمنة نسبيـاً. وعلى يسارنـا، كانت النيران لا تزال تحترق في الهيكل الملتوي لسيارة مفخخة. لم يكن لدينا وقت للتوقف.

وشعرنا بضغط في الهواء تبعه صوت انفجار قوي سمع من الخلف، تبعه اندفاع موجة من دخان رمادي اللون إلى السماء على شكل نبتة الفطر معلنة عن إرسال عراقي آخر إلى جنة الله على متن سيارة يابانية رخيصة. لقد فاتتنا هذه السيارة المفخخة بخمس دقائق.

عـاد التركيز على الطريق الأمامي. سيـاج عال على جانبي الطريق. وظهر الارتباك على تي- بوي. كومة من القمامة غير ظاهرة المعالم على جانب الطريق. هل هي عبوة ناسفة؟ تابعنا المسير. إنها مخلفات انفجار وقع بالأمس.

الوقت الآن 2:41. «مرت من فوقنا الطائرات المروحية الصغيرة التي تشبه دمعة العين وهـي تطـير على ارتفاع منخفض جـداً في حركة متناغمة متتابعة كأنهـا تؤدي عرضاً في مهرجـان بهلواني جنـوني. وكان باستطاعتي رؤية الطيار ستيـف، ومعه اثنان من الرماة يحمـلان بنادقهما الآلية. إنهم ملائكة الحراسة التابعة لبلاك ووتر، انطلقوا لكي يوفروا حماية جوية لفريق المهبة دون أن يكلفهم أحد بذلك.

وصلنا إلى البوابة 12 المؤدية إلى المنطقة الخضراء، ولم ندخل بعد المنطقة الخضراء، فأمامنـا سائق سيارة داس على فرامل سيارته، وانطلقـت سيارة أخرى باتجاهنا. صاح غيكـو «انتبه! راقـب هؤلاء!» هل السائـق مرتبك؟ هل يلبس ثياباً بيضـاء؟ هل هو حليق؟ لا، بـل هـو سائق سيارة نقل بالأجـرة يحاول الالتفاف حول الأزمـة المرورية عند البوابة. ثـم خرجنا من فـوق جسر المخرج. الساعة الآن 2:42. بـدأت المباني السكنية تظهر على يميننا ويسارنا، ورأينا شباناً من قوات المارينز يجلسون على الحواجز الإسمنتية، فلوحوا بأيديهـم أن اعبروا. لسنا في أمان بعد. صاح جـوان بجنود المارينز قائلاً لهم: إنه شاهد عراقيين يحشون رزمة ما في أنبوب معدني قبل أن نصل بوقت قليل.

تقدمنـا عبر مسار الأولوية ثم توقفنا. تنفسنا الصعداء، ووضعت الأسلحة في وضعية الأمان، وها نحن الآن في المنطقة الخضراء. إنها الآن 2:43 وقد فرغنا للتو من السير على أخطـر طريق في العالم مـدة ثماني دقائق. وحين ذهب توول لتفقـد العربات، شاهد آثار إصابـة الزجاج الأمامي في عربة المهبة التي كنـا فيها بعيار ناري. لا داعي للقلق. فسوف يفعلون ذلك غداً مرة أخرى. يوم جديد. مهمة جديدة.

القسم الأول

قتلة مستأجرون

الفصل الأول

اقتلهم جميعاً

«أنا هنا من أجل المال»

- الجنرال الأفغاني ضياء لودين مخاطباً وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية

«الحل هو أن تدعهم يقتل بعضهم بعضاً»، هذا ما قاله لي الرجل المسن المفعم بالحيوية والنشاط، الذي يقيم في ويندبريكر، في أثناء تناولنا طعام الإفطار المكوّن من عجّة الفيَستا المضاف إليها المزيد من فلفل الهلابينو الحرّيف في مطعم فلوريدة وافل هاوس. ثم أشار بيده إلى الأعلى وأضاف، «أرسل الأقمار الصناعية والتقط الصور. وأبق على فرق العمليات الخاصة في الجبال، على بعد خمسين ميلاً من المدن، ثم تسلل في الليل ونفذ المهمة، اقتلهم؛ وليكن القتل على غرار ما فعلنا في ألمانية. امح المكان عن وجه الأرض، ولا يكن في نفسك حرج من قتل الأبرياء؛ حتى النساء والأطفال منهم».

هذه هي كلمات بيلي واه الذي يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، أسطورة القوات الخاصة الأمريكية، صاحب الخبرة الطويلة في القوات شبه العسكرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، السفاح المشهور، قائد العمليات السرية، صاحب أطول خدمة في تعاقدات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية التي يطلق على الفرد فيها «الغرير الأخضر». وناقشنا في أثناء الفطور أحدث رحلة قمت بها إلى العراق بصحبة متعاقدين أمنيين، وشمل النقاش كذلك الوضع المربك والمهلك هناك. وقدم لي بيلي رأيه الصريح وغير الموارب المذكور آنفاً عن ما يجب فعله في العراق لوقف الخسائر البشرية في صفوف الجنود الأمريكيين. ولم تكن إشاراته إلى التكتيكات والحيل التي

استخدمت في ألمانية وغيرها من الحروب مستقاة من كتاب ما بل كانت نابعة من أحداث عاصرها في حياته.

وأفضل مؤشر على عمر بيلي يأتي من التاريخ الطويل والمناطق الواسعة التي يتحدث عنها بضمير المتكلم، فقد حاول بيلي واه أن يسجّل اسمه للالتحاق بالمقاتلين في نهاية الحرب العالمية الثانية ولكنه أعيد إلى بلده باستروب في ولاية تكساس؛ لأنه كان في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الوقت، واستطاع أخيراً أن يلتحق بالقوات شبه العسكرية عام 1947 حين بلغ السابعة عشرة؛ ثم انضم إلى القوات الخاصة عام 1954 التي لم يكن مضى على تأسيسها سوى عامين؛ وعمل على نحو متقطع في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بدءاً من عام 1961، مستمتعاً بمهنته المديدة في القتل والجاسوسية. ويحمل واه أوسمة بوصفه من قدامى محاربي الحرب الكورية، وخدم أيضاً مدة سبعة وعشرين شهراً في العمليات العسكرية جنوب شرقي آسية إبّان الحرب الفيتنامية، وخدم 11 سنة في القوات الخاصة، وشارك في عدد لم يحدد بعد من عمليات السي آي إي (C.I.A) بصفة موظف في الوكالة وهؤلاء يطلق على الواحد منهم وصف (غرير أزرق) أو بصفة متعاقد (غرير أخضر). ويعرف خلقاً كثيراً، وزار أماكن كثيرة- فيتنام، والبوسنة والهرسك، والسودان، وكوسوفو، والعراق، واليمن، وليبية، وأفغانستان، وعشرات من الدول الأخرى. وفي أثناء عمله في وكالة لاستخبارات المركزية بصفة موظف أو متعاقد، عمل بيلي في ست وأربعين دولة منذ عام 1989.

ويفتخر بيلي بعمله مع الوكالة، ولم يكتف بتأليف كتاب عنوانه مطاردة ابن آوى[1]، بل يسافر من ولاية إلى أخرى لإلقاء دروس ومحاضرات أمام طلبة الدراسات العليا، وجمعيات القوات الخاصة، وحتى فرق كرة القدم الأمريكية. وقد قطعت سيارته الجديدة من طراز لينكن تاون التي اشتراها قبل ثلاثة أشهر أكثر من 35 ألف كيلومتر، جاء أكثرها من التنقل بين ولاية فلوريدة والعاصمة واشنطن. يقول بلي معترفاً بأنه «لم يعد يقدر على السفر بالطائرة». وليس ذلك لأنه يخشى حوادث الطيران؛ بل لأنه

1- ابن آوى في الأصل دويبة من فصيلة الكلاب أصغر حجماً من الذئب، ولا يفصل آوى من ابن، وجمعه بنات آوى للذكر والأنثى ويجوز جمعه على بنو آوى، وبالإنجليزية (jackal) ويطلق هذا الوصف على أي شخص يتولى القيام بأعمال حقيرة لمصلحة شخص آخر أو يساعده على تنفيذها.

يحمل معه الكثير من السلاح. واعتاد تذكير جمهور المستمعين لخطبه التحفيزية بالقول: «إن جوهر القضية هو كيف ترتقي بسرعة وتبقى مستمراً في الارتقاء. كيف تكون ذا بأس شديد». ومن العجيب أن بيلي لا يزال على قيد الحياة بالنظر إلى عمره والتجارب التي مرّ بها. وفي لوحة ترخيص سيارته الأمامية المصممة بحسب طلبه بعض مفاتيح هذا اللغز. فعلى حين كُتب على اللوحة الخلفية عبارة: «جريح حرب من قدامى المحاربين»، توضح اللوحة الأمامية الجملة بعبارة مبسطة: «8 إصابات»، وإلى جانبها رسم لوسام القلب البنفسجي[1].

وأظن أن النادلة التي كانت تقوم بخدمتنا في مطعم الوافل هاوس حسبت هذا الرجل القصير المكتنز ذا الشعر الخفيف والنظارات الثخينة جدّاً مجرد جدّ ناهض الهمة. وليس في معطفه الأسود من نوع «للأعضاء فقط»، وقميص الغولف، وبنطاله العادي ما يثير أي فضول لديها، إلا إذا لاحظت شعار الجمجمة المتجهمة، وهي شعار القوات الأمريكية الخاصة على معطفه. ويمكن القول: إن ثقافة بيلي وسلوكه متأصلة في القوات الخاصة الأمريكية. فهو يلبس خاتمين كبيرين من الجيش، وقلادة تحمل شعار القوات الخاصة في عقد ذهبي، إضافة إلى ساعة ذهبية من طراز رولكس ديماستر مرصعة بالماس- وهذه الحلي ليست من قبيل الزينة بقدر ما هي علامات مميزة وشعارات شائعة لدى المنتسبين السابقين للقوات الخاصة. كما أن بيلي واه من مواطني ولاية تكساس، وهو مشهور بصراحته، ولا يطيق الحمقى. وعلى الرغم من تقدم عمره وعرجته -بسبب جروح أصابته في معارك قديمة- فإنه برشاقة جسمانية وعقلية كالتي يتمتع بها شاب في الحادية والعشرين من العمر. ويأتي حديثه مندفعاً متقطعاً كرشقات البندقية الآلية، مبتدئاً حديثه بوابل من الأسئلة، ومنهياً كلامه بعدد قليل من آرائه الشخصية.

التقيت بيلي أول مرة عبر الهاتف، وبدأ من فوره بطرح وابل من الأسئلة في أثناء حديثه. وجاءت تلك الأسئلة كالقصف الأولي لمدفعية الهاون، الهدف منها إرباك الطرف المقابل، أو تحديد موقعه بدقة. وحتى في المقابلة الشخصية، ينزع بيلي إلى تحديد موقف

1- واحد من النياشين التي يمنحها الجيش الأمريكي للأشخاص الذي يقومون بأعمال جسورة في أثناء الخدمة، ولا سيما الذين يصابون في أثناء العمليات القتالية.

الطـرف المقابل له على المنضدة، هل هو: عـدو أم صديق. فإن جاءت الأسماء والإجابات علـى وفق تفكيره، أصبحت صديقــه، وأما إن كانت غير ذلــك، فعندها يتوقف الحديث، وتنتهـي المقابلة عند ذلك الحد. والتنبيــه الوحيد الذي يوجهه إلى محبي الاستطلاع هو، «لا تتوقع مني أن أكشف لك عن أي معلومات سرية، أو أن أسيء إلى سمعة الوكالة».

ويتحدث بيلي عن القتل بالطريقة نفسها التي يتحدث بها الناس عن لعبة الغولف. فالقتل هـو عمله، ومهنته، والشـيء الذي يعرف ويتقن، وهو شيء دربته عليه الحكومة الأمريكية، وقدمـت له المال للقيام بــه منذ زمن بعيد. وليس الهدف من الأوصــاف التي يقدمها بيلي عن القتل والموت إثارة إعجاب السامعين؛ بل لإثبات الفرق بين الأخيار والأشرار من الناس في ذهــن السامع. ويجب أن يُعــذر بيلي على فجاجته هذه. وهو يسعــى دائمًا إلى مخالطة الجنــود الذين يفقهون ذلك. وهو في نظر مجتمع القوات الخاصة بطل أسطوري حيّ، كما أن الطريقة التي يتحدث بها عن نفسه مستخدماً ضمير الغائب، ومتلفظاً بمقاطع مشددة حين يلفظ اسمه -«بيلي واه»- تضفي عليه هالة من التفرد والشهرة.

ويصف بيلي واه نفسه في كتاب مطاردة ابن آوى، الذي ضمنه سيرة حياته، بأنه شخص لا يحسن العيش إلا في جو المعركة، شخص لا يمضي كثيراً من الوقت في القلق، والشكوى، أو تأمـل ما يفعـل. وقد أقدم بيلي على قتل عدد كبير من الناس، وواجه عدداً آخر حاولوا قتله، وكان من الموت المحقق قاب قوسين أو أدنى أكثر من مرة، وخسر كثيراً من أصدقائه. كمــا أنه اعتاد رائحة الموت، سواء عن طريــق استرجاعه جثث رفاقه البالية الذين قضوا في ساحــة المعركــة، أو عن طريق تحمله عبء دفن عشرات مــن أصدقائه المقربين. وعلى الرغـم من هــذا كله، وحتى في عمره المتقــدم، فإنه على استعداد تــام لأن يذهب إلى أي مــكان في العالم وتحــت أي ظرف من الظروف لقتل أعداء أمريكــة، أو لمساعدة الآخرين في قتلهــم، خدمة لبلده. غير أن عهده في قتــل أعداء أمريكة وتربصه بهم قد ولّى. وحتى في حــرب أمريكــة الجديدة على الإرهــاب التي رفعت شعار «حياً أو ميتــاً»، فإن بيلي يرى تغيــيراً في الطريقة التي يسمح فيهــا للشركات الأمنية الخاصة والقــوات شبه العسكرية أداء عملها.

ويذكر لي بيلي كيف تغيّرت تكتيكات القوات الخاصة منذ بداية حياته المهنية. وذكر أن «فكرة تطويق الجيش الفيتنامي الشمالي والالتحام معه في قتال وجهاً لوجه لم تكن تكتيكاً ذكياً، ولكنه كان التكتيك الوحيد الذي كنا نعرفه في الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي. أما التكتيك الجديد فيقوم على استخدام القوات الخاصة برفقة بعض الوكالات الحكومية الأخرى، وعلى عدم السماح لحلفائنا من العملاء المحليين بالالتحام مع العدو. وهذا التكتيك الجديد هو أن نخوض حرباً من النوع الذي يجري فيها القتال (من بعد) في أكثر الحالات. وعادة ما تكون المسافة الفاصلة المفضلة للاشتباك مع العدو ما بين أربعة إلى خمسة كيلومترات». والهدف من وراء الطريقة التي تتبعها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والقوات الخاصة هذه الأيام من تدريب الجيوش التي تقاتل بالإنابة عن الولايات المتحدة هو إيجاد علاقة تكون فيها الولايات المتحدة بمنأى عن أطراف النزاع. ويوضح بيلي أن الترخيص بالقتل عهد به إلى أطراف أخرى تجنباً لتحمل أي مسؤولية مباشرة عن أفعالهم. «إننا لا نضغط على الزناد ولكننا يقيناً نقدم لهم البندقية، والرصاص، ونريهم الهدف، ونعلمهم كيف يضغطون على الزناد، وهذا ما لم يكن بهذه الطريقة في السابق». ونظراً لخبرته المهنية الطويلة في العمليات السرية، فإنه لا أحد أدرى بالطريقة التي كانت تجري فيها العمليات مثل بيلي.

كان هدف القوات الخاصة منذ تأسيسها عام 1952، هو العمل من داخل العمق الجغرافي للعدو وراء خطوط المواجهة، وتدريب قوات المقاومة، والعمل على أنها قوة مضاعِفة. وكان يتم انتقاء عناصر القوات الخاصة من بين أفضل وحدات المظليين، وأكثرهم ضراوة، من ذوي التفكير المستقل، والذكاء الحاد، والأخلاق الرفيعة إنهم رجال يمكنهم تنفيذ الأوامر التي توجه إليهم ولكنهم يملكون القدرة على التفكير في أنفسهم في الظروف الحالكة في بيئة معادية. وكان أوائل المنتسبين إلى القوات الخاصة كلهم يتمتعون بمهارات لغوية أجنبية، وكانوا على الأقل برتبة رقيب، ولديهم استعداد للعمل داخل عمق العدو بلباس مدني. ونظراً للطبيعة السرّية للقوات الخاصة وارتباطها بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، فإن أكثر الناس كانوا يجهلون وجودها حتى

بداية الستينيات من القرن الماضي، حين أصبح الرئيس كيندي داعماً متحمساً لها وأوعز بتوسيع دورها توسيعاً كبيراً في النزاع الفيتنامي الذي بدأ يشهد تصاعداً في حدته. وكان الدور الأولي لهذه القوات دوراً استشارياً ثم تحوّل إلى قوات عاملة في مسرح المعركة. وأبقي على علاقة هذه القوات بوكالة الاستخبارات المركزية في الخفاء.

ولدى وكالة الاستخبارات المركزية فرق شبه عسكرية خاصة بها، بعضها يعمل ضمن علاقة تعاقدية، وبعضها الآخر منتدب من الجيش. وسألت بيلي عن الفرق بين الاثنتين.

فرد علي بفرك إبهامه وسبّابته. «المال، وكالة الاستخبارات المركزية لديها المال، الكثير من المال. وكنا نحن [القوات الخاصة] نؤدي الجهد البدني».

لم يكن مفهوم القوات الخاصة بالمفهوم الجديد، غير أن أمريكة كانت تواجه نمطاً غير معهود من الحرب في منطقة جنوب شرق آسية - مقاومة شيوعية لم يكن لديها جيش نظامي كبير في ساحة المعركة؛ بل كانت ترسل عملاءها بملابس مدنية لتجنيد، وتدريب، وتزويد رجال المقاومة بالسلاح. وما فعلته وكالة الاستخبارات المركزية والقوات الخاصة في جنوب شرق آسية كان على وَفق النموذج الذي اتبعه مكتب الخدمات الإستراتيجية1 في فرنسة المحتلة مع الجدبورا الذين كانوا مكلفين بمهمة سرية تتطلب التوغل في مناطق العدو لتنسيق عمليات جهود الإمداد وتوفير الاتصالات. وقد شهدت جهود تدريبات وعمليات القوات الخاصة توسعاً نوعياً كبيراً، من التكتيكات البسيطة التي كان يتولاها الجدبورا في الحرب العالمية الثانية.

انضم بيلي إلى القوات الخاصة في منتصف الخمسينيات، وبدأ العمل في مهمات سرية لحساب وكالة الاستخبارات المركزية مع بداية عام 1961. وفي ذلك الوقت، لم يكن بيلي يعد نفسه شخصاً يقوم بعمليات سرية، مع أنه كُلّف عام 1965 بتشكيل فريق مهمات خاصة، وإنشاء قاعدة عمليات تنطلق من القسم الشمالي الشرقي من مقاطعة بنه دنه في فيتنام الجنوبية. وكانت مهمة بيلي هي تجنيد وتدريب جيش من المرتزقة

1- مكتب الخدمات الإستراتيجية واختصارًا بالإنجليزية (OSS) وهو سلف وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. أنشئ عام 1942 واستمر عمله حتى عام 1945، وكان الهدف منه هو جمع المعلومات عن الدول المعادية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وإفساد جهودها العسكرية لإيقاع الهزيمة بها.

-مجموعـة دفاع مدنية غير نظاميـة، أو ما يعرف اختصاراً CIDG- بهدف إعاقة حركة جيش فيتنـام الشمالية في عمق مناطـق العدو. وقد جرى تمويل هـذه العملية تحت بنود قسم الدراسات المشتركة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، فيما تولت القوات الخاصة تنفيذ هذه العملية.

قـام بيلي وفريقه ببناء معقل بدائي بمحـاذاة نهر آن لاو، ومهبط للطائرات مستخدماً قـوة عاملـة مؤلفة من مئة من المرتزقـة الذين جرى جلبهم من المناطـق المنخفضة. وبعد الفـراغ من الإنشـاء، تحولّت مهمة الفريـق إلى تنسيق الجهود لمضايقـة العدو في منطقة دائريـة بقطـر عشرين كيلومتراً حول قاعدتهم. وكان الجيشـ الفيتنامي يعلم بوجود تلك القاعدة ولكنه لم يحاول اقتحامها. وعلى خلاف ما كان يفعله الجدبورا في الحرب العالمية الثانيـة، الذين كانوا يعملون من داخل المـدن الفرنسية المحتلة، أو من المزارع الواقعة على أطراف مدنها، فإن الأمريكيين كانوا ينفذون عملياتهم السرية انطلاقاً من قواعد ثابتة.

وفي الثامـن عشر من يونيو عـام 1965، انطلق فريق صغير مكوّن من ثلاثة عناصر من القـوات الخاصة، ومعهـم ثمانية وستون من مرتزقة فيتنام الجنوبيـة من معقلهم البدائي ليتسلقـوا ممراً طوله سبعة عشـر كيلومتراً بمحاذاة نهـر آن لاو، ويستطلعوا مناطق العدو المحيطـة بمعسكر تابع لجيش فيتنام الشماليـة. وقامت المجموعة بالتخطيط لتنفيذ هجوم وحشـي مختلس في الظلام كي تتيقن العصابـات الفيتنامية الشيوعية أن المنطقة لا تصلح أن تكون قاعدة آمنة لمعسكرهم؛ لأنها محفوفة بالمخاطر. وقام بيلي ومجموعته بقتل ما يربو على مئة وستين من الجنود النائمين قبل انطلاق زفير أبواق النجدة التي تستنهض الأربعة آلاف جندي من الجيش الفيتنامي الشمالي الذين هبطوا إلى المعسكر في اليوم الفائت.

ولقـي أكـثر المرتزقة الفيتناميين حتفهـم حين فروا في حقـول الأرز السبخة. وأصيب بيلـي في أثناء فراره برصاصة هشمت عظم ركبتـه اليمنى وأخرى أصابت قدمه اليمنى. واخترقـت رصاصة ثالثة رسغـه الأيسر متلفة ساعته اليدوية. وسقـط بيلي على الأرض، متسربلاً بدمه، وبرزت عظامه البيضاء من بين ثيابه الممزقة، ومكث ينتظر الموت طريحاً على الأرض. وقد كان من المفروض أن تلك هي نهاية بيلي واه. ويتذكر بيلي أنه كان يحسب

بُعدَ الضوء الأخضر الذي يشعّ خلف الرصاص، لمعرفة المسافة التي تفصل بينه وبين جنود الجيش الفيتنامي الشمالي، وكان باستطاعته شم رائحة الكاز المنبعث من قنابل النابالم، التي كانت تلقيها قوات الإسناد الجوي الأمريكية، ويشعر بالحرارة المنبعثة منها، حتى جاءته رصاصة لامست رأسه فأغمي عليه في الحال.

استيقظ بيلي واه ضابط الصف ذو الخمسة والثلاثين عاماً بعد عدة ساعات ليجد نفسه عارياً من الملابس بيد العدو. وكانت الشمس تلسع جسمه المكشوف، وجفت الدماء بفعل حرارة الشمس لتصنع من دمه النازف أغلفة جامدة تلتصق بجسمه، بينما كانت آلام جروحه تنفجر في رأسه. واستمر القتال من حوله. ثم وصلت طائرة مروحية تحت وابل من النيران لإنقاذ بيلي ونقله إلى المعسكر الأمريكي، غير أن الجنديَّ الذي جاء ليحملَه إلى الطائرة أصيب مرتين بالرصاص في قلبه ورئته. وزحف بيلي بضعة أمتار وساعده الطاقم في الصعود إلى الطائرة. وفي حين كان بيلي مستلقياً في طائرة النقل العمودية، شاهد رصاص الجيش الفيتنامي يصيب ذراع مدفعية الطائرة وكاد أن يسقطها. وصل بيلي إلى المستشفى أخيراً ووجد نفسه وسط أكوام من الجنود القتلى. وحين هدأ وطيسُ المعركة، كان العدو قد خسر ست مئة جندي، ولم ينج من المرتزقة الثمانية والستين الذين كانوا تحت قيادة بيلي سوى خمسة عشر. كما قتل أمريكي آخر من فريقه الخاص، بينما نجا ثلاثة آخرون من بينهم بيلي.

عاش بيلي عدة شهور في عالم مخدر ضبابي بين الوعي والغيبوبة من فعل عقاقير مسكنات الآلام، واحتاجت جروحه إلى أكثر من عام لكي تبدأ بالالتئام. وفي نهاية هذا النفق المعتم، سمع بيلي هاتفاً يردد نداءَه الأسمى: بيلي يريد أن يعود إلى العمل، لكن ليس إلى ما سماه القوات الخاصة «التقليدية»؛ بل إلى «الجانب الأسود» من القوات الخاصة التي كانت تعمل مباشرة مع وكالة الاستخبارات المركزية. فقد سبق له أن شاهد الموت بأم عينه لذلك لم يعد يخشى الموت. وكانت جروحه تعني أنه لن يتمكن من العمل على الوجه الطبيعي، لكن بيلي لم يكن ليسمح لتلك الجروح أن تحطم حلم حياته في أن يكون جندياً. ولعل أكثر الجنود يستسلمون إلى القول إنهم استنفدوا حظهم في هذا المضمار، لكن بيلي أراد العودة، مظهراً عزيمةً عنيدةً وشكيمة أبيّة أصبحت فيما بعد علامة مميزة في سجله

المهنـي القتالي، وأفزعت آخرين في كل مـرة يطلب فيها بيلي متطوعين للعمل في مهماته. لذلك لم يكن مستغرباً أن يفخر بيلي بعدها بميوله نحو العمل وحده.

ومع أنه لا يكاد يحسن المشي مما به من جروح، إلا أنه استطاع إقناع المسؤولين الكبار في وكالة الاستخبارات المركزية بتكليفه بالإشراف على مجموعة تدعمها الوكالة ويطلق عليها اسـم مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبـة الخاصة في فيتنام المعروفة اختصاراً بالإنجليزية (MACV-SOG)، وكانت تلك المهمة هي نقطة تحول بيلي من الجانب العلني «الأبيض» من العمليات العسـكرية إلى الجانب «الأسـود» السـري من العمليـات الحربية -وهي عمليات في غاية السرّية وقابلة للإنكار من قبل الحكومة الأمريكية- ويجري تنفيذها في الخفـاء بمنتهى السرّيـة، وتحجب عن الشعب الأمريكـي والكونغرس. وكان لخبرته في عمليات القوات الخاصة وتلهفه إلى العودة إلى ساحة المعركة أثر في أصدقائه الذين تقبلوه ووضعـوه على مـتن طائرة وعهدوا إليه بمهمات المراقبة، والتحكـم، والإنقاذ. وحين توقف سيلان القيح من جروحه وبدأت تتماثل للشفاء، أذن له بالنزول إلى الميدان.

شكّلـت مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبـة الخاصة في فيتنام عام 1964 بوصفها مجموعة عمليات حربية مشتركة سرّية، غير تقليدية، للعمل في فيتنام، ولاوس، وكمبوديـا. ومع أنها كانـت في البداية مشروعاً عسكريـاً، إلا أن هذا البـرنامج العسكري الاستخباراتـي المشـترك دمج بين شطـري العمليات التـي كانت مـن اختصاص مكتب العمليـات الخاصة في عهد الحرب العالمية الثانية. وقد جمعت مجموعة مساندة القيادة العسكريـة والمراقبـة الخاصـة في فيتنـام جهود كلٍ مـن وكالة الاستخبـارات المركزية، والقـوات الخاصة، والمرتزقة، والجماعـات المناهضة للمقاومـة، والمتعهدين المستقلين، وشركات الواجهة[1]، والشركات الشرعية في الحرب على فيتنام الشمالية. وقد استفادت هـذه العمليـة المشتركة من ضباط وكالـة الاستخبارات المركزية ومـن الجيش النظامي الذيـن قامـوا بتمويل وتوجيـه نشاط القـوات شبه العسكريـة المحلّية. وقـدّم استخدام المرتزقـة عنصـراً لنفـي المسؤولية غير متوافر لأفـراد الجيش النظامـي الأمريكي، ولا سيمـا في الـدول التي ليست طرفـاً في النزاع، مثـل كمبوديا ولاوس. واستمر عمل تلك

1- وهي شركات تجارية -وأحياناً منظمات خيرية غير حكومية- في الظاهر يتخذها جهاز الاستخبارات في دولة ما لممارسة نشاطاته الاستخباراتية تحت واجهتها في دولة ثانية دون علم تلك الدولة.

المجموعة حتى الثلاثين من إبريل من عام 1972، وأنهت الوكالة التي خلفتها والمسمّاة فريق مساعدة إدارة التقنية الإستراتيجية 158، أنهت جميع النشاطات السرية شبه العسكرية الأمريكية في فيتنام بتاريخ 12 مارس من عام 1973. وفي النهاية، كانت مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبة الخاصة في فيتنام زهاء ألفي عنصر من الأمريكيين وما يربو على ثمانية آلاف من العناصر المحلية.

كانت غالبية المتعاقدين المستقلين، الذين تعاقدوا مع وكالة الاستخبارات المركزية ضمن تلك المجموعة مؤلفة من المتقاعدين العسكريين الذين جرى استجلابهم عن طريق شبكات المعارف والأصدقاء، رجالاً ممن لديهم خبرة عسكرية؛ وممن يقدرون أهمية المحافظة على سرية ما يقومون به من أعمال؛ وممن يقدرون على إنجاز المهمات الضرورية لتوظيف وإدارة جيوش المرتزقة. وفي العادة يجري تجنيد المرتزقة من السكان المحليين، ويمكن توظيفهم بأموال وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وتقوم على تدريبهم فرق تابعة للقوات الخاصة تعمل مباشرة مع وكالة الاستخبارات المركزية. وفي أثناء الحرب السرية التي جرت في لاوس منذ عام 1961 وحتى عام 1975، عمل عدد يتراوح ما بين 40 إلى 50 من موظفي وكالة الاستخبارات المركزية مع عدة مئات من المتعاقدين «المدنيين» (أكثرهم من المتقاعدين أو العاملين في الجيش) الذين وكلت إليهم مَهمة قيادة طائرات الاستطلاع والرصد، وإدارة القواعد العسكرية، وتشغيل محطات الرادار، بملابس مدنية. وكانت الفكرة هي شنّ حرب باستخدام المتعهدين من القطاع الخاص، مع تقديم خدمات الإمدادات والنقل والموارد لهم عن طريق شركات تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وهي شركات تجارية تملكها وتمولها الوكالة. فكانت حرباً تشنها شبكة معقدة متشابكة مكونة من ضباط الاستخبارات، والقوات شبه العسكرية، والمتعاقدين المدنيين، إضافة إلى الجيش، وقد نسجت خيوط هذه الشبكة بحيث تكون قابلة للإنكار مع غياب مدروس ومحسوب لأي مسؤولية، أو عرضة للمحاسبة أمام الكونغرس، أو دافع الضرائب الأمريكي. وقد كانت العمليات السرية -وما زالت- تشكّل أعمالاً قذرة تنفذ في أماكنَ بعيدة بما يخدم أهداف وغايات المصالح الأمريكية.

كان أكثر التركيز الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية منصباً على التصدي لأي توسع للشيوعية بعد الحرب العالمية، ولكنها مع ذلك أخفقت في إيقاف الموجة الشيوعية

في فيتنام. كما بدأت الوكالة تتعرض للهجوم والنقد على الجبهة الداخلية في الولايات المتحدة، بدءاً من المقالة التي نشرها سيمور هيرش في 22 ديسمبر/ كانون الأول، 1975، التي اتهم فيها الوكالة بالتجسس على المواطنين الأمريكيين داخل الولايات المتحدة. وقد أنشأ الرئيس فورد لجنة روكفلر للتحقيق في ادعاءات التجسس على الحركات المناهضة للحرب وحركات الحقوق المدنية، كما أنشأ الكونغرس لجنة تشيرتش المنبثقة عن مجلس الشيوخ، ولجنة بايك المنبثقة عن مجلس النواب وذلك للبحث والتقصي في قضية تعسف وكالة الاستخبارات المركزية.

ثم تبع ذلك هيجان ماحق استهدف أجهزة الاستخبارات في البلاد؛ إذ أفضت التحقيقات التي كانت تهدف إلى التقصي عن تجاوزات وكالة الاستخبارات المركزية إلى فضح الإخفاقات الكثيرة التي ارتكبتها الوكالة. كما كشفت التحقيقات عن أن وكالة الاستخبارات المركزية من بين عدد من الوكالات الفدرالية تعمدت إخفاء نفقات معينة، حتى إن مكتب المحاسبة الحكومية لم يكن لديه علم بمجموع النفقات التي صرفت على العمليات السرية. وانتقد النائب بايك بمنطق سليم قدرة أجهزة الاستخبارات على تقدير النزاع وألقى ظلالاً من الشك على النجاح الذي حققته العمليات السرية على مدى عشر سنوات. وسردت لجنة تشيرتش بالتفصيل خطط وكالة الاستخبارات المركزية لاغتيال زعماء كوبا، والكونغو، وفيتنام الجنوبية، وإندونيسية، وهاييتي، وجمهورية الدومينيكان. وأوضح التقرير أن لا أحدَ من المواطنين الأمريكيين أطلق النار، غير أن الوكالة قدمت السلاح، والدعم، والتدريب وفي نيتها تحقيق تلك الأهداف.

وقد وجهت تحقيقات تشيرتش وبايك ضربة قاصمة لقدرة وكالة الاستخبارات المركزية على العمل بقوة واستقلالية. وجرى على وجه التحديد حظر القيام بالاغتيالات بموجب أوامر رئاسية، وكبح جماح استخدام الحيل القذرة، والمرتزقة، والمتعاقدين المستقلين، والعملاء بالإنابة. وفجأة، أصبح يُنظر إلى الأشخاص من شاكلة بيلي واه بوصفهم أشخاصاً يعيشون في غير زمانهم، ويشكلون عناصرَ مثيرةً للقلاقل والأخطار. وجرى في ذلك العام فصلُ ما يربو على ثماني مئة عنصر ممن يعملون في العمليات السرية، وكاد قسم النشاطات الخاصة أن يتلاشى من الوجود. ولو كان بيلي يعمل بموجب عقد مع

وكالة الاستخبارات المركزية في ذلك الوقت، لأعفي حتماً من عمله، أو لأسندت إليه مهمة أخرى في ضوء نتائج تحقيقات لجنتي تشيرتش وبايك، وما أعقبها من إطفاء لشرارة وكالة الاستخبارات المركزية.

وفي ظل الاختفاء المؤكد للفرص من أمامه، شعر بيلي بعناية السماء تبتسم له حين جاءته مكالمة هاتفية، طلب المتحدث فيها أن يقابله في فندق معين في شمال ولاية فيرجينيا في 25 يوليو/ تموز عام 1977، وطلب منه أن يجهز نفسه للسفر في مهمة تستغرق عاماً كاملاً في الصحراء، وهذه مقدمة معهودة للدلالة على المهمات السرية، ويصاحبه في هذه المهمة ثلاثة أفراد من قدامى العاملين في القوات الخاصة، وكانت الدولة المقصودة هي ليبية. وكانت مهمة هذا الفريق هي تدريب مجموعة من القوات الخاصة تعمل مباشرة تحت إمرة العقيد معمّر القذافي. وكانت ملامح هذه المهمة تحمل كل سمات وخصائص ووظائف عملية سوداء في غاية السرّية ومسبوكة في قالب محكم من القابلية للنفي والإنكار الرسمي التام. ولم توجه إلى بيلي أي أسئلة خطيرة؛ ولم يخضع أي من أعضاء الفريق لتدقيق رسمي حول خلفيتهم. وكان المسؤول عن الفريق شخصاً يدعى إد ويلسون، وهو موظف سابق في وكالة الاستخبارات المركزية. ولم يكن على غير العادة أن يتولى موظف سابق، أو جندي سابق، عملاً بصفة متعاقد مستقل حرّ تحت غطاء غير رسمي.

وفي اليوم الذي سبق ميعاد سفر بيلي وفريقه إلى ليبية، تلقى اتصالاً آخر، وهذه المرة من شخص عمل في السابق في القوات الخاصة، تحت إشراف مباشر من وكالة الاستخبارات المركزية، وقدم له هذا الشخص ما يثبت صفته الرسمية، ولكنه لم يفصح عن اسمه. وكان بيلي متيقناً من أن هذا الاتصال صحيح، وليس مشبوهاً. وقد أخبر هذا الشخص الغامض بيلي أن مهمة ويلسون ليست مشروعاً رسمياً من مشروعات الوكالة، غير أنه أقدم على خطوة غير عادية بأن قدّم لبيلي آلة تصوير من نوع بينتاكس، وأخبره بأنه إذا التقط صورة لأي شيء مثير للفضول، فسوف يكون له مكافأة مالية. وقدم له هذا الشخص شيفرة سرية للاتصال به. ونظراً لحاجته إلى المال، لزم بيلي الصمت وقبل العرض.

أمضى بيلي سنة كاملة في تدريب القوات الليبية بموجب عقد ويلسون، وقام بتصوير عدد من المواقع لحساب وكالة الاستخبارات المركزية. وفي نوفمبر من عام 1979، بدأت

أزمة الرهائن الأمريكيين في طهران، وبدأت مظاهر العداء تجاه الأمريكيين تنتشر في الشارع العربي، وأحرقت السفارة الأمريكية في طرابلس الغرب، ونهبت موجوداتها. أُمهل بيلي ساعتين لمغادرة ليبية، وتمكن من مغادرة البلاد على متن رحلة متوجهة إلى فرانكفورت بملابسه التي كان يلبسها وبضعة عشر فيلماً غير محمض.

أما إد ويلسون، فقد قبض عليه، وحوكم بتهمة نقل أسلحة إلى ليبية. وادعى بأنه كان يعمل بدعم من وكالة الاستخبارات المركزية، وهو ادعاء نفته الوكالة في شهادة خطية تحت القسم تليت في جلسة محاكمته، وجاء في الشهادة أن الوكالة لم تجر أي اتصال مع ويلسون منذ السبعينيات. وحكم على ويلسون بالسجن 53 عاماً، إلا أنه أفرج عنه أواخر عام 2003، حين حكم قاض فدرالي بأن وكالة الاستخبارات المركزية تعمدت الكذب في شهادتها حين لم تذكر أنها اتصلت بويلسون ثمانين مرة في تلك المدة؛ بل والأنكى من ذلك، أن ويلسون تمكن من توثيق أربعين مهمة كلفته بها وكالة الاستخبارات المركزية بعد تقاعده من الوكالة. إن الخط الفاصل بين العمليات السرية والعمليات الإجرامية هو خط باهت في الغالب.

بعد ليبية، انجرف بيلي نحو نمط مختلف من الحياة أكثر من عقد من الزمان، منفقاً وقته في أعمال لا تروق له وفي معاقرة الخمر، فكانت الثمانينيات سنوات ضائعة من حياته. وفي الوقت الذي دخل فيه بيلي منتصف عمره وقد أرهقته الجراح وأثقلته مهنة قضى فيها عشرين عاماً دخل في معركة متواصلة. حياة زاخرة بالمجهود الشديد والأخطار الجسام إلى حد أوصله إلى حالة من الملل الذي يبلد العقل. وقال لي، «لقد كنت أشرب الخمر كثيراً ولكنهم لم يعبأوا بذلك. وقالت لي: وكالة الاستخبارات المركزية: «إذا توقفت عن الشرب، فسنعيدك إلى العمل في». فقلت لهم: «حسناً، لست متيقناً من أنني قضيت وطري من الشرب حتى الآن. أظن أنني سأشرب المزيد». وحين توقفت عن الشرب، قالوا لي: «تعال، تعال، تعال».

وفي عام 1989، تلقى بيلي مكالمة من صديق سابق من القوات الخاصة يدعوه فيها إلى واشنطن. وكما يوضح بيلي أن «الوظيفة هي أن تكون جزءاً من قوة ضاربة مصممة للقضاء على أفراد يشكلون خطراً على الولايات المتحدة». لم يصدق بيلي حسن حظه. وظن هذه المرة أنه سيُكلف بوظيفة متعاقد مستقل لتنفيذ تفويض رسمي بالقتل، وهو أمر

مفترض في زمن الحرب، لكن قلّما يُلجأ إليه في غير الأوقات التي تدور فيها رحى المعركة. وقد سبق أن عمل بيلي تحت وصف «غرير أزرق» -أي موظفاً في وكالة الاستخبارات المركزية- غير أن تلك الوظيفة لم ترق له، ولم تعجبه العاصمة واشنطن، فقد كان يحب العمل في الخارج، بحسب تقديره وبعيداً عن بيروقراطية لانغلي[1]. فقد كان بيلي ذئباً وحيداً يفضل العمل بمفرده، وهي صفة أحبتها الوكالة أيضاً.

اكتشف بيلي بعد تحمّسه الأولي، أن وكالة الاستخبارات المركزية لعام 1989، تختلف عما عهده بها في أيامه السابقة؛ إذ تقلّص الدور الذي تصوّره من كونه شخصاً مكلفاً بالقتل، إلى مجرد شخص يقوم بالمراقبة والترصد، وهو دور يشابه قيام الصياد بمراقبة فريسته عبر منظار البندقية، ولكنه ممنوع من الضغط على الزناد. وكان عليه أن يحمل معه آلة تصوير بدلاً من بندقيته المزودة بمنظار مقرب، وقلماً بدلاً من رصاص البندقية. وكلفت وكالة الاستخبارات المركزية بيلي بالبحث عن أعداء أمريكة ومراقبتهم، ورصد تحركاتهم، حتى يأتي الوقت الذي يصدر فيه قرار بتحديد مصيرهم.

كان بيلي يعلم أن الضجة الإعلامية التي صاحبت تحقيقات لجنة تشيرتش قد أرغمت الرئيس جيرالد فورد على التوقيع عام 1967 على المرسوم الرئاسي رقم 11905 – وهو مرسوم جاء في اثنتين وعشرين كلمة ويقضي بحظر الاغتيال بوصفه أداة من أدوات السياسة الخارجية الأمريكية. وقد أقر الرؤساء الذين أعقبوا فورد هذا المبدأ. ويشمل منطوق المرسوم المتعهدين والمرتزقة: «لا يسمح لأي شخص موظف لدى الحكومة الأمريكية، أو يعمل نيابة عنها، أن ينخرط في عمل الاغتيالات، أو أن يكون طرفاً في مؤامرة لتنفيذ الاغتيال». وفي الدور الجديد الذي أسند إلى بيلي واه بصفته متعاقداً مستقلاً مع وكالة الاستخبارات المركزية في إفريقية، فإن بإمكانه استخدام مهاراته كافة التي أتقنها في مراقبة وتعقب الأشخاص المعينين باستثناء مهاراته القاتلة. وجد بيلي نفسه في سنته الأولى من عودته إلى العمليات السرية متمركزاً في مرتع الإرهاب الإسلامي، أي: في العاصمة السودانية الخرطوم.

1- المقصود هنا قاعدة لانغلي الجوية في مدينة هامبتون الواقعة جنوب شرقي ولاية فيرجينيا، وتضم هذه القاعدة المركز الرئيس لقيادة عمليات سلاح الجو الأمريكي، ومركزاً لأبحاث الفضاء التابع لوكالة ناسا، إضافة إلى المركز الرئيس للقيادة والتدريب على المذهب العسكري الأمريكي. وهي قريبة نسبياً من العاصمة واشنطن، وتبعد عنها قرابة 130 ميلاً.

استمتع بيلي بإقامته في السودان. فهو يحب الدول العربية عموماً -وقد ساعد في ذلك معرفته بأساسيات اللغة العربية وارتياحه إلى ثقافة البلاد- وكان هناك الكثير من العمل في الخرطوم، أو «مدينة كي»[1]، كما تسميها الوكالة. وسرعان ما اكتشف بيلي أن عليه تعقّب كثير من الأشخاص، وأخذ كثيرًا من الصور، وكتب كثيرًا من الملحوظات، ورسم كثيرًا من الخرائط، وكتب كثيرًا من التقارير.

كان بيلي ينطلق من عمله من السفارة الأمريكية تحت غطاء دبلوماسي، وهو ما وفر له حصانة من ملاحقة السلطات السودانية له. وما لم يتمكن السودانيون من القبض عليه متلبساً بفعل محظور، فإن بإمكانهم مضايقته، ولكنهم لا يستطيعون إلقاء القبض عليه أو قتله. وكان بيلي يعمل وحده، وغالباً ما ينجز عمله في أثناء جريه في الليل: «كنت أتناوب العمل مدّة ستة أسابيع إلى تسعين يوماً بين فبراير/ شباط من عام 1991 ويوليو/ تموز 1992. ولو مكثت مدة أطول من شهر، فإن ذلك سيثير حفيظة الجهاز الأمني السوداني». وفي أثناء عمله في السودان، قرر رجل أعمال اسمه أسامة بن لادن أن ينقل مقره إلى السودان وأصبح واحداً من بين عدد كبير من الأشرار الذين يتحتم على بيلي مراقبتهم.

وكان يسيطر على السودان آنذاك حكومة إسلامية تتلقى دعماً سخياً من إيران. وكان الناشط الإسلامي المثقف حسن الترابي يتولى منصب نائب الرئيس وكان مسؤولاً عن السياسة الودّية التي تتبعها الدولة تجاه الجماعات الإسلامية المسلحة، والشخصيات الدينية المعارضة، والإرهابيين. وكان الترابي يحتمي وراء الرئيس عمر حسن البشير. وفي عام 1991، تجمع في السودان خليط غريب من الفارين من العدالة، والمجرمين، والمهاجرين، بمن فيهم شخصيات مشهورة مثل كارلوس المعروف بابن آوى، وأبي نضال، والشيخ الضرير عمر عبد الرحمن. وقامت خلايا تابعة للجماعات الإسلامية الرئيسة وممثلون عن أكثر الجماعات الإسلامية بفتح مكاتب لها في الخرطوم، بمن فيها حزب الله، والجهاد الإسلامي، وغيرها. وبعد انتقال ابن لادن إلى السودان عقب حرب الخليج الثانية [حرب تحرير الكويت]، شرع في إقامة المشروعات التجارية مثل مشروع تصدير السمسم، إضافة إلى مشروعات إنشائية مثل مشروع الطريق السريع بين الخرطوم

1- «K-Town»

وميناء السودان، وبدأ يجمع حوله نواة ما أصبح يعرف فيما بعد بمنظمة القاعدة. كما أقام معسكر تدريب في أم درمان على بعد خمسة عشر ميلاً من الخرطوم.

تمكن بيلي من رصد تحركات ابن لادن الاعتيادية وعاداته الشخصية. ويفكّر بيلي في الفرق الذي كان سيحدث لو سمح له بقتل ابن لادن في السنوات التي أمضاها في السودان. ورفع بيلي أصابعه وكأنه يمسك برصاصة للتأكيد على هذه النقطة: «قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، كانت الغلبة للمحامين. لو أردت أن تتبوّل، كان عليك أن تستشير محامياً. كان الناس يرتعدون خوفاً؛ فلم يكن جورج تينيت حازماً في أي شيء، وكانت العقبة أمامه هي اللجنة النيابية المشرفة، وكان تينيت يرغب في فعل أشياء كثيرة لكنهم لم يسمحوا له بفعلها، ولو أردنا أن نقتل شخصاً ما، فإن علينا أن نحصل على موافقة الشيوخ والنواب».

كان بمقدورنا أن نقتل ابن لادن في عدد من الفرص لا يمكن إحصاؤها، وكنت أضع كل يوم خمس عشرة خطة مختلفة لقتله، وكانت فكرتنا تقوم على قتله ووضع جثته وراء جدار السفارة الإيرانية؛ كي نجعلهم في موقف سيئ، وعلى قدر ما كانوا عليه من تساهل في ضبط سفارتهم، فقد كان بإمكاننا أن نلقي به داخل جدار السفارة، وكنا سنلقيه هناك ثم نتصل بالسلطات السودانية لنقول لهم، «هيه، لقد وقع إطلاق نار في السفارة الإيرانية. أولى لكم أن تذهبوا إلى هناك وتلقوا نظرة على ما يحدث». لقد وضعت ذلك في إحدى الخطط؛ ولكنهم قالوا لي، «هل فقدت صوابك؟» غير أن شخصاً واحداً أحب هذه الفكرة من أول نظرة - وهذا الشخص هو كوفر بلاك. ولكن قيل له: إننا لن نفعل ذلك، ثم توقف بيلي برهة من الوقت، متحسراً على تلك الفرصة الضائعة. «كانت تكفي رصاصة واحدة ملعونة بكلفة عشرة سنتات».

كان هذا الحظر المطلق على الاغتيال وتنفيذ عمليات القتل دون محاكمة ساري المفعول حتى أواخر عام 1998، حين وقّع الرئيس بيل كلينتون - على إثر التفجيرات التي استهدفت السفارات الأمريكية شرق إفريقية- على سلسلة من الأوامر والمذكرات الرئاسية تسمح لوكالة الاستخبارات المركزية وعملائها باستخدام القوة القاتلة للقبض على ابن لادن وتقديمه للعدالة. ولم تتضمن تلك المذكرات أي أوامر مباشرة بقتل ابن لادن، لكنها صيغت بطريقة تنم عن القبول بالمخاطرة بقتله إذا وقع هذا القتل في حادث

عرضي نتيجة لعملية خاطفة. وأصدر كلينتون أربع مذكرات لتشمل معاوني ابن لادن، غير أن صياغة تلك المذكرات كانت تؤكد على أن أي مهمة في هذا الصدد يجب أن تقوم على تقديم هؤلاء الأشخاص للمحاكمة، وليس إنهاء حياتهم. وكان الأمر المباشر بالقتل يستدعي صدور مرسوم صريح بالقتل، وهذا لم يحصل إلا بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر؛ إذ أدى وقوع تلك الهجمات إلى إزالة العقبات القانونية أمام إصدار أوامر رئاسية تزيل الحظر الذي كان قائماً على استهداف الأشخاص بالاغتيال.

لم يخطر ببال بيلي أن يمثّل ابن لادن خطراً أكثر أو أقل من الجماعات الأخرى، التي كانت موجودة في الخرطوم مع بداية تسعينيات القرن الماضي، ولم يتصوّر ألبتة أن أمنيته ستتحقق (...)، وجاء 11 أيلول/ سبتمبر، 2001 ليغير من وجهة النظر الأمريكية تجاه قبولها بقتل أعدائها.

«لقد كنت في مبنى وكالة الاستخبارات المركزية صبيحة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، في الطابق السادس للقيام بآخر تجهيزات سفري إلى تايلاند في مهمة تتعلق بالمخدرات. وصاح أحد الأشخاص الذين كانوا يراقبون شاشة التلفاز: «يا إلهي، انظروا إلى هذا الطيار الملعون .... لقد صدم بطائرته البناية». ثم جاءت طائرة ثانية وارتطمت بالبرج الثاني فأطلقت صفارات الإنذار[1]. وكان هناك طائرتان أخريان مفقودتان. وجاءت

1- تتطابق هذه الشهادة، وهي رؤية الطائرة الأولى وهي ترتطم ببرج التجارة العالمي في نيويورك صبيحة 11 أيلول/سبتمبر عبر شاشة التلفاز، مع الوصف الذي جاء على لسان الرئيس الأمريكي جورج بوش في اجتماع جماهيري في مدينة أورلاندو بولاية فلوريدا في الرابع من كانون الأول/ ديسمبر من عام 2001، وذلك في معرض رده عن سؤال وجهه إليه طفل اسمه جوردن وطلب فيه من الرئيس أن يصف مشاعره حين علم بالهجمات، وقال بوش: إنَّ كان يقوم بزيارة لمدرسة ابتدائية في فلوريدا لتشجيع القراءة، وإنه شاهدها عبر شاشة التلفاز قبل دخوله غرفة الصف في المدرسة التي كان يزورها، الطائرة الأولى وهي ترتطم بالبرج، فكان أول ما خطر في باله أن الطيار الذي كان يقود الطائرة لا بد أنه كان طياراً لا يحسن الطيران. ثم دخلت الصف ....إلخ. والمشكلة التي تثيرها هاتان الشهادتان هي أن وسائل الإعلام الأمريكية لم تبث مشهد ارتطام الطائرة الأولى بالبرج إلا في اليوم اللاحق أي في 12 أيلول/ سبتمبر بخلاف الطائرة الثانية التي ارتطمت بالبرج الآخر بعد وصول كاميرات وسائل الإعلام لتصوير الحادثة الأولى ونقلت كاميرات وسائل الإعلام ارتطامها بالبرج. وهذه الشهادة، وكذلك شهادة بوش المطابقة لها تثير عدداً من الأسئلة والشكوك لا مجال لتناولها الآن، لكنني أحببت الإشارة إليها.

الأوامـر بإخلاء المبنى. ولم يسبـق لي أن شاهدت الوكالة تتحرك بتلـك السرعة، وليتك شاهـدت حركـة السير علـى الطريق السريـع 123. لقد كان الناس يسـيرون بسرعة 90 ميلاً في الساعة خارجين من مقاطعة كولومبيا، وكان موظفو وكالة الاستخبارات المركزية يحاولون الخروج مع الخارجين في الزحمة. لقد كان الناس هناك يكرهون الوكالة. ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن لديهم علم بالأغلال التي كانت تقيد أيدينا، لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية تقتل أحداً، ربما كانوا يشاهدون اختفاء بعض الناشطين من بني جلدتهم، لكن الحكومات الأخرى هي التي كانت تفعل ذلك، لقد كانـوا يلقون بالمسؤولية عن كثير من حـوادث القتل السرية على عاتق وكالة الاستخبارات المركزية، لكننا لم نكن نحن من يفعل ذلك».

في اليـوم اللاحـق، قـام رئيس قسـم العمليات الخاصـة التابع لوكالـة الاستخبارات المركزيـة باستدعـاء بيلي وطلب منـه أن يبدأ بتجنيـد متعاقدين مستقلـين، لغرسهم في أفغانستـان للقيام بعمليات شبه عسكرية تستهدف ابـن لادن وأتباعه. «لقد حصل كوفر بـلاك على تلك الأوامر بعد اجتماع استغـرق ليلة كاملة في كامب ديفيد. توجه إلى هناك بالطائرة، وحين رجع من كامب ديفيد يمكنك أن تلحظ أن الأمور قد تغيرت تغيراً كاملاً. لقـد أرادوا قتل أناس بعينهم، ولم يكونوا هذه المرة سيطلقون بعض الصواريخ على كومة من الرمال. بل أرادوا رؤية بعض الجثث على الأرض في الواقع المحسوس».

«السيّئ الخسيس الغشاش»

في منتصـف تشريـن الثـاني/ نوفمبر من عـام 2001، شـدّ بيلـي واه رحاله برفقة فريق من المتعاقديـن الأمنيين إلى طشقند في أوزبكستان، على متن طائرة نقل عسكرية عملاقـة. وكان بيلي يدرك وقتها أنه يخوض آخـر حرب، بل ربما آخر مهمة له في حياته المهنيـة. وبعمر ناهز واحـداً وسبعين عاماً، يكون بيلي أكـبر المتعاقدين الأمنيين سناً مع وكالـة الاستخبارات المركزية ممن لديهم خبرة في ساحـة المعركة. وكانت مهمة الفريق الـذي رافقه هـي البحث عن ابـن لادن ومعاونيه وقتلهـم. وكان لديهم توقعـات مُتَدَّنية بالنسبة للقبض عليهم أحياءً.

وقد قام الرئيس بوش بالتوقيع على مرسوم رئاسي سري يخوّل وكالة الاستخبارات المركزية قتل ابن لادن وأعوانه؛ وحرصاً على إزالة أي لَبْس حول هذا الأمر، طلب كوفر بلاك من غاري شروين، قائد أول فريق للوكالة في أفغانستان، أن يرسل إليه ابن لادن ميتاً في صندوق. ويتذكر بيلي تلك الأيام المحمومة في أيلول/ سبتمبر: «لقد قال بوش للوكالة، «أريد جثثاً». فرد عليه كوفر بأنه سيجعل الذباب في عيونهم في غضون أسبوع من الزمان».

لقد أجبرت فداحة هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر الحكومة الأمريكية على إحداث تغييرات جذرية في الأوامر التي كانت سارية المفعول منذ عهد كلينتون؛ لتسمح باستخدام القوة القاتلة في العمليات المصممة لإحضار ابن لادن أمام العدالة. وبحسب ما يذكر بيلي، فإن «بوش أعطانا رخصة للقتل. هل وقّع رخصة القتل تلك؟ كلا، لكننا تلقينا تلك الرخصة مشافهة، وكان على المحامين أن يملؤوا النماذج والوثائق اللازمة. ولا يمكن لأحد أن يرى تلك الوثيقة. حتى مع تمتعي شخصياً بأرفع درجات التصاريح الأمنية الرسمية من الدرجة الثالثة داخل الوكالة، فإنني لا أتوقع أن أطلع على تلك الوثيقة طَوالَ حياتي».

لقد قطع جورج تينيت وكوفر بلاك على نفسيهما عهداً للرئيس بوش، بأنهما سيتعقبان بفاعلية جماعة ابن لادن، ويطيحان بحركة طالبان عن طريق إرسال فرق من قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، ومن أفضل الفرق التابعة للقوات الخاصة. لكن المشكلة هي أنه لم يكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية عدد كافٍ من الأفراد المدربين لتنفيذ ذلك الوعد؛ لذلك فقد لجأوا إلى رهطهم الذين أثبت الزمن حسن وفائهم للوكالة: وهم المتعاقدون الأمنيون وجيوش المرتزقة الذين ينفذون المهمات بالإنابة عنها. وقد استدعي ضابط عمليات الوكالة غاري شروين من برنامج تحضيري لتقاعده، وأرسل إلى وادي بانجشير في أفغانستان؛ ليتولى تجنيد جيش من المرتزقة أطلق عليه اسم تحالف الشمال. وانتُدِبَ بيلي واه لمساعدة ضباط آخرين من الوكالة في تأليف مزيد من الفرق التي ستنضم إلى شروين وميليشياته التي تتولى تعقب ابن لادن داخل أفغانستان.

وفي عام 2001، لم تكن هناك أي شركة أمريكية تتخصص حصراً بتزويد عاملين ذوي خبرة عسكرية، ولم يزدهر نشاط الشركات الأمنية الخاصة مثل شركة بلاك ووتر، و تربيل كانوبي، وما شابهها من شركات إلا بعد الانتشار العسكري الذي أعقب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر -وفي العراق على وجه الخصوص- والذي أوجد سوقاً كبيرة لمثل هذه الخدمات. لذلك، وفي ظل عدم وجود شركات تقدم خدمات عسكرية تشابه الخدمات التي تقدمها شركات التوظيف التي تزود سوق العمل بالموظفين الذين يعملون بدوام جزئي أو بعقود، كان على بيلي أن يعتمد على معارفه الشخصيين وعلى شبكة أصدقائه القدامى، واستطاع أن يجمع بعض أعضاء فريقه من العناصر العاملة في القوات الخاصة، أما البقية فكانوا من المتعهدين المستقلين الذين سبق لهم أن خدموا في الجيش وكان على معرفة بهم. «لقد كُلّفتُ بتجنيد ستة وأربعين رجلاً من منطقة فورت براغ- ستة وأربعين رجلاً»، كرر بيلي ذلك الرقم زيادة في التأكيد. «توجهت إلى قوات الدلتا وجمعت عشرين شخصاً، ثم تمكنت من جمع عشرة رجال آخرين ممن سبق لهم أن خدموا في الدلتا. وحصلت على بعض الذين خدموا في قوات (سيل). وعدد آخر من الذين خدموا في قوات (سيل) فريق 6. وثمة فرق كبير بين القوات الخاصة وقوات (سيل). ولهذا السبب تجد أن كثيراً منهم لا يرغبون في الانخراط في هذا العمل. فهم -أي الذين خدموا في قوات سيل- يريدون مهمات قصيرة الأجل، ولا يرغبون في المكث ستة شهور من السنة في مهمة ما؛ لذلك كنت أفضّل دوماً الانتقاء من القوات الخاصة، وكنت أريهم فيلماً ثم أسألهم إن كانوا يستطيعون القيام بأعمال تشبه ما شاهدوه في ذلك الفيلم، هل يستطيعون السباحة؟ ليس السباحة وحسب؛ بل وإطلاق النار من تحت الماء؟ هل يستطيعون القيام بعمليات ليليّة، والركض سبعة أميال؟ وذكّرتهم أن الأكسجين في أفغانستان يكون شحيحاً على ارتفاع خمسة آلاف قدم. كما أنني أبحث عن المهارات اللغوية في المتقدمين؛ وليس لدى قوات سيل مَلَكات لغوية. فكل ما يفعلونه هو اقتحام مكان ما، وقتل من فيه من الناس، ثم كتابة تقرير عما حدث، والتحضير للمهمة اللاحقة، أما القوات الخاصة فينزعون إلى اقتحام المكان والمكوث فيه؛ ولهذا السبب كنا نفضل تجنيد أشخاص سبق لهم أن عملوا في القوات الخاصة».

ولا يخفي بيلي فخره بما حققه من إنجازات في مدة قصيرة: لقد أكملت تأليف الفريق؛ لأنني تحدثت إلى القائد جيري بويكن، وتمكنت من الحصول على عشرين أو واحد وعشرين. وهؤلاء الأفراد يحملون مؤهلات القفز المظلي من مرتفعات شاهقة، ويتمتعون ببنية جسدية قوية. وقد قبلوا جميعاً على الفور في العمل بصفة «غرير خضر» [أي بصفة «متعاقدين» مستقلين مع وكالة الاستخبارات المركزية]، وقد أخضعوا لفحص مصغر لكشف الكذب [البوليغراف]، وجرى استبعاد ثلاثة فقط من بين الثلاثين لأسباب تتعلق بتعاطي المخدرات، وكان علينا أن نتثبت من لياقتهم البدنية أولاً، فأخضعناهم لفحص اللياقة والتحمل، وكان أفضلُهم أداءً شخصاً تجاوز الستين من عمره وعمل لدى الوكالة أكثر من خمسة وأربعين عاماً. وبعد ثلاثة عقود من تقييد حركته، أصبح بيلي الآن جاهزاً للتوجه إلى أفغانستان واستغلال فرصته في قتل أخطر أعداء أمريكة.

وفي أثناء المراحل الأولى من الحرب في أفغانستان، نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية زهاء ثمانين إلى مئة من الغرير الخضر [المتعهدين المستقلين] والغرير الزرق [الموظفين]. ونجح بيلي في جمع زهاء ستين عنصراً من المتعاقدين المستقلين والعسكريين؛ وجاء الباقون من قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، وقد حملوا معهم كماً من النقود لشراء ولاء زعماء الحرب والتأثير في زعماء القبائل والقادة السياسيين، وجمع المعلومات حول مواقع العدو، والبحث عن أسامة بن لادن وأعوانه. وكان من مهماتهم استجواب السجناء، ورسم خريطة استخبارية للمنطقة، والتعامل مع الولاءات والتحالفات المتغيرة والمتحولة باستمرار بين المقاتلين الأفغان. وتمكن بيلي واه أن يقنع قيادته العليا في وكالة الاستخبارات المركزية أن بإمكانه تنسيق العمل والجهود بين ضباط الوكالة وبين فرق القوات الخاصة. وأهم نتيجة للإنجازات التي حققتها الوكالة والقوات الخاصة في أفغانستان هي فتح باب عهد جديد من العمل المشترك، بحيث تتضافر فيه جهود الجيش، والاستخبارات، والقوات شبه العسكرية، والسكان المحليين، والمرتزقة، وحتى المتعاقدين المدنيين نتج عنها قدرات فاعلة قاتلة لم يشهد بيلي مثيلاً لها منذ أيامه في كمبودية، ولاوس، وفيتنام.

وبعد قضاء أسبوع في طشقند لتنظيم أمور الإمدادات والدعم، طار فريق بيلي وهبطت طائرتهم في قاعدة بغرام العسكرية على مقربة من العاصمة كابول، ثم توجهوا إلى فندق

أرينا، وكان جهاز الاستخبارات التابع لطالبان يستخدم هذا الفندق قاعدة له، لكن وبعد ذهاب طالبان، اتخذت وكالة الاستخبارات المركزية من ذلك الفندق مركزاً لعملياتها في أفغانستان. كانت أدوات بيلي في هذه المهمة تضم أدوات عالية التقنية وأخرى بدائية؛ إذ جلب معه حقيبة ظهر فيها ملابس ومعدات تناسب الجو البارد، وبندقية إي كي - 47 وسبعة مخازن للذخيرة، وعدداً كبيراً من القنابل اليدوية، وقاذفة قنابل من نوع إتش آند كي عيار 40 ملم. وكان يحمل معه أيضاً جهاز راديو للطوارئ من نوع إي آن/بي آر سي 112، وآلة تصوير رقمية، وجهاز يدوي لتحديد الموقع عن طريق الأقمار الصناعية (GPS)، وبوصلة قديمة، ومدية ذات يد عظمية من نوع أولد تايمر، وكان يحمل معه كذلك بضعة آلاف من الدولارات في جيبه لمصروفه الخاص.

وفي الأول من كانون الأول/ ديسمبر، الذي كان يصادف عيد ميلاده الثاني والسبعين، توجه بيلي برفقة فريقه الصغير من المتعاقدين المستقلين جنوباً، عن طريق البر من فندق أرينا، ومعهم مجموعة من الحرس الشخصيين الجدد الذين جرى توظيفهم قريباً. وقد أعطي فريق وكالة الاستخبارات المركزية أموالاً لتوظيف آلاف من المقاتلين المحليين حين يقتربون من نقطة هدفهم في مقاطعة لوغار الجنوبية، حيث كانوا على موعد مع مفرزة عمليات ألفا من القوات الخاصة 594، وهي المفرزة التي ستتولى تدريب المتعاقدين الجدد لخوض المعارك وتقديم عمليات الدعم. وتتألف مفرزة عمليات ألفا من القوات الخاصة من فريق مكون من اثني عشر شخصاً، إضافة إلى مجموعة سيطرة جوية تكتيكية (TACT - P) وذلك لتنسيق الغارات الجوية. وكانت إحدى مهمات بيلي هي التيقن من عدم خلط القوات الخاصة بين الأهداف حتى لا يجري ضرب الأصدقاء الأفغان عن طريق الخطأ.

وبعد تحديد الأهداف، يجري التثبت من عدم وجود أي قوات صديقة أو مدنيين في المنطقة، ثم التيقن من عدم وجود تعارض أو خلط بين الوحدات الأخرى، وأخيراً تصدر الموافقة على القتل، ثم تستدعى الطائرات القاذفة التي تستخدم ذخيرة الهجوم المباشر المشتركة (JDAM[1])، القنابل الذكية، وتحدد أهدافها عن طريق مُنَاظِر تحديد إحداثيات

1- آلة توجيه تربط بالقنابل الصماء فتحولها إلى قنابل ذكية، وهذه العبارة هي اختصار لكلمة (Joint Direct Attack Munition).

موقع الأهداف، أو باستخدام منظار ذي مؤشر ليزري يسمى سوفلام (SOFLAM) (المُحدد الليزري لقوات العمليات الخاصة)، أو عن طريق «مخاطبة الطيار عبر الراديو» - بإعطائه سلسلة من المحددات المرئية لمساعدته في تحديد الهدف بدقة. تثبت صواريخ هيل فاير (نار جهنم) على متن طائرة بريديتر يو إي في (طائرة دون طيار تسيرّ عن بعد)، وتعطى الرخصة للقتل عن بُعد للأشخاص الذين يديرون أجهزة التحكم من بعد لتلك الطائرات مستخدمين ذراع قيادة وأزرار إطلاق النار كالتي تستخدم في ألعاب الفيديو. وكان ذلك كله يجري عبر موجات الراديو، ويجلس الرجل الذي يضغط على أزرار إطلاق النار في عربة مقطورة للقيادة مزودة بمكيف تبريد هوائي على بعد آلاف الأميال.

ومع أن تلك القوات كانت جاهزة لتقديم تنسيق فاعل لغارات جوية على أهداف معينة بدقة، إلا أن بيلي لم يكن يشعر أنهم كانوا يتمتعون بالدعم الكافي، ذلك أن أكثر القوة الجوية الأمريكية كانت مركزة في مقاطعة باكتيا: «لقد أمضينا هناك عشرين يوماً، ثم تحولنا إلى غارديز. لم تكن طالبان تدري ما يدور حولها، ولم نحصل على التغطية الجوية المبتغاة، فقد كانت القوة الجوية في تورا بورا، ولم يكن بمقدورنا القيام بالمعركة على الوجه الذي كنا نرغب فيه».

ومن حسن الحظ أنه لم تكن هناك حاجة إلى معارك طاحنة؛ لأن طالبان كانت تنسحب بسرعة في طول البلاد وعرضها دون إبداء أي مقاومة، وقد فروا من غارديز حين دخل بيلي وفريقه في قافلة عسكرية تضم خمساً وعشرين مركبة في الرابع من يناير، عام 2002، وأخذوا مواقعهم في مجمع للمباني شرقي المدينة. وكانت مهمتهم تتلخص في تشكيل ما أطلق عليه «التحالف الشرقي» لقوات المرتزقة، على الرغم من عدم وجود شيء من هذا القبيل. أما المهمة الأخرى فكانت جمع أكبر قدر من المعلومات الاستخبارية بأسرع وقت ممكن- أي إقامة شبكة من المخبرين من المواطنين المحليين، وإلقاء القبض على أنصار طالبان ومطاردتهم بعد أن يحددهم لهم الجواسيس المستأجرون. وقد أقامت مجموعة بيلي مركزاً لهم في تجمع للمباني محاط بجدار من الطين، وأصدر بيلي

أوامـره لحرَّاسٍ من الأفغان بتهديد أي شخص من وسائـل الإعلام يحاول الاقتراب من مسافة ثلاثة كيلومترات.

كان المـر الجبلـي بين غارديز وخوست يعج بعناصر طالبـان، وبدأ فريق بيلي بتعقب واصطيـاد مجموعات مـن المقاتلين، واستخدموا في تلك المهمـة أجهزة اعتراض موجات الهاتف لتحديد مواقع تلك المجموعات، إضافة إلى طائرات بريدترز التي تعمل دون طيار وتوجّـه من بعد والمـزودة بأجهزة رؤية ليلية، والعناصر المنشقة عـن طالبان، إضافة إلى أحـدث أجهزة الاستطلاع والمراقبة التـي تلتقط صوراً بالأشعة تحـت الحمراء. وأمضى فريـق أو دي إي 594 أوقاتهم في تدريب الأفغان المتعاونين معهم على استخدام الأسلحة، والمدفعيـة، وبعضـ التكتيكات الخاصـة بالمجموعات الصغيرة. أما أوقـات الفراغ فكانوا يستمعـون فيها إلى قصص بيلي حول كمبوديا ولاوس في عهدها المزدهر حين كانت وكالة الاستخبـارات المركزية تعمل مباشـرة مع القوات الخاصة وحين كانـت ملاحقة الأعداء وقتلهم عن طريق جيوش المرتزقة هو الإجراء الاعتيادي المتبع.

وبدخـول الخامسـ عشر مـن كانون الثاني/ ينايـر، وصل عدد القـوات الأفغانية التي تقاتل نيابة عن الولايات المتحدة زهاء ثلاث مئة أفغاني، وقدم الجنرال لودين - وهو قائد بشتوني عمل مع وكالة الاستخبارات المركزية في الثمانينيات، ابنه متطوعاً للعمل مع القوة الأمريكية، وجاء ابنه برفقة ثلاثين من أصدقائه. «إن من الصعب الحصول على معلومات جيـدة من زعماء الحرب الأفغان الأفاكين أبنـاء الفاعلة. لقد كنا نتعامل مع مجموعة من الكذابين الطغام، وكان ذاك الرجل العجوز [الجنرال] لودين هو زعيم المنطقة، وكان ولده ضياء لودين يعمل برتبة نقيب لدينا، وكان في منتهى الصراحة حول دوافعه: «إنني هنا من أجل المال، وأنا لا أحب الأشخاص الموجودين في بانجشير[1] ولا أحب سوى أبناء قبيلتي».

وقـام زعماء القبائل في غارديز بتقديم زهـاء مئة من الرجال، واثنين من القادة هما كبـير وضياء عبد الله، وكانا على رأس كتيبـة من مئة وسبعين من المقاتلين. ويصف بيلي

1- عاصمة إقليم باكتيكا في أفغانستان.

القائد ضياء عبد الله بأنه سيئ خسيس غشاش، وهو من حلفاء أمريكة، قد تلقى كثير من الأموال، وهو شخص لا يمكن الوثوق به بأي حال من الأحوال. وبدأ الأفغان الذين يعملون تحت قيادة كبير من فورهم بالتصرف على نحو يثير الريبة والشك، وشعر فريق بيلي بالخطر يحيط بهم.

كان بيلي يحسن التعامل مع المجرمين وزعماء الحرب، غير أنه بات واضحاً أنهم لن يتمكنوا من القبض على ابن لادن في هذا العالم الداجي القاتم من الولاءات المتحوّلة والمتقلبة والمزدوجة. وتقول وكالة الاستخبارات المركزية: إنها وزعت زهاء 70 مليون دولار على زعماء الحرب والقبائل لتأمين الفوز في المراحل الأولية من الحرب في أفغانستان، وهي ترى ذلك صفقة رابحة على الرغم من أن الولاء الذي اشتري بتلك الأموال لم يفض إلى قتل ابن لادن أو القبض عليه ولا حتى على أعوانه المقربين.

كان من بين الأفغان الذين وظفتهم وكالة الاستخبارات المركزية وتولّت القوات الخاصة تدريبهم شخصان هما: زاحم خان وباشا خان زدران، وهما من زعماء الحرب الذين تبدو عليهم هيئة قطّاع الطرق، وقد أقدم هذان الشخصان على طلب القيام بغارة جوية تستهدف وفداً من زعماء قبائل البشتون كانوا في طريقهم لتهنئة حامد كرازاي في كابول. وكانت تلك المخادعة وأصناف المخاتلة والنفاق هي السمة المميزة لعملاء أمريكة من الأفغان الذين كانوا يحرصون على انفلات المجاهدين العرب، والباكستانيين، والأوزبك، من قبضة الأمريكيين، وعلى عرقلة جهود العثور على ابن لادن.

ويتذكر بيلي المشقة التي لقيها في أفغانستان، إلا أن أفضل ذكرياته تبقى مع الجيل الجديد من المتعاقدين الأمنيين والقوات شبه العسكرية الذين عرفهم هناك. ما لاحظته هو أن هؤلاء الناشئة من القوات شبه العسكرية هم أكثر قوة، وأفضل تدريباً، وأقدر على التواصل، وأفضل تجهيزاً، ويتعاملون بإخلاص ومن غير مواربة، ويتفوقون على أقرانهم من المدرسة القديمة... ولكن استقلاليتهم في اتخاذ القرار في الميدان أصبحت شبه منعدمة؛ فوسائل الاتصال هذه الأيام هي في غاية الفاعلية، وتنساب القرارات عبر السلم القيادي بكل سهولة ويسر.

في أيامي الأولى قبل توافر أجهزة اللاسلكي المتقدمة وتقنية الاتصالات الدقيقة، كانت القرارات تصدر عن القادة الميدانيين على الأرض دون أي خوف من غضب القيادات العليا التي تبعد مئات الأميال عن ساحة الوغى.

ومما زاد من خيبة أمل بيلي، أن المدة التي أمضاها في أفغانستان لم تضعه وجهاً لوجه مع خصمه القديم، أسامة بن لادن. وقد تبين أن المواطنين المحليين الذين عملوا معه كانوا أكثرَ حرصاً على أخذ ماله وأشدّ تلكؤاً في تعقب العدو، وكان يؤثر حرارة غابات كمبوديا على برودة جبال أفغانستان التي كانت تثير الألم في مفاصله إذْ نال منه الوهن، وبدأ يفكر أنه -كما قال هو-: قد بلغ من الشيخوخة حداً يجعله غير مؤهل لهذا الأمر. وبعد أن أمضى شهرين في أفغانستان، آن أوان بيلي واه؛ لأن يقول: وداعاً لفريق أو دي أي 594، ليقصدَ موطنه في منتصف شهر كانون الثاني/ يناير، وسيتولى شخص آخر مَهمةَ القبض على خصم بيلي اللدود.

بداية عهد بلاك ووتر

بدأ استخدام المتعاقدين المستقلين في الحرب على الإرهاب مع السبعين شخصاً الذين جندهم بيلي واه؛ إذ شكلوا قوة شبه عسكرية ذات غرض محدد، مؤلفة من جنود سابقين ذوي مراس وخبرة، وتتمتع بتسليح جيد، وسرعة في الانتشار. وقد أدت هذه القوة دوراً حيوياً في مساعدة الدفاعات الأمريكية على التكيّف مع الظروف غير التقليدية؛ وبذلك تكون الولايات المتحدة قد عهدت بالمسؤولية عن بعض جوانب الحرب على الإرهاب إلى المتقاعدين العسكريين والمرتزقة من المواطنين المحليين، كما سبق لها أن فعلت في لاوس وغيرها من الصراعات التي خاضتها سراً. وبعد القضاء على طالبان، عملت الولايات المتحدة على إقامة شبكة استخبارية واسعة في أفغانستان وباكستان للمساعدة في القبض على ابن لادن وفلول القاعدة وطالبان. وقد كان قرار وكالة الاستخبارات المركزية في استخدام شركة خاصة لتعزيز فرق الحماية الشخصية للضباط التابعين للوكالة عاملاً محفزاً لقيام شركة بلاك ووتر بأول محاولة لخوض غمار صناعة الأمن الخاصة. وكان العقد الأولي -الذي بلغت قيمته 5.4 ملايين دولار ومدته ستة شهور- بداية تحوّل شركة بلاك ووتر من مجرد مصنع خفيف للصُّلب، وأهداف الرماية إلى شركة عملاقة في مجال الأمن.

قبل الحادي عشر من سبتمبر، كان إريك برنس يسعى جاهداً لجعل نشاطه التجاري يدر ربحاً. ومع أن برنس نشأ في عالم من التوسع التجاري واندماج الشركات، إلا أن النموذج الأصلي الذي بنيت عليه بلاك ووتر كان موجهاً لتحقيق اهتمامات وميول برنس أكثر منه لتحقيق الأرباح. وفي عام 1997، بدأ إيريك العمل في بناء مركز بلاك ووتر للتدريب على قطعة أرض تبلغ مساحتها ستة آلاف آكر، وفيها ميدان للتدريب على إطلاق النار مصمم لتقديم تدريب متخصص لأفراد الجيش والشرطة، ولقد كان نمو نشاطه بطيئاً. ومنذ عام 1998 حتى عام 2000، لم يعمل في دائرة التدريب سوى ستة موظفين، وكان برنس يلجأ بين الحين والآخر إلى أخذ المال من جيبه الخاص لدفع رواتب الموظفين. وفي عام 2001، بدأ برنس بإنتاج أنظمة أهداف بلاك ووتر؛ وهي أهداف معدنية تتميز بخاصية إعادة التنضيد الذاتي، فنجح في تحقيق بعض الأرباح، غير أن ظروف العمل لم تكن مواتية تماماً حين اقترح عليه جيمي سميث، أحد أوائل الذين بدؤوا العمل معه، أن ينشئ قسماً جديداً متخصصاً بتقديم خدمات الحراسة والأمن.

يملك سميث خبرة سابقة من عمله مع وكالة الاستخبارات المركزية، وكان يعمل مدرباً في بلاك ووتر بين الحين والآخر لتأمين رسوم دراسته الجامعية في كلية القانون، ثم أنهى عمله في بلاك ووتر بعد تخرجه ليبدأ ممارسة مهنته محامياً متخصصاً في قضايا الضرائب عام 2001. وكان برنس يرغب في استبقائه موظفاً لديه، غير أن سميث كان لديه تصور أكبر. لقد رأى سميث سوقاً جديدة في توظيف رجال مدربين على نمط الحرس الشخصي الذي يرافق كبار الشخصيات في وزارة الخارجية الأمريكية، وأراد سميث أن ينشئ قسماً خاصاً لهذه الخدمة بحيث يكون لديها قابلية للنماء والتوسع. ولم يتحرك برنس لدعم هذه الفكرة دعماً كاملاً إلا بعد وقوع هجمات 11 أيلول/ سبتمبر. واستدعى سيمث في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2001 ليعرض عليه منصب نائب رئيس في شركة بلاك ووتر، وبحلول شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2002، انتقل سيمث إلى المقر الرئيس للشركة في موبوك بولاية نورث كارولينا.

وفي ظل انعدام سبب لتدريب قوة من المتعاقدين الأمنيين قبل تأمين عمل لهم، اقترح سميث البَدْءَ بمحاولة طرق باب معارفَ وأصدقاء بحثاً عن فرصة. وأخبر إريك سميث

أن صديقاً له ممن انضموا إلى وكالة الاستخبارات المركزية قريباً يمكن أن يكون في موقع مُواتٍ في دفع خطتهما إلى الأمام. وهذا الصديق هو بَزّي كرونغارد الذي عيّن في منصب المدير التنفيذي لوكالة الاستخبارات المركزية في آذار/ مارس من عام 2001. وكان يعمل قبلها مستشاراً لمدير الوكالة بضع سنوات، غير أن خلفيتَه المهنية الفعلية هي في مجال الاستثمارات المصرفية، وقد عرف إريك والثروة التي تعود لأسرة برنس حين كان يعمل في هذا الحقل.

جاء توقيت الحركة التي أقدم عليها إريك إما بمحض المصادفة أو وفق حسابات مدروسة؛ لأن المخصصاتِ الأمنيةَ لوكالة الاستخبارات المركزية قد تعرضت بعدها للتقليص. وبعد ستة أشهر من هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، كان موظفو قسم الرد الأمني العالمي التابع للوكالة يعملون فوق طاقتهم، وكانوا بحاجة ماسة إلى توفير الحماية للمحطة الجديدة التي أقاموها في كابول، وقد سبق لوكالة الاستخبارات المركزية أن تعاقدت مع شركات لتأمين الاحتياجات السرية من قبل، غير أنها قلما عهدت إلى شركات خاصة القيام بالمهمة التي يتولاها ضباطها في الميدان. وبعد الاتصال الذي أجراه برنس مع الوكالة بحثاً عن فرص لمشروعه التجاري الجديد، استطاعت بلاك ووتر تأمين عقد بقيمة 5.4 ملايين دولار مُدّته ستة أشهر. وقد صنف العقد تحت فصل الضرورة الملحة والطارئة في ميزانية الوكالة. وهذه الصفة «الملحة والطارئة» تلغي متطلبات الإعلان عن الخدمة والتقدم بمناقصات تنافسية من الشركات الأخرى؛ لذلك جرى إحالة هذا العقد مباشرة وفوراً إلى بلاك ووتر.

تطلب العقد «الأسود»[1] الذي منحته وكالة الاستخبارات المركزية لشركة بلاك ووتر ثمانية عشر متعهداً أمنياً إضافة إلى قائد أو قائدين. ومع أن العمل سيكون محفوفاً بالمخاطر، إلا أن بلاك ووتر والمتعهدين الأمنيين المستقلين، الذين استخدمهم برنس كان لديهم ما يكفي من المحفزات المالية لخوض تلك المخاطرة المحسوبة. وقاس جيمي سميث الأجر الذي تتقاضاه بلاك ووتر من وكالة الاستخبارات المركزية على الأجر الذي

1- يشار إلى أن بلاك ووتر تعني الماء الأسود، ومن معاني السواد في اللغة الإنجليزية «السرية»، وقد وضع المؤلف كلمة أسود بين قوسين للإشارة إلى المهمة السرية التي ستتولاها شركة بلاك ووتر، مع الإشارة إلى اسم الشركة.

تتقاضاه شركة دينكورب من وزارة الخارجية للقيام بعمل مشابه فوجد أنَّ بلاك ووتر تدفع للمتعهدين أجراً مقداره 550 دولاراً في اليوم، وهو أجر يزيد قليلاً على ما تدفع للمدربين في مويوك - غير أن بلاك ووتر تتقاضى من وكالة الاستخبارات مبلغ 1.500 دولار عن كل رجل في اليوم. وسبب هذه الزيادة البالغة ثلاثة أضعاف هو إدخال مصاريف التدريب، والنقل، وغيرها، ومع ذلك يبقى فيها مجال واسع للربح. ويمكن للمتعاقد الفرد أن يحصل على أجر قدره 18.500 دولار شهرياً، في حين أن بلاك ووتر تحصل منه على 30.000 دولار في الشهر مضروباً بعدد المتعاقدين ليصل المجموع إلى 900.000 دولار في الشهر. ومع أن هذا العقد كان عقداً صغيراً نسبياً، إلا أنه يظهر أن بإمكان القطاع الخاص تعزيزُ قدراته في وقت الحاجة. وفي غضون ثلاث سنوات، نمت بلاك ووتر من هذه الوظيفة المحددة لتحتل المرتبة الثانية من حيث الحجم من بين الشركات الخاصة التي تقدم خدمات أمنية، بعائدات تصل إلى ثلاثة أرباع مليار دولار في العام.

في الوقت الذي فاز فيه بعقده الأول مع وكالة الاستخبارات المركزية، كان إيريك يعاني من مشكلة وحيدة: أن إمبراطوريته الأمنية تتكون من شخصين فقط هو وجيمي سميث. أدرج سميث إعلاناً في صحيفة واشنطن بوست ضمن قسم التوظيف، وعمل الاثنان بكل ما أوتيا من قوة في تأليف فريقهم الأول. وكانت المتطلبات الأساسية للعمل في هذا الفريق هي: حصول المتقدم على تصريح الاطلاع على مستوى (سي إس آي) من المعلومات السرية، والخبرة في العمل في محيط معاد، والإحاطة بالمتطلبات الصارمة لتدريب الحراس الشخصيين في وزارة الخارجية. وفي غضون أسابيع، تمكنت بلاك ووتر من توظيف، وفحص، وتدريب عدد كافٍ من المتقدمين لتنفيذ العقد الذي أبرمته مع وكالة الاستخبارات المركزية.

توجه الفريق الجديد إلى أفغانستان في شهر أيار/ مايو من عام 2002، وحطت طائرتهم في قاعدة بغرام الجوية. وتوجه إريك برنس - مالك شركة بلاك ووتر، وهو أيضاً رئيسها التنفيذي - إلى أفغانستان وأمضى أسبوعين هناك، ظاهرياً ليعمل بصفة متعهد، مع أن سميث وصف رحلة إريك القصيرة بأنها أقرب إلى أداء دور شبه عسكري لوكالة الاستخبارات المركزية.

كان على أكثر الفريق المكث في العاصمة الأفغانية طَوالَ مدة العقد، لتقديم الأمن والحماية للجزء الذي خصصته وكالة الاستخبارات المركزية لعملياتها من مطار كابول ولمركز عملياتها في فندق أرينا في كابول. وكانت وظيفة الفريق التابع لبلاك ووتر بصفتهم جزءاً من أركان الرد العالمي -وهو وصف تطلقه وكالة الاستخبارات المركزية على الاحتياطات الأمنية المشددة التي تتطلبها للعمل في المناطق المعادية- هي حماية المباني وضمان سلامة تنقل ضباط الاستخبارات إلى الاجتماعات بأمان والعودة. وأرسل أحد من المتعاقدين للمساعدة في مهمة محددة وجيزة في منطقة هيرات، وطلبت الوكالة أن يتمركز اثنان من المتعاقدين في مركز حدودي صغير في بلدة شكن لحماية ضباط الوكالة الذين يعقدون اجتماعات سرية مع زعماء القبائل في المنطقة. وطار جيمي سميث برفقة إريك جنوباً من كابول لتنفيذ العقد في شكن. وكان على سميث أن يمكث شهرين، أما إريك فغادر القلعة المبنية من الطين بعد أسبوع عائداً إلى كابول ليتحدث إلى المسؤول عن عمليات الوكالة هناك.

تتجه رحلة الطائرة المروحية إلى شكن باتجاه الجنوب من كابول، ثم ترتفع عشرة آلاف قدم لتجتاز السلسلة الجبلية التي اشتهرت بعد عملية أناكندة، ثم تهبط متخطية مجمعاً كان يستخدمه أسامة بن لادن في السابق لتحط في قلعة يطلق عليها بعضهم قلعة أباتشي، وهي قلعة كبيرة مبنية من الطين على مساحة قاتمة مغطاة بالغبار في مدينة شكن على بعد ثلاثة أميال من الحدود الباكستانية. وتُعَدُّ وكالة الاستخبارات المركزية هذه المنطقة «منطقة هندية»[1] واختارت هذه النقطة بالذات؛ لأنها أبعدُ نقطةٍ يمكن أن تصلها طائرة

1- ليست النسبة هنا إلى الهند الدولة المعروفة، بل إلى الهنود الحمر. والمناطق الهندية في الأصل هي المناطق التي حددتها الحكومة الأمريكية لإقامة الهنود الحمر الذين أجبروا على ترك مساكنهم وقراهم عام 1834. وأعطيت خمس قبائل متمدنة -وسميت متمدنة؛ لأنها كانت تتبنى نمطاً غربياً في الحياة والتجارة تمييزاً لها عن القبائل الهندية الأخرى التي تمسكت بعاداتها الأصلية- من الهنود الحمر التي منحت شبه حكم ذاتي مع احتفاظ الحكومة الأمريكية بالسيادة عليها. ولكن حالهم لم تدم طويلاً؛ إذ تلاشت هذه المناطق بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وزحف مستعمرات السكان الجدد إلى أن ضمت بقيتها الباقية إلى ولاية أوكلاهوما، ولم يعد للهنود الحمر فيها عين ولا أثر. ووجه الشبه في هذا التشبيه هو الحكم الذاتي للقبائل الأفغانية في تلك المناطق مع بقاء السيادة عليها للأمريكيين.

مـي 17- بيغاسيس من بغـرام، وتعود دون الحاجـة إلى التزود بالوقـود. والسبب الآخر لشهـرة (شكن) هـو أنها أول قاعدة للمدفعيـة الأمريكية تقام بعد حـرب فيتنام. ويوفر فصيـل من قوات الرينجـرز القوة النارية ويقومـون بمهمة الحراسـة الليلية، ويعمل من تلـك القاعدة كتيبة (أو دي إي) التابعة للقوات الخاصة، وقوة الرينجرز، وفريق صاعقة بريطـاني، وقوات من الدلتا، ينطلقون مـن تلك القاعدة في مهمة مشتركة تسمى الوحدة الحربيـة رقم -11 ومهمة هذه المجموعة هي البحث عن ابن لادن، وقلب الدين حكمتيار، والملا عمر، وغيرهم من الأهداف النفيسة، ومع تواتر الشائعات عن تنقل ابن لادن بحرية بين الحدود الباكستانية الأفغانية في المناطق القبلية، ازداد التوتر في تلك القاعدة.

ومع أن قلعة الأباتشـي كانت أبعدَ القواعدِ العسكرية الأمريكيةِ وأكثرَها عزلة، وكانت تتعرض لهجمـات الأعـداء الذيـن كانـوا يباغتونها ثم يعـودون مسرعين عـبر الحدود الباكستانيـة، إلا أن الجنود في الحصن كانوا يمضون وقتهم في أداء التمارين الرياضية، وتدبـير شؤون المنزل، والاستلقاء تحـت أشعة الشمس. وحين كانت تأتي إخبارية من أحد الجواسيـس المحليـين، ينطلق المتعهدون لتحديـد مكان آمن للاجتمـاع - يكون في العادة ممـراً مغلقـاً مؤدياً إلى نبع ناضب، حيث يمكن لشخص أن يراقب الطريق من على رابية مرتفعـة فيما يغلق الآخرون المدخل، ثم يتوجه الضابط المعني بالأمر بصحبة مترجمه في السيـارة إلى المكان المخصصـ لأخذ المعلومات ودفع المقابل، وحين يقترب المخبر المحلي، يخرج المتعهد الذي يغلق الطريق لتفتيشه، وبعد ذلك يرسله إلى الاجتماع.

ومـن حسن الحـظ أن أكثر العمل يجري على نحو اعتيادي، غـير أن الشعور الضمني بكون المرء يحيط به ويراقبه عدو غير عادي، لا يمكن التنبؤ بأفعاله، غير مرئي، متقلب، متغـير، لا شـكل له، كل ذلك يجعل من قدرة التحمل العقلية التي يتطلبها هذا العمل أمراً صعبـاً. واكتشـف إريك وجيمي فوراً أنـه لا يمكنهما الوثوق بالسـكان المحليين، ولا يمكن افتراضـ صحة أي شيء يأتي من طرفهم، وأن عليهـم ألا يضعوا أسلحتهم وألا يتساهلوا في مستـوى الحيطة والحذر تحت أي ظرف من الظروف؛ لأن الأحداث يمكن أن تتغيّر في أثنـاء ثوانٍ معدودة. وقبل وصولهما إلى شكن بوقت قصـير، تعرضت قافلة تابعة للقوات الخاصة لكمين ذهب بحياة ضابط الاتصالات، وكان من الواضح أن الدليلَ الأفغانيَّ خان

المجموعة؛ لأن العربة الأمامية للقافلة التي كان يستقلها الدليل لم تتعرض للإصابة في حين أن باقي العربات رشقت بنيران الكلاشنكوف.

في هذه البيئة المشبعة بالشك والخوف والارتياب، بقيت المجموعة متحفزة على أعصابها، وأخذت الأوهام تنتشر في عقولهم. ويتذكر جيمي، أنه في أحد الأيام، بينما كان يقوم بعملية استطلاع لتحديد نقطة للالتقاء؛ فيقول: كنا نسوق عربتنا في أكثر الشوارع اغبراراً على وجه الأرض، كان ذلك الغبار أشبهَ شيء بمسحوق بودرة الطلق، وكان كثيفاً في الهواء لدرجة أنني اضطررت إلى التوقف أكثر من مرة لعدم تمكني من رؤية الطريق أمامي. وحين كنا على الطريق القديم، رأيت ثلاث حافلات من نوع تويوتا مملوءة بالرجال المدججين بالسلاح تسير صوبنا مستخدمين شارعاً جديداً موازياً للشارع الذي كنا نسير فيه؛ فقمنا بالالتفاف حول زاوية تغطيها بناية ثم أمعنا النظر حولنا لنرى حافلات التويوتا، فلم نجد لها أثراً. لم يكونوا سراباً، ولا يمكن أن يكونوا قد اختفَوْا فجأة عن وجه الأرض، وكان من غير المعقول أنهم لم يهاجمونا. إنها أفغانستان، لا شيءَ فيها يسير بحسب العقل.

أمضى سميث مدة العقد كاملة في أفغانستان، شهرين منها في شكن، والبقية في كابول. أما إريك، فمع قصر المدة التي أمضاها هناك، إلا أنها بعثت فيه نشاطاً وحيوية. وقد أحب بيئة الخديعة والإثارة إلى حد دفع هذا الشاب -الذي ما زال في منتصف ثلاثينيات عمره، الذي يتولى إدارة ثروة أسرة برنس- إلى التفكير بالانضمام إلى قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية والولوج إلى عالم العمليات السرية ضمن القوات شبه العسكرية.

قد يستغرق الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية عدة شهور، غير أن عملية إجراء المقابلات المطوّلة والشاقة في العادة لا بد أنها سرّعت لمصلحة برنس. وبحلول شهر تموز/ يوليو، طلب إريك من سميث أن يقدم له النصيحة بشأن اجتياز فحص البوليغراف لكشف الكذب - وهو العقبة الأخيرة التي يجب أن يجتازها أي متقدم يسعى إلى الحصول على عمل مع الوكالة. كانت نتيجة الفحص الأول الذي أجراه إريك «غير حاسمة»، فكان عليه أن يعيد الفحص. ونصحه سميث بأن هناك عدداً من العوامل التي يمكن أن تكون وراء

تلك النتيجة، ورأى أنها ربما تكون بسبب حالته العصبية. وعلى الرغم من أن إريك قد سبق له أن عمل مع الوكالة بفاعلية في عمليات سرية بصفة متعاقد، فإنه في النهاية يمكن أن يمنع من العمل بصفة «غرير أزرق» (موظف رسمي) إذْ كان يفتقد بعض المهارات الأساسية. بعد هذا عاد إريك ليركز على إنماء شركة بلاك ووتر والنهوض بها.

لم يجدد عقد إيريك برنس الأول بعد انقضاء مدة الشهور الستة، وكان السبب الذي قدمه المسؤولون الحكوميون هو أن بلاك ووتر لم تستطع الاحتفاظ بأعداد كافية من المستخدمين بحسب شروط العقد، ومع ذلك انتشرت شائعات في أوساط صناعة الأمن أن وكالة الاستخبارات المركزية اكتشفت وجود تعارض في المصالح فيما يخص بزي كرونغارد. ومع ذلك لم يكن لهذه الخسارة أي آثار سلبية طويلة المدى على عمل بلاك ووتر؛ لأنها وكما يذكر الرئيس الجديد للشركة غاري جاكسون، قد استقرت على نمط يقضي بأن تقوم بقرابة 15% من نشاطها في عقود «سوداء» - ويفترض أنها مع وكالة الاستخبارات المركزية- وفي هذه الأيام فإن تلك النسبة تعني دخلاً سنوياً يقارب 100 مليون دولار للشركة.

يمكن عدّ أول عقد بين وكالة الاستخبارات المركزية والشركة أنّه أول نقطة تحوّل تشير إلى الاتجاه الذي تسير فيه صناعة الأمن الخاص، وربما نكون أكثرَ دقةً لو قلنا إنَّ نقطة التحول التي تشير إلى الاتجاه الذي تسير فيه الحرب على الإرهاب في هذه الصناعة. إن حالة الحرب السريعة والمفاجئة التي أعقبت هجمات 11 أيلول/ سبتمبر قد استغرقت موارد الحكومة الأمريكية بما يتجاوز ما يمكن توقعه في العاشر من أيلول/ سبتمبر عام 2001، وهو ما أدى إلى خلق فرص أمام الشركات الخاصة لتعويض النقص الذي طرأ على مصادر الأمن الحكومية. والمثال الآخر على حجم هذه الطَّفرة التي شهدها قطاع الشركات الأمنية الخاصة، أن جيمي سميث حاول، منذ أن ترك العمل في بلاك ووتر، أن يركب هذه الموجة من الفرص السانحة، فقام بتأسيس شركة خاصة به أثبتت نجاحها حتى الآن، وهي مجموعة سميث الاستشارية للمخاطر الدولية[1]، متخذاً من فيرجينيا بيتش مقراً لها.

1- SCG - Smith Consulting Group International Risk.

إن أهم مصدرين حكوميين طويلي الأمد لعمل المتعاقدين المستقلين في المجال الأمني وشبه العسكري في أفغانستان هما البحث عن أسامة بن لادن، وتوفير الحماية الشخصية للرئيس حامد كرازاي. وفي سعيي إلى التجوال في عالم المتعهد الأمني الخاص، قمت بوضع ترتيبات لزيارة صديق قديم لي كان يعمل في القوات الخاصة، وهو الآن مكلف بحماية حياة حامد كرازاي. وفي أثناء وجودي في أفغانستان، كنت آمل أن أشاهد تقدم عملية البحث عن ابن لادن.

وبعد سنتين من بدء الحرب، تجولت في أفغانستان؛ لكي أشاهد كيف تغيرت الحرب على الإرهاب.

الفصل الثاني

على حافة الإمبراطورية

«ليس لدي أدنى فكرة عن هوية الأشخاص الذين نقاتلهم»

- عضو في مجموعة المهمة الخاصة 11

في مكان ما على الحدود الفاصلة بين باكستان وأفغانستان، كان هدير المروحيات في حكم الموسيقى الخلفية لرقص رشيق متشابك للباليه الجوية الذي تؤديه الطائرات المروحية فوق رأسي. كان يوماً بارداً من أيام كانون الأول، وكانت طائرتان مروحيتان أمريكيتان من طراز هيوي تحومان حول ربوة تبعد مسافة 450 متراً إلى الشرق. اقتربت الطائرة مني كثيراً إلى الحد الذي تمكنت فيه من شم رائحة الغاز العادم المنبعث من محركاتها التوربينية ورؤية قناص يلبس خوذة ويقبض على بندقيته الآلية. كان رجع صدى الصوتِ القوي الثابتِ يتردد بين الجبال حين كانت إحدى الطائرات تستعد للهبوط وتتفحص المنطقة المحيطة وكأنها مترددة في الهبوط، في هذا المرتع الوخيم. في حين انقضَّت الطائرة الأخرى خلف التلال كصقر غاضب، باحثة عن مهاجمين محتملين.

ومن معقلي الصغير على قمة جرف شديد الانحدار، نظرت إلى الغور العريض المقابل لمدفعية بالية مضادة للطائرات موجهة نحو باكستان. ومنذ انتهاء مرحلة العمليات العسكرية الناشطة في أفغانستان، بدأ المتعهدون الأمنيون العاملون في الشركات الأمنية الخاصة بتمشيط هذه المنطقة، بالتعاون مع أفراد من الجيش الأمريكي ووكالة الاستخبارات المركزية بحثاً عن ابن لادن. وأنا أجلس على طرف الطريق المؤدي إلى قاعدة عسكرية أمريكية صغيرة غير مسماة، وغير محددة على أي خريطة رسمية، تعمل فيها وحدات تبدو كأنها وحدات قوات خاصة، إضافة إلى مرتزقة من الأفغان. وتوجه

الأسلحة المعبـأة بالذخيرة نحو حدود دولة حليفة [باكستان]، أما العربات والحافلات في تلـك القاعدة، فتركت محملة تحسبـاً للمغادرة على عجل. وعلى التـلال المحيطة أقيمت نقــاط مراقبة مشابهة من الهيسكوس- وهي صندوق رمـادي طوله خمسة أقدام (1.52 مـترًا)، مملوء بالحجارة ومحـوط بالأسلاك الشائكـة. وعلى ظهـر الهيسكوس وضعت أكياس من الرمال بطريقـة عشوائية، وكومة من الذخيرة، وتضفـي لفافة من الأسلاك المعدنيـة فضية اللـون التي تستخدم في نصـب الشراك، على ذلـك المشـهد مسحة من جنـون الارتياب. ومـن مسافة بعيدة، تبدو هذه القلاع التي أقيمت على عَجَل كأنها قلاعاً مـن عهد الصليبيين من العصور الوسطى، أما عن قـرب فتبدو تحصينات غير منتظمة للحماية من الهجمات.

وباستخـدام منظار مقرب في معاينة المنطقة، يمكنني مشاهدة التلال الممتدة والوديان السحيقـة، وأشجـار الصنوبر المتباعدة عن بعضها. ومن مسافـة سحيقة أسفل منا، كانت شاحنات الجنغا ذات الألوان الزاهية، المحملة فوق طاقتها، تقعقع وتئن من وعورة الطريق وهي تنقل البضائع من باكستان إلى أفغانستان. وإلى يساري باتجاه باكستان، أشار الأفغان المضيفون إلى جبل قالوا: إنَّ القذائف التي تطلق عليهم في العادة تنطلق منه. وتتمتع الشرطة القبلية الباكستانية -رسمياً- بسلطة حفظ الأمن في المناطق القبلية الجبلية داخل الحدود الباكستانية، في حين يتولى الأمريكيون مهمة حفظ الأمن في الجانب الأفغاني. وإنْ لم يكن جهـاز تحديد الموقع (جي بـي أس) الذي معي مخطئاً، فإن هذا الموقع الأمريكي والمسلحين الأفغان العاملين فيه، هو داخل الأراضي الباكستانية بعمق خمسة أميال.

صـاح الجندي الأفغـاني الذي يعمل في هـذه القاعدة الأماميـة وكان يقف إلى جانبي متبسمـاً «رفاقـك الأمريكيون!» مشيراً إلى الطائرة المروحية التـي وصلت لتوها. كان هذا الجندي يرتدي الزي العسكري الأمريكي ويضع نظارة شمسية زرقاء اللون، وهو واحد من بين أربعين من الأفغان الذين استخدمهم الجيش الأمريكي لحراسة هذه القاعدة الأمامية براتـب مرموق يبلـغ 150 دولاراً في الشهر. وهم يسكنون في قلعـة أثرية مشيدة من الطين علـى مقربـة من التل المجـاور، وكل ما يقتنونه من زينة وأثاث في هـذا المنزل المتواضع هو

تقـويم دعائي باكستاني، وصناديق الذخيرة وبعض الكراسي البلاستيكية الرخيصة، لكن هذا هو مسكنهم، وهم يفعلون كل ما بوسعهم لإكرامي والقيام بحسن ضيافتي.

يقـول الجيش الأمريكـي: إنَّ القواعـد الرئيسة في خوسـت، وغارديـز، وأورزغان، وأسدآذ بـاد هي الجبهة الأمامية في الحرب على الإرهاب، غير أن وكالة الاستخبارات المركزيـة الأمريكية والجيش الأمريكي يعملان معـاً في عدد من القواعد الأصغر حجماً قـرب الحدود الباكستانيـة كهذه القاعدة التي زرتها، وهي قاعدة يفترض أن تبقى دون اسـم، غـير أن النـاظر في وجـوه هؤلاء الأفغان يشعـر بأن هذه السرية لـن تدومَ طويلاً علـى أي حال. ويتركز جـل اهتمام الإعلام في هذه المنطقة على بلـدة شكن ذات الوقع الروسـي على أذن من يجهـل الجغرافية، وهي بلدة تقع إلى الجنوب من هنا. ومن عهد قريب، شهدت القلعة المشيدة من الطين في هذه البلدة مرور أكبر تجمع للصحافيين في أفغانسـتـان، وتكـون الزيارات المنظمة لهذه البلدة في العـادة مصحوبة بعبارات مبتذلة وشعـارات دعائيـة سينمائيـة، وصفها ضابط الاتصـال الإعلامي في باغـران بصوت بهيـج بأنهـا «أشرّ مكان في العـالم»، ووصفها قائـد القاعدة العسكريـة أمام مجموعة مـن المراسلين وعلى وجهه ملامح الجد «أنها شيء مـن ماد ماكس»[1] وحتى الثلاث مئة جنـدي أمريكي المتمركّزين في شكن هـم الآخرون يكررون الحديث عن «قلعة أباتشي»[2] أو «آلامـو»[3] أمـام الصحافيـين المتلهفين إلى المعلومـات والإثارة. وربمـا أسرّ لك بعض الصحافيين بأن الجنود في قاعدة شكن تلقوا تعليمات خطية من قادتهم بعدم التحدث عـن العمليات التي تجـري وراء الحدود الأفغانيـة، أو عن حجم القذائـف المدفعية، أو

1- في إشارة إلى الفيلم الأسترالي ماد ماكس (ماكس المجنون) 1979، وهو من بطولة مل غيبسون الذي مثل دور ضابط الشرطة في منطقة نائية تنتشر فيها الجريمة، وهو يحاول حفظ الأمن على الطريق السريع في المناطق النائية من أسترالية، وتبع هذا الفيلم سلسلة من الأفلام عن هذا الشرطي الملقب ماد ماكس. منها ماد ماكس2: فارس الطريق السريع. 1981، وماد ماكس ما بعد العاصفة. 1985. (عن موسوعة إنكارتا بتصرف)

2- إشارة إلى فيلم الكاوبوي قلعة آباتشي (1948) من بطولة جون وين.

3- نسبة إلى قلعة آلاما في مدينة سانت أنتونيو بولاية تكساس، وهي القلعة التي شهدت أعمالاً وتضحيات بطولية في الحرب الأمريكية المكسيكية.

القنابل الذكية، أو العيارات النارية، التي تطلق باتجاه الحدود الباكستانية؛ وبذلك أحرز الجيش الأمريكي ببراعة فائقة هدفه في تنفيذ عملية سرية، تحت مسمع ومرأى الصحافيين الذين يزورون المنطقة، دون علمهم بهذه العملية.

وعلى الرغم من الإحصاءات الرسمية التي تقول: إن تسعة أعشار الخسائر في الأرواح في صفوف الجنود الأمريكيين تحدث في هذه المنطقة، إلا أن القلعة المبنية من الطين في مدينة شكن ربما تكون واحدةً مِن آمنِ النقاط على الحدود مع باكستان. إن أكثر الهجمات التي نجم عنها قتل أو جرح جنود أمريكيين في هذه المنطقة كانت نتيجة كمائن تنصب خارج نطاق هذه القاعدة، ويصر الأمريكيون على أنَّهم يستنزفون قوة طالبان والقاعدة، ولكن العكس ربما يكون هو الصحيح. وما يحدث هو أن لغماً أرضياً بعيداً ينفجر ويصاب على إثره جندي أمريكي بجروح، ثم تأتي الطائرة المروحية لإنقاذه، ونظراً لسهولة إسقاط المروحيات، تصبح الطائرة هدفاً سهلاً لقوات المقاومة؛ وهذا الوضع يجبر الأمريكيين على حماية خطوط يصعب تأمينها، وهذا التحرش العرضي القصير الذي يهدف إلى استدراج مزيد من قوات الحماية إلى كمين كبير هو مثال تقليدي على التكتيكات التي استخدمها المجاهدون الأفغان في الثمانينيّات. وعلى الرغم من أن هذه التكتيكات وثقت على نطاق واسع، وتدرس في كليات الحرب، فإنه يبدو أن إستراتيجية المجاهدين قد نسيها المجندون الجدد الذين يقاتلون على التخوم.

تطل القاعدة الأمامية التي وصلتُ إليها على سلسلة جبلية مشهورة بين مدينة ميرام شاه الباكستانية، وبين جارتها الأفغانية خوست. وكانت ميرام شاه قاعدة إمدادات ومحطة استراحة ونقاهة للثوار المجاهدين الذين قاتلوا الاحتلال السوفييتي في الثمانينيات، ولا تزال مركزاً رئيساً للتهريب. ويعتقد الجيش الأمريكي، والحكومة الباكستانية، وغيرهم أن أسامة بن لادن مستخفٍ في المناطق الجبلية لقبائل البشتون في مكان ما بين خوست ومدينة بيشاور الواقعة في شمال باكستان. وقد عمل ابنُ لادن هنا وقاتلَ إلى جانب المجاهدين في هذه المنطقة في الثمانينيات، ثم عاد إلى هذه المنطقة بعد

أن خرج من السودان أواخرَ التسعينيات، وليس من المستغرب أن تستمرَّ الهجمات المنظمةُ على الأمريكيين والحكومة الأفغانية في أعلى معدلاتها في هذه المنطقة.

عدت إلى أفغانستان بعد سنتين كاملتين من بَدْءِ الحرب أواخرَ عام 2001. وفي أثناء هـذه الزيارة، بـدأت القـوات الأمريكية بشن حملة أطلـق عليها عمليـة التيهور، شارك فيهـا زهاء ألفي جنـدي ومئات من غارات الطائرات المروحية في محاولة عقيمة للقضاء علـى فلول طالبان وشبكة القاعـدة في المناطق الحدودية حول خوست. فعمليات المقاومة الهامشيـة التقليديـة لم تتوقف في هذه المنطقـة منذ انتهاء المعـارك الرئيسة، مع وجود جيـوب لا يستهـان بها تدعم طالبان، وجماعـات التهريب، وزعمـاء الميليشيات المحلية، وهـي عوامل تجعل مـن الاستقرار في هذه المنطقة مـن أفغانستان احتمـالاً بعيدَ المنال. ومـع تحول التركيز بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر إلى ابن لادن، فإن الأحداث الراهنة تغفـل ذاكرة تاريخ الحروب المتواصلـة في أفغانستان. لقد كانت هذه المنطقة هي الحافة التي وصلت إليها إمبراطورية الاسكندر المقدوني، والإمبراطورية البريطانية، ومن عهد قريـب الروس. وكالموجة العالية المندفعـة التي تختفي وتغوص في الرمـال عند وصولها الشـطِّ، واجهت الأفـكار العظيمة والحملات العسكرية ثبـات ومقاومة الشعب، والمكان، وفكـرة أفغانستان. واليوم، يجـد الأمريكيون أنفسَهم في الواجهـة المقابلة لخط دوراند الحـدودي، حيث بدؤوا مـن هناك بإنفاق الأمـوال وممارسة التأثير لقتـال الروس قبل عقدين من الزمان.

وفي أثنـاء الحرب الروسية علـى أفغانستان، أوصى جهاز الاستخبـارات الباكستاني بتقـديم الدعـم للطرف الأفغـاني بالمال، والسـلاح، والذخـيرة، والتدريـب، والنصائح العملياتيـة، وتوفير الملاذات الآمنة، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بسياسة ظاهرية بعدم التدخـل، والقـدرة على إنكار وقوع التدخـل. وكان نموذج «الحرب بالإنابـة» هو النموذجَ المفضـلَ مـن الحرب العدوانيـة؛ لأن أي هجوم مباشـر من قبل باكستـان أو الأمريكيين، أو غيرهـم، كان من المتوقع أن يلقـى استنكاراً عالمياً، وربما انتقامـاً من السوفييت. غير

أن عـزوَ المسؤوليـةِ عن العنف إلى الجماعات الجهادية المحليـة من شأنه أن يعززَ الفكرةَ القائلةَ بوجود حركة مقاومة ذات جذور شعبية تقاتل لدفع الظلم والعدوان.

قامـت باكستـان بإنشـاء جيش غير نظامي تحـت مسميـات دينية، وقدمـت الدعم لجماعـات سياسية في بيشـاور (...)، ولتحقيق ذلك، أنشـأت الاستخبارات الباكستانية وكالـة أفغانية داخليـة مختصة بإنشاء معسكـرات للتدريب، ونقـل الأسلحة والإمدادات مـن باكستان إلى الحدود، وضمان إيواء وإطعـام آلاف المتطوعين، وكسوتهم، وتدريبهم، وتجهيزهم للجهاد دون أن يعكرَ ذلك صفوَ العلاقات الدولية.

بعث العالم الإسلامي بشبابه الغاضب المتحمس المؤمن بالأفكار المثالية، الذين سرعان ما تشربوا الرغبة الدينية .. التي تجعل تحقيق الهدف الأسمى للإنسان عبر الشهادة والتضحية بالنفـس. ولا يقتصـر الجانب الأهم في عقيدة الجهاد على فكرة المـوت بوصفه أعلى مراتب التضحية؛ بل يشمل فكرة أن الأمراء العظام يمكن أن يقاتلوا إلى جانب عامة الناس و وضعاء الفلاحـين، وإذا لم يتمكـن شخص مـا من المشاركـة في القتال، فإن دعـم وتجهيز المقاتلين الورعين هو في حكم المشاركة الفعلية ويكفي للوفاء بمتطلبات الجهاد الشرعية (...).

(...) اعتمـدت إستراتيجية جهـاز الاستخبارات الباكستانيـة في مواجهة السوفييت على الافتراض بأن خطة السوفييت تقوم على إنشاء سلسلة رئيسة من القواعد العسكرية في المواقـع الإستراتيجيـة والطرق الموصلـة بينها. وكما كان متوقعاً، فقـد بقي السوفييت خارج المناطق الريفية جاعلين قاعدتهم المركزية في بغرام إلى الشمال من كابول. وقاموا كذلك بإنشاء نقاط محصنة، واجتهدوا في إرسال دوريات المراقبة لقطع خطوط الإمداد ومنـع المقاتلين من الدخول عبر الحدود الباكستانية. ونجح المجاهدون في محاصرة هذه النقـاط العسكرية والاستيلاء عليها من وقت لآخر بعد رصدها وتقدير قوة الجنود فيها، والذخائـر والإمدادات الموجـودة فيها، والوقت الذي يتطلبه وصـول الدعم الجوي إليها. وكان المجاهـدون حريصـين على عـدم التورط في خوض معارك تقليديـة يمكن أن تلحق بهم خسائر فادحة، مكتفين بأسلوب الكر والفر والهجمات المباغتة، وكسب الجولة الأولى

ثـم الاختفاء في أماكن آمنـة. واستخدموا بنجاح النموذج المؤسـس على دروس الجنرال غياب في الهند الصينية- وهي التكتيكات نفسها التي هزمت الجيش الأمريكي في فيتنام عـن طريق جره إلى حرب عصابات دموية. فالروس لم يهزموا بمعركة واحدة، بل جاءت هزيمتهم نتيجة حرب استنزاف طويلة الأمد، باهظة التكاليف، تفتقر إلى الدعم الشعبي داخل الاتحاد السوفييتي، فاضطرتهم إلى الانسحاب والتراجع خلف الحدود.

استخدم المجاهدون هذه التكتيكات في حربهم على الروس كما يستخدمونها اليوم في حربهـم مع الأمريكيـين. والتطور الحديث الذي طرأ على هـذه الحرب هو هواتف الثريا التـي تعمل بوساطة الأقمار الصناعيـة، وتفجير القنابل عن بعـد (وتستخدم فيها عادة جهاز لاسلكي أو جهاز تشغيل سيارة من بعد). وتعود نشأة نظام المقاومة القائم اليوم إلى الدعـم المالي الذي قدم أيام الجهاد ضد السوفييت، غـير أنَّ قنوات التمويل، والتدريب، واللاعبين، والتكتيكات موجهة الآن نحو طرد ومضايقة الجيش الأمريكي، وأوجه التشابه بـين الحالـين لافتة للنظر: فاليـوم، تقوم السياسـة الأمريكية على دعـم حكومة صديقة وتعمـل على تدريب جيش محلـي (كما كان يفعل الروس)، وتجنـب المواجهة الحادة على الأرض (كما كان يفعل الروس)، مؤثرة الطيران من القواعد العسكرية الرئيسة والبقاء داخـل معسكرات محصنة (كما كان يفعل الروس)، غـير أنَّ الفارق الجوهري في الوقت الحاضر هو الأعداد الكبيرة للمنظمات غير الحكومية التي تقوم بتنفيذ الأجندة الغربية، وإهمـال النظام التعليمـي، واستخدام المتعاقدين الأمنيين مـن القطاع الخاص، وانعدام التدفق السـري الهائل للأموال الأجنبية لدعم إخراج «المحتـل» الأجنبي من أفغانستان، والغيـاب المتعمد لأسماء الجماعات التي تهاجم الغربيـين وأتباعهم من المرتزقة. وينظر الأمريكيـون إلى وجودهم في أفغانستان بوصفه نصـراً على الإرهاب، في حين يرى جنود المقاومـة في مشاغلـة الأمريكيـين واستنزاف مواردهـم نصراً لهم. ويمكـن لأي أفغاني أن يقـول لك، كـم استغرقنا من الوقت لهزيمـة البريطانيين؟ وكـم استغرقنا من الوقت لإخراج الروس وهم يجرون أذيال الهزيمة؟ وبالمثل، فإن الحرب على الاحتلال الأمريكي لأفغانستان يمكن أن تصبح ثأراً يمتد عبر الأجيال.

استكملت الدعاية الإعلامية للجهاد عناصرها الأساسية في أثناء الحرب على الاتحاد السوفييتي (...). وفي اعتقاد الأفغان، كانت تلك الحرب مثالاً آخر يدعم مقولة أن أفغانستان هي دوماً مقبرة لكل معتدٍ أجنبي، وإن قدّم معتدون أجانب المال والسلاح لهزيمة معتد أجنبي آخر. ويتذكر أكثر الرجال الأفغان من بين سن الثلاثين إلى الستين قصصاً درامية عن مصارع الروس، وإسقاط مروحياتهم، وحرق قوافل جنودهم، والهجمات المضادة العنيفة التي ألحقوها بهم. ويتحدث كل أفغاني عن الجهاد بفخر واعتزاز، وقدمت لهم تجربة الجهاد نبعاً غزيراً من المشاعر الوطنية، ولكنهم يتناسَوْن عن قصد قيام المقاتلين الربانيين في منتصف التسعينيات وبعد خروج الروس، بتدمير كابول، وارتكاب المذابح. وما زال كثير من هذه الجماعات الأصولية يقدم الدعم للجهاد ضد الأمريكيين اليوم في أفغانستان. ولم ينس أكثر السكان المحليين إسهامات ابن لادن وجهاده في تلك الحرب.

ولا تزال المنطقة المسمّاة «منقار الببغاء»، وهي منطقة باكستانية تمتد داخل أفغانستان أسفل تورا بورا وفوق خوست، تمثل نقطة الضعف في العمليات الأمريكية. وكانت خوست، ولا تزال، بقلاعها الجبلية في زهوارخيلي، مركزاً تقليدياً للمقاومة؛ وما زالت مدينة ميرام شاه التي تقع قبالتها، ملاذاً آمناً للقوات المنسحبة بعد تنفيذ الهجمات. وفي ثمانينيات القرن الماضي، كانت مدينة ميرام شاه نقطةَ العبور لعشرين في المئة من احتياجات المجاهدين للسلاح. وهي اليوم تمثل أسرع طريق إلى كابول وأسهل مكان لشن هجوم على الأمريكيين والعودة بأمان عبر الحدود. وقد تعرض عدد من المراكز الحدودية لهجمات مكثفة جنوب خوست مراراً وتكراراً. وتعد المدينتان الباكستانيتان: وانا وأنغور آدا أهمَّ نقطتين لانطلاق الهجمات التي تستهدف القاعدة الأمريكية في شكن، إلى الجنوب من مقاطعة بكتيكا.

يعد السفر من داخل أفغانستان إلى باكستان فيما يخص الرعايا الغربيين أمراً سهلاً وميسوراً؛ أما السفر إلى الحدود الأفغانية من داخل باكستان فإنه يقارب حدود المستحيل.

ويتولى فرض اللافتة المشهورة في المناطق القبلية التي تقول: «يُمنع دخول الأجانب» جنود باكستانيون، طِوالُ القامة، نحالُ الجسم، يلبسون ستراً صوفية بنية اللون وأحذية رخيصة. وتعد هذه المنطقة الحدودية بين باكستان وأفغانستان في نظر المجتمع الدولي مناطقَ قبلية. غير أن رسامي الخرائط تعمدوا التضليل. فالمناطق القبلية لا تخضع كلها لفكرة «باكستان» بل ترى نفسها مركزاً لأمة مستقلة تدعى باشتونستان، وهي كَيان شطر إلى نصفين في عهد الاستعمار الإنجليزي بالخط الحدودي المسمى خط دوراند.

يمر خط دوراند فوق قمم سلسلة من الجبال، وهو خط وهمي متعرج وضع في الأصل للفصل بين الهند وأفغانستان. وقام ضابط بريطاني اسمه السير مورتمير دوراند برسم الخط الحدودي الذي يبلغ طوله 1519 ميلاً ليفصل بين الهند وأفغانستان تنفيذاً للاتفاق الذي أبرم مع أمير عبد الرحمن خان في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1893. وفي ذلك الوقت، عارض البشتون الذين يقطنون المنطقة تنفيذ هذا التقسيم، ومنذ ذلك الوقت كان يجري، قدرَ الإمكان، تجاهلُ هذا الخط الحدودي غير المحمي، وغير المحدد بوضوح.

كانت الحكومة الباكستانية، ولا تزال، تجد صعوبة في كسب ولاء المناطق القبلية لها. ويعترف قادة باكستان منذ تأسيس الدولة أنهم يواجهون وضعاً قابلاً للتفجر في تلك المنطقة. ومع أن البشتون يشكلون ما نسبته 12% من سكان باكستان، إلا أنهم يسيطرون على 40% من أراضيها. ولو قدر لقبائل البشتون في الطرف الباكستاني الاتحاد مع أبناء جلدتهم في أفغانستان (الذين يقدر تعدادهم بنصف سكان أفغانستان) في كيان مستقل، لتحولت باكستان إلى دولة صغيرة، أكثر سكانها من البنجاب، تكون هدفاً سهلاً لعدوان هندي. من أجل ذلك تهتم باكستان بالشأن الأفغاني وتأثيرها فيه أيَّما اهتمام.

قدم الجهاد ضد الروس فرصة مثالية لتعزيز المثل الدينية العالمية على حساب التطلعات البشتونية القبلية. واليوم تعمل باكستان بحذر في هذه المنطقة عن طريق استخدام جنود يجري تجنيدهم من المناطق القبلية، ولا تتدخل بالشؤون المحلية إلا بموافقة زعماء القبائل.

جهـزت نفسـي للانطلاق من خوست في رحلـة تستغرق يومـاً إلى المنطقة الحدودية، وذلـك على الرغم من مناشدة الحكام الإداريين لي، في كل من غارديز وخوست، بتجنب الذهـاب إلى هنـاك، وكان يرافقنـي دليـل محلي مـن أقارب أحـد الزعمـاء الأفغان في المنطقـة. ذهبت في هذه الرحلة؛ كي أشاهـد بنفسي كيف تسير عملية مطاردة ابن لادن، ولكـي ألاحـق المتعاقدين الأمنيين الأمريكيـين المتملصين الذين يقـال: إنهم يشاركون في هـذه العملية، غير أن هذه الرحلة «المحفوفة بالمخاطر» كانت مخيبة للآمال بعض الشيء حـين لم أقابل بالريبة والشـك؛ بل بالكرم وحسن الضيافة. وحـين وصلنا إلى آخر نقطة تفتيـش أفغانية، لم يطلب حرس الحدود منـا إبراز جوازات سفرنا، ولم يفتشوا سيارتنا، ولكنهـم أصـروا على أن ننزل ونشرب معهم الشاي. لمـاذا لم يشكوا فينا؟ كانت إجابتهم مفاجئـةً لي: «لـو أراد أحد أن يتسلل إلى هنا، فإن بإمكانـه أن يستخدم العدد الكبير من نقاط العبور غير المحروسة». ثم اكتشفت في تلك اللحظة أن توهم وجود حدود تفصل بين أفغانستان وباكستان، يعادل توهم الأمريكيين بالسيطرة عليها.

لا توجـد أي علامـة أو إشـارة تميز أفغانستان عـن باكستان على الحـدود الحقيقية التـي تفصل بين البلدين، ولا توجد حدود يمكن تمييزها بالمعنى الحرفي للكلمة. وبحسب معطيـات جهاز تحديـد الموقع عن طريق الأقمـار الصناعية الذي كان معـي، فإن المكان المفترض فيه أن يكـون حداً بين الدولتـين، لم أرَ فيه سوى امتـداد منفسح مغطى بتلال ذات أشجـار خفيضة. ويوجد في المكان بعض المحـال التي تبيع الشاي، وبعض الصناديق الخشبية الصغيرة التي يمكن عدها متاجر صغيرة لبيع الحاجيات الضرورية، وتجمعات مـن الأفغان المتربعين في جلستهم المعتادة على الأرض يتبادلون أطراف الحديث. ويقف سائقو سيارات الأجرة في انتظار الزبائن، وينتظر الأصدقاء وصول أصدقائهم. ويمضي الأقارب وقتهم في الحديث والضحك.

وإلى الجهـة الغربيـة من الـوادي، رأيت مجموعـة صغيرة مـن الباكستانيين يلبسون القميص والسترة والسراويل، وخلفهم مجموعة متنوعة من الباصات الصغيرة البيضاء والسيـارات. وقيل لي: إنه لا يسمـح للناس بالدخول إلى باكستـان بسياراتهم؛ بل عليهم

أن يستأجروا سيارة تكسي باكستانية مرخصة. وتوقفت الباصات من الشمال والجنوب خلف سحب من الغبار الأبيض؛ ونزلت الأسر لتسير تجاهنا دون أن يتعرض لهم الجنود الباكستانيون بسؤال أو متابعة. أثار عدم اهتمامهم بالناس الذين يعبرون الحدود من إلى أفغانستان فضولي، فمشيت نحو ثلة من الجنود الباكستانيين؛ كي أسألهم عن السبب.

افترضت أن الجندي الذي يمسك العصا المخططة هو الشخص المسؤول عنهم، وكنت محقاً في ظني. سألته إن كان هناك عناصرٌ من طالبان أو من الأجانب يعبرون الحدود لمهاجمة الأمريكيين في أفغانستان. فرد بنبرة المتيقن «هذا غير صحيح، الأفغان يكذبون». وكان حولي قرابة عشرين أفغانياً ينتظرون وصول سيارات الأجرة أو ربما يراقبون التدفق المستمر للناس ذهاباً وعودة. ويقبع على رأس الرابية المشرفة على الوادي في الطرف الباكستاني حصن يعلوه هوائي جهاز اتصال لاسلكي. رآني الباكستانيون وأنا أصور بكاميرا الفيديو فقالوا لي: إن التصوير ممنوع في المنطقة، فرجعت إلى الوراء بضعة أمتار عبر أخدود منخفض إلى منطقة حسبتها تقع في أفغانستان وتابعت التصوير.

صورت الحافلة تلوَ الحافلة وهي تفرغ حمولتها من الركاب ومجموعات الرجال وهم يدخلون إلى باكستان دون سؤال أو استفسار. وبدا أنَّه لا أحدَ من حرس الحدود الباكستانيين يكلف نفسه مشقةَ السؤال عن هُوية شخصية، أو وثيقة سفر. وعدت أسائل نفسي عن مدى صدق الجندي الباكستاني ذي العصا المخططة في ادعائه بعدم وجود مقاتلين يعبرون الحدود الباكستانية لمهاجمة الأمريكيين في الجانب الأفغاني. وفيما بعد، وحين تناولت الشاي مع مجموعة من الأفغان أسفل تلك التلال، قالوا لي: إن العرب والباكستانيين ينقلون الأسلحة ليلاً على ظهور الحمير عبر التلال القريبة من هنا. ويبدو أن الجنود الباكستانيين موجودون هنا بصفة رمزية وأن سبب وجودهم هو لرفع مستوى مرتباتهم المتدنية. وينتمي ولاؤهم الأسمى إلى زعماء القبائل في المدن داخل الحدود، وليس إلى حكومة مشرف المركزية. وينبع قرار السماح بحركة الناس عبر الحدود من سلطة أعلى من سلطتهم كثيراً.

عـدت في اليوم اللاحق إلى خوست، وأوقفت شابـاً أفغانياً يحمل في يده هاتفاً نقالاً من نوع ثريا، وقلت له: إنني أرغب بلقاء الأمريكيين في هذه المنطقة، علماً بأنني حين سألت هذا الشخص قبل عدة أيام عن زيارة المنطقة الحدودية، نصحني بعدم الذهاب بسبب الأخطار المحيطـة بالمنطقة. واليوم ها هو ينصحني بالذهاب لرؤيـة أصدقائي الأمريكيين. والفرق هـو الحافـز المالي. وهذا كل ما يمكـن قوله عن سرية الاستحكامـات التي يدعمها الجيش الأمريكي في المنطقة؛ لأنني اكتشفت للتوِّ سرَّ تحديد مواقعها، وهو أن تسأل أي شخص من السـكان المحليين يجيد اللغة الإنجليزيـة ويحمل بيده هاتفاً نقالاً يعمـل عن طريق الأقمار الصناعية تبلغ قيمته 800 دولار أمريكي. وفي رحلة قصيرة بسيارة أجرة، وصلت إلى نقطة الاستحكام الجرداء فوق هضبة مطلة على وادٍ يؤدي إلى ميرام شاه باتجاه خوست.

وعلى الطريق المـؤدي إلى القاعدة على قمة الهضبة، كانت هناك عربتان مصفحتان مـن طـراز همفي، وحافلة نقل صغيرة ذات لون بني فاتح تعلوهـا لوحة برتقالية، وسيارة مـن نوع لاند روفر مموهـة باللونين البنـي والأخضر، ويتبعها جميعـاً قافلة من حافلات نقـل صغيرة من نوع تويوتا مملوءة بالجنود الأفغان المسلحين الذين يشيرون مستعرضين أسلحتهـم الكثيفة وقفازاتهم الجديدة ونظاراتهم الشمسية. وبينما أنا واقف أراقب هذه القافلـة المكونة مـن سبع حافلات وهي متجهة إلى نحو مدرج هبـوط الطائرات المروحية أعلى الهضبة المجاورة، كنت أفكر بوسيلة أبدأ بها الاتصال. قفزت أسفل الدرج المصنوع مـن أكياس الرمل كي أتحدث إلى القائد الملتحي شاه آدم. وبلغة بشتونية مكسرة، أشرت بيـدي إلى الطائرات المروحية التي كانت تحلق في سماء المنطقة وقلت «أصدقاء». أركبني آدم في حافلة تويوتا كانت تابعة لحركة طالبان في السابق، وسرت برفقة الأفغان في رحلة ملتويـة من القاعدة الموجـودة على قمة الهضبة إلى مدرج هبوط الطائرات المروحية على قمة الهضبة المجاورة. وبين هذين التلّين شاهدت مزيداً من الجنود الأفغان الذين يعملون لحسـاب الأمريكيين يقومون بملء أكياس الرمال لبناء قاعدة استحكام أخرى أقرب إلى باكستان. وكما هو متوقع، أقيمت هذه القواعد في مواجهة باكستان، وبدت بوضوح الحقيقة المؤلمة أن العدو -وكما ذكر لي أحمد شاه مسعود مراراً وتكراراً- هو باكستان.

لما وصلنا إلى مدرج الهبوط، غادرت طائرتا هيوز تاركتين مجموعة من كبار الضباط يلبس كلٌ منهم سترة واقية من الرصاص ويحمل على جنبه مسدساً. وتبدو قصة شعرهم الفضي حديثة العهد، وخوذاتهم اللامعة، وبزتهم العسكرية الأنيقة على النقيض من الحال الرثة لحراسهم الشخصيين من القوات الخاصة. ركب الضباط في عربات القافلة التي استدارت وتوجهت في طريقها إلى القاعدة الموجودة على قمة الهضبة.

ويبدو أن الأشخاص الذين بَقُوا لحراسة مدرج الهبوط هم من وحدة المهمات الحربية الخاصة - وهي واحدة من بين مجموعة من المجموعات النخبوية المكونة من أفراد من القوات الخاصة، وقوات الدلتا، وقوات سيل، والقوات شبه العسكرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، بالإضافة إلى المتعاقدين الأمنيين الموكول إليهم مهمة تعقب الأهداف ذات القيمة العالية. ويبدو أن هذه المجموعة مكونة من جنود تابعين لمجموعة القوات الخاصة العشرين، وهي وحدة من قوات الاحتياط أرسلت من ولاية آلاباما، وفيها جندي شاب من سلاح الجو يتولى مهمة تنسيق الدعم الجوي، وشخص أمريكي آخر يلبس ثياباً مدنية -بنطالاً حنطيَّ اللون، وسترةَ مصورين، وحذاء لتسلق الجبال، وكان يلبس نظارة شمسية من نوع أوكالي، ويقبض بيديه على بندقية إي كي-47 (كلاشنكوف) وهي سلاح غريب لشخص أمريكي، حتى في هذه المنطقة المشجرة النائية. وفي أثناء حديثي معه، أكد هذا المتعاقد شكوكي -وهي أنني رأيت للتو وحدة المهمات الخاصة-11 لكنه في هذه اللحظة استدار ومشى إلى الجهة الأخرى حين اقتربت من المجموعة.

تزعم الحكومة الأمريكية أن هذه المجموعة التي أنظر إليها الآن غير موجودة، وهي لا تكتفي بنفي أن هناك عمليات تجري داخل الحدود الباكستانية وحسب، بل إن وحدة المهمة الخاصة 11 قد حلت ولم يعد لها وجود، وكذلك حال وحدة المهمة الخاصة 5، ووحدة المهمة الخاصة 20. وفي شهر يوليو من عام 2003، صدر عن القيادة المركزية الأمريكية بيان قالت فيه: إنها حلَّت وحدة المهمة الخاصة 11، واصفة إياها أنها «مجموعة مكونة

مـن نخبة من قوات الدلتا، وقـوات سيل لتعقب قيادات طالبـان والقاعدة في أفغانستان ومـا حولهـا» وشُكلت وحـدة المهمة الخاصـة 20، التي نقلـت إلى العـراق لتعقب صدام حسين وكبار قيادات حزب البعث والقبض عليهم. وفي تشريسن الثاني/نوفمبر من عام 2003، قـام الجنرال جـون أبي زيد بحل وحدة المهمة الخاصة 5، ووحدة المهمة الخاصة 20، اللتـين تعملان في أفغانستان والعراق على الترتيـب، وشُكِلَّ بدلاً منهما وحدة المهمة الخاصـة 121. وهـذه الوحدة بحسب مـا وصفها الجيش الأمريكـي بأنها وحدة جديدة عالميـة مصممة للرد بطريقة أسـرع والتعامل مع الأهداف ذات القيمـة العالية تأسيساً علـى مـا يصلها من معلومات، وأنهـا ليست مقيدة للعمل ضمن الحـدود التي تعمل فيها القـوات التقليديـة للجيش الأمريكي، وهذه المجموعة وما تقـوم بها من عمليات مصنفة ضمـن أعلى مستويـات السرية والاضطـرار في البنتاغـون، ويتولى قيادة هـذه الوحدة ضابـط من سلاح الجو برتبة عميـد، وتبقى جميع العمليات والمعلومـات المتصلة بها في نطـاق السرية، ويرفضـ البنتاغون مناقشة أي نشاطات لها ارتباط بهذه المجموعة - ولا سيمـا قواعد الاشتباك، وحاجة هذه الوحـدة إلى الحصول على تصريح من الحكومات الأجنبية للسماح لها بالعمل في أراضيها.

تتألـف هـذه الوحدات الخاصة «في المقام الأول»، بحسب مـا جاء في الوصف الرسمي لهـا، من مجندين من قوات الدلتا وقوات سيل، تدعمهـا كتيبة العمليات الجوية الخاصة 160، ومطلـوب منها تعقب وقتل العناصر المهمة من طالبان والقاعدة «في أفغانستان وما حولها». واستخدمت عبارة «في المقام الأول» قناعاً يخفي تحته من يسميهم الجيش عناصر الوكالات الحكومية الأخرى في وحدة المهمة الخاصة، وتفيد عبارة «حول» أفغانستان أنهم يعملون عبر الحدود بعد صدور موافقة رسمية بموجب قواعد «المطاردة الحثيثة» أو «تحت إطـلاق النار». وحين سئل القـادة العسكريون في المؤتمرات الصحفية عمن يتعقب أسامة بـن لادن وقائد طالبان الملا محمد عمر، كانـت إجابتهم: أنَّ ثمة أشخاص آخرون يتولون هذه المهمة، وأنَّ والحقيقة تقبع في أعماق الجهاز الأمني الأمريكي.

بعد أن أقلعت الطائرات المروحية، وتوجهت القافلة بكبار الضباط إلى القاعدة العسكرية لحضور اجتماعهم، مكثت أنا للتحدث إلى «الأشخاص الآخرين» أنفسهم. والغريب في الأمر أن الجيش الأميركي يقول: إنه ليس ناشطاً في البحث عن أسامة بن لادن، مع أنني أقف وأمامي أفراد الجيش الذين يبحثون عن ابن لادن. إن السرية التي تحيط بهذه الوحدة العسكرية وخضوعها المباشر لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية يتطلب من الجيش أن ينكر وينفي أي نشاط تقوم به. وعليه فإن الأشخاص الذين أنظر إليهم هم غير موجودين من الناحية الرسمية.

توجهت إليهم، وحاولت بكل جهدي أن أتصرف وكأنني غير مكترث وأنا أتحدث إلى الجنود الأمريكيين غير الموجودين من الناحية الحكمية الذين يتولَّوْن حراسة مهبط الطائرات. استمع القائد الملتحي ذو البشرة السمراء من فريق القوات الخاصة إليَّ بتمعن وأنا أقدم له موجزاً عن سيرتي وطبيعة عملي، وتفحصني بعينيه من رأسي إلى أخمص قدمي، وقال، «نعم، سنتحدث إليك ...لكن عليك أن تنتظر حتى يغادر القادة الكبار أبناء الفاعلة وسوف نأتي إليك ونتحدث كما تشاء». وفهمت من كلامه أنه يريد مني أن أبقى بعيداً حتى يعود وفد كبار القادة من حيث أتَوْا؛ لذلك رجعت لأجلسَ إلى جانب التلّ مع اثنين من أعضاء الفريق حتى تنتهيَ زيارة القادة الكبار لهذه القاعدة النائية.

ولما جلسنا، قال أحدهما وهو جندي برتبة رقيب من القوات الخاصة، بنبرة متهكمة: «مرحباً بك في الحرب التي نسيتْها أمريكا»، كان رجلاً بديناً، ويضع سماعة كبيرة أحادية في أذنه، ويلبس زيّاً عسكرياً حنطيَّ اللون. وعلى خلاف بقية أعضاء الفريق لم يكن هذا الجندي يطلق لحيته، وكان متلهفاً للتحدث فوراً، كان في العراق قبل تسعة أشهر، ثم أرسل مباشرة إلى أفغانستان في مهمة مدتها ستة أشهر، ثم صاح متذمراً: «تباً لنظام إجازة اليومين عن كل شهر!». وهو من قوات الاحتياط التابعة لمجموعة القوات الخاصة العشرين وينحدر من ولاية آلاباما. ويبدو أن الطبيعة لم تتغير عليه كثيراً: حيث قال: «تذكرني المناطق الريفية هنا بمنطقة جنوب ولاية يوتاه».

ما عرفت منه فوراً أن المناطق الحدودية تشهد عودة قوية للعدو؛ إذ يتعرض الأمريكيون والأفغان للهجمات والمصائد على نحو منتظم. وتخلت الولايات المتحدة قبل مدة عن واحدة من نقاط الاستحكام الحدودية من بين أربع بالقرب من لوهارا. وتتعرض البقية لهجمات متزايدة وتتبدل السيطرة عليها من وقت لآخر بين أيدي الأفغان، وطالبان، والقاعدة، والباكستانيين، والأمريكيين. تأتي الهجمات من جهة الطرف الباكستاني من الحدود وتحدث في أثناء الليل، ويبدأ الهجوم عادة بالصواريخ، ثم بالقذائف المدفعية، ثم تتبع بهجوم ثلاثي: المجموعة الأولى تنتظر التقدم، والثانية تطلق النيران، والثالثة تتقدم لإعادة الكرّة. وفي العادة يستولي المهاجمون الغامضون على القاعدة العسكرية من الجنود الأفغان عدة ساعات، ثم يتخلّون عنها فارّين بعد أن يصل الدعم الجوي الأمريكي.

ويبدو أن الرقيب مرتبك بعضَ الشيء من الهجمات التي عادت إلى المنطقة. وقال لي، وهو يعدل قبعة البيسبول التي يلبسها (...) «لقد تعرضنا لهجوم عنيف قبل أسبوعين... حصل ستة أشخاص من وحدتنا على أوسمة القلب الأرجواني، كان المهاجمون في انتظارنا، وكانوا يعرفون مكاننا بدقة... وكان الباكستانيون يراقبون كل شيء ولكنهم لم يحركوا ساكناً».

وأشار بإصبعه إلى نقطة تبعد مسافة ميل أو أكثر قائلاً: «أطلقت الصواريخ من تلك الهضبة من الطرف الباكستاني. إننا نجتمع بالمسؤولين الباكستانيين كل شهر عند الحدود.... يتبسمون في وجوهنا، ونحن نتبسم في وجوههم، ويحدثوننا بحديث هُراء، ونحن نحدثهم بحديث هراء، ثم بعد ذلك يشاهدوننا نتعرض للهجوم ولا يفعلون شيئاً. إن هذا المكان مرتع الهلكة». سألته إن كان المهاجمون هم من طالبان، أم من الباكستانيين، أم من العرب؟ فحدق بعينين نصف مغمضتين وهو ينظر إلى الشمس، ولإضفاء تأثير على ما سيقول، بصق وقال معترفاً: «ليس لدي أدنى فكرة عن هوية الأشخاص الذين نقاتلهم».

بعد أن استرحت ساعتين قرب مدرج هبوط الطائرات المروحية منتظراً رحيل كبار الضباط، لقيت مرة أخرى الشخص الأمريكي الذي يحمل بندقية إي كي 47 - وهو المتعاقد الأمني، فبدأني الحديث دون تحية، لكن بتحذير: «إنهم لن يسمحوا لك بالعبور إلى باكستان ... ولا تستغرب إذا طردك القائد الأفغاني». سألته إلى من يعود الضمير في قولك «إنهم»؟.

فرد بإجابة مختصرة «ت. إف»، وهي الاختصار الإنجليزي لعبارة وحدة المهمات الخاصة.

وواضح أن ما قمت به من تصوير في المنطقة لم يَرُقْ لهم. «لقد قمت بتصوير قاعدتهم وعرباتهم، ولو احتجزك الأشرار خلف الحدود، فسوف يستخدمونها لمهاجمة هذا المكان».

وكان يبدو عليه الفضول لمعرفة كيف تمكنت من الوصول إلى هذا المكان دون أن أتعرض لأي هجوم. «هل رأيت الهوائيات البارزة على الزوايا الأربع لتلك الحافلة؟ هذه أجهزة تشويش إلكتروني. يقوم الناس هنا بدفن الألغام المضادة للدبابات، انتظاراً لفرصة سانحة لتفجيرها بوساطة جهاز خلوي أو جهاز تشغيل السيارة من بُعد. إنهم يستأجرون أولاداً صغاراً للجلوس على جانب الشارع لإخبارهم عند وصول الأمريكيين. لقد حاولوا قتل مشرف بالأمس، وكان نظام التشويش الإلكتروني هو الشيء الوحيد الذي أنقذ حياته. وتتساءل قوات الدلتا كيف وصلت إلى هنا دون التعرض للأذى؟ وأنا متيقن من أنهم يبحثون عنك الآن». ثم ابتسم، وعاد أدراجه من حيثُ أتى.

توجهت بعدها إلى نقطة الاستحكام، فسارع القائد الأفغاني شاه علم الذي كان قبلها يبدي لي التودد، إلى ملاقاتي متبرماً قائلاً بنبرة تنم عن شعور بالهلع: «لقد أتيت إلى هنا لالتقاط الصور، ... لقد التقطت ما يكفيك من الصور، فاذهب الآن ولا تلوِ». وواضح أنه تلقى أوامر لإخراجي من هذه الهضبة ودفعي إلى الاتجاه المعاكس نحو ميرام شاه. وجرياً مع التقاليد المعهودة لدى الأفغان، طلب مني مشاركتهم في تناول الغداء قبل أن أغادر.

جاء المتعاقد الأمني وأنا أجهز حقيبتي للمغادرة، وسألني عن الجهة التي سأقصدها، فقلت له: إنني أقيم في منزل رجل يدعى حجّي بالقرب من غارديز، قابلته قبل أسبوع في جمع ضم شيوخ القبائل في المنطقة. نال حجي شهرته حين كان قائداً لمجموعة من المجاهدين، وكان يعمل قبل ذلك في الشحن عبر الحدود، وتهريب المخدرات، وكان من مؤيدي طالبان حين كانت شهرتهم نابعة من سحقهم لزعماء الحرب لا من دعمهم للقاعدة. وهو الآن متقاعد، ولكنه يبقى رجلاً يُلجأ إليه لحل المشكلات ومساعدة الضعفاء. ودون أي تردد، دعاني إلى النزول ضيفاً في بيته مدة أسبوع بشرط ألا أكشف عن مكانه أو عن اسمه الكامل. ولما لم يكن لدي خوف من استنزاف الكرم غير المتناهي لهذا الرجل المسن، دعوت المتعاقد الأمني إلى مرافقتي إلى منزل حجي.

كان واضحاً أن فكرة الولوج إلى المناطق الخاضعة لسيطرة طالبان بمرافقة شخص غريب أثارت فضوله، وكان من المفترض أن يعود هذا المتعاقد إلى خوست لقضاء مدة للراحة والاستجمام؛ لذلك كان لفكرة الذهاب بسيارة أجرة بدلاً من قافلة تابعة للوكالات الحكومية الأخرى جاذبية غريبة. ذهب وأحضر حقيبته المهترئة وألقاها في سيارة الأجرة الأثرية ذات اللونين الأصفر والأبيض، ثم انطلقنا في رحلتنا، ولكنني أصررت على التوقف في سوق صغير تبعد أميالاً عدة عن القاعدة لشراء بعض الملابس الأفغانية. وبستين دولاراً فقط، تحوّل صديقي المتعاقد الأمني إلى فلاّح أفغاني ملتح بزيّه الكامل، من القبعة الصوفية، إلى القميص الأفغاني الطويل، والسراويل الأزرق الفاتح. وبعد أن ارتدينا تلك الملابس، كان مظهرنا يوحي بأننا أحمقان -أحمقان أفغانيان- ثم تابعنا المسير.

على الرغم مما صدر عن صديقنا المتعاقد من زمجرة ووعيد في بداية اللقاء، إلا أنه غير معتاد على أن يكون مكشوفاً بهذه الطريقة أمام الملأ. وحين كنا نقترب من نقاط التفتيش، كان لا يكف عن تذكيري بكيفية إخلاء السيارة من الجانب، وكيفية الاحتفاظ بالمسدس تحت رجلي، وكيف يمكن لزجاج السيارة أن يصد الرصاص القادم إلينا. وحين

اقتربنـا من سلسلة مـن المنعطفات الحادة التي تعـد علامة بداية صعودنـا إلى المناطق الجبلية، بدأت علامات الارتياح تظهر على صديقنا المتعاقد، وكان لدينا كثيرًا من الوقت للتحـدث في أثناء الرحلة. وفيما كانت السيارة تهتز وتضطرب في حركتها بسبب الطريق غير المعبد ذي الحفر، قبل المتعاقد أن يجيب على عدد من الأسئلة حول عمله بشرط عدم الكشف عن أي شيء يمكن أن يلحق ضرراً بمهمته، وألا أذكر اسمه ولا الوحدة التي ينتمي إليهـا. فقبلت بالشروط. أثـارت قصته إعجابي، وأنا أطبع مـا يقوله على جهاز حاسوب الجيب الذي كان معي.

إن ما تنظر إليه هو جزء من وحدة المهمات الخاصة 11، ويطلق عليها كذلك اسم وحدة العمليـات الخاصة المشتركة، وفيها بعض القادة الكبار وبعض الأقزام والجنود العاديين، غـير أن الفريـق فيه بعضـ القناصة، وهؤلاء في العـادة ثلاثة أو أربعة من قـوات الدلتا، وفريـق آخر مكـون من اثني عشر عنصراً من القوات الخاصـة، وضابطٍ من سلاح الجو لتنسيـق عمليات الإسناد الجوي، وضابط استخبـارات، وعناصر من الوكالات الحكومية الأخرى، وقرابة ثلاثين أو أربعين من العملاء الأفغان. وهؤلاء هم رأس الحربة هنا، وهم القناصة القتلة في الأدغال.

أما أنا، فأعمل بصفة متعاقد أمني، وقد دأبت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على استخدام متعاقدين أمنيين مدنيين منذ عقود، وهم أشخاص لا ينتمون بصفة رسمية إلى الجيشـ، ولا إلى الحكومـة، ولا إلى الاستخبارات، ولقد كانـت بداية استخدامهم في فيتنام، حيث كانت الوكالة بحاجة إلى عملاء يمكن إنكار العلاقة بهم: أشخاص تستطيع الحكومة الأمريكية في حالة القبض عليهم أن تقول: إنهم لا يمتون إليها بصلة. وهذه الأيام تملك الوكالة الكثير من المال؛ لذلك فإن من الأيسر لها أن تتعاقد معنا بدلاً من أن تتولى تدريـب أشخاصـ جدد. وهنـاك نوعان من الجنود: جنود مرتزقـة، تتدلى كروشهم بفعل شـرب البيرة، غلاظ فظاظ، يلبسون الخواتم. وهؤلاء تشاهدهم في المدينة. أما الصنف الثـاني فهو نحـن، ونحن أشخاص نحب المحافظـة على لياقتنا البدنيـة، أعمارنا تتراوح مـا بين أواخـر العشرينيات إلى أواخـر الأربعينيات. كما أن هنـاك أشخاصاً يعملون من

الداخـل وأشخاصاً يعملون من الخـارج، وأشخاصاً من الداخل لا يمكنهم أن يعترفوا لك بأنهـم يعملون مع وكالة الاستخبارات المركزية؛ أمـا أشخاص الخارج فهم الذين يعزلون مـن الوظيفـة لسبب أو لآخر. وحـدث أن أخرج شخص من الخدمـة؛ لأن الوكالة أرسلت إليه نموذج ضريبة الدخل وكتب في الفراغ المقابل لكلمة «رب العمل»: وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

أكـثر العملاء الذيـن يعملون مـع الوكالة يقومـون بعملهم تحت «غطـاء مموه»، فهم يعملـون بصفـة مدنيـة أو عسكريـة قابلـة للتصديق ولكنهـم في الواقع مكلفـون بالقيام «بعمليـات سرية» وهذه العمليـات لا تظهر في سجل عملهم العسكري ولا يطلع عليها أحد. وذكر لي أيضاً أن أكثر العمليات شبه العسكرية تتولاها قوات الدلتا، ولم أر طَوالَ خدمتي سوى شخص واحد من قوات سيل في هذه الوحدات... وفي العادة يجري تجنيد هؤلاء من وحـدات الجيش ثم ينتسبون فيما بعد إلى الوكالة بصفة متعاقدين أمنيين، وينتقلون إلى العمل مع الوكالة بعد تسريحهم من الجيش مباشرة، وتبدأ إجراءات توظيفهم قبل موعد تسريحهـم من الجيش بوقت يكفي للاستقصاء عن خلفيتهم وأهليتهم للعمل مع الوكالة. وبعـد إتمام تلـك الإجراءات، يلتحقون بالوكالـة دون انتظار أو تأخـير. وفي العادة يتمتع الأفـراد العاملون في الجيش بسجلات نظيفة، فلا مشـكلات مالية، ولا قانونية ... وليس هنـاك نقصـ في المتطوعين ... بعض الناس يسخرون من الوكالـة، غير أن أفراد القوات الخاصة يبذلون قصارى جهدهم للعمل فيها. فأنت تأخذ كل ما تحتاجه، ولا أحد يتعرض لـك بالمضايقة، ولديك نظام خاصـ لتسلسل السلطة، ولا تخضع لسلطة القائد العسكري المحلي؛ فأنت لست ضمن النظام الفدرالي، ولا ضمن النظام العسكري.

وتابع المتعاقد قوله، إن العمل في أفغانستان هو في منتهى السهولة ... تسجل اسمك، ثم تخضع لبعض التدريب، ثم تأتي بالطائرة إلى هنا. وفي العادة تسافر عن طريق الطيران التجاري إلى طشقند [في أوزبكستان المجاورة] ومن هناك تأتي إلى كابول على متن طائرة عسكريـة، وعند وصولك تكون مجموعة من الجيش في استقبالك، فتذهب معهم وتبيت

في الفنـدق تلـك الليلة، ولا أحد يوجه إليك أي سؤال... وبعـد أن تمكث في المدينة يومين، تذهب إلى قائد القاعدة، وبعد أن تملأ النماذج المطلوبة، تأخذك الطائرة إلى خوست، أو غازني، أو قندهار، أو إلى أي مكان آخر.

والأجر الدارج الآن هو ألف إلى ألف ومئتين وخمسين دولاراً في اليوم. هذا فيما يخص المتعاقـد الذي يجتـاز المتطلبات الأمنية، وهذا الأجر هو أفضل مما يدفع في العراق، وأمَّا المـدة الاعتياديـة للوظيفة فهي ثلاثة أشهـر؛ لأنَّ أكثر الأشخاص يفقـدون أعصابهم إن تركتهم في هذا المكان أكثر من تسعين يوماً.

كان سائقنـا ومترجمـي دوك يحدقون بأبصارهم إلى الأمـام لرصد وجود أي علامة على حفر جديدة في الشارع، وهذه الحفر هي الأماكن المفضلة لدى طالبان لوضع الألغام الأرضية التي تفجر عن بعد. وكنت قد أخبرتهما أن المتعاقد الأمني هو مصوّر يعمل معي، وهـو يستمتع بهـذا الدور السري الجديـد لكونه مرافقًا لي. وكان هـذا المتعاقد يستخدم جهـاز تحديد المكان عن طريق الأقمـار الصناعية في متابعة الطريق والتأشير على نقاط التفتيش التـي يرابط فيها أتباع طالبـان وجنود زعماء الحرب الآخريـن. وهذه النقاط مـا هي إلا مطبات توضـع على الطريق ويحميهـا رجال مسلحون لإجبـار السيارات على التوقـف، غير أن سائقنا لم يعبأ بهم واستمر بالسـير دون توقف. حاولت أن أظهر نفسي بهيئة البشتون بقدر ما يسع إفرنجياً ذا عينين زرقاوين أن يفعل. غير أن صديقي المتعاقد بلحيتـه الكثيفة كان يبدو أفغانياً أكثر مني مهما اجتهدت. وعندما اجتزنا نقطة التفتيش أخفيـت نظاراتـي الشمسية في جيبـي، ورفعت المُلاءة البنية المتسخـة حول كتفي، ورحت أنظـر مـن النافذة، وحَرَصْتُ على ألا يظهرَ على قسمات وجهـي أيُّ مشاعرَ تَلفتُ النظر. وقـد مررنا بأربع من هذه النقاط بسهولة، في حين أن الشاحنات والسيارات الأخرى التي تنقل الركاب كان يطلب منها التوقف؛ لكي تخضعَ للتفتيش.

قـال المتعاقد: إن القاعدة العسكريـة الأولى التي عمل فيها هنا كانت مقامة على أبعد نقطة يمكن أن تصلها الطائرة المروحية: «ذهبت بالطائرة بعد العتمة في مهمة ليلة لنقل

الإمدادات إلى فريق من وكالة الاستخبارات المركزية مستخدمين طائرةً مروحيةً روسية؛ لأن الطائرات الأمريكيةَ يسهل تمييزها واستهدافها، وخرجت قافلة عسكرية من أربع شاحنات لملاقاتهم. نزل الفريق الجديد من الطائرة، وصعد الفريق القديم مكانهم، ثم غادرت الطائرة إلى الوجهة التي أتت منها». حين شاهدت التضاريس عبر منظار الرؤية الليلية، كان كل ما خطر ببالي هو سطح القمر، غبار ناعم، حجارة وصخور، وتراب، وهضاب منخفضة تلتف لتشكل جبالاً على كل جانب، وجميعها خضراء. لم يكن هناك شيء سوى النجوم، والصخور، وقلعة مشيدة من الطين من العصور الوسطى. وفي داخلها وجدت رجلاً ضخماً ملتحياً يلبس قبعة غربيّة، وكان يجلس يتدفأ حول برميل من الحديد أشعلت فيه نار من الديزل. وحين رآنا، ضحك ضحكة مجنونة، وكان لهيب النار ينعكس على وجهه، فصاح منادياً: «أيها الرجال، مرحباً بكم هنا على حافة الإمبراطورية!» ويا إلهي كم كان لتلك الكلمات وقع مخيف في نفسي حين سمعتها.

كانت تلك النقطة في الأصل منزلاً يملكه شخص أفغاني قبل أن ينتقل إلى يد الأمريكيين. ويمكنك مشاهدةُ مثل هذا المكان في مئات من الأفلام، كحرب النجوم، وماد ماكس (ماكس المجنون)، وبو جست (بادرة نبيلة)، وعشرات أفلام الكاوبوي. إنه يمثل آخر نقطة تنتهي عندها الحضارة قبل أن تصل إلى البربرية والوحشية... وقامت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية باستئجار المنزل؛ لأنه يقع على تقاطع يشهد حركة مكثفة لاختراقات طالبان والقاعدة القادمة من باكستان. وحصلت على أول قرينة لإثبات هذه الحقيقة حين رأيت خريطة في مكتب وكيل وزارة الأمن مكتوب عليها «سري جداً» وقد أشّرَ على الخريطة بدوائر خضراء صغيرة للدلالة على الأماكن التي يوجد فيها العدو. والمشكلة هي أن هذه الدوائر كلها كانت في باكستان مثل مدينة ميرام شاه ووانا.

حين وصلت إلى هنا، أرسلت أنا وجندي آخر لمقابلة حرس الحدود الباكستانيين. قطعنا ثلاثة أو أربعة أميال بالسيارة. ويبدو لي أنه لم يسبق لهم أن شاهدوا رجالاً أمريكيين بملابس مدنية يحملون السلاح، إذْ صوبوا أسلحتهم ورشاشاتهم تجاهنا

حين اقتربنا منهم، وعاملونا بعدوانية وفظاظة، وقالوا لنا: إن ضابط الاستخبارات المسؤول سيأتي لمقابلتنا غداً، وفي اليوم اللاحق اجتمعنا جميعاً في خص وحولنا جوالة من وزيرستان. قمنا بجولة أولية، ثم عدت أنا وزميلي لإحضار قائد النقطة ومعه ضابط الاستخبارات، ومترجم. أخبرهم المترجم عن طبيعة عملنا هنا، ولماذا جئنا، والمجالات التي نرغب منهم أن يتعاونوا معنا فيها - «هل يمكننا الاتصال بكم؟»، قد نلجأ إلى مطاردة أحد ما عبر الحدود، ..إلخ. وقالوا لنا: إنه ليس لديهم مشكلة في ذلك ما دمنا لا نتوغل كثيراً داخل الحدود. لم يذكروا لنا شيئاً عما سيحدث لو وصلنا إلى البلدة التي تبعد ثلاثة أميال من الحدود.

وقال لي المتعاقد: إن البحث عن ابن لادن ليس كالبحث عن صدام حسين، الذي كان يبحث عنه آلاف من الجنود تحت كل بساط وكل شجرة. وحتى الباكستانيون أنفسهم لا يمكنهم العمل في المناطق القبلية دون التعرض لردود فعل عنيفة.

وتابع المتعاقد قائلاً: «كانت مهمتنا هي هز شجرة التفاح، ... لم نكن نبحث عن ابن لادن من الأعلى، بل كانت إستراتيجيتنا تركز على صغار الأتباع -وهي الطريقة المتبعة في القبض على عصابات المخدرات في أمريكة-. ضيّق الخناق على الصغار إلى درجة الإرباك؛ كي يتصلوا بالمسؤولين الأعلى منهم مرتبة. ثم نقوم برصد هذه المكالمات وتبدأ الملاحقة بعد ذلك، فنحن قَتَلَةٌ مستأجرون -بنادق لها أرجل- ونحن هنا لتوفير الأمن لضابط الاستخبارات، والقبض على أشخاص معينين، أو القيام بعمليات دهم. ويدير القاعدة موظف من وكالة الاستخبارات المركزية، وهو لا يعيرنا أي اهتمام».

وقال المتعاقد: إن طالبان لم تكن على رأس سلم أولوياتهم. «القضية ليست الملا عمر، بل كنا نبحث عن القاعدة... كنا نتعقب عناصر القاعدة». إننا لا نحاول تطوير مصادر إستخباراتية داخل المدارس الدينية، بل نبحث عن الأشخاص الذين يرتبطون بابن لادن.

«نطرح أسئلة بسيطة مثل أين ينام هؤلاء في الليل؟ ومتى ما عرفنا مكان نومهم، فإنه يمكننا مراقبتهم. وحين نعثر على المنزل، فإن باستطاعتنا رصد أي وسيلة اتصال إلكترونية،

حيث نرسلها بعد التقاطها مباشرة إلى لانغلي[1]، وإلى شيلتنهام [المركز الرئيس لجهاز إم آي 5][2]، أو واشنطن.... وبعد أن نعثر على مقرهم، فإننا لا نستعجل في توجيه ضربة إليهم، بل نتركهم يتحدثون؛ كي نرصد مكالماتهم، ونستخدم تلك المعلومات الاستخباراتية في القبض على الأشخاص في المستويات الدنيا، ويمكننا تحليل بصمات أصواتهم وتحديد هوية الشخص الذي يتحدثون إليه إذا كان صوت ذلك الشخص مخزناً في قاعدة البيانات لدى الوكالة. وإذا اتفقوا على عقد اجتماع، أو إذا حددوا مكاناً ما للالتقاء، فإن شخصاً منهم سيصاب في اليوم المقبل على وجه مؤكد. وإذا لم يتصلوا بشخص مسؤول أعلى في المنظمة، فإما أن نلقي القبض على واحد منهم، أو أن ننهيَ وجودهم على وجه الأرض. وإذا فعلت ذلك مرة أو مرتين، فإن من شأن ذلك أن يلقيَ الذعر في نفوس الباقين».

لاحظت في أثناء الحديث أن دوك المترجم الذي يرافقنا كان يستمع إلى الحديث باهتمام، ثم قام المتعاقد بتعديل قبعته الأفغانية الصوفية ذات اللون البني وهو ينظر في مرآة السيارة، وكان معجباً بمظهره الأفغاني، قبل أن يتابع حديثه:

المشكلة هي أننا نقوم بهذا كله داخل الحدود الباكستانية، ... ولهذا السبب برزت الحاجة إلى المتعاقد الأمني الخاص؛ لأن الحكومة يمكنها أن تقول: «نحن» لا نعمل في الأراضي الباكستانية. ولكن كن على يقين مطلق أن الفتية البيض يدخلون باكستان كل يوم ويطلقون النار على الأعداء».

«قائد النقطة العسكرية هو الشخص المسؤول، وضابط الاستخبارات منهمك في عمله في الداخل، ولم أشاهد ضابط الاستخبارات طَوالَ الشهر الذي أمضيته في تلك القاعدة سوى مرة واحدة. إن هذه القاعدة هي عملية تنفذها وكالة الاستخبارات المركزية ولكن

1- مقر مركز قيادة سلاح الجو الأمريكي.

2- جهاز الاستخبارات البريطاني المسؤول عن الاستخبارات الداخلية والنشاطات الاستخبارية المضادة في الأراضي البريطانية، والعبارة هي اختصار مكون من الأحرف الأولى من عبارة الاستخبارات العسكرية الدائرة 5. وهناك أيضاً الدائرة 6 (إم آي 6) المسؤولة عن الاستخبارات الخارجية. والتسمية الرسمية الجديدة لهذين الجهازين أصبح خدمات الاستخبارات السرية واختصاراً إس آي إس.

جرى وضع عدد من الجنود في الخارج لإظهارها بمظهر القاعدة العسكرية، والوكالة هي التي استأجرت الأرض التي أقيمت عليها القاعدة، ويقوم الجيش بتنفيذ عملياته الخاصة به، ولكنهم يفعلون ذلك بعد إخبار قائد القاعدة بما سيفعلونه، وأمَّا وكالة الاستخبارات المركزية فلا تزال تعمل ضمن الأقسام الخاصة بكل دولة؛ فإذا أردت أن تذهب إلى باكستان، فعليك أن تتصل بقائد الوحدة المسؤول عن نشاط الوكالة في إسلام أباد، ولا يمكنه طبعاً أن يعرقل المشروع».

يقضي المتعاقدون أكثر أوقات فراغهم في الجري بين مدرج هبوط الطائرات المروحية والقاعدة.

«إننا نحب المحافظة على لياقتنا البدنية، وحين تكون في المعركة، عليك أن تستخدم كل ما لديك من قوة، وعليك أن تأخذ معك بعض الأشخاص، وإن كنت صفر اليدين. بعضنا يتعاطى منشطات الستيرويد. وأمَّا حبوب دي بولز فتساعد على زيادة حجم العضلات، كما تساعد حبوب سستانون في الحفاظ على الزيادة التي اكتسبتها، ولا يعترض أطباء الجيش على ما نفعل. وحين ترى شخصاً ضخم الجثة، فتوقع أنه يتعاطى هذه الحبوب. غير أننا نستخدمها ضمن الضوابط».

ثم نظر المتعاقد إلى التضاريس القاحلة وإلى القلاع الشاهقة المبنية من الطوب حولنا. وحوّل بندقيته، وابتسم. في هذه الأيام، تسعى الوكالة إلى تجنيد المورمان، والعائدين إلى الدين المسيحي من جديد. إنهم يبحثون عن الأشخاص الذين يتمتعون بحس وطني قوي وبنزعة نحو عمل الخير. على الأقل كانت البداية كذلك.... فأنا لا أشرب الخمر، ولا أدخن، ولا آكل من كل ما هب ودب، وأردف المتعاقد قائلاً، وهو يبتسم: لكن نقطة ضعفي الوحيدة هي البيبسي والنساء.

ومع وصولنا إلى نهاية مؤخرة سلسلة الجبال التي تسيطر عليها طالبان، شاهدت خارج المنزل فرن غاز مألوفاً لدي، وهو العلامة التي أعرف بها منزل حجي، وظهر لي أن المتعاقد كان سعيداً بتسجيل علامات الطريق ونقاط التفتيش على جهاز تحديد المكان

الذي كان بيده. يسكن حجي في واحد من أكبر المنازل في منطقة غارديز، وهذا بذاته دلالة على أهميته ومكانته الاجتماعية، وتمتد الجدران المحيطة بمنزله إلى أكثر من 275 متراً طولاً وبارتفاع 9 أمتار. وقد أقيم المنزل على سهل فسيح خارج حدود المدينة على مقربة من القاعدة الأمريكية في غارديز، وخلفه الجبال التي تسيطر عليها طالبان. وإلى الجنوب بين الجبال يقع وادي شاهيكوت الفظيع الذي كان مسرحاً لعملية أناكندة في آذار/ مارس من عام 2002، وإلى الخلف منها يقع جبل هوارخيلي الذي يضم الملجأ الضخم الذي شيده ابن لادن للوقاية من القصف السوفييتي، وتمتد حقول الأفيون إلى الشمال والشرق. وفي داخل المنزل، أقام حجي بيتاً خاصاً للضيافة، ومنطقتين أخرَيَيْن مسوّرتَيْن، واحدة لأسرته، والأخرى لزراعة المحاصيل. وقد شيد هذا المنزل ليوفر أقصى درجات الدفاع، فجعل في كل زاوية من زوايا السور برج حماية مربع الشكل، وفي كل قسم من هذه الأبراج ما يكفي من الأسلحة والذخيرة، وحتى المرحاض الخارجي يوجد على سطحه ثلاث منصات للبنادق الرشاشة، وكان على كل برج من الأبراج المحيطة بالمجمّع مِدفع مضاد للطائرات، غير أن حجي أزالها خوفاً من التعرض لقصف الأمريكيين. ولا تتوقف حركة طائرات أباتشي، وبلاكهوك، وتشينوك، وقاذفات القنابل بي - 1 بي، والطائرات المقاتلة النفاثة في السماء فوق منزل حاجي من الصباح حتى ساعات متأخرة من الليل.

استقبلني حجي بمعانقة كمعانقة الدب وبقبلتين كأنني ابن له هجرته ثم عدت إليه نادماً، ولاحظ حجي على الفور أن صديقي هو أكثر من مجرد مصوّر. فبالإضافة إلى حمله بندقية كلاشنكوف، ولبسه نظارات أوكلي الشمسية، أبدى المتعاقد عادته اللافتة للنظر في التقدم والتأخر مسافة 20 متراً وكأنه يقوم بعملية تمشيط أمني، وكان يتفحص ببصره كل غرفة وكأنه يبحث عن عناصرَ معادية. ولكن لما كان المتعاقد صديقاً لي، فقد لقي الترحاب من دون سؤال.

منذ أن وصلت إلى منزل حجي قبل يومين، جرت العادة على تقديم ثلاث وجبات طعام في اليوم على بساط يوضع على الأرض، ويتبعها عدد غير متناه من أكواب الشاي،

وساعـات مـن الحديث عن طريق المترجم. وهـذا كل ما كنا نفعله منـذ وصولي إلى هذا المـكان. ومـع أن حجي احتـاج إلى بعض الوقت قبـل أن يبديَ ارتياحاً تجاهـي، إلا أنه في النهاية أعرب عن رأيه بصراحة تجاه الوضع القائم في أفغانستان.

انصـب حديثنـا في الليلة الأولى على قضايا عادية وصغـيرة، وكان حجي يتخذ موقفاً محايـداً. نعم، كان يدعم الأمريكيين، مع أنه يبدو غاضباً من جرَّاء ما فعلوه عام 2001. وهـو يعتقـد أن طالبان قد انتهت. وفي الليلة اللاحقة، ناقشنـا بعض القضايا المحددة. لا توجـد حكومة هنا، بل عنف، ومدرسة واحدة دون معلمين. وبحلول الليلة الثالثة، وبعد أن رفعـت مائـدة العشاء، وقدّم الشـاي الأخضر، أصبح حجي أكـثر صراحة في التعبير عن آرائه. سألته عن صحة التقارير التي تتحدث عن عودة طالبان.

«نعـم، إنهم يأتون إلى هنـا... وعادة ما يكون ذلك في الليل، ويطلبون الطعام والمأوى، ولا يمكثـون طويـلاً، ونحـن لا نسألهم عن وجهتهـم التي يقصدونهـا. وفي بعض الأحيان يخيفـون النـاس، وفي بعض الأحيان يدفعون ثمن ما يأخذونه، لكن يبدو أنهم يعرفون إلى مـن يتحدثون. وفي كل مجموعة مكونـة من عشرين من عناصر طالبـان، هناك أربعة أو خمسـة من العرب. وهـؤلاء بحاجة إلى أن يكونوا مع الأفغان؛ لأنهم لا يعرفون المنطقة ولا يتحدثون اللغة المحلية».

يتمتع حجي بمركز اجتماعي يخوله إبداء رأيه في طالبان، غير أنه يرى ضرورة الحذر حين مناقشة مسألة العرب. وهم الذين تطلق عليهم الولايات المتحدة وصف القاعدة: «إن الناس هنا لا يحبون العرب؛ لأن العرب متعجرفون ويتصرفون وكأنهم أفضل من الأفغان وأعلـى منهم درجة». ثم ضحـك وقال: «اعتاد النـاس هنا القـول: إن العرب أحرص على تصوير أفلام الفيديو من حرصهم على القتال».

واضـح أن القاعدة لا تـزال موجودة هنا، وأنها ترهب النـاس. وحين اجتمعت بشيوخ قبائـل المنطقة قبل حلولي ضيفاً على حجي، طلبـت أن أمكث مع زعيم قبلي آخر يسيطر علـى منطقة حدودية، فـرد الرجل المسن ذو اللحية البيضاء الطويلة بقوله، «على الرحب

والسعة، لكن العرب سيتركون رسالة على الباب تقول: إذا لم تغادر في اليوم القادم، تقتل أنت أسرتك»، فشكرته على عرضه استضافتي، وقبلت دعوة حجي بدلاً من ذلك.

أخبرني حجي أنه: «في عهد الجهاد ضد الروس، كنت تجد أناساً في كل قرية ينشطون لطهو الطعام لنا وتقديم المساعدة ... لم يقلق أحد من الخيانة، أو من انكشاف أمره، ولم يكن هناك حرس على الأبواب. أما الآن فتجد أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ينتابهم الخوف حين يشاهدون العرب أو أتباع طالبان، وأصبح لزاماً على العرب الآن أن يستخدموا هواتف نقاله تعمل عن طريق الأقمار الصناعية في اتصالاتهم، وأن يتسللوا إلى القرى في الثالثة صباحاً، ويرحلوا قبل بزوغ فجر اليوم الثاني».

(...) وحين سألته عن الملّا عمر، رد علي حجي فوراً: «كان الملا عمر في ميرام شاه في أثناء شهر رمضان، وانتقل الآن إلى كويتا لقضاء فصل الشتاء هناك». وكلام حجي في هذه المرة يطابق الحقيقة. ولم يذكر لي من أين حصل على هذه المعلومات، ولكن توقعاته جاءت مطابقة للتصريحات التي صدرت عن الرئيس الباكستاني برويز مشرف والرئيس الأفغاني حامد كرازاي حول رؤية شهود عيان الملا عمر وبعض قادة طالبان في الصلاة في كويتا.

ومع أن حجي عمل في صفوف طالبان، فإن لديه مشاعر مختلطة حول حكمهم لأفغانستان: فهو يقول: «التقيت الملا عمرَ وغيرَه من قادة طالبان مرات عديدة، وهم ليسوا بالأشخاص المثقفين، ولا حتى بالمسلمين الورعين. لقد أخذت طالبان كل المومسات إلى قندهار، وكان العرب يعاشرونهن. وفي ذلك الوقت، كانوا يرون أنفسهم طبقة منفصلة عن بقية الناس، وكان جندي المشاة في صفوفهم أفضلَ وأوثقَ من زعيم قبيلة». ثم يوضح حجي كلامه: «هناك فصيلان من طالبان: فصيل الجهاديين الذين يسعَوْن إلى الشهادة، وهناك الذين يقاتلون من أجل المال».

(...) ويتنبأ حجي بمستقبل سوداوي مماثل للأمريكيين: «أضمن لك أن الأمريكيين لن ينجحوا في أفغانستان؛ لإنهم يعتمدون على الأشخاص الذين يدفعون المال، وهم الآن

محاطون بأشخاص يطمعون في الحصول على المال، لقد ابتعدوا عن زعماء القبائل، وأقاموا علاقات صداقة سيئة».

لم يفصح حجي عن ميوله الشخصية تجاه هذا الطرف أو ذاك، ولكنه رد بمرارة ظهرت في نبرة صوته: «إنني أحاول أن أنأى بنفسي عن هذه الأمور». ومع أن من الراجح أن له ميولاً شخصية غير معلنة، إلا أن من الواضح أن أياً من الطرفين لا يحظى بدعمه الكامل. وربما كان ذلك بسبب أن كلا الطرفين [أمريكة وطالبان] ينظران إليه بوصفه زعيماً قبلياً ليس له وزن في النظام الجديد.

ازدادت محبتي لحجي بعد احتكاكي به، إذ كان يعاملني معاملة الأب لابنه، وكان يصرّ على أن أجلس عن يمينه، وكان يقدم لي أفضل قطعة لحم في القصعة، ولم يكن الطعام يرفع عن البساط البلاستيكي إلا بعد أن آكل وَفق رغبته، وكان يحرص على أن أجلس في أدفأ مكان في الغرفة، وكان يلحّ عليّ أن أُعفيَ لحيتي، وكان يربت على خدي كل يوم، كأن ذلك سيسارع في نموها. كان كرم حجي الزائد هو الذي دفعني إلى دعوة صديقي المتعاقد الأمني لزيارة المنزل، غير أن الخرق الذي صدر عن المتعاقد في تلك الزيارة، قد وضع ذلك الكرم على المحك.

في أثناء تناولنا طعام العشاء في الليلة التي وصلنا فيها إلى المنزل، أراد حجي أن يعرف كل شيء عن رحلتي، وكان يدفع بالطعام أمام المتعاقد، قطعاً منتقاة من لحم الضأن المطبوخ بالزيت مع خبز طازج، بالإضافة إلى طبق صنعته زوج حجي -خصيصاً للضيف- وهو طبق من اللبن الخاثر مسكوب عليه زيت. أبقى الضيف الجديد يديه مكتوفتين وكان يتمتم، «عليّ أن أحافظ على نسبة 10% من الدهن في الجسم»، وقام حجي بعدة محاولات لإقناع الضيف بالأكل قبل أن ييأس منه، وكان يحدق به ثم ينظر إليّ مكسورَ الخاطر، فقلت للمتعاقد: «تظاهر بأنك تأكل شيئاً، وامتدح الطعام»، ولكنه كان يقف من حين لآخر في أثناء تناول العشاء مستأذناً بأنه يريد أن يصوّر بعض أفلام الفيديو. وحين خرج من الغرفة، نظر إليّ حجي وسألني عن طريق المترجم: «ما شأن صديقك؟».

وكان هــذا المشهد يتكــرر في طعام الفطــور، والغداء، والعشاء على مــدى ثلاثة أيام. وكان يشاركنــا اثنان من أبناء حجــي، ولفيف من السكان المحليين الذين يأتون إلى منزل حجــي طالبين منــه إسداء معروف لهم. وجاء أخو حجي يرافقــه حفيده البالغ من العمر ثلاث سنوات، وطلب إلي أن أصلح له هاتفه الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، وهو هاتف لا يزال بالإمكان استخدامه لإجراء مكالمات مجانية على حساب وكالة الاستخبارات المركزيــة الأمريكية. وكان المتعاقد يلتزم الصمت طــول الوقت، ويتابع الحديث باهتمام، لكنه على ما يبدو لا يجيد التفاعل مع الأفغان من غير العملاء والمخبرين. استمر المتعاقد على إصراره في رفض الأكل ولو كان ذلك حفنة من الرز، وأصبحت أخشى نظرة التعجب التــي ترتسم على وجه حجي حين ينظــر إليّ بعد رفض صديقي الأكل. وكان حجي يذهب إلى الســوق بنفسه لشراء ما يناسبنا لتحضير الطعام، ويعتذر عن عدم تقديم البيض مع الفطور؛ لأن الدجاج لا يضع البيض في مثل هذا الجو البارد. وكان المتعاقد يقيم أَوَدَهُ على قطــع مستطيلة مــن الشوكلاته من نوع أتكينز، وعلى رشفات مــن المياه المعدنية من عبوة بلاستيكية كان يبقيها في حقيبته، وكان يفعل ذلك في الصباح وقبل النوم.

رحّــب حجي بالمتعاقد، ولكــن المشاعر اختلفت عما كانت عليه حين حللت عليه ضيفاً وحدي!! لقد تحولــت ضيافته إلى ضيافة رسميّة، مصممة لقيام حجي بمسؤولياته؛ لكي يوصــل رسالتــه إلى شخص هــو في نظر أكثر الأفغــان من الأعداء. أصــرّ حجي على أن يصــل رأيه بالهجوم الذي وقع منذ وقت قريــب إلى أعلى مستويات القيادة في الحصون الأمريكيــة. وأخــيراً، وفي اليــوم الثالــث بحضــور المتعاقد، خــرق حجــي البروتوكولات البشتونيــة، وراح يتحــدث بصراحــة أمــام ضيوفــه الأمريكيين الغامضين عــن مشاعر الإحبــاط لــدى زعماء القبائل تجاه الأمريكيــين. لقد وصلت إليه أخبــار عن موت أسرة مكونــة مــن ثمانية أشخاص في قريــة قريبة تدعى سيد كــرم. ولم يوضح لنا حجي كيف وصلته التفاصيل بهذه السرعة.

قــال لنــا حجي: «كان يعيشــ سفاك في تلك القريــة ثمانية عشر عامــاً وكان يهدد بقصــف الاجتماع الــذي يعقد في كابــول، اتصل أحــد المخبريــن بالأمريكيين ودلّهم

علـى مكانه، لكن قبل مجـيء الأمريكيين بوقت طويل كان هذا المجرم قد لاذ بالفرار. وحصل أن كان في المنزل الذي قصفه الأمريكيين رجل آخر اختبأ هو وأسرته فيه بعد أن قتل رجلاً آخر إثرَ شجار على قطعة أرض. فوجد ذلك الرجل وزوجه وأولاده الستة متفحمين تحت الأنقاض».

وقال حجي: إن الناس في القرية مستاؤون؛ ليس من المصير الذي لحق بالقاتل؛ لأن ما حل به كان نوعاً عجيباً من أنواع العدالة؛ بل من مَقْتَل زوجته وأولاده الأبرياء الذين ليس بينهم وبين الأمريكيين ولا سكان القرية شجار.

«لقـد كان بالإمـكان إلقـاءُ القبض على الرجـل السفاح باستخـدام أدنى قدر من الوسائل العنيفة، ولكن الأمريكيين اختاروا مهاجمة المنزل بطائرات وأسلحة مصممة لتدمير الدبابات».

إن مـا يحـدث واضح تماماً في ذهن حجـي: «المخبرون والجواسيـس يجنون المال من الطرفين». قال المتعاقد: إنه يفهم ذلك، وانتهت وجبة الطعام بصمت.

بعـد تنـاول طعام الإفطـار، شكرت حجـي على حسن كرمـه وضيافتـه، وتحدث إلي كالدجاجة التي ترعى صغارها، يوجهني للاستعجال وعدم العبث بالكاميرا التي أحملها. ومع بزوغ ضوء النهار، استعجلنا حجي في ركوب السيارة والانطلاق قبل أن يرانا أحد في منزلـه. وكان يثق بحكم السـكان المحليين الذين زاروه في أثناء وجودنـا في الأيام القليلة الماضية، ولكن إذا ذاع الخبر بأن أشخاصاً أمريكيين غير معروفين مكثوا في منزله أياماً، فإن عيون الشر ربما تحيط بمنزله. وفي الأفق كانت مراوح طائرة بلاكوهوك تشق طريقها عبر هواء الصباح البارد.

وفي طريق عودتنا باتجاه الحدود، أراد المتعاقد أن يقف عند إحدى القواعد العسكرية ليتحدث إلى شخص من الوكالات الحكومية الأخرى، وهذا الوصف (الوكالات الحكومية الأخـرى) هـو عبارة عن مسمـى آخر لوصف كبـار القائمين على العمليـات السرية التي

لا تندرج ضمن الهيكل العسكري التقليدي. وكان المتعاقد يبدو متحفزاً لنقل احتجاج حجي حول إفراط الأمريكيين في استخدام القوة، واعتمادهم على المعلومات القادمة من الجواسيس والمخبرين؛ وجلست أنا أنتظر في الخارج.

وبعد دقائق معدودة، ظهر المتعاقد وهو يهز رأسه: «يبدو أن الضابط المسؤول لم يكلف نفسه مشقة القيام من سريره ليقول مرحباً. واكتفى بإرسال المراسل المحلي ليقول لي: إنه يعلم بهذه المعلومات».

أراني المتعاقد رزمة من الروبيات الباكستانية القذرة، وقال وهو يهز رأسه متعجباً، «قال لي الحقير شكراً وهذه بعض الروبيات لدفع أجرة التاكسي... تقضي السياسة المتبعة بدفع شيء ما لكل شخص يأتي بمعلومات استخبارية».

ثم تأمّل الروبيات المتسخة، وهزّ رأسه ثانية، وقال وهو يدخل السيارة: «هذه مفسدة كبيرة. فأي حافز أفضل لتقديم معلومات كاذبة إلى الأمريكيين من أن تأخذ عليها مكافأة من المال؟».

وحتى نكون منصفين، فإن فكرة أن يدخل مدني أمريكي مسلح مشياً على قدميه إلى قاعدة عسكرية ومعه معلومات معينة ربما تجعل من أي موظف رسمي يتريث قبل أن يفعل أي شيء بها، ذلك أن الجيش لا يستقي معلوماته إلا من مصادر استخبارية مؤسسة. وتعد المعلومات التي يتقدم بها أشخاص عابرون من أضعف المعلومات الاستخبارية، ولكن من الواضح أن ما أزعج المتعاقد هو أنه تلقى رزمة من الروبيات الملوثة.

وقال المتعاقد: إن الاعتماد على المعلومات الاستخبارية غير الصحيحة وغياب التعامل مع السكان المحليين، قد ضاعف من المشكلات الأمنية، وأضاف، «حين تدهم مدرسة -أي المدارس الدينية- فإن السكان المحليين يغضبون. ولا تجد فيها دوماً أشخاصاً أشراراً، ولكن الجميع يطرحون على الأرض، وتوضع القيود في أيديهم وأرجلهم، وتغطى رؤوسهم، ويوسمون. وحين تنسى أن تعطي كل واحد منهم مئة دولار قبل أن تخرج من الباب، فإنهم سيقطعون على أنفسهم عهداً بالثأر منك على ما فعلت، وسوف يفعلون

ذلـك. وفي المرة القادمة حين يأتـي الأمريكيون بدورية في سيـارات الدمبفي[1]، فسيكون الفخ جاهزاً لهم».

ويذكـرني هذا الكلام بالمثل البشتـوني الذي سمعته من حجي قبـل أيام: «إذا أخذت بثأرك بعد مئة عام، فأنت مستعجل».

وعلـى الرغم من المعاملة التي لقيهـا المتعاقد من موظف الوكالات الحكومية الأخرى، فإنه يصر على أن الأشخاص الذين يعمل معهم مباشرة قد بدؤوا بإدراك القضية وأخذوا يطـورون أساليبهـم في جمع المعلومـات. إننا نريد الآن أن ندخـل إلى عقول الناس الذين نتعامـل معهم. نريد تأسيس علاقات لطيفـة، أكثر ارتباطاً بالعلاقة الشخصية، بدلاً من أن تكون مؤسسة على الحافز المالي.

ويضيـف المتعاقـد، «في السابق، قال رمسفيلد: إننا ربمـا نصنع من الأعداء أكثرَ مما نقتـل ... يـا للغباوة .... ولكـن الأمور الآن تتغير. إننا لا نتعامل كثـيراً مع القادة المحليين الأفغـان. ولا نلقـي بالاً لمـا يقوله الباكستانيون؛ لذلـك تجد أنه يسمح لنـا بالتوغل داخل باكستـان... ولسبب أو لآخـر، لا تزال باكستـان كالكنيسة الكاثوليكية، حيـث يلجأ إليها بوصفهـا حرماً آمناً». وأضـاف، «إن الأشخاص المخربين في داخـل باكستان يستخدمون الحماية الباكستانية لضرب الأمريكيين داخل أفغانستان ثم يفرون عائدين إلى باكستان؛ لأنهم يعلمون أنهم لن يلاحقوا داخل باكستان. وآمل أن يتغيّر هذا الوضع».

إن العمليـات السرية مستمرة في الوقت الراهن، وتلجأ قوة المهمات الخاصة إلى البحث عـن أسباب لعبور الحـدود، كما يقول المتعاقد. قد يحتاج مـدني أمريكي يعمل في باكستان إلى المساعـدة، وهـو ما يعطي الجيـش الأمريكي سبباً لعبور الحدود لتقـديم الدعم، أو في

1- المقصود هنا سيارات الجيب رباعية الدفع التي دخلت من عهد قريب الخدمة في الجيش الأمريكي ماركة همفي، وهذا الاسم هو اختصار محور من عبارة (عربة مرنة الحركة متعددة الأغراض) ولكن المتحدث استبدل بالمقطع الأول من الكلمة (hum) كلمة (dumb) التي تشابهها في الوزن وتعني «الغبي» للدلالة على قصور تلك العربات وعدم نفعها ولا سيما في مواجهة الألغام الأرضية والعبوات الناسفة التي تفجر من بعد.

حالة المطاردة الساخنة، أو لاستدعاء نيران المدفعية، أو الدعم الجوي لملاحقة «الأشخاص الأشرار» الغامضين. ولكن إلى أن يفعلوا ذلك، فإن الحرب الخفية تعتمد على رجال، كالأشخاص المتعاقدين، لديهم عزيمة في العمل والقتال في أماكن نائية، بعيدة عن مدى القوة العسكرية الأمريكية. سألته هل كان هناك خطط لإنقاذهم داخل الحدود الباكستانية إذا فشلت مهمتهم وتعرضوا للخطر؟ فقال: «خطة الإنقاذ هي، إذا عبرت الحدود إلى باكستان، فسيكون حبلك على غاربك، ولن تأتيك طائرة لانتشالك، فأنت في الهلكة إذا وقع منك خطأ ما». غير أن تلك العرضة للمخاطر هي عنصر جوهري في عالم المتعاقد الأمني. ويضيف المتعاقد: «فأنت لست ضمن الهيكل الفدرالي ولا ضمن الهيكل العسكري... إنك شخص يمكن إنكار الصلة به، ويمكن التخلص منه بسهولة، ويمكن محوُه».

إن هذه الاستقلالية -وما يلازمها من سرّية- هي جزء من دستور المتعاقد الأمني. وهذا الدستور يجب أن يبقى مصاناً حتى بعد الموت من وجهة نظر المتعاقد الأمني. ويقول المتعاقد: «حين يلقى أحدنا حتفه، فإن ذلك بسبب خطأ ارتكبناه... لقد فقدنا اثنين من الرفاق في كمين نصب لهما، وفقدنا ضابط استخبارات في أثناء التدريب. هذا إلى جانب قضية [جوني ميتشيل] سبان الذي قتل في أثناء الاستجواب، مما يجعل مجموع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذي لَقُوا حتفهم في هذه الحرب أربعة». وقد جرت عادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على عدم كشف هُوية العملاء الذين يعملون فيها وإن قتلوا. ولكن في قضية سبان، قررت الوكالة أن نجوميته المُغفَلَة يجب أن توضع على جدار الشرف في وقت كانت الوكالة أحوج ما تكون فيه إلى بطل علني يشار إليه بالبنان. «وقد اتخذ ذلك القرار بعد 11 أيلول/ سبتمبر بغية تلميع صورة الوكالة. إنه لا ينبغي الإساءة إلى بطل ميت بهذه الطريقة، لهذا السبب أعتقد أن الرجل الثاني في وكالة الاستخبارات المركزية قرر أن ينتزع بعض المجد ليغطيَ به سجل الأخطاء التي ارتكبتها الوكالة منذ حادثة خليج الخنازير[1].... لقد تعرض جورج تينيت لنقد شديد بسبب 11

1- خليج على الشواطئ الكوبية، وهو المكان الذي شهد محاولة فاشلة لاجتياح الجزيرة من قبل مجموعة كوبية معارضة في المنفى عام 1961، بمعرفة وتدبير من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

سبتمبر، وكان يسعى إلى إثبات أن الوكالة ما زالت ناجحة، وأنها تعمل بجد واجتهاد. والمشكلة هي أن ما فعلته الوكالة سيؤذي بقية الأشخاص الذين يقومون بعمليات سرية للوكالة، وسيؤذي أسرهم؛ لأنه سيترك أزواجهم وأسرهم مكشوفين في العراء، إضافة إلى أنه يكشف عن إجراءات ومبادئ العمليات السرية والتجسس التي تقوم بها الوكالة ... ولست أدري لماذا يضحون بنا من أجل تحسين سمعة وصورة الوكالة؟».

كان من شأن الإفصاح عن اسم جون سبان أن جعل منه بطلاً، ولكنه أيضاً كشف عن هُوية زوجه التي كانت هي الأخرى تعمل سراً مع الوكالة؛ وبذلك أصبح معلوماً لدى الناس أن أبناءهما هم أبناء موظفين سرّيين في وكالة الاستخبارات المركزية. وحين تأملت ما قاله المتعاقد، فهمت أنه رأى في هذا الاحتفال العلني بالمهارة الخاصة لعمله السري انتهاكاً للدستور الذي يحكم عمله. ويبدو لي أن رغبة المتعاقد في التحدث إلي حول هذا الموضوع، نابعة من شعوره بالغضب المتولد من رؤيته انهيارَ مبدأ السرية. لقد قام المتعاقد الأمني المستقل الذي يعمل معه في العالم السري لمهمات الوكالات الحكومية الأخرى بالقبول بالوظيفة التي كُلّف بها؛ لأنه كان يثق بأن هُويته وما يقوم به من مكايد ستبقى طيَّ الكتمان، إن لم يكن ذلك حماية له، فعلى الأقل حماية لأسرته وأبنائه من بعده. ولكن يبدو الآن أن وكالة الاستخبارات المركزية مستعدة للتضحية بذلك العهد الذي قطعته على نفسها أمام عملائها، بغية تحقيق بعض المجد.

طلب إليَّ المتعاقد أن ينزل قبل قاعدته بمسافة قصيرة؛ لكي يوفرَ على نفسه مشقة تفسير وجوده في منطقة تابعة لسيطرة طالبان، فودعته بالقرب من الحصن المبني من الطين على حافة الإمبراطورية ثم تابعت مسيري في سيارة الأجرة الصغيرة.

الفصل الثالث

الحرس الإمبراطوري

«في نهاية المطاف، أصبح معلوماً لدينا أن من المحتمل أن يكون هناك تعارض في المصالح»

- أحد المتعهدين الأمنيين الذين عملوا في طاقم الحرس الشخصي الخاص بحاكم جزيرة هاييتي آريستيد

لم يدع انهيار حكم طالبان في أفغانستان مدة هدوء للقوات الأمريكية من أعمال العنف العشوائية، والكمائن، والهجمات اليومية بالقنابل والصواريخ. والهدف الأول في هذا الواقع الأفغاني الجديد، هو حامد كرازاي. ينحدر كرازاي من سلالة بشتونية عريقة وهو مستغرِب «معتدل» يتمتع بمهارات دبلوماسية، إضافة إلى إجادته التحدث باللغة الإنجليزية وأربع لغات أخرى، وكان يشكل للولايات المتحدة أسهلَ خيار لزعيم أفغاني يمكن حمايتُه. لكن من المعلوم أن أي أفغاني يجرؤ على الوقوف في صف أمريكة سيصبح هدفاً لأنصار طالبان، وليس ذلك وحسب؛ بل أنصار زعماء الحرب الحانقين من الوضع الجديد مثل قلب الدين حكمتيار. وتشتهر أفغانستان بتاريخها المديد في استخدام الاغتيالات لتغيير مسار الأمة؛ لذلك فإن وقوع محاولات للقضاء على حياة كرازاي في المستقبل القريب هي في حكم اليقين.

بدأت الولايات المتحدة في الأصل بتدريب فريق من الحرس الشخصيين الأفغان لتولي مهمة حماية كرازاي، لكنها سرعان ما اكتشفت وهن الاعتماد على حراس قصر مؤلف حسب الطلب من السكان المحليين، وتبين أنه ما من حيلة يمكن أن تجعل من الأفغان قوة حراسة فاعلة، وموثوقاً بها مهما اجتهدت في تدريبهم؛ إذ يبقى الحراس المرافقون من السكان

المحليين عرضة للاختراق. وقد سبق لزعماء أفغان آخرين، مثل رشيد دوستم أو إسماعيل خان، أن وضعوا ثقتهم بثلة من الرجال المقاتلين الذين صقلتهم المعارك وقاتلوا إلى جانب قادتهم على مدى عقود من الزمان، وقد أمضى بعض هؤلاء الرفاق سنوات في السجن، وتعرضوا للمحن في سبيل خدمة قادتهم. أما كرازاي فكانت تعوزه الخبرة العسكرية، ولا يوجد حوله رجال ثقات يمكن الاعتماد عليهم ممن لديهم الاستعداد لحمايته بأجسامهم -إذا اقتضت الضرورة- من رصاصة متجهة نحوه؛ لذلك استنجد كرازاي بوزارة الخارجية الأمريكية وناشدهم إرسال فريق من الحرس الشخصي لمرافقته.

(...) وفي إجراء مؤقت قبل وضع حل طويل الأمد، تم تكليف القيادة المشتركة للعمليات الخاصة بهذه المهمة، وقامت القيادة المشتركة بتشكيل فريق من الحرس الشخصي المرافق من قوات الصاعقة سيل فريق 6، وهو الفريق المكلف بالعمليات السرية المضادة للإرهاب، وله اسم مشهور آخر هو مجموعة التطوير (ديفغرو)، وفريق سيل 6، وهو فريق يماثل في اختصاصه اختصاص قوات الدلتا. ومن اختصاصات فريق سيل 6 توفير الحماية الشخصية لكبار ضباط القوات المسلحة في المناطق المحفوفة بالمخاطر. نشرت القوة التابعة لفريق سيل 6 في 2 حزيران/ يونيو من عام 2002، وأخذ فريق الحرس الخاص للرئيس كرازاي موقعه في العمل في 15 الشهر نفسه. وكان هذا الفريق تحديداً يخضع لعملية تبديل كل ستة شهور، على أن تنتهي مهمته في 15 كانون الأول/ ديسمبر.

كانت قوات سيل تلازم كارازي ملازمة الظل، كما كانت تفعل مجموعات القوات الخاصة في حماية الجنرالات الأمريكيين وأمراء البحر حين يزورون أفغانستان، وربما أعطى هذا العرض للقوة المرافقة لكرازاي انطباعاً بوجود حماية مشدّدة، بيد أنه لم يمضِ وقت طويل قبل اكتشاف أعداء الحكومة الأفغانية الجديدة بعض الثغرات الخطيرة التي تمكنهم من توجيه رصاصة قاتلة صوب الرئيس. وفي حين أن استخدام حرس شخصي أمريكي قد أزال خطر الاختراق من قبل الأعداء، إلا أن ذلك الإجراء لم تكن له الفاعلية نفسها فيما يخص الزعماء الأفغان الآخرين.

في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر من عام 2002، سافر كرازاي إلى مسقط رأسه قندهار لحضور حفل زفاف أخيه الأصغر. وبعد أداء صلاة المغرب، وفي أثناء مغادرة كرازاي

المبنى الذي يقيم فيه عمدة البلدة في سيارة أمريكية سوداء رباعية الدفع، قام أحد الحرس الذين عينوا قبل أسبوع، بإطلاق ما بين أربع إلى ثماني رصاصات على كرازاي مستخدماً مسدساً من نوع ماكاروف. أخطأت الرصاصات المتطايرة جسم كرازاي بسنتيمترات معدودة، ولكنها أصابت حاكم الإقليم غول شيرزاي في رقبته. وحين أطلق الحارس أول رصاصاته، قفز عليه صاحب متجر مجاور يبلغ من العمر 32 عاماً، فصرعه على الأرض وحاول نزع المسدس من يده، وهُرع فتى أخر للمساعدة. ثم بدأ الحرس الشخصيون من فريق سيل 6 والمدربون على إطلاق النار من مسافات قريبة، بإطلاق النار باتجاه الشخص الذي أطلق النار فقتلوا الأفغان الثلاثة. وعلى الرغم من أنه كان هناك قاتل واحد، فإن صاحب المتجر والفتى لقيا حتفهما على الرغم من دوافعهما الحميدة لحماية كرازاي، وإن فعلوا ذلك بأسلوب الهواة. وعلى الفور، لم تلبث أنباء هذا الحدث الدموي أن تصدرت نشرات الأخبار برسالة فحواها أن الجيش الأمريكي حمى كرازاي، وتعامل بعنف دون تمييز بين بريء ومتهم، وقد أظهرت عواقب هذه الحادثة أهمية إيجاد حل جديد لمشكلة حماية كرازاي. ومن حسن الحظ أن كريغ ماكسيم (الملقب بـ «ماد ماكس» أي ماكس المجنون) كان منهمكاً قبل وقوع هذه الحادثة في وضع فريق جديد لحراسة كرازاي.

يتمتع ماكسيم، ذو الشعر الأبيض، والبنية الصغيرة، الذي تجاوز الخمسين من عمره، بخبرة في الجيش بلغت ثلاثين عاماً، منها عشرون عاماً في قوات الدلتا. وتغطي نظاراته الشمسية الداكنة التعبير الجاد المرتسم على وجهه، كان كريغ يتولّى برامج تدريب قوات الدلتا، ثم نال شهرة كبيرة على حسن بلائه في حماية الجنرالات وكبار الشخصيات، في مناطق الحرب أو غيرها من المناطق التي تكثر فيها احتمالات الاغتيالات. ويعبر ماكسيم بكل وضوح ودون مواربة عن الأسباب التي دفعته إلى العودة إلى العمل بصفة متعاقد مستقل بعد أن تقاعد من قوات الدلتا: «لقد افتقدت العمل والحركة، وهذه طريقتي الخاصة في الرد على هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ولقد أصبحت القضية قضية شخصية لي».

ويتفق أكثر المراقبين أن الانتشار الطارئ لفريق سيل 6 كان إسرافاً في القتل عدا أنه باهظ التكاليف، غير أن أهمية بقاء كرازاي في السلطة فيما يخص المصالح القومية

للولايـات المتحدة جعلت من تلك التدابير غـير العادية أمراً ضرورياً. وقد وفَّر استخدام قـوات سيـل فسحة من الوقت ريثما يتـم إعداد حل طويل المدى لهـذه المشكلة، وهذا هو مـا كان كريغ يفكر به حين اقترح فكرة تجنيد حرسـ شخصي من المتعاقدين المستقلين للإبقـاء على حياة كـرازاي. وكان يتوافر لديـه الخبرة والمعارف، وقـال: إن بإمكانه أن يؤلـف فريقاً مكوناً من ستـة وثلاثين من الحرس الشخصيـين الأقوياء في غضون ستين يوماً.

«قلت لهم: إذا منحتموني صلاحية انتقاء أعضاء الفريق، وتعيينهم، وصلاحية فصلهم من العمل، فسوف أقبل بهذه المهمة، ثم أعددت قائمة بعدد الأسلحة التي تلزمنا، ونوعها، وكان علينا أن ننسق مع وزارة الخارجية؛ لأن موافقتهم كانت ضرورية، ولكنهم لم يفقهوا شيئـاً من الترتيبات التـي اقترحتها». أيدت وزارة الخارجية فكـرة كريغ وأضافت خُطته إلى عقـد قائم مع شركة دينكورب مع الوزارة، جاعلة ماكسيم ورجاله متعاقدين فرعيين (مـن الباطن) مع شركة دينكـورب. «كانت دينكورب ملتزمة بعقـود مع وزارة الخارجية لتقـديم الحماية والأمـن في القدس والبوسنة، وكان لديهم فائضٌ من المخصصات يبلغ 50 مليـون دولار؛ لذلـك عمدت الخارجيـة الأمريكية إلى إدراج خُطـة حماية كرازاي في عقد دينكورب». ومع أنه جرى وضع بعض الأفغان ضمن طاقم الحرس الشخصي للرئيس كـرازاي، إلا أنه يبقى فريقـاً أجنبياً بعناصره وتمويله، إذ كانـت مصاريف الفريق تدفع بوصفها عقداً خاصاً مع دينكورب.

وقـد ساعـد استخدام متعهدين مـن القطاع الخاصـ في إضفاء جانـب إيجابي على الانطبـاع العام عـن الرئيس كـرازاي مقارنة بالانطبـاع الذي يصاحـب إحاطته بجنود أمريكيين، وهو انطباع يوحي بأن كرازاي ما هو إلا دمية أمريكية متحركة، تحميها البنادق الأمريكيـة. إضافة إلى أنه في حالة وقوع حادث مؤسف، فإن المسؤولية يمكن أن تزاح عن الأمريكيـين والجيشـ الأمريكـي إلى الشركة التي تؤدي خدمات الحمايـة. كما أنه يمكن تفصيـلُ تدريبـات المتعهدين بما يتلاءم والظـروف الخاصة التي يتوقـع أن يعملوا فيها، وهو أمر يعتقد ماكسيم أن من شأنه أن يحول دون حدوث مأساة مثيرة للجدل كتلك التي وقعـت في قندهار: «لدي مشاعـر مختلطة بين الحب والكراهية لقوات سيل. إنهم يعملون

بطريقــة مختلفة. على سبيل المثال: تنحصر مهمــة الوكيل المسؤول في التغطية والإخلاء. ولا يمكنــك فعل ذلــك إذا كنت تحمل بندقية طويلــة، ويمكنني القــولُ: إن الأحداث التي وقعت [في قندهار] لها علاقة مباشرة بالتكوين العقلي لقوات سيل».

أمضى كريغ وفريقه المتطور بعض الوقت في كابول في شهر تموز/ يوليو من عام 2002 للتوصل إلى تقويم أولي لنقاط الضعف والثغرات التي يجب أخذُها في الحسبان. ثم أمضى كريغ شهري تموز/ يوليو، وأغسطس في تجنيد العناصر اللازمة لتشكيل الفريق. وبحلول الثامن من أيلول/ سبتمبر، تجمع لديه ثمانية وثلاثون متعاقداً جاهزون لحماية كرازاي، ولكنــه واصــل تجنيد مزيد من الأفراد قدر الإمكان: «ما فعلنــاه هو أننا أنفقنا الكثير من المــال في انتقاء وتوظيف الأشخاص المناسبــين ذوي التأهيل الجيد. لقد وظّفنا صنفاً من النــاس ممن تقع سلامتهم بــين زناد بندقيتهم وعقلهم. أشخاص يمكنهم قراءة الواقع المحيط بهم- اللون، المقارنة، الحركة، وهي أشياء إما أنك تعيها أو أنك لا تعيها. إن قرابة 70% مــن الفريق الذي لدينا الآن هم من العامـلـين السابقين في «الجانب الأبيض» [غير السري] من قوات سيل. وانتهى العدد الذي توصلنا إليه إلى 46 فرداً. وحين أقوم بتوظيف فريــق ما، فإن ما أعوّل عليه هو السلوك والحســ التكتيكي، وهذه خصائص لا تتحقق إلا بالخــبرة، وتجدها دوماً لدى قدامــى المحاربين، ولدى رجال الشرطــة». وقد طلبت إلينا وزارة الخارجيــة في بدايــة الأمر أن يكــون جميع أعضاء فريق الحمايــة الشخصيين من متقاعدي القوات الخاصة، لكن ماكسيم أصر على أن ضباط الشرطة السابقين يمكن أن تكون لديهم المهارات الضرورية لأداء المهمة. ونظراً لمحدودية عدد المتقاعدين من القوات الخاصــة الذين يمكن الاستعانة بهــم، وفي ظل تنامي الطلب علــى الحرس الشخصيين، فقد كان من الضروري أن تتراجع وزارة الخارجية عن ذلك الشرط.

أتم كريــغ تشكيل فريقــه لحماية كرازاي قبل بدء الحرب العراقيــة، أي قبل الانفجار الــذي شهده الطلــب على الخدمات الأمنيــة الخاصة؛ لذلك فقد كان لديــه تصور سابق أنــه سيأتــي يوم لن يكون فيه وضــع فريق من حرس شخصيين ذوي خــبرة ومراس لأداء مثــل هذا الواجب المهم، أمراً سهلاً: «في مرحلة من المراحــل، سيكون حتماً علينا تدريب

أشخاص من نقطة الصفر... ونعلم أيضاً أن طبقة الأشخاص المحترفين المؤهلين للقيام بهذا العمل ستستنفد. ويتطلب الأمر عشر سنوات؛ لكي يصبح الشخص حارساً شخصياً محترفاً، وعشر دقائق ليرتديَ لباس المحترفين، وعشر ثوان ليتحدث مثلهم».

ويخضع الحارس الشخصي المؤهل للعمل في الظروف ذات المخاطرة العالية لمعايير أشد صرامة من تلك التي يخضع لها الصنف العادي منهم، ويجب أن يكونوا على درجة عالية من التدريب، وأن يتوقعوا الرد على أنواع غير محدودة من الهجمات. ويشير كريغ: «هناك فرق كبير بين الحماية في الظروف ذات المخاطر الكبيرة، وبين الحماية التي تقدمها الخدمات السرية. إن جهاز الخدمات السرية، ووزارة الخارجية، يقدمان الحماية لكبار المسؤولين في بيئة غير عدوانية. لقد أضفت البيئة المحفوفة بالمخاطر التي نعمل فيها مزيداً من المسؤوليات على عاتقنا، إنهم يستخدمون سيارتين في انتقالهم. وحين تكون في مكان تحدق به الأخطار من كل جانب، فإن مهمتنا تكون أصعب، وعلينا التحقق من وجود فسحة كافية أمامنا للحركة كي نقوم بمهمتنا خير قيام».

وفي أثناء قيام الحارس الشخصي بحراسة الفرد المكلف بحمايته، عليه أن يكون في حالة توافق كامل مع كل احتمالات الخطر وراء كل سيارة أو حول كل زاوية، دون أن يسمح لحالة التيقظ تلك أن تستفزه إلى ردة فعل مبالغة تصور له غير الخطر خطراً. إن من العسير تقدير عدد الأفراد الذين يسعَوْن إلى اغتيال كرازاي، لكن لما كان بمقدور رصاصة مواتية واحدة أن تقضي على خُطة أمريكة في أفغانستان، فإنه لم يكن أمام وزارة الخارجية أي فسحة للمخاطرة؛ لذلك فقد جمعت القناصة، وكلاب الأثر، ونقاط التفتيش المحصنة، وعدداً كبيراً من العناصر العسكرية، لخلق قوة عسكرية صغيرة تشابه الحرس السويسري الذي يحمي بابا الفاتيكان.

وينظر كريغ إلى عمل الحرس الشخصي على أنه لعبة القطة والفأر، وهي لعبة لم يخسر هو فيها حتى الآن، وهو يعي أنه مع ازدياد مستوى الحماية للشخص محل الحماية، تزداد مستويات المخاطر: «حين قدمنا إلى هنا أول مرة، كانت طالبان تقوم بضربات (كلاب)... حيث كانوا يضعون أشياء عليها آثار المتفجرات ليتحققوا إن كنا سنراها أم لا.

وقد استخدموا ذات مرة صندوق أدوات ذا طبقتين ووضعوا فيه قفازات جراحة وعليها آثار متفجرات لينظروا إن كنا سنعثر عليها. إن العدو يتعلم ويتكيّف مع الظروف الجديدة». وبعد وقت قصير من وصول فريق الحرس الشخصي التابع لشركة دينكورب الأمنية، استهدفت قنبلة كبيرة، وكذلك صاروخ أرض جو الرئيس الأفغاني حامد كرازاي.

لم تكن الظروف مثالية؛ إذ رفض ماكسيم -لأسباب تتعلق بالأمن والسلامة- أن يستخدم فريقه المبنى الذي خصص لسكناهم، وتخلَّوا عن ذلك المسكن مؤثرين الإقامة في «معسكر إيجيس» الذي أعد على عجل، وهذا المعسكر هو مجموعة من الخيام على بعد 90 متراً تقريباً من المكان الذي يبيت فيه كرازاي، وانتقل فريق ماكسيم إلى مخيم إيجيس في 15 كانون الأول/ ديسمبر، 2002.

أنجز كريغ تشكيل فريقه في المدة الزمنية المحددة بحسب الاتفاق، وبقي كرازاي على قيد الحياة طَوالَ المدّة التي كان فيها تحت حمايته، غير أن الاتفاق بلغ نقطة الانهيار حين حدث خلاف بين إدارة شركة دينكورب وماكسيم حول ترتيبات العمل القائمة بينهما. وكان كريغ في غاية الصراحة عند التعبير عن رأيه بما حدث: «لقد تحايلت علينا دينكورب وحرمتنا من حقوقنا المالية، وأكثرها يتعلق بأجور العطلات الرسمية؛ لذلك أضربنا عن العمل بمجموعنا اضراباً مفاجئاً بعد انتهاء المدة الأولى من العقد البالغة تسعين يوماً». وقد تركت هذه الحادثة مرارة في نفس ماد ماكس. وفي ضوء رفض فريق حراسة كرازاي بكامل أعضائه تجديد عقدهم، أسرعت شركة دينكورب لتأمين بديل عن الفريق القديم خوفاً من ترك عميل مهم معرضاً لخطر محدق.

حين انسحب كريغ ماكسيم وفريقه من العمل مع دينكورب، لم يكن أحد من العالم الخارجي يعلم أن حياة كرازاي يمكن أن تعتمد، ليس على الأمن القومي أو الولاء الوطني؛ بل على خلاف حول أجور العطلات الرسمية. أما فيما يخص شركة دينكورب، فإن خسارة بضعة ملايين من الدولارات من عقد لا يعد أصلاً من نشاط الشركة الجوهري هو أمر لن يكون له تأثير مهم في عمل الشركة، مع أن الإخفاق في تأمين فريق حراسة لكرازاي يمكن أن يهدد بقية عقود الشركة مع الحكومة الأمريكية. وفي وقت إبرام عقد حماية كرازاي،

كان 95% مـن نشـاط شركة دينكورب -وهي شركة تبلغ قيمتها 2 بليون دولار وتوظف 23 ألـف موظف- متعلق بعقـود مع الحكومة الأمريكيـة. وكانت أكثر عقـود تأمين الحراسة الشخصية التي أبرمتها دينكورب قبل 11 أيلول/ سبتمبر تحال إلى متعاقدين من الباطن إلى شركات ناشئة متحفزة للعمل مثل شركة بلاك ووتر وشركة تربل كانابي.

أثمر سعي دينكورب السريع لتأمين بديل عن فريق الحرس الشخصي لكرازاي بتوقيع شخص يسمـى بيتر وولثر، وهو رقيـب سابق في سلاح القوات الخاصـة من ولاية داكوتا الجنوبيـة، ومعه خمسون من ضباط الشرطة والجيش السابقين، على عقد لسنة واحدة مقسم على مدتين متتابعتين.

بيـتر ذو البنية القصيرة، واللحية المربعة، هو أقرب الناس شبهاً بشخصية «العملاق الأخضر»، لكن على صورة إنسان أبيض. وينحدر بيتر الذي ما زال في بداية العقد الثالث من عمره، من الوسط الغربي للولايات المتحدة، وخدم في القوات الخاصة مدة تزيد على عشـرة أعوام بصفته خبـير أسلحة. وشارك في فريق أو دي إيـه 595، وهو فريق نخبوي مكلـف بمهمات خاصة لدعـم الجنرال دوستم في وادي (داري سـوف) في بداية الهجوم الأمريكي على أفغانستان. ثم توجه بيتر إلى العراق للقيام بجولة هناك بعد انتهاء مهمته في أفغانستـان، قبل أن يقفل عائداً إلى قاعدته في فـورت كامبل بولاية كينتاكي. ويعترف بيـتر أن أفغانستان كانت تمثل «بطولـة الدوري العالمي» للقوات الخاصة، وتعلم في العراق درسـاً مفـاده أن «الجيش الكبير» سيطر علـى تلك الحرب، وأن القـوات الخاصة أخذت موقعـاً متأخراً في الجيش التقليـدي. وبعد انتهاء مهمة فريقه، أصبـح لديه حرية اتخاذ قـرار حـول مصيره: هل يبقى في القـوات الخاصة حتى يحين وقت إحالتـه إلى التقاعد، أم ينهـي خدماته ليعمل في الشـركات الأمنية بصفة متعاقد أمنـي خاص يتقاضى ثلاثة أضعاف راتبـه الحالي؟. وتدفع شركة دينكورب عادة معدلات أجور الحرس الدبلوماسي في وزارة الخارجيـة مـن 450 إلى 550 دولاراً في اليـوم- غـير أنهـا كانـت تدفع في عقد حمايـة كـرازاي معدل 600 دولار في اليوم إضافة إلى ضمان عمل عام كامل بعقدين مدة الواحـد منهما سـتـة أشـهر. وقد بدا هذا الراتب الذي يتجـاوز 200 ألف دولار في العام

مغرياً لجندي يتقاضى في العادة أقل من 50 ألف دولار في العام في الجيش الأمريكي، ويمثل بيتر مثالاً واحداً من آلاف المتعاقدين الذين قرروا ترك خدمتهم العسكرية لتحويل خبرة ومعرفة مؤسسية كلفت الدولة ملايين الدولارات إلى القطاع الخاص، حيث يجري وضعها على نحو جديد، ويعاد بيعها إلى الدولة بأسعار باهظة. وبعد تقاعده بوقت قصير، استقل بيتر طائرة متوجهة إلى كابول ليضع حياته على خط الخطر حماية لزعيم دولة أجنبية.

في حراسة «الزعيم»

شهدت كابول تغييرات جذرية منذ سقوط حكم طالبان قبل سنتين، وتحيط متاريس أكياس الرمال بمبنى القصر الرئاسي الذي لم يتوقف استهدافه بالقصف في كابول. ووضعت حاويات الشحن الحديدية المملوءة بالتراب على جانب الطريق المزدحم لمنع اقتحام الشاحنات المفخخة، واستخدمت ألواح حديدية دروعاً لتغطية مواقع الرشاشات. أما سطوح المباني، فترتفع منها هوائيات الراديو، ويتمركز القناصة في أبراج مؤقتة أنشئت على جناح السرعة لمراقبة محيط القصر بالمناظير المقربة، واتخذ جنود من الأفغان الطاجيك الذين يتصلون بنسب قرابة بقائد الجيش الأفغاني الجنرال فهيم، عدَّةَ مواقع لهم خارج حدود القصر، في حين يوجد عدد من الحرس الأفغاني من قبائل البشتون داخل البوابة لحماية الرئيس كرازاي ذي الأصل البشتوني في الداخل، وقد تمكنت من الدخول من البوابة الخارجية بمجرد رفع جواز سفري الأمريكي، غير أن الأفغان الذين كانوا يرافقونني اضطروا إلى التزلف والكذب؛ كي يسمح لهم بدخول المبنى، مع أنه من الشائع أن يرافق الأجانبَ والصحافيين مترجم وسائق أفغانيان في كابول.

ظهرت علامات الارتباك على حرس القصر من الأفغان من طلبي زيارة «بيتر» أحد أعضاء فريق الحرس الشخصيين لكرازاي. عرفت بيتر حين سافر مع فريق أو دي إي التابع للقوات الخاصة في المراحل الأولى من الحرب في أفغانستان، وبقي التواصل بيننا مستمراً في السنتين اللاحقتين، وقد كنت أتبادل الحديث مع بيتر عبر هاتفه الخلوي في

أفغانستان منذ أن وصلت إلى كابول، وطلب مني ذات مرة أن أتوقف عند القصر الرئاسي لزيارته. ومن جانب المكتب الصغير على البوابة الصغيرة من سور القصر، شاهدت مجموعة من المتعهدين الأمريكيين يقفون خلف متاريس من الأكياس الرملية. وبعد أن أصابني الإحباط من رفضهم السماح لي بالدخول، قلت لهم بأدب: إنني سأتوجه للتحدث إلى الأمريكيين هناك، وإذا كنت كاذباً، فإن الأمريكيين سيطلقون علي النار قبلكم.

وبعد هذا التحايل على الحراس الأفغان، وجدت نفسي أمام عقبات بيروقراطية معقدة، إذ كان تحتم على الحرس الأمريكيين أن يتصلوا بمركز القيادة، ثم يفتشوا حقائبي، ويفتشوني شخصياً قبل أن يتخذوا أي قرار بشأني. ثم قاموا أخيراً بالاتصال ليسألوا إن كان بيتر موجوداً أم لا. وجاء الرد منه إنه مع الحرس الشخصي «في حراسة الزعيم» الذي كان يعقد اجتماعاً، ويطلق أفراد الحرس على عملية الحراسة «مشي المعيّن»؛ لأنهم يتحلقون حول الشخص المحمي على شكل المعيّن أو الماسة. وكان علي الانتظار إلى أن يتمكن من مفارقة المجموعة.

(...) ينحدر نك الذي كان يخدم ضمن وحدة المارينز للاستطلاع الأمامي، من مدينة صغيرة في وسط غربي الولايات المتحدة، وهو الآن في المدة الأخيرة من عقده مع شركة دينكورب. ويرى نك في عمله ضمن فريق حراسة كرازاي وسيلة لكسب المال، واستمراراً في اهتماماته العسكرية، وأنه جزء من هذه الحقبة الفريدة من التاريخ. واستعرض الشاب الملتحي نك آلية الانضمام إلى الحرس الخاص لكرازاي ودقائق الأمور التي يمكن توقعها ومواجهتها في أثناء العمل:

«للانضمام إلى فريق الحراسة الشخصية، يرسل الشخص ملخص سيرته المهنية إلى دينكورب، وتقوم دينكورب بدورها بإرسال تلك الوثيقة إلى وزارة الخارجية، وإذا قررت الوزارة أن هذا الشخص مؤهل للعمل، فإنها تطلب منه تقديم سيرة ذاتية ويتبع ذلك ملء نماذج ووثائق أخرى. والخطوة الثانية هي اجتياز امتحان نفسي ثم ملء نموذج يخولك الحصول على إجازة الاطلاع على المعلومات السرية. ثم تقوم دينكورب بإبلاغ المتقدم

بتاريخ انعقاد الدورة التدريبية، وتتضمن الدورة ثلاثة أسابيع من التدريب على الحراسة القريبة؛ وأصول السواقة؛ والرماية؛ والقتال التلاحمي القريب المعروف اختصاراً سي كيو بي؛ والقتال بالسلاح الأبيض؛ وموضوعات أخرى تتعلق بمتطلبات وزارة الخارجية الخاصة بالحرس الشخصي. ويجري في العادة استبعاد سبعة أشخاص متقدمين في أثناء مدة التدريب. أما الذين يجتازون بنجاح مرحلة التدريب الخاص، فتقدم لهم المعدات، ويطلب إليهم التوقيع على حزمة من الوثائق والمستندات، بما فيها عقد استخدام، ونماذج تأمين؛ ثم ينقلون إلى أفغانستان. وبعد وصولهم تستمر عملية التمحيص. وحين تلتحق بفريق الحرس الشخصي، يجري تقويم المستجدين في مجالات عملهم كافة: فرق مقاومة الهجوم، القناصة، الحراسة الحلقية الأساسية، وقيادة السيارات. ثم يجلس قائد الفريق وينتقي من بينهم من يراهم الأنسب للمهمة. وإذا كان اختيار السائقين يجري عادة من المجموعة الأخيرة، فإن فريق مقاومة الهجوم، أو القناصة يختارون من المجموعة التي تعقبها. وفي العادة يجري اختيار أفضل الرماة والأشخاص الذين يحسنون الحراسة المتحلقة؛ لأنهم يشكلون الحراس الحقيقيين للشخص المقصود حمايته».

وفي هذه الأيام يتشكل فريق الحراسة من أشخاص خدموا في قوات الدلتا، والاستطلاع البحري، وقوات سيل البحرية، والرينجرز، والقوات الخاصة، إضافة إلى ضابطين من سلاح الجو لتقديم الدعم والمساندة الجوية القريبة، ويمكن أن تضم هذه الوحدة طائرات إي 10، وطائرات آباتشي المروحية الهجومية، وقاذفة القنابل بي 52. وبغض النظر عما يمكن أن يعانيه الجيش من نقص في الإمدادات، فإن فريق حراسة كرازاي لا يعوزه شيء. وبحسب ما يذكر نك: «إنني في غاية الدهشة من كمية الأموال التي تنفق على فريق حرس كرازاي. لقد قامت وزارة الخارجية بشراء تجهيزات، وأجهزة اتصال لاسلكي، وأسلحة، وعربات نقل، مطابقة لما كان فريق ديفغروب يستخدمها حين كان يتولى مهمة الحراسة الشخصية للرئيس الأفغاني، وهي التجهيزات نفسها التي نستخدمها الآن. واليوم لدينا طائرة بي 52 متمركزة في قاعدة جوية لأغراض الاستعراض وإثبات الوجود. ويقوم الطيارون بالتحليق فوق المكان وفوق مدينة كابول لتذكير الجميع بعظمة القوة الأمريكية.

ومـا زال فريق حراسة كرازاي يتمتع بشيك مفتوح مـن البنتاغون، ويمكنهم طلب أي نوع من العتاد، أو الدعم، ولم يسبق أن رُفض لنا طلب».

إن جميـع العربـات والسيارات التـي يستخدمهـا الحرس الشخصيـون لكرازاي هي سيـارات مصفحة، وتستخدم دينكـورب خليطاً من سيارات ليكزسـ ومرسيدس رباعية الدفـع. ويحمل المتعهدون بندقية رشاشة من نوع إم 4 ومسدساً من نوع غلوك 19، ويقدم لكل واحد منهم جهاز موتورلا شخصي للاتصال اللاسلكي في أثناء العمل. ويلبس الحرس المرافقـون من قرب بـذلات وقمصاناً وربطاتِ عنق فوق دروعهـم الواقية من الرصاص؛ لأنهـم في الغالب يظهرون في الصور التي تلتقطها وسائل الإعلام في المناسبات الرسمية، أمـا الباقون فبإمكانهم لبس ما يشاؤون من ملابسـ، لكن الملابس التي يرتديها الحرس تعكسـ النظرة التي رآها غريغ ماكسيم. يلبس بعضهـم لباساً على غرار زي العاملين في الـوكالات الحكوميـة الأخـرى- ويتميز بسترة السفـاري المميزة، في حـين يميل الآخرون إلى ارتـداء الملابسـ العادية التي تناسب نزهة الصيد في البحـر أو في البراري في عطلة نهاية الأسبوع. ولديهم تعليمات متساهلة فيما يخص الحلاقة وتسريحة الشعر، إذ يملك الأعضاء إعفاء لحاهم، وإطالة شعر رؤوسهم.

يبدأ يوم العمل العادي لحرس المرافقة الشخصية من الليلة السابقة حين يعود كرازاي من اجتماعاته اليومية. ويقوم رئيس التشريفات الأفغاني بسؤال كرازاي عن موعد مجيئه إلى العمل في اليوم اللاحق، ثم يتصل بقائد فريق الحراسة المناوب ليخبره بذلك الموعد. ويقـوم قائد الفريـق بالإعلان عن ذلك الموعـد عبر جهاز اللاسلكـي إلى قائد مجموعة الحمايـة الأساسيـة، والسائقين، وفرق مقاومة القناصة. ثم يقـوم قائد كل فريق من كل قسم بالتثبت من إخبار كل عنصر في فريق الحراسة بموعد بدء عملهم في اليوم اللاحق. إن أكثر نشاطات كرازاي محلية، ولكنه حين يخرج بعيداً عن قصره أو حين يستقبل وفوداً ذات شـأن في قصـره، فإنه يجري ضـم فريق متخصص بمقاومـة الهجمات إلى الفريق الأمني.

وحركة كرازاي مقيدة ومحدودة؛ لأنه هدف ذو قيمة عالية، وتنحصر أكثر تحركاته داخل منطقة القصر. وأينما ذهب كرازاي، وإن كان داخل القصر، فإنه يبقى محوطاً بفريق الحراسة من المتعاقدين الأجانب والحرس الشخصي من الأفغان. وشرح لي نك بالتفصيل مجريات اليوم الاعتيادي في حماية كرازاي من الاغتيال: «في الصباح الباكر، يتهيأ السائقون والحرس الشخصي في ممر المعسكر قبل نصف ساعة من بدء العمل، ثم يستقلون سيارات سوبربان متوجهين إلى القصر. ويذهب السائقون لغسل السيارات، في حين يبقى قائد الفريق واثنان من موظفي الخارجية الأمريكية [القائد المناوب والوكيل المسؤول] أمام المنزل. بعد ذلك يعود السائقون بعد الفراغ من غسل سياراتهم، ويصطفون أمام المنزل، ثم يخرج كرازاي فيحيط به فريق الحراسة ويسيرون معه إلى مكتبه في القصر، ومعهم بعض الحراس الأفغان، ويتبعهم السائقون من الخلف بسيارة ليموزين وسيارة سوبربان من باب الاحتياط لوقوع كمين للرئيس في طريقه إلى المكتب. ويتمركز القناصة على سطوح المنازل المحيطة في المنطقة التي يتحرك فيها كرازاي. بعد ذلك يبقى الحرس الشخصيون مع كرازاي، ويبدلون مواقعهم في مبنى المكتب».

يقضي كرازاي أكثر أوقاته في الاجتماعات، وهو أمر يضع نك في موقع مرموق يحسد عليه، حيث يشاهد بأم عينيه كيف تدار أفغانستان: «لقد وفرت لي هذه الوظيفة فرصة معرفة عدد كبير من الشخصيات المهمة، فحين تكون في الموقع الثالث في مكتب الرجل، فإنك ترى وتسمع الكثير؛ لقد سمعت كرازاي وهو يتحدث إلى جورج بوش، وكوفي عنان، ومسؤولين كبار من وكالة الاستخبارات المركزية، وجهاز إم آي 6، والكثير من رؤساء وزعماء الدول، وساعدت كذلك في حماية الرئيس الباكستاني برويز مشرف، وهيلاري كلينتون، والسيناتور ماكين من أريزونا، والرئيس الألباني، ورئيس وزراء بلجيكة، وكولن باول، وعدد كبير من الجنرالات والسفراء الأجانب، ورش ليمبوه. وشاهدت أيضاً مقابلات محطات بي بي سي، وسي إن إن، وبي بي أس مع كرازاي. إضافة إلى مئات المؤتمرات الصحفية التي عقدها في كابول. وحين أخذ ثلاثة موظفين تابعين للأمم المتحدة رهائن في كابول، سمعت كرازاي وهو يناقش مع جنرالات أمريكيين خطة لإنقاذ الرهائن، وهي

خطـة لم توضع موضع التنفيـذ؛ لأن الحكومة الأفغانية تفاوضت مـع الإرهابيين، ودفعت لهم فدية مالية مقابل إطلاق سراح الرهائن. وقد كان من بين الرهائن زوجٌ كبيرِ موظفي الأمم المتحدة في أفغانستان، وشاهدت كذلك كثيراً من زعماء الجهاد.

«في الظهيرة، يذهب كرازاي إلى المسجد لأداء الصلاة، ويسير معه الحرس المرافقون مـرة أخرى. وبعد الفراغ من الصلاة، يرافقونـه إلى مبنى مجاور حيث يتناول فيه طعام الغداء مع زعماء وشيوخ من مناطق مختلفة من أفغانستان، ويأتي شيوخ القبائل والزعماء ليقدموا له الهدايا، ويسألوه قضاء حاجاتهم، ويبقى القناصة يراقبون المنطقة تحسباً لأي حـدث. وهذا ديـدن يومي في برنامج الرئيس. وأحياناً في ساعـات المساء، يذهب كرازاي لزيارة ملك أفغانستان السابق الذي يسكن في قصر مجاور، وتتطلب هذه الزيارة مرافقة الحرس الشخصي، والسيارات، وفريق مقاومة القناصة.

«وبعـد أن ينهي كرازاي اجتماعاته، يسير معه الحرس إلى مكتبه، ويسير خلفه سائقو السيارات بسياراتهم، ويغطي القناصة المنطقة من سطوح المباني المجاورة. ويأخذ عناصر مجموعة الحماية الأساسية مواقعهم مرة أخرى حول مبنى المكتب، ويواصلون عملهم إلى أن يعـود كرازاي إلى منزلـه. ويقوم رئيس التشريفات بالإيعـاز إلى القائد المناوب التابع لوزارة الخارجية الأمريكية مؤذناً له بالانصراف، ويقوم هذا الأخير بالإعلان للبقية عبر جهاز اللاسلكي، ويقوم الحرس بمرافقة كرازاي إلى بيته كما فعلوا في الصباح، وهذه هي وقائع يوم عادي في المحافظة على حياة كرازاي».

ومـع أن نـك قد يجـد متعة في بعضـ جوانب وظيفته علـى مقربة من مركـز السلطة الأفغانية، إلا أنه لا ينسى الأخطار المحدقة بالمحيط الذي يعمل فيه. ومازال لدى كرازاي قائمة طويلة من الأعداء، ويمكن أن يقع هجوم في أي وقت، كما حدث حين أطلق شخص قذيفـة باتجاه القصر حين كان كرازاي متوجهاً إلى مكتبه، إلا أن القذائف كانت مرتفعة وتجـاوزت الهـدف، ونجح الحراس في الإحاطة به ودفعـه إلى داخل المبنى، وكانت هناك محاولات أخرى يتذكرها نك.

ومـع أن المـرء يتوقع أن تكون دينكـورب قد تعلمت الدرس بعـد أن اضطرت إلى إدارة الأزمـة الناتجة عن فقدانها فريقَ حراسة كرازاي بسبب خلاف على الأجور، إلا أنه يبدو أن الأشبـاح القديمة ما زالـت تطارد نظام عمل الشركات الأمنيـة؛ إذ قرر نك أن يترك العمـل مـع الشركة للالتحاق بالعمل مع شركة بلاك ووتـر في العراق، وقرر بيت أن يترك العمل ليلتحق بعمل آخر مع الضابط الذي كان مسؤولاً عنه في القوات الخاصة في التدريب في ولاية أريزونا. وذكر أحد أعضاء الفريق أن: «دينكورب تحاول هضم حقوق المتعاقدين الجـدد في زيادة الأجور. إنها شركة مشهورة في هضم حقوق موظفيها حين تتعلق المسألة بالمـال. لقد جئت إلى العمل هنا قبل سنة ونصف السنة، وقد هددنا الشركة مرتين بترك العمـل دون إخطار. وقال جميع أعضاء فريق الحراسة إنهـم على استعداد لترك العمل؛ لأن الشركة حاولت أن تحتال عليهم في أجورهم. وقد تراجعت الشركة مرتين عن موقفها، ولكـن لا يبدو أنهـا ستفعل ذلك مـع المتعاقدين الجـدد. أكثر هـؤلاء الأشخاص يفكرون بالانتقـال إلى العمل مع شركات أخرى وفسخ عقودهم الحالية مع دينكورب لهذا السبب. ولكنهم إن فعلوا ذلك وأرادوا العمل مع شركات متعاقدة مع وزارة الخارجية كشركة بلاك ووتر، فإن الوزارة ستمنع الشركات المتعاقدة معها من توظيفهم. إنه وضع سيئ جداً».

كان العقـد الأمني مع شركة دينكورب لتقديم الأمن والحماية للقصر الرئاسي واحداً مـن عدد مـن العقود التي أبرمتهـا الشركة مع الحكومة الأمريكية، تبـدأ من عقد بقيمة 600 مليـون دولار للقضاء على المخـدرات في كولومبية وعقد آخر بقيمة 500 مليون دولار لتدريـب قوات الشركة في العـراق. وعقد تزويد كرازاي بالحماية هو جزء من عقد قيمته 43 مليـون دولار يتعلـق بأفغانستـان، وهو جزء زهيـد لا يكاد يذكـر في واردات دينكورب البالغة 1.8 مليار دولار في العام.

وما زال كرازاي، الذي يطلق عليه «عمدة كابول» -لأن تأثيره لا يتجاوز حدود قصره- موظفـاً أمريكيـاً في أفغانستان، ويأمُـل أن تستمر قوة الحماية الأمريكيـة في عملها دون انقطاع بسبب مفاوضات تجديد عقود الحماية أو بسبب فقدان دعم الحكومة الأمريكية.

وفي شهر مايو من عام 2005، وعقب المظاهرات الاحتجاجية العنيفة التي عمت البلاد إثر نشر تقارير عن تعرض المحتجزين الأفغان للإساءة على يد الأمريكيين، طلب كرازاي من الرئيس بوش أن يمنحه مزيداً من السلطة فوق العشرين ألف جندي أمريكي المنتشرين في أفغانستان. رفض بوش هذا الطلب. وكان بإمكان كرازاي أن يضغط على الحكومة الأمريكية لتلبية هذا الطلب، لكنه لما كان يعتمد على السخاء الأمريكي في تقديم الحماية له والمحافظة على حياته، فإنه لم يكن بوسعه أن يمارس كثيراً من الضغط على الأمريكيين دون أن يعرض موقعه إلى الخطر. وكان كرازاي حكيماً في الرجوع إلى الرئيس الأمريكي في كل ما يفعله، ولا شك أن كرازاي راقب عن قرب سقوط جين – بيرتراند أريستيد رئيس هاييتي في ربيع عام 2004؛ إذ يوضح الانقلاب على أريستيد مدى فاعلية مفرزة أمنية مكلفة بموجب عقد أمني خاص في دعم بقاء زعيم ما في السلطة، وإسهامها كذلك في إزالته عن الحكم.

الخلاف والسقوط

تعاقد رئيس هاييتي أريستيد مع ستيلي فاونديشن في مدينة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنية عام 1998 لتقديم حراسة شخصية له. وجرى إبرام الاتفاق بمباركة من وزارة الخارجية الأمريكية التي كان لها مصلحة مؤكدة في المحافظة على بقاء أريستيد في السلطة وعلى قيد الحياة. لقد كان فريق الحراسة الأولي مكوناً من عشرة من الحرس المرافقين، لكن العدد رفع إلى ستين حارساً بحلول عام 2000 حين بدا واضحاً أن شرطة أريستيد ليس لديها القدرة -ولا الرغبة- في وضع حد للاضطرابات والاحتجاجات العنيفة التي عمّت الجزيرة الصغيرة. وكان أريستيد يدفع ما بين ستة إلى تسعة ملايين دولار أمريكي في العام مقابل هذه الحراسة الأمنية إضافة إلى ما يقارب المليون دولار للأسلحة في العام، في بلد يُعَدُّ هو الأفقر في النصف الغربي من الكرة الأرضية. وفي 17 كانون الأول/ ديسمبر من عام 2001، جرت محاولة انقلاب مباشر على نظام حكم أريستيد قام بها غاي فيليبي قائد الشرطة السابق الذي ينحدر من شمال الجزيرة. عاد

فيليبي من منفاه في جمهورية الدومينيكان المجاورة بداية عام 2004؛ ليقوم بمحاولة ثانية للإطاحة بنظام حكم أريستيد. وفي أواخر شهر شباط/ فبراير من عام 2004، تمكن فيليبي وستون من أتباعه المسلحين من السيطرة على مدينة كاب هاييتي، المدينة الثانية من حيث الكبر في الجزيرة، وأصبحت قاعدة انطلاق له في تهديد أريستيد. في ذلك الوقت، شهد فريق حراسة أريستيد تخفيضاً ليصبحَ تعداد أعضائه خمسة وعشرين عنصراً أكثرهم عسكريون سابقون ممن لديهم خبرة في الحراسة الشخصية.

وفي بداية شهر شباط/ فبراير، بدأ الثوار بالضغط على شرطة أريستيد البالغة أربعة آلاف عنصر يفتقر أكثرهم إلى التدريب، ولم تبدِ الشرطة مقاومة تذكر في وجه الثوار؛ لذلك طلب أريستيد من شركة ستيلي إرسال خمسة وعشرين متعاقداً أمنياً إضافياً لزيادة عدد حراسه الشخصيين، إلا أن وزارة الخارجية الأمريكية رفضت السماح للحرس الإضافيين بالسفر إلى هاييتي. وفي ذلك الوقت، كانت سلطة أريستيد قد تضاءلت في بلده إلى درجة لم يعد معها قادراً على خدمة المصالح الأمريكية.

وفي صبيحة الثامن والعشرين من شباط/ فبراير من عام 2004، جاءت إلى أريستيد مجموعة من فريق حراسته الشخصيين؛ ليخبروه بأنهم مأمورون بمرافقته إلى مبنى السفارة الأمريكية؛ إلا أن الحقيقة كانت أن المسؤولين في الحكومة الأمريكية طلبوا إلى شركة ستيلي أن تسحب المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في حراسة أريستيد فوراً من الجزيرة، ونصحت الحكومة الأمريكية بعدم إرسال أي حرس إضافي إلى جزيرة هاييتي. وقال أريستيد فيما بعد: إن الذين طلبوا إليه مغادرة الجزيرة كانوا من «الجنود الأمريكيين البيض». غير أن هارت براون، وكان من ضمن فريق حراسة أريستيد، قد قال لي: إن السفير جيمس فولي اتصل بأريستيد في الساعة الخامسة صباحاً ليقول له:إنه، أي السفير، سيعقد مؤتمراً صحافياً في السفارة الأمريكية؛ ليعلن فيه عن استقالة أريستيد من السلطة. وكان التفسير العقلاني الذي صدر عن الأمريكيين لهذه الخطوة يقوم على القول: إنه إذا لم يتخل أريستيد عن الحكم، فستشهد الجزيرة حمام دم يقتل فيه الألوف

من الناس. وقد قام المرافقون العسكريون بنقل أريستيد وحرسه الشخصي إلى المطار مروراً بالسفارة الأمريكية، حيث طلب إليه ركوب طائرة كانت في انتظاره في المطار، وكان في الطائرة جنود أمريكيون من بينهم قوات مارينز أمريكية بزِيّهم الرسمي، بل وأغرب من ذلك أن جميع أفراد فريق الحراسة الشخصية ركبوا في الطائرة، وكانت الطائرة مطلية باللون الأبيض، ولم تكن تحمل أي علامة مميزة سوى العلم الأمريكي الصغير المطبوع على ذيلها، وأغلقت ستائر نوافذ الطائرة ولم يفصح للركاب عن الوجهة التي ستقصدها الطائرة. ومن الغريب أيضاً أن بعض موظفي شركة ستيلي أحضروا معهم أزواجهم وأولادهم إلى الطائرة للسفر معهم، مما يستنتج منه بالضرورة أنهم كانوا يعلمون سلفاً بالأحداث المتسارعة التي جرت في ذلك اليوم.

وفي الساعة 5:45، أقلّت الطائرة ذات الخمسة وخمسين مقعداً الرئيس المخلوع أريستيد يرافقه تسعة عشر موظفاً من شركة ستيلي، وعشرون من الجنود الأمريكيين. وكان على متن الطائرة عملاء أمريكيون آخرون. وقبل هبوط الطائرة نزع الجميع لباسهم العسكري وارتدوا ملابس مدنية، وبعد توقف في مكان حسبه أريستيد وقتها أنتيغوا (إلا أنه كان في الوقع مدينة ميامي بولاية فلوريدة) لوضع ترتيبات المنفى، طار أريستيد وأعوانه إلى إفريقية ليحلوا ضيوفاً على الرئيس فرانسوا بوزاي رئيس جمهورية إفريقية الوسطى. وشرع أريستيد باتهام الولايات المتحدة بأنها اختطفته، وردّت الولايات المتحدة رسمياً على تلك الاتهامات واصفة إياها «بالهراء»، وصرّح وزير الخارجية الأمريكية آنذاك كولن باول -وهو أيضاً عميل سابق لشركة ستيلي- بالقول: «لم يختطف، إننا لم نجبره على ركوب الطائرة، بل صَعِدَ إليها قاصداً راضياً مختاراً».

ويرفض كن كورتز، الرئيس التنفيذي لمؤسسة ستيلي، في أكثر المناسبات التعليق على ملابسات خلع الرئيس الهاييتي أريسيتد، ولا تتجاوز تصريحاته القول إن سلامة أريستيد وأسرته كانت محل اهتمامه الوحيد.

في حين يسرد هارت براون -وهو متعاقد أمني كان ضمن فريق الحراسة الشخصية الذين رافقوا أريستيد خارج البلاد- رواية مختلفة، «في النهاية، كان الجميع يعلم بوجود

تعارض في المصالح؛ فحين طلبت وزارة الخارجية الأمريكية من أريستيد أن يتنحى عن الحكم رفض، ثم نقل إلى ميامي. إن ما حدث كان قراراً اتخذ على مستوى الإدارة العليا في الشركة من أجل تأمين المزيد من العقود [مع الخارجية الأمريكية]». وكان أريستيد يعلم يقيناً أنه لن يتمكن من الاستمرار في الحكم دون حرسه الشخصيين، وحين تقدم الحكومة الأمريكية نصيحة إلى ستيلي قائلة: إنه من الأفضل لمستقبل مصلحة أعمالكم أن تنسحبوا من هناك، فإن أريستيد لا يبقى أمامه من خيار سوى الذهاب معهم. وحتى مع الأخذ في الحسبان مضامين طلب الحكومة الأمريكية إلى ستيلي بالانسحاب، فإن مثال أريستيد لم يكن يمثل حالة لدعم الولايات المتحدة لانقلاب في دولة تهمها، ولكنها حالة توضح أن الحكومة الأمريكية يمكنها التواطؤ على سحب الحراسة إذا ما شعرت بالاستياء من هذا الزعيم أو ذاك.

القسم الثاني

الصنف الجديد

الفصل الرابع

قَتْلٌ مؤكد

«لسنا مخلوقاتٍ غيرَ كاملة تحتاج إلى تحسين وحسب؛ بل نحن ثوار بحاجة إلى أن يضعوا أسلحتهم»

- سي إس لويس، من رواية مشكلة الألم

كان من المستحيل جلبُ انتباه النادلة التي تعمل في البار الموجود داخل مركز دالاس للمؤتمرات من كثرة الزحام؛ إذ كانت الصالة تضيق بالشباب ذوي الشعر القصير، والسواعد المفتولة، والقمصان الضيقة قصيرة الأكمام، الذين التفوا حول الطاولات الصغيرة، وكان المكان أشبه ما يكون بغابة من زجاجات البيرة الفارغة والكؤوس التي تنتظر إعادة ملئها. كانت مدينة دالاس تستضيف مؤتمر الجمعية الأمريكية للأمن الصناعي، وقد حضر المتعاقدون الأمنيّون المستقلون إلى هذا المؤتمر بهدف التشبيك. وكان الوهج الأحمر المنبعث من السيجار يسطع فوق المناقشات الخفية حول فرص محتملة للمرتزقة وأعمال الأمن بين هواة متحفزين ومحترفين صقلوا خبراتهم في أرض المعركة، عاد أكثرهم لتوه من العراق أو أفغانستان.

قد يبدو مؤتمر الجمعية الأمريكية للأمن الصناعي مؤتمراً مملاً لعرض المعدات الأمنية وكاميرات الفيديو، غير أنه تحوّل في هذه الأيام إلى مركز اجتماعي للمتعاقدين الأمنيين، و معرض ممتد للأدوات ذات التقنية العالية لمزودي الخدمات الأمنية. ونحن اليوم في صيف عام 2004، وهذا هو أول مؤتمر للجمعية يظهر فيه بوضوح تأثير الحرب على العراق في صناعة الأمن الخاص. فقد ولى عهد المؤتمرات التي كانت تعقدها منظمة جنود المغانم في فنادق لاس فيغاس البالية. ولما كان الطلب على الخدمات الأمنية قد بلغ

أقصى أوجه في العراق، فإن بإمكان الجنود السابقين العثور على فرص مهنية علنية غير مشبوهة لدى شركات مرموقة مثل بلاك ووتر، وتربل كانوبي، و ستيلي فاونديشن، وغيرها من الشركات الأمنية الخاصة التي تنتشر خلف طاولات العرض الممتدة على أرض المعرض الشاسعة. وتأتي الشركات المعنية لعرض خدماتها في حجرات أنيقة لجلب الزبائن المحتملين، ولقاء الأصدقاء، وتوزيع المنشورات، والتحدث في قضايا العمل مع الشركات الأخرى. ويأتي المتعاقدون الأمنيون قليلو الأصدقاء، كثيرو المال إلى هذه المعارض والمؤتمرات من كل حدَب وصوب كمجموعات «النَّوَر» بحثاً عن أشخاص يماثلونهم في التفكير من أبناء القبيلة. ويُخبر المتعاقدون الأمنيّون المستقلون أترابهم عن هذه المعارض والمؤتمرات عن طريق ما يتبادلونه من رسائل إلكترونية فيما بينهم حول آخر الأنباء ومن سيحضر هذه المؤتمرات ومن سيتغيب؟. ويمكنهم هنا أن يتحدثوا عن عملهم، ويقتسموا غرفة في فندق، ويقابلوا عملاء جدداً، ويستعيدوا ذكريات مهمات سابقة شاركوا فيها، ويتعرفوا أصدقاء جدداً. ولمّا كانت أنباء العقود الأمنية الجديدة تتسرب في مثل هذه المؤتمرات، فإن المشاركة في مثل هذه النشاطات يمكنها أن تقلل من مُدَدِ البطالة المحتومة التي يتعرض لها المتعاقد الأمني في حياته المهنية. وبالأخذ في الحسبان الأجر اليومي المرتفع الذي يتقاضاه المتعاقد الأمني، فإن حضور هذه المؤتمرات يعني بالنسبة لهم تفويت فرصة كسب 400 إلى 600 دولار في اليوم، ولكنهم لا يبالون بذلك؛ فالمحترفون من المتعاقدين الأمنيين يعلمون أن مواصلة العمل في مهمة بعد أخرى سيترك آثاراً سلبية فيهم، عدا التأثير السيّئ في حياتهم الشخصية؛ فالمتعاقد الأمني يصعب عليه الاحتفاظ بصديقة له، فما بالك بشقة سكنية؟. وفي السوق الأمنية الخاصة المتناثرة حول العالم، حيث يقفز المتعاقد الأمني بين الأماكن الملتهبة في العالم وبين موطنه، فإن حضور هذه المؤتمرات مع أبناء القبيلة يسمح لهم بالاستمتاع بالشعور بالانتماء إلى شيء، وهو شعور لا يجدون مثيلاً له في موطنهم.

وفي الحانة التابعة لمركز المؤتمرات، عقد شاب ثرثار مفعم بالحيوية، يعمل لدى بلاك ووتر اسمه شانون كامبل، مجلساً له حول واحدة من الطاولات الصغيرة المستديرة في الحانة. وحين بدأ يسرد لي قصة حياته بوصفه متعاقداً أمنياً، اتسع نطاق دائرة المتحلقين

حوله مع تزايد الشبان الذين توقفوا ليستمعوا إلى الحديث. يبلغ شانون من العمر خمسة وثلاثين عاماً، ويتدلى شعره الأشقر الغامق الطويل فوق جبهته، ويشابه شانون إلى حد المطابقة نجم فيلم «كثيب الرمال» فيما عدا أنه يلبس قميصاً قصير الكمين، وصندلاً، وقبعة كقبعة المتسكعين على الشواطئ، ويتمتع شانون ذو الجسم الصغير والقامة القصيرة نسبياً بالمقارنة مع بقية أقرانه، برشاقة ومرونة كبيرتين في الحركة، ولا تظهر عليه ملامح العسكريين ولا هيبتهم، ولا تصرفاتهم، ولا حديثهم. ومن الغريب أنه يلقب بطُعْم النمر- ليس لأنه يشابه القطة في مظهره وسلوكه، بل لأنه يصر على القول: إن أكثر النساء المتزوجات يلاحقنه حين يعود إلى بيته لقضاء إجازة العمل.

ويبدو أن تبجح شانون يخفي تحته قلقاً من نظرة أقرانه المتعاقدين الأمنيين إليه؛ لأنه واحد من بين قلة من المتعاقدين الأمنيين الذين يفتقرون إلى الخبرة العسكرية ويقومون بمهمات أمنية عالية المستوى في العراق. لكن إذا كانت بلاك ووتر ترغب في بث صورة محددة عن نفسها، فإن شانون هو خير من يمثل هذه الصورة؛ ففي اليوم الذي سلّمت فيه سلطة التحالف المؤقتة مقاليد الحكم إلى العراقيين، ظهرت صورة شانون بوضوح في وسائل الإعلام وهو يفسح الطريق أمام بريمر ويقف إلى جانبه حين كان يتحدث في المؤتمر الصحفي. ولا بد أن شانون يحظى بمنزلة رفيعة لدى بلاك ووتر لدرجة أنهم كلفوه بالإشراف على حجيرة بلاك ووتر في مؤتمر الجمعية الأمريكية للأمن الصناعي. ويتمتع شانون بسرعة البديهة، وهذه السمة، بالإضافة إلى مهاراته العالية في الرماية، جعلته اختياراً مفضلاً لدى إدارة الشركة، وعلى النقيض من أكثر العاملين في قطاع المتعاقدين الأمنيين الخاص، يعترف شانون بأنه من المعجبين بالكاتب سي إس لويس، ولا سيما روايته التي عنوانها «مشكلة الألم» التي يحملها معه دوماً، ويمكن لمن يتصفح نسخته من الرواية أن يرى تعليقاته على جانبي صفحاتها، والخطوط التي وضعها تحت بعض الفقرات، وهو ما يدل على كثرة قراءته لها.

وبخلاف أكثر المتعاقدين الأمنيين المستقلين الذين ينتقلون عادة إلى قطاع الأمن الخاص بعد خدمة مِهنية في الجيش أو الشرطة، جاء انتقال شانون إلى هذا القطاع بعد أن قرأ مقالة في الصحف عن هيئات المرتزقة والشركات العسكرية الخاصة، كشركة

النتائج التنفيذية وشركة ساندلاين، فعرف عند تلك اللحظة أنه وجد ضالته المنشودة. فراح يعمل في النهار في عدد من الوظائف من بينها إدارة متجر لبيع الزهور، تعود ملكيته إلى صهره، وعمل أيضاً في مؤسسة لخدمات الجنائز، واستنفد كل ما لديه من اعتماد في بطاقات الاعتماد التي لديه من أجل أن يدفع مصاريف دروس الكاراتيه وفنون القتال والدفاع عن النفس، واستخدام السلاح، والحراسة والرماية، حتى أصبح لديه ما يكفي من الخبرة تؤهله لدخول القطاع. وبعد العمل مدة وجيزة في شركة ماركيز فانس مانس ماركيز (إم في إم)، وهي واحدة من بين الشركات المتعاقدة مع وكالة الاستخبارات المركزية، انتقل شانون إلى بلاك ووتر، حيث أدرك فيها أن القدرات الذهنية هي على قدر مساوٍ من الخبرة العملية في دفع نجاحه المِهني في هذا الحقل الذي اختار العمل فيه.

وكما أوضح لي بقوله: «إن التعاقد الأمني ليس مِهنة لأبناء الذوات وأصحاب الرتب العليا، فأولئك يجتهدون فقط في الاستجمام، وكل ما يحسنون فعله هو الشكوى والتذمر. إنها شيء ذهني، عليك أن تتحمل المشقات والصعاب التي ترافق العمل في أماكن مثل العراق. وفي الحقيقة إن المعيار الوحيد في الوصول إلى هناك هو أن تكون قد ذهبت إلى هناك. هيه، وإن كنت من الشرطة العسكرية، أقول لك تقدم بطلب للعمل في بلاك ووتر».

ويبدو أن دخول هذا القطاع أسهل من المكوث فيه؛ لأن شانون يقول لي: إنه حتى بعد إنهاء مدة التدريب، يمكن للمتعاقد أن يفقد وظيفته في مدة التبديل. إن تقلب المتعاقد الأمني بين العمل مدة تسعين يوماً والإجازة ثلاثين يوماً يعني أنه سيحصل على نصف ما يتوقع أن يحصل عليه من أجر في هذه المهنة: «وحتى لو نجحت في تحصيل عقد عمل، فإن علاقتك مع بلاك ووتر تبقى في مهب الريح... فنحن نقبل عشرين متعاقداً، ونسرح عشرة، التجربة عن طريق النار، وليس لهم أن يتذمروا إذا لم ينجحوا في بلاك ووتر. بعض الأشخاص لديهم المهارات المطلوبة، وبعضهم الآخر لا يهتم سوى بالمظهر والأدوات. فهم يلبسون الكوفية المبلطة، أو يلبسون قميصاً يحمل شعار بلاك ووتر، ويظنون أنهم بذلك أصبحوا من المحترفين. إن الأشخاص الذين أكن لهم الاحترام هم الذين يسكن

الخمسة منهم في بناية صغيرة في الريف، مثل هؤلاء هم المحترفون حقاً الذين يمكنهم إنجاز المَهمة.

«إن الأجور المجزية تجدها في عقود العاملين في الوكالات الحكومية الأخرى. وتقوم شركة إم في إم بتأمين حراسة العاملين في تلك الوكالات، لكن على الحراس أن يحصلوا على أعلى التصاريح الأمنية. وإن كنت قصيرَ القامة أعورَ، فإن بإمكانك العمل معهم ما دمت حاصلاً على تصاريح الاطلاع على أسرار الدولة، وإذا أردت أن تعرف من هم الذين يعملون مع الوكالات الحكومية الأخرى، فهم الذين يحملون بطاقتيّ هُوية، الأولى بطاقة توظيف في وزارة الدفاع، والأخرى صادرة عن السفارة. وتكون بطاقاتهم الصادرة عن وكالة الاستخبارات المركزية ثخينة؛ لأنها تستخدم أكثر من غيرها.

«يمكن تشبيه بلاك ووتر بالمطعم الذي يرتاده مئات الأشخاص. وفي العادة يمكن تقسيم هؤلاء إلى فئتين: هناك فئة الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن الثلاثين عاماً وهم الأدعياء الذين يسعَوْن إلى جمع أكبر قدر من المال في هذه المهنة، وهناك فئة الذين تزيد أعمارهم عن الثلاثين- الأشخاص المتزوجون الذين يعيلون أسرهم، ويبحثون عن عمل جاد. إن أكبر الأشخاص سناً ممن عملت معهم في بلاك ووتر هو شخص اسمه جيسي ويبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً. وأشهر ما يعرف به هذا الشخص هو أنه شارك في عدد كبير من الاشتباكات التي تعرض فيها لإطلاق النار ونجا منها جميعاً. وهو من الريف الأمريكي، ويتمتع بأداء مثالي خالٍ من الأخطاء».

ويريد شانون أن يوضح عالم المتعاقدين المستقلين في «بغداد»، فقام برسم خريطة ساخرة لمدينة بغداد على منديل المائدة: «هنا تقع المنطقة الخضراء وحولها المنطقة الحمراء، والمنطقة الخضراء هي منطقة واضحة الحدود تمتد بمحاذاة نهر دجلة ولها ثلاثة مداخلَ محكمة وخاضعة للسيطرة. والمنطقة الخضراء هي المنحنى الواقع فوق التواء نهر دجلة- ويطلق على المنطقة الواقعة في هذا الالتواء الإبهام، وهي تسمية مهذبة وأكثر ذوقاً من الاسم المتعارف عليه بين المتعاقدين. وتأتي قذائف الهاون من هنا»، وأشار إلى جهة الشمال الغربي من النهر، «لتضربَ القواتِ الأمريكيةَ في رأس منطقة الإبهام. وتتمركز عناصر الوكالات الحكومية الأخرى قبالة نهر دجلة، ويوجد لديهم استراحة ومقصف

في غاية الروعة. ويمكنك أن تجد فيها «شوكولاتة سنيكرز» والبوظة الأمريكية الناعمة. وهنا تقع بوابة السفاحين، وعلى مقربة منها بوابة السفاحين الصغار، وقد فجرت حافلة ملغومة تحمل قنبلة زنتها نصف طن تقريباً على بوابة السفاحين الصغار، وزلزل الانفجار المنطقة كلها، وتحركت الأرض من تحت أرجلنا، وحين سمعنا صوت الانفجار ونحن في المنزل التابع لبلاك ووتر، لم نتحرك من أماكننا، ونظر بعضنا إلى بعض، وقلنا: (يبدو أنه انفجار حافلة مفخخة). ويقطن المتعاقدون المستقلون في المنطقة الخضراء. وأخطر طريق في العراق هو الدرب الإيرلندي- وهو الطريق الذي يوصل المنطقة الخضراء بمطار بغداد الدولي، ويسمى هذا الطريق أيضاً طريقَ العبوات الناسفة التي تفجر عن بُعْد. إننا نذهب إلى كل مكان. ويقال عنا في المنطقة الحمراء: إننا قتلة مستأجرون. ويطلقون علينا أيضاً وصف «المرتزقة». والشكر للرب على محطة سي إن إن.».

وانطلق شانون بالضحك الذي انتهى بالسعال، وكان عليه أن يطفئ «سيجاره»، ويحتسي قليلاً من الخمر قبل أن يتابع حديثه. «بعض الفتيات العراقيات يأتين إلينا لأخذ الصور معنا، وتذكر بطاقات الهوية التي نحملها أننا متعاقدون مع بلاك ووتر، ولكننا لا نملك أن نعترف بذلك، وهم يظنون أننا نشتبك في القتال كل الوقت، ويشاهدنا الجيش ونحن مدججون بالسلاح، فيطرحون علينا أسئلة مثل: «كم قتلاً مؤكداً تسجلون في كل مرة تخرجون فيها؟» وواضح أنه ليس لديهم أدنى فكرة عما نفعل. وهم كذلك يظنون أننا قتلة مستأجرون».

وكان يجلس حول المنضدة وسط سديم الدخان المنبعث من «السجائر» و«السيجار» بضعة عشر من المتعاقدين الآخرين الذين يتدخلون من وقت لآخر بملحوظاتهم الخاصة، أو يهزون رؤوسهم تأييداً لكلام شانون. وكان هارت براون أكثَر المتعاقدين هدوءاً في المجموعة، وهو شخص حسن البزة، صغير الجسم، ويتحدث ببلاغة، ويتصرف كرجال الأعمال، ويحمل شهادة علمية من جامعة آرلينغتون في تكساس، ويبدو هارت في غير مكانه وسطَ هذا الجمع من عالم المتعاقدين الأمنيين، من الرجال حليقي الرؤوس، عريضي الشوارب، ضخام الأجسام، مفتولي السواعد، من الطبقة الكادحة من الجنود السابقين، الذين ينحدر أكثرهم من عمق الجنوب الأمريكي. إلا أن الانطباع الأولي

قـد يخدع المرء أحياناً، فقد عمـل هارت ضمن فريق الحراسة الشخصي المرافق للرئيس الهاييتي أريستيد مع مؤسسة ستيلي قبل أن ينتقل إلى العمل لحراسة بريمر في العراق مع بلاك ووتر، وهو لا يزال ينفذ عدداً من تلك المهمات منذ ذلك الوقت. يقول هارت: «كنت أظن أن الحراسة الشخصية المرافقة لبريمر كانت مهمة عالية المستوى يمكن أن أستفيد منهـا في المستقبل. خمسة أو عشرة أعوام علـى الأقل، كنت أظنها استثماراً كبيراً، وكنت أظن أن تلك الفرصة ما كانت لتسنح لي لو لم يكن لدي الخبرة الكافية. لقد كان من غير العـادي أن أكلّف بالجانب العملياتي في المهمة». وكلمة «غير العادي» هي الوصف الدقيق، لأن هـارت عمـل في الجوانب غـير الأمنية لـدى وزارة العدل وشركة وورلـد كوم، ويحمل شهـادات علمية في هندسة الطب الإشعاعي، وعلم السلوك الإنساني، والعدالة الجنائية، والمـواد الخطرة. ومـن الواضح أن هذا الشخص المثقف يقضي وقتـاً في التفكير فيما هو أبعد من جانب إطلاق النار في هذه المهنة. وأهم من ذلك أن هارت لديه المقدرة على توقع المستقبل، ويدرك بعض المتطلبات المتضاربة في هذا العمل:

«في العراق، لدي قلق من قضية السيادة. إنني قلق من فكرة حمل السلاح تحت مظلة التحالـف، ولكننـا الآن في دولة ذات سيـادة، فما هي بالضبط تبعـات حمل السلاح؟ ... لقـد أصدر بريمر أمراً باستثناء المتعاقدين الأمنيين من الخضوع لقوانين البلاد، ولكنني اليـوم أكثر تـردداً مع تغيّر وضع السيـادة». ومما زاد في تردد هـارت رؤيته تدني معايير مـزودي الخدمـات الأمنيـة بعد فـورة الطلب في سوق الخدمـات الأمنيـة في العراق». لو اتصـل بي أحد للعمل في مهمة أمنية، فإنني سأصر على معرفة التفاصيل كلها. لقد شهد هـذا القطاع توسعاً كبيراً لدرجة أن الشـركات العاملة فيه لم تعد تهتم بالعاملين لديها».

وحـين كان هارت يعمـل في العراق، كان يشعر بالقلق أيضاً مـن العمل بانسجام مع جهاز خدمـات الأمن الدبلوماسي التابع لوزارة الخارجية الأمريكية. وتوجد عداوة متأصلة بين خدمـات الأمـن الدبلوماسي والمتعاقديـن الأمنيين، فخدمات الأمـن الدبلوماسي، تنظر إلى المتعاقديـن الأمنيين بوصفهم رعاةَ بقر يتقاضَوْن أجوراً فاحشة أكثر مما يستحقون، في حـين ينظر المتعاقدون الأمنيّون إلى العاملين في خدمـات الأمن الدبلوماسي بوصفهم بيروقراطيـين غيرَ أكفاء. وقد أدى هذا التنافـر المنبثق عن الصدام الثقافي بين خدمات

الأمـن الدبلوماسي والمتعاقدين الأمنيين إلى تشويش التماسك الجماعي الذي يمكن أن يكـون عنصراً مهماً للبقاء في بيئة محفوفـة بالمخاطر. وفي قرار آخر ميّز هارت عن بقية المتعاقدين، رأى هارت أن المخاطر المجتمعة في العراق لا تساوي المال الذي سيحصل عليه مـن العمـل هناك؛ لذلك قـرر التوقف عن العمل بعـد إنهاء العقود التـي التزم بها. ومن حسن حظ هارت أنه يملك شهادات علمية وخبرات عملية من شأنها أن تلطف من عملية تحولـه من العمـل الأمني إلى العمل المـدني. وهذه المزيّة غير متوافـرة لأكثر العسكريين السابقين وأفراد الشرطة الذين يعملون بصفة متعاقدين أمنيين مستقلين.

فهل سيقبل هارت العمل في العراق لو عرض عليه مزيد من المال؟ رد هارت باستهجان بعد أن هزّ كتفيه: «العراق؟ أملك القبول والرفض، ولكنني بالتأكيد سأجيب بالرفض».

بيـد أن لامونت، الجنـدي السابق في المارينز، الضخمَ الجثـة، ذا الأصل الإفريقي، لا يتفـق مـع هارت؛ إذ رد قائلاً: «العـراق هو بحكم المباراة النهائيـة في الدوري الممتاز لكـرة القدم. إنها منبع المال». وهمّ لامونت الوحيد هـو أن يرى أولاده وقد أنهَوْا سنتهم الدراسيـة وأن يحصـل على عقود كافية تمكنـه من توفير العيش الكـريم لهم. ومع أن أكـثر العقـود تدفع أجراً يتراوح ما بـين 500 دولار إلى 650 دولاراً في اليوم، إلا أنه كان يتقاضى 850 دولاراً في اليوم من عمله الأمني لدى المنظمات الحكومية الأخرى. ويسعى لامونـت لتأمـين فرص جديدة تمكنه مـن استغلال ما يتمتع به مـن رخص أمنية عالية المستوى حصل عليها من عمله السابق في المارينز من أجل تحقيق أكبر قدر من الدخل. وعلى الرغم من كونه وطنيًا متحمسًا ويملك خبرة قتالية عملية، فإنه يشكك في أسباب وجودنـا في العـراق، ليس من وجهـة نظر قانونية كمـا يفعل هارت، بل مـن وجهة نظر أخلاقيـة. ويردف لامونت قائلاً: «حـين كنت في الجيش، تعلمنا تنفيـذ الأوامر دون أن نسـأل، وكنـت ألتزم ذلك. أمـا الآن وبعد خروجي من الجيش، فإننـي أرغب في معرفة السبب الحقيقي لوجودنا في العراق».

ثم رن جرس هاتفه الخلوي، فتوقف النقاش. كان لامونت يحاول تشكيل فريق حراسة شخصـي لتنفيـذ عقـد أمني قصـير الأجل في مـا يسمى «إسرائيـل». فقال بعـد أن أتم المكالمة: «هل لديك رغبة في العمل في القدس؟ إنهم يدفعون 550».

فرد شانون بامتعاض: «خمس مئة وخمسون»؟!

«بالتأكيد، ولم لا؟ أليست مالاً. وهناك عقد آخر يتبعه في بكين».

وأشاح شانون بيده تعبيراً عن رفضه للقدس؛ فقد ذاق طعم عقود المخاطر الكبيرة ذات الأجور المرتفعة، ولا يريد أن يضيع وقته في أي شيء أقل، وهو ينوي العودة إلى الحلة في العراق للالتحاق بما سماه عقود الحراسة الشخصية «القتالية»، وهي مجموعة حراسة من المرجح أن تتعرض للهجوم وتجد نفسها وسط نزاع مسلح. «في المرة الفائتة حين كنت هناك نفذت عمليتي قتل مؤكد، وهناك أناس يقولون: إن أشياء كثيرة ستدور في ذهنك حين تقتل إنساناً، وقد رأيت شخصاً قادماً نحوي، فصوبت سلاحي وضغطت على الزناد، فأصبت قلبه؛ فسقط قتيلاً، ثم وجه شخص آخر سلاحه نحوي، فضغطت على الزناد ورشقته بالرصاص. ولم أفكر بما حدث».

يمكن القول: إن أكثر المتعاقدين الأمنيين يشابهون في حالهم حال لامونت- فهم عسكريون أو أفراد شرطة سابقون أدركوا أن مهاراتهم المتخصصة ليس لها قيمة تذكر في العالم المدني، فقبلوا بالمخاطرة مقابل الأجور العالية لتوفير عيش كريم لأسرهم. ومع ذلك، وجدت أن 10% من المتعاقدين الذين قابلتهم يعدون أنفسهم متعاقدين أمنيين محترفين أقبلوا على هذا العمل؛ لأنهم يستمتعون بلبس الدروع وحمل الأسلحة الثقيلة في هذه المهنة ذات الأجر المرتفع، والمخاطرة الكبيرة، والإثارة العالية المهيجة لهرمون الأدرينالين، كما هي حال شانون. وهناك أيضاً حفنة من الرجال من أمثال هارت، دخلوا إلى هذا المضمار في عقد واحد أو عقدين ثم رأوا أن المال الذي يحصلون عليه لا يساوي المخاطرة بالموت أو الإصابة بجروح بليغة. ويبدو أن الخط الفاصل هو القدرة على تحصيل أجر مشابه يساوي 80 ألف دولار إلى 150 ألف دولار سنوياً في مهنة أقل خطورة. وسينتقل بعضهم إلى وظائفَ أكثرَ أمناً بأجر مساوٍ؛ وبعضهم سيضطرون إلى العمل في مهاوي الردى للحصول على مثل تلك الأجور.

وبينما كنا نجلس في الحانة نشرب ونتحدث، كانت أعداد متتابعة من مندوبي مبيعات المصانع تحوم حولنا كالرخم، يحاولون بيع أدوات جديدة ذات تقنية عالية للمتعاقدين.

وهم يدركون أنه لا يوجد زبون أفضل من متعاقد أمني عاد لتوه إلى البلاد بعد أن أمضى ثلاثة أشهر في تنفيذ عقد أمني في العراق بأجر قدره 600 دولار في اليوم أو يزيد. وكان المندوبون يجوبون القاعة لابسين قمصاناً متشابهةً تحمل شعارات المصانع التي يمثلونها وبأيديهم أجهزة حاسوب محمولة لتقديم عروض دعائية عن منتجات شركاتهم. ولما كان شانون هو الشخص الذي يتولى حجرة بلاك ووتر في المعرض، فقد أتيحت له مشاهدة العروض وتجربة المنتجات المعروضة.

اقتحمت مجموعة من ممثلي الشركات المصنعة للأدوات الأمنية جموع المتعاقدين المتحلقين حول شانون، وأخرجوا حقيبة عادية مصنوعة من الزجاج المغزول، وادعوا أن هذه الحقيبة يمكنها تعطيل اتصالات الهواتف الخلوية ضمن دائرة قطرها 183 متراً -تقريباً- وهذه الأداة سلاح مهم لمقاومة الألغام الأرضية التي تفجر عن بعد، وهي سلاح المقاومة المفضل. أثار هذا الادعاء اهتمام شانون، فخرجنا إلى الساحة لمشاهدة عرض تجريبي على عمل هذه الأداة.

وبنبرة المتحمس التوّاق، قال البائع، وهو يضحك: «راقب هذا»، وضغط بإصبعه على الزر الأحمر الموجود على يد الحقيبة؛ فاختفت إشارة شبكة الاتصال من هواتفنا الخلوية. وأردف مندوب المبيعات قائلاً: «إن هذه الأداة مصممة لإحباط محاولات تفجير الألغام الأرضية التي تفجر عن بعد»، وكان يشعر أن عليه أن يذكرنا بذلك، لكننا لم نذكره بأنه قد عطّل أنظمة الاتصال كلها في المعرض. أخذ شانون بطاقة عمل المندوب ووعده بأن ينقل المعلومات إلى الإدارة العليا في الشركة لمراجعتها.

إن الأدوات والعدد الجديدة ذات التقنية العالية المصممة لتعطيل تفجير الألغام الأرضية عن طريق الهواتف الخلوية هي مثال واحد فقط على تأثير الحرب الجديدة في هذه الصناعة التي تشهد رواجاً كبيراً وتدفعها إلى سرعة الابتكار والإبداع. وكان لي محادثة قصيرة في الداخل مع أحد مندوبي المبيعات من شركة سكاليتا مولوني آرمورينغ تنسجم مع الدور التقليدي للمنتجات الأمنية. كان المندوب يروج لسيارة ليموزين سوداء تزن ثلاثة أطنان تقريباً وتباع بمئة وثمانية عشر ألف دولار بوصفها أفضل خيار لمدير الشركة الذي يعاني من وجود موظفين ناقمين عليه مستاءين من العمل، ويبلغ ثمن النسخة المطوّلة من

هـذه السيارة 135.000 دولار أمريكي. وكلا النوعين يمكنهما صد رصاصات ماغنوم عيار 44 ملـم، ورصاصـات إم 61، ويمكنهـا تحمل انفجار لغم أرضي من نـوع إم 67 ينفجر من مسافة 20سم أسفل السيارة، وصمم زجاج نوافذ السيارة بطريقة تحول دون تكسر الزجاج إلى الخـارج أو الداخـل بسبب تغطيته بطبقـات متينة متعددة من الأغشيـة البلاستيكية. وتقوم شركة سكاليتا مولوني بتصفيح ممتاز لسيارات جي إم سي سوبربان، التي أصبحت الخيـار المفضل للشركات الأمنية في العـراق. ويعد السوق السابقة لهذه السيارات من كبار الشخصيـات ونجوم السينمـا ومديري الشركات الذين يطلبون سيـارات مصفحة شيئاً لا يذكر بالمقارنة مع الطلب الذي أحدثته العراق والحرب على الإرهاب.

ومـع حلول المساء تحـوّل مشهد العرض الممـل للأقفال، وكامـيرات الفيديو، وأنظمة التعريف التي تعتمد على بصمة العين، والحواجز الفولاذية إلى غشاوة ضبابية ممزوجة باللون الأحمر، والأبيض، والأزرق. وأصبحت السمة المميزة للعالم بعد 11 أيلول/ سبتمبر هي أن الاستخدام المفاجئ لكل شيء بدءاً من الأقفال إلى البنـادق لم يعد من الضروريات وحسب، بل من المتطلبات الوطنية. ويعكس النشاط الصاخب في هذا المعرض بكل وضوح الانفجـار الحديث الذي طرأ على هذه الصناعة؛ فالعدو الجديد في حِقْبة ما بعد الحرب البـاردة هـم «الإرهابيـون»، ويبدو أن الجميع يحاولـون الدخول إلى هـذا القطاع الأمني الخاص. وتتعاظـم الفرص أمام الشركات الجديدة التي تتمتـع بالذكاء والمثابرة، تماماً كمـا حـدث في طَفرة الدوت كوم. حتـى إن المتحدث الرئيس في هـذا المعرض، وهو عمدة نيويـورك السابـق رودولف جوليـاني، أصبح الآن يديـر شركة أمنية خاصـة ولها عملاء مـن كبرى الشركات الأمريكية. لقد أصبح العـالم حقاً مكاناً أكثرَ خطورة لممارسة العمل والنشاط التجاري فيه.

السوق العالمية

قبـل الحـادي عشر من أيلول/ سبتمبر من عام 2001، كانـت سوق الخدمات الأمنية الخاصة محدودة ومقصورة على الرجال الذين يأتون إلى هذه المؤتمرات والمعارض بحثاً عن العمل بوصفهم متعاقدين مستقلين. وجاءت الحرب في أفغانستان لتفتح الباب في وجه المزيـد من فرص التوظيف للمتعاقدين الأمنيـين المستقلين. ثم جاءت الحرب في العراق،

فركلت هذا الباب، واقتلعته من مفاصله، وداست عليه، وحرقته، ونشرت رماده. فكان العراق فيما يخص صناعة الأمن الخاص أَول متصفح سهل الاستخدام لمواقع الويب لطفرة الدوت كوم.

كانت الحرب الأمريكية في أفغانستان حرباً خاطفة نظيفة ولم تشهد سوى عدد قليل من المصاعب كالتي ظهرت فيما بعد لتلاحق الجيش الأمريكي في العراق؛ إذ استخدمت الولايات المتحدة قوتها غير النووية كاملة وتقنية القتل العالية التي بحوزتها ضد جيش طالبان المؤلف من الأوباش وأعوانهم من المقاتلين الباكستانيين والأجانب. ومع أن الحرب كانت في البداية حرباً سرية بقيادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، إلا أن الصراع كان مصدراً ثراً للبرامج الإعلامية المرئية والمطبوعة، حيث راح المراسلون الإعلاميون يتعقبون المواجهة المثيرة بين أنصار طالبان ذوي الثياب السوداء وبين تنين التقنية الأمريكية العالية، ونقل المراسلون هذه المواجهة بكل تفصيلاتها الدقيقة وبطريقة درامية. وكان منظر أفراد القوات الخاصة وهم على ظهور الخيل ينسقون الهجمات الجوية الدقيقة يشبه منظر العظماء السبعة وهم يقضون على دارث فادر[1]. ومع أن الهجوم استطاع قلب نظام حكم طالبان بسرعة وأدى إلى تفريق المقاتلين الأجانب الذين يدعمهم ابن لادن، إلا أن العملية بدت بمنتهى السهولة. وقد كان قرار توجيه الهجوم «بخفة» على أفغانستان يعكس حسابات الإستراتيجية والضرورة؛ ذلك أنه لم يكن بالإمكان نشر القوات العسكرية التقليدية بالسرعة المطلوبة، وأراد المخططون تجنب إصدار أحكام خاطئة كالتي وقع فيها السوفييت من قبل حين نشروا أعداداً كبيرة من الجنود على الأرض، ولقد كان الوجود الأمريكي الخفيف في الأرض الأفغانية سبباً في إحباط بواعث المقاومة لدى الشعب الأفغاني، وهو عكس ما حدث في العراق تماماً، حيث أدى الوجود العسكري الكبير في العراق إلى انتشار مشاعر السخط والاستياء التي أفضت إلى حالة مستدامة من الفوضى وانعدام الأمن.

1- استقي هذا التشبيه من سلسلة أفلام الخيال العلمي «حرب النجوم» وتحديداً من الإصدار السادس منه بعنوان «ثأر السيث»، ودارث فادر هو رمز الشر الذي كان يخطط للاستيلاء والسيطرة على المجرة كما يقول الفيلم.

كانت خطط استخدام «جيش كبير» لاحتلال العراق مرسومة على الورق منذ تسعينيات القرن الماضي، وفي أثناء العقد الأخير من ذلك القرن، عكف عدد كبير من الأشخاص، الذين أصبحوا الآن يحتلون مناصب رفيعة في حكومة بوش، على تطوير آمالهم بأن تستخدم أمريكة قوتها العسكرية تحقيقاً لذلك الهدف. وقد كان مستشارو بوش من المحافظين الجدد المهوّسين بفكرة أن العراق هو مسمار العجلة في رؤية حديثة للمصير الأمريكي. وتعود الفكرة القائلة: إن أمريكة بحاجة إلى استغلال هيمنتها العالمية باستخدام القوة العسكرية لحماية مناطق نفوذها إلى وثيقة «توجيهات التخطيط الدفاعي» التي وضع مُسَوّدَتَها عام 1992 بول وولفوفيتز الذي كان يَشْغَلُ آنذاك منصب وكيل وزارة الدفاع لتخطيط السياسات، ثم أعاد كتابتها وزير الدفاع آنذاك دك تشيني. ثم قام كل من وولفوويتز وتشيني ومعهم دونالد رامسفيلد وبقية عصابة المحافظين الجدد المنتمين بالعضوية إلى منظمة مشروع القرن الأمريكي الجديد، بترديد أصداء تلك الفكرة عام 1997 في إعلان المبادئ: «إننا بحاجة إلى تحمل مسؤولية الدور المتفرد لأمريكا في نظام عالمي يراعي أمننا وازدهارنا، ومبادئنا، وتوسيعه والمحافظة عليه». وفي رسالة وجهت إلى الرئيس كلينتون في يناير من عام 1998 وأخرى إلى زعماء الكونغرس في مايو من عام 1998، ركز مشروع القرن الأمريكي الجديد على صدام حسين، مدعياً أن إزاحته عن الحكم ينبغي أن تكون الأولية الأولى في أساس أي سياسة أمنية أمريكية، ولما ظهرت فيما بعد أسماء أكثر الذين وقعوا على الوثائق الصادرة عن مشروع القرن الأمريكي الجديد في جدول رواتب حكومة بوش، لم يكن مستغرباً أن تظهر اتهامات تقول: إن الترويج للمعلومات الاستخباراتية الملفقة كان متعمداً بهدف الدفع باتجاه تحقيق سياسات كانت مقررة سلفاً.

لقد جعلت هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر من الهجوم على طالبان وإزالتهم من الحكم أمراً لازماً وضرورياً، غير أن تحويل التركيز العام وتسليطه على صدام حسين وما يمثله من خطر هو أمر يحتاج إلى مهارة، وهو ما افتضح فيما بعد بأنه تضليل متعمد وحملة دعائية تسويقية مقصودة تولّاها قادة الولايات المتحدة وبريطانية. واستغل بوش ومعاونوه قصة النجاح العسكري في أفغانستان والتأييد الشعبي الذي أظهرته استطلاعات الرأي العام، وبدؤوا بتوسيع نطاق حربهم الهلامية على الإرهاب. وفي

خطـاب حالة الاتحاد الذي ألقاه بوش أمام الكونغرس عـام 2002، أفصح عن الأهداف المستقبلية للحرب حين نعت إيران والعراق وكورية الشمالية بوصف «محور الشر[1]» وإفرد صـدام حسين بالذكر دون غيره وسرد أوصاف لاذعـة لوحشية نظام حكمه. وفي الأشهر التي أعقبت ذلك الخطاب، نشط ممثلون من البنتاغون ووزارة الخارجية والبيت الأبيض في إقناع الجمهور الأمريكي والعالم بأن صدام حسين يملك أسلحة دمار شامل وأنه عاقد عزمـه على استخدامها. وجرى الربـط بين صدام حسين وابـن لادن والقاعدة في جهود مزعومـة قيل إنها تهدُف إلى تحويـل النظام الدكتاتوري الاشتراكي العلماني إلى مؤامرة إسلاميـة متطرفة. ومع حلول موعد الانتخابـات النيابية النصفية في خريف ذلك العام، أظهـرت استطلاعـات الرأي العـام أن غالبية الأمريكيين تدعم جهـود بوش في الحرب، وأصدر الكونغرس «قرار العراق» الذي يخوّل استخدام القوة ضد صدام حسين.

ومع أن أكـثر دول العالم كانت تعارض اجتياح العراق، فإن الولايات المتحدة نجحت في تأمـين دعم من «تحالـف أولي العزم والإرادة» في دعم مشروعهـا المحاط بالشكوك والريبـة في العراق، وقد أطلق على هذا التحالـف «تحالف أولي الدعم والمساعدة» على سبيـل السخريـة في إشارة إلى حجم الدعـم والمساعدات المالية التـي قدمتها الولايات المتحـدة إلى الـدول التي أعلنـت انضمامها إلى هـذا التحالف، غير أن هـذا التحالف أضفـى مظهـراً واهياً خادعاً من الدعم الدولي على جهـود هي في حقيقة الأمر اجتياح أمريكـي بقيـادة أمريكيـة وتمويـل أمريكـي. وأسهمت المملكـة المتحدة، أقـرب حلفاء أمريكـة، بقوة عسكريـة معتبرة، وفيما عدا ذلـك، كانت إسهامـات دول «تحالف أولي العـزم والإرادة» مضمحلـة. ولم تكشف حكومة بوش عما قدمتـه الدول الثلاثون المعلنة والخمسـ عشـرة دولة غير المعلنـة الأعضاء في هذا التحالف مـن إسهامات في مجهود الحـرب. وتتراوح الدول التي سماهـا البيت الأبيض في هـذا التحالف من دول يمزقها الفقر والفوضى كأفغانستان، إلى جزر سولومون الصغيرة في المحيط الهادي التي ليس لديها جيش، التي طلب رئيس وزرائها بأدب أن يزال اسم دولته من قائمة التحالف بعد

1- واضع هذه العبارة الرنانة التي راجت في عهد بوش الابن هو صحافي يهودي ينتمي إلى حركة المحافظين الجدد اسمه ديفيد فرم، عمل في البيت الأبيض ضمن مجموعة كاتبي خطابات جورج بوش، ويعمل الآن في معهد المشروع الأمريكي AEI.

أن علم من الصحافة عن إرادة أمته الظاهرة في دخول هذا التحالف. وبالرغم من المقارنات الخطابية التي عقدت بين هذا التحالف والتحالف الذي أخرج العراق من الكويت مهزوماً عام 1991، فإنه يبقى جلياً لكل من ينظر إلى الأرقام انعدام التشابه في القوة بما يكفي لخوض جولة أخرى مع صدام. وفي ضوء وجود قرابة ربع مليون جندي أمريكي، وخمسة وأربعين ألف جندي بريطاني، وبضعة آلاف من جنود دول التحالف، فإن المجموع العام للجنود في مسرح العمليات يبقى أقل من نصف عدد الجنود الذين شاركوا في حرب الخليج الأولى عام 1991.

ويستشهد النقاد بهذا الفارق في تعداد القوة العسكرية للدلالة على أن البنتاغون كان يرقّع بطريقة خرقاء اجتياح العراق. ومع أن النقاد يعترفون بأن التحالف الجديد سيواجه بقية أشلاء الجيش العراقي الذي كان في السابق جيشاً عرمرماً. إلا أنهم يغفلون حقيقة مهمة وهي أن أعداد الجنود التي شاركت في الحرب عام 1991 لا تصلح لأن تكون مقياساً تقارن به أعداد الجنود عام 2003، لسبب بسيط هو أن تدني الحاجة إلى الجنود النظاميين جاء نتيجة للتحوّل الذي طرأ على الجيش الأمريكي في العقد الماضي [بعد خصخصة الدعم والإسناد العسكريين].

خصخصة الدعم العسكري

انفردت الولايات المتحدة على المسرح العالمي مع نهاية الحرب الباردة، وباتت القوة العظمى الوحيدة بجيش نظامي جرار وليس أمامها أي تهديد تواجهه. وقد حدث هذا بعد الإصلاحات التي طبقت في ثمانينيات القرن الماضي، وكان من آثارها خفض الهيكل التقليدي للجيش الأمريكي.

بدأ الجيش الأمريكي بالاعتماد على المدنيين في أداء أدوار الدعم والمساندة لأغراض محددة بالذات منذ أن قام جورج واشنطن باستئجار سائقي عربات الخيول لنقل الإمدادات لقواته واستخدامه جنوداً مرتزقة لتدريب الميليشيات التابعة له في أثناء ثورته على الإنجليز، غير أن وزارة الدفاع الأمريكية لم تبدأ بالسعي نحو تأسيس شراكة رسمية مع القطاع الخاص إلا بعد حرب فيتنام. وقد دفعت التخفيضات اللازمة في هيكل القوات

المسلحة بعد الحرب، المؤسسة العسكرية الأمريكية إلى البحث بَجِد عن وسائل لتأمين وظائف الدعم والمساندة من خارج المؤسسة العسكرية. وفي كانون الأول/ ديسمبر من عام 1985، قدّم أول برنامج للدعم المدني اللوجستي المعروف اختصاراً بعبارة «لوغكاب».

وقد مكّن برنامج لوغكاب الجيش الأمريكي من توظيف شركات محددة سلفاً لتوفير الدعم اللوجستي في قطاع عريض من الخدمات مثل تزويد الكهرباء، وأعمال التنظيف، والمسكن، والصيانة، والنقل، والغذاء، والإنشاءات، وهي وظائف عادية ولكنها ضرورية لنشر الجيش. والفكرة الأساس هي أن شركة متخصصة بالبنية التحتية يمكنها إدارة عقد مفتوح وفق مبدأ الكلفة زائد الربح، وتكون هذه الشركة تحت الطلب للانتشار السريع دعماً لأي عمليات قد يدعى إلى تنفيذها الجيش الأمريكي. وبذلك وفّر برنامج لوغكاب وسيلة للجيش الأمريكي ليكون جاهزاً للانتشار السريع في أي أزمة طارئة دون أن يتحمل عبء الإبقاء على إمكانات الدعم طويلة الأمد في وقت السلم. ويمكن لهذا المبدأ أن يكون عاملاً مضاعفاً للقوة العسكرية في العمليات الطارئة غير أن النظرة الأهم لهذا المبدأ تكمن في كونه وسيلة قيمة لخفض النفقات وللتعامل مع الخفض المفاجئ والضروري في الجيش في حقبة ما بعد الحرب الباردة. كانت بداية الانتفاع من برنامج لوغكاب في أغراض محددة بالذات، ولم يأخذ هذا البرنامج شكل المِظَلّة الخدمية الشاملة إلا عام 1992، حين قام وزير الدفاع الأمريكي آنذاك دك تشيني بإبرام عقد مع شركة براون آند رووت بقيمة 3.9 ملايين دولار للقيام بدراسة عن الكيفية التي يمكن للجيش الأمريكي أن يستفيد استفادة كاملة من وظائف الدعم والإسناد من الشركات الخاصة.

وتعد شركة كيلوغ، براون آند رووت المتفرعة عن شركة هاليبرتون القابضة، أبرز الشركات المتعاقدة مع الجيش الأمريكي. وسلف هذه الشركة هي شركة براون آند رووت التي شيّدت 85% من البنية التحتية للجيش الأمريكي في حرب فيتنام. وقد استهزأ النقاد الليبراليون في ذلك الوقت من هذه الشركة التي تتخذ من ولاية تكساس مقراً لها على علاقتها الحميمة بليندون جونسون[1] قبل أن يوجهوا سهام نقدهم إلى نائب الرئيس

1- ليندون جونسون: الرئيس السادس والثلاثون للولايات المتحدة، انتخب في الأصل لمنصب نائب الرئيس حين ترشح لهذا المنصب مع جون كينيدي، واعتلى سُدة الرئاسة بعد اغتيال الرئيس كينيدي.

الأمريكـي الحـالي دك تشيني الذي كان يتولى منصب المديـر التنفيذي للشركة من عام 1995 وحتـى عـام 2000. وفي عام 1992 طلب تشيني من شركـة براون آند رووت تقديم الخُطط والميزانيات النظرية للدعم اللوجستي لأكثر من عشرة تصورات افتراضية تتطلب نشر عشرين ألفاً من الجنود في خمس معسكرات مدة ستة أشهر. ومن الواضح أن نتيجة التقريـر الـذي لا يزال موسوماً بالسرية قد أقنعت دك تشينــي بالمزيّة العملية للتعاقد مع متعهد واحد كبير يتمتع بقدرات عالية وكبيرة لأداء الدعم اللوجستي؛ لأن شركة براون آند رووت فـازت بأول عقد شامل للدعم اللوجستــي مع الجيش الأمريكي مدته خمس سنوات بموجـب برنامج لوغكاب. ومع نهاية عام 1992، كانت شركة براون آند رووت موجودة في الصومـال لتقديم الدعم للجيشـ الأمريكي الذي كان يقوم بعمليـة «استعادة الأمل» وفي السنـوات اللاحقة قامت شركة براون آند رووت بعمليات دعم ومساندة للجيش الأمريكي في روانـدة، وزائير، وجنوب غرب آسيـة، وهاييتي، والكويت، والبلقـان. وفي عام 1997، خسـرت شركـة براون آند رووت عقـد لوغكاب المجزي وكسبته شركـة دينكورب. غير أن شركـة بـراون آند رووت عادت لتكسبه من جديد عام 2001 بعد أن أصبح لها اسم جديد هو كيلوغ براون آند رووت. وفي هذه المرة كانت مدة العقد عشرَ سنوات.

عدت أول تجربة للجيش الأمريكي في الاعتماد الرسمي على الشركات الخاصة في تولي مهمة الدعم اللوجستي تجربة ناجحة. ومع ذلك، تعرضت شركة براون آند رووت لانتقادات لاذعـة بسبب فشلهـا الواضح في السيطرة علـى النفقات في عملياتهـا في البلقان، وأكدت دراسـة أعدها معهـد الإدارة اللوجستية أن شركـة براون آند رووت قد أنجـزت بأربع مئة واثنـين وستين مليون دولار وستة آلاف وسبع مئـة وستة وستين موظفاً ما قد يتطلب إنجازه ثمانية آلاف وتسع مئة وثمانية عشر جندياً وست مئة وثمانية وثلاثين مليون دولار.

لم يكـن هـذا التحوّل في زيـادة الاعتماد علـى الشـركات المدنية في تزويـد الخدمات والمسانـدة العسكرية ليأتـيَ في وقت أنسب من هذا الوقـت؛ لأن الجيش كان يشهد خفضاً في أعـداد أفـراده في حِقبة ما بعد الحرب الباردة. وفي العقـد الممتد بين عام 1991 وعام 2001، طـرأت تخفيضات بنسبة 30% على أعداد الجنود في الخدمة الفعلية أي ما يعادل مليونـاً ونصـف المليون جندي، غـير أن تطبيق مبدأ العهدة بمهمـات الإسناد إلى شركات

خاصة والتوسع فيه قد مكن البنتاغون من إحداث تخفيضات كبيرة دون أن تؤثر في قدرات الجيش في الرد والانتشار. ومع تزايد تقبل كبار القادة العسكريين من الجيل القديم لفكرة استخدام المتعاقدين المدنيين، ازداد استخدامهم على نطاق واسع وعلى نحو متسارع.

ومع أن القوة التي استخدمت في حرب الخليج الثانية [2003] كانت تعادل نصف القوة التي استخدمت في المواجهة الأولى مع صدام حسين، إلا أن الحملة الثانية كان يرافقها جيش ثانٍ مكون من مدنيين أمريكيين وأجانب يتولون طهيَ طعام الجند، وغسل ثيابهم، وتنظيف أوساخهم، وحتى شحن جثث قتلاهم إلى أوطانهم. وقبل عقد من الزمان كان يوجد متعاقد واحد لكل خمسين جندياً في الجيش، لكن النسبة ارتفعت في حرب الخليج الثانية إلى متعاقد واحد لكل عشرة جنود، ولم تكن سوى فئة محدودة من هؤلاء يعملون بصفة متعاقدين أمنيين بالتحديد؛ لأن قطاع الأمن الخاص لم يشهد توسعاً مجزياً في السوق إلا بعد أن ثبت أن تعداد الجنود المخصصين للاجتياح لم يكن قادراً على بسط الأمن.

وربما أسهمت الثقة الزائدة بأفضلية التقنية الغربية في تجاهل سوء تقدير العواقب المحتملة طويلة الأمد للاحتلال وما يحتاجه من أعداد كبيرة من الرجال والمتطلبات الضخمة غير التقنية لإعادة البناء. وكانت القوة الأمريكية قادرة بسهولة على إزالة صدام حسين من الحكم وتشتيت جيشه الذي كان في الأصل يعاني من الانهيار والتشرذم، بيد أن المتطلبات الضرورية لاجتياح بلد ما تختلف اختلافاً كبيراً عن متطلبات احتلاله. فقبل الحرب، قدر جنرالات الجيش الذين يتقنون العلوم العسكرية عدد القوات اللازمة لاحتلال العراق بحدود النصف مليون جندي. وفي أواخر شهر شباط/ فبراير من عام 2003، قدّر رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي الجنرال إريك تشينسكي ذلك العدد بمئات الألوف، ثم نقلت التقارير فيما بعد الرقم الذي ذكره تحديداً بأربع مئة ألف جندي. وقد بنى تشينسكي حساباته بحسب نموذج قاسه على الجنود الموجودين في كوسوفو والبوسنة. استنتج منه توصياته التي قدمها بشأن العراق. وفي أثناء ثماني وأربعين ساعة، سارع وكيل وزارة الدفاع آنذاك بول وولفويتز إلى توجيه نقد لاذع للجنرال تشينسكي واصفاً تقديراته بأنها «بعيدة كل البعد عن الصواب». وكان البنتاغون يرغب

في تصديق مقولة أن الاحتلال لن يتطلب سوى 75 ألف جندي. وقد أثبتت الظروف فيما بعد عكس ذلك. وكما حدث في أفغانستان -وإلى درجة أبعد كثيراً- دعت الحاجة إلى تدخل المتعاقدين الأمنيين لتقديم المساعدة.

تفجّر الفرص

في العشرين من آذار/ مارس لعام 2003، عَبَر أكثر من ربع مليون جندي الحدود الكويتية مستهلّين اجتياح العراق في حرب الخليج الثانية. وكتدشين أي منتج جديد جرى التخطيط له بعناية، نجحت الحكومة الأمريكية في إقناع الرأي العام الأمريكي بالفكرة القائلة: إن اجتياح العراق كان المرحلة الثانية اللازمة في الحرب على الإرهاب. وقد أحرز الاجتياح الأولي بسرعة فائقة المعلم الذي بالغت حكومة بوش في الترويج له بعبارة «أنجزت المهمة» بدخول قوات التحالف بسرعة كبيرة مدينة بغداد مرغمة الطاغية العراقي على الاختباء. وأتخم الإعلاميون المدمجون بالجيش الأمريكي موجات البث الإعلامي بمشاهد البهجة والسرور لزوال عهد صدام، ولكن سرعان ما بدأ السلب والنهب.

وفجأة، هوت بغداد في اضطراب عارم مع قيام جموع من العراقيين البائسين بأعمال شغب، ونهب كل شيء ذي قيمة -حتى مكابس الورق وأسلاك النحاس- من وزارات الحكومة، والمتاجر، ومراكز الشرطة، والمساكن الخاصة. وأشعلت الفوضى شعوراً عارماً بالإفلات من العقوبة في الوقت الذي غمرت فيه الجريمة والعنف العاصمة العراقية وغيرها من المدن. وحتى تلك اللحظة، كان الجيش الذي تقدم مسافة بعيدة عن خطوط الإمداد قد تسبب في إيجاد أول عقبة في الاجتياح. وأصبح من الضروري اتخاذُ قرار مصيري: زيادة أعداد الجنود أو مواجهة التبعات. وبالأخذ في الحسبان الثمن السياسي المصاحب للزيادة المفاجئة في أعداد الجنود بعد الاجتياح، ليس بأقلها توليد انطباع بالضعف أمام الأعداء، ولهذا السبب لم يحظ هذا الخيار بأي نقاش جاد.

ومع ترسخ ممارسة العهدة بمهمات الدعم والإسناد إلى القطاع الخاص عام 2003، فقد كان هذا الاضطراب الأمني وعدم الاستقرار هو كل ما يحتاجه انفراج سوق عمل رجال الأمن الخاص المسلحين. وفي 18 نيسان/ إبريل، وبعد أقل من أسبوع على بدء

انتشار أعمال النهب والسلب، تلقت شركة دينكورب عقداً تقدر قيمته بأكثر من 50 مليون دولار- لتقويم الوضع الأمني وتوظيف آلاف من المتعاقدين للبدء بتدريب أطقم تتولى فرض القانون، وأحكام القضاء، ونظام العقوبات. ويقدم عقد دينكورب أول جملة من العقود الأمنية بعد الاجتياح، ولكن الفرص لم تبدأ بغمر سوق المتعاقدين الأمنيين إلا بعد بدء العمل بإعادة الإعمار.

وبعد نفاد كل ما يمكن نهبه، ساد أكثر البلاد شعور عام بالاستسلام المرير المصحوب بالنقمة. ومع أن كثيراً من العراقيين يحمّلون قوات الاحتلال الأمريكي مسؤولية خلق الفوضى في مجتمع كان ينعم بأمان فرض بالقوة، إلا أن أكثر العراقيين آثروا الانتظار بصبر وهدوء ريثما يفي سادتهم الجدد بوعودهم لتأمين الكهرباء والوظائف، وإعادة الإعمار. ولا شك في أن النشاط الإجرامي العنيف قد زادت حدته عما كانت عليه الحال في عهد صدام حسين، ولكنها لم تكن بحال من الأحوال على الصورة غير المسبوقة التي صاحبت سقوط بغداد. والأمر الأكثر أهمية، بالإضافة إلى انتشار العنف والجريمة العادية، هو أن إشارات أكثر خطورة بدأت تظهر على السطح منذرة بمشكلات تنتظر قوات التحالف. وبحلول شهر يونيو أصدرت الأمم المتحدة بعد وقوع عدد من الهجمات تقريراً يحدد الأعراض المبكرة لوجود مقاومة منظمة. وكلما طال الاحتلال، واجه المحتلون زيادة في المقاومة العنيفة- وهي مقاومة تضم أنصار حزب البعث، والعناصر السابقة في الحكومة بالإضافة إلى الجهاديين الأجانب. ولو اطلع الرئيس الأمريكي ومستشاروه الذين قرروا اجتياح العراق واحتلال أرضه على ما كتبه العقيد إن-لورنس عن المنطقة لاستفادوا كثيراً من وصفه الذي دوّنه قبل ثمانين عاماً حين قال إنها: «نسيج من البلدات المتنافسة غير القابلة للتلاحم، وهي مع ذلك مستعدة للاتحاد لمواجهة القوى الخارجية» وكانت النتيجة مزيجاً من الجماعات المعادية للولايات المتحدة بأحجام ومحفزات، وتكتيكات، وقدرات متنوعة، وكلها تتنافس فيما بينها على قتل أكبر عدد ممكن من جنود التحالف، والمتعاقدين الأمنيين، أو «المتعاونين». ولدى قادة هذه المجموعات منبع لا ينضب من الغضب والاستياء الذي يمكن استغلاله في الخطاب التحفيزي التحريضي، إضافة إلى شريحة عريضة من الرجال العاطلين عن العمل والشباب الناقم. ولم يكن الوضع

في العـراق مثالاً على المقاومة التقليدية أو النزاع المحدود؛ بل هو أقرب إلى العمل اليومي المعتاد في أماكن مثل الشيشان أو قطاع غزة.

في مثل هذه الأوضاع من العنف المتفاقم وأعمال المقاومة كان يفترض أن تبدأ الشركات الغربية بإعادة إعمار العراق. وفي شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2003، أنشأت وزارة الدفـاع الأمريكية مكتب إعـادة الإعمار والمساعـدة الإنسانية المعـروف اختصاراً بكلمة (أورهـا) وعـين الجنرال جـي غارنر مديـراً تنفيذياً للمكتـب. وبعد المرحلـة الأولية من الاجتيـاح، نقـل غارنر إلى منصب رئيس الحكومة العراقيـة المؤقتة. غير أن مكتب إعادة الإعمـار والمساعـدة الإنسانية أدمج في مايو مـن عام 2003 في سلطـة التحالف المؤقتة، وحـل السفير بول بريمـر محل الجنرال غارنـر. وأنيطت بسلطة التحالـف المؤقتة وببول بريمر المسؤولية عن إدارة جهود إعادة إعمار العراق، والعمل في الوقت نفسه على تأسيس حكومة مدنية منتخبة بطريقة ديمقراطية تقودها شخصيات عراقية.

اختـارت الولايات المتحدة أسلوب العدوانية السلبيـة، وذلك حين عهدت بمهمة التعامل مـع المشكلة الأمنية إلى الشـركات الأمنية الخاصة، التي كانت تسعـى إلى ممارسة عملها هنـاك. وتقـوم الشـركات المتعاقـدة الأصيلـة في عقـود الإنشـاءات بدورهـا بالتعاقد مع المتعاقديـن الأمنيـين لتوفير الأمـن والحمايـة لمواقعها ثم تدمـج كلفة تلـك العقود ضمن مصاريفهـا التشغيلية. وكانـت عقود إعادة الإعمار، والدعايـة الانتخابية، والتعليم، وحتى خدمـات المعلومات، تخصص جزءاً كبيراً من المصاريف للخدمات الأمنية وهو ما أدى إلى زيـادة في الكلفة بنسبة 50% عن التكلفة الأصلية في بعض العقود بحسب التقديرات التي أجريـت قبل انفـلات الأمور عن نطاق السيطرة. إن ممارسـة النشاط التجاري في منطقة حرب تشهد قتالاً حياً، بحسب تصنيف البنتاغون ووزارة الخارجية الأمريكية للعراق، ولكن ليس بحسب تصنيف البيت الأبيض، يتطلب استئجار شركات خاصة يمكنها توريد كل شيء بـدءاً من العربات المصفحة والحواجز الإسمنتية إلى البنـادق والرجال المسلحين المدربين على استخدام تلك البنادق. ومن هنا بدأت طفرة قطاع المتعاقدين الأمنيين الخاص.

لقد سبق للشركات الخاصة أن عملت في ساحات الحروب والمعارك، ولكنها في العادة كانت بعيدة عن خطوط إطلاق النار والاشتباكات المسلحة، ولم يسبق لها قط أن مارست

عملها وسط سكان محليين يظهرون العداء لهم، وفي جميع الأحول لم تكن بالقدر الذي يحدث الآن في العراق. ويعد مبلغ ملياري دولار الذي خصص لإعادة إعمار أفغانستان مبلغاً ضئيلاً إذا ما قورن بالعشرين مليار دولار التي خصصها الكونغرس للمرحلة الأولية في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 2003 لإعادة إعمار العراق. ثم تبين عدم كفاية هذه التقديرات الأولية. ومع حلول صيف عام 2005، قدرت تلك التكاليف حتى عام 2007 بقرابة 55 مليار دولار، وهي زيادة كبيرة استفاد منها القطاع الخاص على نحو لم يكن متخيّلا من ذي قبل.

لقد أدى تدفق الشركات الغربية المكلفة بإعادة إعمار العراق إلى زيادة استياء الشعب العراقي من الوجود الأمريكي في البلاد إضافة إلى التوتر القائم نتيجة الاحتلال أصلاً. وفي بلد يعاني نصف سكانه البطالة، أصبح ينظر إلى العمالة الأجنبية على أنها عمالة سلبت وظائف العراقيين وحرمتهم رزقهم. أي أن العمال الفلبينيين، والنيباليين، وغيرهم من رعايا الدول المصدرة للأيدي العاملة يقومون بالوظائف التي يمكن أن يؤديها العراقيون الجياع لسبب بسيط هو أن بعض الشركات تشعر بأنه لا يمكن الثقة بالعراقيين. كما أن قرار اعتزام استخدام عائدات النفط العراقي لدفع أجور هؤلاء الأجانب أتبع الجرح بالإهانة.

ولجأ بعض المتعاقدين من الباطن إلى توظيف عراقيين؛ ليكونوا رادعاً من وقوع الهجمات، وبعضهم الآخر كان يعمل بعيداً عن الأنظار دون أي ترتيبات أمنية مسلحة، غير أن الإجماع في الرأي كان يرى أن مجموعة من حملة السلاح هو مطلب لازم لممارسة أي عمل في العراق. وحتى شركة كيلوغ، براون آند رووت - وزيادة منها في الاحتياط كانت تعطي موظفيها في بعض الأحيان أسلحة نارية. وقامت بعض الشركات الأخرى مثل شركة زاباتا الهندسية- وهي شركة تتولى جمع، ونقل، وتنفيذ قرارات الهدم؛ بإنشاء أقسام أمنية داخلية خاصة بها. غير أن الاحتياجات الأمنية للغالبية العظمى من الشركات الأخرى قد أدى إلى خلق سوق ضخمة من الفرص للمتخصصين في تزويد الحراس المسلحين.

وفي غضون أشهر قليلة، قفزت صناعة الأمن الخاص من نشاط بسيط ناشئ إلى صناعة تقدر قيمتها بمليارات الدولارات، تتصدرها شركات مثل بلاك ووتر، وهارت، وتربل كانوبي، ودينكورب، وآرمورغروب، وكنترول رسك غروب، وإريتز، وإيجيس. وبحسب التقديرات الرسمية الصادرة عن البنتاغون لعدد الشركات الأمنية الخاصة المرخصة التي تعمل في العراق بحسب إحصاء عام 2003، فإنه يوجد في العراق قرابة ستين شركة تستخدم زهاء 125 ألف موظف، ولم تكن الغالبية العظمى من هذه الشركات موجودة قبل اجتياح العراق. ويمكن لهذا الرقم أن يكون أكبر كثيراً، وربما يصل إلى الضعفين، إذا أخِذَ في الحسبان الشركات الأمنية الصغيرة المبتدئة، والشركات الأمنية العراقية، والأقسام الأمنية الداخلية غير المسجلة في بعض الشركات كما هي حال شركة زاباتا.

لقد أدى هذا التحول السريع والكبير، في الاعتماد على المتعاقدين المستقلين لتأمين الخدمات الأمنية، إلى ظهور مجموعات من الرجال المسلحين في العراق يعملون في وَضَح النهار لدعم المهمة الإجمالية للولايات المتحدة. ونظراً لكونها تابعة لمؤسسات غير عسكرية، فقد كانت في موقع مبهم على حدود الخط الفاصل بين المدنيين والمقاتلين. وواجهت هذه المجموعات في أداء عملها مشكلات جمّة: «استصدار بطاقات هوية وتراخيص حمل السلاح؛ وغموض وتعارض في الأهداف، والتنسيق بين القوافل الأمنية؛ والتعرض لنيران صديقة، ليس من جنود التحالف وحسب، بل وحتى من فرق تابعة لشركات أمنية أخرى». ونظراً لكون «زيّهم الموحد» يشابه لباس القوات شبه العسكرية، فليس من المستغرب أن تتبجح المواقع الإلكترونية التابعة للمقاومة العراقية بتوجيهها ضربة موجعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بعد أن نفذت هجوماً استهدف قافلة للمتعاقدين الأمنيين.

وإلى جانب الصعوبات العملياتية المحدودة التي تواجهها الشركات الأمنية الخاصة في العراق، أثارت الطفرة التي شهدتها هذه الصناعة عدداً من القضايا الخطيرة الملحة، التي تتطلب نقاشاً امام الرأي العام حول مستقبل هذه الصناعة. وثمة أسئلة كثيرة فيما يخص مسألة كيف يمكن لجحافل كبيرة من الجيوش المسلحة الخاصة أن تخدم الأهداف العسكرية وأهداف السياسة الخارجية الأمريكية؟!.

لقد سبق أن تابع أساتذة جامعيون متخصصون، مثل بيتر سينغر من معهد بروكينز، وكذلك ديبورا آفانت من جامعة جورج واشنطن التطورات التي طرأت على هذا القطاع المتنامي متابعة لصيقة منذ نشأته في أواسط تسعينيات القرن الماضي. وركز كتاب سينغر الذي نشر عام 2003 بعنوان «عساكر الشركات: بروز صناعة الجيوش المخصخصة» على ظهور الجيوش المرتزقة وتحوّلها إلى هيكل مؤسسي شركاتي، وعلى المشكلات التي نشأت عنها والتصورات المحتملة الملازمة لخصخصة الأمن والحروب. ويعد سينغر من النقاد المشهورين للاتجاه السائد في الشركات الأمنية التي لا تخضع لتنظيم الدولة. ولكن سينغر مع ذلك يلتمس لهذه الشركات العذر ويتفهم موقفها، ومع أن النظرة السائدة في الأوساط العسكرية تُقرُّ بأنَّ خصخصة خدمات الدعم والإسناد توفر في المصاريف والنفقات المالية في المؤسسة العسكرية، إلا أن القضية، وكما يوضح سينغر في حوار دار بيني وبينه: «ليست متعلقة بتوفير الكلفة الاقتصادية، بقدر ما هي متعلقة بتوفير الكلفة السياسية. فحين تقع مظلمة ما، فإنك تلقي اللوم على الشركة». وواضح أن هذا الأمر يتجاوز الراحة وتوفير النفقات، كما أن الاعتماد على المتعاقدين الأمنيين من القطاع الخاص يسّهل خصخصة المسؤولية عن الأخطاء. إن وقوع التجاوزات والإساءات ليست بغريبة عن الجيش ولا عن القطاع الخاص، لكن النتائج والتبعات تختلف اختلافاً كبيراً في الحالتين. فلو قام جندي في الجيش بإطلاق النار عشوائياً على مجموعة من المواطنين العزّل، لأدى ذلك إلى ردة فعل دولية تلحق الخزي بالدولة التي ينتمي إليها الجندي، أما لو قام متعاقد أمني بفعل مماثل، فإنه ببساطة سيتعرض للفصل من عمله وتتلقى الشركة التي يعمل فيها بعض النقد. وفي الحالات التي يمارس فيها المتعاقدون أو الشركات التي يعملون فيها نشاطات مشبوهة، فإنهم في أسوأ الظروف سيفقدون عقودهم. وفي العراق لا توجد شفافية في عمل الشركات الأمنية، ولا تخضع إلا لقدر بسيط من المساءلة في نشاطها. وخصخصة التبعة يجعل الجيش والحكومة محاطة بجدار ناري من الحصانة يحول بينها وبين الملاحقة القضائية؛ لأن العقود تقدم حماية قانونية وإنكاراً مقنعاً بأن الحكومة أقرت أو كانت تعلم بأعمال التعسف والإساءة.

ويعتقد سينغر أن الاعتماد المتزايد على القطاع الخاص يزيل كثيراً من المسؤوليات والتبعات التي يمكن أن تنشأ عن الجيش، ويخلق فرصاً كثيرة من التصورات التي يمكن

أن تعرض أي مهمة يكلف بها الجيش للخطر. وحرص سينغر على انتقاء كلماته بعناية فائقة؛ لكي لا يعرض نفسه لدعاوى قضائية يمكن أن تلاحقه بسبب تصريحات طائشة. فقال: إنه يرى احتمال أن تنكص الشركات التجارية عن إتمام عقدها أو قد تغالي مغالاة فاحشة في أجور خدماتها؛ لأن هذه الشركات تعتمد في حساباتها على مبدأ الكلفة زائد الربح، بدلاً من الاعتماد على شرف الواجب. ويستشهد كتابه الذي اعتمد فيه على منهجية علمية كثيراً من الأمثلة على التجاوزات المالية والأخلاقية والقانونية في نظام العقود القائم في الوقت الراهن كالمغالاة في الأجور، والقيام بعمليات احتيال ونصب في الدول المضيفة، وممارسة نشاطات إجرامية، وغيرها. وبحسب ما يذكر سينغر، فإن هذه المشكلات نتجت عن ضعف الرقابة وعن الطفرة الكبيرة التي طرأت على هذه الصناعة بحيث يمكن لشركة حديثة النشأة أن تقفز من لا شيء إلى الدخول في عقد بقيمة ملايين الدولارات في غضون بضعة أسابيع.

أما الدكتورة ديبورا آفانت، أستاذ العلوم السياسية ومديرة معهد الدراسات العالمية والدولية في كلية إليوت للشؤون الدولية في جامعة جورج واشنطن، فكانت أقل انتقاداً لهذه الصناعة من سينغر، ولكنها مع ذلك لا تخفي قلقها من أن الزيادة في استخدام الشركات الأمنية الخاصة ستسهم في نمو صناعة يمكنها أن تقدم أدوات للحروب مقابل أجر مالي بدلاً من أن تكون أدوات خير للمواطنين. والقضية الجوهرية التي نشأت عن استخدام الشركات الأمنية الخاصة، بحسب رأي ديبورا آفانت، هي أن الطرف الذي يستأجر هذه الشركات هو الذي يحدد من يملك استخدام القوة.

وترى ديبورا أن ما طرأ على القطاع الأمني الخاص من نمو وازدهار هو أمر طبيعي ومتوقع، ولكنها ترى غيمة قاتمة فوقه: «إنه [أي استخدام المتعاقدين المستقلين] قد نقل السلطة التي كانت من اختصاص الكونغرس إلى البيت الأبيض». ففي حين يملك الكونغرس السلطة كاملة للتصويت على تخصيص النفقات المالية لأي عمل عسكري، أصبح بإمكان السلطة التنفيذية -إذا كانت عازمة- أن تلجأ إلى عدد من الحيل التي تستطيع عبرها تمويل قوة صغيرة من المتعاقدين للقيام بعمل عسكري ما متجاوزة بذلك الكونغرس. وتدرك آفانت آليات وأنظمة الرقابة المكتوبة منها وغير المكتوبة التي تخضع

لهـا الشركات التي تبرم عقوداً مع الحكومة، ولكنهـا قلقة من أن الشركات الخاصة التي تقـدم الخدمـات الأمنية يمكنهـا العمل خارج نطـاق التغطية الإعلاميـة، ومن ثم خارج علم دافع الضريبـة الأمريكي ودون علم أكثر أعضاء الكونغرس. ولاحظت آفانت أن هذه الشركات «تقضي على الشفافية والوضوح في عمل الحكومة عن طريق وضع كم هائل من المعلومـات في أماكن مختلفة. إنَّ التغطية الإعلامية للجنـود هي خمسة أضعاف التغطية الإعلامية للمتعاقدين الأمنيين».

ثمـة نقاش دائـر عن مـدى التوسع الذي يمكـن أن تصـل إليه الشـركات الأمنية في خدماتهـا. وإحدى المخاوف التي يمكن أن تنشأ عـن ذلك هي أن هذه الشركات يمكن أن تتحـول إلى منظمات هجومية، بمعنى أنها ستصبح جيوشاً تقاتل بالإنابة، أي جيوشاً من المرتزقـة. وفي الوضـع الراهن، يقـوم المتعاقدون الأمنيّون بعدد مـن الوظائف في مناطق الحروب، ويخضعون لقيد وحيد أساس هو أنهم يؤدون وظائفهم بقدرات دفاعية وحسب. ولـو كلف متعاقـد أمني خاص بواجبات هجومية كالتي يكلف بهـا الجندي النظامي، فإن الخط الدقيق الذي يفصل بين المتعاقد الأمني والجندي المرتزق سينقطع، وستبدأ الشركة الأمنية الخاصة التي تشرف على المتعاقد بتعريف نفسها بوصف «شركة عسكرية خاصة» وهو وصف ملطف للجهة التي تقوم بتزويد خدمات الجنود المرتزقة.

إن أبـرز دور يؤديه المتعاقدون الأمنيون في العراق اليوم، وأكثرها تعرضاً للمخاطر هو خدمة المرافقة الأمنية، ولا سيما على درب المهالك المسمى بالدرب الآيرلندي الذي يصل بين مطـار بغداد الـدولي ومدينة بغداد. وكمصارعـي روما القديمة، يتقـدم المتعاقدون الأمنيون لمواجهة الموت كل يوم، وما من لحظة تمر على مطار بغداد الدولي إلا وتجد فيها عدداً من السيارات رباعية الدفع التابعة لعدد من الشركات الأمنية تنتظر في المطار لمرافقة مسافرين قادمين على طول المسافة القصيرة -لكن المهلكة- إلى بغداد. وتراهم يسيرون بسرعـة عاليـة، ويطلقون نيران أسلحتهم لإبقاء الآخرين بعيـداً عنهم، ويتعاملون مع كل شيء في الطريق بوصفه سيارةً مفخخة. وتسوّغ أعداد الهجمات المتكررة في الطريق الذي يطلق عليه بحق «ممر السيارات المفخخة» أسلوبهم العدواني في السير على ذلك الطريق. وإلى جانـب تأمـين نقل كل شيء من الحافـلات التي تقل الصحافيـين، والدبلوماسيين،

ورجال الأعمال، إلى الشاحنات المحملة بمعدات الطهو، أو إمدادات أعمال الإنشاءات، يقوم المتعاقدون الأمنيون بتقديم حماية ثابتة للسفارات، وأنابيب النفط، والمباني التابعة للحكومة، وغيرها من منشآت البنية التحتية. ويقوم المتعاقدون الأمنيون بتدريب الجنود العراقيين وقوات الشرطة، بالإضافة إلى عمليات جمع المعلومات الاستخبارية، ونصب أجهزة الاستطلاع الجوي، وقيادة الكلاب الباحثة عن المتفجرات. وهم وإن لم يكونوا من الناحية الفنية يعملون نيابة عن المؤسسات العسكرية الأمريكية إلا أنهم - كما تقول ديبورا آفانت- قد أصبحوا أهدافاً مشروعة لهجمات المقاومة؛ لأنهم يؤدون أدواراً داعمة ومعززة للمهمة الأمريكية، ويعملون على تأكيد بقاء المسؤولين السياسيين الذين عينتهم الولايات المتحدة وتأمين وجود الشركات الأمريكية.

وفي أثناء تنفيذ شركة بلاك ووتر مهمة حماية بول بريمر البارزة أمام القاصي والداني، نقلت التقارير عن المقاومة العراقية تقديمها جائزة قيمتها 30 ألف دولار عن رأس أي واحد من فريق الحراسة التابع لبلاك ووتر. ولم يكن هؤلاء المتعاقدون يقومون بعملهم وهم يدركون وجود فدية مجزية فوق رؤوسهم، ولكنهم يعلمون أيضاً أن الرجل الذي كلفوا بحمايته هو أثمن هدف في ساحة المعركة. وقدر بعضهم الجائزة الموضوعة لمن يأتي برأس بريمر بخمسة وأربعين مليون دولار.

كان بول بريمر في نظر المقاومة الناشئة يجسد رمزاً أوحدَ لاحتلال غربي مرفوض، وكان على شركة بلاك ووتر أن تأخذ هذه الحقيقة في الحسبان حين تقرر مستوى القوة البشرية والقوة النارية اللازمة لحمايته. وكان سلفه ج - غارنر في البداية يحتفظ بوحدة صغيرة من الجنود التابعين للحرس الوطني لولاية فلوريدة للقيام بحراسته، غير أن تفاقم الوضع الأمني بسرعة، وإصرار بريمر على التنقل في البلاد كان يعني أنه بحاجة إلى قوة حماية أكبر وأشمل. فجرى تكليف إريك برنس وبلاك ووتر بالتقدم بحل مبتكر فريد، واستخدمت مخصصات مرصودة في حساب لشركة دينكورب لدى وزارة الخارجية الأمريكية لتمويل تلك الحماية. وهكذا تكوّن فريق الحراسة الشخصية المشهور الذي يتولى حراسة بريمر من وحدة سريعة الحركة من المسلحين المستأجرين تدعمها قوة نارية كاسحة.

كانـت شركة دينكورب في ذلك الوقت ملتزمة بعقد لتقديم الاحتياجات الأمنية لوزارة الخارجيـة الأمريكية حول العالم- بمـا في ذلك حماية السفـارات والمكاتب الدبلوماسية والرئيـس الأفغـاني حامد كـرازاي- ولكنها عهـدت إلى شركة بلاك ووتـر بمهمة تنفيذ التزاماتهـا في ذلك العقـد في العراق. ومع أنه لم يكشف النقـاب عن كلفة فريق الحرس الإمبراطـوري الـذي يتولى حراسة بريمـر، إلا أن بلاك ووتر وبعد عـدة أشهر من فوزها بتلك المهمة، وقعت على عقد منفصل بتاريخ 24 آب/ أغسطس من عام 2003 قيمته 21,3 مليـون دولار. ومثالاً على تأسيـس شركات جديدة لتنفيذ عقد أمنـي في طفرة الشركات الأمنيـة الخاصة، جرى تسجيل شركة جديدة تحت اسم بلاك ووتر للاستشارات الأمنية لدى حكومة ولاية كارولينة الشمالية بعد شهر من توقيع ذلك العقد.

تألـف فريـق الحراسة الشخصـي لبول بريمـر في البداية من ثلاثة وستـين متعاقداً أمنيـاً مستقلاً، وأسطولٍ من السيـارات ذات الدفع الرباعي، وفريقين من كلاب الأثر مع ساستهـا، وأربعة طيارين، وأربعة رمـاة جويين، وفريقٍ أرضيٍّ، وثـلاث طائرات مروحية صغيرة من طراز بوينغ إم دي 530-. وفيما بعد، قامت بلاك ووتر بتدعيم الفريق بثلاث عربات مصفحة من طراز ممبة مزودة برشاشات بي كي إم الآلية، وعربات نقل مصفحة مـن طراز ساراسين، وطائرة نقل من نوع كاسا 212. وأظهـر فريق الحراسة استعراضاً باهـراً للقوة عن قصد؛ لأنـه كان يخضع لقواعد الاشتباك الصادرة عن وزارة الخارجية الأمريكيـة التي تطبقها فرق الحمايـة الدبلوماسية. والهـدف الأساسي لفريق الحراسة الشخصـي المرافق هـو ردع أي هجوم على الشخص المقصـود بالحماية، وإذا ما تعرض الفريـق للهجوم، فإنهم مخولون بمقاتلة المهاجم حتى تتمكن الشخصية المهمة المقصودة بالحمايـة من الخروج مـن دائرة الخطر وإخلائـه خارج مسرح المواجهـة. وعلى الرغم مـن إطلاق كثير من الصحافيين اليساريين على هذه المجموعة المسلحة المكونة من جنود سابقين وأفراد شرطة متقاعدين وصف «المرتزقة»، إلا أن وزارة الخارجية تعدهم حراس أمـن مسلحـين. وعلى أي حال، كانت بـلاك ووتر تنشر مجموعة صغـيرة من الميليشيات الخاصـة، ولأول مرة في التاريـخ، كان بول بريمر، وهو متعاقد مـدني، يقوم على حمايته جيش صغير من المتعاقدين الأمنيين، يدير بلداً محتلاً.

الأنظمة والتعليمات ومشاعر الاستياء والسخط

وصل السفير بول بريمر، وهو نفسه متعاقد مستقل كُلف بمنصب الحاكم العام، إلى العراق في أيار/ مايو من عام 2003 وبيده سلطات واسعة لإحداث تغييرات جذرية كاسحة وإصلاحات جوهرية في عراق ما بعد صدام حسين. عمل بريمر في السابق في السلك الدبلوماسي، وله باع طويل في هذا الحقل. وبعد تقاعده من العمل الدبلوماسي؛ فعمل في وظيفة رئيس تنفيذي لشركة مارش لاستشارات الأزمات، وهي شركة أنشأتها شركتا مارش وكماكلينان عقب وفاة ثلاث مئة موظف من موظفي الشركتين، في تفجيرات 11 أيلول / سبتمبر.

رأى كثير من الناس أن إسناد حكم العراق إلى بريمر كان قراراً حكيماً وموفقاً، لما يتمتع به هذا الرجل من أسلوب دبلوماسي رفيع. غير أن سياسة القبضة الحديدية والسلطات المطلقة التي كان يمارسها أثارت غضب كثير من العراقيين؛ إذ كان ينظر إليه وعلى نطاق واسع بأنه حاكم طاغية جديد يقوم بتبذير عائدات النفط العراقي على أجانب مبذرين وفاسدين من القصور نفسها التي كان يبذر منها صدام عائدات النفط العراقي على برامجه الفاسدة. كما أن عبارة سلطة التحالف المؤقتة نفسها تنضح بالكلام الأورويلي المزدوج: فالتحالف يقصد به أمريكة وحدها، وأعمال السلطة كانت دائمة أكثر منها «مؤقتة»، والفوضى السائدة في العراق دليل على أنها ليست من «السلطة» في شيء.

وظهر أن سلطة التحالف المؤقتة كانت تعمل على خلق نموذج قديم من الشركات التجارية؛ فالولايات المتحدة قامت باحتلال دولة العراق ذات السيادة، وخلعت حاكمها، وأطاحت بجيشها، واستولت على أموالها، ثم قامت بتعيين مدير أعمال؛ ليقوم بإصدار الأوامر المصممة لتشجيع التجارة بين دول التحالف، وخلق قطاع صناعي جديد هو «إعادة بناء العراق». ومع أن جني الأرباح من الحرب هو أمر ممقوت عموماً، إلا أن سلطة التحالف المؤقتة لم تبذل أي جهد في تمويه الفرص المجزية التي أوجدتها لمصالح الشركات. وكان متوقعاً من إجراءات الإنعاش الاقتصادي عن طريق الصدمة، وقوى السوق القوية أن تضع العراق على مسار النجاح السريع. وللبدء بذلك، كان بريمر بحاجة إلى مضخة كبيرة من الأموال. وقد تحقق له ذلك بتأسيس صندوق تطوير العراق، لتمويل كل الشركات التي

اختيرت لتقديم المساعدة وجني الأرباح، بعد أن قامت قوات التحالف بالعمل النبيل الذي يعكس نكران الذات بتحرير العراق وإعادة بنائه، كما تزعم قوات التحالف.

وفي العشرين من آذار/ مارس من عام 2003، وقّع الرئيس بوش على الأمر التنفيذي رقم 3290 بمصادرة الأملاك العراقية في الولايات المتحدة والأموال العراقية في المصارف الأمريكية. وفي الثاني والعشرين من أيار/ مايو، حدد قرار الأمم المتحدة رقم 1433 مسؤوليات قوى الاحتلال في العراق بالآتي: «العمل على تعزيز رفاهية الشعب العراقي عن طريق الإدارة الفاعلة للمناطق العراقية .....»، ولتحقيق هذه الغاية سمح القرار بتخصيص 95% من عائدات النفط العراقي لصندوق تطوير العراق، وهو تحوّل عن برنامج الأمم المتحدة السابق الذي كانت تُثار حوله الشبهات، المعروف ببرنامج النفط مقابل الغذاء الذي وُضِعَ لمنع صدام حسين من نهب عائدات الصادرات النفطية لمصلحته الخاصة. وكان أول نظام يصدر عن سلطة التحالف المؤقتة بعد وصول بريمر إلى بغداد هو وضع الأساس القانوني لسلطة التحالف المؤقتة ممثلة في شخصه هو بصفته الحاكم العام للبلاد. وكان النظام رقم 2 الذي صدر عن السلطة يقضي بجعل بريمر المحاسبَ الوحيدَ لصندوق تطوير العراق.

ومن القرارات الأخرى التي صدرت عن سلطة التحالف المؤقتة، القرار رقم 1 الذي أصدره بريمر بهدف استئصال كل ما هو بعثي من المجتمع العراقي، وحظر هذا القرار كل أعضاء حزب البعث من تقلد أي «منصب تمارس بموجبه سلطات ومسؤوليات في المجتمع العراقي»، وهو قرار يؤدي من الناحية العملية على نبذ وإقصاء 10% من سكان العراق، أي ما يعادل مليوناً ونصف المليون إلى مليونين ونصف المليون نسمة. وأَتْبَعَ ذلك القرار بقرار آخر يقضي بحل الجيش العراقي وعدد من الوزارات العراقية، وهو ما أدى إلى تسريح ما يربو على أربع مئة ألف عراقي من وظائفهم وحرمانهم من رواتبهم، ووضع بالنتيجة تحت يد معارضي الاحتلال مخزوناً من الجنود العاطلين عن العمل لتجنيدهم في الهجمات الانتحارية، وفي تنفيذ عمليات المقاومة. وقدم القرار رقم 19 والقرار 14 إلى المقاومة العراقية نصراً إعلامياً ودعائياً وأداة أخرى لتجنيد المزيد من المتطوعين؛ إذ حدد القرار رقم 19 الصور المسموح بها قانونياً من حرية التجمع، وفَرَضَ قيوداً على

حق العراقيين في التظاهر والاحتجاج، بينما سرد القرار رقم 14 القيود المفروضة على حرية الصحافة حديثة النشأة. ولم يكن أيٌّ من هذين القرارين في الحدود غير المعقولة، إلا أنهما ساعدا في تعزيز حجج المقاومة التي تقول: إن حديث الأمريكيين عن الحرية والديمقراطية ما هو إلا خدعة كلامية معسولة تهدف إلى تخدير الشعب العراقي؛ لكي يرضخ للاحتلال.

ومع تتابع القرارات والأنظمة الصادرة عن بريمر التي كانت موجهة نحو تحقيق الفوائد والأرباح التجارية بدلاً من المساعدة الإنسانية، تفاقم استياء الشارع العراقي وازدادت مخاوفه من أن الولايات المتحدة أقدمت على احتلال العراق لسرقة نفطه ونهب أمواله. ولو فسرت تلك القرارات والأنظمة بنية حسنة، على أنها جزء من إجراءات الصدمة الاقتصادية لإنعاش اقتصاد يتفق الجميع على أنه كان منهاراً بسبب الحصار، إلا أن الشعب العراقي لم يكن ينظر إليها بهذا الاعتبار؛ إذ جرى الاستيلاء على الممتلكات والأعمال التي تعود لحزب البعث، وسمح للأجانب بالتملك بنسبة 100%، وسمح بتحويل أرباح الشركات الأجنبية كاملة إلى الخارج، وأبرمت العقود مدة أربعين عاماً لضمان بقاء واستمرار أي مشروع تجاري وجد تحت سلطة الاحتلال الأمريكي، وتمت خصخصة النظام المصرفي، وفرضت ضريبة شاملة بنسبة 15%، وألغيت الرسوم والمكوس. وقد صدرت هذه الأوامر والأنظمة باللغة الإنجليزية وكانت ترجمتها العربية متأخرة عنها بوقت، وهو ما عزز الانطباع بأن المحتل الأمريكي كان يستولي على البلاد تحقيقاً لأهدافه الشخصية الأنانية.

لم يشهد الشعب العراقي في بدايات حكم بريمر سوى تحسينات طفيفة هامشية في الحالة الاقتصادية ومستوى المعيشة. ومع استمرار المحنة، تزايدت مشاعر السخط والاستياء، وتنامت معها أعمال المقاومة. وإمعاناً في زيادة التوتر على هذا الوضع الحساس أصلاً، كان التوسع في أعمال الإنشاءات مصحوباً بانتشار كبير للرجال المدججين بالسلاح من غير الجنود النظاميين، وكانت قوافلهم البارزة للعِيان المنتشرة في كل مكان تجوب شوارع البلاد بعدوانية مستفزة، دافعة بالسيارات الأخرى غير المتعاونة إلى جانب الطريق أو مطلقة عليها النار لتعطيلها وإصابة سائقيها، ولا يملك أحد أي نوع من الإحصاءات

عن عدد المدنيين العراقيين الذين أصيبوا أو قتلوا على يد المتعاقدين الأمنيين، غير أن الأدلة السماعية التي انتهت إليّ من تحدثي إلى عدد كبير من المتعاقدين الأمنيين تشير إلى أن هذا العدد ليس بالقليل. ومع ذلك، وحتى كتابة هذه السطور في بداية عام 2006، لم يتعرض أحد من المتعاقدين الأمنيين المستقلين لأي مساءلة قانونية عن أي ضرر جانبي نتج عن أفعالهم في العراق.

وفي حادثة رواها لي أحد المتعاقدين الذين شهدوها، قام سائق حافلة بك آب من نوع فورد إف-250- كان في مقدمة قافلة أمنية، بصدم سيارة صغيرة كانت تقل أسرة عراقية في أثناء محاولة سائق الحافلة الالتفاف لتجنب وضع خطر. وبعد الحادثة بدت السيارة الصغيرة محطمة مسحوقة، ولم يعرف المتعاقد إن كانت الأسرة العراقية قد نجت من الحادث أم لا؛ لأن القافلة الأمنية لاذت بالفرار. ولم يخبر السلطات بهذا الحادث في ذلك الوقت، لذلك لم يتعرض السائق لأي تحقيق أو تأديب على ما فعله. وكان المتعاقد الذي شهد الحادثة يرغب بالإبلاغ عن الحادث إلى السلطات المختصة، ولكنه شعر بأنه ربما يعرض مهنته للخطر إن فعل ذلك.

افتتح بوش الحرب على الإرهاب بإصدار رخصة مفتوحة للقتل بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، حيث وقع على قرار يجيز الاغتيال. غير أن قرار بريمر رقم 17 هو الذي أطلق العِنان للمتعاقدين الأمنيين في العراق لفعل ما يشاءون. وينص بند خاص في القرار 17 على ما يلي: «يتمتع المتعاقدون الأمنيون بالحصانة من الملاحقة القانونية في العراق بخصوص كل ما يتصل بالأفعال التي صدرت عنهم تنفيذاً لعقد أبرموه بالأصالة أو من الباطن. ويجب ألا يمنع الحكم الوارد في هذه المادة القوات المتعددة الجنسيات [قوات التحالف] من وقف إساءة التصرفات الصادرة عن المتعاقدين، أو حجز أي متعاقد يمثل خطراً أو تهديداً لنفسه أو للآخرين، حجزاً مؤقتاً ريثما يتم تسليمه إلى السلطات المختصة في بلده الأصلي. وفي جميع الأحوال، يجب إبلاغ الموظف الأعلى رتبة في الهيئة التي تمثل دولة المتعاقد في العراق». وبعبارة أبسط، يقول هذا القرار: بأن النظام القانوني العراقي لا يملك صلاحية ملاحقة أي متعاقد أمني، حتى وإن كانت التهمة هي القتل العمد، إذا وقعت الجريمة في أثناء أداء المتعاقد وظيفته.

ويقضي الإجراء المتبع على أن تجري محاكمة المتعاقد الأمني على الجريمة المزعومة بحقه في بلده الأصلي بعد تسليمه إليه. وقد يبدو ذلك حلاً معقولاً بالنظر إلى حالة نظام العدالة العراقي، غير أن هذه الإجراءات لا تطبق في الواقع العملي. وبالأخذ في الحسبان الصورة التي نقلها إليّ المتعاقدون أصحاب الخبرة الواسعة في العراق حول الإصابات والأضرار غير المقصودة التي تلحق المدنيين العراقيين على يد المتعاقدين الأمنيين، فإن من المدهش حقاً أنه لم يتعرض متعاقد أمني واحد – وأقصد هنا تحديداً المتعاقدين الأمنيين الذين يؤدون وظائف أمنية لمصلحة سلطة التحالف المؤقتة- لأي تحقيق جنائي عن أي جريمة أو جنحة.

هناك قضيتان وضعتا أساس السابقة القانونية على محاكمة أنواع أخرى من المتعاقدين في بلدهم الأصلي، على جرائم ارتكبوها في مناطق حرب- مثل القضية المتعلقة بشركة مركز كاليفورنية للتحليل، وتلك المتعلقة بمترجمي تيتان، وجاءت تلك المحاكمات بعد الضجة الإعلامية التي تبعت الكشف عن فضيحة سجن «أبو غريب». وقد وجهت تهمة بالقتل إلى ديفيد باسارو، وهو متعاقد مستقل وجندي سابق في القوات الخاصة كان يعمل لمصلحة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في وحدة شبه عسكرية كانت تتولى القبض على الإرهابيين في أفغانستان، وحوكم فعلياً بموجب بنود قانون الولاء للوطن على قيامه بقتل أحد المحتجزين في أثناء التحقيق معه وتعذيبه. ولما كانت هاتان القضيتان قد قدمتا إلى المحكمة بعد الجدل الذي ثار عقب الكشف عن أعمال التعذيب التي وقعت في سجن «أبو غريب»، فإنها تثير تساؤلاً حول مسألة إن كان أصحاب السلطة لا يولون اهتماماً بالمساءلة عن المخالفات القانونية إلا حين تسلط الأضواء عليها.

انتهى العمل بالقرار رقم 17 مع تسليم مقاليد الحكم إلى الحكومة العراقية، ويفترض أن يخضع المتعاقدون الأمنيون منذ تلك اللحظة لأحكام القانون العراقي. ولأسباب أمنية، وتجنباً للوقوع في مشكلات قانونية، لا ينتظر المتعاقدون في المكان الذي يقع فيه الحادث. وبعد عدد كبير من الهجمات التي شنها رجال المقاومة الذين كانوا يتخفّون تحت اللباس الرسمي للشرطة العراقية، لم يعد المتعاقدون الأمنيون يتوقفون انصياعاً لأوامر صادرة عن الشرطة العراقية وإن لاحقتهم سيارات الشرطة مطلقة صفارات الإنذار والأضواء

الومّاضـة؛ لذلك فالمهمة تقع على عاتق الشرطـة العراقية في التحقيق في الحادث، وتتبع المعلومات لمعرفة هُوية المتعاقد الذي ارتكب الخطأ (إن كان ذلك ممكناً)، ومن ثم مناشدة القـوات الأمريكية التعاون معها في القبض على الشخصـ المتسبب في الحادث، وتسليمه إلى السلطـات العراقيـة. وهذا تصوّر بعيد الاحتمال. ولو حـدث أي تبرّم من سلوك غير لائق أو تصرف بطريقة عنيفة عن متعاقد أمني مستقل، فإن الشركة التي يعمل فيها إذا رأت أن هذا المتعاقد سيحملها تبعات ومسؤوليات هي في غنى عنها، فإنها في العادة تفسخ عقـده وترسله إلى موطنه، وربما بقي في بلده دون عمل، لكن من المستبعد أن يرى جدران السجن من الداخل.

وضـع القرار رقم 17 معاييرَ مساءلة المتعاقدين الأمنيين في العراق، ولكنها في حقيقة الأمر غير موجودة على الرغم من أن الأسس القانونية المحددة لهذه المسؤولية قد شهدت تحولاً منذ صدور ذلك القرار؛ إذ لم يكتفِ القرار بإعطاء الشركات الأمنية الخاصة غير العراقية «بطاقة للخروج من السجن مجاناً» وحسب، بل، وهذا ما تحققت منه أنا شخصياً في أثناء ترحالي، وقد عملت على تغيير نظرة المتعاقدين إلى البيئة التي يعملون فيها: فبدلاً من الالتزام بحدود السلطات المحلية والأنظمة والتعليمات، ينظر كثير من المتعاقدين إلى العـراق بوصفـه مزبلة خالية من القانـون، «صندوق الرمل» أرض يدخلهـا الشخص إما قاتـلاً أو مقتـولاً». أما السكان المحليون فهم في نظـر المتعاقدين الأمنيين الذين يخرجون مـن معاقلهم الآمنـة المحاطة بجدران مسلحـة مقاومة للقذائـف، بسياراتهم وعرباتهم المصفحة، ليسوا سوى خيال من الوجوه السوداء التي تظهر في مناظير البنادق.

إن السمـاح لهـذه المجموعـات المسلحة بالعمـل دون مساءلة أو مسؤوليـة، وبقليل من الرقابة لهو أمر مثير للقلق، ولكنه أيضاً دليل على الجودة التي تتمتع بها كثير من الشركات الأمنية، وعلى حسن التدريب والانضباط لدى موظفيها، ولهذا السبب لم نشهد أي أعمال مثـيرة للجدل. تلتزم الغالبيـة العظمى من المتعاقدين الأمنيين الذيـن يعملون في العراق قواعـد الاشتبـاك التي وضعتهـا في الأصـل وزارة الخارجية الأمريكية، وقـام بتبسيطها المدير الأمنـي في مكتب المشروعات والتعاقدات العميد البريطـاني المتقاعد آنتوني هنتر تشوات. إن أبسط وأوجز ملخص لقواعد الاشتباك التي يلتزمها المتعاقدون الأمنيون هي: «إذا أطلقت عليك النار، فردَّ بالمثل».

قـد تبدو هذه القاعدة سهلة التطبيق، وقد كانـت كذلك في بدايات الأشهر الأولى من الاحتلال، وربما حتى نهاية السنة الأولى. غير أنه مع استمرار الاحتلال طَوالَ عام 2003 دون تقديم أي منفعة ملموسة للمواطن العراقي العادي، ازداد الاستياء، واكتسبت المقاومة مزيـداً من القوة، وبدأ المتعاقـدون الأمنيون يشعرون بنظرات الحقـد والكراهية تصوّب إليهـم في كل مـرة يسيرون فيها عبر المناطق المدنيـة. والعمل في بيئة غير آمنة، ومواجهة عدو غير محدد يختبئ بسهولة وسط السكان المدنيين، بالإضافة إلى هذا التحوّل المؤكد، وإن كان غير ملموس، في المزاج العام للشارع العراقي، كل ذلك يؤثر تأثيراً كبيراً في سرعة رد المتعاقدين بإطلاق النار. ثم جاء هجوم الفلوجة على المتعاقدين التابعين لشركة بلاك ووتر فغير كل شيء.

لم يتوافر للمتعاقدين الأربعة الذين لَقُوا حتفهم في ذلك اليوم أي وقت للرد على إطلاق النـار، ودفعـت وحشية ذلك الهجوم كثيراً مـن المتعاقدين إلى حالة مـن التوتر العصبي وأزالت الافتراض الساذج بأنهم محصنون من التعرض للهجمات؛ لأنهم يتمتعون بصفة شبه مدنية. وبعد مشاهدتهم الموتَ والتمثيلَ بالجثث الذي حل بزملائهم المتعاقدين على شاشات التلفاز تعرض مرة بعد مرة دون توقف، أصبح المتعاقدون الأمنيون أكثر استعداداً لإطلاق النار إذا ما شعروا بالتهديد.

وبعـد أيـام قلائل من حادثـة الفلوجـة، وقعت حادثتان همـا الأكثر أهميـة في سجل المتعاقدين الأمنيين في العراق منذ بدء الحرب، وإن توارت التقارير الإعلامية التي نقلت تطـورات هاتـين الواقعتين عن بـؤرة التركيز الإعلامـي بسبب وقوع أحـداث أكثر أهمية منهمـا في العراق. وعلى الرغم من أن قواعد الاشتبـاك تقضي بأن المتعاقد الأمني يجب عليـه ألا يطلـق النـار إلا بهدف الانسحاب من المـكان وفك الاشتباك، فـإن واضعي هذه القواعـد لم يتوقعـوا الحالة التي يكلف بهـا المتعاقدون الأمنيون بحمايـة المنشآت الثابتة التابعـة لسلطـة التحالف المؤقتـة ويتعرضون لإطلاق نار قـد يستمر ساعات بـل وأياماً. وفي مثـل هذه الحالـة التي يتعرض فيها المتعاقدون الأمنيـون للحصار، وتغلق من حولهم المخـارج الآمنة، مع غيـاب النصرة من الجيش، فإنه لا يبقى خيـار أمامهم سوى القتال في مواجهـة هجـوم كاسح على يد مئـات من المهاجمين. وفي الوقت الـذي كان فيه ممثلو

البنتاغون والمعلقون الإعلاميون يجادلون أمام الرأي العام بأن المتعاقدين التابعين لشركة بلاك ووتر يجب وضعهم تحت الحماية التي تقدمها قوانين الحرب للمدنيين؛ لأنهم كانوا يقومون بالحراسة وحسب، وأنهم لا يخوضون معارك حربية، كان المتعاقدون الأمنيون في الكوت وفي النجف يخوضون معارك قتالية شرسة.

الفصل الخامس

جسر بلاك ووتر

«لقد كنا نعلم حتى قبل مغادرتنا الكويت أن هذا العقد مآله الهلكة»

- ت - بوي، أحد المتعاقدين الأمنيين العاملين في شركة بلاك ووتر، وكان في الأصل مكلفاً بالعمل ضمن الفريق الذي لقي أعضاؤه حتفهم في الفلوجة

أنا جالس في الحانة التابعة لفندق بيلاغيو في مدينة لاس فيغاس بعد منتصف الليل. وتتردد في أجواء الحانة أصوات أحاديث النسوة اللاتي يرشفن المارتيني، وأصوات المباهاة الصادرة عن المقامرين بفوز جديد. ويجلس في الجهة المقابلة لي رجل في منتصف عمره، ذو شعر أشقر خفيف وشارب قصير. وقد يخيّل لمن يشاهدنا أننا من رجال الأعمال أو من وكلاء المبيعات نقضي وقتاً للاستراحة بعد فراغنا من المشاركة في معرض تجاري. غير أن هذا الشخص الذي يجلس تجاهي هو ضابط سابق من القوات الخاصة، وكان يحدثني عن معركة الفلوجة، ويتذكر قائلاً بكل هدوء: «كانت الجثث مكوّمة بعضها فوق بعض. وفي نقطة واحدة كان هناك خمس عشرة جثة، ومن المؤكد أن فريقنا قام بقتل أكثر من 500 عراقي على الأقل في ذلك اليوم، وقد توقفنا عن إحصاء القتلى عند ذلك الرقم». ويتوقع هذا الضابط أن يحال إلى التقاعد قريباً، ولا يوجد لديه أي نية في التحول إلى العمل في قطاع المتعاقدين الأمنيين الخاص، ويتذكر هذا الرجل الفلوجة بوصفها أعنفَ تجربةٍ مرت عليه في حياته المهنية: فهي هجوم تركز فيه غضب المعركة كله على بلدة واحدة بهدف الثأر للهجوم الذي وقع على بعض المتعاقدين الأمنيين. وهي الحادثة التي تسببت في تعريض تلك المدينة لعربدة عنيفة من الدمار».

بـدأت معركـة الفلوجـة في نوفمبر مـن عام 2004، حين قـام سـتـة آلاف من الجنود الأمريكيـين يرافقهـم ألفان من الجنـود العراقيين باقتحام المدينة مـن الشمال لمواجهة رجـال المقاومـة العراقيـة ودفع السـكان إلى خارج المدينـة. وبعد انتهـاء المعركة تحوّلت الفلوجـة إلى مدينـة أشباح بعد أن قضى ألف ومئتا مقاتـل وست مئة من المدنيين نحبَهم فيهـا، ولقي سبعون من الأمريكيـين حتفهم وأصيب مئتان منهم بجـروح بليغة في القتال الذي وقع للسيطرة على تلك المدينة.

خـلال المرحلة الأولى مـن العمليات العسكريـة في العراق في ربيع عـام 2003، بدأت القـوات الأمريكية عملية للاستيلاء على الفلوجة ولكـن الأوامر صدرت إليهم بالتراجع. وبقيـت المدينة في السنة الأولى من الاحتلال قاعـدةً خارجة عن السيطرة، ونقطة جذب للعنـف، ومركزاً آمنـاً لانطلاق عمليات المقاومة التي أخذت تتوسـع في المنطقة. وقد كان الجيش الأمريكي يعمل بما يتجاوز طاقته القصوى؛ ذلك أنه لم يكن على استعداد لمواجهة المقاومة العنيفة للاحتلال، إضافة إلى النقص في الرجال والإمدادات الذي كان يعانيه.

وقد فتح هذا الوضع المتسم باليأس والقنوط مجالاً فسيحاً لفرص العمل لشركة بلاك ووتـر. وفي تلـك الأثناء، كانت بـلاك ووتر تقدم خدماتهـا الأمنية لوكالـة الاستخبارات المركزيـة الأمريكية في أفغانستان وباكستان، وكانت قد فرغت لتوها من إعداد ستين من المتعهدين الأمنيين المتعاقدين معها لتولي مهمة تقديم الحراسة الشخصية لحاكم العراق الجديـد بـول بريمر. وكانت بـلاك ووتر تسعى جاهـدة إلى توسيع مجـال عملها في هذه السـوق الأكثر دراً للربح والأسرع نمـواً من بين أسواق الخدمات الأمنية في العالم. ولفهم الصـورة الكاملة لما حـدث للمتعاقدين الأربعة في الفلوجة، فإن مـن الأفضل أن نبدأ من القمـة بدلاً من القاع، ذلـك أن بلاك ووتر كانت تقبع في أسفـل درجات سلم العقد الذي لقي فيه الرجال الأربعة حتفهم في أثناء تنفيذه.

تتولى شركات كيلوغ وبـراون ورووت التابعة لشركة هاليبرتون، وهذه الشركات الثلاث التي يشار إليها اختصاراً (كي بي آر) تتولى إدارة العقد المربح الذي أبرمته مع وزارة الدفاع الأمريكية لتقديم خدمات الدعم للجيش الأمريكي على مستوى العالم الذي تبلغ قيمته 7.2 بلايين دولار، ويقوم على أساس من التكلفة زائد الربح، وهذا العقد يعرف اختصاراً بعقد

لوغكاب. وتستعمل شركات كي بي آر في تنفيذها هذا العقد شبكة واسعة من المتعهدين في إدارة عناصر مختلفة من العقد، ويقوم هؤلاء المتعهدون بدورهم في التعاقد مع متعهدين آخرين من الباطن للقيام بجوانب أضيق من التزاماتهم، وربما يقوم المتعهدون الآخرون بالتعاقد مع مزيد من المتعهدين الثانويين لمساعدتهم في تنفيذ المهمات المحددة الموكلة إليهم- وهذا الوضع يخلق طبقاتٍ متعددة من المتعهدين والمتعهدين الثانويين.

وفي حادثة الفلوجة، كانت بلاك ووتر مكلفة بتقديم خدمات الأمن والحماية لشركة ريجنسي للفنادق والضيافة، وهي شركة متعاقدة مع شركة ألمانية للخدمات الغذائية اسمها يورست لخدمات الدعم واختصاراً (إي إس إس)، وهذه الأخيرة كانت متعاقدة من الباطن مع شركة كي بي آر من بين عدد كبير ومتنوع من الشركات التي جرى التعاقد معها للمساعدة في تنفيذ عقد لوغكاب. وحتى ضمن عقد بلاك ووتر، كان هناك متعاقدون من الباطن عهد إليهم شراء المعدات ومهمة توظيف طاقم الإدارة والمتعاقدين المستقلين الذين سيقومون بالمهمات الفعلية، وهو ما من شأنه أن يوجد طبقات متعددة من المتعاقدين، والأرباح الناتجة عن تنفيذ مهمة إطعام الجنود.

وكانت سياسة الجيش الأمريكي والخارجية الأمريكية في ذلك الوقت تقضي بعدم توفير قوة حماية مرافقة فردية أو للشركات الخاصة ضمن إشعار قصير الأمد، وإن كانت هذه الشركات تعمل على تقديم موارد مهمة للجيش. ولما كانت كي بي آر ملتزمة بتقديم خدمات النقل والإمداد وَفْقَ معادلة التكلفة زائد الربح، فقد كان من الأفضل لها من الناحية العملية ومن زاوية الربح أن تعهد بمهمة تقديم الأمن والحماية للقوافل التي تنقل الإمدادات إلى شركة خاصة. وقد نافست بلاك ووتر بقوة ونجاح لكسب هذه العقود مدركة أنها متى ما حققت ذلك فإن الأرباح التي يمكن جَنْيُها ستكون مضاعفة مع ازدياد الطلب على الخدمات الأمنية.

وتطلب عقد إي أس أس الذي رسا على شركتي ريجنسي وبلاك ووتر توظيف ثلاثة وأربعين رجلاً مسلحاً لحماية عملية نقل معدات إي أس أس وعمالها مدة تسعين يوماً. ولم تكن التقديرات التي قدمتها بلاك ووتر مزايدة صعبة، بل كانت مجرد تخمين بقيمة 867.033$ لتغطية البدء في العمل في الشهر الأول وحسب. ووقعت بلاك ووتر عقداً رئيساً

مــع إي إس إس في الثامن مــن آذار/ مارس وعقداً ثانوياً مع ريجنسي في الثاني عشر من الشهر ذاته.

ومــع أن العقــد الذي أبرمته بلاك ووتــر مع شركة ريجنسي كانت قيمتــه أقلَّ من 900 ألــف دولار، مــع اشتراط دفع ثلث المبلغ مقدماً، فإن الكلفة الفعلية كانت بحسب ما يتطلبه العميــل. وحدد عقد ريجنسي الوظائف الآتية: وظيفتين إداريتين من «الدرجة الأولى»، 12 شخصــاً للحرس الشخصي المرافق من الدرجة الثانية، إضافة إلى 20 عاملاً من الحرس من الدرجة الثالثة. وكان يدفع للموظف الإداري مبلغ 750 دولاراً أمريكياً في اليوم الواحد تقريبــاً؛ أما العاملون في الدرجة الثانية ممن يتمتعــون بخبرة عسكرية أو في مجال الأمن وهم الذين يقومون بالجانب الأمني فيتقاضَوْن معدل 600 دولار أمريكي في اليوم الواحد؛ ويتقاضى العاملون من الدرجة الثالثة – أي الذين لديهم خبرة أقل ويتولَّوْن مَهماتِ الدعم والمسانــدة- قرابــة 450$ إلى 500$ في اليوم الواحد. ويكسب هؤلاء جميعاً مبلغ 150$ في اليوم مقابلَ نفقات السفر أو في الأيام التي يكونون فيها تحت الطلب.

ولغايــات بيان الحساب، تقوم بلاك ووتر بإضافة نسبة حصتها من الربح إلى تكلفتها الأساسيــة من الأجــور التي تدفعها، مضيفةً إليها نفقات أخــرى لتغطية النفقات العامة، والتدريب، والمعدات، والسكن، إلى ما هنالك، ثم ترسل بيان الحساب إلى شركة ريجنسي. فتأخــذ ريجنســي ذلك البيان وتضيــف إليه نفقاتها الخاصة، إن وجــدت، ثم تضيف إلى قيمــة البيــان نسبتها من الربح وترسلها إلى شركة إي أس أســ. وتأتي شركة إي أس أس بدورهــا فتضيف إليها نسبتها الخاصة من الربح وترسلها إلى شركة كي بي آر، فتأتي كي بي آر وتضيف إليها نسبتها من الربح قبل أن ترسلها إلى الحكومة الأمريكية اعتماداً على ترتيبــات عقد لوغكاب القائمــة على التكلفة زائد الربح. ولا يوجــد هنــاك وسيلة مساءلة أو تدقيــق في التكاليــف أو مستوى الأداء؛ لأن كي بي آر تعــد حسابات عقد لوغكاب سرية ولا تفصح عنها لدافعــي الضرائب أو الصحافيين. كما أن قيام أحد المتعاقدين بمناقشة العمــل الــذي أنجز لمتعاقد مثل بــلاك ووتر يمكــن أن ينتج عنه غرامة فوريــة بقيمة ربع مليــون دولار، وهو شرط متفــق عليه خطياً مع كل متعاقد. وليس هنــاك أي حافز لتقليص طبقــات التعاقد من الباطن؛ لأن كل إضافة من نسبــة الربح تستفيد منها جهة ما. وهذا

العقد بالتحديد يمر بأربعة مستويات من الربح قبل أن تقدم الخدمة الفعلية، وليس من المستبعد أن أجرة المتعاقد الأمني الذي يتقاضى 600 دولار في اليوم حين تصل إلى دافع الضريبة الأمريكي تصبح بالآلاف، والتكلفة المقابلة للجندي الذي يتمتع ببعض الخبرة هي 100$ إلى 250$ في اليوم. وحتى لو قام جنرال بأربع نجوم بتلك الخدمة فإن التكلفة لن تتعدى 450$ في اليوم.

ومع أنه قد قيل الكثير عن الأجور المرتفعة التي يتقاضاها المتعاقدون الأمنيون، إلا أن العقود التي يلتزمون بها تنص على العمل 24 ساعة، سبعة أيام في الأسبوع مقابل 600 دولار في اليوم، وهذا يعني أن المتعاقد يتقاضى 25$ في الساعة من دون أي فوائد أو ضمانات بالتوظيف خارج نطاق مدة العقد المبرم. والفائدة الكبرى التي يجنيها الجيش الأمريكي من استخدام المتعاقدين الأمنيين هي أن الجيش في حل من توفير تأمين طويل الأمد على الحياة وعلى الإصابة والإعاقة، والتقاعد بعد الخدمة، والتدريب، والمنافع والمكافآت، والتأمين الصحي. فالاعتماد على المتعهدين إذن يقدم للجيش تكلفة واحدة تدفع مرة واحدة دون أن يصاحبها أي التزامات أخرى قبل أو بعد تنفيذ العقد. وبذلك يكون المتعهدون أفضل مصدر للجنود الذين يستخدمون مرة واحدة ثم يُتخلص منهم، وهم مصدر متاح مرتفع الثمن للعضلات والحديد يمكن اللجوء إليه بسهولة حين تستدعي الحاجة، والتخلص منه بعد انقضاء تلك الحاجة.

ومع أن الشركات الأمنية الخاصة ليس لديها أي حافز لتخفيض التكلفة على الحكومة الأمريكية، إلا أن اختصارها بعض الطرق لتخفيف نفقاتها يمكن أن يزيد من معدلات ربحها. فعلى سبيل المثال، في عقد بلاك ووتر الثانوي مع شركة ريجنسي، يمكن أن يوفر استخدام السيارات العادية بدلاً من الناقلات المصفحة ربحاً إضافياً يقارب المليون ونصف المليون دولار لشركة بلاك ووتر، وقد اتفق في عقد بلاك ووتر المبرم في الثامن من آذار/ مارس مع شركة إي أس أس على أن يتألف فريق الحماية الشخصية من ستة أشخاص يستقلون سيارتين مصفحتين. غير أن الاتفاق الثانوي مع ريجنسي حذف منه شرط السيارات المصفحة، وحذف هذا الشرط كان مطلباً جوهرياً لبلاك ووتر وربما توقف عليه إبرام العقد. وقبل حادثة الفلوجة، ذكرت التقارير أن جون بوتر - وهو جندي

سابق في قوات سيل - طرد من العمل بسبب إشارته إلى خطورة هذا التغيير في شروط العقد. ومع أنه قد كثر الحديث فيما بعد حول هذا القرار في الدعوى القضائية التي رفعها ذوو المتعاقدين الذين لقوا حتفهم في حادثة الفلوجة، إلا أن كل واحد من هؤلاء المتعاقدين قد وقع عقداً مغرقاً في التفاصيل التي صيغت لحماية بلاك ووتر من أي مسؤولية.

ويوضح عقد الاستخدام الذي وضعته بلاك ووتر في ثلاث وعشرين صفحة بالتفصيل عدم مسؤولية بلاك ووتر في حالة تعرض المتعاقد إلى الإصابة بجروح، أو التشويه، أو الأضرار المعنوية الناتجة عن أعمال «الإرهابيين» أو حتى «موظفي الحكومة الأمريكية». وينص العقد على قائمة مثيرة لمصادر الخطر: التعرض لإطلاق النار، الإصابة بعاهة دائمة، الموت بسبب إطلاق النار، السقوط من طائرة عادية أو مروحية، التعرض لنيران القناصة، الألغام، نيران المدفعية، قاذفات الصواريخ، الشاحنات أو السيارات المفخخة، الزلازل والكوارث الطبيعية، التسمم، العصيان المدني، النشاطات الإرهابية، الاقتتال بالسلاح الأبيض، المرض، فقدان السمع، فقدان البصر والإصابة في العين، استنشاق المواد الكيماوية والجرثومية أو التعرض لها (سواء كانت بطريق الهواء أو غيره)، الإصابة بجروح نتيجة الشظايا المتطايرة. ويحدد العقد صراحة أن المسؤولية عن التأمين تقع على المتعاقد، والطريق الوحيد الذي يمكن للمتعاقد أن يقاضي فيه الشركة بلاك ووتر هو التأمين بموجب قانون الدفاع الأساس، وربما بعض النجدة من الجيش الأمريكي إذا حوصر المتعاقدون وسط الزحام، إلا أن احتمالات الحصول على مثل هذه المساعدة تبقى بعيدة وغير متوافرة في المناطق المحفوفة بالمخاطر.

كانت بلاك ووتر تتولى القيام بالخدمات التي كانت تقوم بها شركة كونترول ريسكس غروب (سي آر جي)، حيث قررت هذه الأخيرة الانسحاب من عملياتها الأمنية في الثامن عشر من آذار/ مارس، على أن يجري استكمال جدول انسحابها الكامل من العراق بحلول التاسع والعشرين من الشهر. ومدة الثلاثين يوماً المنصوص عليها في عقد بلاك ووتر الأصلي للبدء بتنفيذ العقد كانت ستترك شركة إي إس إس دون تغطية أمنية من الثامن والعشرين من آذار/ مارس حتى الثامن من نيسان/ إبريل. ولما كان كل يوم يمضي في انتظار البدء بتنفيذ العقد يعني خسارة في الربح، فقد قامت بلاك ووتر بخفض مدة

التحضيرات اللازمة للبدء بتنفيذ العقد؛ كي تبدأ العمل في الثاني من نيسان/ إبريل. وحين تبين أن شركة إي أس أس ستحتاج إلى فريق حراسة لمرافقة نقل بعض معدات الطهي في الثلاثين من مارس. بذلت إدارة بلاك ووتر قصارى جهدها لإرسال فريق الحراسة في الموعد المبكر، وجرت العادة في الأوضاع التي تنتقل فيها مهمة الحراسة من شركة إلى أخرى أن يمضي الفريق الجديد بضعة أيام في مرافقة الفريق القديم؛ لكي يطلع على التضاريس ومواطن الأخطار التي يمكن أن يواجهها، غير أنه وبسبب الجدول الزمني المضغوط، جرى وضع فريق بلاك ووتر للعمل منذ اليوم الأول، ولم تتح لهم فرصة التعلم والاستفادة من خبرة سي آر جي.

إضافة إلى ذلك، تتطلب إجراءات العمل الصادرة عن وزارة الخارجية إشعاراً لا يقل عن أربع وعشرين ساعة قبل التحرك، وذلك للقيام بتحضيرات متقدمة مثل استطلاع الطريق المزمع استخدامه، والنظر في طريق بديل، ووضع تعليمات للإخلاء، وكتابة تقرير مفصل للمتعاقدين الأمنيين وعادة ما تكون في شكل مستند باور بوينت مرفقة بمنشور وشفرات للاتصال. وما حدث في هذه المرة كان شيئاً مختلفاً. وكبقية الكوارث التي يمكن تجنبها، فإن سلسلة من الأخطاء الصغيرة والكبيرة أفضت إلى القتل العنيف الذي لقيه سكوت هيلفنستون، ومايك تيغو، و ويسلي باتالونا، وجيري زوفكو.

يمثل هؤلاء الرجال الأربعة شريحة قياسية لخليط العاملين في بلاك ووتر؛ فأكبرهم سناً وهو ويسلي باتالونا كان يبلغ من العمر 48 عاماً، وله خبرة 20 عاماً في الجيش الأمريكي، وتقاعد برتبة رقيب في قوات الرينجرز، وهو من السكان الأصليين لجزيرة هاواي. وقد كان ويسلي يعمل حارساً أمنياً في قرية سكنية تدعى (قرية هيلتون ويكولوا) الواقعة في القسم الأكبر من جزر هاواي، حين بدأت الحرب العراقية، وتذكر التقارير أنه كان ينوي البدء في برنامج لمساعدة الشباب ذوي السلوك المنحرف، وكان بحاجة إلى مبالغ كبيرة من المال لسداد أقساط منزل والده المريض؛ كي يحول دون استرداد شركة التمويل العقاري له وبيعه بالمزاد العلني، وهما أمران يحتاجان إلى مبالغ طائلة من المال لم تكن متوافرة لدى ويسلي. وبعد خروجه من الخدمة العسكرية قبل عشر سنوات، شدّ إغراءُ العودة إلى العمل العسكري ويسلي إلى عالم الشركات الأمنية الخاصة، وبرز

باتالونا ذو الشعر الفضي والجسم الرياضي اللائق فوق أقرانه من المتعاقدين في العراق، ليس بسبب تقدمه في العمر، بل لنزوعه إلى لبس القمصان الهَوَّاييّة[1] ذات الألوان الزاهية في أثناء الخدمة. وفي الوقت الذي لقي فيه حتفه، كان قد مضى على عمله في العراق مع شركة بلاك ووتر شهران. وكان يعمل قبلها في عقد مع شركة إم بي آر آي في ربيع عام 2003. وفي هذه الشركة تعرّف ويسلي إلى زميله جيركو جيرالد المعروف بلقب (جيري) زوفكو، وهو الأصغر سناً في المجموعة، ويبلغ 32 عاماً من العمر.

ينحدر زوفكو من أصل كرواتي، وهو من مواليد مدينة كليفلاند بولاية أوهايو في الولايات المتحدة، وقد التحق بالجيش عام 1991 وخدم في وحدة الشرطة العسكرية 82- في مدينة فورت براغ، ثم اجتاز بنجاح متطلبات الالتحاق بقوات الرينجرز- ولكنه لم يلتحق بالمعهد. كان زوفكو شاباً بديناً، يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات (192سم)، ويزن 235 باونداً (106.5 كيلو غرام)، وخدم مع الجيش الأمريكي في كرواتيا، وحين شارفت خدمته على الانتهاء، قرر زوفكو أن يتحوّل إلى مهنة جديدة أكثر متعة من وظيفة الحارس الأمني أو نائب شريف المدينة. وفي نهاية عام 1997، بدأ عمله متعاقداً أمنياً مع شركة دينكورب في قطر، وتعلم اللغة العربية في أثناء وجوده في الشرق الأوسط، ثم انتقل إلى العمل مع إم بي آر آي في خريف عام 2003 للقيام بتدريب الجيش العراقي في كيركش. ونشأت أواصر صداقة بينه وبين باتالونا، حيث جمعت بينهما المهمة الصعبة في تدريب الجنود العراقيين الذين يفتقرون إلى التنظيم، والمعنويات العالية، والخبرة. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، توجه الجنود العراقيون إلى بيوتهم في إجازة لقضاء شهر رمضان مع ذويهم، ولكن عدداً قليلاً منهم عاد إلى الجيش؛ ولعل ذلك كان بسبب خوفهم من القتل على يد المقاومة العراقية، أو بسبب نفورهم من التدريب الشاق والمجهد على يد المتعاقدين. وبدأ باتالونا وزوفكو بالبحث عن فرص عمل جديدة، فعملا معاً في شركة كوشايز (حيث فصل الاثنان من العمل بعد وقت قصير) ومن ثم انتهى بهما المطاف إلى بلاك ووتر.

1- نسبة إلى جزر «هاواي» وهذه اللفظة العربية الشائعة لهذه الجزيرة تؤدي إلى خلط في اللفظ لا يطابق الطريقة التي تلفظ بها في الإنحليزية، وتلفظ بالإنجليزية بثلاثة مقاطع مع تشديد نبرة الصوت على المقطعين الأوسط والأخير هكذا «هَوَّايِي»؛ لأن الكلمة تكتب هكذا (Hawaii).

ضـم الفريق الهالـك جندياً سابقاً آخـر من قوات الرينجر هو مايـكل -آر- (رجل الثلج) تيغ، حيث كان رأس الحربة في فوج سوار المئة وستين (وسوار هي اختصار الفوج الجـوي للعمليات الخاصـة) المتمركز في مدينة فـورت براغ بولاية كارولينـا الشمالية. أمضى تيغ 12 عاماً في الجيش، وخدم في بانامة، وأفغانستان، وهو رب أسرة ينحدر من مدينـة كلاركسفيل بولاية تينيسي. وقد تقاعد من وقت قريب، وقرر أن يصبح متعاقداً أمنيـاً بعد أن وجـد صعوبة في تأمين عمل يعيل به زوجه وابنه عدا العمل بوظيفة حارس شخصـي بأجر متدن. وبوصفهم جميعاً مـن الجنود السابقين، فقد نشأت بين باتالونا، وزفكـو، وتيـغ علاقـة قَبَلِيَّة تحتـاج إلى مترجم خاص لتفسـير مفرادتهـا، وتكتيكاتها، واصطلاحاتها المختصـرة.

أما العنصر الغريب في الفريق فكان سكوت هيلفنستون. حيث سحب من فريقه القديم المكون من عناصر سابقة من قوات سيل، وطلب منه في اللحظة الأخيرة أن يحل محل أحد الذين تغيبـوا من عناصر الفريق الذي لقي أفراده حتفهم في الفلوجة. أدرك هيلفنستون أن فريقـه الجديد يفتقـر إلى الترابط بين أعضائه؛ إذ يعرف عـن أفراد الرينجرز أنهم يحبـون التآزر معاً، وينظرون إلى عناصر قوات سيـل بوصفهم صبية منعمين لا يحسنون التصرف في الظروف الصعبة. والآن أصبح بينهم فرد ليس له خبرة في القتال ولكنه يمثل النمـوذج التقليدي الأمثل في قوات سيل. لقد كان ستيفن «سكوت» هيلفنستون والبالغ من العمـر 38 عاماً من أفراد قوات سيل ذوي الشهرة والنجومية؛ إذ عمل مستشاراً عسكرياً في بعض أفلام هـالي وود الكبيرة مثل فيلـم (فيس أوف) (المواجهـة)، ومن بين نجوم هـذا الفيلـم جون ترافولتـا، وفيلم (النينجا الثلاثـة). وظهر كذلك علـى الشاشة حيث مثـل دور مـدرب لقوات سيل في فيلم ريـدلي سكوت 1997 جي آي جـين. وكان سعيه إلى الشهرة إضافة إلى مظهره الحسن سبباً في ظهوره نجماً في برنامج مارك برينت للدراما الواقعيـة المرتجلة واسمه مهمـة حربية، وهي لعبة صراع بقـاء في مواجهة جنود سابقين ورجال شرطة . وفي برنامج رجل في مقابل وحش، حيث سابق القردة، وكان وجهه مألوفاً لأي شخـص يشاهـد برامج التلفاز التي تبث بعد منتصف الليـل، حيث كان يعمل مروجاً لمعـدات التمارين الرياضية، كما أنه أنتج سلسلة من أفلام التمارين الرياضية على غرار

تمارين قوات سيل. وكانت أبرز عوامل نجاحه في البيع، شعره الأشقر، ومنظره الحسن، وابتسامته العريضة، وعضلات ساعديه المفتولة. وكان العاملون الذين خدموا في الشركة مدة طويلة يستغربون من عدم ذهاب «سكوتي بود» إلى فريق الحرس الشخصي لبول بريمر، أو كما يسمى في أوساط المتعاقدين «فريق الفتية الوسيمين».

وبحلول عام 2001، كان سكوت يعاني أزمة مالية خانقة، حيث توقفت مهنته في التمثيل، كما أن أشرطة اللياقة والتمارين الرياضية التي أنتجها لم تنتج دخلاً يكفي لتغطية نفقات الدعاية والإعلان التي أنفقت عليها؛ فاضطر سكوت إلى إشهار إفلاسه وبيع منزله في كاليفورنية والعمل بوظيفة حارس أمني في تجمع للمباني. ومع دخل سنوي يقل عن 15 ألف دولار في السنة، وإعالة اثنين من الأولاد بالإضافة إلى زوجه، كان وضعه الشخصي في حالة يرثى لها؛ فقرر سكوت أن يتقدم بطلب للعمل لدى بلاك ووتر، فَقُبِلَ طلبه على الرغم من السياسة المتبعة في بلاك ووتر بعدم توظيف الأشخاص الذين يعانون من صعوبات مالية، وقد قام مدير الشركة غاري جاكسون، وهو نفسه ضابط سابق في قوات سيل، بالالتفاف على أنظمة وتعليمات الشركة في سبيل قبول طلب سكوت، وهذا أمر غير مستغرب. فالجنود السابقون يدركون جيداً صعوبة الحياة خارج الجيش، كما أن هناك شعوراً بالاعتزاز توفره بلاك ووتر في الفرصة الثانية التي يُسْمَحُ فيها للجندي السابق بالعودة إلى الإثارة والمغامرة، والعمل مع الرفاق السابقين، وخدمة المجتمع. أما حقيقة أن المتعاقدين يقدمون على العمل في ظروف محفوفة بالمخاطر لأسباب مالية فلا تجري مناقشتها، ولكنها تقدم حافزاً ظاهراً للمتقدم للعمل لإلقاء نظرة سريعة على العقد والتوقيع فوق الخط المنقط. وها هو سكوت يوشك على تحقيق الشهرة التي طالما كان ينشدها، ولكنها هذه المرة في فيلم واقعي درامي مرتجل، جرى بثه على شاشات التلفاز حول العالم.

التحق هيلفنستون بالعمل في شركة بلاك ووتر مطلع آذار/ مارس من عام 2004، وتلقى تدريباته في المركز الرئيس للشركة في مويوك في نورث كارولينا، ثم أرسل إلى الكويت ضمن فريق الأمن والحماية في عقد شركة إي أس أس، وكانت فاجعة أسرة هيلفنستون هي الأشد؛ لأن سكوت لم يكن مفترضاً أن يكون في المكان الذي لقي فيه منيته.

كان من المقرر أن يكون تي-بوي الجندي السابق في قوات المارينز من ولاية كاليفورنية والبالغ من العمر 37 عاماً، ضمن فريق أربعة الرجال الذين لقوا حتفهم في الفلوجة. ولكن فاته اللحاق بالفريق بسبب تأخر طائرته المتوجهة إلى الكويت. ويقول تي بوي: «في الوقت الذي توجهت فيه إلى الفندق، كان فريق «نوفمبر - 1» في طريقه متوجهاً إلى بغداد؛ فَحَلَّ سكوت هيلفنستون محلي بسبب تأخري، وقتل بعدها بيومين، وقد أبدى عدد من الأشخاص امتعاضهم مني لبعض الوقت بعد ذلك الحادث. إنهم لم يفهموا ما حدث لرحلتي الجوية، وكل ما يعرفونه هو أن صديقاً عزيزاً على قلوبهم قتل بدلاً مني حين حل مكاني في الفريق الذي لقي جميع أفراده الموت.

ويلاحق كابوس مرعب تي بوي حين يستحضر حادثة القتل المروعة في ذهنه ممزوجة ببعض الشعور بالذنب: «ظن بعض الأشخاص الذين يعملون معي أنني لم أعد صالحاً للعمل هنا بسبب عدم الاستقرار النفسي، وحاولوا فصلي من العمل. ولا أحد يعرف كيفية التعامل مع الموت إلا بعد أن يقع. وها أنا الآن، بعد سنة من الحادثة، مازلت في العراق، وأقوم بما أعتقد أنه العمل الصحيح».

كان المدرب الذي درب سكوت في مقر بلاك ووتر في مويوك هو جستن (شرك) ماكوان، وهو جندي سابق من قوات المارينز، وكان ترقى من منصب مدرب إلى منصب مدير مشروع تنفيذ عقد إي أس أس في الكويت. وفي أثناء مدة التدريب شجرت مشاحنة وخصومة بين سكوت وجستن واستمرت هذه العداوة بينهما في الكويت. وحين تأخرت طائرة تي- بوي وتغيب عن موعده، اختار «شرك» أن يضع سكوت محل تي-بوي في فريق «نوفمبر - 1» المتوجه إلى العراق. وبينما كان سكوت يتناول عشاءه في وقت متأخر من الليل في الثامن والعشرين من الشهر، جاء شرك إليه، وطلب منه أن يحزم متاعه ويستعد للتوجه إلى بغداد في الساعة الخامسة صباحاً. في البداية حاول سكوت التملص من هذه المهمة مدعياً بأن صحته معتلة. ومع أن متعاقداً آخر تطوع للذهاب مكانه، إلا أن شرك جاء إلى غرفة سكوت وبدأ يوبخه ناعتاً إياه بالجبان والخائر، ثم صادر سلاحه صارخاً في وجهه بأنه مفصول من العمل. وكانت تلك المواجهة كافية لدفع سكوت إلى إرسال رسالة إلكترونية إلى المقر الرئيس لبلاك ووتر، وصف فيه ما حدث وطلب منهم التدخل. وحين

جاء الصبح ولما يتلق سكوت أي رد من المقر الرئيس للشركة على رسالته الإلكترونية، حزم أمتعته وتوجه إلى بغداد.

كانت مهمة فريق «نوفمبر - 1» هي مرافقة قافلة من الشاحنات التابعة لشركة إي أس أس تحمل معدات وأدوات طبخ من تاجي إلى معسكر ريجوي، وكان عليهم بصفتهم حراساً مرافقين أن يراقبوا أي حركة مريبة أو أي شيء غريب وغير طبيعي في طريق القافلة، وردع أي هجوم على القافلة، وإذا حدث اشتباك، فعليهم أن يشغلوا العدو حتى تتمكن القافلة من الانفلات. كانت أسلحتهم مكونة من بنادق إم - 4 ومسدسات غلوك، وهي أسلحة اعتادوا استخدامها في الجيش، غير أنهم لم يكونوا على معرفة بتضاريس المكان، ولم تكن لديهم فكرة عمن هو العدو، ولا عن مكانه. وهذه معلومات لا يمكن أن تتأتى إلا بالخبرة والتجربة. لقد كان فريق «نوفمبر - 1» فريق حراسة عادي مؤلف من رجال ذوي خبرة وما يكفي من المهارة لإخراجهم من أي ورطة ولكنهم لم يسبق لهم أن عملوا معاً، وكانوا يفتقرون إلى التلاحم فيما بينهم. إضافة إلى ذلك، كانوا يعانون من نقص العدد. ومع أنه كان باستطاعة بلاك ووتر أن ترسل فريقاً مكوناً من ستة رجال جرياً مع بنود العقد المبرم مع إي أس أس، الذي يشترط أن يتألف فريق الحراسة من ستة أشخاص على الأقل، إلا أن المدير في بغداد توم باول قرر أن يرسل في ذلك اليوم فريق حراسة مكوناً من أربعة رجال فقط.

ومن بين جميع الخيارات التي مارستها إدارة بلاك ووتر وثارت حولها الشكوك، كان قرار إرسال فريق حراسة مكون من أربعة أشخاص هو أكثر ما أزعج تي-بوي. «إن مسألة أربعة رجال لا تزال لغزاً محيراً لي حتى هذا الوقت: كانت كل الفرق مكونة من ستة رجال، وخفض هذا العدد إلى أربعة هو قرار اتخذه توم باول، وإرسال فريق إلى العمل بهذا العدد حدث مرتين في أثناء عملي مع بلاك ووتر. وكان فريق «نوفمبر - 1» هو المرة الثانية. في المرة الأولى كُلّف فريقي بمهمة التوجه إلى الحدود الأردنية لاستقبال واحد أو أكثر من الشخصيات المهمة ومرافقتهم إلى بغداد... تأخرت أنا وعامل آخر بأمر من توم باول فيما توجه بقية الفريق لإتمام المهمة. قيل لنا إنّنَا سنساعد توم في التحرك إلى مكان ما، وأنه كان بحاجة إلى بعض الأشخاص لمساعدته. وظننت أن شخصين آخرين

من الفريق الآخر كانوا سيقدمون المساعدة، ولكنّ ذلك لم يحدث... واليوم يدرك الجميع أنه كان من الجنون أن يقترح أحد القيام بتلك الرحلة في ظل تلك الظروف»

تقضي أدنى متطلبات الفريق الأمني الذي يرافق القوافل أن يكون في كل سيارة مرافقة سائق وقناص في المقعد الأمامي وقناص في المقعد الخلفي للحفاظ على مسافة بين القافلة وبين السيارات التي تسير خلفها وللتعامل مع أي شخص يحاول تتبع القافلة. وجعل رجلين اثنين في السيارة الواحدة يعني أن السائق عليه أن يراقب الجهة الواقعة أمامه وعن يمينه والجانب الخلفي إضافة إلى قيادة السيارة. وحتى لو كان السائق يملك عيناً ثاقبة وسرعة في الرد، إلا أن بندقيته لن تكون جاهزة، بل تكون موضوعة في حجره، ومسدسه على جنبه. وعلى القناص الجالس إلى جانبه أن يراقب الجانب الأيمن كاملاً إضافة إلى المؤخرة. ولكن لا يمكنه التعامل مع خطر إطلاق النار القادم من المقدمة. وهذا الوضع يجعل السيارة مكشوفة لكمين يأتي من المؤخرة على شكل هجوم كر وفر ولإطلاق نيران مستمر إذا كان على المتعاقدين الإسراع في سيرهم. إن وجود سيارة أخرى وبداخلها اثنان من الرجال ليس له أثر في مضاعفة فاعلية القوة ولكنه يوفر سيارة للفرار أو للوقوف المزدوج بجانب السيارة الأولى لإطلاق النيران إذا ما تعرضت إحدى السيارات لإطلاق نارَ طرفٍ معادٍ.

وفي مخالفة أخرى لمواد العقد بين بلاك ووتر واي أس أس. وكما ذكرنا آنفاً، فإن فريق «نوفمبر - 1» لم يكن يستخدم سيارات مصفحة، وهناك جدل حول أفضلية استخدام السيارات المصفحة على السيارات غير المصفحة. والحقيقة أن ثمة إيجابيات وسلبيات لكل نوع؛ فالسيارات غير المصفحة تمكّن الفريق من إطلاق النار من النافذة المفتوحة وملاحقة السيارات المهاجمة، كما أنها توفر درجة عالية من الوعي بما يدور خارج السيارة؛ وذلك لسهولة سماع الأصوات القادمة من الخارج. أما السيارات المصفحة فيتطلب الأمر فتح الباب جزئياً لسماع ما يجري في الخارج؛ لأن النوافذ ذات الزجاج المقاوم للرصاص تكون محكمة الغلق، ولا يسمع الصوت من ورائها. وتستخدم بلاك ووتر سيارات باجيرو بعد أن قامت على عجل بإضافة صفيحة حديدية على الواجهة الخلفية لتوفير الحماية للقناص الجالس في المقعد الخلفي. غير أن هذا الإجراء لم يكن له أي نفع؛ لأن القناص في فريق «نوفمبر - 1» اختار الجلوس في المقعد الأمامي.

وتذكر التقارير أن بلاك ووتر كانت تريد أن تبرهن لشركة إي أس أس أنها قادرة على مواجهــة التحدي في هذا الجــدول الزمني المضغوط، ويبــدو أن الإدارة كانت تحت ضغط مكثف لإرسال الرجال. وقد أدرك تي-بوي بعد وصوله الكويت حجم المخاطر التي قبلت بها بــلاك ووتر في سبيل جعــل الفريق جاهزاً للعمل وتشغيله قبل الوقت المحدد. وكان الافتقار إلى المــوارد والرجال هــو القضية التي يدور حولهــا أكثر النقاش. لقــد كان بعض أعضاء الفريق أكثر خبرة من بعضهم الآخر، إلا أن الشعور العام لدى المتعاقدين هو أن هذا العقد سيكــون مآله الهلكة... وبعد ما تبــين لي الآن، فإنني لن أقبل بالعمل في مثل هذه الظروف مــرة أخــرى. لم يكن لدينا القيــادة الصحيحة ولا المعدات الصحيحــة لإنجاز المهمة. كنا نتحــرك بسرعة، ولم يسبــق لأكثرنا أن مر بظرف كهــذا. كان التدريب مختصراً في ذلك الوقت، وكنا نستخدم أسلحة شبه آلية، ولم يكن لدينا بنادق آلية. على خلاف ما ينص عليه العقد. وكذلك كانت سيارتنا غير مصفحة بخلاف ما ينص عليه العقد. لم يكن هناك ما يكفي من الترابط بين أعضاء الفريق بما يسمح بوضعهم في مناطق معادية وإنجاز المهمة بسرعــة. ويبدو لي أن ما كان يشغل بال القائمــين على الشركة هو الجدول الزمني، ونحن جميعــاً نعلم ما يعنيه ذلك: إنّه يعني الدولارات. كان الاستعجال، الاستعجال، الاستعجال، هو سيدَ الموقف منذ البداية. لم يكن أمامنا فرصة حقيقية للنجاح».

بــدأت أول قــوة أمنيــة مرافقة لشركــة إي أس أســ عملها قبل أيام مــن موعد البدء بتنفيذ عقد بلاك ووتر، إذ كان باول يرسل قوات حراسة رمزية لا يمكنها حماية نفسها، فكيــف بحمايــة الشاحنات الكبيرة التي أبرم العقد لحمايتهــا؟. أي إنَّه كان يوفر حماية اسميــة وليســت فعلية، وقرر باول إرســال فرق ناقصة العدد والعتــاد ليس إلى «منطقة» محفوفة بالمخاطر بل إلى «عمق» أكثر المناطق خطراً في العراق، ذلك أن المناطق المحيطة بالفلوجــة كانــت في ذلك الوقت مشهــورة بأنها قاعدة انطلاق المقاومــة المعادية للوجود الأمريكي في العراق.

في ربيع عام 2004، وبعد عام واحد من الوجود الأمريكي في العراق، كان العنف يتطور إلى درجــة الفوضــى مع تزايــد عمليات الخطــف والهجمات المسلحــة. وانتشرت مشاعر الغضــب لــدى ســكان المثلث السني تحديــداً بعدما تبــين أن الولايات المتحــدة لم تستطع

التخفيف من موجة العنف، بل ظهرت من الناحية الفعلية أنها تزيد من حنق المقاومة بما تصدره من «أوامر» تعزز من شعور العراقيين بأنهم يعيشون تحت احتلال عسكري أمريكي. وبدأت النظرة إلى الأمريكيين بوصفهم قوة اضطهاد تحل محل النظرة التي تراهم قوة تحرير.

وكانت الفلوجة، إلى جانب الرمادي وغيرها من مدن المثلث السني، قلاعاً حصينة للمقاومة العراقية الآخذة بالتوسع بسرعة، وكانت عصابات الخطف، والمقاومة، والبعثيين السابقين يستخدمون الفلوجة قاعدة انطلاق لعلمياتهم. وفي مطلع شهر آذار/ مارس، اتخذت قوات المارينز من فرقة المظليين 82 مواقع لها حول ضواحي المدينة، غير أن سياستهم كانت تقضي بعدم الدخول في معارك قتالية داخل المناطق السكانية وسط الفلوجة. وعمدت بدلاً من ذلك إلى توجيه تركيزها على قطع الطرق الخارجية على المقاومة والقيام بعمليات استطلاع بأعداد كبيرة. وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وقعت حادثة قام فيها الجنود الأمريكيون بإطلاق النار على مجموعة من المتظاهرين، وهي الحادثة التي يشير إليها قادة المدينة بوصفها الشرارة التي كانت وراء الاحتفال الدموي الذي أبداه سكان البلدة بعد موت المتعاقدين. حيث خرج سكان الفلوجة إلى الشوارع احتجاجاً على احتلال الجيش الأمريكي أمام مبنى يعود لإحدى مدارس المدينة، ولكن الجنود يقولون: إنه كان بين المتظاهرين من يحمل السلاح. ولقي سبعة عشر من سكان الفلوجة حتفهم في تلك الحادثة.

لاحظ سكان الفلوجة إلى جانب الوجود العسكري الأمريكي، أن ثمة مجموعات من رجال أجانب تبدو عليهم ملامح الجنود ولكنهم بملابس مدنية يروحون ويجيئون في المنطقة ويقومون بأعمال تدعم الاحتلال الأمريكي. ويمكن تحديدهم بسهولة من نظاراتهم الشمسية، وشعرهم القصير، وملابس السفاري التي يلبسونها، وأكثر من ذلك من أسلحتهم. حيث كانوا ينتقلون من القواعد العسكرية إلى الفنادق في العراق مستقلين حافلات حنطية اللون أو سيارات بيضاءَ رباعية الدفع، شاهرين سلاحهم بأسلوب استفزازي للمحافظة على مسافة طويلة بين قوافلهم وبين العراقيين العاديين، وكانت الفكرة الشائعة في الشارع العراقي أن هؤلاء هم عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وأعوانهم من المرتزقة،

ولم يكن لـدى سكان الفلوجة أدنى اهتمام بالتمييز الدقيق بين العسكريين الحقيقيين وبين المتعاقدين العسكريين من المدنيين؛ فهم كلهم العدو.

وفي التاسـع والعشرين من آذار/ مارس، مكـث فريق الأول من «نوفمبر - 1» في فندق قـديم في بغداد كانـت بلاك ووتر تتخذه مقـراً رئيساً لها في العـراق. وفي اليوم اللاحق، كان مقرراً أن يتجهوا إلى مدينة تاجي شمالي بغداد، لملاقاة ثلاث شاحنات فارغة تابعة لشركـة إي أس أسـ ومرافقتها إلى معسكر ريجوي، إلى الغرب من بغداد والفلوجة، لنقل بعضـ أدوات الطهي. ويعتقد تي-بوي أن الرجال كانـوا يعلمون أنهم غير مستعدين تمام الاستعـداد لهذه المهمة: «إنني أعلم أن ويسلي، وجيري لم تكن لديهما رغبة في تنفيذ هذه المهمـة، وقد سمعت أنهما أبديا معارضتهما لهذه المهمة لتوم باول، وأعتقد أن ذلك حدث في الليلة السابقة، غير أنهما –طبعاً- استمرا في العمل ونفذا ما طلب منهما».

عمل باتالونا وزوفكو في المنطقة قبل تلك الحادثة، غير أن هيلفنستون وتيغ لم يسبق أن وطئت قدماهما تلك المنطقة. ويبدو أن الرجال الأربعة كانوا يجهلون طريقة سير الأمور، ويذكـر أحد المصادر في بلاك ووتر أنهم في الليلة السابقة للحادثة، سأل الرجال موظفي الاستقبال في الفندق عن كيفية الوصول إلى المنطقة التي يقصدونها. وقد ثار جدل واسع في الـرأي العام الأمريكي حول التقارير التي ذ كرت بأن المتعاقدين قد دخلوا إلى منطقة غـير مألوفة لهم ومحفوفة بالمخاطر إلى أبعـد حد دون أن يكون معهم خريطة ترشدهم. وفي حـين يعلم تي-بوي أن الإدارة في بـلاك ووتر لم تعط الفريق خريطة، إلا أنه يجد من الصعـب التصديق بـأن الرجال بدؤوا رحلتهـم من دون أن يكون معهـم خريطة للطريق للاسترشاد بها من مصدر آخر.

«نقلـت التقاريـر أنه لم يكن معهم أي خريطة للمنطقة، ولسـت متيقناً من صحة هذا القول؛ أي إن كانوا قد حصلوا على خرائط للفلوجة من مصدر آخر. إنني أعلم أن بلاك ووتر لم تعطهم أي خرائط؛ لأنه قيل لنا في السابق: إنهم لا يملكون خرائط لتلك المنطقة. ولم يكـن قولهم هـذا صحيحاً، بالطبـع، لأنني أنـا شخصياً وجدت عـدة خرائط لمدينة الفلوجـة في اليـوم الذي وقعت فيـه الحادثة- ولكن قبل أن نعلم مـا كان يحدث- من بين عـدد كبـير من خرائط العراق والمنطقـة بكاملها. وقد كلفت في ذلـك الصباح بفرز تلك الخرائـط، ومع علمي ممـا قيل لنا بأنهم لا يملكون خرائط لمدينـة الفلوجة، فقد دهشت

حـين وجدت تلك الخرائط». ولم يفكـر تي-بوي بتلك الخرائط إلى حـين قرأ الاتهامات التي وجهتها أسر المتعاقدين الذين قتلوا في تلك الحادثة.

وصل فريق الأول من «نوفمبر - 1» إلى تاجي لملاقاة شاحنات إي أس أس ولكنهم ضلوا طريقهـم حين كانوا يحاولون العثـور على طريقٍ يوصلهم إلى معسكر ريجوي. وبحسب ما جـاء في الدعـوى التي رفعهـا ذوو المتعاقدين القتلى على بلاك ووتر، فـإن القافلة توقفت في معسكـر الفلوجـة، وهـي قاعدة عسكرية على بعـد خمسة كيلومـترات إلى الشرق من الفلوجـة، حيث أمضوا ليلتهم هناك، مـع أن بعض التقارير غير الموثقة تذكر أنهم ذهبوا إلى أحـد الفنـادق. غـير أن المعروف علـى وجه مؤكد هـو أنهم انطلقـوا في صباح اليوم اللاحـق الموافـق 31 من آذار/ مارس متجهين غرباً على الطريـق يأخذهم مباشرة إلى قلـب المناطق المعاديـة في الفلوجة. حيث استقل باتالونا وزوفكـو سيارة الباجيرو الزرقاء في مقدمـة القافلة، في حين استقل هيلفنستون وتيغ سيـارة الباجيرو الحمراء في مؤخرة القافلـة المكونة من خمس مركبات. ولو كان فريق الحراسة يدرك فداحة الخطر المُقْدِم عليـه في وسط الفلوجـة؛ لسلكوا الطريق المباشر الدائري حـول الفلوجة وإن كان سيأخذ منهـم ساعتين إضافيتين في القيادة. وعلى كل حال، فهم إما أنهم كانوا يجهلون الخطر، أو أنهم كانوا يظنون أن باستطاعتهم اجتيازه.

ومـن عـادة القوافل أن تتجنب المـرور بالمناطق السكانية المأهولة مـا أمكن، ولا سيما المناطـق المعادية كالفلوجة؛ لأن الشـوارع المحاطة بالبنايات هي أفضـل غطاء للقناصة، كما أنه يسهل سد المنافذ التي يمكن الفرار منها إذا وقعت القافلة في كمين. وتقول إحدى النظريات التي تفسر ما حدث: إن القافلة كانت تنوي الانضمام إلى فريق من قوات الدفاع المدني العراقي الأمريكي التدريب عند المدخل الشرقي للمدينة وذلك لمرافقتهم في اجتياز وسـط المدينة وتعزيز القوة النارية للقافلة فيما لو تعرضت للهجوم. غير أن هذه الخطوة تتطلـب ترتيبـاً من الليلة السابقة، ولا يوجد دليل علـى أن المارينز في معسكر الفلوجة، أو أن المتعاقديـن أنفسهم قـد تقدموا بهذا الطلب. ويرى تحقيق داخلـي خاص غير منشور قامـت به بلاك ووتر بعد الحادثـة أنَّ المتعاقدين غادروا معسكر الفلوجة سالكين الطريق السريع 10 حتى وصلوا إلى المنظر القبيح للمنطقة الصناعية الشرقية في نهاية الفلوجة، حيـث توقفوا عند نقطة تفتيش تابعة لقوات الدفاع المـدني العراقية نحو الساعة التاسعة

صباحاً بحسب ما جاء على لسان أحد كبار المسؤولين في شركة بلاك ووتر، ويدعم هذه النظرية اتصال هاتفي أجراه المتعاقدون مع المقر الرئيس لبلاك ووتر في بغداد وكذلك شهادة شهود عِيان.

وعلى ما يبدو، فإن حافلتين تابعتين لقوات الدفاع المدني العراقي مملوءتين بأفراد تابعين لتلك القوات يلبسون الزي الموحد الحنطي عرضوا عليهما مرافقتهما إلى وجهتهم المقصودة، فتوجه الجميع في طريق بديل عبر الازدحام المروري في الفلوجة. وبحسب ما يقوله شرطي عراقي كان يعمل على التقاطع الرئيس المؤدي إلى وسط المدينة في ذلك الصباح، أن فريق بلاك ووتر توقف لسؤاله عن إرشادات الطريق إلى معسكر ريجوي، وهو ما يوحي بأنهم ربما كانوا غير واثقين بنوايا قوات الدفاع المدني العراقي المرافقة لهم. ثم تابعت القافلة مسيرها نحو المدينة ثم توقفت عشر دقائق بعد أن قطعت ثلاث مئة ياردة من التقاطع بسبب الازدحام المروري. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف صباحاً، بدأت السيارات بالتحرك، وواصلت القافلة المكونة من ثلاث شاحنات مرسيدس حمراء، وسيارتي الباجيرو التابعتين لشركة بلاك ووتر، وشاحنتين تابعتين لقوات الدفاع المدني العراقي، حركتها ببطء. وكانت الشاحنتان العراقيتان تتقدمان القافلة وخلفهما باتالونا وزوفكو، في حين كان تيغ هيلفنستون في حماية المؤخرة.

وبعد ميل ونصف الميل داخل الفلوجة، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون فيه على الطريق السريع - 10 صوب قلب المدينة، توقفت الشاحنتان العراقيتان فجأة. ونتيجة لذلك توقفت القافلة بكاملها. حينئذ، ومن غير تأخير، برزت من السوق المجاور مجموعة من الشبان الملثمين بالكوفيات العراقية يحملون بنادق إي كي – 47 وبدؤوا من فورهم بإطلاق النار باتجاه المتعاقدين من الخلف. ومن تلك المسافة القريبة، اخترقت الرصاصات من حجم 7.62 ملم الزجاج وحديد السيارات الرقيق لتستقر في أجساد المتعاقدين في السيارة الخلفية. ولم يملك هيلفنستون وتيغ أي فرصة للرد.

استدار سائقو شاحنات إي أس أس الذين أصابهم الذعر من أصوات إطلاق النيران حول سيارة الباجيرو التي كانت في المقدمة ولاذت الشاحنتان العراقيتان بالفرار. وعلى إثر سماع باتالونا وزوفكو صوت إطلاق النار استدارا بالسيارة إلى الخط المقابل لأخذ

موقع للرد والتعامل مع الموقف. غير أنَّ وابلاً من رصاص المقاومة اخترق جسديهما قبل أن يسددا سلاحهما. وبعد إصابتها بالرصاص من مدى قريب، تسارعت السيارة واصطدمت بسيارة تويوتا بيضاء كانت تسير بسرعة عالية، ثم توقفت بعد أن التحمت بمقدمة السيارة المصدومة. لقي الرجلان مصرعهما بعد أن اخترق الرصاص رأسيهما وأطرافهما، وبدأ مصور عراقي بتصوير المشهد بعد أن حقق الكمين أهدافه، موثقاً مشهداً من أفظع المشاهد التي سجلت في الحرب العراقية، وبثت أجزاء من هذا الفيلم عبر محطات التلفزة العالمية دون توقف على مدى عدة أيام.

ويمكن مشاهدة زوفكو في الفيلم الذي التقطته كاميرا الفيديو اليدوية وهو جالس في المقعد المجاور للسائق، فاغراً فاه، ميتاً بلا حراك. في حين كان باتالونا مستلقياً بجثته الهامدة في حضن صديقه، مضرجاً بالدماء التي أضفت على قميصه الهاوائي ذي اللونين الأبيض والأحمر مزيداً من الاحمرار. وفي خلفية الفيلم تعالت هتافات «الله أكبر» فيما راحت عناصر المقاومة تنزع الأسلحة عن جثث المتعاقدين الدافئة، وركز مصوّر الفيلم على البطاقات الشخصية الصادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية بوصفها «دليلاً» على أن المجاهدين قد قتلوا للتو عناصر تابعة «لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية».

ومع سماع أصوات البنادق الرشاشة وهتافات رجال المقاومة في وسط المدينة، انتشر خبر الهجوم في شوارع المدينة انتشار النار في الهشيم ، وبدأ السكان المحليون بالتدافع إلى مكان الحادث وقاموا بإضرام النيران في مركبات القافلة. وازدادت أعداد المحتشدين حول المركبات المحترقة وهم يرقصون ويهتفون، ويصرخون، احتفالاً بهذا النصر المؤزر على المحتل الأمريكي العظيم. وبعد أن خمدت نيران المركبات المحترقة، قامت مجموعة من المتظاهرين بإخراج الجثث المحترقة من الهيكل الملتهب لسيارتي الباجيرو. وقام الرجال بضرب الجثث المتفحمة بالمسحاة، وداسها الأطفال بنعالهم، وراح أحد الأشخاص يركل رأس إحدى الجثث حتى انفصل الرأس عن بقية الجسد المحترق، وقام آخر بربط إحدى الأرجل المنفصلة بحبل وربط الطرف الآخر بحجر وألقى بها فوق عمود الكهرباء وبقيت عالقة فوق الأسلاك. ووجهت الحشود نشوتها نحو الكاميرا، مرددين شعارات معادية للأمريكيين، ومؤيدة للمجاهدين، وهم يرقصون فوق السيارات المدمرة.

وقـام أحد الأشخاص بربط جثتـين بمؤخرة سيارته وأخذ يجرهما في الشارع الرئيس المسمـى شارع الشيخ أحمد ياسين تكريماً للقائد الروحي لحركة حماس الذي اغتيل على يـد الإسرائيليـين. ويمر الدرب الذي سلكـوه بمركز شرطة المدينة، وبـدا أن ضباط أمن المدينـة ليس لديهم مصلحة في الوقوف في وجه الجمـوع الهائجة. وتوجه أحد المصورين إلى ضابـط شرطـة ليسأله عـن رأيه بما يحـدث في الوقت الذي كانت فيـه جثث القتلى تنتهـك، وصـرّح الضابط بكل وضـوح أن ما حدث ليس من شأنهـم. وواضح أنهم أدركوا العقاب السريع والوحشي الذي سيحل بمن يساعد الأمريكيين.

توقفـت السيـارة التي كانت تجر الجثـث عندما وصلت إلى نهـر الفرات، حيث قامت مجموعـة من الأشخاص بتعليـق ما تبقى من جثث المتعاقدين علـى دعائم الجسر. وقام أحدهـم بتعليق لافتة على الجسر تقول: إن الفلوجة هي مقبرة الأمريكيين. وبقيت الجثث متدلية من الجسر عدة ساعات في الوقت الذي كانت السيارات تروح وتجيء فوق الجسر في أبشع وأفظع مشهد للموت. وقامت عناصر المقاومة بإنتاج شريط فيديو للحادثة ونشره عـبر الإنترنت. وفي هـذا الفيلم الـذي أعلنت المقاومة فيـه عن المسؤوليـة عن الحادث، عرضت الوثائق التي جـرى الاستيلاء عليها وكذلك جثث المتعاقدين، وظهر أحد عناصر المقاومة ليروي وقائع العملية. ظهر هذا الشخص الذي كان يغطي وجهه كله بوشاح أسود ولم يظهـر منـه سوى عينيه السوداويـن وخلفه ستارة سوداء، وراح يسـرد رواية المقاومة للحادثة. استهل الرجل حديثه كالعادة بتلاوة آيات قرآنية[1]:

1- هكذا جاءت العبارات المنصصة في الكتاب مع ملاحظة أن ما ورد في متن الكتاب ليس من القرآن. وهذا هو النص الإنجليزي كما ورد في الكتاب:

The man begins with a typial Koranic tribute…

Thanks to Allah and praise to the messenger who is

Mohammed. We do not kill them, they kill themselves. If you do not do it, Allah will do it for you…

ولعـل المؤلف قصد قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الآيـة 17 مـن سورة الأنفـال] ولعل المقصود بالجزء الأخير الآيـة 38 من سورة محمد ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

«الشكـر لله والحمد للرسول الذي هـو محمد، إننا لا نقتلهـم، ولكنهم يقتلون أنفسهم، وإذا لم تفعلوه، فإن الله سيتولى ذلك عنكم.

«في صبـاح يـوم الأربعاء الموافق للحـادي والثلاثين من آذار/ مارس، وبعد الصلاة، جاء أحد مخبري المجاهدين ومعه معلومات، وأخبر قائدنا بأن مجموعة من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ستعبر الفلوجة من الشارع الرئيس إلى الحبّانية [بلدة إلى الغرب من الفلوجة] لعقد اجتماع خاص. فطلب مِنَّـا القائد أن نكون مستعدين لقتل هؤلاء الناس. وبعد أن جهزنا أنفسنا وأسلحتنا، انطلقنا في تمام الساعة السادسة صباحاً وبدأنا نرصد الطريق من الجسر إلى الحبانية وقمنا بذلك ثلاث مرات.

«وبعد ذلك اختـار القائد تقاطع المدينة لتنفيذ الهجوم. وقد اختار هذا التقاطع؛ لأنه مزدحـم بالسيارات مما يمنعهم من الفرار، وحدد لنا القائد مواقعنا، وبقيت أنا والقائد ومجاهد آخر في ذلك الموقع معاً.

«بعـد ذلـك، توجهت إلى إحـدى المقاهي لشـرب الشاي، فجلسـت في المقهى وشربت الشـاي، وحـين فرغت من شـرب الشاي كانت الساعـة التاسعة والربـع صباحاً، ثم جاء القائـد ومعه مساعده وجلسوا معـي. ثم قدم لنا القائد تعليماته الأخـيرة، وطلب مِنَّا أن نتحـرى السيـارات التي يستقلونها؛ لأنهم عـادة يستخدمون سيـارات مدنية، وأنهم غير مصحوبـين بحرس شخصي، وأنهم يلبسـون ملابس مدنية- وهم يفعلون ذلك كيلا يقعوا أسرى بيد المجاهدين؛ لأن كل أمريكي يدخل الفلوجة سيكون مصيره القتل.

«وتحدثـت إلى مساعـد القائـد، وقال لي: علينـا أن نستكشف الشارع مـرة أخرى في الساعـة الحاديـة عشرة صباحاً لـنرى إن كانوا قادمين أم لا، ثم تحدثنـا مرة أخرى مع عيوننـا لنستوثق منهـم إن كان الفريق في طريقه أم لا. فقالوا لنـا: إن الهدف سيكون في الفلوجـة في غضون ساعة أو ساعتين. قيل لنـا في الأصل إنّه في الساعة العاشرة صباحاً، غـير أن استكشافنا الأول كان في الساعة الثامنة صباحاً، ولكنهم وصلوا فعلياً في الساعة التاسعـة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، وشاهدهم صاحـب المقهى وقال: «لم جاء هؤلاء الناس إلى أرضنا؟ سيقتلون على يد المجاهدين!».

«ثم طلب القائد من كل واحد أن يأخذ موقعه؛ لأن الوقت قد حان، ثم طلب مِنَّا أن نحرك سياراتنا إلى الموقع، وعلينا أن نكون مستعدين لاستخدام سلاحنا وأسر هؤلاء الأفراد. بدأنا بالتحرك، وأخذ كل واحد منا موقعه، وقرر القائد مهاجمة السيارة الأخيرة، وأسر السيارة الأولى، ثم قمنا بمهاجمة السيارة الأخيرة وحاولت السيارة الأولى الفرار بالالتفاف إلى المسرب الآخر من الشارع فلم يتمكنوا من الهرب وأمسكنا بهم، ثم قتلنا الأشخاص الموجودين في السيارة الأولى. وبحمد الله انتصرنا عليهم وأخذنا أسلحتهم ومتاعهم.

«ثم طلب إلينا القائد أن نترك بعض الأسلحة، ثم جاء أهلنا في الفلوجة وأحرقوا السيارات وأخبرونا بأن الله نصرنا، وقالوا لنا إنهم أحرقوا كل شيء في السيارات، وقد شاهدتم النتيجة في الأخبار. لقد نصر الله أهل الفلوجة نصراً عظيماً، لقد نصرنا الله ونصر المجاهدين.

«وسنواصل الجهاد».

علمت قوات المارينز بالهجوم من فوكس نيوز. وبعد ساعات، لم تجرؤ قوات المارينز على دخول الفلوجة، ولكنهم بدلاً ذلك اتصلوا بالشرطة العراقية، وطلبوا مِنْها إنزال الجثث عن الجسر. وقد تلكأت الشرطة العراقية أيضاً من الاقتراب من المشهد، ومرت عشر ساعات قبل أن تتوجه قوات المارينز والشرطة العراقية معاً لاستعادة الجثث؛ كي تشحن إلى قاعدة دوفر الجوية في الولايات المتحدة لتشريحها. ومع أن الشائعات ذكرت أن المتعاقدين أخرجوا من سياراتهم وأحرقوا أحياءً، إلا أن نتائج التشريح أثبتت على نحو قاطع أن موتهم كان نتيجة إصابتهم بوابل من الرصاص، وثمة إشاعة أخرى تقول: إن اثنتين من جثث المتعاقدين قطعت أشلاؤها وأطعمت للكلاب، ولكن ثبت أيضاً أن هذه الإشاعات عارية عن الصحة.

وبعد أن وصلت المشاهد الفظيعة لموت المتعاقدين والتدنيس الاحتفالي بجثثهم إلى وسائل الإعلام، لم يعد في ذهن الأمريكيين حدود لا يمكن تصورها لنذالة سكان الفلوجة المجانين. وباعتقاد العراقيين الذين قاموا بتلك العملية، فإن ما حدث هو إعدام تقليدي دون محاكمة لمحتل كافر ومظهر من مظاهر الانتصار عليه. أما في نظر الأمريكيين، فإن الحادثة تمثل جريمة نكراء وخروجاً على أدنى معايير اللياقة الإنسانية، في وقت الحرب

أو غيره. وبدت الحادثة وكأنها تمثيلية معادة للمأساة التي لحقت بالجيش الأمريكي في الصومال عام 1993. ولا يملك المرء إلا أن يتساءل إن كان المقاتلون في الفلوجة يؤدون دورهم أمام آلة التصوير وفي ذهنهم حادثة إسقاط الطائرة العمودية بلاكهوك؛ لأن إسقاط تلك المروحية في الصومال لقي تمجيداً وحفاوة في المواقع الإلكترونية التابعة للمقاومة والإسلاميين، لكونها برهاناً على أن «الولايات المتحدة ما هي إلا نمر من ورق»، على حد وصف ابن لادن. فحين بثت وسائل الإعلام فيلماً ظهرت فيه جثث الجنود التابعين لقوات الرينجرز وهي تجر في شوارع مقديشو، أثارت تلك المشاهد ردة فعل اتسمت بالصدمة والاشمئزاز إلى درجة اضطرت الرئيس الأمريكي بعدها إلى دعوة الجنود الأمريكيين إلى الانسحاب من الصومال. وربما ظن الفلوجيون أن بإمكانهم تحقيق النتيجة نفسها بإظهار وحشية مماثلة في التعامل مع الجنود القتلى. وليس ثمة دليل ثابت يشير إلى أن ما وقع في الفلوجة كان أي شيء آخر سوى عملية قتل وتنكيل على يد حشود غوغائية محبطة، صبت جام غضبها على أشخاص كانت تظن أنهم قوات شبه عسكرية تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، غير أن ارتباط الصورة الذهنية بين ما حدث في الفلوجة وما حدث في الصومال واضح الدلالة في ذهن الشعب الأمريكي ذي الحساسية البالغة من منظر الموت.

ومع حلول مساء يوم الأربعاء، كان الجمهور الأمريكي مشدوداً إلى أجهزة التلفاز لا يطيق مشاهدة الفيلم، ولا يملك أن يشيح بوجهه عن الشاشة، إذ استحوذت عليهم المقاطع المعدلة من مشاهد الاحتفال والابتهاج التي أعقبت موت المتعاقدين، التي كانت تعرض مرة بعد مرة عبر قنوات الكيبل وشبكات التلفزة. وبعد أن مل الناس تلك المشاهد، تحولت وسائل الإعلام كعادتها إلى المرحلة الثانية: وهي النقاش المهوّس الموجه إلى ذاتها حول هل من اللائق عرض تلك المشاهد الفظيعة والشنيعة أمام الجمهور العام أم لا؟، وهل كانت التغطية الإعلامية للحدث زائدة على الحد؟ وهل كانت تقدم مساعدة للعدو ببث الفيديو الذي أخرجه لغايات الدعاية الإعلامية الموجهة؟ وبغض النظر عن نتيجة هذه المناقشات والمناظرات، فإن الشيء الذي بات واضحاً هو: أن عرض تلك المشاهد كان لأسباب جذب مزيد من المشاهدين لتلك المحطات، والأمر الآخر هو أن جمهور

المشاهديـن بـدأ يطلب المزيد من المعلومات عن ما حـدث[1]. أراد الناس أن يعرفوا ما هي الوظيفـة التي يؤديها المدنيون المسلحون في مسرح الحـرب العراقية. وعلى الرغم من أن الحكومة الأمريكية كانـت تعتمد على المتعاقدين المستقلين منذ زمن، إلا أن القضية بدت وكأنها شيء جديد في نظر الشارع الأمريكي، وطلب الناس معرفة لماذا يقوم رجال وصفوا بالمتعاقديـن «المدنيين» بمرافقـة شاحنات كانت تمر بمنطقة معاديـة دون أن تكون تحت حماية الجيش؟.

إن المبـدأ الذي يدين قتل المدنيين في الحرب، الذي تقـرره اتفاقية جنيف لعام 1949 هـو مبـدأ راسخ في النفسية الأمريكية، كمـا أن القتل المتعمد للمدنيـين هو عمل مستنكر مطلقـاً. غير أن هـؤلاء المتعاقدين ظهروا في منطقة مشتبهة بـين المدني والعسكري. ومع أن هؤلاء المتعاقدين ليسوا في الخدمة العسكرية بالتحديد، إلا أنهم كانوا مسلحين، وعلى أهبة الاستعداد لإطلاق النار إن دعت الضرورة، وكانوا يقدمون دعماً مهماً لجوهر المهمة العسكرية الأمريكيـة، كما أن رواتبهم بعد أن تزال الطبقات المتعددة للتعاقد من الباطن هـي في النهاية مـن تمويل البنتاغون، ومـع أن هذه الحقائق تقرب تحديـد ماهيتهم من الجانـب العسكري غير التقليدي، إلا أن بعض المحللين يصرون على القول: إن المتعاقدين الأمنيـين يـؤدون دوراً مدنياً؛ لأنهم لا يشتركون في العمليـات العسكرية القتالية. غير أنه لو أتيح لتيغ، وباتالونا، وهيلفينستون مهلة للرد على إطلاق النار الذي وجه إليهم، لكانوا مشتركين في عمليات قتال عسكرية.

1- ثمة غاية مقصودة من تكرار عرض تلك المشاهد وغيرها من المواد الإعلامية التي يقصد منها نزع الصفة الإنسانية عن الشعوب العربية والشعب العراقي بوجه خاص في هذا السياق. ونزع الصفة الإنسانية عن العدو هو حيلة معروفة معهودة أتقنت وسائل الإعلام الأمريكية والإسرائيلة استخدامها بهدف إخماد أي باعث من بواعث الاستنكار والاحتجاج لدى الرأي العام في تلكما الدولتين على ما يقترف من جرائم في حق الشعوب العربية. ولعل هذا يفسر ضعف الاحتجاجات الشعبية في الشارع الأمريكي على أعمال الإبادة والتنكيل التي راح ضحيتها مئات الألوف من أطفال ونساء وشيوخ عزل، في حين تستنهض الهمم هناك لإنقاذ حوت محصور في المحيط أو كلب عالق على حافة واد سحيق. وقد لعب الإعلام الأمريكي الذي توجهه المؤسسات الصهيونية دوراً قوياً في حشد التأييد الشعبي للحرب على العراق وتأجيج مشاعر الكراهية نحو العرب والمسلمين. وقد تعالت الدعوات في الإعلام الأمريكي بعد حادثة الفلوجة مطالبة بضرب العراق كله بالأسلحة النووية انتقاماً لمقتل المتعاقدين الأمنيين. [المترجم].

وفي الوقت الذي أفرزت فيه مشاهد التمثيل بجثث المتعاقدين جدلاً حامياً على الصعيد العام حول القضايا المتعلقة باعتماد الجيش على المتعاقدين الأمنيين، كانت أربع أسر بمعزل عن الآخرين تبكي موت زوج، أو أب، أو ابن، وكان رفاق المتعاقدين يتأسون على موت أصدقائهم وزملائهم في المهنة. وطلب إلى تي-بوي أن يجمع مقتنيات المتعاقدين الذين قتلوا في الحادثة؛ وذلك لإرسالها إلى ذويهم. ويروي هو ما حدث قائلاً: «ذهبت وحدي إلى غرفتهم بعد وفاتهم وجمعت كل ممتلكاتهم ومقتنياتهم الشخصية. لقد أخذني البكاء في نصف الساعة الأول في غرفتهم قبل أن أبدأ بفعل أي شيء، وراعني مجرد رؤية رسائلهم وصور أسرهم، ومجلات بناء الأجسام التي تعود لمايك وجيري، وقمصان ويسلي الهاوائية، لقد كنت محطماً مزعزعاً في ذلك اليوم بكل تأكيد».

أرسلت شركة بلاك ووتر ممثلين عن الشركة لإخبار أسر المتعاقدين بموت أحبائهم، وإعادة مقتنياتهم إليهم، وكان ذلك الإجراء هو الحد الأقصى للمسؤولية القانونية للشركة تجاه تلك الأسر، ويحصل القريب الأدنى من المتعاقد المتوفى على 46 ألف دولار وهي قيمة التأمين المقررة بموجب التأمين الذي يقرره قانون الدفاع الأساسي، ورسالة تعزية متأخرة من بول بريمر. غير أن ذوي المتعاقدين القتلى اختاروا توجيه معاناتهم عبر الدعاوى القضائية والحملات الإعلامية التي تركز على أن موت الرجال كان نتيجة مباشرة للاستعجال في تنفيذ عقد إي أس أس وتعطش بلاك ووتر لجني الأرباح.

وفي كانون الثاني/ يناير من عام 2005، رفعت أسر مايك تيغ، وويسلي باتالونا، وسكوت هيلفنستون، وجيري زوفكو دعوى قضائية على شركة بلاك ووتر في محاكم ولاية نورث كارولينا. وسمت الدعوى بالتحديد أسماء توم باول، وجستن «شرك» ماكوان، وزعمت أن القرارات التي اتخذها هذان الشخصان، ونتيجة للمسؤولية المترتبة عليها، فإن شركة بلاك ووتر تكون مرتكبة لإهمال جسيم أدى إلى موت الرجال الأربعة. وكما جاء في معروض الدعوى فإن، «شركة بلاك ووتر، وجستن ماكوان، وتوم باول، قد قاموا عن قصد وتعمد وبتجاهل طائش للأخذ في الحسبان مقتضيات الصحة والسلامة، بإرسال هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو وباتلالونا إلى منطقة الفلوجة المحفوفة بالمخاطر دون أن يكون الفريق مكوناً من ستة أشخاص، ومن دون توفير الحد الأدنى من وجود سيارتين مصفحتين، ودون فرصة معاينة

الطريق الذي ستسلكه القافلة، وجمع المعلومات الاستخبارية بشأن تلك المهمة، واستكشاف الطريق التي ستسلكها القافلة، وتحديد أفضل السبل لعملية النقل، أو حتى مراجعة خريطة للمنطقة، ودون إعطائهم الفرصة لفحص ومعاينة الأسلحة التي كانت معهم».

وتزعم الدعوى المرفوعة أن هذه المتطلبات جميعها منصوص عليها في العقد الذي وقعه الرجال وأن تعمد شركة بلاك ووتر تقديم المعلومات على غير حقيقتها هو غش واحتيال. وجاء في لائحة الدعوى أنه «حين قام المدعى عليهم بإرسال هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو، وباتالونا في هذه المهمة الأمنية وتحت هذه الظروف، ودون توفير الحماية المناسبة، ولا المعدات ولا المعلومات المناسبة، فإنهم كانوا يعلمون أنهم مرسلوهم إلى وسط الفلوجة وأن احتمال عودتهم أحياء من تلك المهمة هو احتمال ضئيل... ونتيجة مباشرة لسلوك المدعى عليهم المتعمد والمستهتر والمقصود، ولتقصيرهم كما هو موضح في هذه الدعوى، فقد لقي هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو، وباتالونا حتفهم في الحادي والثلاثين من شهر آذار/ مارس، من عام 2004».

سعت بلاك ووتر إلى نقل الدعوى إلى المحكمة البدائية الفدرالية، محتجة بأن قانون الدفاع الأساس أعطى الحكومة اختصاصاً حصرياً في نظر القضايا المتعلقة بموت أو إصابة المتعاقدين الذين يقدمون الدعم للعمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش الأمريكي. ثم حاولت بلاك ووتر أن تقنع المحكمة الفدرالية برد الدعوى بحجة أن قانون الدفاع الأساس قدم تغطية شاملة لموت المتعاقدين وأنَّ كل واحد من المتعاقدين قد قام بتوقيع إبراء من المسؤولية وإعلان قبوله بالعمل في الظروف المحفوفة بالمخاطر التي قد تؤدي إلى هلاكه. غير أن المحكمة رفضت رد القضية، وهو ما اعد نصراً أولياً لأسر المتعاقدين، وفي آب/ أغسطس من عام 2005، أعادت المحكمة الفدرالية القضية إلى المحكمة البدائية التابعة لولاية كارولينا الشمالية. وحتى كتابة هذه السطور، لم يصدر عن تلك المحكمة حكم بشأن هذه القضية. كما أن إريك برنس، مالك شركة بلاك ووتر، ليس بمقدوره تسوية القضية؛ لأن ذلك سيخلق أسبقية تتبع في القضايا المتعقلة بموت المتعاقدين الأمنيين. وفي عام 2006 وحده، رفعت على بلاك ووتر تسع قضايا من ذوي المتعاقدين من أسر أشخاص لقوا حتفهم في أثناء العمل.

لم تحدد القضية المرفوعة مبلغ التعويض عن الأضرار، تاركة تحديد ذلك لهيئة المحلفين بحسب ما تراه مناسباً، غير أن أسر المتعاقدين تقول: إن المال ليس هو الهدف من هذه الدعوى. وكما ذكرت دانيكا زوفكو في مقابلة مع صحيفة راليه دورهام نيوز آند أوبزريفر: «لا أعول على تلقي فلس واحد مقابل دم ابني ... إنني أقوم بهذا الجهد لكيلا يسيؤوا إلى الآخرين كما أساؤوا إلى ابني ورفاقه». ويتلقى المؤمن لمصلحتهم رواتب دورية بموجب قانون الدفاع الأساس.

بعد الهجوم الذي وقع في الفلوجة، عملت بلاك ووتر بكل عناية وحرص على تحسين الإجراءات الأمنية المتعلقة بعملياتها، غير أن الموت بقي يلاحق عقد إي أس أس. ففي الثاني من شهر حزيران/ يونيو، كانت إحدى السيارات رباعية الدفع التابعة لبلاك ووتر تسير بسرعة عالية على الطريق السريع قرب البصرة قبل أن تمر فوق حفرة في الشارع تكونت على أثر قذيفة مدفعية، فخرجت السيارة عن سيطرة السائق، وانقلبت وبدأت تتدحرج قاذفة ركابها من المتعاقدين الأمنيين إلى الخارج؛ فتوفي واحد منهم متأثراً بجروحه على الفور، وتوفي متعاقد آخر نجا من الحادث بعد تدهور حالته الصحية في المستشفى بعد ثلاثة أيام. إضافة إلى هؤلاء، توفي ثلاثة متعاقدين آخرين لقوا حتفهم إثر كمين نصب لهم على طريق مطار بغداد الدولي. وبذلك يصبح مجموع المتعاقدين الذين قتلوا في تنفيذ عقد إي أس أس تسعة متعاقدين. ويعكس هذا العدد نسبة مرتفعة وغير عادية في الوفاة تتجاوز نسبة الوفاة في الوحدات المقاتلة من الجيش الأمريكي في العراق، إلا أن أياً من حالات الوفاة كلها في صفوف المتعاقدين الأمنيين لم يُثر رداً شعبياً، وسياسياً، وعسكرياً كالرد الذي جاء على وفاة هيلفنستون، وتيغ، وباتالونا وزوفكو.

أصدر بول بريمر بياناً في اليوم الذي أعقب موت المتعاقدين الأربعة جاء فيه: «لن يمر موتهم دون عقاب». وهدد العميد مارك كميت، نائب منسق عمليات قوات التحالف، قائلاً: «سيكون الرد في الوقت والمكان اللذين نختارهما نحن، وسنتعقب المجرمين، وسنقضي عليهم أو نأسرهم، وسنخضع الفلوجة». وفي حين أن الذين هلكوا في الفلوجة كانوا من المتعاقدين وحسب، إلا أن من الواضح أن أفراد الجيش الأمريكي في العراق كانوا يعدون موت هؤلاء المتعاقدين خسارة في صفوف الجيش. وظهر أيضاً أن التنكيل غير الإنساني

بجثثهـم يستحق عقاباً شديداً؛ فالانتقام قـادم، وكان الجنود ينتظرون متحفزين صدور إشارة للانطلاق للأخذ بالثأر.

ساعدت الضغوط الإعلامية المستنكرة لانتهاك حرمة جثث المتعاقدين في حفز الرئيس الأمريكـي على القيـام بالرد، وطالب الشـارع الأمريكي المصدوم مما حـدث بردّ سريع وحاسـم. لكن قائد المارينز الجـنرال جيمس كانوي حث على توخي الحذر قائلاً: إن على الجيشـ أن يرفض الدعـوات التي تنادي بالانتقام. فمدينـة الفلوجة لم تكن أخطر المدن العراقية وحسب، بل كانت مرشحة لأن تكون ستالينغراد أو غروزني- ساحة لمعركة دموية داخـل مدينة مأهولة بالسـكان. إلا أن الفريق ريكاردو سانشيـز رفض تحذيرات كانوي. وبعـد خمسة أيام من حادثة القتل، توجهت قـوات المارينز إلى الفلوجة، وبعد مقتل سبعة مـن المارينز وجـرح مئة، توقفت عملية «البأس اليقظ» في مكانهـا بعد أقل من أسبوع من المعارك والاقتتال.

ونجحـت قوات المارينز في إخضـاع الفلوجة مؤقتاً، وقامت بنقل السيطرة على المدينة إلى كتيبـة الفلوجة، وهي قوات ميليشيا جرى تشكيلها على عجل من ألف جندي سابق في الجيش العراقي من الفلوجة. وبدلاً من أن تقوم كتيبة الفلوجة بإخراج المقاومة من المدينة ومنعهـم من دخولها، عملت على مساندتهـم أو الالتحاق بهم، وصارت الأسلحة والمعدات التـي سلمها الجيش الأمريكي للكتيبة بيـد المقاومة، كما أن عدداً من قوات الأمن تورطوا في عمليـات خطفٍ وهجمات تستهدف الأمريكيين ومعاونيهم. وفي تشرين الثاني/نوفمبر جاءت الطامّة على المدينة مع انطلاق عملية «شبح الغضب» التي نسفت بين قوة الأسلحة الأمريكيـة كاملة والجنود الأمريكيين تاركة الفلوجة مدينة مدمرة على أنقاضها. وحوّلت قصص الدفاع البطولي عن المدينة والتضحيات التي قدمها سكان هذه المدينة الصناعية إلى أسطـورة في العالم العربي. وحتـى في مقديشو، كان المسلحـون الصوماليون يلبسون قمصاناً مطبوعاً عليها كلمة «الفلوجة».

في الحـادي والثلاثـين مـن آذار/ مارسـ، 2005، وإحيـاءً للذكـرى الأولى للحادثة، قامـت قوات المارينـز التي تسيطر على المنطقة المحيطة بالفلوجـة بدعوة بلاك ووتر إلى حضور حفل لتأبين زملائهم الذين قضوا نحبهم في ذلك المكان، وتوجه مايك رش، مدير

العمليات في بلاك ووتر، ترافقه مجموعة صغيرة من المتعاقدين إلى معسكر ياهاريا شرقي الفلوجة، حيث قدم ضابط القيادة عرضاً مفصلاً لكيفية استيلاء المارينز على المدينة. ووافق الحضور جميعهم على أن سكان الفلوجة يستحقون ما حل بهم بعد ما فعلوه «بمجموعهم» للمتعاقدين الأمنيين الأربعة. ثم توجهت بعد ذلك مجموعة من المارينز لتأمين المنطقة المحيطة بالجسر الذي أطلق عليه اسم «جسر بلاك ووتر» قبل أن تلحق بهم قافلة بلاك ووتر متخطين المنازل المهدمة والمهجورة الموسومة بإشارة (×) أو (o) التي تميز منازل المتعاطفين مع المقاومة من المتعاطفين مع الأمريكيين على الترتيب. واحتشد الجميع على الجسر المتأرجح فوق مياه نهر الفرات الموحلة للوقوف بصمت حداداً على المتعاقدين الذين علقت أشلاؤهم عليه.

ثم ألقى مايك رش كلمة موجزة نيابة عن إريك برنس، شكر فيها قوات المارينز على ما فعلوه في الفلوجة، والتقط أعضاء فريق المهمة صوراً تذكارية، ووزعوا قمصاناً طبع عليها شعار بلاك ووتر، وتحدثوا إلى المارينز عن عمليات القتل المؤكد والمعارك التي جرت في المدينة في معركة الفلوجة. وأخبر قائد قوات المارينز فريق بلاك ووتر بأن رجاله ما زالوا «يعضون أناملهم» حنقاً، لأنهم لم يشفوا غليلهم من الثأر بقتل المزيد من سكان الفلوجة- وواضح أن تدميرهم شبه الكامل لمدينة الفلوجة لم يشبع رغبتهم في محو المدينة عن الوجود.

يقول تي-بوي: إنه يحب المارينز على ما فعلوه في الفلوجة، ولا يخفي افتخاره بأنه كان في السابق أحد جنود المارينز. ولكن لا يمكن عد أقسى الجنود المحترفين رجلاً آلياً منزوع الأحاسيس، فتقطيب جبين تي-بوي والرعشة التي تطغى على صوته حين يستحضر ذكرى تأبين رفاقه يشهد على هذه الحقيقة. «كنت آخر شخص يصل إلى الجسر بعد خروجنا من عرباتنا المصفحة، كنت أشعر بثقل الحركة، وغشيتني مشاعر جياشة ... وبينا أنا متوجه إلى ذلك الجسر الأخضر اللعين، لم يعد بإمكاني حبس دموعي، لم يسبق لي أن بكيت مثل ذلك البكاء إلا حين دخلت غرفتهم لجمع مقتنياتهم بعد الحادثة. وها أنا ذا بلباسي العسكري الكامل وخوذتي أبكي كالطفل الصغير، لقد أمضيت عدة دقائق أتأمل الجسر- أتمعن المكان الذي علق فيه رفاقي في بلاك ووتر بعد أن مثّل بجثثهم. كان الموقف

فيّاضاً بالمشاعر. وكنت في غاية النقمة والغضب، كنت أشعر برغبة جامحة في التوجه إلى المدينة وإطلاق النار عشوائياً على الناس هناك دون شعور بالذنب... لا يهمني من أقتل؛ أريد الثأر لنفسي، لم يكن في ذهني شك أن بعض هؤلاء الناس كانوا على بعد كيلو متر من الشارع. وأظهرت التغطية الإعلامية السيارات وهي تتعرض للنهب، والجثث وهي تتعرض للتمثيل على يد سكان المدينة العاديين- كان بعضهم من الشباب وبعضهم الآخر من كبار السن، لقد كنت غاضباً جداً؛ لأن بعض هؤلاء كانوا على بعد مرمى حجر».

يضع تي-بوي غضبه جانباً حين يؤدي عمله. إلا أن من الواضح أن تلك الحادثة قد تركته في نفسية جريحة. فحين قابلته أول مرة حين كان مع فريق المبة في دورية طريق المطار، كنت أظن أن سلوكه الانفرادي في «تحديد النطاق» كما يسميه رفاقه، كان أسلوبه الخاص في التركيز على المخاطر المحيطة في أثناء السير في الطريق. ولما ازدادت معرفتي به تبين لي أن تلك العزلة تعكس معاناة روح شريرة كامنة داخله أكثر من أي شيء آخر. وإلى جانب الحمل الثقيل الذي يرهق قلبه، يحرص تي-بوي على حمل تذكار رمزي لزملائه الأربعة- وهو التذكار الذي مسح به أعمدة جسر بلاك ووتر في يوم تأبين ذكرى رفاقه: «أحضرت معي علماً أمريكياً أخذته من غرفة زملائي، ولا أعرف لمن كان هذا العلم، لكن المهم لي أنه ملكهم جميعاً، وهو جزء مني كذلك. أخرجت ذلك العلم الأمريكي الصغير من جيبي ومسحت به الجسر عدة مرات، وقلت في نفسي: كم أنا مسرور بالانتقام الذي ألحقه المارينز بالفلوجة».

ويبدو أن تذكر العقوبة التي أوقعتها قوات المارينز بالفلوجة وأهلها تزيد في بأس تي-بوي وصلابته، ويتحوّل هذا الشاب المعذب المهزوز إلى جندي مهيب مقتحم سابق من المارينز: «ما زلت أحتفظ بذلك العلم حتى هذا اليوم، وأنا أحمله معي منذ ذلك الوقت في كل مهمة أكلف بها».

الفصل السادس

تحت الحصار

«... لو سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً؛ لأنك أنت معي»

- مزامير داود 23

كنت أقلب ببصري أجواء السماء وأنا جالس في الطائرة المروحية التابعة لشركة بلاك ووتر، وبدت الأرض من تحتي كأنها غشاوة متموجة داكنة من رسم متداخل الألوان، وكانت قدماي تضغطان بشدة على جانبي المروحية حيث جلست بمحاذاة المدخل المفتوح في الطائرة المروحية، وتمنيت لو كانت الأحزمة التي تربطني بأرضية الطائرة من النوع الذي يربط الجسم كاملاً. وحين نظرت إلى الأسفل، رأيت مدينة أثرية تحت الحصار، تبرز منها الأبراج والقلاع المحصنة ذات الشرفات. ويبدأ العالم الحديث في هذه المدينة من النقطة التي يلتف عندها السديم البني حول المباني المربعة التي تتألف منها بقية المدينة.

وحين بدأ الطيار بالانخفاض كي نتمكن من النظر إلى المدينة عن قرب، برزت أمامنا المباني الضخمة التي شيدت في عهد صدام حسين تتخلل الفضاء المغبر، شامخة فوق السديم البني الذي يلف المنازل والمتاجر ذات المنظر الرتيب الممل. وفي حين كان الهواء يبدو لطيفاً والسماء هادئة من ارتفاع ألف قدم في السماء، إلا أن مجرد الهبوط من هذا الارتفاع يدخلنا في دائرة حرب المدن في القرن الحادي والعشرين. لقد حوّلت قوات الاحتلال مباني صدام حسين ذات التصميم المعماري الباذخ إلى متاهة قبيحة مرقعة بالمنازل المحاطة بأكياس الرمال، والأبنية البيض المقطورة، والجدران المضلعة، والتلال الترابية، والدبابات، والسيارات ذات الدفع الرباعي، والعربات العسكرية. وبالطيران فوق المناطق السكنية يظهر المشهد العام للسطوح بجلاء حياة المشاة وسط ساحة

الحـرب. وحين يممت بصري فوق سطوح المنازل والشوارع، ظهرت أمامي أنماط جديدة مـن الحياة. ويمكنني في الحال رؤية الازدحام المـروري، والتحركات العسكرية، والأفراد العاديـين وهم يسيرون في الحقـول والأزقة. ويحرص الطيارون علـى عدم الطيران على ارتفاع يقل عن ثلاثين متراً – لا لأنها أفضل مسافة لرؤية المدينة عن قرب وحسب، بل لأن الطـيران المنخفض يقلل من الوقت الذي يحتاجه أفراد المقاومة للتصويب وإطلاق نيران أسلحـة آر بي جي عليهم. كمـا أنهم يطيرون بأسلوب متعـرج إلى الأمام والخلف تحسباً مـن قيام أحـد بإطلاق النار عليهم. ويقول الطيار ستيف: «إننا لا نتعرض للإصابة كثيراً ولكننا ندخل في أوضاع جنونية». ويقوم ستيف برسم صورة ساخرة لطائر باللون الأبيض علـى نافـذة مروحيته في كل مرة يتعرضـون فيها للإصابة بالنيران، كمـا أن البلاستيك اللاصق يغطي ثلاثة شقوق عميقة في جسم الطائرة من أثر الشظايا.

وعنـد الوصول إلى نقطة محـددة، يقوم قائد الطائرة المروحيـة بتوجيه الطائرة من الأرض الصحراوية القاحلة نحو السماء الزرقـاء، ضاغطاً بجسمي إلى أرضية الطائرة الملمعة المصنوعة من الألمنيوم. ومع التفاف الطائرة، كان كل ما يمكنني رؤيته هو السماء والشمـس، ثم شعـرت بانعدام الوزن وتلفظـت ببعض العبارات غـير المفهومة التي تشبه الدعاء، وانتابني شعور بالحاجة إلى التقيؤ.

ثم تحولـت الطائرة الصغيرة في تسارع نحو الأسفل باتجاه المياه الموحلة المكدرة لنهر دجلـة. فاستسلمـت للقدر ورحت أفكـر في النهاية الحزينـة لآخر نفـس سأستنشقه من تلـك السوائل المنتنة، غـير أن الطيارين الماهرين قاما في اللحظـة الأخيرة بتعديل مسار الطائـرة، وحين فتحت عيني، رأيت أنّنا نطير بمحاذاة النهر على ارتفاع عدة أقدام فوق الشريان البني المتعرج الموحل. وجاء صوت الطيار عبر سماعة الأذن طالباً مني أن أراقب الماء، فهي المكان الذي يمكنهم أن يشاهدوا منه جثث القتلى التي تطوف فوق القناة ذات الميـاه العكـرة. ويبـدو أن الليلة الفائتة لم تشهـد الكثير من الحركـة؛ إذا لا وجود للجثث اليوم. وبنبرة واضحة متيقنة أكثر من واعية على طريقة الدليل السياحي، أشار الطياران إلى الجهات التي تأتي منها قذائف المدفعية التي تضرب المنطقة الخضراء. ثم أشارا إلى

الجانب الآخر كي أنظر إلى المكان الذي وقع فيه الهجوم الانتحاري الذي وقع بالأمس. ثم انتقلت الطائرة إلى التفاف آخر مثير للاستفراغ، وتوجهنا بسرعة كبيرة بمحاذاة الشارع الرئيس باتجاه المنطقة الخضراء.

حلقنا فوق ساحة العروض العسكرية التي يتخللها نصب ليد تشير بعلامة النصر. وهي نصب كبير ليدين منحوتتين فوق تمثال لصدام حسين وهو يحمل سيفين يشكلان قوساً صنع من حديد أسلحة العراقيين الذين قضوا نحبهم في الحرب العراقية الإيرانية. ويشتهر الطيارون الذين يعملون في شركة بلاك ووتر بالطيران تحت هذين السيفين، ولكنهما في هذه المرة، ورأفة بي، تمالكا نفسيهما وأحجما عن فعل تلك المناورة. وبعد ميلان الطائرة إلى الأعلى ميلاناً يلوي الأمعاء، قطعنا الخط الذي يفصل بين المنطقة الخضراء عن العالم الخارجي. وفي الوقت الذي توجهنا فيه إلى البوابة رقم 12، انخفضت الطائرة المروحية قريباً من سطوح المنازل لدرجة أنني استطعت رؤية الذعر والخوف المرتسم على وجه رجل كان يغسل ملابسه حين نظر إلى الأعلى ليرى طائرة مروحية تتجه صوبه. ومرة أخرى، امتحن الطياران قدرة معدتي على التحمل؛ ثم دخلنا بين الجدران الإسمنتية المسلحة المحيطة بالقصر. وهبطت الطائرة بانسياب سلس، وانتهت الرحلة. وشعرت بالراحة لدى رؤيتي الجدران الإسمنتية المسلحة المقاومة لقذائف المدفعية.

يقيم طيارو بلاك ووتر قريباً من مهبط الطائرات القريب من القصر الرئاسي في المنطقة الخضراء. ومهبط الطائرات هو منطقة واسعة فارغة معبدة تحيط بها الجدران المسلحة، وتقع في الساحة الرئيسة للقصر- وهي هدف مفضل للقصف المدفعي. وتشبه المنطقة حديقة فظيعة للنحت الحديث.

وفي داخل المستودع الذي يؤوي ثلاث طائرات مروحية تشبه في شكلها دمعة العين، كانت موسيقا الريف الأمريكي المنبعثة من أحد المسجلات تتردد بصوت مرتفع. وكانت طائرتان مروحيتان أخريان مدهونتان حديثاً باللونين الرمادي والأسود رابضتين في المستودع، في حين كانت الثالثة تخضع لفحص ميكانيكي بعد أن أخرج منها المحرك ولم يبق منها سوى الهيكل. دخلت طائرة هيوز 500 الصغيرة (وتنتجها في الوقت الحالي

شركة بوينغ باسم إم دي 550) الخدمة عام 1960، ثم سجلت هذه الطائرة المروحية الصغيرة سلسلة مدهشة من الأرقام القياسية لكونها أسرعَ طائرة عمودية، وأسرع في معدل التسلق، والطائرة الأعلى ارتفاعاً في الطيران. فهي طائرة سريعة ومرنة الحركة، وهي الشبيه المعادل للسيارات الرياضية في عالم الطائرات المروحية. ويمكن للمؤخرة أن تحمل شخصين، غير أن بلاك ووتر عدلت هذا النموذج ليحمل اثنين من القناصة أو الرماة المزودين بالبنادق الآلية الرشاشة التي تتدلى من إطار البوابة. وهذه الطائرات ليس لها أبواب؛ لذلك يجلس القناصة مربوطين بالأحزمة بجسم الطائرة وتكون أقدامهما مثبتة على جانبي الطائرة. وتستخدم القوات الخاصة هذه الطائرات في عمليات إقحام وإنزال المقاتلين من قوات الدلتا عن طريق القفز السريع، أو التدلي بالحبل، أو الكبل. وتستخدم بلاك ووتر هذه الطائرات في عمليات الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقديم الإسناد والدعم الناري للمتعاقدين الأمنيين العاملين معها.

ولا تقتصر مهمة قسم بلاك ووتر للطيران -وهو قسم واحد من بين أقسام الشركة الخمسة- على تقديم الدعم الجوي باستخدام الطائرات المروحية الصغيرة؛ بل يشمل أيضاً عمليات النقل والإمداد للمتعاقدين العاملين فيها في العراق وأفغانستان مستخدمين طائرة كاسا 212 ذات المحركين. ويقدم طيارو بلاك ووتر الذين يقودون الطائرات المروحية تغطية جوية لفريق الحراسة الشخصي لكل من بريمر ونيغروبونتي، أما الآن فهم يقدمون دعماً لقوافل فرق المبة. وحين يتعرض فريق المبة إلى كمين، تظهر الطائرات المروحية كملائكة الحراسة، محلقة في السماء كالفرسان الطائرة على ارتفاع أمتار فوق القافلة مظهرة استعراضاً باهراً للقوة لردع أي شخص يفكر في الهجوم على القافلة، وإطلاق النار عليهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

ووصف ما يقومون به «بالطيران» هو وصف غير دقيق لما يفعلونه؛ لأن هؤلاء الطيارين الذين سبق لهم أن خدموا في فرقة المظليين المئة وستين هم أسرع الطيارين طيراناً، وأخفضهم تحليقاً، وأشدهم إقداماً في العراق. ويوضّح ستيف قائلاً: «ينعى علينا بعض الناس طيراننا العشوائي وتحليقنا على ارتفاع منخفض قائلين بأن الطيران بتلك الطريقة

يمكن أن يعرضنا للسقوط والارتطام بالأرض ... إلا أن هذه هي الطريقة الآمن للطيران في هذه المنطقة. فكلما كنت منخفضاً، كان الوقت المتاح للمقاومة أقصر في اكتشافك وتصويب أسلحتهم نحوك، وكانت التغطية المتوافرة لك من المباني والأشجار أكبر. إننا نخرج في دورياتنا الجوية، وإذا شاهدنا شيئاً قد تغير مكانه، أو لم يكن موجوداً من قبل، فإننا نلاحظه ونرى إن طرأ تغيير عليه أم لا، أو إن كان يحتمل أن يكون ذلك الشيء عبوة ناسفة، فإننا نطلق عليه النار».

وفي أثناء مسيرنا إلى مسكنهما المزود بمكيف هواء بارد، مررنا بلافتة تقول: «معسكر مؤخرة القرد- تباً لكم ... لدينا ما يكفي من الأصدقاء». وقد جاءت عبارة «مؤخرة القرد» حين أطلق أحد أفراد الحرس الشخصي لبول بريمر ذلك الوصف على طياري بلاك ووتر الذين يقدمون الإسناد الجوي، ووجه دلالتها يشير إلى قصر الوقت الذي يجلسون فيه على مؤخراتهم قبل تحليقهم في الأجواء. تأمل ستيف هذه اللافتة وقال، «حين أتينا إلى هنا أول مرة، كان لكل شخص يسكن في المعسكر لقب ما، لذلك قلنا إننا بحاجة إلى لافتة». ذكر ذلك بنكتة سكان تكساس.

ظهرت على الحائط الطويل داخل المبنى الجاهز خريطة لبغداد ملتقطة من الأقمار الصناعية، وإلى جانبها مجموعة متنوعة من الخرائط الصغيرة والملازم. ويقضي الطيارون وقتهم إما في الطيران أو في النوم، أو في الجلوس في غرفة الاستراحة الصغيرة في انتظار نداء الانطلاق. وتملأ المكان رائحة القهوة المرة ورائحة غاز العادم الذي ينبعث من محركات الطائرات المروحية. وفي البداية، جلس الطيارون المدربون على توخي الحيطة والحذر في الجانب الأمني من العمليات التي يقومون بها، جلسوا تجاهي محملقين بي بصمت. وحين لا يجدي الصمت نفعاً، يقومون بالإجابة عن أسئلتي بلهجة مختصرة واضحة. أما الرماة فكانوا يمضغون التبغ ولم يتفوهوا بكلمة واحدة، وقد بدت عليهم ملامح عدم الارتياح.

أراني ستيف المكان الذي اخترقته رصاصة من حذائه ذي اللون الحنطي متجهة إلى الأعلى؛ إذ تعرض لإطلاق النار في قدمه قبل بضعة أيام حين كان يحلق كعادته على

ارتفــاع ثلاثين متراً عن سطــح الأرض فوق بغداد. ويتحدث ستيف بلهجة أهالي تكساس، وتبدو عليــه رشاقة الرياضيين، ويعصب رأسه الأصلع بمنديل مزين بالرسوم. واستخدم أصبعه متتبعاً اتجاه الرصاصة من كاحله في حين كان الطيارون الآخرون يهزون رؤوسهم. وقال أحدهم: «إنه يتباهى» ثم ضحك الجميع.

تلقــى ستيــف الرصاصــة في قدمــه في أثناء قيامه برحلــة عادية في يــوم عادي. ومن العجيب أنه في أثناء الطلعات الجوية الأكثر خطورة في خدمته في العراق - حين كان ينقل الإمدادات والجرحى من ساحة القتال في النجف - أكمل مهماته تلك دون أي إصابة.

أصبحــت الحجة التي تقول: إن المتعاقدين الأمنيين هم من المدنيين لأنهم لا يشاركون في القتــال محل نظــر ونقاش بعد أسابيــع فقط من حادثة وقعــت في 31 آذار/ مارس في الفلوجــة، وبعــد أن هاجمت ميليشيات الجيش المهدي التابعة لمقتــدى الصدر حراساً من شركــة بلاك ووتر كانــوا يقومون بحراسة مبنى تابع لسلطــة التحالف المؤقتة في النجف. لم ترسل القوات الأمريكية أي تعزيزات عسكرية، لذلك لم يكن أمام المتعاقدين الأمنيين مــن خيار سوى الرد بقوة على الهجوم والدخول في معركــة حامية استمرت 24 ساعة مع المقاومــة. وبعد أن أوشكت الذخيرة علــى النفاد من المجمع، طار ستيف من بغداد حاملاً الإمــدادات إلى زملائه، وقفل راجعاً ومعه أحد الجرحــى لنقله إلى المستشفى. وقد تلقى علــى جهــوده هذه عقاباً قاسيــاً. وحين سألت ستيف إن كان السبــب الذي أوقعه في ورطة جــراء هــذه المهمة هــو أنه يفترض فيــه أن يكون طياراً مدنيــاً وأنه ينبغــي ألا يشارك في الأعمــال القتالية، وقبل أن أنهــي سؤالي، قاطعنا طيار آخر اسمه دان، وكان يحافظ على صمته حتى تلك اللحظة قائلاً: «إننا أمريكيون أولاً، متعاقدون أمنيون ثانياً».

النجف

في خضــم الصراع على القيادة السياسية الشيعية في عهد ما بعد الاحتلال، برز رجل ديــن ثوري إلى موقع الصــدارة هو مقتدى الصــدر ذو الثلاثين عاماً الــذي يتمتع بنسب ممتــد في القيــادة الدينية. فقد كان أبــوه وجدّه يحتلان مكانة مرموقــة في أوساط شيعة العــراق. وتقلد جــدّه منصب رئيس الوزراء، وعــد أبوه شهيداً بعــد أن دبّر صدام حسين

عمليـة اغتيـال له عام 1999. ولم يكن مقتدى يملك السمعة، ولا التعليم، ولا الدعم الذي حـازه أبوه أو جدّه من قبله، غير أنه بعد إزالـة الصور المشوهة لصدام حسين من شوارع بغـداد ووضـع صور والده مكانها، أصبـح واضحاً أن مقتـدى كان يستغل الفراغ الحاصل لمصلحتـه؛ إذ عمل علـى حشد الدعم عن طريـق استغلال السوابـق التاريخية، والحمى الدينية (...).

بـاءت محاولات تحجيـم الصدر وتحييده مـن الساحـة العامة بالفشـل؛ لأن رسالته المتطرفـة المناهضـة للأمريكيـين كانـت تلقـى الاستحسـان والقبـول في مجتمـع يشعر بالاضطهـاد والمعاناة على يد المستعمر الأجنبي المعتدي. فبدأ مقتدى وجيشه الذي يتميز أفـراده بلبس القمصان السوداء بالضغط على المحتـل الأجنبي، مما أضفى عنصراً من المهابة والشهرة على رجل لم يكن يعد مرجعاً دينياً حصيفاً أو قائداً سياسياً لامعاً. ولكي يعزز موقعه في السلطة، قام الصدر بتنظيم المظاهرات الحاشدة، وإلقاء الخطب الرنانة، والبدء بحملة اغتيالات بهدف إزالة منافسيه المعتدلين.

وفي محاولتهـا السيطـرة علـى الصدر، قامـت قوات التحالـف والسلطـات العراقية بإصدار مذكرة سرّية للقبض عليه، وبدأت القوات العراقية وقوات التحالف بإلقاء القبض علـى عدد من رفاقه، ووجهـت إليهم تهماً بالتورط في عملية اغتيـال عبد المجيد الخوئي أحـد رجل الدين المنافسين للصـدر في نيسان/ إبريل من عـام 2003. ولمواجهة الهجوم الـذي يشنه أعداؤه عليه، جهـد مقتدى الصدر في استثارة أتباعـه إلى حالة من الجنون المستعر.

وشهـد ربيع عـام 2004، مظاهـرات حاشدة غاضبـة على طول المـدن الجنوبية وفي التجمعـات السكانية الفقـيرة للشيعة في بغـداد، وازدادت وتيرة الهجمـات العنيفة التي يشنهـا جيش المهـدي التابع للصدر. وكان توقيت الصـدر في شـن هذه الهجمات متزامناً مـع تصاعـد المقاومة السنية في المثلث السنـي. وفي 28 آذار/ مارس، أصدر بريمر قراراً بإغـلاق صحيفة الحـوزة التابعة للصدر بحجة التحريض علـى الإرهـاب. وفي الثالث من إبريـل، ألقي القبض علـى أحد كبار معاوني الصدر بتهمة تورطه في اغتيال الخوئي. وقد

كان الهدف من هذين القرارين هو إضعاف الصدر، إلا أنهما في الواقع رفعا من منزلته؛ لأنه بدا واضحاً أن الأمريكيين يستهدفونه للقضاء عليه. استغل الصدر الهجوم الموجه إليه، وخرج آلاف الشيعة إلى الشوارع تعبيراً عن دعمهم له.

أصبحت المظاهرات الاحتجاجية مشهداً شائعاً معتاداً إلى درجة أن تجمع العراقيين خارج معسكر الغولف في النجف صبيحة الرابع من نيسان/ إبريل لم يجلب سوى قليل من الانتباه في البداية. وتظهر الصور التي التقطت لهذا الحشد بضع مئات من الناس يتجمهرون خارج البوابات، وارتفعت فوق رؤوسهم أعلام ذات ألوان مختلفة تمثل القبائل الشيعية. وفي حين كان أكثر المتظاهرين من ممثلي العشائر الشيعية، كانت حفنة من الأشخاص الذين ظهروا في خلفية الصورة يلبسون الزي الأسود، وهي العلامة المميزة لعناصر جيش المهدي.

كان معسكر الغولف في ذلك الوقت يضم مركزاً أمنياً عراقياً، وكتيبة تضم جنوداً من إسبانية، والسلفادور، وبضعة عناصر من الشرطة العسكرية الأمريكية، بالإضافة إلى فرع لسلطة التحالف المؤقتة في النجف. ويتمتع المقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة في بغداد بتحصين وحماية يتولاها متعاقدون أمنيون يعملون بموجب قواعد اشتباك مرنة من وضع الجنرال آنثوني هنتر تشوات. وهو ضابط متقاعد من الجيش البريطاني برتبة فريق، وهو نفسه من الجنود المرتزقة الذين عملوا في الفيلق الفرنسي الأجنبي. وعلى الرغم من تلك القواعد التي تسمح للمتعاقد الأمني أن يرد على إطلاق النار بالمثل إذا تعرض للهجوم، إلا أنه لا توجد أي قواعد قانونية أخرى توضح ما ينبغي للمتعاقد فعله أو عدم فعله إذا وجد نفسه في وسط المعركة والاشتباك المسلح.

كانت شركة بلاك ووتر مكلفة بحماية منشآت سلطة التحالف المؤقتة في النجف بموجب العقود التي أبرمتها مع الحكومة الأمريكية، وكان لديها ثمانية متعاقدين أغلبهم جنود سابقون من قوات سيل، يتمركزون في الموقع لحماية المقر الرئيس للسلطة في النجف. ولم يكن قد مر أسبوع على مشاهدة هؤلاء المتعاقدين للكمين العنيف الذي تعرض له زملاؤهم في الفلوجة. لذلك، وحين سمعت أصوات إطلاق النار من بين صفوف

المتظاهريـن خارج البوابـة، كان المتعاقـدون التابعون لبلاك ووتر جاهزيـن «للمواجهة والثأر» على حد تعبير أحدهم.

وكان لـوني يونغ جندي المارينز البالـغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، المكلف بإدارة نظـام الاتصـالات في المجمع قد اجتاز المتظاهرين حين وصل في ذلك الصباح إلى مجمع مبـاني سلطـة التحالف المؤقتة، وكان قد قـدم إلى معسكر الغولف ومعـه جندي آخر من المارينـز وعدد مـن المتعاقدين المدنيين لتحديث أجهزة الاتصـالات في القاعدة. وتحوّلت المهمة السهلة التي لا يتطلب إنجازها أكثر من نصف يوم من العمل من خبير الاتصالات إلى يوم من القتال العنيف.

ويتذكـر يونـغ كما ذكر في روايتـه للحدث لصحيفـة فيرجينيا بايلوت أنـه سمع قبيل الظهـيرة صوت طلقات كلاشنكوف. ومع أن سماع إطـلاق النار من بنادق الكلاشنكوف ليسـت بالحـدث الغريب في العـراق، إلا أن سماع تبـادل إطلاق النـار كان يعني شيئاً ذا خطـورة. فتناول يونغ عتاده وخوذتـه، والتقط بندقيته الرشاشـة، وتوجه إلى سطح مقر سلطـة التحالـف، حيث انضم إلى متعاقـدي بلاك ووتر الذين كانوا قـد أخذوا مواقعهم وبـدؤوا يردون على إطلاق النـار بالمثل. استقر يونغ خلف جدار إسمنتي حيث كان يراقب بفزع نـزول الرجال المسلحين مـن الشاحنات وهم يصوبون نـيران أسلحتهم نحو المبنى الحكومـي. وبحسب تدريبـه العسكري، صاح يونـغ تلقائياً، «بأمرك سيـدي، لقد حددت هدفاً معادياً وأطلب السماح بإطلاق النار». غير أنه لم يكن على السطح جندي آخر أعلى رتبة منه. وأعاد يونغ طلبه أكثر من مرة حتى صاح أحد المتعاقدين من بلاك ووتر موعزاً بإطـلاق النـار. وفي تلك اللحظة، لم تجبر الظروف المتعاقديـن الأمنيين على الدخول في معركـة قتاليـة وحسب، بل جعلتهم يتبـوؤون دور القيادة فوق جنـود المارينز. وفيما بعد، صعِدت ثلة من الشرطة العسكرية الأمريكية وجندي آخر من المارينز إلى السطح لمؤازرة المتعاقدين في القتال.

كان سطـح مبنـى سلطـة التحالـف المؤقتة علـى ارتفاع مناسـب لإطـلاق النار على المحتشديـن وراء بوابة مجمـع المباني، غـير أن المستشفى العسكري القريـب من الموقع، والبنايـة السكنيـة متعددة الطوابق، وغيرهـا من المباني التي كانت قيـد الإنشاء، جعلت

من مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة هدفاً مكشوفاً لنيران القناصة. وفي غضون ساعات تمكن الرجال المسلحون على السطح من فرض السيطرة بنيران أسلحتهم على الجموع المحتشدة في الأسفل، في حين وجه القناصة من بلاك ووتر مناظير بنادقهم نحو المسلحين الذين كانوا يطلقون عليهم النار من نوافذ المباني المحيطة على بعد عدة مئات من الياردات. وتختلف تقديرات أعداد عناصر المقاومة الذين هاجموا المجمع، ومع ذلك، نقلت التقارير أن أعدادهم كانت بالمئات. كان يونغ يتمتع بخبرة عملية في تحديد الأهداف وإصابتها كان اكتسبها في السنوات التي أمضاها في هواية الصيد حول مدينته الصغيرة في ولاية كنتاكي. وقد أتيحت له فرصة ممارسة هذه المهارة حين شرع في اصطياد الرجال الملتحين الذين يلبسون الجلابية وهم يتجهون واحداً تلو الآخر. وفي لحظة ما في أثناء المعركة، حلقت طائرتان مروحيتان من نوع آباتشي فوق المنطقة ولكنهما لم تطلقا رصاصة واحدة، ثم غادرتا المكان دون أن تهبطا في المجمع.

ثم صرخ نقيب في الجيش طالباً الإسعاف الطبي، ولم يكن على السطح أحد من فريق الإسعاف، فسارع يونغ إليه ليتبين ما يمكنه أن يفعل، ثم نزع يونغ ما على النقيب من عتاد وقص بعناية الملابس المحيطة بالجرح حول ساعده وظهره. وحين بدأ يونغ بتضميد الجراح والإسعاف الأولي، أخذ الرصاص يتطاير فوق رؤوسهم، فصاح يونغ طالباً من المتعاقدين تأمين تغطية نارية له ريثما ينقل الجندي الجريح إلى الطابق الأرضي، حيث قام البقية بإعداد غرفة للطوارئ على عجل.

وحين عاد يونغ إلى السطح، حمل معه ما يقارب السبعين كلغم من الذخيرة وصعد بها درج الطوابق الأربعة للمبنى، وكان لديه ما يكفي من الوقت لإمداد المتعاقدين من بلاك ووتر بالعتاد، ولكنه لم يملك الوقت للعودة إلى القتال. أصيب المترجم العربي المرافق لبلاك ووتر برصاصة في وجهه، وكانت دماؤه المتدفقة من الفتحة التي أحدثتها الرصاصة في فكه بحجم الدرهم تغطي الأرض. أدخل يونغ أصبعه في مكان الجرح متلمساً الشريان السباتي حتى وجده وسده بأصابعه ليوقف النزيف، ثم سحب المترجم بيده الأخرى من درعه نحو الدرج، وفي تلك اللحظة أصابت رصاصة كتف يونغ الأيسر فسقط على إثرها أرضاً، واستقرت الرصاصة على مسافة 3 سم من عموده الفقري، وأصابت شظية صغيره

عينه اليسرى ذاهبة ببعض بصره. لكن يونغ الذي كان يتعرض لإطلاق نيران مكثف، وكان تحت تأثير إفراز عال من هرمون الأدرينالين، لم يتوقف لمعاينة ما به من جراح. فنهض مرة أخرى وأمسك بالمترجم وسحبه خلف تمديدات مكيّف الهواء وأعاد أصابعه إلى فتحة جرح الرصاصة في فك المترجم وضغط على الشريان لإيقاف النزيف، وسارع أحد أفراد الإسعاف من بلاك ووتر بالضغط المتتابع على صدر المترجم لتنشيط جهازه التنفسي. ثم حمله يونغ ونزل به على درجات الطوابق الأربعة لتقديم مزيد من الإسعاف الأولي له قبل أن يعود إلى السطح لمواصلة القتال. عاد يونغ الذي كان ينزف دماً ويرشح عرقاً للقتال، ولم يشعر بالإصابة في ظهره إلا بعد أن صاح به أحد رفاقه قائلاً له: إن عليه أن ينزل إلى الأسفل لعلاج جراحه، وبعد أن نزل إلى الطابق الأرضي شعر يونغ بالدوار وكاد يفقد وعيه.

وحين سمع رجال الإسعاف أصوات الطائرات المروحية قالوا ليونغ: إنه بحاجة إلى الانتقال على متن إحدى تلك الطائرات إلى مستشفى في بغداد. وحين خرج يونغ إلى الساحة، نظر إلى السماء فرأى ثلاث طائرات مروحية تحوم حول المكان ولكنها كانت سوداء اللون وليست خضراء. ومع استمرار تعرضهم للقصف واقتراب نفاد ما لديهم من ذخيرة، قام متعاقدو بلاك ووتر بطلب إرسال طائراتهم المروحية الخاصة بعد أن أخفق الجيش الأمريكي في تلبية طلبهم بتقديم الدعم. طارت المروحيات الثلاث من بغداد محملة بالتعزيزات والإمداد، وبعد تفريغ حمولتها، نقلت الجرحى إلى المستشفى لتلقي العلاج اللازم.

ومع وصول إمدادات جديدة من الذخيرة، واصل المتعاقدون إطلاق النار على المقاومة. وجلس اثنان من الجنود الإسبان المسلحين بكامل تجهيزات المعركة خلف الجدار الإسمنتي المسلح وكانا يضحكان ويتبادلان النكت. وقد كانت السرية الإسبانية مكلفة بدور محدد بحفظ السلام وأعطيت أوامر بعدم الرد وإن تعرضت لإطلاق النار؛ لذلك جلس الجنود الإسبان يراقبون ما يحدث دون المشاركة فيما يجري. وكان في المكان مندوب مبيعات للسيارات المصفحة من شركة تكساس آرمور اسمه ليونيل، وطلب إلى ليونيل أن يعاون أحد القناصة المهرة واسمه كريد في تحديد أهدافه وكان مع كريد بندقية للقنص مزودة

بمنظار مقرب. شاهد كريد قناصاً من المقاومة يطلق النار من نافذة المستشفى القريب من المجمع وحاول إصابته بدقة. ومع كل رصاصة يطلقها كريد، كان ليونيل ينكمش وينظر إلى سحابة الغبار التي تبعث من اختراق الرصاصة للنافذة. «إلى اليسار قليلاً». بووم! فيجفل ليونيل ثانية مع إطلاق الرصاصة. «إلى اليمين قليلاً». بووم. «هناك المزيد من الأهداف». بووم!

صورت روايات مختلفة لشهود العيان تعرض مجمع المباني التابع لسلطة التحالف المؤقتة الذي تعرض لهجوم مكثف، إلا أن النيران المهاجمة لم تكن كثيفة إلى الحد الذي يمنع المتعاقدين من تصوير أفلامهم الخاصة بهم والتقاط الصور في أثناء المعركة. وأكثر أفلام الفيديو التي التقطت تصوّر وابلاً مستمراً من إطلاق النار سلطه المحاصرون في المجمع باتجاه المهاجمين تخلله رشقات متقطعة من الرصاص القادم من الطرف الآخر. ويظهر أحد الأفلام متعاقداً أمنياً مستقلاً من بلاك ووتر اسمه «موكي سبيكولي» وهو يصيح، «يا إلهي، كأننا في نزهة لاصطياد ديوك الحبش!» ويعني بذلك وجود عدد كبير من الأهداف بطيئة الحركة البادية للعيان، وأن المتعاقدين يقتلونهم واحداً تلو الآخر دون عناء.

ويتذكر متعاقد آخر من بلاك ووتر ذلك الأحد قائلاً: «حين تعرضت بلاك ووتر للهجوم في النجف في نيسان/ إبريل، لم يكن الأمر من الأسرار الكبيرة؛ بل إنهم صوّروا الحدث في أثناء وقوعه. وقد كان كلايف يصور، وكان مع كريد كاميرا أخرى. كان الجيش في المكان، لكنهم لم يكونوا مستعدين. كان رجال بلاك ووتر متحفزين للمواجهة، حتى إن وكيل مبيعات شركة السيارات المصفحة كان يصعد الدرج وينزل مسرعاً ليحضر إمدادات الذخيرة. كنا نستخدم بنادق إم - 4، وكان هناك جندي من المارينز يستخدم بندقية رشاشة، وكان قناصة المقاومة يطلقون النار علينا من مبنى المستشفى. وقتلناهم واحداً تلو الآخر إلى أن ظهرت طائرات الآباتشي، لكن الآباتشي لم تطلق رصاصة واحدة، واكتفوا بالتحليق فوق المكان، وتبين لنا فيما بعد أنهم أمروا بعدم التدخل في المعركة، وقد تمكن عشرون أو ثلاثون شخصاً من المقاومة من الدخول إلى ساحة المجمع، لقد كان التلاحم شديداً».

ويبدو أن الجيش الأمريكي كان لديه هموم أكبر مما كان يجري في النجف ذلك اليوم؛ إذ عمت البلاد انتفاضة مسلحة دفاعاً عن مقتدى الصدر، ثم استؤنف القتال في الفلوجة.

وحين حلقت طائرات الآباتشي فوق المكان لمعاينة الموقف عن كثب، فلا بد أن الجيش اقتنع بـأن قوة الحماية الموجودة في المجمع كافية لمواجهـة المقاومة التي تحاصرهم. وحدث أن وصلـت طائرة مروحية تابعة لسلاح البحرية إلى المكان مـع بداية المساء وهاجمت بعض الأهداف، غير أنها جاءت متأخرة بعد انتهاء أعنف المعارك في ذلك اليوم.

«استمـر القتـال طوال النهـار والليل، وحين تقـرأ التقارير الصحفية يخيـل إليك أن الجيش كان هو الذي يقوم بالقتال وأن رجال بلاك ووتر كانوا هناك مصادفة، لكن فريق الحراسة التابع لبلاك ووتر هم الذين كانوا في وسط المعمعة؛ حتى المدنيون منهم شاركوا في القتال. ولقد كان في المجمع ثمانية أشخاص يدافعون عن مجمع سلطة التحالف المؤقتة .... ثمانية فقط»، كما يؤكد المتعاقد.

ويتذكر ستيف أحد طياري المروحيات التابعة لبلاك ووتر قائلاً: «لم يساعدنا الجيش في أي شيء ... فشمرنا عن سواعدنا وأدينا الواجب». وكان ستيف قد عاد لتوه إلى المركز الرئيس للطيران في مقر بلاك ووتر في بغداد حين وصله نبأ رفاقه المتعاقدين المحاصرين في النجف وإصابة جندي من المارينز بجروح. وبدأ المتعاقدون بتحميل الطائرات المروحية الصغـيرة بالإمـدادات، وذهب ستيف إلى ضابط يعرفه من المارينـز؛ كي يستأذنه بأخذ جنـدي المارينز الجريح إلى مستشفى ببغداد. وعلـى الرغم من موافقة القائد على عملية الإخـلاء، إلا أن ستيف تعرض للمساءلة والعقاب مـن وزارة الخارجية الأمريكية على ما قـام به، وقال ستيف بنبرة غاضبة، «أنقذت حياة الفتى، غير أن بعض الأشخاص لم يرق لهـم ما فعلته، وسعَـوْا إلى حرماني من مرتبي معاقبة على ما فعلت، فقلت لهم: افعلوا ما يـروق لكـم، احرموني من مرتبي، فلن يردعني ذلك». كان مـن المفروض أن يقوم ستيف بـأداء دور الطيار المـدني الذي يقدم الدعم لفريق الحراسة المرافق لبول بريمر، غير أنه حـين علم أن زملاءه بحاجة إلى المساعدة، شعر أنه لا خيار أمامه سوى تلبية النداء حتى وإن تطلب ذلك تجاوز الأنظمة والتعليمات.

وصـل قائد القـوات الأمريكية في العراق الجـنرال ريكاردو سانشيـز يرافقه الناطق الرسمـي باسم الجيش الأمريكي العميد مارك كميـت إلى موقع المعركة في اليوم اللاحق للإشادة ببسالة المقاتلين الذين تصدّوا للمقاومة، وصرح كميت أمام الصحافيين بالقول،

«نحن نعلم أن مجموعة صغيرة من الجنود الأمريكيين، وجنود التحالف، والجنود الإسبان، والجنود السلفادوريين، خاضوا معركة في النجف يوم أمس من على سطح مجمع المباني التابع لسلطة التحالف المؤقتة واستمر القتال ثلاث ساعات ونصف الساعة. لقد نظرت في أعينهم ولم أستشعر وجود أزمة. إنهم يعلمون تمام العلم لماذا هم هنا. لقد خسروا ثلاثة جرحى. لقد شاهدنا الرصاص، وأغلفة الرصاص، وعبواته الفارغة على الأرض، وبصراحة شاهدنا أيضاً دماء رفاقنا التي لم تجف عن الأرض، وكانوا جميعاً في منتهى الثقة والشموخ».

لم يرد في تصريحات كميت أي ذكر عن أن المتعاقدين التابعين لبلاك ووتر هم الذين خاضوا أكثر القتال في المعركة، ولا أن الطائرات التابعة لبلاك ووتر هي التي قامت بتزويد المجموعة بالإمداد وأخلت الجرحى والمصابين، ويبدو أن الجيش كان يخشى ما كان يحدث- قوات أمن بلاك ووتر في مواجهة جيش المهدي في حين أن الجيش الأمريكي جلس يراقب الاشتباك مكتوف اليدين- بعبارة أخرى مرتزقة أمريكيين يحاربون ميليشيات مرتزقة عراقية. وفي حين كانت قواعد الاشتباك تخوّل المتعاقدين الرد على إطلاق النار دفاعاً عن أنفسهم، إلا أن واضعي تلك القواعد لم يتوقعوا أن يجد المتعاقدون أنفسهم في وضع يفرض عليهم الدخول في اقتتال يستمر عدة ساعات دون دعم خارجي. والنتيجة الثانية التي أصبحت واضحة من تلك الحادثة هي أن الجنود السابقين الذين يحملون رخصة في القتل لا يميلون إلى الفرار كما هو مطلوب منهم وبحسب ما تدربوا عليه، وما يتقاضَوْن عليه أجرهم، وبحسب ما تفرضه عليهم قواعد الاشتباك. بل وجدناهم متحفزين لإطلاق النار مراراً وتكراراً على جموع الناس التي تحيط بهم.

وفي اليوم اللاحق، تعرضت مجموعتان أخريان من المتعاقدين الأمنيين لإطلاق النار في مدينة الكوت، وقاتلتا قتالاً شديداً وخسرتا المعركة إلى أن جرى تأمين انسحابهما.

الكوت

تقع مدينة الكوت على بعد مئة ميل إلى الجنوب من بغداد على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وهي مدينة غالبية سكانها من الشيعة، ويقطنها زهاء ثلاث مئة ألف نسمة،

وبذلـك تكون مماثلـة للفلوجة من حيث عدد السكان. استولت قـوات المارينز على الكوت في نيسـان/ إبريل من عام 2003، وبُدِّدَت بلطف محاولات رجال الدين الشيعة في المدينة نقـل السلطة إليهـم. ولا يكنُّ شيعة الكـوت أي محبة أو احترام لصـدام حسين ولا سيما بعـد أن بطش بهم إثـر الانتفاضة التي أعقبت حرب الخليج الأولى، ولكنهم أيضاً اتخذوا موقفـاً معادياً من المحتلين الأمريكيين. ومع ذلـك كانت الهجمات المسلحة التي تستهدف الأمريكيين قليلة لا تكاد تذكر. وحين نقلت قوات المارينز السلطة في المدينة إلى قوة حفظ السـلام المؤلفة من جنود بولنديين وأوكرانيين في خريـف عام 2003، لقيت تلك الخطوة استحساناً كبيراً وعدت نموذجاً يحتذى في تهدئة المدن في العراق.

أقامت سلطة التحالف المؤقتة مقرها في المدينة على ضفة نهر دجلة في تجمع للمباني قبالـة المدينة يضم فندقـاً خصص لاستخدام السلطة وحوله عـدد من المباني المجاورة. وكان بـول بريمر قـد أسس مشروع الحكـم الإقليمي، وكان يضم قسمـاً لجمع المعلومات الاستخباريـة، كما قامـت الوكالة الأمريكية للتنميـة الدولية بالتعاقد مـع مؤسسة آر تي آي (مؤسسـة المثلـث لأبحاث التطوير)؛ لكي تساعدها في تطويـر نظام للحكم المحلي في المنطقـة. وكان المنسق الحكومي مـارك إهرنينغتون مكلفاً بالتواصل مع الزعماء المحليين وتشكيـل حلقة وصل في جهـود إعادة الإعمار نيابة عن بول بريمر. وكان يرابط في المجمع بضعـة جنود أوكرانيـين وبولنديين، ولكن أكثرهم كانوا يقيمـون في قاعدة عسكرية تبعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة.

كانـت شركة كيلوغ براون آند رووت مكلفة بمهمة إنشاء بعض المباني وتحصين الموقع، وقامـت تلـك الشركة بتكليـف شركة بريطانية تدعـى كنترول ريسك غـروب (مجموعة السيطـرة علـى المخاطر) بمهمة تقـديم الحراسـة لموظفيهـا. وفي 15 آذار/ مارس من عـام 2004، تولت شركة تربـل كانوبي مهمة تأمين الحماية لتجمـع المباني التابع لسلطة التحالـف المؤقتة كاملاً. وقامت الشركة بتوظيف تسعة وستين حارساً عراقياً من السكان المجاوريـن وزودتهم بالسلاح والعتاد وأجهزة الاتصـال. وعلى الرغم من المظهر الوردي لتجمـع مباني سلطة التحالـف، إلا أن الأمور لم تكن على ما يـرام في الكوت؛ إذ انتشرت

الملصقات والمنشورات في المدينة مدعية أن شركة آر تي آي هي منظمة تعمل لحساب الصهيونية ووكالة الاستخبارات المركزية. طالب زعماء المدينة بخروج مؤسسة آر تي آي وتوابع سلطة التحالف المؤقتة من المدينة ومعهم الجنود الأوكرانيون.

لم يكن في المدينة سوى عدد قليل ممن يعملون في وظائف، وعدد أقل ممن يملكون المال، وكانت سلطة التحالف المؤقتة تمثل رمز الاحتلال الأمريكي، وكانت نسبة لا بأس بها من السكان الشيعة قد نفد صبرهم من الوجود الأمريكي في البلاد، ونجح قادة مثل مقتدى الصدر في تضخيم مشاعر الغضب وخيبة الأمل لدى العوام من الناس، وأصبح مشهد المتظاهرين المنظمين أمام بوابات مجمع السلطة مشهداً معتاداً. لقد كان المتظاهرون يحملون أعلاماً وصوراً لمقتدى الصدر وخلفها مجموعات من الشبان ينفخون في الأبواق ويرددون شعارات مناهضة للأمريكيين. وقد اتخذ العراقيون ولا سيما الشيعة منهم التظاهر والاحتجاج رياضة وطنية. وكانت هذه التظاهرات عموماً سلمية، وكلامية، وجرى تجاهل أكثرها.

وفي الخامس من نيسان/ إبريل، كانت التظاهرات مختلفة. وبعد وقوع عدد من الهجمات المسلحة من أتباع الصدر، كما حدث في النجف في اليوم السابق، أعلن بول بريمر أن مقتدى الصدر هو شخص خارج على القانون ومطلوب للعدالة، وأن موجات الانتفاضة والتظاهر التي نظمها في الأيام الماضية لم تعد مقبولة ولن يسمح لها بالاستمرار. وأخيراً أعلنت سلطة التحالف المؤقتة عن المذكرة السرية للقبض على الصدر التي أصدرها قاضٍ عراقي في آب/ أغسطس من عام 2003، وهو إجراء استفز أنصار الصدر ودفعهم إلى استخدام العنف. اتصل الموظفون العراقيون الذين يعملون لدى آر تي آي صبيحة ذلك اليوم لتحذير المسؤولين في المجمع بأن المظاهرات التي ستجري في ذلك اليوم ستكون أكثر خطورة من سابقاتها، وأنه يحتمل شن هجوم على الموقع في تلك الليلة. وارتفع عدد المتظاهرين الذين كانوا بالمئات في الأيام السابقة إلى الألوف، وأصبح بالإمكان مشاهدة بنادق كلاشنكوف وقاذفات آر بي جي ترتفع فوق رؤوس الحشود المتظاهرة. وفي وسط المدينة، احتشدت ميليشيات المهدي وجموع الشباب الغاضب، وأغلقت مجموعة من المتظاهرين الجسر المؤدي إلى المدينة فوق نهر دجلة قرب

مجمع مباني سلطة التحالف، وطلب إلى منسق الحكومة من الجنود الأوكرانيين تأمين الموقع. وعلم إهرينغتنون في الحال أن ميليشيا الصدر استولت على مكاتب الحكومة المحلية، ومحطة التلفاز، والشوارع الرئيسة في المدينة. ووصلت تقارير تقول: إن أفراد الشرطة المحلية تركوا مواقعهم أفواجاً وفرادى، والتحق بعضهم بجيش المهدي بعد أن خلعوا زيهم الرسمي، وهذه التطورات كلها منذرة بالخطر.

وحين علم جون تيرنر رئيس فريق الحراسة التابع لشركة تربل كانوبي بهذه التطورات، أمر بوضع المجمع في حالة تأهب قصوى، وسرعان ما أدرك تيرنر أن لديه مشكلات أخرى عويصة- إذ تغيب أكثر الحراس العراقيين عن عملهم صبيحة ذلك اليوم، وتخلى آخرون عن مواقعهم، وترك بعضهم أسلحتهم وأجهزة الاتصال، وتلاشت من أمام عينيه قوة الحراسة التي يرأسها، فأسرع بالاتصال بمقر الشركة لإرسال تعزيزات أمنية وحراس جدد من الحلة، وأرسلت شركة كيلوغ براون أند رووت عمالها المحليين إلى بيوتهم باستثناء ثلاثة مترجمين، وأرسلت تعليماتها إلى الآخرين بالاستعداد للحصار. أخرجت قوارير الماء والذخيرة من صناديقها، وكدست في أماكن الملاذ الأخير. وجهزوا سياراتهم رباعية الدفع للانسحاب ووضعوا فيها حقائب «الهرب» التي تحتوي على ماء وزاد يكفي يومين. وطلب إلى الموظفين لبس دروعهم وخوذاتهم الواقية من الرصاص إن كانت معهم، وأعطي كل شخص تعليمات لمواجهة أسوأ الاحتمالات وذلك بالانسحاب إلى الفندق الذي هو أكثر المباني تحصيناً في المجمع. وتحصن موظفو كيلوغ براون آند رووت الأربعة، وموظفو آر تي آي الثمانية، ومعهم أربعة من مجموعة السيطرة على المخاطر، وستة متعاقدين أمنيين من شركة تربل كانوبي، وستة من موظفي سلطة التحالف المؤقتة، وأربعة جنود بولنديين، وخمسة وثلاثون جندياً أوكرانياً في المجمع وراحوا ينتظرون بدء الهجوم.

وحين انتهى إلى مسمع بول بريمر أن أحد المكاتب التابعة لسلطته قد وضع في حالة تأهب قصوى، قام بإصدار تحذيرات إلى الذين يرسلون هذه الاستغاثات الطارئة بأن يلطفوا من عباراتهم في مراسلاتهم. وردد منسق الحكومة هذا القلق حين وصف الموقف بأنه مجرد مشاجرة صغيرة مع نحو خمسين من الفتية المراهقين.

إلا أنــه ومــع بزوغ شمس النهــار، استمر تدفق الأخبار السيئــة: إذ أمهل جيش المهدي القــوات الأوكرانية وجميع جنود التحالــف والمحتلين في القاعدة العسكرية أربعاً وعشرين ساعــة للانسحاب مــن القاعدة وإلا واجهت هجوماً عليها. وأفــادت تقارير الاستخبارات أن المقاومة كانت تجهــز سيارة أوبل حمراء وأخرى بيضاء لاستخدامها في تفجير المباني والمنشــآت في تجمــع مبــاني السلطــة. وفي لحظة ما، انطلقــت سيارة مسرعــة نحو بوابة المجمــع لاختبــار الرد المحتمل على الهجــوم بسيارة ملغمة، ثم استــدارت وأعادت الكرة. وعلى الجانب الآخر من النهر، احتشدت مجموعة من الرجال بالقرب من مركز الشرطة وكانــوا يحملون قاذفات آر بي جي موجهة نحو مجمع المباني، وقد أثار هذا المشهد غضب الفــرق الأمنية؛ لأنهم أخبروا منسق الحكومة مــارك إهرنغتون مراراً وتكراراً بأن المجمع بحاجــة إلى حواجز إسمنتية مسلحة، أو جدران مضلعة لحماية الجانب المطل على النهر مــن نيران المقاومــة. ولكن الدبلوماســي البريطاني المسؤول عن المجمــع لم يقدر الخطر وظن أن الأسوار الإسمنتية القبيحة كافية.

في الساعة 2:30 بعد الظهر، طلب مكتب بريمر مرة أخرى من شركة كيلوغ براون آند رووت أن تكف عن ذكر سلطة التحالف المؤقتة في مراسلاتها الإلكترونية، وبدأ الأشخاص المحاصرون في المجمع يشعرون بأن الأمريكيين الذين يقيمون بأمان في المنطقة الخضراء قــد تخلــوا عنهــم وأسلموهم ليلاقــوا مصيرهم، ولا سيمــا بعد أن كان ردهــم على نداء الاستغاثة هو أن طلبوا إليهم التوقف عن المبالغة في وصف الموقف.

وبعــد تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، جمع مسؤول فريق تربل كانوبي في المجمع جون تيرنــر رجاله لإعطائهم موجزاً عن الوضع القائم. لا تبدو الأمور على ما يرام في الكوت. فقــد تخلت قــوات شرطة المدينة عن سيطرتها على المدينة لثــلاث مئة من عناصر جيش المهــدي الذيــن نهبوا السلاح والمعــدات الموجودة في المركز الأمنــي. ورفضت أقرب كتيبة تابعــة لقوات التحالف- جنود قوة حفظ السلام الأوكرانية والبولندية- مغادرة قاعدتها، ولم يبد لهم أنهم كانوا يتوقعون أي دعم من الجيش الأمريكي.

كانــت المجموعــة الصغــيرة من المدنيــين والمتعاقديــن الأمنيين وما بقــي من الجنود الأوكرانيــين والبولنديين مقطوعة عن أي منفذ يمكن الهــرب منه. وتحول موظفو كي بي

آر إلى جنود بعد أن وزع فريق تربل كانوبي الأمني عليهم السلاح والعتاد. ومع أن تيرنر أوضح لهم أن السلاح هو للدفاع عن النفس وحسب، إلا أنهم في واقع الأمر قد جندوا للدفاع عن القاعدة الأمريكية. واتخذ قرار بالانتقال إلى الفندق نظراً لاستحالة الدفاع عن محيط المجمع بتلك القوة الصغيرة.

ومع بداية غروب الشمس، شغلت مولدات الكهرباء لإضاءة المجمع، وبدا الجميع وكأنهم تحت الإقامة الجبرية- يأكلون الوجبات المغلفة الجاهزة في الفندق، وكانت الأسلحة معبأة، وكانوا ينتظرون إطلاق الرصاصة الأولى، ثم وقع المحذور، فبعد العاشرة مساءً هز انفجار كبير مباني المجمع مروعاً كل من كان فيه، ثم هدأت الأمور بعد ذلك، وبقيت العيون تترقب، والآذان مشدودة، إلا أنه لم يحدث شيء. فقد كان ذلك الانفجار مجرد طلقة تحذيرية.

ومع دخول الليل، تعاقب أعضاء فريق كي بي آر في رصد المكان ومراقبته، ولكن ساعات الليل مرت دون أن يحدث شيء.

وبعد انقضاء تلك الليلة التي لم تغمض فيها العيون، دخل اليوم السادس من نيسان/ إبريل وحضر سبعة عشر من الموظفين المحليين في شركة كي بي آر وشركة آر تي آي إلى البوابة للعمل كالمعتاد. وكانوا يعرفون سبب لبس الموجودين في المجمع الخوذات والدروع، ولكنهم مضوا في أداء عملهم حتى أمروا بالانصراف إلى بيوتهم قبل العاشرة صباحاً. وقبيل الظهيرة، أرسلت تربل كانوبي في الحلة خمسة عشر حارساً عراقياً لتعزيز الفريق المحاصر في المجمع. ونظراً إلى كون هذه القوة مؤلفة من عراقيين سبق لهم أن خدموا في الجيش العراقي، فقد كان مؤملاً منهم أن يكونوا أقدرَ على مواجهة الموقف من الحرس المحليين الذين تخلوا عن مواقعهم. وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً، بدأ الموجودون في المجمع يسمعون صوت إطلاق نار آتياً من خلف النهر: فقد خرجت من القاعدة أخيراً قوة معززة من الجنود الأوكرانيين لمحاولة نزع سيطرة قوات الميليشيا عن الجسر، وازدادت وتيرة القتال، وبدأت أصوات إطلاق قذائف الآر بي جي تسمع من مكان قريب. وصوبت المقاومة بعض تلك القذائف نحو المجمع، ولكنها لم تكن دقيقة، فأخطأت الهدف وانفجرت على مسافة قريبة من المبنى.

كان على الجانب المقابل للمجمع الذي يضم المبانيَ التابعةَ لسلطة التحالف المؤقتة وراء النهر منزل تستخدمه شركة هارت الأمنية، ومن سوء الحظ أن هذا المنزل كان أمام خطوط المواقع الأولى التي اتخذها جيش المهدي. وكان في المنزل، غري برانفيلد من جنوب إفريقية، وهو شرطي سابق خدم في روديسيا وجنوب إفريقية ويتمتع بخبرة واسعة. وكان قد وصل إلى المنزل فريق أمني من الشركة مكون من أربعة متعاقدين قادمين من العمارة؛ فقدم لهم غري موجزاً عما يجري. ويتذكر غري أن إطلاق قذائف الآر بي جي على مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة وقع بين وقت الظهيرة والثانية عشرة والنصف ظهراً مع إطلاق نار متقطع موجه نحو المجمع من موقع قريب من المنزل الذي يقيمون فيه. وبعد تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، أطلقت قذيفة آر بي جي أخرى، واكتشف غري ورفاقه أن المبنى التابع لوزارة التربية والتعليم الذي لا يفصله عن منزلهما سوى بنايتين من جهة اليمين كان يستخدم قاعدة لشن تلك الهجمات، إضافة إلى سطح المبنى الواقع خلفهم، والتقاطع الواقع في الجهة اليسرى.

اتصل غري بالقاعدة العسكرية الأوكرانية طالباً منهم المساعدة في إخراج رجاله بأمان، فقال له الأوكرانيون: لم لا تتصل بمبنى سلطة التحالف المؤقتة القريبة منك؟ وأغلقوا سماعة الهاتف في وجهه، ثم اتصل غري بعد ذلك بالمقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة في بغداد فقيل له: إنهم سيضعون تقريره قيد الدراسة والمداولة ولكنهم لم يقدموا له أي مساعدة عاجلة، فجلس غري برانفيلد وفريق هارت في المقاعد الأمامية وراحوا يراقبون هجوم جيش المهدي على مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة.

كان جيش المهدي يحاول التقدم عبر الجسر نحو المجمع، غير أن القوة الأوكرانية الصغيرة حالت دون ذلك، وبدأ إحراق المباني والسيارات، وتصاعدت أعمدة الدخان الأسود في السماء. وطلب الجنود الأوكرانيون دعماً جوياً، وحلقت الطائرات المقاتلة في سماء المدينة محاولة تحديد بعض الأهداف، ولكنها لم تجد هدفاً تصيبه دون المخاطرة بإيقاع أضرار جانبية جسيمة. وفي نحو الساعة الواحدة ظهراً، تلقى مجمع دوائر سلطة التحالف المؤقتة أول ضربة مباشرة من قذائف الآر بي جي في الجانب الغربي منه، ورشق

من الجهة الشرقية بنيران البنادق، وفي داخل المبنى المحاصر، سارع الجنود الأوكرانيون والمتعاقدون الأمنيون من تربل كانوبي في أخذ مواقع مرتفعة في المجمع للدفاع عنه. وصعد جون تيرنر رئيس فريق تربل كانوبي الأمني إلى سطح الفندق لمراقبة الوضع وتوجيه إطلاق النار، واندلعت بعد ذلك معركة حامية.

وعلى الجانب الآخر من النهر، وجد الفريق الأمني التابع لشركة هارت نفسه محاصراً وسط مثلث من رصاص البنادق، والقذائف المتبادلة بين المقاومة والرجال المحاصرين في مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة، وبدأ غري برانفيلد بالتفاوض مع أعضاء ميليشيات جيش المهدي لتأمين مخرج آمن لرجاله وإخلاء المكان، وقاسمه رجال الميليشيا بأنهم لا يريدون منه شيئاً وأن هدفهم هو مباني سلطة التحالف المؤقتة، وعرضوا عليه مرافقة مجموعته إلى خارج المدينة. صعد غري إلى الطابق العلوي لمشاورة أصحابه ومناقشة الخيارات المتاحة أمامهم. لقد كان بإمكانهم إغلاق المكان والانتظار إلى حين انتهاء العمليات القتالية معتمدين على صدق قول الميليشيا بأنهم ليسوا هدفاً لهم؛ ويمكنهم قبول عرض الميليشيا بمرافقتهم وتأمين مخرج آمن لهم من المنطقة؛ أو أن ينتظروا حتى تصل قوات التحالف وتخرجهم من هذا المكان. لم يكن المتعاقدون يعلمون إن كان العرض الذي قدمته لهم الميليشيا، بتأمين خروجهم عرضاً صادقاً أم أنه كان مجرد خدعة لإخراجهم من المكان المتحصنين فيه إلى مكان مكشوف. غير أنهم شعروا بالريبة لما رأوا أكثر من خمسين عنصراً من عناصر الميليشيا يحيطون بالمنزل. وبقرار مشترك، وبعد الأخذ في الحسبان صعوبة التنبؤ بأفعال جموع الغوغاء الغاضبة، والرد المتقاعس للجنود الأوكرانيين، قرر فريق هارت الانتظار في مكانهم.

وحين نزل غري إلى الطابق السفلي لإخبار المجموعة التي تجمعت أمام المنزل بنيته المكوث مع رفاقه وعدم الخروج، وضع بقية أعضاء الفريق أسلحتهم في وضع الاستعداد وأخذوا مواقع محصنة، غير أن أعضاء الميليشيا الذين انتابهم الغضب من فشل خدعتهم في إخراج الفريق، بدؤوا بالصراخ في وجه غري، ثم سمع بعد ذلك صوت سحب الأقسام من بنادق الكلاشنكوف استعداداً لإطلاق النار، وسمع إطلاق رصاصتين، تبعتهما رشقات من إطلاق النار اخترقت باب المنزل الذي كان مفتوحاً.

هرع غري إلى داخل المنزل وحاول إغلاق الباب، في حين ركض عراقي شاهراً سلاحه نحو غري، فبادره أحد المتعاقدين الأمنيين من فريق هارت برصاصة سقط على إثرها العراقي طريحاً على الأرض، ونادى أعضاء الفريق غري لمعرفة إن كان بخير ، فسمعوه يقول: «لست بخير». فهب اثنان من المتعاقدين لمساعدته ولكنهما سرعان ما اكتشفا أنه في حالة تستعصي معها المساعدة، ومع أنه كان على قيد الحياة، إلا أنه أصيب إصابة بليغة في الجذع من رصاصة كلاشنكوف أطلقت من مسافة قريبة، وكان ينزف بقوة من عدد من الجروح في ركبته المتهشمة وأطرافه الأخرى. فكّر المتعاقدان أولاً بالخروج من المدخل غير الآمن وسحب غري معهما على السلم الحديدي إلى السطح، لكن، وقبل أن يشرعا في ذلك، ألقى أحد عناصر المليشيا قنبلة يدوية داخل المنزل، ورمى المتعاقدان بنفسيهما خلف خزان ماء حديدي للوقاية من الانفجار، وأتت الشظايا المتطايرة من القنبلة على ما تبقى من حياة غري، وانسحب المتعاقدان إلى السطح مرغمين على ترك جثة غري ملقاة على الأرض.

تطاير الرصاص داخل المنزل مع بدء وصول المزيد من عناصر الميليشيا وتطويقهم المكان، وبعد توقف وجيز لإطلاق النار، وصل أربعة من العراقيين الذين يعملون مع شركة هارت، يشك المتعاقدون أنهم انضموا إلى الميليشيا، إلى المنزل وبدؤوا يناشدون المتعاقدين بالنزول والخروج من المنزل. نظر الفريق الأمني إليهم وإلى الحشود من حولهم وهزوا رؤوسهم قائلين، «لن نخرج من هنا».

وعلى الجانب الآخر من النهر، كان مجمع مباني سلطة التحالف المؤقتة لا يزال تحت تأثير هجوم مكثف، وكانت قذائف الآر بي جي تنفجر بوتيرة سريعة، وقذائف الهاون تدك جدران المباني، ورصاص البنادق يتطاير بين المباني وله أزيز. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر كان المكان محاصراً من جميع الجهات، وكانت النيران تنهال عليه من كل اتجاه مع تقدم ما يقدر بمئات العراقيين نحوهم، ثم انطلقت صفارات إنذار الغارات الجوية بين أرجاء المجمع، وانتشر خبر بأن الدعم الجوي قادم، وحلقت الطائرات المقاتلة فوق المكان ولكنها لم تطلق رصاصة واحدة.

أوشكت الذخيرة على النفاد في المجمّع، وكان الموظفون المدنيون ينقلون صناديق الذخيرة ويعيدون تعبئة مخازن البنادق الرشاشة بأسرع ما يمكنهم. وطلب إلى أحد الموظفين أن يراقب الأهداف لأحد المتعاقدين في المبنى الشمالي الغربي؛ وأصابت قذيفة آر بي جي الجدار الخارجي أسفل منهم، وأصابت الرصاصات أكياس الرمال وجدران المبنى، وأطلق أحد العراقيين قذيفة آر بي جي فأصابت الجدار الخارجي قبل أن يصيبه أحد القناصة المتعاقدين برصاصة ويرديه قتيلاً. ومع تعرض المباني لنيران مكثفة ودقيقة، أصدر تيرنر أوامره لجميع الأشخاص بالانسحاب إلى الفندق، ووصلت رسالة إلكترونية إليهم من المقر الرئيس في الساعة 3:53 تقول: «نرجو إعلامكم بأننا نفعل كل ما بوسعنا، وقد قام قسم القوات المتعددة الجنسيات بإرسال طائرات مقاتلة، ولديهم بعض الأهداف المحددة لضربها، وإيقاع أضرار جانبية ليس له اعتبار في الوقت الراهن. كونوا مستعدين للاحتماء من الغارات».

لا جدوى. فقد حلقت الطائرات في سماء المنطقة، مجبرة المقاومة على الاختباء، ولكنها لم تطلق ناراً ولم تصب هدفاً. وفي الساعة 4:30 كان المتعاقدون في تعب شديد، وعرض عليهم الموظفون المدنيون أخذ أماكنهم على خط إطلاق النار الأول.

وفي الساعة 5:47 تعرضت مكاتب شركة كي بي آر ومكاتب تربل كانوبي لقصف جديد، وبدأت قذائف المدفعية تقترب أكثرَ فأكثرَ من الفندق. وانتقل الموظفون إلى الردهات الداخلية احتماءً من القذائف التي ازدادت حدتها ودقتها.

وفي الساعة 6:00، وحين بدا أن المقاومة كانت على وشك الاستيلاء على المكان، خيّم هدوء غريب على المجمّع، موجداً توقفاً غريباً في يوم طويل من العنف المتواصل، وتلقى جون تيرنر خبراً عن طريق الهاتف يفيد بأن الجنرال الأوكراني قد توصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار حتى الساعة التاسعة من صباح الغد، وأنه سيجتمع بقادة جيش المهدي في الساعة 7:30 مساءً. غير أنه بعد وقت قصير من وصول الخبر، استؤنف إطلاق النار بين ميليشيا جيش المهدي من جهة والجنود الأوكرانيين، والمتعاقدين الأمنيين من شركة تربل كانوبي من جهة أخرى على الطرف الشمالي من المجمع، واستمر إطلاق النار الحاد مدة خمس دقائق قبل أن يعود المجمّع إلى الهدوء مرة أخرى.

ظهـرت طائرتان مروحيتـان في السماء، وحامتا حول المنطقة عـدة ساعات. واستغل الرجـال المحاصرَون توقف القتال لإعادة التزوّد بالذخيرة، وتحصين مواقعهم الدفاعية. وأخرجـوا الوجبات الجاهزة مـن أغلفتها البنية، وتناولوا منها مـا يسكت جوعهم، وهم يلقمـون بنادقهم بمخازن جديدة من الرصاص. لم تكـن معدات الجنود الأوكرانيين، ولا أسلحتهـم على درجة مـن التطوّر عموماً. وكانوا غير مهيئين لخوض معارك ليليّة، وقام متعاقـدون من كي بي آر بتزويدهم بالكشافات الضوئية، وأجهزة اللاسلكي، وغيرها من المعدات، وقدمت لهم تربل كانوبي مزيداً من الذخيرة بعد نفاد ذخيرتهم.

وفي الساعة الثامنة، علمـت المجموعة المحاصرة في المجمّع أن الجنرال أوستروفسكي من الوحدة الأوكرانية لن يتفاوض مع الميليشيا كما كان مقرراً، غير أن وقف إطلاق النار سيبقـى سـاري المفعـول. ولكن بعد ساعة، سمـع إطلاق قذائف الآر بي جـي والمورتر من خلف النهر، واستمر القصف خمس عشرة دقيقة، وعلم جون تيرنر أن فريقاً من القوات الخاصـة يستعد للقيام بعملية إنزال في المجمع للدفاع عنه، وكان يفترض أن تقوم طائرة مروحيـة بانتشال المحاصرين في المبنى. واستمر التفـاؤل بالخلاص من هذه الأزمة عدة ساعـات حتى جاء خبر جديد يقول: إن الجـنـرال الأوكراني قد ألغى الخطة برمتها نظراً إلى الخطورة التي تكتنف هبوط الطائرات المروحية في المجمّع.

في غضون ذلك، وفي المنزل المحاصر التابع لشركة هارت، استمرت لعبة القطة والفأر مـع بـدء الميليشيا توجيه نيران أسلحتها إلى سطح المنـزل. ومع انتصاف اليوم، قام أحد أفراد فريق هارت بالاتصال بالمقر الرئيس لسلطة التحالف المؤقتة، وبالقاعدة الأوكرانية القريبـة لإخبارهم بموت غري وبانسحابهم تحت وابـل الرصاص إلى سطح المبنى حيث يقبعـون تحـت الحصار، وناشدهم إرسـال قوة لإخراجهم من المـكان، وقام فريق هـارت بتهيئـة سطح المبنى بما يسهّل عمليـة انتشالهم منه بالطائرة المروحية، ولكن بدا واضحاً مـع بدايـة المساء أنـه ليس هنـاك طائرة قادمـة، وبقي فريق هـارت مطوقـاً من جميع الجهـات، ويتعرضـ لنيران البنادق والرشاشـات، وأحياناً لقذائف آر بـي جي. ثم أرسل رجـال الميليشيا أحد الأشخـاص إلى سطح المنزل المجاور لحـث المتعاقدين على الخروج مـن مخبئهم. وقالت ميليشيا المهدي: إنها تريد أخـذ الرجال إلى مركزها الرئيس حيث

ستزافقهم من هناك مجموعة أخرى إلى خارج المدينة. وبدا أن هذه خدعة أخرى، أو كمين لأخذهم رهائن؛ لذلك حاول فريق هارت كسب مزيد من الوقت على أمل أن يرسل الأمريكيون أو الأوكرانيون فريقاً لإخراجهم من هذه الورطة ثم دخلوا في مفاوضات بين أخذ ورد إلى ما بعد منتصف الليل إلى أن اتضح أن هذه الخدعة لن تستمر طويلاً؛ فقطع الرجال محادثاتهم مع الميليشيا، وبعد دقائق قليلة عاد القصف كما كان وألقيت على السطح قنبلتان يدويتان. ولم يستمر هذا الهجوم الشرس سوى مدة قصيرة ثم توقف حين حوّلت الميليشيا أسلحتها إلى الهدف الأكثر جاذبية على الضفة المقابلة من النهر.

اضطرت ميليشيات المهدي إلى أخذ مواقع دفاعية بعد أن بدأت طائرة إي سي- 130 المزودة بالمدفعية بالتحليق في سماء المنطقة، وكان المحاصرون في المجمّع ينسقون مع طاقم الطائرة تحديد الأهداف. وقد تلقى المتعاقدون العاملون في تربل كانوبي التدريب على عمليات الإسناد الجوي حين كانوا في الخدمة العسكرية، وجرى تطوير سلسلة الاتصالات بحيث يحدد المتعاقدون الموجودون على الأرض المعلومات المتعلقة بالأهداف إلى الطائرة التي تحلق في السماء. وكانت طائرة إي سي- 130 تطير على ارتفاع ثابت؛ لكي توفر مجالاً ثابتاً لمدى مدافعها الرشاشة عيار 105 ملم، ورشاشات عيار 200 ملم، وقاذفات القنابل عيار 40 ملم. وتقوم هذه الطائرات بتحديد أهدافها باستخدام منظار أمامي يعمل بالأشعة تحت الحمراء، ويعرض هذا الجهاز الأشياء التي تنبعث منها الحرارة كجسم الإنسان، والمحركات الدافئة على شكل أجسام بيضاء على شاشة تحديد الهدف.

طلب الجيش أن يفتح كل الذين يحملون السلاح في المجمع نيران أسلحتهم لاستفزاز المقاومة على الرد لغايات تحديد الأهداف، وهي حيلة قديمة لسحق العدو. فتوجه الموظفون المدنيون إلى سطح الفندق والفرحة تغمرهم بوصول المدافع الكبيرة لنجدتهم، ولكن مارك إهرينغتون أمر الجميع باحترام وقف إطلاق النار غير الموجود من الناحية الفعلية؛ فانثنوا بخيبة الأمل، غير أنه لم يكن ثمة داعٍ لأن يفتحوا نيران أسلحتهم؛ لأن المقاومة بعد دقائق أطلقت العنان لكل ما هو بحوزتها من سلاح موجهة ضربة قاصمة إلى الفندق. وسرعان ما كشفت تلك الخطوة عن مواقعهم خلف النهر، وكان طاقم الطائرة على اتصال مستمر مع المتعاقدين من شركة تربل كانوبي الذين تمكنوا من تحديد المزيد

مـن مواقع إطلاق النـار بعد القصـف العنيف. وانتظر طاقم الطائـرة أخذ الموافقة على ضرب الأهـداف، ولكن الجنرال الأوكـراني رفض السماح للطائـرات العسكرية بضرب الأهداف بذريعة أن مواقع العدو كانت على أسطح المنازل والمدارس والمباني المدنية. وعلى الرغم من ذلك المنع، قامت الطائرة بتدمير عدد من الأهداف في الشارع المقابل للمجمع، وموقـع آخـر لإطلاق مدفعيـة الهاون. وفي السـاعـة 1:45 بعد منتصـف الليل، ظهرت في السمـاء طائرتـان مروحيتان من نوع آباتشي للحلول محل طائـرة إي سي – 130 وتقديم تغطيـة جوية متعاقبـة. وكان وجود هـذه الطائرات وحـده كافياً لإخماد نـيران المقاومة الموجهة نحو المجمّع.

اكتشـف تيرنر في تلـك اللحظة أن المقاومة كانـت تتنصت على اتصـالات اللاسلكي بوساطة الأجهزة التي كانت بحيازة الحرس العراقيين الذين تخلوا عن مواقعهم وانضموا إلى الميليشيـا. فجمع تيرنر رجاله لإعلامهـم شخصياً بالأخبار السارة التي وصلته– لقد أمـرت القيـادة الأوكرانية بوضع عشر ناقلات جند مدرعة مـع غطاء جوي وستصل قبل الفجـر لإنقاذ مجموعته المحاصرة ونقلهم إلى مكان آمـن. وأذهبت بهجة الخبر الشعور بالتعب والإنهـاك لدى الفريق، وراحوا يستعدون للرحيل. وفي الساعة 4:35 بعد منتصف الليـل، التأمت المجموعـة، وكان كل فرد منهم يحمل حقيبتـه، وسلاحه، ومعداته المهمة، وجلسوا ينتظرون بصبر نافد سماع أصوات الطائرات المروحية ومحركات ناقلات الجند التي تعمل بالديزل. ولكن جاء خبر يقول: إن الجنرال أوستروفسكي قد أمر بإلغاء عملية الإخـلاء بسبب خطورتهـا واحتمالات فشلهـا العالية. فقرر جون تيرنـر وقائد المجموعة الأوكرانيـة في المجمع مـن فورهما وضع خطتهم الخاصة للإخـلاء بما هو متوافر لديهم مـن موارد في المجمع؛ إذ يوجـد لديهم عدد من السيارات رباعيـة الدفع المصفحة وغير المصفحـة التابعـة للشركات الأمنيـة، ويمكن التنسيـق لتوفير تغطية جويـة مع طائرات الآباتشـي التـي تحلق فوق المـكان، وكان عليهمـا الاستعجال في وضع موعـد نهائي تحدد بالسـاعـة السادسـة صباحـاً للانطلاق؛ لأن جيشـ المهدي سيعود بعد صـلاة الفجر إلى نصـب مدافعه ورشاشاته، لبدء هجوم جديد على المجمّع، وهو أمر من المرجح أن المجمّع لن يتحمله بسبب نقص المؤن والإمدادات.

وحين سمع الرجال المتحصنون في المنزل التابع لشركة هارت بأن المجموعة الموجودة في مبـاني سلطة التحالف المؤقتة يعتزمون الخروج، قرروا وضع ثقتهم في اثنين من الموظفين عرضـا المساعـدة، فوضعوا على رؤوسهم أغطيـة الرأس التي يلبسهـا السكان المحليون، وتسلقـوا إلى سطـح المبنى المجاور، ثم نزلوا في العتمة واستقلـوا سيارة رباعية الدفع من نوع باجيرو، وقادوا السيارة ببطء خارج المدينة باتجاه مدينة العمارة مع بزوغ الفجر.

ومـع تمـام الساعة السادسة صباحـاً، كانت السيارات ممتلئـة، ومروحيات الآباتشي تحـوم حـول مبنى مجمع المباني التابعـة لسلطة التحالف المؤقتة. وتراصّ موظفو كي بي آر داخـل السيارات المصفحــة التابعة لشركة سي آر جي ولكن جرى نقل بعض الأشخاص مـن أماكنهـم بعد ظهور خلاف حول من سيحتل المقاعـد المفضلة في العربات المصفحة، ومـن سيركب في السيارات غير المصفحة، وفي الشاحنات العسكرية. وكانت الأفضلية في المقاعـد لموظفي سلطة التحالف المؤقتـة. وفي الساعة 6:15 صباحاً، كانت القافلة جاهزة للانطلاق واصطف رتل العربات والسيارات على الشارع الذي يؤدي إلى خارج المجمّع. كان الأوكرانيون في مؤخرة القافلة في عربات نقل الجنود المدرعة روسية الصنع من طراز بي تـي آر- 60، وتتقدم القافلة العربات المصفحة التابعة للشركات الأمنية، في حين توسطت القافلة السيارات غير المصفحة والشاحنات العسكرية. جلست المجموعة بأجمعها تنتظر منسق الحكومة حتى ينتهي من مكالمته الهاتفية.

كان مارك إهرينغتون، المنسق الحكومي لسلطة التحالف المؤقتة، يتحدث إلى الجنرال أوستروفسكي مناشداً إياه إلغاء قراره الأول وأن يرسل قوة دعم إلى المكان. وكان واضحاً أنــه لم يكن يرغب في التخلي عن موقعه، وأصدر إهرينغتون أمره إلى سيارة تابعة لشركة سي آر جي بإغلاق الطريق أمام القافلة. غير أن المتعاقدين الأمنيين رفضوا تنفيذ أمره. وكانـت المجموعة على حافة التمـرد حين بدأت تصرخ على المنسـق الحكومي طالبة إليه الركـوب. وأخيراً، أنذر نقيب من قـوة الحماية المنسق الحكومي بأنــه سيترك هنا وحده إن لم يركـب معهـم. فرضخ إهرينغتون للطلـب. وفي الساعـة 6:20 انطلقت القافلة عبر البوابـة الخلفية للمجمع، ولم تطلق رصاصة واحدة حين عبروا المدينة. وفي الساعة 7:40 صباحـاً دخلت القافلـة إلى قاعدة عسكرية تابعـة للقوات المتعـددة الجنسيات في مطار

الكـوت العسكري. ونـزل الرجال من السيـارات شعثاً، غبراً، منهكين مـن التعب. وأعاد موظفو شركة كي بي تي و شركة آر تي آي الأسلحة إلى المتعاقدين من شركة تربل كانوبي وعـادوا مدنيين كما كانوا. لقد تخلت الولايات المتحدة عـن المركز الإقليمي التابع لسلطة التحالـف المؤقتـة في الكـوت، ولكن العاملين في المجمـع خرجوا بأمان، وبعـد مدة وجيزة نقـل الجيش الأوكـراني السيطرة على المدينـة إلى ميليشيات المهدي، ثـم عادت القوات الأمريكية لتنتزعها منهم بعد أيام قلائل.

فيمـا بعد، توالـت الاتهامات والإدانات. أصـرّ الأوكرانيون علـى أن قوتهم المؤلفة من ألـف وست مئـة وخمسين جندياً – وهي في المرتبة الخامسة مـن حيث العدد بعد القوات الأمريكيـة، والبولنديـة، والإيطاليـة، والبريطانية- الموجودة في العـراق، هي قوة لحفظ السلام وليس لخوض المعارك القتالية. ولهذا السبب كانت قدراتها محدودة في الرد على الهجمـات المكثفة، ولكن بعض المتعاقدين الذين حوصـروا في المجمع كانوا أكثر فظاظة، فوصف بعضهم القوة الأوكرانية «بالجبناء»؛ لأنهم «كانوا يملكون كل ما يلزمهم من الموارد والدعم لإخراجنا من هناك، ولكنهم لم يفعلوا». وأنحت سلطة التحالف المؤقتة بالمسؤولية علـى شركة كي بي آر على إخفاقهـا في وضع أكياس الرمال حول المجمع وإقامة المصدات الأسمنتية المسلحـة للحماية من صواريخ سكود، وعلى قصور نظام الاتصالات فيها. كما تعرضـ إهرينغتون لنقـد لاذع؛ لأنه عرّض حيـاة المدنيين والمتعاقديـن الأمنيين للخطر، وقـررت آر تي آي تخفيضـ التزاماتها وأعداد موظفيها في العراق بعـد الأحداث العنيفة في الكـوت. إن الهجـوم الذي وقع في الكوت هـو الهجوم الثالث علـى المتعاقدين الأمنيين في ربيـع ذلـك العام في العراق. ومع أن سلطة التحالف المؤقتة قد قللت من شأن الأحداث التـي وقعت في النجف والكـوت، وتجاهلتها وسائل الإعلام تجاهلاً كاملاً ولم تورد لها أي ذكـر، إلا أن بـلاك ووتر وغيرها من الفرق الأمنية الخاصة كانـت الشريك الأقوى عزماً من كثير من الشركاء في الحرب على العراق. وفي الأوقات العصيبة كان تحالف الفواتير[1] هم الذين ثبتوا في أماكنهم ودافعوا عنها، في حين وقف تحالف الطراطير[2] مكتوفي الأيدي يتفرجون على ما يجري.

1- coalition of the billing

2- coalition of the willing

الفصل السابع

مسار سباق الكلاب وأرض المستنقعات

«كنا نظن أن هذا الأمر قابل للتوسع»

- أحد مؤسسي شركة تربل كانوبي

يقع مضمار سباق الكلاب على مشارف مدينة ويست ممفيس في ولاية آركانسا، وسط مجموعة من الفنادق الرخيصة والمطاعم الصغيرة التي تعمل على مدار الساعة. أتيت إلى هذا المكان في رحلة بالقطار من المقر الرئيس لشركة تربل كانوبي (المظلة الثلاثية) في مدينة شيكاغو مروراً بمدينة نيو أوليانز؛ لكي أمكث عدة أيام أراقب فيها التدريبات التي تجريها الشركة، وعملية اختيار وانتقاء المتقدمين بطلبات عمل فيها. ستون شخصاً يسعون إلى الفوز بوظيفة للعمل في أحد العقود الأمنية لشركة تربل كانوبي سيمضون نهارهم في إظهار قدراتهم ومهاراتهم في قيادة السيارات على مسار السباق، ومهاراتهم في إطلاق الرصاص في ميدان خاص للرماية. وتقدّم الأحياء الفقيرة التي تحيط بمركز التدريب مثالاً ساطعاً على التباين الكبير بين حياة البذخ والغنى الفاحش التي يعيشها أصحاب الشركات الأمنية الخاصة وبين حياة الفقر والبؤس التي يعيشها الأفراد الذين ينفذون عقود تلك الشركات ويجعلون منها شركات مربحة.

وشركة تربل كانوبي (المظلة الثلاثية) هي واحدة من أحدث الشركات الأمنية الخاصة وأكثرها مغامرة وإقداماً في مشهد الشركات الأمنية الخاصة، ويدل اسمها على الطبقات المتعددة للحماية التي توفرها الشركة في سبيل تحقيق أمن وسلامة عملائها. تأسست الشركة في أيلول/ سبتمبر من عام 2003، على يد مجموعة من الأصدقاء والمستثمرين. وتتكون المجموعة الرئيسة من المؤسسين من جنودٍ سابقين في القوات الخاصة هما ماثيو مان وتوم كارنيس، إضافة إلى المستثمر الممول جون بيترز الذي يعمل في مجال

الاستثمارات المصرفية. أما رابع أعضاء مجلس الإدارة فهو إيغي بليدرز، وهو ضابط سابق برتبة رقيب أول في قوات الدلتا. وفي العام الأول من نشاط الشركة، نمت من نواتها الأولى إلى مشروع يضم ثمان مئة موظف، وتمكنت من تحقيق دخل تجاوز المئة مليون دولار أمريكي.

تنزع شركة تربل كانوبي إلى الترويج لثقافة مؤسسية خاصة بها، تقوم على اعتبار أن هذه الثقافة مستمدة من تراث قوات الدلتا، وذلك مقارنة بثقافة شركة بلاك ووتر المستمدة من تراث قوات سيل، وتراث شركة هارت المستقاة من تراث قوات ساس (القوات الملكية الجوية الخاصة في بريطانية). ويعكس الترويج لانطباع ذهني عن الشركة مرتبط بالدلتا منهجاً يقوم على السرّية واستخدام التوجه الإداري في عملها تمييزاً لها عن المظهر العدواني الصاخب المقتحم لشركة بلاك ووتر، والتوجه الكتوم المستتر الذي تنتهجه شركة هارت.

وكحال كثير من الشركات الناشئة في صناعة الأمن الخاص المتنامية، بدأ مان، وكانيس، وبيترز، بداية متواضعة، وعانوا الصعوبات في إقامة هيكل الشركة وفي توظيف وتدريب العاملين بعد فوزهم بأول عقد أمني. ويستذكر ماثيو مان كيف عملوا بكفاح وكد في سبيل الحصول على عقدهم الأول، وما تحملوا من مخاطر مالية كبيرة في سعيهم وراء هذه الفرصة. وحين طرح عطاء تقديم الحماية للحكومة في العراق، قال مان: «الحيلة الوحيدة هي أن ندخل في العطاء، وكان علينا أن نذهب إلى هناك ونعاين المواقع». ومن بين الشركات الأربع التي طلب إليها التقدم بعروض للفوز بعقد توفير مظلة أمنية شاملة لستة أشهر مقابل 300 مليون دولار، تخلفت شركتا إم في إم وآرمغروب عن الحضور، وبذلك بقيت المنافسة بين شركة بلاك ووتر وشركة تربل كانوبي. استقل ماثيو مان يرافقه هال بوف، وهذا الأخير هو جندي سابق في قوات سيل، «سيارة بي أم دبليو، وطفنا بها العراق، ووضع كل واحد منا خرقة[1] على رأسه». غير أن بلاك ووتر لم تعاين سوى نصف المواقع المطلوب تقديم الحماية لها، ففتحت بذلك المجال أمام تربل كانوبي الناشئة للفوز بالبقية.

1- كلمة خرقة الرأس كناية عن الكوفية التي يضعها العرب على رؤوسهم، ويجدر التنويه إلى أن استخدام هذه العبارة لا يجيء إلا في معرض التحقير والإهانة العنصرية الموجهة إلى العرب. أنظر تعليق قاموس أكسفورد على كلمة rag-head.

يقول ماثيو مان: «لقد فزنا بسبعة عشر عقداً من أصل ثلاثة وثلاثين، وكانت قيمة عقودنا ثمانين مليون دولار لمدة ستة أشهر. وكان التجديد بحدود الأربعين أو الستين مليون دولار. وانتهى بنا المطاف إلى تأمين اعتماد من مصرف ويلز فارغو بقيمة خمسين مليون دولار، أنفقنا منها تسعة ملايين دولار على المصاريف الرأسمالية. وكان علينا من أجل الدخول في هذا القطاع، وقبل أن نجني دولاراً واحداً، أن ننفق مليوني دولار. وقد سبق أن صرفنا مليوني دولار قبل أن نفوز بالعقد. وكنا ندفع فائدة بنسبة 8% على تلك القروض، وهي عقوبة كوننا شركة جديدة. وكان العقد الأمني مؤسساً على سعر محدد، ما يعني أن الحكومة لا تضمن لنا تحقيق أي ربح».

غير أن استثمارهم آتى أُكُلَه، ذلك أن شركة تربل كانوبي اليوم هي واحدة من الشركات الأمريكية الكبرى المزودة للخدمات الأمنية الخاصة. ويشار إليها عادة بوصفها واحدة من «الشركات الثلاث الكبرى» إلى جانب بلاك ووتر، ودينكورب. وفي عام 2006، فازت الشركات الثلاث الكبرى بعقد مشترك بينها بقيمة مليار دولار لحماية السفارات الأمريكية حول العالم.

وحتى كتابة هذه السطور، قفزت تربل كانوبي قفزة كبيرة من مكتبها الأصلي في مدينة شيكاغو إلى جناح خاص على مقربة من مركز السلطة وصنع القرار في الحكومة الأمريكية في مدينة هيرندون بولاية فيرجينيا قرب العاصمة واشنطن. كما أنها أحدثت تحسيناتٍ جذريةً على منشآت التدريب التابعة لها تختلف عن المنشآت التي كانوا يستخدمونها حين زرتهم عام 2004. وبعد أن أمضيت عدة أسابيع في مركز التدريب التابع للشركة في مدينة ويست ممفيس في ولاية آركانسا، تعرفت في أثناءها على الدم واللحم الذي بنيت عليه إمبراطورية تربل كانوبي.

في بداية العمليات العسكرية الأمريكية في أفغانستان والعراق، كان يجري انتقاء المتعاقدين الأمنيين من العناصر الأكثر خبرة من المتقدمين للعمل. غير أن الأعداد المتوافرة من المؤهلين للقيام بهذا العمل بدأت تشهد تضاؤلاً إلى أدنى مستوياتها بفعل الطلب المتزايد على هذه الخبرات نتيجة المشكلات الأمنية في العراق. هذا إلى جانب توسع

نطاق عمل الشركات الأمنية الذي أصبح يشمل مختلف مناطق العالم. وتتلقى شركة تربل كانوبي ما مجموعه ألفٌ ومئتا طلب للعمل في الشهر الواحد. ومن هذا العدد لا تكاد تجد سوى مئة وخمسين يحملون مؤهلات حقيقية تمكنهم من أداء المهمات المطلوبة منهم. ومن بين هذه الطلبات، هناك 15 إلى 20% تأتي مباشرة من الجيش. وتأتي البقية من عاملين في شركات خاصة ممن لديهم خبرة عسكرية سابقة. أما الأشخاص المشاركون في هذه الدورة فهم من خلفيات متنوعة تتراوح ما بين صاحب الخبرة، إلى الجيد، إلى الخائف، إلى القانط. وقد اجتازوا جميعاً المرحلة الأولية من مراجعة سيرة العمل الذاتية والتثبت من خلو سجلاتهم الشخصية والمهنية من أي موانع تحول دون توظيفهم. وهم الآن أمام مرحلة إثبات قدراتهم على القيام بالوظيفة، وتتراوح أعمارهم ما بين منتصف العشرين إلى أوائل الخمسين. ولا يتلقى أي واحد منهم أي أجر في أثناء مدة التدريب، غير أن شركة تربل كانوبي دفعت ثمن تذاكر سفرهم إلى ميمفيس ونفقات الإقامة حتى انتهاء الدورة.

حين وصلت إلى ساوثت ممفيس، كان المشاركون في دورة التدريب الطامحون إلى الحصول على عقود عمل مع الشركة قد وصلوا إلى فندق رمادا حيث وضع كل اثنين منهم في غرفة. وكان في الفندق مجموعات سياحية من كبار السن الذين راحوا يراقبون ويتهامسون بإعجاب واستغراب فيما بينهم عن هؤلاء الشبان وكأنهم أصناف مدهشة غريبة من التوابل. تأنق الرجال بملابس جديدة وكان واضحاً أنها لم تلبس من قبل، وهي سراويلات من نوع 5.11 ذات اللون الكاكي إضافة إلى بقية اللوازم التي يلبسها المتعاقدون الأمنيون في العادة. وهم الآن في ويست ممفيس ينتمون إلى طبقة غير محددة من المحاربين، أما في موطنهم فهم في الغالب رجال عاديون في منتصف أعمارهم يحلقون رؤوسهم لإخفاء الصلع الظاهر فيها. ولديهم أزواج، وأسر، وأقساط شهرية لدفع ثمن المنزل، وأقساط ثمن السيارة، ويحمل أكثرهم شهادة الثانوية، وخبرة عقد أو عقدين من الزمن في تطوير مجموعة من المهارات التي لها تطبيق محدود في الحياة المدنية. وقد سمعت أكثر من مرة عبر احتكاكي بهم النكتة الشائعة عن القوات الخاصة وهي أن جندي القوات الخاصة بعد عشرين سنة من الخدمة، سيكون بيده خاتم من التوباز،

ودراجة نارية من نوع هارلي، وزوج ناشز، ويمكنه التقدم بطلب للعمل في متجر وول مارت في وظيفة محيي الزبائن على المدخل الرئيس.

يرأس برنامج تدريب المنتسبين إلى شركة تربل كانوبي رجل بدين، أشقر، مرح، اسمه جم تروتمان، ويلقب بالموظ[1]، وينحدر من وسط غربي البلاد. ويعقد جم لقاءاته في جناح يقع في الطابق الثاني من الفندق، مع أنه قال لي بأن المدربين الذين يعملون تحت إشرافه يقيمون في فندق هوليدي إن المجاور؛ لأنهم لا يطيقون البق الذي يعشش في الأسرة هنا. وهو جندي سابق خدم في قوات الدلتا. ويوحي مظهر جم بسبب لياقته البدنية وسلوكه المرح بعمر يقل بعشر سنين عن عمره الحقيقي البالغ خمسين عاماً.

عمل جم في الجيش مدة عشرين عاماً وستة أشهر قبل أن يسرّح من الخدمة. أو كما يعبّر هو بقوله: «بعد أن تمضي عشرين عاماً في الخدمة، فيشت». محاكياً صوت القمامة حين تلقى في المزبلة: «لقد خدمت في بيروت، والسلفادور، وزائير، وأربع وستين دولة أخرى».

ومنذ تسريحه من الخدمة، لم يتقاعد جم من الناحية الفعلية. «لقد عملت في قطاع الأمن أكثر وقتي- سنة ونصف السنة في البوسنة والهرسك، وسنة ونصف السنة في كوسوفو، وفي الفلبين، وأفغانستان. وبعد 11 أيلول/ سبتمبر قمت بتدريب ضباط أمن الطائرات».

كان جم ناجحاً في حياته المهنية. وقال لي ينصحني، «إنك لا تستطيع أن تعيش حياة طبيعية في هذا النوع من العمل... لم أعد متزوجاً. في هذا العمل لا يمكنك الاحتفاظ حتى بخليلة. وأراني صورة لصديقته الحالية- وهي فتاة صغيرة جذابة يبدو لي أنها من أصول مكسيكية. ولأنني أمضي كثيراً من الوقت بعيداً عن موطني، قدم لي جم نصيحة اكتسبها في إدارة العلاقات الشخصية من مسافة بعيدة: «اذهب إلى موقع (إف تي دي. كوم) واحجز بطاقات التهنئة بالأعياد والمناسبات قبل حلولها، وسيقوم الموقع بإرسال تلك البطاقات في مواعيدها المحددة».

1- الموظ هو حيوان ضخم من الأيائل ينتشر في أمريكة الشمالية ويشبه في شكله الإلكة، وهذا الأخير هو ظبي كبير الحجم.

يُظهر جم ذو الابتسامة العريضة الدائمة اعتزازه وفخره بنوعية برنامج التدريب السريع الذي يتولّاه. ويتباهى بأن جميع المدربين عنده يتمتعون بتدريب عسكري وخبرة راسخة في مجال الحراسة الشخصية، وبعضهم خاض معارك قتالية في العراق من عهد قريب. وقال لي بأن السكان المحليين في مدينة ويست ممفيس يطلقون على تلاميذه «قتلة العراقيين»، ويزعم أن «معدلات الجريمة انخفضت انخفاضاً حاداً في هذه المدينة منذ أن انتقلنا إلى هنا». ولا يعتقد جم أنه بحاجة إلى سبعة آلاف هكتار وأجراس وصفارات كالتي تملكها بلاك ووتر لكي تقوم بعملية تدريب وانتقاء المتعاقدين الأمنيين. ويؤكد لي جيم بأن «الأمر كله يكمن في نوعية المدربين... إننا نستثمر زهاء 20 ألف دولار في هؤلاء الأشخاص قبل أن نوظفهم. إننا لا نريد منهم أن يفشلوا في عملهم؛ ولهذا السبب نحرص على تمحيصهم، ونتشدد في معايير انتقائهم قبل توظيفهم».

ترسل الشركة عادة ستين شخصاً في كل دورة تعقدها، ويتوقع جم أن يرجع ثلثهم دون عروض للتوظيف. وفي هذه الدورة التي تستمر خمسة أيام، سيتدرب المنتسبون على مهارات الحماية المتقدمة بحسب متطلبات وزارة الخارجية الأمريكية للحماية الدبلوماسية، وستقاس قدراتهم على العمل بترابط وتناغم في فرق عمل تتميز بدوام التغيير. وسيتعلم الرجال مبادئ الإسعافات الأولية، وكيفية استخدام أنظمة تحديد الموقع عن طريق الأقمار الصناعية (جي بي أس) وأساسيات الأمن، وعمليات الاستطلاع المتقدم، وقيادة المركبات. ويبدأ التدريب على الأسلحة من مسدس غلوك 9 ملم باستخدام حركة فردية قبل الانتقال إلى مستويات متقدمة في إطلاق النار على مجموعات كبيرة باستخدام بنادق إم- 4 الرشاشة. ومع تقدم شركة تربل كانوبي في عملها، فسوف تدمج أسلحة ثقيلة ضمن برامجها مثل قاذفة القنابل من نوع مارك- 19، وبنادق رشاشة عيار 50. ملم، وتكتيكات متقدمة في قيادة السيارات، وفن الرماية.

يساعد في عملية التدريب مدرب اسمه سيسيل، وهو رجل مسن في منتصف الستين من العمر، سبق له أن عمل في القوات الخاصة. اصطحبني سيسل لمعاينة ميدان سباق الكلاب- منشأة بالية تكاد لا تتسع لعشر سيارات متسابقة. أما الرفاهية التي يوفرها المضمار لمشجعي سباق الكلاب فلا تتعدى بضعة مقاعد بلاستيكية، والنقانق الرخيصة،

وأنواعاً من البيرة الرديئة. وتسير الكلاب السلوقية المكممة بسرعة بطيئة نحو مربط الانطلاق، ثم يضرب الجرس معلناً بَدْءَ السباق مع انطلاق «أرنب» آلي زهري اللون -والحقيقة أنه عبارة عن لفائف بالية من القماش- على سكة حول المسار لكي تلحق به الكلاب، ولكنها لا تكاد تدركه. ويبدو أن سباق الكلاب يشابه سباق الرجال الذين جاؤوا إلى هنا سعياً وراء تحقيق حلمهم بالعمل في قطاع الأمن الخاص. ويبدو من الملل المرتسم على وجوه الحضور أنهم أكثر انجذاباً إلى الغطاء الذي يوفره هذا الميدان من شمس الظهيرة الحارقة منهم إلى رؤية الكلاب وهي تتسابق.

كان المتدربون يقودون السيارات في المنطقة الخالية من الميدان، وظهر الميدان كأنه سيرك من المخروطات برتقالية اللون والإطارات المحترقة، وسيارات سوبربان رباعية الدفع. ومع أن العين المجربة يمكنها التمييز بين مَنْ كان يعمل في المارينز ممن عمل في الشرطة أو في القوات الخاصة، إلا أن الفكرة هنا هي الحكم على كل فرد منهم بحسب مهاراته وقدرته على العمل ضمن فريق. فإذا عيّن الواحد منهم للعمل في فريق حراسة شخصية، فإن عليه إجادة العمل ضمن فريق وامتلاك القدرة على التعامل بفاعلية مع الظروف المتغيرة بغض النظر عن تدريباته السابقة.

وعلى جانب المسار، وضح لي سيسل نظام العمل المتبع: «إننا نستخدم سيارات السوبربان الكبيرة كي يتعوّد المتدربون قيادة السيارات الكبيرة... ونحن هنا نخضعهم لاختبارات الالتفاف الحاد، والانسحاب عن طريق الرجوع إلى الخلف، وغيرها من التمارين التي نستخدم فيها المخروطات البرتقالية. والهدف من هذه التمرينات هو وضع المتدربين في ظروف تشابه تعرض القافلة لهجوم مسلح في الحياة العملية، ويستخدم المدربون كُرات التنس الأرضي ذات اللون الأصفر المشع لإلقائها أمام السيارات لمحاكاة القنابل اليدوية، وعند رؤيتها يضغط المتدربون على مكبح السيارة ويرجعون إلى الخلف في مناورة للهرب والنجاة من الهجوم. وفي العراق، تتنوع السيارات التي يقودونها بين سيارة صغيرة عادية مستوردة إلى سيارات مصفحة رباعية الدفع. غير أنهم في ويست ممفيس يعتمدون على سيارات سوبربان التي تصنعها شركة جي إم سي، وسيارات تشيفي سدان التي يستأجرونها من شركة ناشونال لتأجير السيارات. ويقومون بشراء

تأمين شامل على هذه السيارات. ويقول لي سيسل: إنه يبدو أن شركة ناشونال لا تهتم حين نعيد إليها السيارات وعليها آثار الكدمات. «أو على الأقل لم نسمع منهم أي شكوى من ذلك». أعدنا إليهم واحدة من السيارات التي تعرضت للانقلاب أكثر من مرة، ولا أتذكر القصة التي اختلقناها لتفسير حالة السيارة، ولكنهم نظروا إلى السيارة، ثم نظروا إلينا وابتسموا».

تتباين مهارات الطلاب في قيادة السيارات تبايناً كبيراً، فبعضهم كان يتردد في القيادة بسرعة، وبعضهم كان يفقد السيطرة. واصطدم آخر بسيارة أخرى في حادثة ثانية تتطلب تقديم تفسير مقنع لشركة تأجير السيارات. واستولى الذعر على بعضهم فكان يستدير إلى اليسار حين كان المدرب يأمره بالالتفاف إلى اليمين. ويقدم بعضهم الأعذار ويكتفي آخرون بإطلاق اللعنات والشتائم. ولا يشعر المدربون بالغضب، بل كانوا يقترحون بهدوء على الطلبة تحسين الأداء ويقدمون ملحوظاتهم ونقدهم بما يتلاءم مع متطلبات العمل مع تربل كانوبي. وقال لي سيسل: «إننا نقود السيارات بشدة وثقة، ولكننا نحافظ على التوازن بين كون المرء بارزاً وكونه مغناطيسياً لرصاص الأعداء»

تعلم سيسل في المدة التي عمل فيها مدرباً في شركة تربل كانوبي درساً مهماً وهو أن «أفراد الشرطة يحسنون فن قيادة السيارة؛ وأن أفراد الجيش يحسنون إطلاق النار»

اقرع، اسحب، اضرب

بعد رحلة قصيرة تجاوزنا فيها حقول القطن وعبرنا فوق جسر خشبي، وصلنا إلى ميدان التدريب على الرماية. وهذا الميدان يجعل من مسار سباق الكلاب ما يبدو فخماً إذا ما قورن به. وحين وصلنا إلى مصف السيارات، شاهدت شعار شركة تربل كانوبي متدلياً قبالة السياج المهترئ الملتف حول الميدان. واحتمالات بقاء هذا الميدان الذي استأجرته تربل كانوبي لتدريب المنتسبين إليها على الرماية تضاهي احتمالات بقاء الكثب الرملية التي أنشئ عليها هذا الميدان. والمكتب الرئيس لإدارة هذا الميدان هو عبارة عن مقطورتين متنقلتين لحمتا معاً. وفي الداخل، تغطي الجدران صور وملصقات ويافطات، وصفوف من القبعات المغبرة التي تركها رجال الشرطة والجيش الذين تدربوا هنا تذكاراً

في هـذا المـكان. وكان هنـاك صورة للرئيس بوش وزوجه لورا وعليهـا توقيعه. ويوجد في الميـدان غرف درس متنقلة، وحاويات تخزيـن، بالإضافة إلى عدد مـن ميادين الرماية و«غـرف قتل» مصنوعة مـن أعمدة السـكك الحديدية. و«غرف القتـل» هذه هي نماذج بدائيـة تحاكي المباني وتستخـدم لتدريب الطلبة على فنون اقتحـام المباني وتعقب العدو داخل الغرف، وعلى فنون القتال القريب داخل المباني باستخدام الذخيرة الحية.

كانت الحـرارة تقارب 27 درجة مئوية والرطوبة عالية، وكان الضباب الخفيف المغبر يمـلأ السمـاء مع بعض الغيوم. ولدى وصولنا إلى المـكان، كان الفريق قد بدأ في التدريب علـى إطـلاق النار في أثنـاء الحركة. وهم اليوم يتدربـون على استخـدام بندقية إم- 4، وهـي نسخة معدلة عن بندقية إم- 16 وتختلـف عنها في كونها أقصر منها. وأكثر الطلبة يجيدون استعمال البنادق التي يستخدمها الجيش الأمريكي.

يبدو الميدان متواضعاً، فهو مكون من سكك حديدية مثبتة فوق رصيف رملي مرصوص، ومنشـآت أقيمت علـى جناح السرعة لتقي مـن أشعة الشمس، وطـاولات عريضة لتوفير مـكان تنظف عليـه الأسلحة وتعاد تعبئتهـا بالرصاص. وقام المـدرب واسمه ديفيد، وهو شـاب رياضي يلبس نظـارات شمسية من نوع أوكلي، وسترة تحتيـة واقية من الرصاص، بشرح البرنامج وبين لي أهدافه.

«هـذه التمارين هي تمارين تركز على الحركـة الفورية، ونقوم بتدريب المنتسبين على أساليـب الانسحاب والتراجع؛ لأنهم سيعملون في الحراسـة الشخصية وليس في وحدات المدفعيـة. والهـدف الثانوي هو الاستغـلال الأمثل للتغطية، ونركـز في المرتبة الثالثة على حسن التعاون مع فرق الزملاء ... إنني أحاول أن أعودهم الاتصال، وأكثر الأشخاص هنا يحسنـون الرمايـة، لكن ينقصهم مهارة العمل ضمن فريـق. يأتينا أشخاص لديهم كثير من المهارات التكتيكية. ويأتينا أشخاص بمهارات متنوعة في الرماية، غير أن بعض الذين خدمـوا في سـلاح المدفعيـة لم يسبق لهم أن استخدمـوا مسدساً من قبـل، وبعض الذين عملـوا في جهـاز الشرطة لم يسبـق لهم أن استخدمـوا بندقية رشاشـة، والمعوّل عليه في النجاح هنا هو قدرتهم على تحمل الضغط وحسن التعامل مع الأحوال الصعبة».

إننــا نبحث عن الشخصــ الذي يمكن أن يقاد، ويجيد الإصغاء، لا الأصم، وأن يحسن الرماية؛ أما الشخص الذي لا يحسن العمل مع الآخرين، فليس له مكان هنا. في مثل هذه الأحــوال ثمــة 60% إلى 70% من الأشخاص يتحلَّوْن بصفات القــادة. وإذا كانوا من نوع القائــد الــذي لا يمكنه أن يكون تابعاً، فهذا الصنف لسنــا بحاجة إليه هنا. ويمكن قراءة الشخصــ بمجرد التفرســ فيه، وستعــرف كل شيء من نظرة واحــدة في عينيه. يمكنك أن توقــف شخصــاً في منتصف التمرين وتسأله عما يفعل، فــإذا نظر إليك نظرة الغزال المندهشــ من ضوء السيارة المسرعة المتجهة نحــوه، فاعلم أن عقله هو لوح كبير ممسوح ليســ عليــه شيء. وأقول لهم دوماً، إذا كنت لا تعلم ما الذي تفعله، فلا تسرع في إنجازه»؛ لأن المتعاقــد الأمني لا يحتفــظ بكميات غير محدودة من الذخيرة، وعليه أن يحرص على كل رصاصة في حوزته.

استــأذن ديفيــد قبــل أن يتوجــه إلى إلقاء درسه علــى مجموعة مــن المتدربين الذين يحملــون بنــادق إم- 4 الرشاشة. كان التمرين يفترض أنهــم يتعرضون لهجوم، والهدف منــه هو إتقان مهارات تنفيذ الانسحــاب. انقسم الفريق إلى مجموعات كل واحدة مكونة مــن شخصين، ومارسوا تكتيك «اجــر وارم» وفيه يقوم واحد بإطلاق النار لإشغال العدو، في حين يجري الآخر منسحباً إلى الخلف، ثم يتبادل الاثنان الدور، فيقوم الشخص الذي انسحــب بمشاغلــة العدو بإطلاق النــار ريثما ينسحــب صديقه ويصل إليــه ويعيد تعبئة الرصاصــ. وتعــاد الكرّة. وبعد انتهاء التمرين، صاح ديفيد فيهــم قائلاً: «حسناً، حسناً، لنتذكر أن نتواصل بلغة إنجليزية بسيطة، سليمة».

وعلــى الرغم من أن المدربين يفضلون استخدام اللغة الإنجليزية البسيطة، إلا أنهم يصــدرون تعليماتهم وأوامرهم عبر مكــبرات الصوت مستخدمين لغتهم الخاصة بهم: اتــرك مسدسك «ساخنا»[1]، سنتدرب علــى «النــاشف»[2] أولاً ثم بالذخيرة الحية. «امتص الظل. راقب سلاحــك. اشرب الماء. البس حزام بندقيتك». ويستخدم المدربون مزماراً هوائيــاً للإيعاز بوقف التمرين، وذلك لإعلام الطلبة بتكتيك أفضل، كإطلاق النــار حول

1- أي معبأ بالذخيرة وجاهزاً لإطلاق النار.

2- أي دون ذخيرة حية.

عملاء أفغان يبحثون عن ابن لادن

جيمي سيمث على الحدود الأفغانية الباكستانية

القوات شبه العسكرية

منظر لمبنى بشتوني تقليدي في **غارديز**

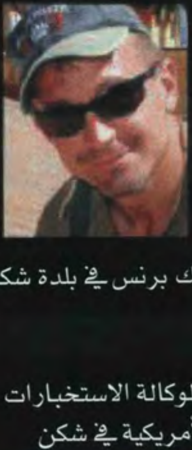

إريك برنس في بلدة شكن

إطلالة على المناطق الباكستانية من نقطة استحكام يحرسها جندي أفغاني يعمل لمصلحة الأمريكيين

قاعدة أمامية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في شكن

الرئيس التنفيذي لشركة ساندلاين تم سبايسر مقتاد
إلى المحكمة في بابوا نيو غينيا

الألماس الدموي كان السبب ورا
اندلاع الحروب في أنغولا وسيراليو

المرتزقة

طيارون تابعون لشركة النتائج التنفيذية في سيراليون
وأمامهم طائرة مي 24- المزودة بالمدافع الرشاشة

س كلاسينس وحوله جنود مرتزقة تابعون لشركة النتائج التنفيذية
وكلهم جنود سابقون من كتيبة 32 (الجواميس) في سيراليون

مقاتل من الكامجور وتظهر عليه
التمائم والتعاويذ السحرية

شانون كامبل مع فريق الحرس
المرافق لبول بريمر في العراق

فريق الحرس الشخصي المرافق
شركة دينكورب في حراسة حامد كر
الذي يظهر في وسط قصره في كا

الحرس الإمبراطوري

منظر من مدينة غارديز في أفغانستان، حيث يقوم متعاقدون مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وأعوانهم من المرتزقة الأفغان بالبحث عن أعضاء القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن

غريغ ماكسيم (الرابع من شمال الصورة) مع أول فريق حراسة شخصية للرئيس كرازاي (الشخص السادس من الشمال)

بيلي وا، أكبر المتعاقدين المستقلين سناً من القوات شبه العسكرية الذين عملوا مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية

كيث «جاك» إيدما في تورا بورا

غريز وتوول يقضيان فترة
استراحة في أثناء العمل

طائرة مروحية تابعة لشركة بلاكووتر تقوم تزويد
المتعاقدين المحاصرين في النجف بالإمدادات

المشهد العراقي من عيون فريق أمني خاص

المتعاقد الأمني الملقب بـ «قرد مؤخرة السيارة» ويظهر
في الصورة الحافلة التي يطلق عليها «حافلة الكراهية»
التابعة لفريق الحلة.

مياغي

فريق المهمة التابع لشركة بلاكووتر

المتعاقدون الأمنيون

متعاقدون أمنيون تابعون لشركة بلاكووتر في مدينة نيو أورلين يقومون بأعمال حراسة عقب إعصار كترينا

متعاقدون تابعون لبلاكووتر ومعهم جنود أمريكيون تحت الحصار في النجف

الهجوم القاتل على مخيم قوات الغورخا. وهذه الصورة التقطت من المقر التابع لشركة بلاكووتر.

الانقلاب

رئيس جمهورية غينيا الاستوائية
أوبيانغ يناقش محاولة الانقلاب

سيمون مان في هراري

متعاقدون تابعون لبلاكووتر ومعهم جنود
أمريكيون تحت الحصار في النجف

السفينة المسماة «روزلين جُوي»، كانت جزءاً من أسطول تربل أوبشن للنقل البحري في محاولة الانقلاب التي وقعت عام 2004، وتظهر في الصورة في ميناء باتا.

نقولا دو توا عام 2002 وعام 2006

طائرة أنتونوف التي استأجرها

الزاويــة، وأحيانــاً ليقولوا لهم بأن ما حــدث لو وقع في الحياة العمليــة لكانوا جميعاً في عداد القتلى».

وفي إحدى المرات، علقت الطلقة داخل بندقية أحد الطلبة- أو كما يقال في لغة الرماة دخّنــت البندقيــة- وتوقــف الطالب ميلر لإخــراج الطلقــة، فأوقف ديفيــد الدرس ليريه الطريقة الصحيحة لإخراج الغلاف الخارجي من الطلقة دون أن يعرض زملاءه للخطر. «حسنــاً، إذا حــدث أن علقت الطلقة داخل أنبوب البندقية، تذكــر ... اضرب بيدك على الماســورة». ثم حــوّل البدالة إلى الجنب. «اسحــب». وسحب ديفيد بأصبعيــه الأسطوانة المعدنيــة التي تحتوي على الخرطوشة. «لاحــظ». ثم نظر بداخل ماسورة البندقية للتيقن مــن أن الرصاصــة قد خرجت فعلاً. «حسناً، بعد ذلك، حرر ثم اقرع». ويطلق ديفيد على هذا المبدأ «سبورت»[1] رفع أحد المتدربين يده قائلاً: «إننا لا نستخدم هذه اللفظة الأوائلية في قوات البحرية، بل نستخدم عبارة: «اقرع، اسحب، اضرب»

فــرد عليه ديفيد: «مهمــا كانت القبيلة التي تنتمي إليها، اتبــع الخطوات التي ذكرتها لكم، وكفى».

في ذلــك المســاء، اجتمع المدربــون في فندق رمــادا في جلسة مغلقة لتقريــر من سيقع عليه الاختيار للعمل في الشركة ومن سيفوته الحظ، وكانوا يجتمعون كل يوم لمناقشة أداء المتدربــين وتصفية المؤهلين من غير المؤهلين. كان في الاجتماع تسعة مدربين وموظف من الشركــة. وسيقوم أربعة منهم بتقويم أداء الطلبة في قيادة السيارة، في حين يتولى خمسة منهم تقويم أدائهم في الرماية. ويوضح جم قائلاً: «بدأنا بستة وأربعين منتسباً، أسقطنا اثنين غــير مؤهلين، والآن لدينا ثمانية وثلاثون، وهذا العدد ليس سيئاً، لكننا بحاجة إلى غربلة المزيد. في الدورة السابقة أسقطنا تسعة في يوم واحد. ونفكر الآن بإسقاط بعضهم بسبب الإخفاق في توخي الحيطة والسلامة في استخدام السلاح».

أغلــق أحد المدربين باب غرفة الاجتماع في الفندق التي يطلق عليها بمحض المصادفة غرفة الدلتا، وأسدلت الستائر على النوافذ، وفتحت علب البيرة وأكياس رقائق البطاطا.

1- SPORT وهذه الكلمة هي اختصار للأحرف الأولى من الخطوات المذكورة slap, pull, observe, release, tap

وكان علـى الطاولة التي جلس حولهـا المجتمعون حزمة من الملفات ذات لون حنطي وفيها سجـلات كاملة عـن المتدربين مرفقـة بصورة كبيرة لـكل واحد منهم. ومـع أن المدربين يملكـون معلومات وافية عـن كل مرشح، إلا أنهـم كانوا في أثناء مناقشـة الأداء يشيرون إليهـم بحسب الأرقام التي أعطيـت لهم وقت تسجيلهم في الـدورة. سحب أحد المدربين أحـد الملفـات وقرأ الرقـم الموجود على الملف، ثم نظـر حوله باحثاً عن اتفـاق في الرأي. «مرتبك بعض الشيء، لكنه يحسن العمل مع الآخرين في الفريق؟»

طأطأ البقية رؤوسهم كناية عن موافقتهم لما قال وهم يرشفون من علب البيرة ماركة ميلر لايت.

«اثنـان وأربعون، وثمانية وثلاثون، وخمسة وثلاثون، وخمسة وأربعون، وواحد وثلاثون ليسوا على مستوىً مقبول».

وظهـر جلياً مـن مراجعة المدربين لأداء المنتسبين أن تركيزهـم كان على العشرين في المئـة الذين سيخفقون في اجتياز متطلبات العمـل في الشركة. وعلى الرغم من أن الجزء الأكـبر مـن غير المؤهلين جرى استبعادهم منذ البدايـة، إلا أن عدداً من المرشحين كانوا يتقلبـون بين دائرة الرفض والقبول، حيث أبقي عليهم بسبـب إظهارهم مهاراتٍ معينة، لكن ظهر فيما بعد عدم كفايتهم أو ضعفهم في اتخاذ القرار.

قـرأ أحد المدربين ملحوظة بيده كتبت بخط اليد، ثم توسع قائلاً: «أثار الرقم ستة عشر اهتماماً باكراً بعد أن غيرنا لقبه إلى «الدابة» وهو بارع في اختلاق الأعذار. لقد قلـت لـه: إن عليه أن يبقي سلاحه في وضعية الأمـان إلى أن يلمح الهدف. إنه يستحق لقـب «الأحمق»؛ لأنه تسبب في إحراق سلاحه. أمـا قدراته في التحليل فليست بأفضلَ من روث الكلاب».

وقـارن مـدرب آخر ملحوظاته. «إن رقم ستة عشر ليسـ أكثر من فلينة ملقاة في نهر، ليسـ لديه قـدرات على الاستيعـاب، حين يركض الآخـرون يركض معهـم، وحين يقفون يتوقـف معهم. نعم، وهناك شـيء آخر، لقد اضطر مايك إلى أخـذه جانباً ليتحدث إليه حـول عادتـه السيئة في التبـول. لقد كان يتبـوّل في ساحة ميدان إطـلاق النار». وضحك الجميع حين سمعوا ذلك.

وأضاف مدرب آخر: «بالمناسبة، لقد نسي رقم ستة عشر في التدريب الأخير أن يعطي إيعاز «الرجل الأخير». وجعل ثلاثة من المنتسبين يسيرون أمامه في مجال إطلاق النار». وأضاف بأن رقم ستة عشر تلقى ثلاثة تنبيهات في يوم واحد.

وبعد تقويم أداء جميع المرشحين في الرماية، تحوّل النقاش إلى تقويم أدائهم في قيادة السيارات: «يمكننا أن نحصي السائقين الممتازين على أصابع يد واحدة، لقد أتقنوا الأداء في الموكب المكون من سيارتين بسرعة جيدة. ونحن الآن بصدد تقويم اثنين أو ثلاثة من الذين سنستثنيهم. لقد وقع تصادم قريب اليوم بين سيارة المقدمة والسيارة التي خلفها. وهذا ما حدث- خرجنا من التفاف دائري، تقدمت سيارة الطليعة لتغلق الطريق والتفت سيارة الليموزين، فصدم أحدهم السيارة من الخلف». ثم توقف المدرب برهة ليتساءل، «لدينا تأمين يغطي هذا، أليس كذلك؟» أومأ البقية برؤوسهم أن نعم. «حسناً، ليس لدي مشكلة في ذلك. القرار بالاستبعاد؟ وأومأ أفراد الجوقة برؤوسهم مرة أخرى تأييداً لما قيل دون التلفظ بكلمة واحدة. «حسناً، سنرسلهم إلى بيوتهم قبل قداس الأحد».

راجع الجميع كيس الملفات التي أمامهم وعادوا لمراجعة مناقشاتهم، وقرروا استبعاد ثلاثة من المتقدمين بطلبات عمل قبل حلول اليوم الأخير من الدورة. وهناك طالب آخر اسمه دون ستاوت، وهو شرطي سابق، رأى المدربون أنه يفتقر إلى النضج إلى حد بعيد، ولكنهم قرروا استبقاءه، ووافقوا جميعاً أنه سيحتاج إلى توبيخ وتذكير بأنه كاد أن يستبعد. ثم قام المدربون بجمع علب البيرة وأكياس رقائق البطاطا، وقفلوا عائدين إلى غرفهم في فندق هوليدي إن.

ناقش المنتسبون إلى الدورة في أثناء تناولهم العشاء تطلعاتهم وطموحاتهم المهنية، فهم على وشك الانتهاء من مدة التدريب، ومن يجتاز منهم «العقبة الأخيرة» فسوف يصل إلى حفل التخرج. ومن أعجب العجائب أن المتقدمين بطلبات عمل في الشركة لديهم فهم محدود لما سيحدث على وشك الاستبعاد. وكان أحد موظفي شركة تربل كانوبي واسمه آنجل، وهو جندي سابق في القوات الخاصة، يشاركهم العشاء ويجيب عن أسئلتهم.

افتتح دون ستاوت الذي عمل شرطياً في مدينة صغيرة بولاية المسيسيبي الحديث قائلاً: «إن هذه الوظيفة تعني لي أكثر مما تعلم. إنني متزوج منذ ثمانية شهور، ولم يسبق

أن كنت مكلفاً بإعالة أي أحد من قبل، وأعلق كثيراً من الآمال على حصولي على هذه الوظيفة». وكان يبدو أن دون يجد صعوبة في فهم دورة العمل 30/90، إلا أن آنجل وضح له ذلك بقوله: «إنك ستعمل تسعين يوماً في البلد، ثم تمضي ثلاثين يوماً في إجازة، ثم تعود للعمل تسعين يوماً أخرى إذا عدت إلى فريق الحراسة». وكلهم يعلمون أنهم سيحصلون على أجر يتراوح ما بين 500 دولار إلى 700 دولار في اليوم. وقام دون بإجراء الحسابات ليصل إلى أن أجر الواحد منهم في الشهر سيصل إلى 18500 دولار في الشهر، وفي أفضل الأحوال 162000 دولار في العام. وربما صرف للواحد منهم ثلاثون دولاراً في اليوم لتغطية المصروف اليومي، كما اقترح أحدهم. ووبخه أحد رفاقه المتدربين على كثرة أسئلته، غير أن دون بدا غير مكترث بانتقاداتهم. وكانت القضية الثانية التي تهمه هي التعويضات التي ستحصل عليها زوجه إذا ما تعرض للقتل. ووضح له آنجل أنه في تلك الحالة سيحصل على مبلغ التأمين الذي يفرضه قانون الدفاع الأساس ومقداره 65 ألف دولار، وهذا هو كل ما سيحصل عليه، ولكن كثيراً من المتعاقدين يقومون بشراء بوليصات تأمين إضافية على الحياة إذا كانوا يقدرون على ذلك. ثم رفع دون عقيرته بآخر تعليق له حول احتمال مقتله في أثناء العمل قائلاً: «في جنازتي، أريد منهم أن يعزفوا ألحان الكتيبة الملكية الجبلية في الجيش البريطاني باستخدام مزامير القربة». فأدار الجميع أعينهم إلى الأعلى تعبيراً عن استهجانهم لما يقول.

الفرز والاستبعاد

كان المطر غزيراً ولمّا تبزغ شمس السبت حين بدأ المشاركون في الدورة التدريبية بالتوجه إلى قاعة المطعم في الفندق لتناول الفطور. جلسوا معاً في مجموعات صغيرة محاولين الاستمتاع قدر الإمكان بما وضع على المائدة من الفطائر الصغيرة، ورقائق الدقيق، وطعام فقير بالفائدة الغذائية. وفي تمام الساعة السابعة صباحاً، تجمعوا خارج قاعة الدرس، واقفين حول الأبواب المغلقة في حشد تنبعث منه نكهة الصابون وعطر ما بعد الحلاقة. فتح أحد المدربين الباب وأشار إلى شخص أصلع اسمه بوور، وهو قائد فريق في الشرطة الخاصة من مقاطعة أورانج بولاية كاليفورنية، بالدخول إلى غرفة الاجتماعات في الفندق. وبعد دقائق، رجع بوور ليقرأ قائمة أسماء المرشحين:

«الأشخاص الآتية أرقامهم سيحوّلون إلى الإرشاد، أما البقية فعليهم الانتظار في غرفهم إلى حين استدعائهم».

وكانت الصدمة ترتسم على وجوه الأشخاص الذين طلب إليهم الانتظار حين سماع أرقامهم. وحين سمع دون ستاوت رقمه، أجفل وطأطأ رأسه. وفي لحظة واحدة تلاشت شجاعة الأمس ومظاهر البأس. وحين انطلقت المجموعة لبدء يوم جديد من التدريب، تركوا خلفهم أربعة من أقرانهم في حالة من الكآبة والحزن والتوتر.

وأول شخص دعاه المدرب كان سامَر، وهو جندي متقاعد من القوات الخاصة في بداية الثلاثين من عمره. نظر البقية إليه، وهزوا رؤوسهم، وتمنوا له حظاً سعيداً. وبعد أن أغلق الباب خلفه، خيم جو من التوتر المحسوس المفتعل فوق رؤوس الثلاثة الباقين وهم ينتظرون معرفة ما يخبئه لهم القدر. وحين فتح باب غرفة الصف، نظر الرفاق إلى عيني سامَر نظرة أمل واستجداء وترقب. فأومأ بيده محاكياً قطع الرقبة؛ فعرف الجميع على الفور أنهم مستبعدون (...).

تكررت الطقوس بعد دخول اثنين منهم وخروجهم منكّسين، وبقي ستاوت وحده. لم يكن يطيق ما حل به. نظر إلي وإذا بسيل من الكلمات المثقلة بالقنوط تخرج من فيه: «عليّ أن أعيل أسرتي، من أين سأوفر لهم احتياجاتهم؟ ليس هناك ما يكفي من فرص العمل في جبال سموكي» ثم توقف برهة، ضاغطاً على فكية بشدة ليقاوم الدموع التي كانت تغالبه، وتابع قائلاً بصوت أجش: «إنني أحمل وسام الشجاعة، كانت أمي على فراش الموت، فاضطررت إلى رفض عرض العمل مع شركة بلاك ووتر، وعرضين آخرين من شركات أخرى، إنني بحاجة إلى هذه الوظيفة. هل تعرف كم كلفني شراء هذه اللوازم والمجيء إلى هنا؟» لقد انهار كل شيء. ثم توقف عن الثرثرة، مستسلماً لمصيره المحتوم قائلاً: «لم أرَ في حياتي جمعاً أفضل من هؤلاء الرفاق. إنه إحساس شاعري أن تراهم وهم يعملون معاً. لقد سبق أن رأيت بعض الأفراد العاملين في الوكالات الفدرالية يقومون بأعمال مشابهة، غير أنها لا ترقى إلى مستوى ما يفعله هؤلاء».

كان دون ستــاوت يسير سير المهزوم، لكنه حين ظهر مرة أخرى بعد عشر دقائق، ظهر وكأنــه قد تحــوّل إلى شخص آخر. لقد منــح مهلة لإثبات جدارته؛ واكتفــي بإصدار إنذار يتعلق بأدائــه وأعطي تعليمات محددة بخصوص الحاجــة إلى تحسين أدائه. فقال لي:«يا إلهي، لقد كان ذلك مرهقاً للأعصاب»، وكان أول شيء قلته حين استدعيت للمرة الثانية، «سيــدي أرجــو السمــاح لي أن أتنفس الصعــداء»، ثم تبسم ضاحكاً مــن ابتسام القدر في وجهــه، ولكنه عاود إلى طبعــه الحرون. «إذا سبق أن رأيت فيلــم ديلفيرنس -(الإنقاذ)- فتلك هي جذوري... وليس ثمة شيء آخر لي في هذا العالم».

بعــد ذلك، خــرج جم تروتمان وأخبرني بــأن اثنين من الأربعة طلــب إليهم ألا يعودوا إلى هنــا، غــير أن الثالث (ساقر) قيل له: إنه يمكن أن يتقدم للعمل مرة أخرى بعد سنة. «إنــه بحاجــة إلى مزيد من الدعــك، وأعتقد أنــه سينجح إذا عاد في العــام المقبل». كان جــم متعاطفاً مــع الأشخاص الذين جرى استبعادهم؛ لأنهم قطعوا شوطاً لا بأس به حتى اليــوم الأخير مــن التدريب، وأنت تعلم بطبع الأشخاص هنــاك، ولا نريد أن نرسلهم إلى هناك لأنهم قد يقدمون على قتل شخص ما». كان استبعاد الفئة الأخيرة من بين الأربعة والعشريــن الذيــن استبعدوا هو الاستبعاد الأقسى والأمــرّ. ويوضح جم ذلك بقوله، «لقد اجتازوا بنجاح الجزء الأساس من الدورة، ولكننا هنا نتعامل مع الجوانب غير المحسوسة». وهــو يشعر بالحزن علــى أكثر الذين استبعدوا باستثناء شخــص واحد يتذكره جم جيداً ويشعر بالسرور لأنهم سرحوه في وقت مبكر: «تقدم إلينا شخص يطلب العمل يشبه ديفيد كوريشــ، كان يضــع كمادات واقية علــى ركبتيه، وله لحية كثيفة، وشعــر طويل- كان حقاً رجــلاً متهوراً غريباً. وغضب غضباً شديــداً حين صرفناه. إننا لا نريد أشخاصاً شديدي العاطفة وأصبعهم على الزناد. فنحن وإن كنا نعاني نقصاً في أعداد المتقدمين، إلا أننا لا نرغب في إرسال شخص كي يوجه قاذفة قنابل مارك 19 على حشد من الناس».

أمهــل المستبعــدون ساعتين لجمع متاعهم قبــل أن يقوم سيســل بتوصيلهم إلى مطار ممفيســ. وفي ردهة الطابق الثاني من الفندق، وبعد لحظات من إعلامهم بالتوجه لجمع متاعهم، صادفت شخصًا منهم أسمر البشرة، بديناً بعض الشيء اسمه ميلر، وهو جندي سابــق مــن قوات الرينجرز ، قال لي: «هذه المرة الأولى التي قمت فيها بالتدحرج كحقيبة

الدوفـل ولم أكن راضياً عن مستواي». ويعترف بـأن أداءه كان دون المستوى، ودعاني إلى غرفتـه المعتمة لمناقشة بعض الأمور بعيـداً عن عيون زملائه. بدأ ميلر حديثه بالقول: إنه يقبـل الانتقـادات التي وجهها إليه مدربـوه. وقال: «إن ما يمكنني فعلـه وأنا في السادسة والعشرين يختلف عما يمكنني فعله في السادسة والثلاثين من العمر».

ومـع ذلـك، من المـؤلم أن يتقدمه شرطي سابـق في بلدة صغيرة. وقـال محتجاً: «لقد عملت في بنما في عام 1989... إن الشخص الآخر الذي استبعدوه هو من القوات الخاصة. ولكنهم استبقوا اثنين من الشرطة!»وهذا التشكك الذي أبداه ميلر يعكس التسلسل الهرمي الصامـت للقـوى في عـالم المتعاقديـن الأمنيين المستقلين الـذي تحدده مهـارات الرماية والخـبرات القتالية. ويقبـع عناصر الشرطة المتقاعدون في أسفـل هذا الهرم، وفي المرتبة الثانيـة من قاعدة الهرم يأتـي أفراد الاحتياط في الجيش، ثـم عناصر مكتب التحقيقات الفـدرالي، ثم أفراد المارينز العاديون، ثم أفراد الرينجـرز، ثم أفراد وحدات الاستطلاع الأمامـي في المارينـز، ثم فانيلا القـوات الخاصة، ديفغـرو (قوات سيـل 6) وعلى القمة فوقهـم جميعاً أفراد قوة الدلتا. وكل طبقة من هذه الطبقات لها لغة، وثقافة، وارتباطات، وولاءات، تختلـف عـن الفئات الأخـرى؛ لذلك تجد أفـراد هذه الطبقـات يميلون في أكثر الحـالات إلى التجمع مع الأفـراد الذين يماثلونهم في طريقة التفكـير والثقافة، وتجدهم ينظـرون إلى أفـراد الفئـات الأخرى بعين الريبـة والشك. ولا يعتقد ميلـر أن من الحكمة إرسـال أفـراد سابقين من الشرطـة إلى مكان مثل العراق. وبعد أن شعـر بالغضب يتسلل إليه، غير من نبرة صوته وقال: «إن هؤلاء المدربين ومع أنهم قرروا استبعادي، إلا أنهم من الطـراز الأول، وأعتقد أنني لو كنـت أعمل معهم، فستكون فرص بقائي على الحياة أفضل مما لو كنت مع غيرهم».

ثم بلغ ميلر حداً من الارتياح جعله يتحدث بصراحة تامة، وفي بضع لحظات سَرَدَ لي قصتـه. «إن عملي الخاص في الوقت الحاضر هو في قطـاع النقل، فأنا أملك شركة لنقل الأثاث، وهوايتي هي التزلج المائي فوق الأمواج العالية، وهوايتي الأخرى هي القفز المظلي مـن الطائـرات. كما أنني مـدرب محترف في أصـول القتال الحر. أنـا الآن في السادسة والثلاثـين من العمر ولـن أتمكن من الاستمرار في الملاكمة والمصارعـة وقتاً طويلاً. ومع

أنني أملك شركة لنقل الأثاث، إلا أنني أقوم ببعض العمليات الأمنية في بعض الأحيان، أكثرها في القطاع الخاص، وتحديداً في تقديم الحماية الشخصية. أستطيع العودة إلى الجيش ولكنني تقدمت في العمر. لدي ابنتان أمهما مطلقة، وعلي أقساط شهرية لثمن المنزل، وحين يتقدم المرء في العمر، فإن من الغباء ألا يستغل مهاراته في جني المال».

«حين وقعت أحداث 11 أيلول/ سبتمبر، شعرت بالغضب وروح الانتقام تتدفع في عروقي، أردت أن أحول مسار حياتي؛ لذلك اتخذت لنفسي هذه الوجهة. كنت أنوي أن أرصد المال الذي أحصل عليه من المدة الأولى لابنتي. فأنا الآن أخوض معركة للحصول على حضانة إحدى ابنتي من أمهما. وأنا بخلاف كثير من الأشخاص في هذا العمل، أدرك حقائق أجور هذا العمل. ولنفترض أنك حصلت على ستين ألف دولار من مهمتك الأولى، فإن صافي هذا المبلغ في جيبك هو أربعون ألفاً، وإذا خدمت ثلاث مدد، فإنك قد تحصل على مئة وعشرين ألف دولار في العام، وزوجي السابقة تتقاضى الآن تسعين ألف دولار، وهي لا تعرض نفسها لإطلاق النيران».

«إنني أشعر بالانكسار اليوم؛ لأنني استرجعت ذكريات ستة عشر عاماً من عملي العسكري، وأمضيت يومين كما أراد المدربون. وليس الأمر متعلقاً بمسألة هل هم على خطأ وأنا على الصواب؟. في أحد أيام التدريب تجمدت فجأة وسط الميدان، ليس لأن الرصاصة علقت في ماسورة البندقية- بل لأنني تجمدت وأنا أقول لنفسي: إن لم أحصل على هذه الوظيفة، فلن يكون لدي المال الكافي لتغطية دعوى الحضانة».

«الشيء المشترك بيننا جميعاً هنا هو أننا جنود سابقون، ونريد أن نشارك بسهمنا في خدمة الوطن، لكننا لا نستطيع أن نكون جنوداً بواسل دون مال. أحد الشبان الذين استبعدوا اليوم هو جندي سابق في قوات الرينجرز، خرج من الجيش في الفئة الرابعة، والمسكين كان يظن أنه سيحصد المال الكثير هنا.

«عندما كنت في قوات الرينجرز، كنت أشعر بالفخر والاعتزاز، وكنت أشعر بأنني أحقق هدفاً كبيراً في حياتي، أما اليوم فلا افتخار بما أقوم به من عمل، فقد أكسب سبعة آلاف دولار في اليوم في نقل الصناديق، لكنني أقابل في عملي أصنافاً من مديري الشركات.

مدير مالي في إحدى الشركات يتقاضى نصف مليون دولار في العام وينظر إلي بازدراء، وهذا الشخص، يا صديقي، ليس أهلاً لحمل حزامي. إنك بحاجة إلى أن تكون حول أناس تحترمهم. في خمس مئة عام لن يهممهم حال شركة النفط التي تعمل فيها زوجي، لكن العراق شأن مهم. إننا نريد فعل شيء له قيمة فيما تبقى من حياتنا».

المفاجآت السارة

سيتوجه المتدربون الذين بقوا هنا إلى قاعة الدرس؛ ليتعلموا الجوانب الدقيقة في عمل الحراسة الشخصية. ولغايات التمارين النهائية، سيقسمون إلى فرق ويكلفون بأداء مهمات تشابه قدر الإمكان الواقع العملي. وسيدور التمرين حول حماية «العميل» في أثناء نقله من موقع محدد إلى مكان آخر. ويتضمن التمرين محاكاة لهجوم عنيف على الموكب، وسيقوم المدربون بتقويم فاعلية ردة فعل الفريق على الحدث وتعاملهم معه. وليس هناك شخص واحد من بين المتدربين محصن من الطرد، غير أن المدربين على ثقة من أن الطلاب جميعهم في هذه المرحلة سيحسنون صنعاً، وأن شهادات التخرج قد طبعت وذيلت بتواقيعهم الشخصية.

بدأ المدربون الدرس بسرد إيجاز عن أساسيات الحراسة الشخصية وركزوا على مصطلحات العمل الدارجة: «لديك عميل أو الشخص المقصود بالحماية. حين نكون خارج السيارة، علينا أن نسير ونحن نحيط به من جميع الجهات على شكل الماسة مسدسة الأضلاع، واحد في المقدمة، وواحد في المؤخرة، واثنين على كل جانب. بعض الناس يطلق على العميل أو الشخص المقصود بالحماية الشخصية المهمة. وهو يستقل سيارة الليموزين، وهذه يمكن أن تكون سيارة فاخرة أو سيارة كبيرة رباعية الدفع. وينبغي أن يكون هناك سيارة في المقدمة وسيارة أخرى في الطليعة أمامها، وربما كان هناك شاحنة صدم، وهي ناقلة ثقيلة الهدف منها التحرك حول سيارة العميل أو إلى جانبه لكي تدفعه عن نقطة الخطر، أو نقطة الاتصال. وهناك أيضاً فريق كات، أي فريق الهجوم المضاد. وهذا الفريق هو القوة النارية في المؤخرة. ويتكون فريق الهجوم المضاد من أشخاص شرسين متحفزين للقتال. ومن تجربتنا في العراق، وجدنا أن العراقيين -سنة وشيعة- لا يمكثون للقتال، بل الذين يأتون من الخارج هم الذين يقاتلون -فهم مثلنا- والفكرة هي

أن تشاغل العدو بالنار مدة كافية تسمح للشخص المقصود بالحماية أن ينجو بنفسه. ومتى ما تحقق لنا ذلك، فإننا ننسحب من الميدان.

«تحتوي العربة التي يركب فيها فريق الهجوم المضاد على ما يكفي من الأسلحة، والذخيرة، إضافة إلى رافعة، وصندوق إسعاف أولي، إلخ». واستخدم المدرب لوحاً أبيض لكتابة ملحوظاته، واستفسر من الطلبة عما يجب أن تحتوي عليه سيارة فريق الهجوم المضاد. ارتفعت الأيدي عالياً. وتساءل أحدهم «قنابل يدوية؟». وقال آخر «قنابل دخانية».. وطالت القائمة: معدات رؤية ليلية ومناظير مقربة، ومعدات مضادة للقناصة، وأقنعة مقاومة للغازات السامة والأسلحة الكيماوية، وأدوات اختراق الأسوار، وأسلاك جر، ورافعة عالية. وقام المدرب بوضع قائمة منفصلة للأدوات التي تحملها السيارة الخلفية في القافلة» «ماء، وطعام، وأجهزة اتصال، أجهزة تحديد المكان عن طريق الأقمار الصناعية، وبطاريات، وعجلات احتياطية، ودروع، وخوذات». وأعار الطلبة أذناً صاغية حول ترتيب هذه الأشياء في السيارة.

سيستخدم الطلبة في تمرين الأحد أصناف السيارات على أنها أسماء شفرية في اتصالاتهم. على سبيل المثال، إذا تعرضت العملية للمخاطر، فستعلن كلمة «كورفيت» عبر أجهزة اللاسلكي. واستخدام الرموز يحتل أهمية خاصة، حتى في الاتصالات المشوشة؛ لأن السكان المحليين يمكنهم سماع المحادثات التي تنقل عبر اللاسلكي، ويمكنهم إخبار المهاجمين بها.

وقبل انتهاء درس اليوم، أعاد المدرب للمرة الأخيرة على أسماعهم القول: إنهم يتقاضون أجرهم من أجل الفرار، أي أن وظيفتهم ليست مهاجمة العدو والدخول معه في معركة، بل لحجزهم عن العميل. وسيعرف الطلبة في اليوم اللاحق مدى حسن أدائهم في «الفرار».

وجاء يوم الأحد، وكانت الأمطار قد توقفت وبزغت الشمس على يوم جميل، ونحن في طريقنا إلى ميدان مركز التدريب. قال ديفيد، مدرب الرماية، بلغته الخاصة: إنه قد أقام أهدافاً إضافية سهلة في المرمى؛ كي يشعر المتدربون بالمتعة والراحة والحظ السعيد

حين يصيبونها. وذكر أيضاً بأن الميدان سيكون خالياً اليوم: «لن يأتي أحد من أفراد الشرطة اليوم إلى الميدان حين ندفع ألف دولار في اليوم».

تجمع الطلبة في غرفة الصف المتنقلة، وراح ديفيد يشرح لهم القواعد والأصول المتبعة في ميدان التدريب على الرماية، وحدد لهم الهدف. «الوجه البني من جسم الهدف هو الجانب الذي سنطلق عليه النار. ثم قلب إشارة الهدف. «الجانب الأبيض معناه لا تطلق النار». وسيستخدم الطلبة ذخيرة حية في هذا التمرين، وسيخضع أداؤهم لتقويم المدربين. ولا يعرف الطلبة إن كان سيرسب منهم أحد في التصفية النهائية قبل اختتام هذه الدورة. وساءلت نفسي إن كان هذا الغموض هو السبب وراء حالة التوتر البادية للعيانِ أم أن السبب هو تمرين الرماية الحية الذي ينتظرون إشارة البدء به؟.

جمع الرجال أسلحتهم في الخارج، وكانت بنادقهم ومسدساتهم معمّرة بالذخيرة.

يملك المدربون تجارب وخبرات عملية في هذا المجال، وهم يبذلون كل ما يستطيعونه في جعل أوضاع التمرين أقرب ما تكون إلى الواقع العملي. وبشيء من الخيال، تحولت مدينة ويست ممفيس إلى مدينة في العراق، وتردد في الفضاء أصوات قرقعة بنادق إم - 4 ومسدسات غلوك وهي تفحص وتعبأ بالذخيرة، وقام الطلبة بفحص أجهزة اللاسلكي مستخدمين سماعات في الأذن وميكرفونات مثبتة على الرسغ تشبه الساعة اليدوية. ثم جلس الطلبة في سياراتهم وأخذوا مواقعهم بحيث يمكنهم إطلاق النار من نوافذ السيارة. وأبقوا على أبواب السيارات مغلقة؛ لكي يفتحوها بسرعة في اللحظة المناسبة. ومع أنهم اجتهدوا في التخطيط لهذا التمرين والاستعداد له في اليوم الفائت، إلا أنهم كانوا يدركون أن أموراً طارئة تنتظرهم في عالم المجهول.

كان التمرين الأول يحاكي اجتماعاً بين الحاكم المحلي ومجموعة من رعاياه الحانقين. والعميل -أي الشخص المكلفين بحمايته- هو مسؤول كبير في وزارة الخارجية الأمريكية أرسل في مهمة للاجتماع مع الحاكم المحلي. انطلق عضو الفريق المكلف بمهمة استطلاع المكان لمعاينته وكتابة بعض الملحوظات والمشاهدات، ثم اتصل بفريق الحراسة مقدماً تقديره لأعداد الناس الموجودين في المكان، ونقاط الدخول والخروج. وكان الشخص الذي يتولى حماية المقدمة مرتبكاً وداس على قطعة أرض وصفها ضابط الاستطلاع بأنها «أرض

مزروعة بالورود الثمينة» في أثناء مرافقتهم العميل إلى الاجتماع. وفجأة، وقبل بدء الاجتماع، خرج المدرب وبدأ بإطلاق النار على الأرض المحيطة بمكان الاجتماع محاكياً عملية لمحاولة اغتيال. قام الوكيل المسؤول عن الفريق بتغطية «العميل»، ودفعه إلى داخل سيارة السوبربان، في حين قام الآخرون بمشاغلة العدو بإطلاق النار على الهدف البني. كان أداء الفريق جيداً، ولكنهم تلقوا تقريعاً ليناً من المدرب حول أهمية الحفاظ على علاقة اجتماعية طيبة مع السكان المحليين وتجنب استعدائهم كما فعلوا حين داسوا ورودهم الثمينة.

كان التمرين الأخير أكثر تعقيداً من الأول. وفيه، كلف الفريق بمرافقة العميل إلى اجتماع مشياً على الأقدام مسافة ثلاثين متراً على رمال ناعمة من المكان الذي اصطفت فيه السيارات. وكانت الغرف والمداخل مربكة، وفي هذه المرة كان على الفريق حماية اثنين من العملاء. كما كان هناك مجموعة من الرجال المختبئين في الغرف، بعضهم من الطرف المعادي، وبعضهم الآخر حشود من رعاع الناس. وقام بعض المتدربين بلف بعض القمصان على رؤوسهم على شكل العمائم، وبدأ إطلاق النار فور وصول فريق الحراسة إلى قاعة الاجتماع، وبدأ جمهور العوام بالصراخ والهتاف بعبارات معادية لفريق الحراسة الشخصية، ثم عمت الفوضى بعد أن اختبأ أحد العميلين المقصودين بالحماية تحت منضدة كانت أمامه تجنباً لإصابته بالرصاص، ثم راح فريق الحراسة الذي تفاجأ باحتجاجات الجمهور يطلق النار في الهواء لشق طريقهم للخروج من القاعة؛ ليكتشفوا بعد أن نجحوا في الخروج أنهم تركوا خلفهم العميل الثاني. وحث المدرب الجمهور المحتج على أخذ العميل الذي تخلف رهينة عندهم. دخل فريق الحراسة في اشتباك مع العدو وهو يشق طريقه إلى موقف السيارات، ووضعوا العميل الأول في السيارة بعد أن سقط عدد منهم قتلى، ويجب عليهم الآن أن يسحبوا رفاقهم القتلى بدروعهم وأسلحتهم فوق الرمال، وعلى من تبقى من أعضاء الفريق وهم على ما هم فيه من الإعياء والتعب، أن يقاتلوا العدو إلى أن ينجحوا في العودة إلى قاعة الاجتماع. غير أن الفريق «قتلوا رمياً بالرصاص» وقرر المدرب أن العميل الثاني سيكون ميتاً في مثل هذا الظرف، وبالأخذ في الحسبان أن أكثر أعضاء الفريق هم ما بين قتيل وجريح، إضافة إلى هلاك أحد العميلين، فإن محاولة الاستمرار في القتال، وإن كانت عملاً بطولياً، إلا أنها ستكون محاولة عديمة الجدوى».

قـام المدرب باستدعاء الطلبة، وسألهم عن رأيهم في تمرين اليوم. فأجاب أحدهم: «لقـد ارتكبنا أخطاءً فادحة». وقـال آخر: «ظلال الفلوجة».. ثم قـدم لهم المدرب رأيه وتقويمـه لمـا حدث: «لقد أحسنتـم صنعاً في الدخول، لكن حين تعقـد الموقف... نسيتم أن تعينوا وكيلاً مسؤولاً ثانياً -وعادة ما يكون هذا الشخص هو القائد المناوب- لمراقبة العميل الثاني».

ثـم أتبع المـدرب (دون) تلـك الملحوظات بنقطة أخـرى تستجدي النـدب والعويل. «علينـا الآن أن نبلغ أقارب العميل بمقتلـه، وسنسهر الليل بطوله في كتابة التقارير حول ما حدث».

وعلـى الرغم مـن هذا الأداء السيئ، فلـم يرسب أحد منهم مـن برنامج التخريج. واكتفى المدربون بتقديم أهم عبرة من التمرين الأخير وهي: «أن من يدخل معكم يجب أن يخرج معكم».

التدريب على تنفيذ العمليات الإرهابية

يمتـزج مشهد المناطـق الصناعية القاتم بمـروج الأعشاب الصفـراء الفسيحة التي تغطـي أراضـي مستنقعات الشواطئ الشرقيـة التي يمكن رؤيتها في أثنـاء المسير باتجاه الجنـوب على الطريق السريع آي - 95 من واشنطـن العاصمة. وحين اقتربنا من مدينة ويليامزبـيرغ، اجتزنـا المخرج المـؤدي إلى معسكر بـيري، «المزرعة» التـي تتخذها وكالة الاستخبـارات المركزية مركزاً للتدريـب. وتقع حول مصب نهر البوتومك قاعدة نورفلوك البحرية التي تمثل العصب المركزي لسلاح البحرية الأمريكية، حيث تبرز من بعيد وسط شبكة من رافعـات الحاويات، والسفن العملاقة، وأحواضـ التخزين مترامية الأطراف. ويقـع المقر الرئيسـ لقوات سيل (الصـاعقـة البحرية) في الشاطـئ الشرقي في القاعدة البحرية الواقعة قرب مدينة ليتل كريك.

كنت في طريقي متوجهاً إلى ميدان التدريب التابع لشركة بلاك ووتر، ويرافقني وولتـر بيـوردي الـذي طلب مني مساعدته في تدريس برنامج يستمـر أسبوعاً يطلق عليه «صورة طبـق الأصل». وصديقنا وولتر هو جندي سابق في قوات المارينز، وسبق له أن خدم ضمن

طاقم الحرس الشخصي للرئيس الأمريكي في الطائرة المروحية الخاصة بالرئيس. وجاء في وصف البرنامج بأنه «دوره تدريبية ميدانية مكثفة مصممة لتحاكي الحيل والأساليب التي يستخدمها الإرهابيون في تجنيد أتباعهم وتدريبهم، بالإضافة إلى تكتيكاتهم العملياتية». وسيمضي المشاركون في هذه الدورة وعددهم يقارب الستين شخصاً أسبوعاً كاملاً في تعلم طريقة تفكير وتصرف الإرهابيين؛ وذلك حتى يتكون لديهم فهم أفضل لتكتيكات الإرهابيين وتوقعها. وقد أتى المشاركون في هذه الدورة من مواقع مختلفة، من القوات الخاصة، والخدمة السرية (الحرس الرئاسي الخاص)، والمارينز، ومكتب التحقيقات الفدرالي، والمتعاقدين الأمنيين، وغيرهم من الأشخاص الذين اختيروا بعناية للمشاركة في هذه الدورة.

جاءت دعوة بيوردي لي للمشاركة في هذا البرنامج انطلاقاً من اعتقاده بأنني لابد أنني قد تعلمت شيئاً من خبرتي الطويلة في السفر والإقامة مع الثوار الإرهابيين والجماعات شبه العسكرية. ومع أن هذه الدورة أقيمت ضمن إطار «مركز أبحاث الإرهاب» إلا أن بيوردي تمكن من عقد صفقة مع إريك برنس مكنت بيوردي من الاستفادة من ميدان بلاك ووتر الفسيح المجهز بأحدث الأجهزة.

وعلى الرغم من أن برنس اكتسب خبرة في سلاح البحرية حين كان يعمل في نطاق العمليات غير السرية لقوات سيل، إلا أن الانطباع السائد عن بلاك ووتر متأصل ثقافياً في فريق سيل- 6 المتخصص بالعمليات السرية، أو ما يعرف اختصاراً بمصطلح «ديفغرو»، وهي مجموعة نخبوية متخصصة في مكافحة الإرهاب، وتمثل النسخة البحرية من مجموعة الجيش الأمريكي للتطبيقات القتالية المشهورة باسم قوات الدلتا. ونظراً للطبيعة السرية لأكثر الأعمال التي يقومون بها، إضافة إلى ارتيابهم من وسائل الإعلام، فإن عدداً قليلاً ممن هم خارج هذه المجموعة نالوا مزية زيارة مجمع التدريب التابع لبلاك ووتر.

استغرقت رحلتنا إلى مركز التدريب مسيرة ثلاث ساعات في السيارة المستأجرة من نوع فورد إكسبيدشن التي كانت محملة بالبنادق والمسدسات، والذخيرة، وأجهزة محاكات البنادق، والبرادات، والمعدات الواقية. وحين قطعنا الحدود إلى ولاية نورث كارولينا، بدأت تظهر على جانبي الطريق السريع ذي المسارب الأربعة، بعض المباني

الصناعيــة المبعــثرة هنا وهناك، والكنائســ التي تضع لافتات تعلن يــا نصيب البنغو، أو السمــك المقلــي، وشاهدنا تجمعات مــن البيوت الجاهــزة المحاطة بساحــات منمقة من عشــب النجيل الأخضــر. وقد قيل لنا: إن الشرطة المحلية تهــوى نصب الكمائن التي يقع فيهــا الزوار من خــارج الولاية الذين يبدون جرأة في تجــاوز السرعة المحددة في المناطق الخاضعــة لسلطتهم، ولا يترددون في استقبال زوار مقاطعة مويوك بمخالفة مرورية ودّية على تجاوز السرعة قيمتها 128 دولاراً.

تعــد بلاك ووتر أكبر مستخــدم للأيدي العاملة في هذه المنطقة، حيث يعمل فيها ما لا يقــل عن مئتين وخمسين موظفاً وعاملاً في مصنع الأهداف المعدنية للرماية، وفي ميادين التدريــب على الرماية. ويمكن لأعــداد العاملين والعاملات أن يرتفــع إلى خمس مئة إذا كان مركز التدريب يعمل بكامل طاقته في تدريب المتعاقدين الأمنيين قبل إرسالهم لتنفيذ العقود التي تبرمها الشركة. وهذا الرقم لا يشمل بطبيعة الحال المتعاقدين الذين يعملون في أفغانستــان والعراق أو في المناطق الأخرى. وقبل 11 أيلول/ سبتمبر، ربما كانت أعداد الدببــة في هــذه المنطقة تفوق أعداد العاملين في السبعــة آلاف هكتار من الأرض السبخة التي يملكها إريك برنس.

استقــي اسم الشركة «بلاك ووتر» (أي المياه السوداء) من جداول المياه الداكنة بفعل حمض التانّيك والخضار المتعفنة. والأرض في هذه المناطق سهلة منبسطة مغطاة بأشجار الصنوبــر في بعض منهــا، وفي بعضها الآخر مــروج خضراء متراميــة الأطراف. ويمكن مشاهــدة الدب الأسود الكبير -الذي اتخذت شركة بلاك ووتر من براثنه شعارا لها- في ساعــات الصبــاح الباكر وقبل الغروب وهــو يسير بخُطا متثاقلة على طــرف المستنقعات بحثاً عن ثمار التوت.

ذكــرني المكان بالمعسكرات الصيفية للكشافــة، إن لم يكن ذلك بسبب أصوات إطلاق النــار، فبسبب النصب الكبير الذي يحمل الشعار المكــون من قوس خشبي وتحته مجسم لبراثــن الدب، وبــدا أننا قد ولجنــا دوامة من ضجيــج إطلاق النــيران. وحتى مع وجود سبعــة آلاف هكتار، كانــت أصوات إطلاق العيارات الناريــة – مــن البنــادق، والمسدسات، والأسلحــة الآلية من مختلف الأعيرة، برشقــات متوالية وفردية ومتقطعة- تلاحقنا طول

مسافة أربعة الأميال التي قطعناها قبل الوصول إلى المقر الرئيس لبلاك ووتر، وهو المكان الذي تدار منه واحدة من أسرع الشركات الأمنية نمواً وأكثرها مثابرة. والمشهد هنا يقف علـى النقيض من هذه الصـورة، ذلك أن هذا المقر الرئيس يقـع في مجموعة من المباني التـي تشبه المنازل الفخمة التي تُشاد للاستجمام الريفي قبالة بحيرة كبيرة، وتحيط بها مناطـق كثيفة الخضرة، وعلى مقربة من هنا شيدت بنايـة بدائية لتكون مسكناً للطلاب في أثناء مدة تدريبهم في هذا المكان.

بعـد وصولنا بوقت قصير، تجمع المشاركون في الدورة لسماع تقديم موجز عن الدورة ومـا تغطيه من موضوعـات. ثم تعرفت المدربين الآخرين: شرطي بريطاني عمل في جهاز الشرطة السرية في ايرلندة الشمالية، وآخرين من قوات المارينز الذين نجَوْا من التفجير الـذي استهـدف السفارة الأمريكيـة ومعسكر المارينـز في بيروت، إضافـة إلى مجموعة متنوعـة مـن أصحـاب الخـبرة و المهـارات المتخصصة التي تـتراوح ما بـين المتفجرات إلى طريقـة تفكـير الإرهابيـين وفلسفتهـم. ثم تعرفت الطلبـة: رجال ونسـاء يعملون في حقـل مكافحة الإرهـاب الذي بات تجارة رائجـة هذه الأيام، وقد تبـين لي بعد أن عرف الطـلاب بأنفسهم، أن أكثر اللاعبين في الحرب على الإرهاب لهم تمثيل في هذه الدورة؛ إذ تعرفـت إلى متعاقدين أمنيين، وعاملين في وزارة الأمـن القومي، وأفراد من العمليات الخاصة في الجيش، ومن الشرطة، وقوات المارينز، وبعض الذين اعترفوا بأنهم من جهاز الاستخبـارات، وامتنع عـدد لا بأس به من المشاركين عن الإفصـاح عن اسم الجهة التي يعملـون فيها. بعض المشاركين التحق بهذه الـدورة على حساب الحكومة، وبعضهم الآخر دفـع التكاليـف من جيبـه الخاص. ولما كانت هـذه الدورة دورة متقدمـة، فقد كان جميع المشاركين على دراية وخبرة في مكافحة الإرهاب، سواء تحصل ذلك من العمل المكتبي في الدوائر الحكومية أم من العمل الميداني في الشرق الأوسط، ولا بد لأي متعاقد أمني قُبِل في هـذه الدورة أن يكون قد اجتاز مراحل التمحيص التي تسبق قبوله للعمل في الشركة التي يعمل فيها. ويسعى المشاركون في هذه الدورة إلى رفع مستوى مهاراتهم المهنية ومركزهم الوظيفـي، وقـد كان الطلاب متحمسين ومتلهفين؛ لأن هذه الـدورة لن تقتصر على إلقاء المحاضرات وعرض شرائح «باور بوينت»، بل سيكون فيها رماية حيَّة باستخدام الأسلحة

النارية. وبعد تناول بعض المرطبات وتبادل الأحاديث، توجه الجميع إلى مخادعهم لأخذ قسط وافر من النوم استعداداً ليوم طويل في الغد.

كانت أصوات إطلاق العيارات النارية من الأسلحة وأصوات المتفجرات تعكر صفو الهدوء في هذه المنطقة الريفية ليلاً ونهاراً عدا بعض الأوقات القصيرة بعد الفجر وقبيل الغروب. أما الطيور، والحشرات، وغيرها من الحيوانات التي تصدر الأصوات في الغابات في العادة، فقد رحلت عن هذا المكان على إثر أصوات الطلقات النارية القوية. وقلت في نفسي متهكماً قبل أن أخلد إلى النوم وسط هذه الأصوات: «معسكر صيفي للمرتزقة».

في اليوم الأول، كان علينا أن ننبه الطلبة المشاركين من نومهم لبدء التمرين. خرج المشاركون لابسين السراويلات القصيرة، والقمصان ذات الأكمام القصيرة، وأعطي كل واحد منهم كوفية كالتي يلبسها الفلسطينيون عادة، ويشتري وولتر هذه الكوفيات بالجملة من تاجر يهودي من بروكلين في نيويورك. وأعطي كل منهم نسخة من القرآن، ثم قسّم الفريق إلى مجموعات كل مجموعة مكونة من عشرة أشخاص، على أساس أن كل واحدة تمثل مجموعة إرهابية مختلفة. ولما كنت قد أمضيت وقتاً مع الثوار في غروزني، فقد أطلقت على مجموعتي اسم «الشيشان».

بدأت عملية الإحماء قبل الشروق في تمرين يتطلب من كل فريق الولوج خفية عبر شبكة عنكبوتية متشعبة من الحبال دون لمس الحبال أو إحداث أي صوت، وهذه عملية تشابه التكتيكات التي يستخدمها الفلسطينيون في التسلل عبر الحدود «الإسرائيلية». وكُلّف أحدُ الأشخاص برصد الأصوات ومراقبة الأداء. خلع «الشيشان» أحذيتهم تجنباً لإحداث أي صوت، أما أعضاء الفرق الأخرى فلم يرغبوا في تعريض أقدامهم للاتساخ والبلل - خطوة سيئة - إذا انتهى بهم الأمر إلى قضاء المزيد من الوقت في إعادة التمرين مرات عديدة، وبعد انتهاء من هذا التمرين، أُمر المشاركون بالهرولة الجماعية على نمط هرولة الجيش البريطاني حيث يقفز الطلاب قفزات عالية ضاربين على ركبهم أو أقدامهم في اللحظة المناسبة وهم يرددون خلف وولتر الأناشيد العسكرية، ثم توجه الجميع لأداء صلاة الفجر، أكثر المشاركين في هذه الدورة لديهم معلومات محدودة عن الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية؛ لذلك بدئ اليوم الأول بمحاضرة عن هذا الموضوع وعن كيفية أداء الصلاة،

ثم توجه المشاركون بعد أداء صلاة الصبح إلى الاستحمام السريع، ومن ثم إلى قاعة الطعام لتناول الفطور. يقدم المقصف -الذي يزود المقيمين في هذه المنشأة- المشاركين بالطعام. لقد كان طعام الفطور مكوناً من فطائر البيض، وأقراص صفر مطاطية مريبة، وشرائح لحمية مشبعة بالدهون، والبسكويت إلى جانب رقائق الذرة والقمح، واللبن، وفطائر الكعك المستديرة. وكان هناك لافتة موضوعة أمام المطعم حيث يوجد الطعام تقول: «الرجاء ملء الصحن مرة واحدة فقط»، غير أن عدداً قليلاً جداً كان لديه الرغبة أو قوة التحمل في تحدي هذه القاعدة.

تنقسم الدورة إلى محاضرات في الصباح وتمارين ميدانية في المساء؛ لذلك توجه الجميع بعد تناول الإفطار إلى قاعة الدرس. ويوحي الطابع المعماري للمباني المخصصة للتدريس بأنها مكان تزاوج فيه الحديد الصناعي بالبناء الخالي من الجوانب الجمالية، كما أن انتشار المباني المتنقلة الحديثة حول المكان يدل على أنه توسع من النواة. وكانت جدران غرف الدرس مزينة بصور كبيرة ملونة للمسدسات والبنادق، إضافة إلى صف من جذوع مطاطية بحجم الإنسان الطبيعي تستخدم للتدريب على الملاكمة.

وفي الخارج، كان إطلاق النار المستمر سبباً في إثارة هياج كلاب الأثر المدربة على البحث عن المتفجرات، وشاهدت صنفين منها، هما «المالتويز» البلجيكي و«الشيبرد» الألماني. ويمكن للجالس في قاعة الدرس سماع صوت يتردد باضطراد «طاخ، تنغ، طاخ، تنغ» صادر عن مسدسات الرماة المحترفين وهم يصوبون طلقاتهم نحو الأهداف الحديدية البيضاء في ميدان الرماية القريب، وكنا نسمع كذلك أصوات الطلقات النارية في ميدان آخر أبعد من الأول حيث كان القناصة يصقلون مهاراتهم على استخدام بنادق القنص عيار 50 ملم. وتضفي الجدران الحديدية لغرف الدرس ومصنع أهداف التدريب على الرماية صدىً مطولاً مدوياً على أصوات تلك الطلقات، وهو ما زاد من تشوّق الطلبة للتوجه إلى الميدان وإطلاق النار، ولكن كان علينا أولاً أن نبدأ بمشاهدة عروض باور بوينت، وأفلام الفيديو. ومن حسن الحظ أن الدرس كان يتناول موضوعات مملة تتناول بالتفصيل طريقة صنع القنبلة. ثم قمنا بمناقشة التكتيكات التي تستخدم في الهاجمات الناجحة بالقنابل وفلسفة مختلف الجماعات الإرهابية- قُدّمت من وجهة

نظـر الإرهابيين، وكان الطلبـة يخرجون في مُدَدِ الاستراحة للتدخـين. وأنشأت السجائر بينهم رابطة صداقـة، فكانوا يطلقون على أنفسهم ألقاباً بعد الاطمئنان أن هذه الألقاب مقبولة لدى أصحابها. فحين خرج مايكل، وجون، وجانيت إلى الخارج للاستراحة، عادوا بألقـاب جديـدة هي، أبو آسيتن، والقـزم الغضبان، وأم كرة القـدم. وبدأت الرابطة بين الجماعة في النمو.

كان موعـد محاضرتي في نهاية الأسبوع؛ لذلـك قررت أن أتوجه إلى المباني التي تضم المقـر الرئيس لبـلاك ووتر، وحين دفعت البـاب الزجاجي لمدخل المبنـى، كان أول ما وقع عليه بصري شاشة تلفاز كبيرة ضبطت على محطة فوكس نيوز. ولقد شعرت لدى دخولي البهو أنني في متجر لبيع البنادق، أو في معرض للحيوانات المحنطة؛ لأن المكان كان فيه دب محشو محنط كان قد اصطيد في هذا الموقع، وكان سنور بري محنط يطل برأسه من فوق الستارة، ووضع ثعلب محنط فاغراً فاه على بعد سنتيمترات فقط من حجلة محنطة.

ويأتي أكثر المتعاقدين إلى المقر الرئيس هنا قاصدين المتجر الذي يبيع الهدايا واللوازم التي يحتاجها المتعاقد الأمني، وهو متجر يبيع أصنافاً عريضة من المعدات والأدوات التي يمكنهـا أن تأتي بسهولـة على أجرة أسبوع مـن راتب المتعاقد. ويمكـن لأي شخص يأتي إلى هـذا المتجـر أن يجهز نفسه تجهيـزاً كاملاً للعمل في الحقـل الأمني الخاص، ويمكن لأي شخـص ذي مال وفير أن يشتري كل مـا يحتاجه؛ لكي يظهر بمظهر المتعاقد الأمني. ويعرض أريك برنس في هـذا المتجر أصنافاً خاصة من الملابـس التي تحمل شعار بلاك ووتـر، وتلبـي احتياجات المتعاقـد الأمني الأنيـق. غـير أن القمصـان والسراويلات من ماركـة «رويـال روبنز» 5.11 ذات اللونين الأخضر والحنطي هـي الخيار الأكثر بروزاً من بـين الملابس المعروضة، وتضيف ساعة «سونتو» التي تحفـظ في الجيب إضافة نوعية إلى شكل المتعاقد. وهناك أيضـاً معدات تكتيكية باللونين الأخضر والحنطي من صنع «بلاك هووك» (وليس لها علاقـة بشركة بلاك ووتر)، وأحذية تسلق الجبال؛ والدروع، وحقائب المخيمـات، بالإضافـة إلى إضافـات البنادق، كالأحزمـة، والمناظير المقربـة، والحقائب المحمولـة، وهـذه كلها يمكـن أن تستنفـد كامل الرصيـد في أي بطاقة اعتمـاد مصرفي. وطبعـاً يجب ألا ننسى أهـم أدوات المتعاقد الأمني التي هي النظـارات الشمسية. ويمكن

لأي زوج مـن هذه النظارات من الماركات العالمية مثل «وايلي إكس، وأوكلي، وماوي جمز»، وغيرها من الماركات الفارهة أن تكلف المتعاقد الأمني 300 دولار أمريكي. ومع ذلك، فإن النظـارة الشمسية المناسبة هي إضافة مهمة لا بـد منها؛ لأن المتعاقدين الأمنيين يقولون لي: إنـه يمكنك الحكم على المتعاقد الأمني بمجرد النظر إلى نوع النظارة الشمسية التي يستعملهـا. فنظارات ماوي جمز يلبسها في العادة أفـراد قوات سيل، ويتميز أفراد الدلتا بلبسهم الطراز القديم من نظارات أوكلي التي تلتف حول الصدغين، ونظارات وايلي إكس هـي لأفراد القوات الخاصة. أما الطراز الحديث مـن أوكلي فهي للمارينز. أما استعمال أصناف رخيصة مقلدة من هذه النظارات أو حتى استعمال نظارات من طراز ري بان فهو علامـة على قلـة الخبرة وعدم النضج في نظر المتعاقدين الأمنيين ذوي الخبرة. ولو دخل زائر في جيبه 800 إلى 2500 دولار إلى هذه المتجر لخرج منه وكأنه متعاقد أمني.

ونعـود إلى قاعـة الدرس، حيث ظهـر على الطلبة الملـل من طول مكثهـم في القاعة، فخرجنـا في استراحة الغداء إلى القفطير لتناول وجبة متواضعة، ثم توجهنا إلى تمارين ما بعد الظهيرة. وبالإضافة إلى إطلاق النار على الأهداف، سيمارس الطلبة إطلاق النار علـى أنفسهم عن طريق مشبهات البنادق والمسدسات، وهذه المسدسات تستخدم طلقات بلاستيكية تحتوي على صابون لزج ذي لون فاقع. ومع أن هذه الرصاصات غير قاتلة، إلا أن بإمكانهـا أن تسبب آلاماً شديدة وتترك آثـاراً في الجلد إذا أطلقت من مسافة قريبة. ولذلك يحرص الجميع على ارتداء الألبسة الواقية.

جـرت العادة في الدروس التقليديـة لتدريب فرق الحراسة الشخصية أن يقوم الطلبة بدور حراس الشخصية المهمة «العميل» في حين يقوم المدربون بدور الإرهابيين أو عناصر المقاومـة. أمـا في هذه الدورة، فلكون الهدف هو تعليم الطـلاب طريقة تفكير الجماعات الإرهابية، فقد جرى عكس الأدوار: إذ سيقوم المدربون بدور الحرس الشخصي، وسيحاول الطلبة الذين استوعبوا دوافع وأهداف وتكتيكات الإرهابيين وحيلهم، أن يبحثوا عن نقاط الضعف في الترتيبات الأمنية ويشنوا الهجوم. وفي أول تمرين ميداني في هذه الدورة، كان علينـا أن نوقـع موكب الشخصية المهمة في كمين في أثناء مروره في شارع على شكل حرف الـلام، وكان علينا أن ننتظر إلى حين قيام سيارة الشخصية المهمة بالالتفاف عند زاوية

الشــارع فنقطع عليــه الطريق من الأمام ومن الخلـف بحافلات الـ «بـك أب»، وعلينا أن نتوقــع مقاومة من السائق والحرس ومن الشخصيــة المهمة نفسها داخل السيارة. وكانت مهمتنا هي «قتل» هؤلاء جميعاً.

أخــذت مجموعتي جانباً لمناقشة كيف يخطـط الشيشان الحقيقيون لمثل هذه العملية، ثم أعطيت كل واحد منهم اسماً جهادياً، وهذه الأسماء تتغير كيلا يتمكن «الجواسيس» في صفوفنــا من تحديدنا بدقة، وحاولت أن أغرس فيهم العقلية الجريئة في التفكير وتحفيز الثــوار الذيــن يقاتلون جيوشاً جرارة حيث قلت لهم: إن علينــا أن نهجم، ونهجم، ونهجم مستغلين أقوى سلاح بأيدينا (وهو استعدادنا الكامل للموت).

ومــع أننــا أُعطِينــا تعليمات تحدد أيــن نختبئ وكيف ننفــذ العمليــة، إلا أن الإرهابيين الحقيقيــين لا يقيــدون أنفسهم بمثل هــذه التوقعــات؛ إذْ إن أنجح العمليــات الإرهابية أو الهجمات التي تنفذها قوات المقاومة كانت دوماً تحتوي على عنصر المفاجأة. ففي العراق، كانــت المقاومة تغيّر من تكتيكاتها باستمرار بعد أن يبــدو واضحاً أن قوات التحالف بدأت تتوقــع مثل هذا النــوع من الهجمــات وتستعد له. وأضــرب مثالاً على ذلــك، كانت أعمال المقاومــة في بدايتهــا تقوم على شــن المهاجمين الانتحاريــين هجوماً علــى القافلة الأمنية بسيارة مسرعة تقتحم القافلة من الخلف. ولكن أن بدأت فرق الحماية الشخصية بزيادة الرقابــة على مؤخرة القافلة، تحوّلت المقاومة إلى أسلوب جديد يقوم على مهاجمة القافلة مــن الأمام بسيــارة تنتظر اقتراب القافلة فتبطــئ سرعتها قبــل أن تنفجر. وحين عدلت فرق الحماية من أسلوبها لمواجهة هذا الاحتمال، عدّل المهاجمون طريقتهم وطوّروا أسلوباً جديداً بالهجوم على القافلة من المسرب المقابل من الشارع على ميمنة القافلة أو ميسرتها. وهــذا التمرين بحسب وضعه الأصلي يعلم الطلبة كيفية إيقاع سيارة ما في كمين، ولكنه لا يتعمق في تعليمهم أساليب الجماعات الإرهابية ولا طرائق تفكيرهم. غير أنني قدمت لهم خطة غير تقليدية للهجوم جاءت منسجمة مع طريقة تفكير العصابات المسلحة.

مــن أكبر المزايا التي يتفوق بها الإرهابيون أو جماعات المقاومة المسلحة على الجيوش النظاميــة التقليدية هي أن أفــراد الجيش يلتزمون بقواعد سلــوك في الحرب راسخة في عقولهم إلى الحد الذي أصبحت تؤثر فيه على توقعاتهم تأثيراً تلقائياً لا شعورياً. ويستغل

الإرهابيون وعناصر المقاومة هذا النقص في الخيال لدى الجيش النظامي، ويستخدمون قواعد الاشتباك الصارمة التي يلتزم بها جيش العدو أو الافتراضات الثقافية التي تهيمن على تفكيره استخداماً لمصلحتهم. ويمكن ملاحظة هذا التوجه بكل وضوح في تجاهل عدد من الجماعات الإرهابية لحرمة الأهداف المدنية. ومن الحيل الشائعة الأخرى الأقل شهرة في وسائل الإعلام هي قيام عناصر المقاومة بالتخفي تحت أقنعة مختلفة بغية حمل الضحية المستهدفة على إلقاء السلاح أو التخلي عن وسائل دفاعها. فقد أخبرني المتعاقدون الأمنيون في العراق أن كثيراً منهم يرفضون الانصياع لأوامر الشرطة العراقية أو الجيش العراقي بالتوقف تحت أي ظرف من الظروف بسبب تكرار الحوادث التي استخدمت فيها عناصر المقاومة الزي الرسمي لقوات الشرطة أو الجيش، أو بسبب توظيفها العناصر التابعة لها في صفوف الجيش والشرطة في شن هجماتها. ويرسخ في ذهن أكثر الغربيين الذين نشؤوا على احترام القانون الفكرة القائلة بأن على المرء أن يقف بسيارته على جانب الطريق حين تطلب منه الشرطة ذلك. وقد استغلت المقاومة العراقية هذا الاستعداد التلقائي لدى قوات التحالف بفاعلية كبيرة. وبعد توضيح هذه النقطة، ذكّرت أحد المشاركين، وهو من أفراد الشرطة السرية، بالسيارة المدنية التي جاء بها من واشنطن العاصمة إلى الدورة.

وحين جاء دورنا، اختبأ أعضاء فريقنا على جانبي الطريق، وأخذوا وضعية الاستعداد لإطلاق النار إذا ما حاول أحد المستهدفين الفرار. أما أنا، فقمت بنزع كل معدات الحماية؛ لكي لا أثير أي شكوك حولي، وجلست في سيارة الشرطة السرية منتظراً قدوم السيارة الكبيرة رباعية الدفع التي تقل الشخصية المهمة وحرسه وسائقه. وبعد أن تجاوزوني وهم في طريقهم إلى نقطة الكمين، تحركت بسيارتي وتبعتهم، وقبل وصولهم إلى نقطة القتل أطلقت مزمار الخطر وأشعلت مصباح الضوء الأحمر الومّاض. وعلى الرغم من أن سائق السيارة كان يعلم أننا في وسط تمرين، إلا أنه تنحى بسيارته إلى اليمين وتوقف توقفاً كاملاً وجلس ينتظرني. وحين نزلت من سيارتي وأشرت إليه بإنزال زجاج نوافذ السيارة، استجابوا جميعاً دون تردد، فأمسكت مسدسي و «أطلقت النار» على كل من في السيارة من مسافة قريبة وأصبتهم جميعاً بإصابات هي في حكم الإصابات «القاتلة». ثم عدت

مسرعــاً إلى سيارتي بعد أن تنبه الحرس «الأمــوات» وراحوا يطلقون النار تجاهي. وحين توقــف الحرســ «الميتون» معاً لإعادة تعبئــة الرصاص في أسلحتهــم، رجعت بسيارتي إلى الــوراء بسرعة عالية وأطلقت عليهم النار من مسدسي مــرة أخرى حتى «قتلتهم» جميعاً مــرة ثانية. وعلى الرغم من أننــا لم ننفذ هجومنا بالطريقة التقليدية، إلا أننا نجحنا في تحقيق الهدف بقتل ركاب السيارة جميعهم. فَهمَ رفاقي «الشيشان» الدرس الذي أردتهم أن يتعلموه، إلا أنهم كانوا حانقين؛ لأنه لم يتح لأي واحد منهم أن يطلق رصاصة واحدة.

استقر مجرى الدورة على رتابة معينة على مدى الأيام المتبقية، وكنت حين أستيقظ في الصباح أجد الشرطي البريطاني قبل بزوغ ضوء الفجر يقوم بتمارين الضغط مستخدماً يــداً واحــدة بدلاً من اثنتين كما هــي العادة في مثل هذا التمرين. وبعــد أن ينهض الطلبة مــن فراشهــم، كانوا يؤدون تمرين التسلل عبر شبكة الحبــال، ثم يقومون بالهرولة بعض الوقــت، بعــد ذلك يؤدون صلاة الفجر، ثم يتوجهــون إلى المقصف لتناول طعام الإفطار. ومــن هناك يتوجهون إلى قاعــة الدرس. وفي أحد الأيام شاهدنا معــاً فيلماً حول ضحايا الهجمات الانتحارية يحكي الواقع القاسي و المؤلم في التعامل مع الأشخاص الذين يعملون خــارج نطاق قوانين الحــرب. وتعلّم الطلبة كيفية فتح الأقفــال، وآليات عمل القنابل التي تفجــر عن بعــد بوساطة الهواتف الخلويــة وغيرها من العبوات الناسفــة. وروى المدربون المحنكــون بالخبرة دروساً عــن كيفية قيام الجيش الجمهــوري الآيرلندي بتفجير المباني والمنشــآت، وعــن قيام حــزب الله بتفجــير معسكر المارينــز في لبنان، والتعامــل مع تلك الأحــداث من خبرتهم المباشرة التي عاصرت تلك الأحــداث. وكانت محاضرتي عن دور طريقــة التفكير والمحفزات لدى مختلف الجماعــات الإرهابية، وتأثيرها في أساليبهم في تنفيذ عملياتهم. ولقد استغرقت التمرينات الميدانية التي تحاكي الأوضاع المختلفة لتنفيذ الهجمــات المسلحــة أكثر المساء. ومــع مرور الوقت، كنــت أشاهد الطلبة وقــد عدّلوا من طريقة تفكيرهم، وأصبحوا يتبنَّوْن أساليبَ غيرَ تقليدية في عملياتهم.

كانــت تدريبات اليــوم الأخير من الدورة تدور حول التعامل مــع هجوم على «القرية»، ومحاولة قتل «الشخصية المهمة»، وتفجير سيارة مفخخة قرب البناية التي يوجد بداخلها العميل. وحتى هذا الوقــت، تعلم طلابي طريقة التفكير الطليق المبدع، واستخدام قواعد

السلوك لدى العدو وقيوده الثقافية ضده لتحقيق أقصى درجات النجاح؛ لذلك قلت لهم: إنني لن أتدخل هذه المرة تاركاً لهم المجال للإعداد للعملية برمتها وتنفيذها. وقد دهشت حقاً من الخطة التي وضعوها، القائمة على شن عدد من الهجمات المتتابعة، بما فيها تهريب مسدس مع واحد من المراسلين الإعلاميين الزائرين لإطلاق النار على «الشخصية المهمة».

كان الفريق الهدف يتوقع أن يشن الهجوم عبر إحدى الطرق المؤدية إلى القرية؛ لذلك قرر «الشيشان» التسلل من خلف حافة ميدان الرماية الحية لشن هجومهم من الخلف، وهو إجراء أثار حفيظة قائد المدربين، ولكنه أضفى على الهجوم عنصراً مثالياً من المباغتة. وحين حاول حراس الشخصية المهمة دفع عميلهم إلى داخل السيارة رباعية الدفع لإنقاذه وإخراجه من وسط المعمعة، أخرج مصوّر الفريق الإعلامي مسدسه وأطلق النار على العميل فأرداه «قتيلاً». وفي الوقت الذي كان الجميع في حالة من الارتباك والفوضى نتيجة الأساليب غير التقليدية والنتائج الفوضوية التي صدرت عن مَجْمُوعَتِي الشيشانية، قام أحدهم بقيادة إحدى السيارات متوجهاً إلى القرية على الشارع الرئيس وفجر السيارة المفخخة على مقربة من البناية المستهدفة مودياً بحياته وحياة جميع من كانوا حوله، لقد تعلم فريقي الدرس جيداً، وآمل أن يكونوا بعد الآن قادرين على التفكير كما يفكر الإرهابيون؛ لكيلا يلاقوا حتفهم على يد واحد منهم.

الفصل الثامن

بين فكّي الكماشة

يقع المنزل الذي يقيم فيه أعضاء فريق الممبة التابع لشركة بلاك ووتر على جانب الشارع الرئيس داخل المنطقة الخضراء، وسط حقل من أكوام القمامة وجيف الكلاب. وكانت الرائحة الكريهة المنبعثة من الجيف المتعفنة ومن المواد البلاستيكية المحترقة تزكم أنفي. وقد وُضِعَت حافلة مصفحة زرقاء اللون لسد المدخل الفرعي المؤدي إلى المنزل بوصفه شكلاً بدائياً من أشكال البوابات الأمنية. وما إن شاهدنا الشخص العراقي الذي كان يجلس مستريحاً على كرسي بلاستيكي أبيض بجانب الحافلة، حتى قفز إلى الحافلة؛ لكي يزيحها عن الطريق فاتحاً لنا المجال للدخول. وكان المتعاقدون الأمنيون التابعون لشركة تربل كانوبي الذين جاؤوا بي من المطار يسخرون من قصور الإجراءات الأمنية لدى بلاك ووتر مستشهدين بقيام الحارس العراقي فتح الطريق قبل أن يعرف من نحن، أو أن يسأل عن بطاقات هوياتنا الشخصية، أما أنا فقد رأيت ذلك نوعاً من التأدب، فما عسى ثلاثة أمريكيين ضخام الجثة في سيارة بي إم دبليو سوداء من الفئة السابعة، أن يكونوا إلا متعاقدين أمنيين؟

كانت المنازل المتلاصقة والمتقاربة على جانبي الشارع تبدو مهجورة، إلا أن الشركات الأمنية تقيم في كثير منها. دخلنا عبر بوابة مفتوحة إلى منزل محاط بسور. وتزين ساحة مدخل المنزل شجرتان شاهقتان غير مقلمتين من النخيل. أما المنزل ذو الطابقين فكان منزلاً عادياً مبنياً من اللبن، وتغطيه طبقة من الغبار. وحتى مع القذارة، والمحيط المملوء بالقمامة، فإن أسعار العقارات في بغداد تضاهي أسعار العقارات في باريس، أو لندن، أو نيويورك، وتبلغ أجرة هذا المنزل المتضعضع ثمانين ألف دولار أمريكي في العام، وهي أجرة تُعَدُّ مغنماً بالنسبة لبلاك ووتر؛ لأنك الآن لا تكاد تجد منزلاً مشابهاً في المنطقة الخضراء بأجرة تقل عن 12 ألف أو 15 ألفاً دولار في الشهر. تغطي أكياس الرمال نوافذ المنزل، وامتلأت ساحة المنزل بصناديق الذخيرة، والبرادات، والكراسي البلاستيكية المتكسرة؛ ويمثل صوت مولد الكهرباء الذي يعمل بالديزل خلفية المشهد.

في الداخل، كان التشيليون يشاهدون البرامج التي تعرضها قناة فضائية تبث برامجها باللغة الإسبانية على شاشة تلفاز كبيرة، في حين كان المتعاقدون الأمريكيون منشغلين بحاسباتهم المحمولة، وحين دخلت الغرفة، رمقوني بأعينهم ثم عادوا إلى كتابة رسائلهم الإلكترونية وتصفح مواقع الإنترنت. وكان على الجدار فوق رؤوسهم لافتة تقول «يمنع تصفح المواقع الإباحية» وهي لافتة تتضمن مفارقة غير مقصودة. وكان الرجال يدخلون ويخرجون من باب المطبخ حيث كان فيه ثلاث فتيات عراقيات دائمات التبسم يقمن بإعداد طعام مكون من شرائح غير معروفة من اللحم. وها قد وصلت إلى المكان الذي سأقيم فيه طَوالَ الشهر المقبل، فقد أتيت إلى بغداد لملازمة فريق بلاك ووتر الأمني ومرافقتهم في دورياتهم اليومية من مَقَرِّهم إلى مطار بغداد الدولي والعكس. وسأبقى هنا أكثر شهر نوفمبر وبداية كانون الأول/ ديسمبر من عام 2004. وهي المدة التي شهدت أعلى معدلات للهجمات على طريق المطار. وقد عهد إلى مدير العمليات في شركة بلاك ووتر واسمه مايك رش بمهمة القيام بضيافتي طَوالَ مدة إقامتي هنا، غير أن مايك كان في الخارج. ولم يظهر أحد من الموجودين في المكان أي اهتمام بوجودي بينهم؛ لذلك قررت أن أتجوّل في المنزل وحدي.

كانت رائحة القهوة ورائحة شواء شرائح الهمبرغر المجمدة والبصل المقلي تفوح في أرجاء المنزل. يقع المطبخ قريباً من المدخل الرئيس للمنزل، وفيه يتناول أكثر الرجال هنا طعامهم وهم وقوف، ولا تتوقف آلة صنع القهوة عن العمل طوال الوقت. ويبدو أن أسراب الذباب في الداخل لا تقل عنها في الخارج، وكانت الغسالات الآلية تدور وتهمهم وهي تنظف ملابس المتعاقدين من الرمال، وكانت قوارير المياه المعدنية تملأ كل ما هو متوافر من مساحة على الرفوف، ويغطي جدار الغرفة التي تستخدم لتقديم التعليمات قبل الانطلاق خريطة كبيرة لمدينة بغداد وعليها عشرات النقاط للدلالة على مواقع الهجمات التي تحدث في المدينة.

وقعت عيناي على غرفة كان على بابها لافتة تقول: «الرجاء الإبقاء على الباب مغلقاً»، نظرت بداخلها، فرأيت رجلاً مفتول العضلات قد خالط الشيب لحيته التي تشبه عثنون التيس وهو يتحدث في الهاتف: «نعم، سنرسل ..». وقبل أن ينهي الجملة، لاحظ هذا الشخص وجودي في المكتب، فرفع رأسه ناظراً إليَّ وقال: «كائناً من تكون، أغرب عن وجهي وأغلق الباب خلفك!».

وحين التفت راجعاً إلى البهو، قال لي أحد المتعاقدين: إن «ذاك» هو غاي غرافينو، ضابط احتياط في القوات الخاصة برتبة رقيب، ويعمل الآن قائداً للوحدة الجوية التابعة لفريق المبة. أنشئ فريق المبة في الأصل؛ ليكون فريقاً سريع الانتشار، ثقيل التسليح ضمن وحدة الحراسة الشخصية لبول بريمر حاكم العراق المفوض من قوات التحالف، ولكن هذا الفريق يتولى الآن مهمة نقل المتعاقدين الأمنيين والشخصيات المهمة من المنطقة الخضراء إلى مطار بغداد الدولي وبالعكس.

قيل لي أن أضع حقيبتي في واحدة من غرف النوم في الطابق الثاني من المنزل، فصعدت الدرج إلى الطابق العلوي، ورأيت صناديق مكدسة من بنادق إم- 4، وصناديق ذخيرة، وأكياس رمال على جانب جدران الممر، وقد وعلقت على الجدار إرشادات توضح طريقة إخلاء المكان، وتؤوي الغرفة الواحدة ما بين ثلاثة إلى ستة أشخاص على أسرة

مفـردة أو ذات طبقتين، أو من النوع القابل للطي. والجامع المشترك في الديكور هو أنه لا شـيء في هذه الغرف يمكـن وصفه بالدائم، ولكل شخص خزانة وعدة حلاقة، ومجموعة مـن الأقراص المدمجة، والكتب، والأشيـاء التذكارية. ويبدو واضحـاً من حسن التنظيم والترتيـب، وعدم وجود أشياء مبعثرة في الغرفة، ووضع الأشياء بزاوية معينة، والمحافظة علـى نظافـة المكان أن الانضبـاط العسكري لا يزول بعد انتهاء الخدمـة في الجيش. ومع ذلك، انتابني شعور غريب بأنني انتقلت إلى مقر جمعية أخوية مليئة بالأسلحة الثقيلة.

توجـد على سطح المنزل شرفة مغطـاة بشبكة من الحبال، حيـث سأمضي فيها أكثر أوقات المساء في (...) التدخين، والتحدث إلى هؤلاء الرجال طَوالَ الشهر القادم. وتوجد علـى السطح أجهزة تماريـن رياضية جديدة مهجـورة تغطيها طبقة ثخينـة من الغبار، ويبـدو أن بعضـ تلك المعدات هي مـن صنع منزلي، علب قهوة مملـوءة بخلطة إسمنتية، وبعضهـا الآخـر تبدو أنها من آخـر طراز من المعـدات الرياضية. وقـد جعلت الهجمات المتكـررة وقذائـف الهاون ذلك السطح مكانـاً مكشوفاً وعرضة للهجـوم؛ لذلك يستخدم المتعاقدون الأمنيون الصـالة الرياضية الموجودة في قصر صدام حسين القديم.

يمكـن مشاهـدة المنظر القاتم للضواحـي المحيطة (مناظر غـير متناهية من المباني التـي تمتد إلى مسافات بعيـدة من كل الجهات). وعلى مقربة من المنزل، تسير الدبابات والعربـات المصفحـة التي تملأ الشـارع الذي يبدو كأنه محصـور في وادٍ محوط بجدران إسمنتيـة مرتفعـة، وتغطي الأسـلاك الشائكة الجانـب الخلفي من الجـدران وذلك لمنع العراقيـين من الاقـتراب، وتطوف في السـمـاء طائرات مروحية أمريكيـة من نوع بلاك هـوك وآباتشـي، مضيفة خلفية من الأصـوات الميكانيكية لهذا المنظـر الكئيب من ساحة الحرب.

نزلـت مـن السطح إلى الطابـق السفلي؛ كـي أتعرف علـى رفاقي الذيـن يقيمون في هـذا المسكن، ولا يشك النـاظـر إلى الأشخاص الذين تجمعوا لمشاهـدة برامج التلفاز في أن هـذا الجمع هو تجمـع قبلي. ويظهر أن هـؤلاء الرجال يرتبط بعضهـم ببعض برباط

مشترك تظهر معالمه في طراز الملابس التي يلبسونها، وفي طريقة كلامهم، وتصرفاتهم، وثقافتهم. والوشوم الملتوية ذات الزوايا الحادة، والرؤوس المحلوقة، والسواعد المفتولة، واللحى القصيرة أو المقصوصة على شكل عثنون التيس، هي «المظهر المشترك» بينهم جميعاً. أما نكاتهم الجوّانية، وكثرة استخدامهم للمصطلحات المختصرة، والألقاب، تشير إلى أن لديهم طريقتهم الخاصة في التخاطب والاتصال. ويكتسب كل متعاقد لقباً يحل محل اسمه الحقيقي يخاطبه به رفاقه عبر جهاز اللاسلكي، وهذا اللقب عادة ما يتغير إذا ما اقترف المتعاقد شيئاً جديداً يجعله أكثر استحقاقاً للقبه الجديد. وليس للمتعاقد أن يختار لقبه بنفسه؛ بل عليه أن يقبل ما يختاره الآخرون له. فعلى سبيل المثال، استحق «شرك» و«مياغي» هذين اللقبين لمشابهتهما شخصيتين ظهرتا في فيلم سينمائي بهذين الاسمين، في حين استحق «86» و «كوغر» هذين اللقبين بسبب شيء فعلاه.

يدير شؤون المنزل شخصان هما: باري أو باز وهو جندي سابق في القوات الخاصة النيوزلندية، والآخر هو «رك» أو «بغدادي» وهو ضابط شرطة سابق في الولايات المتحدة ذو شعر أشقر، هذا إلى جانب الشخص الجلف غاي غرافينو. سيتولى «مياغي» قيادة فريق المبة الذي سأرافقه في جولاته اليومية، ويوضح لي مياغي بأن الأشخاص الذين سأتعرف عليهم هم جميعاً من «الطراز الأول» في قطاع المتعاقدين الأمنيين.

يعتقد كثير من الناس أن البنادق هي أكثر شيء يستهوي أي متعاقد أمني في العراق، لكن الحقيقة هي أن أكثر ما يستهويهم هو الحواسيب المحمولة، ويمكن للمتعاقدين الأمنيين شراء حواسيب محمولة عادية بأسعار رخيصة من متجر بي إكس القريب من معسكر النصر قرب المطار، وهذه الحواسيب تعد النافذة التي تصلهم بأوطانهم وأسرهم، وتطلعهم على الأخبار خارج صندوق الرمال.

يثير الاستفسار عن لافتة «يمنع تصفح المواقع الإباحية» موجة من الضحك في الغرفة، وقد بدأت المجموعة أخيراً بإبداء الارتياح من وجودي حولهم، وراحوا يخوضون في نقاش مطوّل حول أفضل المواقع الإباحية على الإنترنت.

عرفت من أول حوار لي مع فريق بلاك ووتر أن العيش في العراق يعني في نظرهم الملل، والخوف، والصداقة العميقة المتولدة من هذه التجربة المشتركة. إلا أن أهم ما يعنيه العراق لهم هو المال، فمع دقة عقارب الساعة بعد منتصف الليل يدخل يوم جديد، وهذا يعني مهمة جديدة، وهو ما يعني أيضاً زيادة في رصيد حساب الواحد منهم بمقدار 500 إلى 600 دولار. ويسعى كثير منهم، ولا سيما المتزوجون وأرباب الأسر، إلى العمل في العراق؛ لأنهم يملكون مجموعة من المهارات المتخصصة التي تؤهلهم لكسب دخل مالي أفضل من الرواتب المتدنية التي تدفع لموظفي الحراسة والأمن في الولايات المتحدة. وتلطّف الأموال التي يكسبونها هنا من معاناة وآلام البعد عن الأهل والأوطان. أما غير المتزوجين، فإن الأجر المرتفع الذي يكسبونه من هذا العمل يخفف من الشعور بالوحدة والبعد عن مجتمعهم ورفاقهم. وقد تمكن تي-بوي من تكوين علاقات صداقة غير تقليدية في أثناء إقامته في بغداد وأداء العمل الشاق الذي يدور حوله نقاشنا.

يحتفظ تي-بوي بقفص كبير أسفل الدرج يؤوي ببغاوين صغيرين ملونين من نوع الطائر الطيب. وأراني تي-بوي عشهما وقال لي: إنهما خسرا بيضة قبل تمام نمو الجنين فيها، وأنه يأمل أن تفقس البيضة الأخيرة. ولا يفهم أكثر القاطنين في هذا المنزل سر هذا الحب الجم الذي يوليه جندي سابق في المارينز لهذه الطيور الصغيرة، كما أنهم لا يخفون تذمرهم مما يصدر عنهما من زعيق. وفي أثناء إقامتي في هذا المنزل، استمتعت بالجوانب المتناقضة في شخصية هذا الرجل ذي البنية القوية، الحليق الرأس، الذي يلبس اللون الأسود من رأسه حتى قدميه، وقمصاناً ذات شعارات مبالغة في الرجولية، ووشوماً وتمائم متنوعة على شكل الجمجمة، ويقضي وقته في ملاطفة ومحادثة هذه الطيور الرقيقة الناعمة بعد عودته من عمل مجهد في جولة المطار.

وصل مايك رش الذي يتولى منصب نائب رئيس شركة بلاك ووتر، ومنصب المدير المسؤول عن العمليات الأمنية، فأراح الآخرين من عبء الاشتغال بضيافة «المراسل الإعلامي». ومايك هو رجل طويل القامة، هادئ الطبع، يقظ، حاد الذهن. ويوحي للناظر

إليـه بأنه رجل كثـير الأشغال والأعبـاء. ولا يعدم مايك نقصاً في المشـكلات التي تحتاج إلى اهتمامـه الفوري، ولا سيما أن مسؤولياته لا تقتصـر على إدارة عمليات شركة دائمة التوسـع كبلاك ووتر، بل تشمل كذلك ممارسة هـذه المسؤولية وسط الفوضى العارمة في العـراق، وأمَّـا والفرصـة الوحيدة التي يخلد فيهـا مايك إلى الراحة فهـي في الليل، على سطح المنزل الذي يسكنون فيه.

كان الليـل بـارداً وصاخبـاً على سطـح المنــزل (...)، جلس أعضاء الفريـق، وراحوا يتحدثـون ويتمازحون، وتعالت أصوات ضحكنا بين جنبات المباني المربعة البشعة المحيطة بنا، فيما كان صوت مولد الكهرباء يهمهم بهدوء أسفل المنزل.

وفجأة سمعنا صوت انفجار خفيف تبعه انفجار قوي مدو، وكان هذا الصوت هو صوت انفجـار سيارة مفخخـة في مكان ما باتجاه القصر على بعد عـدة مئات من الأمتار. ركز الرجـال سمعهم تحسبـاً لسماع المزيد من الأصوات. ومن الغريـب أنهم كانوا لا يسمعون أصـوات انطـلاق وانفجار قذائف الهـاون التي لم تتوقـف طَوالَ المساء. وقـال لي مايك مشـيراً بيـده إلى إحدى الجهات من سطح المنزل: إن أربعـة متعاقدين من الغورخا قتلوا في قصـف مدفعـي بالأمسـ استهدف المخيم الـذي يسكنون فيه على بعـد مئة ياردة من هـذا المكان، وقد وقع الهجوم وهم نيـام. وموت أربعة من المتعاقدين في يوم واحد جاء في أسـوأ المراحل التي سجلت أعلى معدلات للوفيات في صفوف المتعاقدين الأمنيين. ويتذكر مايك بأن أسوأ تلك المراحل سجلت ما معدله وفاة 3.24 متعاقداً في الأسبوع. ثم انطلقت أصـوات صفارات الإنذار من نقطة التفتيش العسكرية القريبة من المنطقة، لكنّ الشرب، والتدخـين، والحديث، والضحك، عاد كما كان دون أن يتأثّر بأصوات الحرب التي تهيمن على الظلام.

يقـول المتعاقدون: إن عملهم هنا ممـل على الرغم من أنهم يقودون سياراتهم كل يوم علـى أخطـر شارع في العالم. لقد أصبحـت السيارات المفخخة، والطـرق المغلقة، ونيران القناصـة، والألغـام الأرضيـة، والتعليمـات الصباحية التـي لا تنتهي، أمـراً اعتيادياً في

حياتهم. وفي بعض الأحيان قد يتأخر انطلاق القافلة الأمنية بعض الوقت بعد ورود معلومات استخبارية عن احتمال وقوع هجوم في المنطقة. وفي أحيان أخرى يغلق طريق المطار حين يقوم الجيش بإزالة مخلفات تفجير سابق، وأحياناً تقوم الطائرات المروحية الصغيرة بنقل الشخصيات المهمة إلى المطار فيلزم فريق الممبة مكانهم في المنزل لتأدية بعض أعمال الصيانة والتنظيف. إلا أن الفريق في أكثر الأيام يبقى جاهزاً مادياً ومتهيّئاً نفسياً لهذه المهمة، وكنت أجد صعوبة في تصوّر كيف يمكن أن يكون السير على طريق طولها أربعة أميال سيراً يتميز بالحدة والسرعة بين فكي كماشة مملاً. غير أن أصدقائي الجدد قالوا لي: إنني عما قريب سأعرف الفرق بنفسي. وعند انتصاف الليل، انفض الاجتماع، وأخذت أصوات قرقعة زجاجات الويسكي تسمع حين جمع المتعاقدون أكياس القمامة متوجهين إلى الأسفل لأخذ قسط من النوم قبل شروق الشمس.

وفي صبيحة اليوم اللاحق، بدأ العمل الاعتيادي. كانت آلة صنع القهوة تعمل دون توقف، وكلما امتلأ إبريق جديد من القهوة، أفرغه المتعاقدون في فناجينهم الكبيرة. ووصلت الفتيات العراقيات إلى المنزل ليقمن بإعداد فطور مشبع بالدهون مكوناً من البطاطا المقلية، والبيض، ونوع ما من شرائح اللحم المفروم، وجلس الأذكياء من المتعاقدين وفي حجورهم حواسيبهم المحمولة التي اشتروها حديثاً، التي ترتبط بالإنترنت لاسلكياً. أما البقية، فكان عليهم التنافس على الحاسوبين الموجودين في المنزل. وانغمس المتعاقدون الذين جلسوا على الكراسي والأرائك المحشوّة الموجودة في غرفة التلفاز وإلى جانبهم أكواب القهوة، في جلسة مطوّلة من المراسلة الفورية عن طريق الهوت ميل أو الياهو. وكان على المتعاقدين الذين ليس لهم أزواج أو خليلات في أمريكة أن يسددوا التزاماتهم المالية الشهرية عن طريق الإنترنت؛ لأن هذه الالتزامات لا تتوقف مهما كانت ظروف عملهم. فتح «غريز» رسالة إلكترونية وصلته حديثاً؛ ليكتشف أن زوجه طلت جدران المنزل من الداخل باللون البني. فصاح محتجاً «ما هذا الجنون!» وتجمع الباقون حوله لمشاهدة الصور وأبدوا تعاطفهم مع رأيه بهذا الاختيار غير الموفق لهذا اللون. وتابع «غريز» تذمره قائلاً: «اللعنة، اللعنة، إنه لون قاتم جداً».

مـع تفتق ضوء الصباح، خرج تـوول[1] الذي اكتسب هذا اللقـب لأسباب واضحة؛ فهو الميكانيكـي الموكل بمهمة فحص عربات المبة والتثبت من خلوها من الأعطال التي يمكن أن تتوقـف بسببهـا في وسط الطريق لأن وقوفهـا سيكون كارثـة، وراح يتفحص العربات ولا سيمـا عدم وجود مـاء في الديزل؛ لأن الفريق واجه بعضـ المشكلات من وقت قريب. ويحرصـ توول على إعادة فحص العربات مـرة ثانية؛ لأن تعطل واحدة من هذه العربات وسط الدرب الآيرلندي يعني وقوع كارثة لا تحمد عقباها.

في تمام الساعة التاسعة والنصف، عقد أول اجتماع يومي صباحي، وقام غاي غرافينو بدعـوة الجميـع إلى غرفة الاجتماعات لمناقشـة بعض القضايا الإداريـة والأمور المتعلقة بتدبـير المنزل. هناك حاجة لشـراء مرشحات للزيت، وسوف تصـل قريباً دفعة جديدة من المتعاقدين. هذا بالإضافة إلى قضايا عادية أخرى تتعلق بالمنزل هي موضوع النقاش الحـالي. واستمر الاجتماع خمس عشرة دقيقة، ثم عـاد المتعاقدون إلى ساعة أخرى من إرسـال الرسائل الإلكترونية وتصفـح الإنترنت قبل العودة إلى اجتمـاع الساعة الحادية عشرة لسماع الإيجاز الأمني.

يقـوم غريز بجمع وتحليل المعلومات الاستخبارية المتعلقة تحديداً بعملية اليوم، ويقوم مياغـي بوضع النتائج في قالب مـن شرائح باور بوينت لعرضها في الاجتماع. ويشير رسم بيـاني لإحصاءات الهجمات التي وقعـت على طريق المطار إلى أن الهجمات تشهد تزايداً في الآونـة الأخيرة. وقد وقع في اليومين السابقين ستة عشر حادثاً من حوادث العنف على طريـق المطار. وبلغت أعـداد الهجمات حداً كبيراً لدرجة أنهـم توقفوا عن عرض تقارير الهجمـات اليوميـة مكتفين بذكر المجمـوع الكلي لتلك الهجمـات وأي تطورات جديدة في تكتيكات شنّها.

وقـد وقـع أحدث هجـوم تعرضت فيه قافلة تابعـة لبلاك ووتر قبـل أسبوعين على يد أربعـة وعشرين عراقيـاً مسلحين ببنادق كلاشنكوف. وتأتي أكـثر الهجمات من رصاص

1- والكلمة تعني بالإنجليزية العدة التي يستخدمها الحرفي أو الصناعي.

القناصــة، أو من وابل من رصاص الأسلحة الخفيفة التي توجه على القافلة العابرة، غير أن أكـثر الدمار يأتي من العبوات الناسفة التـي تفجر من بعد، أو من السيارات المفخخة التـي تصطدم بالقافلة. وبـدت المواجهات كأنها لعبة القطة والفـأر، حيث تعدل المقاومة مـن تكتيكاتها لتحتال على الدفاعات الجديدة التي يطورها الجيش أو الشركات الأمنية. وقـد علمنــا في الإيجاز الصباحي أن أحـدث الهجمات الانتحارية تقـوم الآن على توجيه الهجـوم من أحـد جانبي القافلة بعد أن بدأت قوافل الجيشـ وقوافل المتعاقدين الأمنيين تركـز اهتمامها على السيارات التي تأتي مسرعة من خلـف القافلة وعلى السيارات التي تتباطـأ في المقدمـة. ولكن المشكلة هي أن كثيراً من العراقيــين العاديين اعتادوا الالتفاف إلى الجانــب الآخر مــن الشارع إذا كان الجانــب الذي يسيرون عليه مغلقــاً أو يعاني من اختناقاً في حركة المرور.

التقط غريز معلومات استخبارية من الجيش هذا الصباح تفيد بوصول تقارير تتحدث عــن احتمال وقــوع هجمات انتحارية هــذا اليوم. وعرضـ مياغي شريحة «بــاور بوينت» تتضمــن قائمة بأنــواع السيارات التي يمكــن استخدامها في الهجمــات المفخخة، وأرقام لوحاتهــا؛ كـــي يتمكن المتعاقدون من حفظها عــن ظهر قلب. وكالعــادة، اختارت المقاومة سيــارات يابانية قديمــة صغيرة يصعب تمييزها من بين أعــداد لا تحصى من السيارات التي يراهــا فريق الممبة كل يوم. وفي العادة، تقوم المقاومة بسرقة سيارات قديمة آسيوية الصنــع في هجماتهــم وذلك لسهولــة اختلاطها بالسيــارات الأخــرى. والمفارقة في هذه الإستراتيجيــة هي أن سرقة السيارات المستوردة القديمة ليست الهدف المفضل للصوص السيــارات، ولهذا السبب يثير الإبلاغ عن سرقة سيارة قديمة ناقوس الخطر من احتمال استخدامهــا في هجمات مفخخة. ومن سوء حظ للمتعاقديــن، وعلى الرغم من أن توافر معلومات مفصلة حول أرقام لوحات وأنواع السيارات التي يحتمل استخدامها في السيارات المفخخة هو أمر مفيد لقوات الشرطة، إلا أن المتعاقدين الأمنيين ليس لديهم وقت لمعاينة أرقام لوحة السيارات المتجهة نحوهم لمعرفة إن كانت ستنفجر في وجوههم أم لا.

تتبع بلاك ووتر سياسة تقوم على استخدام قوة نارية كاسحة في حالة تعرض قوافلها لهجــوم مسلح، وهــي سياسة تتبعها أكـثر الشــركات الأمنية العاملة في العــراق. ويمكن

للفريق الأمني أن يرد على الهجوم بفتح النار باتجاه القوة المهاجمة لإرغام المهاجمين على الاختباء توقياً من إصابتهم برصاص البنادق الرشاشة مدة كافية تمكن الفريق من الانسحاب وفك الاشتباك. وفي حالة تعطل إحدى عربات القافلة، فإن المتعاقدين يمكنهم الاستيلاء على سيارة عابرة للهرب بها، أو الهرب ركضاً على الأقدام، أو الاختباء في مكان محصّن والانتظار فيه ريثما تصلهم قوة إنقاذ.

بعد انتهاء الإيجاز، توجهنا إلى الخارج استعداداً لركوب العربات، وقد بهرني استعراض القوة لدى فريق الممبة وأدركت حينها السبب وراء نزوع المهاجمين في أكثر هجماتهم إلى أسلوب الهجوم الخاطف والفرار بأقصى سرعة ممكنة. وفي أكثر الحالات، تتألف القافلة التي يتولى فريق الممبة حراستها على النحو الآتي: عربة ممبة في المقدمة، تتبعها شاحنة غير مصفحة تحمل الحقائب والإمدادات، وخلفها عربة ممبة ثانية تحمل الركاب المدنيين المطلوب نقلهم من المطار أو إليه، وفي المؤخرة عربة ممبة ثالثة لحماية القافلة من الخلف. وعربة الممبة المصفحة بحديد تبلغ ثخانته ثلاثة أرباع الإنش (2سم) هي عربة نقل للجنود مقاومة للألغام تم تحويلها إلى عربة مسلحة لخوض العمليات القتالية. ويمكن لعربات القافلة جميعا أن تحمل من الأسلحة ما مجموعه أربعة رشاشات ثقيلة من نوع بي كي إم مثبتة وسط العربة، وتحمل العربة الخلفية اثنين منها، وقد أراني أحد الرماة كيف يمكنه بضغطة واحدة على الزناد أن يمطر هدفه بحزام من الرصاص في ثوان معدودة. وكل واحد من رشاشات بي كي إم معبأ بالذخيرة وإلى جانبه صندوق إضافي من الذخيرة يضع بين يدي الفريق القدرة على إطلاق عدد يتراوح ما بين ألف وست مئة إلى ألفي طلقة عيار 7.62 ملم في حال التعرض لهجوم. ويحرص غيكو على اصطحاب قاذفة قنابل زيادة في الاحتياط، وقد وضعها اليوم خلف المقعد الأمامي في إحدى العربات. ويحمل بعض أعضاء الفريق فوق أكتافهم بنادق شبه آلية من نوع إتش كي بي - 5، مع العلم أن المتعاقدين التشيليين يفضلون بندقية إي كي - 47 الكلاشنكوف ذات الشريط المزدوج من الطلقات.

تضم قافلة الممبة بالإضافة إلى الأشخاص الذين يستخدمون رشاشات بي كي إم الثقيلة، ثلاثة متعاقدين على الأقل مسلحين تسليحاً جيداً في المقعد الأمامي، والمقعد

الخلفي، والنافذة الخلفية ، أو على الجانب. وكل موقع في القافلة مكلف بحماية نطاق محدد. وذكر لي مياغي بأن كل متعاقد يحمل بندقية إم- 4 معبأة بمخزنين للذخيرة سعة الواحد منهما ثلاثون طلقة على حزامين مزدوجين لتسهيل الحركة والالتفاف وإعادة تزويد الذخيرة إذا اقتضت الضرورة. ويحملون في السترة الروديسية ذات الجيوب المتعددة ثمانية مخازن إضافية من الرصاص وبذلك يكون في حوزة كل متعاقد ما مجموعه ثلاث مئة طلقة من عيار 5.6 ملم. كما يحمل كل واحد من أعضاء الفريق مسدساً من نوع غلوك معبأ وجاهزاً للاستعمال، إضافة إلى مخزنين إضافيين من الرصاص. وذكر لي أحد المتعاقدين: بأنه إذا وصل بنا الحال إلى استخدام المسدسات فسأكون في ورطة حقيقية. ولما كان إلقاء قنبلة يدوية هو أفضل وسيلة لفك الاشتباك مع العدو في حالة الوقوع في كمين يشارك فيه عدد كبير من أفراد المقاومة - وذلك كما حدث مع إحدى الفرق التابعة لبلاك ووتر قبل أسابيع-، فإن أعضاء الفريق يحرصون على الاحتفاظ بعدد من هذه القنابل في متناول اليد. والحقيقة أن القنابل والصواريخ غير مسموح للمتعاقدين الأمنيين استخدامها في الأصل، إلا أنه وفي ضوء عدم التزام المقاومة بشيء من ضوابط السلوك، فإن قوات المارينز تزوّد الفرق التابعة لبلاك ووتر بكل ما يلزم لتأمين سلامتهم. وحتى مع عدم وجود الصواريخ والقنابل والمسدسات اليدوية، فيمكن لفريق المهبة العادي أن يطلق في لحظات سبع آلاف رصاصة على أي مهاجم.

لم يكن لدي نية في حمل السلاح في أثناء الرحلة، ولكن أعضاء الفريق ألحوا عليَّ وأقنعوني بأنني ما دمت راكباً معهم، فإن العدو لا يتوقف للتمييز بين الكاتب والمتعاقد. وقالوا لو وقع الفريق في الخطر، فإن ما أحمله معي من سلاح وذخيرة يمكن الاستفادة منه. وبكلمات أخرى، إنهم يريدون مني أن أكون «مخزناً احتياطياً للسلاح، فإذا وقع اشتباك مع العدو، سيكون بإمكانهم سحب مزيد من إمدادات الذخيرة من جثتي الملقاة على الأرض. وبخطا المتردد، تناولت بندقية إم- 4، وسحبت الأقسام إلى الخلف، ثم تفحصت حجرة الذخيرة للتثبت من خلوها من الرصاص، ثم لقّمت مخزن الرصاص وأعدت الأقسام إلى وضعها الأصلي، وجعلت البندقية في وضعية الأمان، ووضعتها جانباً، ورحت أضع في السترة الروديسية مزيداً من مخازن الذخيرة للبندقية والمسدس.

تحت تلك السترة كنت أرتدي بنطالاً أسود وقميصاً بنصف كم، وهو لباس لا يختلف كثيراً عن «الزي الموحد» الذي يرتديه المتعاقدون الأمنيون؛ إذ يرتدي أكثرهم سراويلات رويال روبنز 5.11 ذات اللون الحنطي أو سراويل الجينز، مع حزام حنطي للعتاد من نوع بلاك هوك ودرعاً صدرية صغيرة مثلثة الشكل تحمل رقعة قماشية كتب عليها فصيلة دم حاملها، ويرتدي بعضهم قبعات تحمل شعار بلاك ووتر. وتجد أكثرهم وأشهرهم في ذلك غريزلي فقد دق على عضلة ساعده وشماً لشعار شركة بلاك ووتر، غير أنه يصعب على المرء تمييز الشركة التي يعملون فيها دون هذه الفوارق الدقيقة، وبكل ما يرتدونه من معدات وأسلحة، يبقى مظهرهم أبعد ما يكون عن مظهر المدنيين.

ثم لبست السترة الواقية من الرصاص ماركة كيفلر، وانسابت فوق رأسي بسهولة، وشددتها حول صدري بأربطة الفلكرو العريضة؛ فغطتني بإحكام كترس السلحفاة، وشعرت بالأمان مع أنني أعلم أن المقاومة العراقية استحدثت أساليب جديدة في التعامل مع الدروع الواقية من الرصاص وذلك بالتصويب نحو الرأس أو شرايين الفخذ. وأصبحت اشعر بصدري يضغط على ألواح السيراميك الصُّلبة في السترة الواقية من الرصاص حين وضعت السترة الروديسية فوق السترة الواقية من الرصاص. ثم وضعت خوذة من نوع كيفلر وثبتها حول رأسي بحزام يلتف حول الذقن، ثم لبست القفازات وواقيات الركبتين. كان منظر فريق الممبة لائقاً جداً حتى مع الخوذات وواقيات الركب، والتقطت لهم صورة تذكارية وكانوا في غاية الروعة أمام عدسة الكاميرا. ومع قناعتي التامة بأنني بكل ما ألبسه من جهاز حربي وعتاد أبدو أقرب إلى الغباوة مني إلى الرجولة، أو ككاتب يمثل دور المتعاقد الأمني- إلا أنني صعدت إلى عربة الممبة التي تتقدم القافلة وجلست في موقعي ومعي آلة التصوير وحاسوبي اليدوي، وأبقيت على بندقيتي الرشاشة من نوع إم-4 إلى جانبي تحسباً لأي خطر، وكانت أمنيتي أن اقضي كل وقتي في تسجيل الملحوظات الصحيحة والتقاط الصور الصادقة.

وصلنا نبأ يفيد بأن الجيش الأمريكي قد قام بإغلاق طريق مطار بغداد الدولي مرة أخرى بسبب انفجار سيارة مفخخة، وهذه المرة كان الهدف قافلة عسكرية مؤلفة من عربات مصفحة. لذلك، اضطررنا إلى أن نسلك طريقاً بديلاً يمر عبر شوارع المدينة

المزدحمة؛ لكي نصل إلى المطار وننقل مجموعة جديدة من المتعاقدين الأمنيين الذين وصلوا إلى مطار بغداد. وسيجعل الزحامُ في الشوارع المكتظة الرحلةَ أكثر صعوبة وأشد خطورة، غير أن المتعاقدين تعودوا على مثل هذه التغييرات التي تطرأ على خطتهم في اللحظة الأخيرة قبل انطلاقهم.

بدأت أصوات محركات عربات القافلة التي تعمل بالديزل تزمجر كأنها مجموعة من الخيول المصابة بداء السِّل، ثم انطلقت عربات الممبة كأنها قطار من الفيلة الخرقاء، تسير بخُطا متباطئة إلى الأمام، وكانت عجلاتها تثير الغبار وهي متوجهة إلى الشارع الرئيس. سرنا باتجاه «جسر بروكلين» وهو نقطة الخروج من المنطقة الخضراء إلى المدينة مروراً بجامعة بغداد. وبعد توقف قصير وإلقاء التحية على جنود المارينز والغورخا[1] الذين يحرسون البوابة غادرنا المنطقة الخضراء، ودخلنا في «المنطقة الحمراء. وفي الحال تبدل المزاج؛ فتوقف المزاح، وذابت الفردية في الفريق لتكوّن شبكة متصلة من الحدّة. كل شخص موكل بمهمة أنيطت إليه- السائق، القناص الأمامي، القناص الخلفي. وكل شخص موكل بمراقبة نطاقه- المقدمة والمؤخرة، والميمنة، والميسرة. وتحولت الطبيعة السهلة والمنفتحة للمتعاقدين إلى أقنعة من التركيز الحاد.

ولو سلكنا الدرب الآيرلندي [طريق المطار]، لكانت السرعة الكبيرة التي تسير بها القافلة على الطريق السريع سبباً في جعل استهداف القافلة بنيران القناصة أو الأسلحة الخفيفة أمراً صعب المنال، ولا شك أن فرص إصابة الهدف الذي يسير ببطء تكون أكبر من الهدف الذي يتحرك بسرعة. وفي هذه الجولة سيزيد المتعاقدون من تركيزهم وانتباههم في مراقبة كل شيء مريب يظهر خلف كل شجرة أو نافذة، بدلاً من مراقبة السيارات القديمة يابانية الصنع التي تسير في الشارع. ومع أن الازدحام المروري في شوارع المدينة يبطئ من سرعة تحرك القافلة، إلا أنها تضيف طبقة جديدة من الحماية من السيارات المفخخة، دون استهدافها بنيران القناصة أو الأسلحة الخفيفة؛ لأن أي

1- وهم جنود نيباليون من أصل هندي يخدمون في الجيش البريطاني، وقد استخدمهم الإنجليز منذ أكثر من مئتي عام، ويشتهرون ببسالتهم في ساحة المعركة. ومعنى هذه الكلمة في أصلها السنسكريتي «حراس البقر» وفيها قدح وتعريض بالديانة التي ينتمي إليها هؤلاء الجنود.

مهاجم يريد مهاجمة القافلة عليه أن يشق طريقه وسط جدر متراصة من السيارات المزدحمة قبل أن يقترب من القافلة ويفجر سيارته.

يدرك أكثر السائقين العراقيين أن عليهم الإبقاء على مسافة طويلة بينهم وبين القافلة، ولكن عندما حاول أحدهم الاقتراب من القافلة لكي يتجاوزنا، سمعنا صوت انطلاق رشقة من الرصاص، تبعها انبعاث رائحة مادة الكوردايت في الهواء؛ وذلك لأنَّ تي-بوي أطلق طلقة إنذار إليه من رشاش بي كي إم، ثم سمعنا صوتاً عبر جهاز اللاسلكي يحذرنا من أن حركة السير ستكون سيئة أمامنا. وكان هدير صوت محركات المبة يتقلب بين الهدير والأنين مع التباطؤ والتسارع في الحركة، وأخيراً توقفنا عن الحركة نهائياً.

ثم جاءنا نبأ عبر اللاسلكي يفيد بأن «الجيش الكبير» قد أغلق الطريق. فتساءلنا هل كان الإغلاق بسبب عملية عسكرية للجيش الأمريكي؟ أم بسبب سيارة مفخخة؟ فردّ غيكو متذمراً: «إننا لا ندري. نحن لا نكلّم الجيش الكبير، وإنما نقوم بما يطلبونه منا».

على الرغم من الإبقاء على مسافة بين القافلة وبين السيارات التي في الخلف والمقدمة، إلا أن السيارات العراقية في الاتجاه المعاكس بدأت تتجاوزنا، وبعضهم كان يرمقنا بنظرات تنم على الملل، وبعضهم الآخر تحس في نظراتهم كراهية حادة. وراح أحدهم يحاكي بيديه وصوته انفجار قنبلة «بوووم» ثم نظر إلينا بابتسامة شريرة مبتعداً عنا بسيارته. وتجمع الأولاد الصغار حول أعمدة الكهرباء وراحوا يحملقون بنا، وكان رجل آخر يمشي مسرعاً نحونا من زقاق قريب وهو يحمل شيئاً تحت معطفه الداكن. لقد أصبحنا هدفاً واضحاً محصوراً وسط بحر من اللظى المتوهج والسيارات المتوقفة، وكنا مكشوفين من جميع الجهات، وعرضة لهجوم معاد في أي لحظة، وليس أمامنا أي مخرج؛ لأن ازدحام السيارات يحول بيننا وبين الانسحاب من المكان. وبدأت أسائل نفسي في لحظة من اللحظات النادرة التي يمر بها الإنسان في محاسبة الذات، مشككاً في صحة اختياري لهذه المهنة التي أمارسها. وبدأنا نعزي أنفسنا بتذكير الواحد منا للآخر بصعوبة التحرك بسيارة مفخخة وسط زحمة السير، غير أن الشيء المعلوم الذي يعرفه الجميع هو السهولة التي يمكن لعناصر المقاومة أن تؤلف بها مجموعة لتنفيذ كمين سريع حين تشاهد هدفاً توقف في موقع مكشوف، وتذكرت هذه اللحظة بالذات بعد عدة أسابيع

حين قرأت عن تعرض فريق أدنبرة لتقدير المخاطر لهجوم «سمك القرش»- وهذه العبارة تعني في قاموس الأمن الهجوم المباغت السريع في الكر والفر- حين كان الفريق ينتظر فراغ الجيش الأمريكي من تأمين الطريق على مسافة تقل عن مئتي ياردة من المكان الذي حصرنا فيه.

رفعت البنادق والرشاشات جميعها وكانت في وضع الاستعداد منذ اللحظة التي غادرنا فيها المنطقة الخضراء، غير أن المتعاقدين الآن يتخذون موقفاً دفاعياً واضعين أصابعهم قرب الزناد، ومركزين أنظارهم عبر المناظير المقربة، أما أنا فرحت أجول ببصري عبر النافذة متأملاً المشهد المضغوط من السيارات المزدحمة، والمارة الذين ينظرون إلينا نظرات فضولية، والمباني ذات السطوح المربعة، وأطباق الفضائيات. وفي هذا الوضع المحفوف بالمخاطر، كان لدى كل متعاقد وفرة لا يمكن حصرها من الأخطار المحتملة التي يمكن أن تأتي من المنطقة المكلف بمراقبتها. وارتفعت وتيرة الاتصال بين عربات القافلة، وبدأ يظهر على الأصوات أثر الانفعال والشدّة العصبية.

«اللعنة! ما الذي يحدث هنا»؟!.

«لا أعرف، لقد أمر الجيش الكبير بإغلاق الطريق».

«لنخرج من هنا فوراً!»

«لا، انتظر قليلاً لعل الأزمة تزول ويفتح الطريق».

ويستمر النقاش عدة دقائق إلى أن تدخل مياغي قائد الفريق معلناً كلمة الفصل. فقال، بنبرة منتعشة: إن الطائرات المروحية الصغيرة ستتولى مهمة نقل المتعاقدين الجدد من المطار اليوم.

خرج أعضاء الفريق من عربات الممبة وبدؤوا بالسير بين السيارات المتوقفة، وهم يطرقون بأطراف بنادقهم نوافذ السيارات، فاقتنع سائقو السيارات بسهولة أن من مصلحتهم فسح المجال أمام عربات الممبة للالتفاف والعودة. وتوجه اثنان إلى الجهة المعاكسة من الشارع لوقف السيارات القادمة، ورجعت القافلة إلى الخلف ثم استدارت وقطعت الجزيرة الإسمنتية التي تفصل بين اتجاهي الشارع للعودة من حيث أتت.

بعـد أن عدنـا إلى المنطقة الخضراء، عـادت السلامة والأمان، وبـدأ أعضاء الفريق يذكـرون بعضهـم بالهجمات المحتملة التي كانت تحوم حولنـا في تلك اللحظات العصيبة التـي حصرنا فيها وسط الزحام. وحين بدأنـا بتفريغ متاعنا من العربات، أبدى بعضهم تذمرهم من الرحلة، أما البقية فلم يبالوا بما حدث. وقد تبين لي في الشهر الذي أمضيته برفقة فريق المبة أن مهمة الدورية التي خرجنا فيها اليوم كانت أكثر من عادية. ففي بعض الأحيـان يغلق الطريـق بسبب انفجار سيارة مفخخة، وفي أيام أخرى قد تبرز أنواع كثيرة من المشـكلات التي تؤدي إلى إحباط المهمة. ويمكنني التنبـؤ استناداً إلى المدة المحدودة التـي قضيتها مع الفريـق بأن ثلاثة أرباع الدوريات المدرجة في جدول مهمات فريق المبة تذهب فعلاً إلى المطار دون بأن تتعرض لتأخير أو إلغاء بسبب لا يتصل بهجمات مسلحة. ومع أن أكثر العاملين يستمتعون بيوم عطلة من الوظيفة، إلا أن دورية المطار في واقع الأمر تكسر الرتابة المملة للجلوس في البيت. وأظهر بعض المتعاقدين تذمرهم من الملل، وراحوا يبحثون عن شيء يشغلون به بقية اليوم.

في تلك الليلة، تجمع أعضاء الفريق لقضاء ليلة أخرى في الشرب والتدخين على سطح المنـزل. وفي هذه الليلة كانـت المنطقة الخضراء هادئة نسبياً، وكانـت أصوات الطائرات المروحيـة تسمع من مسافـة قريبة، وبالطبع لم تتوقف أصوات صفـارات الإنذار، غير أن الضجيج لا يرتفع هنا عن المستوى الذي تجده في مدينة نيويورك.

كنـت أنـا ومياغي جالسين في جهة واحـدة، فقربت كرسيي منه، وبـدأت أطرح عليه أسئلـة كثيرة عن حياتـه. وربما كان مياغي الذي تجاوز الأربعـين من العمر، هو أقصر، وأهدأ، وألطف أعضاء الفريق. وبعد مرافقته أكثر من شهر يمكنني القول: إن هذا الرجل يستحيـل استفزازه، ولعل السبـب يعود إلى نشأته في ضاحية إيكـو بارك، وهي ضاحية فقـيرة مـن ضواحي مدينة لوسـ أنجلوس، تنتشـر فيها الجريمة المنظمـة والعصابات المسلحة.

عمـل مياغـي سبعة عشر عامـاً في قسـم الشرطة السريـة وقسم الدوريـات الأمنية التابعـين لمديرية شرطة لوس أنجلوس. وبفضل الدخل الإضافي الذي تجلبه زوجه، تمكن الاثنان من شراء منزل جميل في بلدة سيمي فالي التي تبعد مسيرة ساعة ونصف الساعة

بالسيارة عن مكان عمله. وبعد خدمة دامت سبعة عشر عاماً، كان مياغي يتقاضى مرتباً بقيمة 1400 دولار كل أسبوعين، فترك العمل في جهاز الشرطة سعياً وراء دخل أفضل في المجال الأمني لدى شركة «فدرل إكسبرس». وذات مرة، اتصل به شرطي كان يعمل تحت إمرته في السابق، وطلب إليه أن يكتب رقم هاتف لشركة دينكورب، ففعل مياغي ذلك دون تردد: «أذكر أنه في أواخر التسعينيات، كان أكثر المبرزين من أفراد الأمن يذهبون للعمل في مهمات حفظ السلام سنة أو سنتين مع شركة دينكورب. ولما كان الوصف الوظيفي للعمل متعاقداً أمنياً خاصاً، فقد وجد مخرجًا قانونيًّا للإعفاء من الضريبة؛ إذ كانت دينكورب تدفع الرواتب من حسابات مصرفية من خارج الولايات المتحدة؛ لذلك لم يكن يصلك نموذج دفع الضرائب. فراتبي معفى من الضرائب، ويمكنك تحصيل مئة ألف دولار في العام خالية من الضرائب».

تقدم مياغي للعمل لدى شركة دينكورب في بداية عام 2003: «في ذلك الوقت، كان يدفع للمتعاقد الذي يعمل في تيمور الشرقية 105 آلاف دولار في العام، وفي البوسنة قرابة 90 ألف، وكوسوفو 89 ألف. عملت في كوسوفو عاماً واحداً، وتقدمت بطلب للعمل لدى بلاك ووتر في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2003، وفي منتصف يناير من عام 2004 تلقيت رسالة من بلاك ووتر تعرض علي العمل بأجر مقداره ست مئة دولار في اليوم. كانت الشركة تبحث عن أشخاص مدربين؛ لكي يعملوا في فريق الحراسة الشخصية لبول بريمر حاكم العراق المؤقت. وكان عدد من الأشخاص الذين تركوا العمل في دينكورب في كانون الأول/ ديسمبر من عام 2003 ليلتحقوا بشركة بلاك ووتر قد أرسلوا إلينا رسالة عبر البريد الإلكتروني ونحن في كوسوفو قالوا لنا فيها: إن بلاك ووتر هي الصفقة الحقيقية».

«كانت الدورة التدريبية التي التحقت بها دورة عادية تستغرق عشرة أيام من التدريب. غير أن دورتنا كانت مكثفة ستة أيام، ولكننا تقاضينا أجراً عن عشرة أيام. قالوا لنا: إنها دورة متقدمة، وإننا جميعاً لدينا المعلومات الأساسية. وفي أثناء اليومين الأولين، رسب عشرة أشخاص. لقد بدأنا بسبعة وأربعين شخصاً وانتهينا بسبعة وثلاثين. وكان من بين الراسبين شخص لم يستطع أداء تمرين واحد لعضلات المعدة، وهو الآن يعمل في وزارة

الخارجيـة ضمن الحراسة الدبلوماسية. وفي منتصـف الأسبوع، قاموا بتوزيع الوظائف، وقسم المشاركون في الدورة إلى فئتين، فئة الحاصلين على أعلى درجات التراخيص الأمنية التـي تخولهم الاطلاع على أسرار الدولة، والفئة الثانية هم البقية. كان كلٌّ منّا يرغب في العمـل في فريق حراسة بريمر. ثم شاعت نكتة تقـول: إن عدم اختيار الشخص للعمل في فريق بريمر دليل على أنه ليس على درجة من الحسن والوسامة».

ومـن المؤكـد أن لا أحد مـن الأشخاص الجالسـين على سطح المنـزل كان على درجة مـن الحسن والجمـال؛ لأنهم جميعـاً كلفوا بالعمـل في دوريات «الـدرب الآيرلندي» بدلاً مـن حراسـة بريمر. وربما كان باز أقربهم جميعاً إلى هيئـة «الفتى الوسيم»، نظراً لكونه الشخص الوحيد في فريق الممبة الذي يتمتع بشهرة بسبب مشاركته في البرامج الدرامية التـي تقـوم على الحيـاة الواقعية. فقبل عـدة سنوات، كان بـاز نجمـاً في برنامج يشابه البرنامج الأمريكي «سيرفايفر» (أي الناجي الوحيد) الذي جرى تصويره في جزر فيجي ليعرض على الجمهور النيوزلندي. ويستمتع بقية الفريق في ممازحته بشأن تلك التجربة. وواضـح أن ذلـك كان بدافع مـن الغيرة. وتبين لي في تلك الليلـة أن باز لم ينل شهرته في ذلـك البرنامج لكونه الشخص الوحيـد الذين استطاع البقاء من بـين المتنافسين الذين دخلـوا للعيش في الغابة، بل لأنه كان يمضي وقته خارج مُدَدِ التصوير في معاشرة مضيفة البرنامج المشهورة ذات الجمال الأخاذ.

دخلنـا في ساعـة متأخـرة من الليـل وذهب اثنان مـن المتعاقديـن إلى النوم حين قـرّب باز كرسيه إلى الجانب الذي أجلس فيـه وبدأ يروي لي بقية قصته. وتحدث لي بالتفصيـل عن أخوته التوائم، توءمين من الإخوة أعمارهما أربع عشرة سنة، ومثلهما مـن الأخوات عمرهمـا اثنتا عشرة سنة. ويعشق باز التحـدث عنهم، وترى البريق في عينيه وهو يعدد إنجازاتهم.

وأسـر لي بأنه قد قرر الزواج مـن صديقته التي يعرفها منذ وقت طويل حين يعود إلى الوطـن. فقد وقفت إلى جانبه، وعاشت معه همومه، وتحملت نمط الحياة غير العادي في غيابه عنها مدة طويلة من الزمن.

حين كان باز في نيوزلندة يعمل ضمن قوات ساس، كان الفريق الذي يعمل فيه مكلفاً بتعقب مجموعة من العصابات في تيمور الشرقية اشتهروا بتقطيع آذان عمال الإغاثة المختطفين لديهم. وحين خرج من الخدمة، عمل في الحراسة الشخصية، وكان عملاؤه من النجوم المشاهير إضافة إلى سلطان بروناي. وبعد أن سرد أهم معالم حياته ومهنته، اقترب باز مني أكثر. ولاحظت تغيراً واضحاً في جو الحوار بيننا وشعرت بثقل من الذكريات يتنزّل على فكره. وبصوت متوتر، قال لي: «كان أبي شديداً عليّ، كان يعمل سائس خيول، رجلاً قصيراً جداً لا يكاد يقف إلى هذا الارتفاع». وضع باز يده على ارتفاع أربعة أقدام (1.21 متراً) من الأرض وتابع حديثه. «لم يكن باستطاعتي مهما فعلت أن أرضيه. ثم إنه تعرض لحادث سير أصيب على إثره بشلل أقعده وألزمه الكرسي المتحرك... يا إلهي كم كان قاسياً. لقد كنت أعمل ضمن حرس سلطان بروناي في ذلك الوقت، وكان علي أن أرافق السلطان في سفره، وحين وصلني نبأ مرض أبي، لم يكن بإمكاني زيارته في الوقت المناسب. فأخذت ثاني رحلة بالطائرة إلى الوطن، ولكنه توفي وأنا في طريقي إليه. وحين ذهبت لجمع متاعه وأشيائه، وجدت فيها كل ما يتصل بخدمتي في قوات ساس، أي كلُّ ما ورد في الصحف عني. لقد كان يحتفظ بكل شيء فعلته». ثم توقف باز وأشاح بوجهه برهة من الوقت، ولم يظهر في ذلك الظلام سوى الوهج الأحمر المنبعث من طرف سيجاره. وحين عاد لينظر إليَّ، طرح عليَّ سؤالاً مؤلماً لا أملك له إجابةً: «لماذا لم يكن يخبرني بذلك؟».

ومع أن جلسات السمر على سطح المنزل هي جزء مهم من الحياة اليومية للمتعاقدين، إلا أنهم منضبطون في شربهم. سألني مايك إن كنت أرغب في مرافقته في اليوم اللاحق في جولة لخوض غمار البيروقراطية في القصر. وذكّر الحوار مايك بالاعتذار إليّ؛ لأن وزارة الخارجية الأمريكية سحبت التصريح الذي يسمح لي بمرافقة فريق بلاك ووتر الذي يتولى حراسة الموظفين التابعين لوزارة الخارجية في الحلة: «إن فرانك، الضابط الإقليمي للأمن، يلاحقنا في كل صغيرة وكبيرة. إنه يدعي بأنني التقطت صورة لشخص من وزارة الخارجية وقلت: إنه من المرتزقة». وهز مايك كتفيه ورأسه، في دلالة واضحة على دهشته من هذه التهمة؛ فأصدروا عقوبة بمنع أي كاتب يرغب في قضاء وقت هناك،

ولكـن ما أثـار غرابتي هو منعهـم مايك من الذهـاب إلى الحلة. وبدا واضحـاً أن مايك يحارب على جبهتين: الحكومة من جهة والمقاومة العراقية من الجهة الأخرى.

في اليـوم اللاحق توجهت برفقـة مايك للحصول على تصريح رسمي يسمح لي بالدخول إلى القواعد العسكريـة والمنشآت الحكومية، وقد قامت وزارة الدفاع الأمريكية بتغيير شكل تلـك البطاقات مرة أخرى، لذلـك أراد مايك أن يستبدل ببطاقتـه القديمة بطاقة جديدة. وبالأخـذ في الحسبـان أن مايك يحمل أعلـى درجات السماح بالاطلاع علـى أسرار الدولة، ويتـولى إدارة أكـبر الشركات الأمنية في العراق- الشركة التـي تتولى توفير الأمن والحماية لبـول بريمر والمكاتـب التابعة لوزارة الخارجية- فـإن المرء يتوقع أن يكـون إصدار البطاقة الجديدة إجراءً فورياً تلقائياً. وقد سبق لمايك أن تقدم بطلب لتجديد تصريحه حين كان في الولايات المتحدة ولكنه لم يتلق أي شيء منذ ذلك الوقت. ويعتقد مايك أن السبب هو «قاعدة العشريـن دقيقة»- ويعني بذلك أن عليه أن يراجع الوزارة كل عشرين دقيقة لمعرفة الأنظمة والتعليمـات الجديدة التي أصبحت سارية المفعول- التي ربَّمـا أنها ألغت طلبه الأول. وعلى الرغـم من أنه خصص يوماً كامـلاً للتنقل بين المكاتب التي اتخذت من قصر صدام حسين مقراً لها، إلا أنه لا يبدو متفائلاً بشأن تجديد التصريح في هذا اليوم، وهو أقل تفاؤلاً بشأن حصولي أنا على بطاقة مشابهة. لقد حاول مايك الاستعانة بأصدقائه ومعارفه في المستويات الحكوميـة الدنيـا أولاً، وقال لي: إننـا لن نذهب إلى رئيس الجهاز الأمنـي إلا بعد تخفق كل المحـاولات؛ لأن العلاقة بين الاثنين ليست في الجانب الودي، ويظن مايك أن المسؤول الأمني لن يساعده في الحصول على التصريح حتى وإن كان يقدر على ذلك.

في الوقـت الذي نجد فيـه أن أكثر المجتمع المحاط بالأسـوار في المنطقة الخضراء قد تقمصـ الشخصيـة الأمريكية التجارية الوظيفية على نحو صـارم، إلا أن المركز الرئيس لعمليـات الحكومة الأمريكيـة «القصر» بقـي يحتفظ، ومن غير شعـور بالذنب، بملامح الشخصيـة العراقية في البـذخ والبهرجة. في الداخل، متاهة طويلـة من الغرف الكبيرة المقببـة والمداخـل المقوسة، والأسقف المزخرفة التي تتابع مـع كل خطوة إلى الداخل. وفي إحـدى القاعـات الكبيرة الفخمة تحديـداً، أقام الجيشـ شبكة متصلـة من الحجيرات الخشبية المربعة الصغيرة غير المسقوفة. وهو قرار معماري مثير للدهشـة، تحول بموجبه

مشهـد أنيـق من مشاهد ألف ليلـة وليلة إلى خص دجاج. وذكرني هـذا المنظر بالحكمة اليونانية القديمة التي تقول: إن العمارة الرفيعة تُلهم النفس أفكاراً رفيعة.

سرنا عبر هذه المكاتب متخطين جنوداً، وطيارين، وموظفين حكوميين، منهمكين بإرسال الرسائل الإلكترونية، وتقليب الأوراق والوثائق قبل أن نعثر على مربع خشبي عرضه ثلاثة أقـدام يعمـل فيه شخص سمع مايك أنه ساعد آخرين مـن رفاقه في تجديد تصاريحهم. كان هذا الضابط ذو الأسنان الكبيرة الذي يعمل في سلاح الجو، لطيفاً وودياً ولكنه عديم الفائدة. وأوضح لنا أن قاعدة التسعين يوماً، وهي مدة انتداب موظفي الجيش في العراق، التـي يتبعها الجيش تعنـي أن «الثلاثين يوماً الأولى تمضيها في التعرف إلى ما يدور حولك وإصـلاح مـا أفسده مـن كان قبلك. ثم تمضي شهـراً واحداً في العمـل الجيد، ومع دخول الشهـر الثالـث تتكون لديك قناعة بأن ما ستبدؤه من عمل لن يكون له فرصة في الاكتمال، لذلـك ستتركـه مكوماً للشخص الذي سيحل محلك في الشهـور الثلاثة القادمة. وقد بقي لهذا الضابط ثلاثة أسابيع في بغداد، وهو يتهيأ الآن للخروج من حجيرته الخشبية.

وبعد أن باءت محاولاتنا بالإخفاق، قررنا التوجه إلى مسؤول وزارة الخارجية. فوجدناه في مكتـب رث خلف بـاب واهن، وخلفه خزانة مغلقة فيها بندقيـة إم - 16، ويبدو أن هذا الرجل ينظر إلى حياته ووظيفته بقدر قليل من التفاؤل. فعرض على مايك عرضاً مبتذلاً بـأن يصدر له تصريحاً أمنياً محدوداً وذلك علـى الرغم من علمه أن أكثر الأعمال التي يقوم بها مايك تتعلق بأشخاص يحتلون وظائف عليا، ويعملون في مواقع محاطة بإجراءات أمنيـة مشددة. وقال: إن البديل الوحيد هـو أن نتجاوزه إلى رئيسه الأعلى، وهذا الرئيس هو الشخص النكد الذي تحدث عنه مارك آنفاً؛ فوافق مايك على مضض.

دخلنـا إلى المسـؤول عن الأمن واسمـه فرانك، وهو رجل مسـن ذو شعر فضي، يلبس الجينز، ويحمل مسدس غلوك على خصره. قال لنا، وهو يقلب بعض الأوراق على مكتبه: إنـه مشغول جداً في إنجاز بعض الأمـور؛ لأن مهمته ستنتهي في هذا الأسبوع. وقال بنبرة الشخـص المتعـالي المثقل بإنجاز عدد كبير مـن الأمور المهمة: «لقد كانـت الأيام القليلة الماضيـة صعبة للغاية»، وذكّر مايـك بالستة عشر هجوماً التي وقعت في الثماني والأربعين ساعة الماضية التي كانت على لسان كل شخص، وكأن مايك ليس لديه علم بها.

وفي الوقت الذي كان فيه فرانك منغمساً في التحدث عن مدى أهميته وكثرة أشغاله، استرعت انتباهي الطريقة الفظة التي ردت بها سكرتيرته على فتاة أمريكية ذات شعر أسود بقولها: «أتريدين ثلاثة عشر تصريحاً؟ إنني لا أستطيع أن أمنحك ثلاثة عشر تصريحاً. لقد سبق أن حصلتم على تسعة تصاريح من وقت قريب. فلماذا تريدون المزيد؟» فردت الفتاة الأمريكية التي ظهرت عليها علامات الانزعاج بصوت خافت إجابةً على سؤالها: «نظراً إلى حساسية المهمة التي نقوم بها، فإنني لا أستطيع مناقشة هذا الموضوع». ثم قالت للسكرتيرة: إنَّها تريد المزيد من التصاريح للمترجمين العراقيين المقيمين في فندق الرشيد (وهو محطة تستخدمها الاستخبارات الأمريكية). ويبدو أن كل الإشارات والتلميحات لم تفلح في إقناع السكرتيرة، وأصرت المرأة على مقابلة الشخص المسؤول عنها. توجه فرانك إلى غرفة صغيرة مجاورة لمقابلة المرأة، ولكنه عاد بسرعة ليطلب من سكرتيرته الشكسة إصدار التصاريح المطلوبة، ثم عاد إلى مايك معتذراً له عن عدم استطاعته المساعدة في طلبه قائلاً: «ليس في استطاعتي ما يمكن فعله لك». ويبدو أن حصول العراقيين على تصاريح أمنية أسهل من حصول مايك عليها.

وبالعودة إلى منزل فريق بلاك ووتر، قال لي غاي غرافينو: إنه كان الأولى بمايك أن يأخذني لمقابلة لورانس وليس لـ «لاري» بيتر حين كنا في القصر. كان بيتر يعمل بصفة منسق الشركات الأمنية لدى سلطة التحالف المؤقتة، ولكن بعد حل تلك السلطة، لجأ لورنس إلى الشركات الأمنية طالباً منها تمويل بقاء عمله على صورة مؤسسة خاصة. وبوصفه المدير الإقليمي لجمعية الشركات الأمنية في العراق، فإنه يضطلع بوضع إجراءات وأصول نموذجية موحدة، وتحسين سبل الاتصال مع المتعاقدين الأمنيين العاملين في العراق. وكان بيتر يرفض مقابلتي رفضاً باتاً؛ لذلك رأيت أن مرافقة شخص من بلاك ووتر للقاء هذا الرجل ربما يلطف من الأجواء، وقد استشعرت من حديثي مع غاي أن بيتر ربما يكون عصبي المزاج بعض الشيء، غير أنني حين قابلته بعد بضعة أيام وجدت أن عبارة عصبي المزاج بعض الشيء قاصرة عن وصف هذا الرجل.

لقد وجدته رجلاً قصير القامة، ألثغ، ويريد من كل الناس أن يعرفوا أنه خدم في فريق سيل - 6، مع أن عدداً من الذين خدموا في ذلك الفريق يعرفونه، ويؤكدون أنه كان

يعمـل محلل استخبارات، ولم يكن في الخدمة الفعليـة للفريق. وحين ذهبت إلى مقابلته، تهـت بين مكاتب مكتظة محشورة تجلس فيهـا مجموعات من الموظفين المدنيين متوسطي العمر كانوا يعاينون الوثائق ويضغطـون بأصابعهم على لوحات مفاتيح أجهزة الحاسوب التـي أمامهم، قبـل أن أعثر على المكتب الرئيس لجمعية الشـركات الأمنية الخاصة في العـراق الـذي كان مندثراً في أعمـاق القصـر. وكان يجلس في هذا الصنـدوق الخشبي الأبيض الصغير لورنس بيتر ومعه رجلان متوسطان في العمر.

لم تكـن لدى بيـتر رغبة في مقابلتـي أو التحدث إلي، وقد صرّح هـو نفسه بذلك عند رؤيتي، وقال لي: إن السبب الوحيد وراء قبوله مقابلتي هو أن الشركات الأمنية طلبت منه ذلـك. وبعد بضع دقائق من إلقاء التعليمات تولـدت لدي فكرة بأنه لا يحب الصحافيين، لذلـك لم أستغـرب من أن أبرز لوحة تزيّن جدار مكتبه هـي ملصق بوستر يعود إلى عهد الحرب العالمية الثانية يقول «ما رأيك بفنجان لذيذ من: اخرس قطع الله لسانك»؟.

كان الانقـلاب الأخير الذي قام به بيتر في مجـال العلاقات العامة لمصلحة الشركات الأمنيـة الخاصة هو دعوة الصحافية تيش دوركن التي كانت تصر على أنها بصدد كتابة تقريـر إعلامي عـن المتعاقدين الأمنيين وصناعة الأمن الخاص. وقد قام بيتر بتعريفها علـى أبرز اللاعبـين الرئيسين في الحقل، ولكنهـا حوّلت تركيز عدستهـا الإعلامية على متعاقـد أمني لامع يحـب البهرجة، وكانت النتيجة هي نشر أكـثر التحقيقات الصحافية إضراراً بسمعة الشركات الأمنية الخاصة. وعرض التحقيق الصحافي الذي نشرته مجلة رولينغ ستون تحت عنوان «مرتزقة الهيفي ميتال»[1] جوانب شخصية «وولف وايز» وهو كما يصـف نفسـه بأنه نجم من نجوم موسيقـا الروك، ومؤمن عـاد إلى الدين المسيحي من جديـد، وجندي سابق في قوات المارينز. وتصـوره دوركين في تقريرها بأنه جندي مرتزق حـر يهوى بناء العضلات، وابتلاع حبـوب الستيرويد، وإطلاق النار. لقي وولف حتفه بعد نشر المقالة برصاصة من رصاص المقاومة العراقية، وجاء موته بعد أن ترسخت الصورة التـي عرضتهـا دوركين عنه في أذهان العامـة. وساعدت مقالة مجلـة الرولينغ ستون في

1- المعنى الحرفي لعبارة هيفي ميتال هي الفلزّات أو المعادن الثقيلة، لكن هذه العبارة أصبحت تستخدم للدلالة على موسيقا الروك الصاخبة ذات الإيقاع الشديد، التي تستخدم فيها عبارات العنف والصور الخيالية.

تشكيل انطباع متصوّر عن المتعاقدين الأمنيين بأنهم أشخاص متعطشون للدماء، مفتونون بالبنادق، مهوّسون بالمسيح، منتشون بموسيقا الروك الصاخبة وحبوب الستيرويد، وقتل العراقيين الأبرياء.

لهذا السبب ليس غريباً أن يعتقد لورنس بيتر بأنني –بصفتي كاتباً زائراً– ربما أكون النسخةَ الأحدثَ من أعداء المسيح. وقد حاولت أن أركزّ له على الفرق بين الصحافي والكاتب، لكن قناعاته العقلية بقيت تقول له: إنني «واحد منهم». فيئست من محاولة إقناعه ورحت أحاول البدء بالمقابلة. بدأت بأخذ موافقته أولاً على تسجيل الحديث الذي يدور بيننا.

كان أول شيء أراد أن يقوله لي هو: «إنني أمثل أكثر من خمس وعشرين شركة أمنية، ونمارس عملنا على أساس من الثقة. بعض الشركات تسهم بعشرة آلاف دولار، وبعضها الآخر تدفع بحسب قدرتها». ومع أن هناك خمساً وعشرين شركة تموّل وظيفته، إلا أن بيتر يقول: إنه يوجد عدد يتراوح ما بين ستين إلى مئة شركة تعمل في العراق، وهو يفترض أن تقوم هذه الشركات بالتسجيل لدى وزارة الداخلية العراقية، والحكومة العراقية لا تطلع بيتر على الأرقام الدقيقة؛ لذلك لا يتوافر لديه رقم دقيق معقول لعدد الشركات الأمنية العاملة في العراق.

ومع أنني كنت أستمع إليه باهتمام وإخلاص، إلا أن بيتر كان عدوانياً نزقاً في تعامله، وبقي يوجه إلي اللوم على كل ما لحق الشركات الأمنية الخاصة من تغطية إعلامية سلبية. قوطع حديثنا بدخول أحد زملاء بيتر في العمل، وقد كتمت ضحكي حين بدر من هذين الرجلين المتقدمين في العمر حركات أنثوية ككدم البراجم بدلاً من المصافحة حين الافتراق.

عاد بيتر إلى حاسوبه، واستخرج منه ملف عرض لشرائح «باوربوينت»، وحذرني من الاستشهاد بأسماء الشركات الواردة في العرض، وحين نظر إليّ لاحظ وجود المسجل الرقمي من نوع «آي بود» الذي كان موضوعاً على سطح مكتبه منذ بداية اللقاء، فصاح قائلاً وقد تمالكه الذعر: «هل أنت تسجل ما أقول؟!» فذكرته ببداية الحديث الذي جرى

بيننـا في أول اللقـاء حين سألته إن كان لا يمانع من تسجيـل الحوار، غير أنه رفض بعناد أن يتابع اللقاء إلا إذا أوقفت آلة التسجيل. فقلت له: إن تسجيل الحوار هو ممارسة جيدة تمكننـي من المضاهاة بين ما أكتبه وما هو مسجل في الشريط، زيادة في التوثّق من صحة مـا أكتـب، وإذا ما نشأ خلاف حول ما أنقله عنه من كلام، فإنـه يستطيع المقارنة بنفسه بين ما كتبت وما جاء في الشريط.

مع ذلك، لم يكن بيتر مرتاحاً للفكرة، ولكنه على الأقل هدأ قليلاً ليتم الحديث: «لقد خالفنا كثيرًا من النماذج القائمة. لقد عهدنا إلى شركات خاصة بمهمة القيام بالعمليات الدفاعيـة التـي لا يتطلب القيام بها وجود وحدات عسكريـة. فنحن لا نحتاج إلى الجيش لنقـل الأشخاص من مكان إلى آخر، ولسنا بحاجة إلى الجيش لتأمين نقل الإمدادات.... إننـا نقوم حصرًا بالدفاع عـن الموظفين، والمنشـآت، وحماية حركة الإمـدادات والنقل. لا نعتقـد أننـا بحاجة إلى جنود لحمايـة الأشخاص. دع الجنود يتولـوا مهمة قتل الناس، والتعامل بعنف مع عدونا».

«لا توجـد شركة أمنية خاصة واحـدة في العراق تقوم بعمليات هجومية. وقد قرأت في وسائل الإعلام بأن هذه الشركات هي التي تقوم بالعمليات الحربية، وهذا محض هراء». وهنـا وجد بيتر فرصة ثانيـة للتهجم على وسائل الإعلام، فسألته هل لديه أرقام حقيقية حول عدد المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في العراق الآن.

فبـدأ يسرد أرقاماً شبه رسمية مـن عنده، وقدّر بأن هناك زهاء ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف أمريكي يعملون في الحقل الأمني الخاص، وقرابة سبعة آلاف إلى عشرة آلاف من رعايا دول مثـل جنوب إفريقية، وبريطانية، وخمسة عشـر إلى عشرين ألفاً من رعايا دول العالم الثالـث- من دول مثل فيجي، ونيبال، والفلبين، والسلفـادور- وخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف عراقي. واعترف بيتر بأنه أسس هذه الأرقام على معلومات شفوية؛ لأن وزارة الداخلية العراقيـة لا تـزوده بالإحصاءات، هذا على فرض أن مثل هـذه الإحصاءات موجودة فعلاً. وهنا، أعادت هذه الفكرة بيتر إلى الوضع الدفاعي مرة أخرى: «يظن بعض الناس أننا نعمل في دولة تسير فيها الأمور بطريقة نظيفة وسلسة. إنك تجد أن الوزراء العراقيين يستخدمون

حسابات بريد إلكتروني من مواقع هوتميل وياهو! ويظن الناس أننا بلمسة سحرية يمكننا حل كل المشكلات وجعل الأمور تسير كالساعة!» وكان جلوسي بهدوء وأنا أستمع إليه يزيد من حدة انفعاله، ثم صرّ أسنانه وعاد إلى استعراض شرائح الباوربوينت.

تضمنت الشريحة اللاحقة أرقاماً وإحصاءات حول المتعاقد الأمني العادي. وبحسب تقديرات بيتر، فإن المتعاقد الأمني العامل في العراق هو في بداية الأربعين من العمر بحساب متوسط عام، ولديه خبرة عملية في الجيش تتجاوز العشرين عاماً بما فيها الخدمة في عدد من الدول خارج بلده الأصلي. ويؤكد بيتر أن «مجرد خلع الجندي لباسه الرسمي الموحد في الجيش لا يعني أنه يخلع معه أخلاقه المهنية».

ثم غطى بيتر الشريحة اللاحقة على شاشة حاسوبه بقطعة من الورق وسألني عن رأيي الشخصي في المتعاقدين الأمنيين. فقلت له: يبدو لي أن الأمريكيين منهم أشخاص طيبون على العموم، أكثرهم جنود سابقون في المارينز، أو أفراد أمن في بلدات صغيرة، ومن بينهم قلة يتمتعون بخبرة طويلة في العمليات الخاصة. فنظر إليّ نظرة ريبة وشك، وقال بنبرة المتعض: «لا، قل لي رأيك الحقيقي». فأعدت عليه ما قلته. فأزاح بطريقة تنم على الغضب الورقة التي كانت تغطي الشاشة وظهرت الشريحة التي تقول: «رعاة بقر طائشون، يتقاضون أجوراً أعلى كثيراً مما يستحقون».

ثم مال بجسمه إلى الأمام وقال بنبرة مستعرة وهو يحملق في عيني: «انظر، إننا لسنا ملائكة نرقص على رأس إبرة! فقل لي الآن هل سبق لك أن شاهدت هذه العبارة من قبل»؟! فأجبته لا، وهي إجابةً أثار فيه عاصفة من الشتائم الشنيعة، وصرخ بصوت غاضب: «إنني أتوقع أن أتلقى منك معلومات إن كنت سأقدم لك معلومات!» وعندها بدأت أفكر بصمت حول الفهم الضيق للحقيقة لدى السيد بيتر. ومن حسن الحظ أن أحد الجنود جاء ليناقش مع بيتر موضوع ألوان العلامة المميزة التي سيحملها المتعاقدون الأمنيون وشيئاً آخر له علاقة «بإجراءات سياسة الأوسمة والأوشحة الخاصة بالمتعاقدين الأمنيين».

ويبدو أن هذا التبادل البيروقراطي كان له أثر ملطف في مزاج بيتر، فعدنا إلى نقاش أكثر عقلانية حول الانطباع العام عن المتعاقدين الأمنيين. ويلوم بيتر وسائل الإعلام

على عدم فهمها لهذه الصناعة وعلى تركيزها على بعض الأمثلة الشاذة وتقديمها للناس على أنها تمثل العاملين في هذا القطاع. «من هم الأشخاص السيئون. هل يجري جلبهم إلى هذا القطاع بنية سيئة؟ ألا يوجد هناك محامون، وقساوسة، وصحافيون لا يلتزمون بالقواعد الأخلاقية في مهنهم؟ أم أنهم جميعاً وصلوا درجة الكمال؟» وتحول مزاج بيتر إلى غفران مقدس يبرئ ذنوب القلة بالتضحية بالكثرة.

«إن المتعاقدين الأمنيين يؤدون واجبهم بالحد الأدنى من السلاح، ويناضلون في وجه أقسى الصعوبات. لقد وجهت دعوة إلى بيتر سينغر [زميل معهد بروكينز، مؤلف كتاب «عساكر الشركات»] للإقامة هنا شهراً واحداً. إن الأساتذة الناقدين يحبون طعننا بالرماح، نحن لدينا تعليمات وأنظمة متبعة! إن قرار سلطة التحالف المؤقتة رقم 17 يقول: إن ثمة قانوناً يطبق هنا!»

كان واضحاً لي وأنا أغادر حجيرة بيتر الخشبية أنه لا يخرج عن نطاق المنطقة الخضراء، ولا يخالط المتعاقدين الأمنيين كثيراً. ولو فعل ذلك لأدرك أن المذكرة -17- وهي الوثيقة الصادرة عن سلطة التحالف المؤقتة التي منحت المتعاقدين الأمنيين حصانة قانونية، تحول دون ملاحقة السلطات العراقية لهم، وتضعهم خارج نطاق اختصاص المحاكم العراقية- هي أبعد ما تكون عن تقييد حركة المتعاقدين الأمنيين وتصرفاتهم.

في صبيحة أحد الأيام استيقظت لأجد عشرة من المتعاقدين يحاولون بكل جهدهم نقل البث التلفازي من مستقبل إشارة القمر الصناعي إلى مسلاط العرض الضوئي على الشاشة الكبيرة في غرفة الاجتماعات. كان ذلك اليوم يصادف عيد الشكر في الولايات المتحدة، وكانوا يرغبون في مشاهدة لعبة كرة القدم الأمريكية على الشاشة الكبيرة، وكان من المقرر أن يصل طرد من شرائح اللحم البقري الطري على متن طائرة قادمة من عمان. ولا يرغب فريق المهمة في التأخر؛ لأن البديل الوحيد لعشاء عيد الشكر سيكون وجبة لحم الديك الرومي المصنع، وبعض الطعام الرديء الذي تقدمه شركة كيلوغ براون آند رووت في قفطير القصر.

توجهنا إلى المطار، وكان الحديث عن شرائح «الستيك» بين أعضاء الفريق يخفف من مشقة مراقبة أمارات الهجمات المحتملة. وكانت الرحلة خالية من أي عقبات على

الـدرب الآيرلندي. وحين دخلنا من بوابة المطـار متوجهين إلى موقف السيارات، لاحظنا وجود سيارة تتبعنا، ثم أوقف السائق سيارته على مسافة آمنة من المكان الذي أوقفنا فيه عرباتنـا، ثم نزل منها شخص عراقي، وبدأ يصـرخ علينا بالعربية. وكان يلوّح في الهواء ببطاقـة العاملين في المطار، وكان يحاول الظهور بمظهر أقـل تهديداً بالابتسام في طيات غضبه وهو يقترب منا، ويحاول التحدث بلغة إنجليزية ركيكة. وبدا الرجل حانقاً، ومثيراً للضحك، ولكنه غير مخيف.

عرف أحـد المتعاقدين سيارته وقال: «هيه، لقد كان هـذا الرجل يسوق سيارته قريباً منـا، فأطلقت باتجاهـه رصاصة تحذيرية». ولما كان هذا العراقـي يحمل تصريحاً أمنياً يخولـه دخـول المطار، حيـث يخالط الأمريكيين يوميـاً، فإنه يظهر أنـه لم يكن يدرك أن عليـه أن يبقى بعيداً عن القافلة ولا يقـترب منها. وحين شعر بالرصاصة التحذيرية التي أطلقـت باتجاهه راح يقترب من مؤخرة القافلة أكـثر؛ لكي يري فريق الممبة بطاقة عمله في المطـار التي كانت تتدلى من المرآة الوسطى في سيارته، وهذه الخطوة هي غلطة بريئة كادت تودي بحياته.

وربما ظهرت هـذه الحادثة بوصفها مثـالاً على قيام المتعاقدين الأمنيـين بتهديد وترويع المدنيـين العراقيين، إلا أن قواعد الاشتباك المتبعـة قد عملت بحسب ما هو منشود منها في هـذه الحالـة. وتقضي تعليمـات وزارة الخارجية في الأوضاع التي تشبـه هذه الواقعة، حين يلاحظ الفريق الأمني وجود سيارة مسـرعة باتجاهه وتقترب منـه، بأنَّ على المتعاقد الأمني أن يحـذر السيارة بصـوت عالٍ ويشير إليها بيـده بعدم الاقتراب. فـإذا استمرت السيارة بالاقـتراب، فعليه أن يوجه رصاصة تحذيرية إلى محـرك السيارة أو العجلات. وإذا تحتم علـى المتعـاقـد الأمني إطلاق النار ثانية، فعليه أن يوجه وابلاً مـن الرصاص إلى السيارة القادمـة بحيث يقتـل من فيها ويوقفها تماماً. واعتمـاداً على سرعة السيارة القادمة، فإن ثواني معدودةً فقط تفصل بين الإشارة باليد والرصاصة القاتلة في الرأس.

(...) فبعـد كل هـذه المشقة، تبـين أن شرائح السـتيـك لم تصل المطـار لسـبب أو لآخـر، وكـان علينا أن نعود إلى مقرنا متجشـمين المخاطـر والصعاب صفر اليدين من الطرد النفيس.

استولـت خيبة الأمل على بعض المتعاقدين وبلغت منهـم حداً جعلهم يصرفون النظر عـن الطعام كلية، وتوجهـوا إلى الصالة الرياضية لتبديد إرهاق رحلـة المطار بالتمارين الرياضيـة. أمـا البقية فقـد بلغوا حداً من الجـوع جعلهم يقبلون بالطعـام الرديء الذي يقـدم في المقصف الذي تديره شركـة كيلوغ، براون، ورووت، فتوجهـوا إلى قاعة الطعام في مبنـى القصر الرئيس. لزمت الفتيات العراقيات اللاتي كن يقمن بتدبير المنزل الذي يقيم فيه فريق الممبة بيوتهن بسبب حظر التجول الذي فرض على المدينة، لذلك كان على المتعاقديـن أن يعتمـدوا على أنفسهم في تجهيز العشاء. ولـولا المتعاقدون الأمنيون الذين يقومـون بالمهمات العادية من طبخ، وغسـل للملابس، وتنظيف الحمامات، لعاش الجيش والمتعاقدون الأمنيون الآخرون في مجاعة وقذارة.

ركبت أنا، وباز، وغاي، وريك في سيارة نيسان صغيرة مصفحة وتوجهنا صوب المقصف. في الليل يخيم على المنطقة الخضراء شعور غريب مخيف، ويجعل الغبار الكثيف من ضوء السيـارات تبدو كأنهـا أعمدة صلبة، ويبـدو أن صوت حركة الدبابـات والشاحنات يكون دومـاً عند حافة الحد الذي يتلاشـى عنده الضوء. ولا يمكن مشاهدة الدبابات والعربات العسكريـة التـي تصدر عنهـا هذه القعقعة التـي تلاحق المرء دون توقـف إلا إذا أضاءت مصابيحهـا الأماميـة الكاشفـة. وبعد أن اجتزنا عـدداً من التقاطعـات المرورية، وصلنا إلى موقـف ضخم للسيارات يعج بالسيـارات الرباعية الدفع، فأوقفنا السيارة فيه ونزلنا قاصدين القفطير. ولا يحتاج الأمر سوى إبراز بطاقة الهوية الشخصية؛ لكي يعبر البوابة التي يقـوم بحراستها جنود من الغورخا يعملون مع شركـة غلوبال سيكيورتي. أشار غاي بيـده إلى صفوف السيارات المتسخة والمغبرة، وقـال لي: إن اتساخ السيارة أصبح علامة يميـز بها رجال المقاومة السيارات التي يقودها الأمريكيون من غيرها: لأن الأمريكيين لا يغسلون سياراتهم، وقال غاي: «إن العراقيين لا يسوقون سيارات متسخة»،

وعلـى طـول الممر المتصـدع المحاط بالأسـلاك الشائكـة، تتابعت جمـوع من الجنود النظاميين والمتعاقدين العسكريين الذين كانوا يتبادلون الحديث مع جموع من المتعاقدين المدنيـين الذيـن يلبسون الخوذات ويسحبون خلفهم حقائب عمـل جلدية. وفي هذه الأيام

أصبح يتحتم على المتعاقدين المدنيين لبس خوذات ودروع واقية من الرصاص داخل المنطقة الخضراء بسبب هجمات الهاون، ولكنهم لا يحملون معهم سلاحاً. ومع ذلك، تخيّلت أمامي حين رأيتهم يسيرون في العتمة وأكتافهم منحنية من التعب، جيشاً من المرتزقة البيروقراطيين يحملون بأيديهم حقائب «السمسونايت».

وعلى مقربة من المدخل المؤدي إلى القصر، وقف بعض المتعاقدين الأمنيين والموظفين الحكوميين للتدخين كما كانوا يفعلون في المباني المكتبية التي تحظر التدخين في الولايات المتحدة. وتبدو المنطقة الخضراء من الناحية الفعلية كأنها نموذج مصغر من الولايات المتحدة في جزيرة محصنة تطبق فيها القواعد والأعراف الأمريكية وسط بحر متلاطم من الفوضى. وبتشبيه أدق، يمكن القول: إن هذا التصميم المعماري الباذخ لقصر صدام حسين هو أقرب إلى جناح عراقي في مركز إبكوت[1]، هذا إن استطاعت شركة ديزني أن تضع خلفية تطابق أصوات المدافع ونيران المدفعية في خلفية المشهد.

وتستمر المؤثرات فوق الواقعية داخل القصر. قاعة مركزية كبيرة تحيط بها جدران ذات أقواس، وتعلوها قبة رائعة عالية تهيمن على المدخل، صممها صدام حسين لكي تثير في نفس الزائر حالة من الرهبة والدراما التي يجدها المرء حين يدخل مبنى الفاتيكان أو غيره من المباني العامة المشهورة. وكان يقف على الأرضية الرخامية أسفل القبة صفوف من الجنود بزيهم العسكري الشاحب، والشبان المتطوعين، والموظفين الحكوميين ذوي الكروش في انتظار دورهم لتناول ما تعرضه الكافتيريا من طعام العشاء. وتسجيل الاسم في قائمة المتعاقدين يعني أن بيان حساب وجبة العشاء سترسل إلى شركة بلاك ووتر بقيمة 27 دولاراً للشخص الواحد. كان يقدم الطعام طاقم من الطهاة الفلبينيين البشوشين، ويؤتى بأكثر الطعام من الولايات المتحدة، ويمكنك مشاهدة العلامات التجارية لأكثر المنتجات الأمريكية الرائجة التي قطعت نصف الكرة الأرضية لتصل إلى المنطقة الخضراء، بل إن

1- مركز ترفيهي أنشأته شركة ولت ديزني قرب مدينة أورلاندو بولاية فلوريدة، بالإنجليزية EPCOT، وهذه الكلمة هي اختصار لعبارة (Experimental Prototype Community of the Future)، أي النموذج التجريبي للمجتمع في المستقبل، ويتكون من قسمين: يعرض القسم الأول تسلسل التطور التقني وتوقعات المستقبل، ويعرض الآخر أجنحة تخص نشأة وتطور الولايات المتحدة وثماني دول أخرى.

أرقام الهواتف في المنطقة الخضراء تستخدم رمز اتصال أمريكي محلي.

تجمع قاعة الطعام هذه خليطاً عجيباً من الناس: جنوداً بزيهم الكاكي ورؤوسهم الحليقة، ومدنيين بتسريحات شعر طويلة، وفتية من الحزب الجمهوري، ومتعاقدين أمنيين يلبسون قمصاناً قصيرة الأكمام ونظارات شمسية. وقد جاء هؤلاء الأمريكيون من كل طيف ونوع إلى العراق لأسبابهم الخاصة؛ بعضهم جاء لدوافع وطنية وأداء الواجب القومي. وأكثر المدنيين -إن لم نقل كلهم- جاؤوا؛ لأنهم سيحصلون من العمل في العراق على أجور لا يمكنهم تحصيل مثلها من العمل في الولايات المتحدة.

وفي هذه القاعة المكتظة، شققنا طريقنا نحو منضدة كبيرة مستديرة هي من مخلفات عهد صدام. لوّح غاي بيده ليجلب انتباه المتعاقدين الأمنيين الآخرين الذين كانوا يحملون سلاحهم إلى جانب صينية الطعام. ويمكن تمييز الأشخاص الذين يلبسون الملابس المدنية بسهولة من بين الجموع. وجاء شاب في العشرينيات من عمره، ذو شعر طويل، يلبس نظارات شمسية، وقميصاً مزركشاً ينم على ذوق سقيم، شخص من جيل الهبيز يبدو في غير مكانه هنا، وكان يحمل معه كاميرا كبيرة، جاء ليشاركنا الجلوس حول المائدة. كان هذا الشخص من أعوان الحزب الجمهوري في الكونغرس، جاء إلى العمل هنا لمساعدة سلطة التحالف المؤقتة. بدأ هذا الشخص من فوره بالحديث والتعريف بنفسه قائلاً: «كنت أعمل معاوناً برلمانياً في ميامي في مجال اختلاق الأرقام لكسب العيش. انتدبت للعمل هنا، وجئت للعمل في وظيفة ليس لها وجود. وقد سبق لي أن عملت في وظائف لا أعرف عنها شيئاً. والآن أقوم بأعمال المحاسبة. إنني أكره المحاسبة، وأكره الأرقام».

وقال عن نفسه: إنه ينحدر من نيويورك، وهو ما أثار انتباه أحد المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في بلاك ووتر، حيث عمل هذا المتعاقد في السابق شرطياً في مدينة نيويورك، فقال له: «هيه، لا تقل للناس إنك من نيويورك، بل قل لهم: إنك من الولاية التي تسكن فيها؛ لأنّك تسيء إلى سمعة سكان نيويورك». ثم اعتذر المتعاقد الذي يتحدث بلهجة سكان بروكلين من نيويورك، وفسّر نزقه وسرعة غضبه التي بدت في حديثه بأن راح يسرد الصعوبات التي واجهها في إرسال جثث زملائه القتلى من المتعاقدين الأمنيين من

بلاك ووتر إلى ذويهم؛ إذ دفعته تلك التجربة إلى النقمة على الموظفين البيروقراطيين في المنطقة الخضراء: «كنا نحاول إرسال مواطن أمريكي مع جثة أخيه في الطائرة المتوجهة إلى الولايات المتحدة، لكن السلطة وضعت أمامنا من العراقيل والعقبات ما لا يمكن اجتيازه. فحين يموت أحد من موظفي الحكومة، تسدى إليه معاملة خاصة وتعد له ترتيبات خاصة، أما حين يموت واحد منا، فلسنا سوى «حراس أمن»».

لا يوجد «أبطال» في عالم الأمن الخاص، بل عاملون لقوا حتفهم ليضافوا إلى إحصائيات وأعداد الموظفين في الشركة التي توظفهم. وقال مايك: إن بلاك ووتر تحاول جهدها الاعتناء بموظفيها، لكن ذلك يتطلب موازنة دقيقة؛ لأن كل متعاقد يعمل مع الشركة يعي جيداً حين يوقع على عقد عمله المخاطر المصاحبة لهذا العمل، ويعلم أن الشركة غير ملتزمة بأي تعويضات مالية بعد الموت عدا التأمين الأساس الذي يفرضه قانون التأمين الأساس للدفاع. ولعل هذا يقدم لنا بكل وضوح وقسوة أن الجانب التجاري من الحرب يتطلب التعامل على طريقة المرتزقة. ليس ثمة عقيدة في عالم الأمن الخاص، ولا وطن، ولا عَلَم. ليس لهذا العالم رب يقاتل في سبيله ولا بلد يقاتل من أجله. بل كل ما هناك هو شيك أجر العمل. وحين يموت المتعاقد الأمني دفاعاً عن شيك أجر العمل، تقوم الشركة التي كان يعمل فيها بإرسال آخر شيك إلى ذويه، وعادة ما تحسب قيمته حتى آخر ساعة مات فيها، مرفقاً بصندوق يحتوي على مقتنياته الخاصة. وفيما عدا ذلك، لا تتحمل الشركة التي يعمل فيها المتعاقد ولا الحكومة الأمريكية أي مسؤولية قانونية تجاه أسرته.

ولا يتطلب موت المتعاقد الأمني أي ترتيبات رسمية باستثناء إرسال جثته أو بقايا أشلائه إلى ذويه، وملء نماذج خاصة لغايات التأمين، ومع ذلك، سافر مايك رش بنفسه إلى هاواي لإخبار زوج ويز باتالونا بوفاة زوجها [في حادثة الفلوجة]. «إننا ننظر إلى هؤلاء الأشخاص بوصفهم أخوة لنا من أسرة واحدة، ونقدم لهم كل ما يمكننا تقديمه».

انتهى العشاء بهذا الحديث الكئيب، وقفلنا عائدين إلى المنزل. وعند آخر نقطة تفتيش أمريكية قبل وصولنا المنزل، سُلّط علينا ضوء ساطع كثيف حوّل زجاج السيارة المتسخ

إلى سطح أبيض لامع. كان علينا الانتظار إلى أن يشار إلينا بالتحرك إلى الأمام، ولكن كان من المستحيل رؤية عناصر المارينز الواقفين على البوابة. وقال لي مايك: «أتظنهم سيزودون هؤلاء الأشخاص بمصابيح يدوية»؟!

أنزل مايك زجاج نافذة السيارة، وتقدم إلى الأمام ليبرز بطاقة هويته ويتحدث إلى الجنود الذين يحرسون نقطة التفتيش: «كيف حالكم الليلة؟»

وبصوت بدت فيه بوضوح نبرة الإعجاب والرهبة، سأل الشاب من المارينز: «هل أنتم من بلاك ووتر؟»

ورد مايك بصوت هادئ مثير للإعجاب: «هل كل شيء على ما يرام؟» جمع جندي المارينز كتفيه من البرد، وتشكلت غيوم بيضاء صغيرة من أنفاسه أمام وجهه، وقال: «في أحسن حال، سيدي».

في تلك الليلة الباردة، كان الخوف والتعب يظهر على وجوه المارينز الذين يحرسون البوابة. وينظر هؤلاء المارينز إلى المتعاقدين الذين يعملون في بلاك ووتر بوصفهم نجوم الحرب، فسأل أحدهم: «هل يمكننا التوقف في مقركم لأخذ بعض قبعات الشركة؟».

فرد عليه غاي: «بكل تأكيد».

وقال لي غاي بعد استئناف المسير: «إن هؤلاء الفتية يقفون على خط النار الأول؛ لذلك أحرص دوماً على التوقف والسؤال عنهم. وحين يحدث تفجير انتحاري، فإن أول هدف لهم هو هذه البوابة».

على الرغم من كل المساوئ المصاحبة لعمل المتعاقد الأمني، إلا أن المتعاقدين الأمنيين الأمريكيين يتربعون على قمة هرم الحرب في العراق، وإن كانوا لا يعترفون بذلك. فهم يحصلون على أعلى الأجور، ومع أن المقاومة قد تستهدفهم بهجماتها في أثناء عملهم، إلا أن المتعاقدين الأمنيين لا يسيرون في أزقة معتمة، ولا يقتحمون الأبواب، ولا يمضون السنة بكاملها بعيداً عن أسرهم. وهذا المارينز الشاب الذي يحرس البوابة ستصيبه في الغد رصاصة قناص، وسيعود آخرون إلى وطنهم ليواجهوا حياة زوجية متعثرة،

وديوناً متراكمة، وحساباً مصرفياً خالياً من النقود. في حين يعلم المتعاقدون الأمنيون أن باستطاعتهم التحوّل من وظيفة إلى أخرى، وأن يغيروا رأيهم، أو أن يقرروا العودة إلى بلادهم في أي وقت إن أرادوا ذلك. وبخلاف المارينز الذين يرتجفون من البرد على البوابة 12، ويحصون الدقائق المتبقية لانقضاء الليل وبزوغ الفجر، يدرك المجربون أن الحرب هي على درجة من البشاعة والخطر بما لا يسمح للمرء أن يدخل فيها بأجر زهيد. وكما قال لي ريك في طريق عودتنا إلى المنزل: «كل الناس هنا يكسبون أجراً قدره ألف دولار في اليوم باستثناء الجنود الذين يقاتلون في هذه الحرب». وبالإضافة إلى أجرهم اليومي، يتقاضى المتعاقدون مع بلاك ووتر مبلغ 650 دولار في الأسبوع للمصروف الشخصي. وقد قام غيكو بشراء بندقية آلية من نوع بي إم 5 بسعر 1300 دولار. واشترى تي- بوي سيارة بي أم دبليو مستعملة من الفئة السابعة بمبلغ 5 آلاف دولار. ولم يسبق لبعضهم أن توافر لديه مثل هذا المال طَوالَ حياته. لكن مع الأخذ في الحسبان النقاش الذي دار بينهم قبل قليل حول الموت، فإن هذا العمل من وجهة نظري هو صفقة خاسرة. لكنني أدركت سريعاً أن كل متعاقد له حساباته الخاصة التي يوزن بها مخاطر وفوائد وظيفته.

كان صباح اليوم اللاحق شديد البرودة لدرجة أن مولدات الكهرباء كانت بحاجة إلى دفعة كهربائية من بطارية السيارة لكي تعمل. وبعد حل تلك المشكلة، مكث ريك، مدير الإمدادات، في الخارج، (...) فجلست للتحدث إليه وأصبحت تلك عادة يومية كل صباح. وحين أخذ نفساً من تلك اللفافة، قام ريك من دون شعور بفرك العلامة الكبيرة التي بقيت على عنقه في موقع العقد اللمفية التي استؤصلت بعد تشخيصها بالسرطان قبل عدة سنوات. وعلى نحو غير واف اقترحت عليه أن يفكر في يوم من الأيام بترك التدخين مراعاة لصحته، فأثار كلامي منه هذا الرد: «آه، أتريد أن تسمع قصة محزنة؟» ومن الواضح أن ريك كان قد توقف عن التدخين بعض الوقت بعد اكتشاف إصابته بالسرطان، ولكنه عاد إليه بعد حين لم يعد قادراً على مواجهة التوتر الناتج عن خلافه مع ابنته. قال لي: «لقد وفرت لها كل ما تحتاجه، ولكنني وصلت إلى مرحلة لم أعد قادراً فيها على الاستمرار. فكان علي أن أضع حداً. فقلت لها: «ليس لدي مزيد من المال؛ عليك أن

تدبـري أمورك بنفسك». فقالت لي: إنهـا تكرهني؛ فعدت بعدها إلى التدخين». ويبدو أن هـذا الشقاق أثر عليه كثـيراً، ولكنه لا يعتقد أن هناك طريقة مـا لحل الخلاف. وسألته إن كان لديـه قلق مـن إصابته بالسرطان ثانية؟ هز ريك رأسه، وقـال: «لا بد أننا جميعاً سنواجه الموت في يوم من الأيام». ويتطوع ريك عادة بقيادة شاحنة البونغو غير المصفحة وبطيئة الحركة.

في المســاء، وبينما كنت جالسـاً في غرفة التلفاز أدون بعضـ الملاحظات وأكتب بعض الأفكار، سمعت أصواتاً مرتفعة لمحركات السيارات، تطغى عليها أصوات صاخبة لنغمات قيثـارة. توجهت إلى خارج المنزل لأرى غيمة مـن الغبار الكثيف فوق أسوار المجمع قادمة من جهة الشارع. لقد وصل فريق الحلة التابع لبلاك ووتر.

أوقـف فريـق الحلـة سياراتهم المكونة من ثـلاث سيارات مصفحة من طـراز جي إم سـي سوبربـان إضافة إلى حافلة غير مصفحـة في الأصل– ولكـن المتعاقدين صفحوها بطريقتهم الخاصة– يطلق عليها «حافلة الكراهية». وهذه التسمية الاصطلاحية الرسمية لحافلـة الكراهية كناية عن الفريـق المضاد للهجمات؛ لأن هذه الحافلة تبقى متأخرة عن باقـي العربات. وحين تقع القافلة في كمين ما، تسارع حافلة الكراهية بمشاغلة المهاجمين وإطـلاق النار عليهـم ريثما ينجح الباقـون في الانسحاب. وفي داخل هـذه الحافلة ثبتت صفائـح معدنية صدئة على الأبـواب جاعلة منها سيارة مصفحـة رخيصة لكنها فاعلة. ويحرصـ الفريق على الإبقـاء على سيارات السوبربان الأخرى نظيفـة أنيقة لغايات نقل الشخصيـات المهمـة، ولكن يبـدو أنهم ضمـدوا الصفائـح المعدنية في حافلـة الكراهية بشريـط لاصق فضي اللـون. ويغطي غبار الشوارع السيارة مـن الداخل والخارج، ويبقي الرمـاة المهرة علـى الباب الخلفي مفتوحاً، وهـذا من شأنه أن يجلب مزيـداً من الرمال والغبـار إلى مؤخـرة السيارة فيغطـي كل شيء بمسحوق ناعم بني اللـون. دعاني متعاقد يطلق عليه لقب «ترنك مونكي» (أي قرد صندوق الحافلة الخلفي) ، وهو جندي سابق من قـوات سيل، أشقر الشعر ضامر الجسم، إلى معاينـة الحافلة. وفي مؤخرة تلك الحافلة، يركـب صديقنا في صندوق حديدي من صنع يدوي، وتتدلى مـن السقف أسلحة متنوعة: مسدسـ لإطلاق النار على الأهـداف القريبة جداً، وبندقية رشاشـة للأهداف الجدية.

وعلى العكس من سيارة السوبربان الأنيقة المزودة بمكيف لتبريد الهواء، تنبعث الكراهية من الجمجمة البلاستيكية المثبتة على لوحة عدادات السيارة، إلى أطراف الألواح المعدنية الصدئة من هذه السيارة المصفحة يدوياً، إلى موسيقا الروك الصاخبة في هذه الحافلة المشوهة.

ترجّل أعضاء فريق الحلة عن خيولهم الحديدية، وراحوا يتبخترون أمام المنزل لتحريك الدماء في أرجلهم بعد الرحلة الطويلة من مدينة الحلة. لقد كانوا متعبين ومتسخين، ولديهم بعض الوقت لإضاعته قبل التوجه إلى المطار لنقل فريق جديد من مطار بغداد الدولي. ومع أنه كان لديهم فسحة من الوقت للاستراحة، إلا أن فريق الحلة لم يقطعوا يقظتهم لحظة واحدة، وآثروا الوقوف والمراقبة، ولم يبتعدوا كثيراً عن عرباتهم. وسينضم فريق الممبة إلى فريق الحلة في الرحلة إلى المطار في قافلة واحدة، لكن هذه الفكرة لم ترق لأعضاء فريق الحلة. وقال متعاقد ملتح من فريق الحلة مازحاً «هل سنسير مع فريق الممبة؟ سيقضى علينا إذاً لا محالة!» وهذا التصرف يعكس نوعاً من عدم الريبة التي نجدها شائعة بين أعضاء الفرق الأمنية جميعها في هذا القطاع.

يتألف فريق الممبة في أكثره من عناصر سابقة من قوات المارينز؛ في حين تغلب العناصر السابقة من قوات سيل على فريق الحلة. ومع أن كلا الفريقين يؤديان عملاً واحداً في الشركة نفسها، إلا أن كل فريق ضمن شركة بلاك ووتر يمثل قبيلة مستقلة. وفي بعض الأحيان تتألف فرق الحراسة من عناصر متجانسة من قوات سيل، أو المارينز، أو القوات الخاصة، مما يؤدي إلى تعميق وترسيخ الهوية الجماعية للفريق الواحد. والأشخاص الوحيدون الذين لا ينتقصون من قيمة زملائهم الآخرين في العمل هم المتعاقدون الذين سبق أن خدموا في قوات الشرطة؛ لأنهم ليسوا على تلك الدرجة من الكبرياء والخيلاء. ويتمتع الفريق الواحد بقوة التلاحم والترابط بين أعضائه، وقد يتردد الواحد منهم في الثقة بأي شخص من خارج الحلقة الصغيرة التي ينتمي إليها،

مـع الشـك دوماً بـأن أي أسـلوب تتبعه الفـرق الأخرى في العمل هو أقـل أماناً مما يفعله فريقه.

بدأت بالتقاط الصور الفوتوغرافية خارج المنزل حين تهيأ الجميع للانطلاق. وقبل أن ينضـم رامي المؤخرة إلى مجموعته ليظهر معهم في الصورة، نزع قطعة من شريط أسود ليغطي بها عينيه، فقال أحدهم مازحاً: «هيه، أليست تضاف هذه فيما بعد؟» وصاح آخر مقترحاً صيغة التعليق الذي يجب أن يوضع أسفل الصورة: «الجنود المرتزقة في العراق». ثم جاءني متعاقد قصير مكتنز الجثة، يحمل عتاداً ثقيلاً، متقوس الساقين كرعاة البقر، وقـال لي بعـد أن تفـل ما كان يمضغه مـن تبغ بني: «لـدي خبرة عشرين عامـاً في قوات المارينـز، ولسـت أدري إن كان هنـاك ما يمكنني فعله. اللعنة، بل إننـي لا أعرف إن كنت سأحسـن فعل شيء آخر غير هذا!» ثم ركب المتعاقدون في عربات القافلة، وتفقدوا العتاد وأجهزة الاتصال، واختفوا وسط غمامة من الغبار وصخب موسيقا الميتاليكا.

وبعـد عـدة ساعات، في أثنـاء عودتهم من المطـار، تعرض فريق الحلـة لكمين نفذته مجموعـة من حافلات المقاومة التي ظهرت فجأة وبدأ ركابها بإمطار سيارات السوبربان برصاص بنادقهـم الرشاشة. ويبدو أن المقاومـة لم تلحظ حافلـة الكراهية بموسيقاها الصاخبـة وطلسـم الجمجمة المنصوبـة على مقدمتهـا، وهي تتجه بسرعـة نحوهم من الخلـف. أخرج رامي المؤخرة رشاشه الأوتوماتيكي وأمطر حافلات المقاومة بوابل مستمر مـن الرصاص محدثـاً ثقوباً فيها، فقتـل منهم واحـداً وأجبر الباقين علـى الفرار وفك الاشتبـاك. ومع فرار المقاومة وتفرق عناصرها في كل اتجـاه، كان أمام فريق المتعاقدين أن يتخـذوا قراراً في أقل من ثانية بمواصلة القتـال وتعقب العناصر الفارة أو بالانسحاب مـن المكان، ولكنهم اختـاروا الانسحاب. وأبدى رامي المؤخـرة ذو الشعر الأشقر غضبه؛ لأنـه كان يتمنـى لو سمح لـه بإنهاء المهمة بقتل بقيـة عناصر المقاومـة، ولا سيما بعد أن علموا فيما بعد أن المقاومة عادت إلى مكان الحادث واستخدموا جثة الشخص الذي قتل في نصـب فـخ للجيش الأمريكي. ونتج عن هذا الفخ قتل أحـد عناصر قوات المارينز التي جاءت لتفقد موقع الحادث حين حركوا جثة القتيل.

مغادرة العراق

بعـد عدة أيام، خرجت مـع فريق المبة إلى المطار في رحلة لا عـودة فيها. فقد انتهى الشهـر، وحان وقت العودة إلى الوطن. وفي هذه الرحلـة الأخيرة على الطريق الآيرلندي كانت المشاهـد المعهودة من الحفر السوداء المملوءة بالحجـارة والسيارات المتفحمة على جانبـي الطريـق لا تزال علـى حالها. وأصبح مـن السهل الآن تمييز المريـب من العادي. ودعت أعضاء الفريق في قاعـة استقبال الطائرات القادمة، وتمنوا جميعهم لي التوفيق. لقد استمتعت في الوقت الذي قضيته مع فريق المبة، وهو وقت كنت فيه مصدراً احتياطياً للرصاص، وسامعاً لاعترافات آخر الليل، ومستشـاراً. بعض هؤلاء الأشخاص سيتبدلون بعـد شهر، وعلى الرغم من حـدة العنف الموجود هنا، إلا أنني أعتقـد أن مياغي ونظرته الشرطية الجادة لهذه الوظيفة ستبقيهم في أمان.

وبعد آخر تلويح وداع باليد، توجهت إلى الداخل لأقابل طاقم طائرة كاسا 212 التابعة لشركـة بلاك ووتـر، وهي طائرة صغيرة خاصة تنقل المتعاقديـن من العراق وإليه. وعلى النقيض من طائرات الملكية الأردنية التي تستخدم طائرات فوكر ذات الحُجرة المضغوطة (المفرغـة مـن الهواء) والمحركين النفاثـين، يتسم السفر على متن طائـرات كاسا بطول الوقت الذي تستغرقه الرحلة، وبالضوضـاء، والبرد القارس فوق صحراء ممتدة تخلو من أي تضاريس مميزة.

وتتشابـه الإجـراءات المتبعة في مطار بغـداد الدولي التي تسبق الدخـول إلى الطائرة مثيلاتها في الولايات المتحدة؛ إذ قامت فتيات عراقيات بتفتيش حقائبنا بعناية متجاهلات أي شـيء متوارٍ عن الأنظار. وعلى بوابـة التفتيش، رجل أمريكي أصلع متقدم في السن قد سرح ما بقي من شعر في رأسه فوق صلعته لإخفائها بطريقة رديئة، قام بتفتيشنا بتحسس لأجسامنـا لم يكـن له داع -وأقول لم يكن له داع ولا سيما بعـد أن أخبره أحد أفراد طاقم الطائرة بأنه يحمل مسدساً عيار 9 ملم من نوع غلوك- ولكنه خضع للتفتيش على كل حال. ثـم قام موظفـو أمن المطار، وعلى نحو مثـير للسخرية، بتمرير المسدس عبر آلة الكشف التـي تعمل بأشعة إكس قبل أن يعيدوا المسدس إلى صاحبه. ولا يسمح لغير طاقم الطائرة بحمـل مسدسـات إلى الطائـرة، وصودرت مدية صغـيرة من النوع القابـل للطي من أحد

أعضاء فريقنا. وقام موظفو أمن المطار بتسليمها إلى الطيار الذي أعادها إلى المتعاقد أمامهم، وظهرت علامات الاشمئزاز على المتعاقدين المسافرين معنا من هذه المهزلة. إننا جميعاً نعي أن أياماً فقط ستمضي قبل أن يتمكن أحد من تهريب سيارة مرسيدس معبأة بالمتفجرات على متن طائرة دي إتش إل. إن حمل مسدس أو مدية صغيرة تبدو أمراً غير ذي بال، ولا سيما أننا مسافرون على متن طائرة خاصة تابعة لشركة بلاك ووتر.

وفي أثناء سيرنا نحو سلم الطائرة، صاح بنا أحد موظفي أمن المطار طالباً مِنَّا أن نمشي في الممر المحدد بشريط أصفر من الجانبين. وهو إجراء ليس له تفسير منطقي يقبله العقل، ولكن -مرة أخرى- إنه مطار بغداد الدولي.

وبعد أن جلس الركاب جميعاً في مقاعدهم، فتح طاقم الطائرة من شركة بلاك ووتر صندوقاً كبيراً مصنوعاً من الألمنيوم، وقاموا بتوزيع بنادق إم- 4 معبأة بالرصاص على جميع الركاب. وسبب هذا الإجراء هو أنه لو تعرضت هذه الطائرة للسقوط، ونجا منها أحد، فإنهم لن يسمحوا للحادثة أن تمر دون قتال. وزيادةً في الحرص على حياتنا في حال تعرض الطائرة إلى الإسقاط، فقد قام قائد الطائرة بتخفيض المنصة الخلفية للطائرة التي تستخدمها العربات في تحميل الطائرة. ولم تقلع طائرة الكاسا كبقية الطائرات باتجاه أفقي متصاعد، بل انطلقت إلى الأعلى كالصاروخ، بعكس الدوران اللولبي الذي تفعله طائرات الملكية الأردنية حين تهبط في المطار. ولا يمكن مشاهدة أي شيء سوى الأرض من الباب الخلفي المفتوح. وبعد أن وصلت الطائرة إلى ارتفاع آمن بتجاوز مدى الصواريخ المضادة للطائرات، أعيدت الأسلحة إلى الصندوق. وقد أثبت هذا الإجراء الذي يبدو مغالاة في الاحتياط تصل إلى درجة الجنون، أنه إجراء أمني مناسب وذلك بعد ثلاثة أشهر إذْ أسقطت عناصر المقاومة العراقية إحدى الطائرات المروحية التابعة لشركة بلاك ووتر، وسحبوا الطيار الجريح على الأرض وأطلقوا عليه النار من مسافة قريبة.

بعد أن هبطت بنا الطائرة في الأردن مساء ذلك اليوم، تسببت رصاصة وحيدة وجدت في حقيبة أحد المتعاقدين في تأخير عبورنا حواجز الجمارك الأردنية، ومع أن الأردن شحن آلاف الأطنان من الأسلحة الثقيلة والخفيفة إلى العراق، إلا أنه لا يرغب في أن يعود

إليه أي شيء منها. وقد أخرجنا من تلك الورطة ضابط سابق في المخابرات الأردنية، تمكن من حل المشكلة مع الجمارك في غضون ساعة من الزمن.

تستخدم بلاك ووتر فندقاً عادياً في عمان لإيواء المتعاقدين القادمين من العراق والمغادرين إليه، وكان جستن «شرك» في استقبالنا هناك حين وصلنا إلى الفندق. ومع أن تلك الليلة كانت أول سهرة خارج العمل للمتعاقدين القادمين من العراق منذ ثلاثة أشهر، وآخر سهرة للمتعاقدين المتوجهين إلى العراق الذين سيبقون فيها ثلاثة أشهر، إلا أن قاعة البار الرياضي الموجود في الطابق الثامن من الفندق كان يسودها جو قاتم كئيب؛ إذ جلس المتعاقدون العائدون إلى الوطن يفكرون بصمت في آلاف الأمور والأشغال الروتينية التي تحتاج إلى اهتمامهم لدى وصولهم الوطن. في حين كان القادمون يفكرون في المخاطر والمغانم الناجمة عن حصرهم بين المقاومة العراقية والاحتلال الأمريكي. خرج المتعاقدون من قاعة البار في وقت مبكر؛ لكي يجهزوا حقائب سفرهم، ويتصلوا بذويهم، وينالوا قسطاً من النوم قبل اللحاق بطائراتهم التي ستقلع في الصباح الباكر.

وحين استلقيت على السرير، وقبل أن أخلد إلى النوم، رحت أفكر في عشرات الدوريات التي رافقت فيها فريق المبة على الدرب الآيرلندي. لقد تعاقبت عدد من فرق الحراسة الشخصية التابعة لبلاك ووتر بين القدوم والذهاب في الشهر الذي أمضيته في العراق. جاء متعاقدون جدد، وعاد آخرون إلى أوطانهم. وكانت السيارات الملغمة، وطلقات القناصة، والطرق المغلقة، والطرود المشبوهة وسط الطريق، والسياقة بسرعة عالية على طريق المطار، كل ذلك جزءاً اعتيادياً من العمل اليومي. وأصبح الإيجاز الصباحي الذي كان في وقت من الأوقات مخيفاً ومرعباً، روتيناً مملاً كما ذكّرنا مياغي في بداية ونهاية كل إيجاز: «يوم جديد، مهمة جديدة». وكانت عودة فريق المبة بسلام إلى مقره من طريق المطار تعني انخفاض احتمالات التعرض للإصابة قبل عودتهم إلى أسرهم. قال لي تي - بوي، قبل مغادرتي العراق: إنه يعتقد أنني كنت فألاً حسناً لهم؛ لأنه لم يقتل أحد من الفريق المتعاقد أو يصب بجراح طوال وجودي معهم. ولم أعلم أنه بعد عدة أسابيع من مغادرتي العراق، تعرض فريق المبة لهجوم بعبوة ناسفة أودت بحياة أحد المتعاقدين وإصابة اثنين من فريق المبة بجروح بليغة كان أحدهم مياغي.

أما الآن، فإني مرتحل من هنا.

القسم الثالث

بين الأوغاد والأقطاب

الفصل التاسع

جيش من فرد واحد

«أريد أن أقتل كل أفغاني يقع تحت يدي»

- «جاك» في كتاب «مطاردة ابن لادن»

«إن الشيء الوحيد الأحرى بجاك أن يهاجمه هو فاتورة البار الذي كان يرتاده»

- صاحب فندق مصطفى في كابول.

في العاشر من أيلول/ سبتمبر من عام 2001، كان جوناثان كيث إديما يعيش حياة جندي متقاعد ذي أسبقية جنائية يمكن وصفها بأنها أقل من هادئة في مدينة فييتفيل بولاية كارولينا الشمالية. وفي اليوم اللاحق، وبينما كان يشاهد مقتل آلاف الأمريكيين بأمر عربي معمم ملتح مختبئ في كهف في جبال جنوب آسية، وجد جوناثان إديما هدفه الجديد في الحياة. فهو الآن عازم على قتل ابن لادن وكل إرهابي مشتبه به يمكن أن يقع تحت يديه. وأخبر جوناثان أسرته ورفاقه على الفور بأنه سيجهز متاعه ويتوجه إلى أفغانستان حالما يجد وسيلة لذلك بأسرع وقت ممكن. وكان الخطاب الذي وجهه بوش للشعب الأمريكي عبر شاشات التلفاز بعد تلك الحادثة ببضعة أيام، الذي أعلن فيه أن ابن لادن مطلوب «حياً أو ميتاً» هو التوجيه الذي جاء ليعزز طموحاتٍ تقبع تحته مشاعر غضب مستعر. لقد فتح عالم ما بعد 11 أيلول/ سبتمبر باباً واسعاً من الفرص العجيبة أمام المغامرين، والمخادعين، ومنتهزي الفرص، وخلق بيئة مثالية لأشخاص من أمثال جوناثان إديما لإشباع أقصى الجوانب المهيمنة في شخصيتهم: مشاعر الوطنية العمياء والحاجة إلى أعمال الإثارة والإعجاب، كما أن المكافأة التي بلغت عشرات الملايين لمن يأتي برأس ابن لادن كانت محفزاً قوياً لذلك الطموح. وبدأ كيث بالاستعداد لأول رحلة له

إلى أفغانستان، وهي الرحلة التي كانت بداية ملحمة سوداء انتهت بالقبض عليه في كابول بتهمة إدارة سجن غير قانوني وتعذيب المحتجزين فيه.

بدأ تحول إديما من عسكري سابق متعثر الحظ وصاحب أسبقية جنائية إلى «وطني من الطراز الأول» - كما يطلق هو على نفسه الآن - في 12 أيلول/ سبتمبر من عام 2001، حين نجح في الترتيب لظهوره في مقابلة تلفازية على محطة كي تي تي في التابعة لشبكة فوكس نيوز، مدعياً بأنه خبير في مجال مكافحة الإرهاب. وبهذه الصفة، زعم أمام مشاهديه أن هناك احتمالاً أن تكون ثلاث طائرات كندية قد اختطفت في اليوم السابق. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تبدو ضرباً من الهراء، إلا أن إديما قدمها بأسلوب المتبجح المتيقن من معلوماته، وهو الأسلوب الذي مكنه فيما بعد من أداء عدد من الأدوار التي تقمصها بنجاح في السنوات الثلاث اللاحقة. ومنذ اللحظة التي ظهر فيها على شاشة التلفاز بصفته خبيراً في الإرهاب في 12 أيلول/ سبتمبر وحتى اللحظة التي قبض عليه فيها في شهر تموز/ يوليو من عام 2004، عُرف إديما بعدة أشياء منها: منتج أفلام وثائقية، ومتعاقد لتقديم الخدمات الإنسانية، ومتعاقد أمني مع وكالة الاستخبارات المركزية، ومتعاقد مع وزارة الدفاع، وفرد من أفراد القوات الخاصة، ومستشار لتحالف الشمال الأفغاني، ودليل سياحي، وموظف في البنتاغون، ومستشار إعلامي، ومدير سجون مستقل، ومحقق وممارس للتعذيب، وساع للحصول على جائزة القبض على ابن لادن. بعض هذه الأدوار كان حقيقياً، وبعضها كان من نسج الخيال، غير أن تلك الأدوار لم تخضع لأي تساؤل أو تحقيق حكومي إلا بعد ضغوط شديدة من قبل ضحاياه. وهو ما أدى إلى اعتقاله هو وعصابته الصغيرة من المرتزقة. لم تكن أعمال إديما الاستغلالية سوى جزء بسيط مما كان يجري في أفغانستان، ولم يكن جاك نفسه سوى لاعب هامشي يفتقد إلى دور حقيقي في صناعة الأمن الخاص التي تعمل بحسب الأصول. ومع ذلك، فإن النجاح الذي حققه إديما في أفغانستان يشير إلى الخطر الكامن في زيادة انتشار المدنيين المسلحين في مسرح الحرب.

إن الطبقات المتعددة من عمليات الاحتيال التي تلف حياة جوناثان كيث إديما تجعل من مهمة حل لغز هذا الرجل أمراً عسيراً. وتفيد القصص الملفقة والروايات المضللة التي يقدمها للصحافة إلى أن أي مقابلة تجرى معه ستكون أقرب إلى التسلية منها إلى

الفائدة والحقيقة. لكن، في أثناء حديثي إلى الزملاء وغيرهم ممن عرفوا إديما وتعاملوا معه، ظهرت صورة مقلقة عن سهولة قيام شخص عادي -وإن كان يعاني عيوباً عميقة- باستغلال طريقة أداء العمليات السرية وانتهاز التوسع الذي طرأ على توجه الحكومة الأمريكية نحو استخدام الشركات الأمنية الخاصة. ولقد أثبت إديما أن شخصاً مدنياً مبتدئاً طموحاً يملك مهارات معينة يمكنه الاستمرار في أعماله الاحتيالية بكل إصرار وعناد على نحو مستقل وبمعزل عن أي رقابة حكومية، أو توجيه، أو دعم مالي خارجي.

بعد 11 أيلول/ سبتمبر، شعر إديما الذي كان مدفوعاً بمشاعر الغضب وأحاسيس الوطنية العميقة في نفسه، أن بإمكانه القبض على ابن لادن إذا أتيحت له الفرصة. ولكن عليه أن يجد طريقه إلى أفغانستان أولاً. وفي رحلته الأولى إلى منطقة الحرب، نجح إديما في خلق فرصة لنفسه بالعمل لمصلحة محطة ناشونال جيوغرافيك، التي مولت إنتاج فيلم وثائقي كان يفترض فيه أن يرصد عمل اثنتين من المنظمات الإنسانية العاملة في أفغانستان. وفي حين أن هذا المشروع يبدو عملاً بريئاً بل عملاً شجاعاً، إلا أن إديما انتهى به المطاف إلى النصب والاحتيال على منظمتين غير حكوميتين، وإنتاج فيلم وثائقي يسجل دراما أعماله البطولية.

يملك إديما ذو البنية القليلة، والبصر الضعيف، والشعر الخفيف المصبوغ باللون الأسود، شخصية مهيمنة وجذابة متى أراد ذلك. ومع أن طوله لا يتعدى متراً وخمسة وسبعين سنتيمتراً، إلا أن بإمكانه أن يترك انطباعاً طويل الأمد على الأشخاص الذين يلقونه. ولا يظهر إدوارد آرتيس، مدير إحدى المنظمات غير الحكومية التي وقعت ضحية لاحتياله، من مشاعر الاحترام تجاه إديما أكثر مما يظهره غيره من الأشخاص الذين تعاملوا مع هذا الرجل، ويقول في إديما: «لو كان دَلْوُه الذي يحمله على كتفه مليئاً بالقاذورات وسقط عليه، فلا بأس في ذلك من وجهة نظري».

يتخصص آرتيس، وهو جندي مظلي متقاعد من الفرقة الثانية والثمانين، في أعمال الإغاثة الإنسانية في المناطق الواقعة على خط النار، وقد بدأ بعمله هذا في مطلع سبعينيات القرن الماضي، وعمل في أفغانستان عدة مرات. وتحرص منظمته الخيرية الصغيرة التي يطلق عليها نايتبريج إنترناشونال (منظمة جسر الفرسان الدولية) على السرعة وعدم

التعقيد في أعمالها. ومع أنه اصطحب معه مصور أفلام في رحلته الأخيرة إلى جنوب آسية، وإدراكاً منه لأهمية الذيوع الإعلامي في جلب التبرعات، فقد وافق على أن يقوم فريق تصوير أفلام تابع لتلفاز ناشونال جيوغرافيك بالانضمام إلى قافلته بعد أن قام أحد أصدقائه بتزكية إديما عندهم.

«لقد وقعت تلك الحادثة المتعلقة بناشونال جيوغرافيك عن طريق إديما. وأنا أعترف بأنني أخطأت التقدير. ففي تشرين الأول/ أكتوبر من عام 2001، اتصل بي زميل لي من محفل فرسان مالطا[1]، وهو ضابط متقاعد برتبة رائد في القوات الخاصة، وكاتب في مجلة جنود المغانم. ثم أرسل لي إديما رسالة إلكترونية بعد أن قدمه لي موريس. وما ظننته آنذاك، أن إديما كان شخصاً خرج لتوه من السجن، وأنه يسعى إلى فعل شيء نبيل ليصلح سمعته .... وقال لي: إنه يعمل على إخراج فيلم وثائقي لمحطة ناشونال جيوغرافيك التلفازية بالتعاون مع المخرج غاري سكوركا والمصور إد كاربالو الذي كان يعمل سابقاً في محطة سي بي إس».

وعلى الرغم من الانطباع الأولي الذي تولد لدى آرتيس، إلا أن جوناثان كيث إديما لم يقدم نفسه على أنه صاحب أسبقية جنائية يحاول السير في الطريق المستقيم، بل أعاد تشكيل نفسه باسم جديد هو «جاك» الذي يمثل شخصية من يحارب الجريمة، ويبطش بالأشرار، فهو جندي سابق خدم في وحدة القبعات الخضر (القوات الخاصة) ويملك مهارات مدهشة وعلاقات سرية لإنقاذ العالم من الشر. غير أن الحقيقة هي أن إديما كان مفلساً مادياً، وكان متورطاً في عدة دعاوى قضائية كيدية عابثة يهدف من ورائها إثراء نفسه دون وجه حق، من بينها دعوى على شركة دريم وركس بحجة أنها سرقت قصة حياته، ووصل به الأمر إلى مقاضاة إحدى الشركات لأنها استردت سيارة جيب كانت باعتها له بعد أن تخلف عن دفع أقساطها. ويمكن لنظرة سريعة على خلفية إديما أن تكشف عن سجل من الاعتقالات الأمنية على تسلمه وحيازته أموالاً مسروقة، والتصرف برعونة، ومقاومة رجال الأمن، والفرار من وجه العدالة، وحادثتي اعتداء

1- مجموعة أخوية كاثوليكية يعود أصلها إلى عصر الحروب الصليبية وتعرف بمسميات أخرى مثل «هوسبيتلرز».

عــن طريــق إشهار سلاح ناري وتصويبه، وإطلاق النار علــى مسكن مأهول، وتهديد فتاة والاعتداء عليها، وإدانة من محكمة فدرالية بتهمة التآمر، وخمس وخمسين تهمة بالاحتيال الإلكـتروني[1]. لم تطـأ قدما إديما أرض أفغانستان من قبل، ولم يسبق له أن قام بأي عمل مــن أعمال الإغاثة الإنسانية، ولكنه رأى في عدسة كاميرا تصوير الفيلم الوثائقي فرصة سانحة لتسجيل الأعمال البطولية التي كان ينوي القيام بها، أو على الأقل إضفاء عنصر درامي عليها، لتحقيق الشهرة والمكاسب المادية.

لم يكن الفيلم الوثائقي الذي كانت تعده قناة ناشونال جيوغرافيك هو المحاولة الأولى لمسعــى إديمــا في إظهار نفسه بطلاً يشار إليــه بالبنان. ففي أيار/ مايـو من عام 1995، أرســل جــم موريس فكــرة فيلــم إلى ستيفن سبيلبيرغ بعنــوان مدفع منفلــت: قصة كيث إديمــا، واصفاً الفيلم بأنــه «استعراض مبني على الأعمال البطوليــة التي قام بها إديما، ولكنــه طافح بالقصــص الخيالية»، وهو نمط ينتهجــه إديما بدقة في حياتــه. وأصبحت قصــة هذا الفيلم محــلاً لدعوى قضائية رفعهــا إديما وموريس عــام 2000 على ستيفن سبيلبــيرغ، وشركــة دريمويرك، وجورج كلــوني، وغيرهم ممن لهم علاقــة بالفيلم الذي أنتج عام 1997 بعنــوان صانع السلام، وتدور أحداثه حول تهريب أسلحة نووية. وطالبت الدعوى بدفع تعويضات مقدارها 150 مليون دولار، غير أن المحكمة ردت الدعوى وحكمت علــى إديما بدفع الرسوم وأتعاب المحامين التي تكبدتها شركة دريمويرك في هذه القضية والبالغة 273.300 دولار.

وبحســب ما جــاء في نص الفيلم المقــترح لوس كانون (المدفع المنفلــت)، يدعي إديما بأنه حين كان يعمل في ليتوانيا في تدريب قوات الأمن والشرطة في بداية تسعينيات القرن الماضــي، علم بوجود شبكة قوية تعمل في تهريب المواد النووية من دول الاتحاد السوفييتي السابــق وبيعها في السوق الســوداء. وحين عاد إلى الولايات المتحدة، قــام إديما بإيصال هــذه المعلومــات إلى البنتاغــون ومكتب التحقيقات الفــدرالي، ولكنه رفضــ الكشف عن المصــدر الذي حصل منه على هــذه المعلومات. وحين ألقي القبض على إديما بعدها بتهم تتعلــق بارتكاب خمسين عملية احتيال باستخــدام وسائل الاتصال الإليكتروني، ادعى أن

1- وهو الاحتيال الذي تستخدم فيه وسائل الاتصال الحديثة كالانترنت، والهاتف.

مكتب التحقيقات الفدرالي يسعى إلى معاقبته لأنه لم يكشف عن مصدر معلوماته. وقال إن هـذه المؤامرة هي سبب محاكمته، وإدانته، ووضعه في السجن الفدرالي، وليس بسبب قيامه بتزوير الوثائق المتعلقة ببطاقات الائتمان للحصول على ما يلزمه لتشغيل شركته الخاسرة المتخصصة بالبيع عن طريق البريد، دون أن يدفع ثمن تلك اللوازم. إن الإساءة عن طريق المؤامرة، وكره مكتب التحقيقات الفدرالي، والادعاء بسرقة الأملاك، والإنكار التام لارتكاب أي خطأ، كانت -وما زالت- تمثل أفكاراً محورية في حياة إديما سنوات مديدة قبل أن يتوجه بآخر مغامراته إلى أفغانستان.

تجاهل إديما، في أثناء محاكمته، المحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عنه، وقام هو نفسه بالدفاع عن نفسه. وكان يردد الادعاء بوجود مؤامرة تستهدفه، ويقلل من شأن الأدلة الموجهة ضده، ويسخر من القاضي والمدعي العام. وقد استاء القاضي الذي ينظر في القضية من مزاعم كيث ومن أعذاره، ومن سلوكه الاستفزازي. وخاطب القاضي والاس ديكسون إديما قائلاً: «بحسب تقديري، أعتقد أنك شخص عربيد تعشق الثرثرة، وتحب أن تسمع قرقعة لسانك». ثم تابع القاضي ديكسون كلامه قائلاً: «أعتقد أنك شخص مريض، ولا أملك وسيلة أخرى للتعبير عن هذه الحقيقة. أعتقد أنك مصاب في عقلك». وكان رأي القاضي تيرينس بويلز بإديما على قدر مساوٍ من القسوة حين قال:«إن كل ما تسوقه من ادعاءات حول وطنيتك المتفانية وكونك شخصاً فريداً متميزاً هو من نسج الأوهام والخيال». وكان رد إديما المعتاد هو :«سأقاضي مكتب التحقيقات الفدرالي... إنهم يدركون أنني سأذهب إلى التلفاز، ويعلمون أنني سأذهب إلى الكونغرس، ويعلمون أنني لن أستسلم حتى أثبت براءتي». وفي الحادي عشر من نيسان/ إبريل من عام 1995، حُكم على كيث إديما البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً بالسجن أربع سنوات وبغرامة قدرها 250 ألف دولار.

بعد هزيمته القاسية في المحاكم، نقل إديما معركته إلى وسائل الإعلام، فقام صديقه القديم جم موريس وشريكه في الدعوى التي رفعت على شركة دريمويرك، بدعم رواية إديما عن الحيف الذي لحق به، وكتب في مجلة جنود المغانم مقالة نشرت في عدد نيسان/ إبريل وأيار/ مايو من عام 1995. ولم يمض وقت طويل حتى أرسلت محطة سي بي إس

واحـداً من أبرز المحققـين الصحفيين العاملين لديها واسمه غـاري سكوركا لإجراء حوار تلفـازي مـع إديما في السجـن. ونال التحقيق حـول التهريب النـووي في ليتوانية الذي بث ضمـن برنامـج «ستون دقيقة» في تشرين الأول/ أكتوبر من عـام 1995 عدداً من الجوائز التقديريـة في مجـال التحقيق الصحافي، غير أن محرري البرنامـج شعروا بعدم الارتياح من دقة واحد من مصادر التحقيق، فقرروا إزالة المقابلة التي أجريت مع إديما في السجن الفدرالي من ذلك الفيلم.

واتصـل إديمـا بعد أن خرج من السجـن بالمحقق سكوركا عـام 1997، وأنشأ الاثنان شركـة إنتاج إعلامي أطلقـوا عليها اسم «بوينت بلانك نيوز». واقـترح إديما أول مشروع لهـذه الشركة، وهو إنتاج فيلم بعنوان أي رجل أقل شأناً: قصة كيث إديما. لكن الشركات الإعلاميـة والممولـين، وعلـى الرغم من اقتنـاع سكوركا بقصـة إديمـا، لم تشاركه هذا التحمـس. ولم يتمكن الاثنان من جمع سوى ربع المبلغ اللازم لإنتاج الفيلم، والبالغ مليون دولار، وانتهى بهما الأمر إلى تأجيل المشروع برمته.

رأس البطاطا

حـين انتهى إلى علـم إديما بعد الحادي عشر مـن أيلول/ سبتمـبر أن إد آرتيس ينوي التوجـه إلى أفغانستـان، فلا بد أنه رأى في ذلك فرصة مواتية لإعـادة إخراج فكرة فيلمه المقـترح «أي رجل أقل شأنـاً» بقالب مختلف. وعلى الرغم من أن مقـترح الفيلم الوثائقي الـذي قدمـه كان يركز على جهـود إد آرتيس، إلا أن إديما تصوّر لنفسـه دوراً بطولياً على اعتبـار أنه جنـدي سابق آخر تحـوّل إلى العمل في مجال الإغاثة مقتحمـاً مخاطر الوغى للتخفيـف من معاناة فقراء أفغانستان. ومع اقتراب شـن الحرب الأمريكية على طالبان، وتعطّش الجمهـور الأمريكي إلى أي معلومات عن عدوهم الـذي اكتشفوه قريباً، تزاحمت المحطـات الإعلامية بالمناكب لملء برامجهـا بأي شيء له علاقة بأفغانستان. وفي مثل هذا الطقـس، لم تـول هـذه المحطات أي اعتبـار لحقيقة أن إديمـا لم يكن لـه أي صلة تربطه بأعمـال الإغاثة الإنسانية، أو العمليات العسكريـة، أو النشـاطات التجارية في أفغانستان. وكان الاقـتراح الذي تقدم به إلى محطـة ناشونال جيوغرافيك لإنتاج فيلم بعنوان «عملية

البحث عن الطريق»، يصوّر «كيث» بوصفه قائد فريق من جنود الصاعقة السابقين جاء لينقذ «السيد إدوارد آرتيس»، وهو جندي سابق شارك في الحرب الفيتنامية وأحد «أبرز الناشطين في أعمال الإغاثة الإنسانية على المستوى العالمي». ووصف الاقتراح كيث بأنه رجل دخل السجن بسبب جريمة لم يرتكبها وهو الآن يريد «العودة إلى أعمال المغامرة والإثارة».

اتصل إديما بإد آرتيس حين كان هذا الأخير في طاجيكستان ينتظر إتمام إجراءات دخوله أفغانستان ومعه المصور إدريان بيليك، لتصوير فيلم وثائقي عنوانه أبعد من نطاق المهمة. ويتذكر آرتيس بأن إديما لم يكن واضحاً حول المحور الرئيس للفيلم الوثائقي الذي اقترحه منذ أول حديث دار بينهما. ويقول آرتيس :«كنا في القافلة نستعد للتوجه إلى أفغانستان حين تلقيت مكالمة من إديما على هاتفي النقال الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية. وقد قمنا بتصوير تلك المكالمة. ولدي صور له وهو يحدثني عن مشروع فيلم ناشونال جيوغرافيك. (يرغب غاري سكوركا من ناشونال جيوغرافيك أن يحضر لإنتاج فيلم وثائقي عنك). فسألته (وما هي الفكرة المركزية لهذا الفيلم ... لدي خبرة كافية في هذا العمل، دعني أرَ الخطوط العريضة للفيلم). فقال إديما: (سنقدم لك الخطوط العريضة قبل أن نلتقي). وأخبرني إديما بأن (غاري سكوركا لا يرغب في إرسال تلك المعلومات عن طريق البريد الإلكتروني، وسوف نحضرها معنا حين نلتقي). فقلت له: حسناً. وكانت الفكرة أنهم كانوا يريدون إنتاج فيلم وثائقي عن جهود منظمة نايتبريج إنترناشونال في مساعدة الشعب الأفغاني. كما تعلم، أفراد متقاعدون من الجيش يقومون بأعمال مساعدة إنسانية في الوقت الذي تتساقط حولهم القذائف والقنابل. التغطية الإعلامية هي شيء جيد، لكن إنجاز المهمة التي أتيت من أجلها يأتي في المرتبة الأولى. ولم آت إلى هنا لتحقيق شهرة شخصية».

لم يرغب آرتيس في تأخير مهمته في أفغانستان، وسرعان ما نفد صبره من تأخر فريق الفيلم الوثائقي الجديد المزعج الذي سيتبعه. (قلت لإديما أن يأتي عبر طاجيكستان ويحصل على تأشيرة دخول إلى أفغانستان من هناك. قلت له: «اعلم أنني لن أجلس هنا في انتظارك. إننا متوجهون إلى منطقة حرب، أيها الأخرق») وعلى الرغم من أن

المنظمات غير الحكومية كانت ممنوعة من دخول أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أن آرتيس وبيليك استطاعا الدخول تحت غطاء العمل الصحافي، واضطرا إلى عمل بعض التقارير الإخبارية لتسويغ حصولهما على تأشيرات الدخول والإقامة في أفغانستان.

وفي نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 2001، توجه إديما وسكوركا أخيراً إلى أفغانستان، يرافقهما غريغ لوونغ، وهو مقدم متقاعد من القوات الخاصة يعمل حالياً في مجال الإغاثة الإنسانية في مؤسسة الشركاء الدولية، وهي منظمة خيرية غير حكومية كان يفترض أن يغطى نشاطها في الفيلم الوثائقي لمحطة ناشونال جيوغرافيك. وكما يتذكر آرتيس، فإن المجموعة واجهت مصاعب قبل أن تبدأ رحلتها: «لقد توجهوا بالطائرة إلى روسية ثم إلى أوزبكستان دون تأشيرة دخول، وقد سبق أن أخبرتهم بضرورة الحصول على تأشيرة الدخول قبل السفر، وكنت أظن أنهم يعملون مع منظمات غير حكومية، وأنهم يعرفون كيفية الحصول على تأشيرة الدخول، وقامت السلطات الأوزبكية باعتقال ثلاثتهم مدة ثلاثة أيام في استراحة الأشخاص المهمين». وفي الثاني من نوفمبر 2001، تمكن إديما من إقناع موظف شاب في السفارة بأنه متعاقد مع وزارة الدفاع. وهذا الخطأ يمكن تفهمه؛ لأن إديما طلب إلى السفارة التثبت من جنسيته الأمريكية عن طريق رئيس مؤسسة الشركاء الدولية الذي كان أيضاً ضابطاً برتبة عقيد لا يزال على رأس عمله في قيادة العمليات الخاصة (سوكوم)، وهي القيادة المسؤولة عن إدارة العمليات السرية.

ويتابع آرتيس كلامه: «قال العقيد بوب موريس: إنه تلقى مكالمة هاتفية من شخص يعمل في السفارة الأمريكية، وبصفته ضابطاً برتبة عقيد لا يزال على رأس عمله، ولأنه كان يرغب في الحصول على راتب تقاعدي أكثر مما يقدمه الجيش [من عمله الجانبي في مجال الإغاثة]، فقد طلب إليه التثبت من الجنسية الأمريكية لهؤلاء الأشخاص. هذا كل ما في الأمر. غير أن العقيد موريس لم يخطر بباله ما سيحوكه إديما من هذا الطلب. لقد طلب إليه التثبت من أن هؤلاء الثلاثة يحملون الجنسية الأمريكية وحصلوا منه على رسالة تؤكد ذلك. أما كيف حصلوا على رسالة تقول إن سكوركا، وإديما، وغريغ لونغ كانوا يعملون بعقد لمصلحة وزارة الدفاع، فهذا أمر لن أعرفه ألبتة».

يؤدي العقيد بوب موريس نشاطه في العمل الإنساني إلى جانب دوامه الكامل في وظيفته العسكرية. وليس من الصعب تخيل أن إديما غمز بعينه موظفي السفارة وأومأ برأسه حين طلب إليهم إخراجه من ورطة اعتقاله عن طريق التثبت من جنسيته عن طريق العقيد بوب موريس الذي يعمل في قيادة العمليات الخاصة. وفي العادة يجري التثبت من الجنسية عن طريق وزارة الخارجية، وأكدت رسالة إلكترونية من السفارة الأمريكية أن ملحقاً عسكرياً برتبة دنيا ظن أنه أسدى للعقيد بوب موريس معروفاً. [بمساعدته إخراج إديما ورفاقه من الاعتقال].

«أظن أن إديما يحمل هوية عسكرية مزورة تقول: إنه برتبة رائد، وهذا ما سمح له بدخول البلد. ثم تحولت الكذبة إلى كذبة أخرى بعد أن حصل على تلك الرسالة من السفارة».

وبعد أن اكتشف آرتيس مكر إديما وكذبه، حاول أن يحذر الآخرين منه، غير أن تحذيراته وجدت آذاناً صما. ويرى آرتيس أن الرسالة الأولى التي حصل عليها من السفارة قدمت له «غطاءً رفيع المستوى» وهو كل ما يحتاجه للتظاهر بأنه متعاقد سري مع وزارة الدفاع. «لقد حاولت تحذير الناس منه، وحذرت الأفغان منه، لكنني الآن أدرك لماذا لم يفعلوا أي شيء معه ... إن تلك الرسالة مكنته من إبطال تحذيراتي. وفي كل مرة أقول للأفغان إنه فعل كذا أو قال كذا، كان الأفغان يتجاهلونني».

ويتذكر آرتيس بعض علامات الخطر الأولية. «أرسل لي إديما رسالة إلكترونية من طشقند يخبرني فيها بأنه سيحضر معه ترجماناً، فتاة تتحدث الروسية. رددت عليه برسالة تقول: «توقف، إياك أن تحضر فتاة روسية إلى المعسكر الأفغاني». وتبين لي بعد ذلك أن تلك الفتاة كانت مومساً التقطها تلك الليلة ليمارس معها البغاء، ثم جاء بها إلى أفغانستان.

«كما أن إديما لم يكن معه مصور، وهو أمر مستغرب أن يأتي فريق لتصوير فيلم ومعهم كل الأدوات اللازمة لكن دون مصوّر. وكان واضحاً أن سكوركا لم يكن يجيد التصوير، ولم يكن إديما يحسن التصوير هو الآخر. وكان معهم كاميرات جديدة، وهي ليست من نوع بيتا، لكنها تخرج صوراً عالية الجودة. وكانت تلك اللحظة هي أول لقاء بيننا، وكان ينتابني بعض الشكوك، لكنني قلت لنفسي لقد سبق لي أن تعاملت مع مجانين

في موقع العمل. ولهذا السبب أرى أنهم يصلحون لإنتاج شريط لاصق لا شريط فيديو» ثم ضحك.

«قام إديما وسكوركا بتوظيف شخص يدعى نيل باريت ليقوم بمهمة التصوير- وهو شخص جيد ذو شعر طويل، لكن إديما اشترط عليه تقصير شعره؛ لكي يحصل على الوظيفة. لقد أراد إديما منه أن يظهر بمظهر عسكري».

بدأ آرتيس يشعر بالضيق بعض الشيء في تعامله مع إديما منذ البداية، لكن نواقيس الخطر لم تدق في ذهنه إلا بعد أن قابله وجهاً لوجه. في ليلة إديما الأولى في أفغانستان؛ إذ دعي الجميع إلى تناول العشاء مع أحد كبار القادة المحليين في خوجابودين إحدى القواعد الأمامية لعمليات تحالف الشمال. وبحسب ما يتذكر آرتيس: «وضع الطعام، ودعي الحضور لتناوله. مد سكوركا يده إلى قطعة خبز النان كما هي عادة أهل البلد، فنهره إديما قائلاً: «لا تلمس ذلك الطعام اللعين! إنه قذر. لا تلمس الطعام!» ثم رمى إلى باريت وسكوركا علبتين من علب الوجبات الجاهزة التي يستخدمها الجيش الأمريكي. «ستأكلون وجبات جاهزة، وإياكم أن تشربوا من الشاي الذي سيقدم لكم».

«كان ذلك في الليلة الأولى. وحينها شعرت بأنني ارتكبت خطأ فادحاً. لقد أدركت أن إديما -وليس سكوركا- هو قائد المجموعة». قرر آرتيس الذي شعر بالشك والانزعاج مما رأى أن يضع قواعد سلوك تحكم عملية تصوير الفيلم الوثائقي. قلت له: «انظر، أنت تتبعني وتصور الفيلم، وليس لك أن تعيد التصوير. لم يعجبه كلامي ودعاني بابن الفاعلة». فقلت له: «أنت تحب إصدار الأوامر أغرب عن وجهي».

«في اليوم اللاحق ذهبت للقاء جم مسيدا من محطة إن بي سي ولتناول القهوة والاطلاع على آخر المستجدات ... سأل جم: «من هو صديقك الجديد؟» قلت له: «صديقي الجديد هو كيث إديما». فقال إديما: «اسمي جاك، ولا تقل لأحد مع من أعمل». وكان إديما يلبس سترته السوداء ونظاراته السود داخل الفندق».

كان الانطباع الأولي لدى آرتيس هو أنه سيعمل مع سكوركا وأن إديما سيكون مرافقاً لتقديم الأمن والحماية. حتى إنه لم يكن يعلم أن الفيلم الوثائقي سيتطرق لمنظمة غير

حكوميـة أخـرى. «أحضر [إديما] جهـاز تخطيط للقلب تبلغ قيمته ستـة إلى عشرة آلاف دولار. وهـذا حـين قال غريغ لونـغ، وهو يدعي أنـه يعمل مع منظمة غـير حكومية تدعى بارتـنرز إنترناشونال: «هيا نذهب لتوصيل هذا الجهاز». ثـم دفع إديما غريغ لونغ جانباً لالتقاط صورة له. أصابتني الدهشة وكنت مستاءً جداً».

ومع تنامي المشاحنة والتوتر، كان اندفاع إديما نحو بؤرة الضوء الإعلامي وحب الظهور سببـاً كافيـاً لآرتيس في أن يفقد صوابه: «بدأ إديما بإجـراء مقابلات حول المواد المقاومة للرطوبة التي تسببت في تسميم الأفغان.

ومعلوم أنهم وضعوا صرراً صغيرة من المواد المتصة للرطوبة داخل العلب البلاستيكية الصفـراء التي كانت تحتوي على وجبات جاهـزة توزعها منظمات الإغاثة على مخيمات الأفغـان، وقد اشتكـى الأفغان من المرض بعـد تناول تلك الوجبات. وبقـدرة قادر أصبح إديما الآن خبيراً طبياً وعسكرياً في أمر سبقه إليه آخرون ولفتوا إليه نظر وسائل الإعلام والقوات العسكرية.

«أخـذت إديما جانباً – وقد صوّر نيل باريت هـذا المشهد- وأشهرت إصبعي في وجهه قائـلاً: «إنني لا أعرف ما هي أجندتك، لكنني لا أريـد مشاهدتك في أي مكان أكون فيه. هيا أغرب عن وجهي». وإمعاناً مني في تأكيد هذا المعنى قلت لإديما: «كفّ عما تفعل وأقلع عنه فوراً» ثم حاول غاري سكوركا أن يدافع عنه، فقلت له: إذا كنت حقاً بحاجة إلى إديما لإنتـاج هـذا الفيلم الوثائقي، فبإمكانـك أن تأخذ كل ما التقطه مـن مشاهد وتجعلها في استـك». وسمح لسكورسكا أن يبقى في أثناء توزيـع المعونات الإنسانية؛ لأنه كان قد تبعنا لإعـداد تقريـر عن تلك الجولة». وظن آرتيس أنه حل مشكلتـه نهائياً، لأن إديما منذ تلك اللحظـة لم يكـن مسموحاً له الاقتراب من الأماكن التي يجـري فيها التصوير، لكن ذلك كان قبل حادثة الهجوم المدفعي الذي تعرضوا له.

في الحـادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، الذي يصـادف عيد قدامى المحاربين، وبعـد يوم طويل في توزيع المعونـات الإنسانية، توجه آرتيس إلى قاعدة المعسكر الذي يقيم فيـه بعد الغروب. ومن مسافة غير بعيدة شاهد نـيران المدفعية حين سمع صوتاً يستنجد

بـه عبر جهازه اللاسلكـي يقول: «إد آرتيس. هـل تسمعني؟ لقد أصيـب شخص أمريكي بجروح، وهم يريدونك في المعسكر».

أسـرع آرتيسـ إلى الموقع، فرأى الصحـا في كيفن سايتس وهو يصـوّر المشهد بكاميرا الفيديو، فيما كان إديما: «يدور في مكانه كالحيوان المحبوس في قفص، وكان يتحدث إلى شخص ما من هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية قائلاً: أريد طائرة بلاكهووك».

تجاهـل إديمـا آرتيس بـادئ الأمر حين سأل من هـو الجريح. «ثم سألتـه ثانية: «من المصاب؟» فقال إديما: «سكوركا».

كانـوا يجلسـون في الحجرة الخلفيـة لشاحنة نقل صغـيرة (بـك أب) وكان سكوركا يتحدث إلى زوجته عبر هاتف نقال آخر يعمل عن طريق الأقمار الصناعية».

صعد آرتيس إلى الحافلة لمعاينة الجروح التي مزقت اللحم عن ركبة سكوركا، وبطنه، وفخـذه، ورجله. وقد كان سكـوركا وبعض الصحافيين يقفون في العراء حين انهال عليهم وابـل من طلقـات مدفعية طالبـان، فحاولوا جميعاً الاختبـاء خلف دبابـة تابعة لتحالف الشمـال، غافلـين عن حقيقـة أن الدبابة كانـت هي الهـدف الحقيقي لهجـوم طالبان، فأصابت شظايا الانفجار سكوركا.

«وملخـص الحالـة أن ضابطاً متخصصـاً بالإسعـاف برتبة مقدم يعمـل في القوات الخاصـة كان موجـوداً في الموقع -وأنا متخصص أيضاً بإسعـاف المعارك- فعاين المقدم غريغ لونغ الجروح، وسألته هل هي بليغة إلى الحد الذي يتطلب استدعاء إخلاء الجرحى من المكان؟ فكانت إجابته بالنفي».

وفي محاولـة منه لكبح جمـاح ردة فعل إديما المبالغة، رجـع آرتيس إلى المكان الذي كان يطـوف فيـه إديما وهو يصرخ في هاتف الأقمار الصناعية حول حاجته إلى طائرة بلاك هوك.

«سألتـه مع من يتحدث. وفي تلك اللحظة أخبر إديمـا الطرف الآخر على الهاتف بأن شخصاً ما من عمال الإغاثة يكلمه. فنزعت الهاتف من يده، وسألت المتحدث في الطرف

الآخر من المكالمة: «مع من أتحدث؟ فجاءت الإجابة بأنه ضابط برتبة رائد في السفارة الأمريكية في طشقند. فقلت له: «أيها الرائد، لقد خدمت في وحدات الإسعاف في فيتنام. ولست أرى أي إصابة خطيرة تستدعي إرسال طائرة مروحية، وإذا رغبت في أن تتوثق من هويتي ...». أعطيته رقم أحد المعاونين العاملين في مكتب دانا روهرا باتشر في الكونغرس الأمريكي، وأخبرته بأنه لا يوجد داع لتعريض حياة مزيد من الأشخاص للخطر، أو التسبب في إحداث مشكلة دولية، ثم نزعت الهوائي من جهاز إديما وناولته إياه.

وقال آرتيس بأنه صرخ في وجه إديما قائلاً: «إن تماديت معي مرة أخرى، فسأسعى لاعتقالك أو إطلاق النار عليك. سنقوم بنقل غاري إلى المستشفى». سكت إديما ولم ينبس ببنت شفة، فقد أخذ منه الذعر كل مأخذ. وقلت له: «أغرب عن وجهي، وسنقوم بتكملة الفيلم، ويمكنك مشاهدته حين يبث في التلفاز».

ويتذكر الصحافي كيفن سايتس ذلك الحدث ويقول: إن آرتيس تصرف على نحو لائق، وإن إديما كان يتصرف بصلف وغرور بهدف الإثارة وجلب الأنظار إليه. فقد كان ثلاثة أشخاص في موقع الحدث، ومنهم آرتيس، ممن لديهم تدريبات متقدمة في الإسعاف الطبي؛ في حين أن إديما ليس لديه أي خبرة في هذا المجال. ومع ذلك، عزا سكوركا الفضل إلى إديما لاكتشافه جرحاً لم ينتبه إليه الآخرون في أثناء نقله إلى المستشفى.

يرجح آرتيس وآخرون الرأي الذي يقول: إن إديما كان يعرف قيمة المشهد الذي جرى تصويره. «فعملية الإنقاذ الجريئة» ستكون جزءاً من فيلمه الوثائقي، بحيث تظهره بصورة البطل الذي أنقذ الموقف. وقد تأكدت شكوك آرتيس حين قرأ نص اقتراح إنتاج الفيلم الوثائقي الذي قدمه إديما وسكوركا لمحطة ناشونال جيوغرافيك.

«كان اعتقادي، حتى اليوم الذي سبق مغادرتنا بالطائرة المروحية، أن الفيلم الوثائقي كان عن مؤسستنا، لكنهم لم يقدموا لي نص الفيلم. وفي اليوم الأخير قبل مغادرتي، فتشت حقيبة سكوركا. حيث استيقظت باكراً، وقد كان إديما وسكوركا يجريان مقابلة معاً في ملعب التنس في الخارج، فوقعت عيناي على الملف الذي كانا يرجعان إليه حين كنت أقوم بأعمالي. وجدت في هذا الملف رسالة تحمل ختماً ذهبياً كبيراً لمحطة ناشونال جيوغرافيك

وعليهـا توقيع تيم كيلي: «إلى من يهمه الأمر، سيقوم غاري سكوركا بتصوير فيلم وثائقي حول جهود الإغاثة الإنسانية التي تدعمها منظمة الأمم المتحدة في أفغانستان، ويعمل معه في هذه المهمة كيث إديما. ويملك السيد إديما ما يكفي من المال اللازم لدعم هذا المشروع أو شـيء بهذا المعنى». ولقد كان هناك أيضـاً نص مكتوب للفيلم في خمس صفحات، وفي النصـ قائمة لمشاهد تتحدث عن انضمامهم إلينا، ثم تقع منظمة الإغاثة غير الحكومية في ورطة، ليأتي كيث إديما وينقذ الموقف. فأدركت وقتها أنهم نصبوا لنا الفخ لنقعَ فيه».

«فيمـا بعـد، اتصل بي غاري وقال لي: إنه يريد مني أن أوقع له إذناً بالنشر لما التقطه مـن مشاهد وصور. فقلت له: «لن أسمح لك باستخـدام صورتي، ولا صوتي حتى أرَ نص الفيلـم. وإذا كان في الفيلـم صورة واحدة أو إشارة إلى كيث إديما وإن كان ذلك في قائمة الشكـر الخاص في آخر الفيلـم، فلن أسمح لك باستخدام اسمـي». ولهذا السبب لا تجد لإديمـا ذكراً في الفيلم الوثائقي الذي أنتجوه». لقـد خُدِعت محطة ناشونال جيوغرافيك حين قدمت المال والدعم – عن قلة احتراز- لدخول «جاك» في الحرب على الإرهاب.

حيل بين «جاك» وبين عالمه الحقيقي مرة أخرى، ووجد نفسه بلا عمل في جنوب آسية، بعيـداً عـن دوره البطولي الأسطوري في أعمـال الإغاثة الإنسانية، وبعيـداً عن بسالته في ساحة المعركة. ونظراً لما اشتهر عنه من دهاء وحيلة، لم تخل من الانتهازية والافتقار إلى المعيـار الأخلاقي، فقد أبقى إديما نفسه مشغولاً بعد أن انفصل عن آرتيس، مقدماً نفسه للإعلاميـين في أفغانستان على أنـه «خبير» وحصل بذلك على عـدد كبير من المقابلات الإعلامية. ويتذكـر الصحافيون قيام إديما ببيع خدمات نقلهم بأسعار مرتفعه على متن واحـدة من الطائـرات المروحية البالية من طراز مي- 17، العائـدة للقائد مسعود خليلي من تحالف الشمال.

كان أكـثر الإعلاميـين يسخرون في خلوتهم مـن إديما بوصفه شخصـاً حقيراً يسعى إلى أن يكـون بطـلاً عدا عن كونه دليل حـرب غريب الأطوار. وبحسـب رأي آرتيس، فإن الصحافيـين في خواجودين كانـوا يطلقون على هذا الشخصـ الضئيل، جاحظ العينين، المسلّـح، عامـل الإغاثة المرتزقة، الخبير في الإرهاب البائع الجـوّال لقب «رأس البطاطا» وذلـك لقدرته على التخفي تحت عدد كبير من الأقنعة المختلفة. ومع أنه بدا على صداقة

ومودة مع قيادة التحالف الشمالي، إلا أن أحداً لم يتمكن من معرفة من يكون جاك هذا. وكان آرتيس على الأقل يعلم من يكون جاك هذا، وبدأ آرتيس بالاتصال بتحالف الشمال والمسؤولين الأمريكيين لتحذيرهم من مكر إديما ومكايده.

وفي منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، كتب هارون أمين، الناطق الرسمي باسم تحالف الشمال، رسالة موجهة إلى آرتيس يقول فيها: إن إديما لم يكن يعمل لمصلحتهم. وبعد أسبوعين من ذلك التاريخ، أخبر إديما مراسلاً إعلامياً يعمل لدى صحيفة فايتفيل أبزيرفر عبر هاتف الأقمار الصناعية أنه «يعمل مع تحالف الشمال». فلو نجح إديما في إقناع تحالف الشمال بأنه يقوم بمهمة سرية، فإنهم كانوا سينكرون أنه يعمل معهم، ومن المحتمل أن يكون إديما قد أقنع القائد المحلي مسعود خليلي بإنشاء مشروع تجاري لنقل الصحافيين بين مناطق النزاع في أفغانستان دون علم القيادة العليا. والشيء الوحيد الذي يمكن استنتاجه بدرجة عالية من اليقين هو أنه لو كان إديما متعاقداً أمنياً مستقلاً مكلفاً بمهمة أمنية في أفغانستان في ذلك الوقت، لكان أمامه إنجاز أعمال طارئة لا تترك له مجالاً لاستغلال الصحافيين في جمع الأرباح، هذا عدا عن أن العميل السري لا يلهث وراء الظهور في وسائل الإعلام.

وفي الوقت الذي كان فيه جاك يسعى في جمع المال في ساحة الحرب، اتصل آرتيس ببيلي واه بحثاً عن مزيد من المعلومات عن ادعاءات إديما. وكما يتذكر بيلي فإن: «إد آرتيس كتب له رسالة قال فيها: إن جاك إديما يقول للناس: إنه يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية. وسألني إد: «هل هذا صحيح؟» ولم أكن أعرف من هو جاك إديما هذا... قلت له: إن هذا الشخص لا يعمل معنا؛ لأنني أعرف أسماء كل الأشخاص الذين يعملون معنا في أفغانستان. كان لدينا قرابة الثمانين شخصاً في تلك العملية، ولم يكن إديما واحداً منهم».

ومع اشتداد العمليات الحربية، انتقل جاك جنوباً إلى جلال أباد، حيث تابع هناك جني الأرباح من الحرب عن طريق أخذ رسوم من الصحافيين لحضور المؤتمرات الصحفية وتقديمه عروضاً لهم بأخذهم في رحلات استطلاعية إلى مناطق القتال مقابل 800 دولار للشخص الواحد، ومن بين الذين ذهبوا في هذه الرحلات جون لي أندرسون مراسل مجلة نيويوركر. وأصبح المراسلون ذوو التمويل الممتاز المتلهفون تحت ضغط من مسؤولي

التحرير في بلادهم لإرسال مواد إخبارية حصرية عن الحرب، مصدر العطاء الجزيل لجاك في أفغانستان. وتوافدت أعداد كبيرة من جموع الإعلاميين إلى فندق سبنغهار ذي الجدران المتشققة في جلال أباد في أثناء معركة تورا بورا. ولأن إديما كان يشاهَد داخلاً وخارجاً من الفندق يرافقه مجموعة صغيرة من الطاجيك المسلحين، ظن الصحافيون أن جاك وعصبته من المرتزقة كانوا منهمكين في البحث عن ابن لادن. وفي ذلك الوقت، كانت القوات الخاصة التابعة للجيش، وقوات سيل، ووكالة الاستخبارات المركزية هي التي تقوم بتلك المهمة، وبطريقة شبه مكشوفة، حيث كانوا ينطلقون في تلك العملية من الفنادق، والقواعد العسكرية، ومعسكرات القيادة، مستقلين سيارات مغبرة رباعية الدفع. وكلهم كانوا خاضعين لأوامر تفرض عليهم الابتعاد عن وسائل الإعلام، وتسمح لهم، عند الضرورة، باستخدام عملائهم الأفغان في تهديد، وضرب، أو اعتقال الصحافيين الذين يحاولون الاقتراب منهم. وعلى العكس من ذلك، كان إديما يضع نظاراته الشمسية الطبية، ويضع الكوفية الأفغانية حول رقبته، ويلبس زياً عسكرياً أمريكياً من صنع أفغاني، ويضع مسدساً في جيب سرواله ويحمل بيده بندقية رشاشة من نوع كلاشنكوف، ويجمع حوله مئات من الصحافيين قليلي الخبرة ممن وصلوا حديثاً إلى أفغانستان. وقد أتقن الإيماء برأسه إيماءة العارف الذي لا يريد الإجابة بل التمويه حين كان يرد على الأسئلة الصعبة والعويصة، وكان يربك السائل بوابل من المصطلحات العسكرية التي يستخدمها أفراد القوات الخاصة، وبصراخ غاضب على المشاعر غير الوطنية. وأصبح إديما، بفضل وجود عدد من كبار الإعلاميين الذين لم يترددوا في طلب خدماته، مصدراً متخصصاً للقصص المثيرة، والمستشار الملهم المفضل لدى وسائل الإعلام. أما الصحافيون الواعون، فسرعان ما ظهر لهم أن قصص وروايات جاك لا تنسجم مع الحقيقة، بخلاف البقية الذين انخدعوا بجاذبيته وغروره، وحرصوا على كتابة وتسجيل كل كلمة يلفظها.

استمتع إديما بهذا الاهتمام الإعلامي، وهو يمتلك أحياناً مهارة دقيقة في التلوّن بحسب رغبة وسائل الإعلام. ولكنه مع ذلك يمكن أن يكون منحرفاً غريب الأطوار؛ فذات مرة أطلق الرصاص من مسدسه صوب تود روبرسون الذي يعمل في صحيفة دالاس مورنينغ نيوز، ولكنه هنّأ ليندا فيستر التي تعمل في محطة فوكس نيوز على نجاحها في إجراء مقابلة

مع «شخص من القوات الخاصة». وشاع عنه لقب «جاك الزفت» في أوساط الإعلاميين المتشككين بأمره، وهو لقب صادق ينطبق على الخدمات التي يتقاضى عليها مبالغ طائلة. وكان يتحدث أمام الصحافيين أو أي شخص يرغب في الاستماع إلى سلسلة من القصص والأساطير المتجددة، واصفاً نفسه بأنه «مستشار لتحالف الشمال» أو الوصف المطاطي الفضفاض «خبير»، حتى إنه استطاع أن يحصل على منصب مدفوع الأجر لمدة محدودة لدى محطة فوكس نيوز تحت وصف مستشار إخباري. حتى تحالف الشمال الذي يرتبط معه بعلاقة حميمة كما هو مفترض، لم يسلم من طمع جاك وجشعه؛ إذ طلب جاك ذات مرة من الزعيم الأفغاني المدعوم من وكالة الاستخبارات المركزية هزرات علي أن يقدم تقريراً موجزاً عن العمليات لوفد مهم من مسؤولين في البنتاغون في فندق سبنغهار. ثم تبين أن «المسؤولين» الذين تحدث عنهم جاك كانوا مراسلين صحفيين أخذ جاك منهم مبلغ 100 دولار مقابل حضور إيجاز إخباري «حصري» من هزرات علي.

وعلى الرغم من تمكنه من جني بعض المال من هنا وهناك من وسائل الإعلام، إلا أن أكبر صفقاته حدثت في كانون الثاني/ يناير من عام 2002، حين باع أشرطة مدتها 7 ساعات عن تدريبات القاعدة كما ادعى لمحطة سي بي أس نيوز التي قدمت العرض الأعلى في المزاد العلني الذي أقامه لبيع تلك الأشرطة. ومع أن وكيل إديما الذي أدار المزاد واسمه ويليام موريس اقترح أن يبدأ المزاد من 150 ألف دولار، إلا أن التقارير أشارت إلى أن محطة سي بي أس دفعت زهاء 30 ألف دولار أو 60 ألف دولار مقابل أولوية بث هذه الأشرطة. كما زادت البيوع الثانوية لتلك الأشرطة لمحطات أخرى مثل بي بي سي، وإيه بي سي، وإن بي سي، وغيرها، لتزيد في دخل إديما. أما محطة سي إن إن فلم تدخل في المزاد ولم تهتم بتلك الأشرطة بعد أن تقصت عن إديما وعرفت حقيقته، ولم تكلف نفسها عناء الرد على رسائله ودعواته لدخول المزاد على تلك الأشرطة. وفي منتصف يناير، عرضت محطة سي بي اس مقابلة مع إديما في برنامج ستون دقيقة- 2 وأخرى في نشرة الأخبار مع دان راذر. وبحسب ما يقول إد آرتيس عن إديما، فإنه «حقق الضربة الإعلامية الكبرى حين أقنع محطة سي بي أس بشراء أشرطته المزورة عن القاعدة». ويشير آرتيس إلى أن تلك الأشرطة التقطت بكاميرا قديمة 8 ملم هاي- 8 فيديو كاسيت – وهي آلة التصوير

نفسها التي جلبها إديما معه حين لقي آرتيس. «في البداية ادعى أنه هو الذي صور تلك الأفلام؛ ثم ادعى أنه اشتراها؛ ثم قال بأنها أعطيت له؛ وأخيراً زعم أن مصوراً يابانياً هو الذي التقط تلك الأفلام».

تعرضت مهمة جاك في أفغانستان التي أخذها على نفسه لتوقف مفاجئ في حزيران/ يونيو من عام 2002 بسبب وفاة أمه، فاضطر إلى العودة إلى موطنه في نيويورك. وبعد الفراغ من دفن والدته بمدة غير طويلة، توجه إديما إلى فايتفيل في ولاية كارولينا الشمالية للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الخمسين لإنشاء القوات الخاصة.

يقول إديما: إن رغبته بالالتحاق بالقوات الخاصة تكونت منذ اليوم الأول الذي عرض فيه فيلم جون وين، وهو فيلم مؤسس على كتاب عنوانه «البريات الخضر» للكاتب روبن مور. كما أن والد إديما شارك في الحرب العالمية الثانية فيقوات المارينز، وأدت خدمته المحدودة في الجيش دوراً كبيراً في تكوين هويته الشخصية، مع أن سجله المهني في القوات الخاصة يكشف عن خلفية مضطربة وقدرات مشكوك فيها. ويظهر سجل إديما العسكري من الوهلة الأولى أنه سُرح من الخدمة العسكرية بعد ثلاث سنوات في الرابع والعشرين من شباط/ فبراير من عام 1977، تسريحاً مشرفاً. ولكن تقريراً صدر بتاريخ 18 آذار/ مارس، 1977 يصف مستوى أدائه بأنه «أقل من الاعتيادي»، ويذكر التقرير من بين الأسباب التي تجعل منه جندياً فاشلاً: ضعف التركيز على التفاصيل، والإخفاق في اتباع التعليمات، وعدم القدرة على تقبل النقد البناء. ويذكر تقرير آخر حرره النقيب جون دي كارلسون أن إديما «هو من دون شك الجندي الأكثر افتقاراً إلى المهنية، والتحفيز، والرشد من بين الجنود الذين عرفتهم في حياتي».

وعلى الرغم من هذه الآراء اللاذعة، استطاع إديما أن يستخدم تدريبه ومهاراته التي اكتسبها من خدمته العسكرية في تأسيس معهد للتدريب على مكافحة الإرهاب في ردهوك في نيويورك، أطلق عليه اسم كون - تر. ولم يستمر عمله طويلاً، ولكنه تمكن من الحصول على صورة تظهر ابن رونالد ريغان وهو يزور المعهد. وتأسيساً على خلفيته العسكرية، كانت خطوة إديما اللاحقة في حياته المهنية هي تأسيس معرض تجاري للقوات الخاصة، تعرض فيه أحدث المعدات العسكرية، ويكون مكاناً يجمع المهتمين في هذا المجال للتواصل

وتَعَـرُّفِ بعضهـم على بعض. وفي واحد مـن هذه المعارض التي أقامهـا، تعرف إديما إلى روبن مور، صاحب الرواية التي كانت سبباً في التحاق إديما بالقوات الخاصة.

وبحسـب مـا يقوله مور، فـإن اللقاء أعقبه تواصـل بين الاثنين في الحفـل الذي أقيم بمناسبة الذكرى الخمسين لإنشاء القوات الخاصة في صيف عام 2002. وفي ذلك اللقاء أخبر مور إديما عن مشروع كتابه الجديد، وهو كتاب عن القوات الخاصة في أفغانستان. وعلى الفور أقنع إديما مور بأن خبرته وتجربته في أفغانستان وخلفيته العسكرية يمكن أن تفيـد كثـيراً في هذا الكتاب؛ وبذلك بدأ تعاون مشؤوم بـين الاثنين أسفر عن خروج كتاب «مطاردة ابن لادن».

تمتـع روبـن مور بعـد إصدار كتابـه الأول «البريـات الخضر» بمصداقيـة عالية لدى المؤسسة العسكرية. لذلك استخدم مور معارفه وأصدقاءه وقنوات اتصاله في الجيش بعد بدء العمليات العسكريـة؛ لكي يحصل على التسهيلات اللازمة لتأليف كتابه الجديد عن القـوات الخاصـة في أفغانستـان. والمشكلة هي أن مور كان في أواخـر السبعين من عمره، ويعاني مرض الباركنسون. وبخلاف كتابه الأول، حيث قام بمشاركة الجنود في تدريباتهم الأساسيـة، وأمضى بعض الوقت في ساحة المعركة في فيتنـام، فإن مور العجوز قد اكتفى الآن بإجـراء المقابلات مع فرق القوات الخاصة التي تعود مـن أفغانستان إلى قاعدة كي تـو في أوزبكستان. وكما يتذكر أحد أفراد كتيبة العمليـات ألفا- 595 الذي تظهر صورته علـى الغلاف الخلفي من الكتاب، فإن «مور كان يغط في النوم في أثناء المقابلات، وينسى تشغيل آلة التسجيل».

جرى أكثر العمل في ذلك الكتاب على يد كريس تومسون، وهو الذي ساعد مور في جمع وتحريـر المقابـلات، وأخرج كتاب «مطاردة ابـن لادن». وكان مفهومـاً أن الكتاب بحاجة إلى شـيء يجمع بين المقابلات المنفصلة، ويكون المحـور الذي يدور حوله الكتاب. واقترح جـاك إديما أنه سيكون الشخصية المركزيـة الأمثل لهذا الدور، فهو جندي غامض سابق في القـوات الخاصـة تحوّل إلى متعهـد أمني جاء إلى أفغانستان ليشـن حرباً بنفسه على الإرهـاب. أما مور وتومسون فرأيا أن ذهاب إديمـا إلى أفغانستان بوصفه شخصاً مدنياً يضيف عنصراً مشوقاً إلى الكتاب.

كان جاك على درجة من الذكاء مكنته من إبرام صفقة جانبية مع وكيل مور للنشر يحصل بموجبها على نسبة مئوية من الأرباح مقابل كتابة قسم كبير من الكتاب. وفي صفحة الشكر في الكتاب، أثنى مور ثناءً جزيلاً على كرس تومسون، وهو جندي سابق خدم أبوه في القوات الخاصة الأمريكية، غير أن الكتاب تحوّل إلى واجهة لعرض شخص اسمه «جاك»، حتى إن غلاف الكتاب عرض صورة إديما وهو معصوب الرأس حاملاً بندقية رشاشة ومسدساً على خصره، ومحاطاً بثلة من أعوانه الأفغان. وورد اسم «جاك» في الكشاف تحت فصل «جنود القوات الخاصة».

لقد كنت من بين الذين أجريت معهم مقابلات في كتاب «مطاردة ابن لادن» ويمكنني التحدث من تجربتي الشخصية وأقول: إن أكثر المعلومات الواردة في ذلك الكتاب هي معلومات غير صحيحة، وتفتقر إلى التوثيق، وكتبت من مكان بعيد عن مسرح العمليات، مما أدى إلى الخلط بين التفاصيل الدقيقة. وقد وضعت صورة لفريق كنت أرافقه من القوات الخاصة على الغلاف الخلفي للكتاب. ومع أن أعضاء هذا الفريق لم يسبق لهم أن قابلوا جاك شخصياً، ولم يتحدثوا إليه، ومع أن أكثر أعضاء الفريق قد وصفوا بالتفصيل الدقيق للسيد مور في قاعدة كي - تو العمليات التي يقومون بها، فإن الفصل الأول من الكتاب يتحدث عن روايات دخول الفريق إلى أفغانستان، وهي بحسب ما ذكروه لي محض اختلاق. وبخلاف ما يذكر الكتاب، لم يكن هناك إطلاق نيران، ولم يكن هناك دراما؛ إذ هبطت طائرتهم في الليل، وكان في استقبالهم فريق من وكالة الاستخبارات المركزية، بمن فيهم مايك سيان، ثم شرعوا في إنزال أمتعتهم.

اقترف إديما خطأً قاتلاً حين أدرج الأسماء الحقيقية لأعضاء الفريق واختلاقه عمليات لم تحدث أصلاً. ويركز الفصل الأول من الكتاب في أكثره على مراقب جوي من سلاح الجو اسمه ماثيو مع أن ماثيو الحقيقي وصل أفغانستان بعد أيام من وصول الفريق. في حين يتحدث الكتاب عن ماثيو وهو يصرخ مستنجداً «إننا على وشك السقوط أسرى بيد العدو ... أريد إسناداً جوياً في الحال!» وينقل الكتاب رد طياري قاذفة القنابل بي-52 على استنجاد ماثيو بالعبارة البالية «القنابل في طريقها» . وينقل عن جنود القوات الخاصة في الميدان قولهم: «يا إلهي، غير معقول!»، وهم يراقبون «جثث مئة من قوات

طالبـان والقاعدة وهي تتطاير إلى الأعلـى، وترتج أرجلهم وسواعدهم في أقل من الثانية قبـل أن تتحول إلى سديم وردي في الهواء، ولا يتبقى من أجسامهم ولا ملابسهم أي أثر». وفي حـين أن قصة دخول القوات الخاصة إلى أفغانستـان هي القصة الأطول في الكتاب، فإن عنصر الخيال الذي يناسب الأفلام الرخيصة تسيطر على أكثر العمل.

وقـد ذكر لي أحـد الجنود الذيـن أتقن إديمـا وصفهم بإبـداع وهم يـرددون «نشيد البريات الخضر» بعد إحـدى المعارك، قائلاً: «إنهم يزيدون من مخاطر أمننا الشخصي في كل مرة يلفقون علينا مزيداً من القصص». أما زوجه، فلا تخفي غضبها من قرار نشر الأسماء الكاملة للجنود المذكورين في الكتاب مقرونة بصورهم ورتبهم. وتشعر أن بإمكان أي إرهابـي يملك مهارة بسيطة في استخـدام الحاسوب، أن يحدد عناوين مساكن هؤلاء الجنـود بغية الانتقام من أسرهم في الوقت الذي يذهـب فيه الأزواج في مهمات عسكرية مطولة في الخارج.

وفي نهايـة القصة الخيالية في هذا الكتاب غير الخيالي، ينتحل «جاك» صفة شاعرية لشخصيـة جنـدي ثمل بالفـودكا وعصير الرمان، يحمـل على جنبيـه مسدسين من نوع مـاكاروف، ويردد بلسان ثقيل عبارة مشوهة ممسوخة مـن الأفلام. «يا إلهي، إنني أكره انتهـاء الحرب»، وهـذه الشخصية تحاكي شخصية العقيد كليغور مـن فيلم نهاية العالم الآن. «وبعينيـه المتعبتـين اللتين تعاينـان زجاجة الويسكي، يتأمل جاك مـا لا يمكن تأمله «وفي أثنـاء الحرب، بدا جاك في كل مكان ... ولكن هل كان جاك شخصاً واحداً، أم عدة شخوصـ؟» وربما كان في هذا السؤال مفتاح المرض العقلـي الذي يعانيه «جاك» والنظرة المدمرة للحقيقة والولاء.

ولزيـادة الطين بِلَّـة، ورد في ملحق الطبعـة الأولى من الكتاب قائمـة لست منظمات خيريـة تقدم الدعـم لأفراد القـوات الخاصـة، ولأسرهـم وأطفالهم، وكذلـك للشعب الأفغـاني. ولا يمكن إلا لعين فاحصة أن تلحـظ واحدة من تلك المنظمات المذكورة، وهي منظمـة أمريكية مناهضة للإرهاب، ووجّه إليها الشكر على تزويد الكتاب بمجموعة من الصـور التي نشرت فيه، منها صورة لجاك إديما راكبـاً صهوة حصان. وهذه المجموعة ليسـت سوى «كـون- تر»، وتشير سجلات البريد الأمريكـي إلى أن عنواناً آخر يقال: إنه

لمجموعة خيرية تساعد القوات الخاصة أفضت إلى الكشف عن صندوق بريد وحساب مصرفي يعودان لإديما.

بدأ الكتاب منذ عرضه في الأسواق بتسلق قائمة أفضل الكتب بيعاً، وهو ما أفرح مور. لكنه بعد ذلك بدأ يتلقى عشرات الرسائل الإلكترونية الاحتجاجية من جنود القوات الخاصة، ومن ذوي الجنود الموجودين في أفغانستان. واعترف مور للجنود الذين خدعوا بأنه اضطر إلى «إضفاء نوع من الإثارة» على الكتاب، وقال: إنه وضع بعض التعديلات التي لم تجد طريقها إلى الكتاب، والتمس الجنود العذر لمور على وقوعه في هذه الخديعة بسبب كبر سنه وضعف قدراته العقلية، ذلك أنه لم يكن لديهم أدنى فكرة عن تورط الشخصية غير المعروفة التي ظهرت صورتها على غلاف الكتاب. وفي النهاية، فإن الرجل الذي صنع أسطورة البريات الخضر قد نقض، بسبب إديما، أربعة قرون من الثقة التي كانت قائمة بينه وبين القوات الخاصة. وراقب مور بقلب تعتصره المرارة توالي التعليقات اللاذعة على صفحات موقع أمازون لبيع الكتب عبر الإنترنت وعلى موقعه الشخصي التي تصف كتاب «مطاردة ابن لادن» بأنه رواية خيالية ووصمة خزي وعار.

وكان إد آرتيس من بين الذين عبروا عن وجهة نظرهم بإديما على الموقع العائد لمور، وهو ما دفع إديما إلى رفع دعوى على آرتيس، وقال آرتيس: «إنه يقاضيني على تشويه سمعته،... تباً له. دعه يقاضِ شخصاً ميتاً». (أصيب آرتيس بنوبة قلبية طفيفة عام 2004 في أثناء قيامه بمهمة إنسانية في الفلبين.) ورد القاضي الدعوى أواخر عام 2005.

وأثار بيلي واه هو الآخر انزعاج إديما، إلا أن خلفية واه في القوات الخاصة جعلت إديما يحجم عن مقاضاته في المحاكم، حتى الآن. وقال واه: «يدعي إديما أنني شوهت سمعته»، وأقول: إنني لم أتحدث عنه بما يسيء إلى سمعته؛ إن ما قلته كان الحقيقة. فهو لم يكن يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، كما أنه لم يقم بأي من الأشياء التي زعم أنه قام بها في كتاب روبن مور».

وبدأ إديما بمعركة كلامية وكتابية عبر البريد الإلكتروني مع بيلي واه (مع توجيه نسخ من تلك الرسائل إلى جم موريس، وبوب موريس، وبوب براون، ناشر مجلة جنود من أجل

المغانم (سولدجرز فور فورتشن) وفي 17 آذار/ مارس من عام 2003، وجه إديما تهديداً عبر البريد الإلكتروني قال فيه: «إن أي شخص يعتقد أن عليه أن يركب موجة الكراهية والهراء الموجهة ضدي، فإن عليه أن يكون مستعداً؛ لأننا سنذهب إلى المحكمة وسنرى من سيكسب هذه الجولة. وأنت أيها الولد بيلي، ليس لدي مشكلة في مقاضاتك إذا واصلت بث هذا الإفك والهراء عني». ويتذكر بيلي أن حرب التهديدات بينهما تطورت إلى ما هو أبعد من مجرد الدعاوى القضائية». اتصل بي إديما وهددني. فقلت له: «اجلب كل ما عندك إن كنت رجلاً؛ لأن لدي ست بنادق وبعض الشراك الملغومة المنصوبة حول منزلي». ثم اتصل بي بعد ربع ساعة وقال: «لن أفعل شيئاً معك لأنني أعرف أنك تتمتع بسمعة عظيمة». وهذا صحيح. وإن كان يظن أن بإمكانه أن يتوعدني، فإنه مخطئ».

لم يقدم إديما على مقاضاة أسطورة البريات الخضر (القوات الخاصة) بيلي واه، لكنه قام في آذار/ مارس من عام 2004، وقبل عودته إلى أفغانستان، برفع دعوى على كريس تومبسون وأبويه، وصديقه روبن مور، إضافة إلى فوكس نيوز، والعقيد بوب موريس، وإد آرتيس، وغيرهم من الأعداء المتصورين. وعلى ما يبدو، فإن جاك كان يحاول جاهداً حماية الصورة الجديدة التي اتخذها لنفسه بوصفه جيشاً من رجل واحد يطارد ابن لادن.

محامون، وبنادق، وأموال

في شهر نيسان/ إبريل من عام 2004، عاد إديما الذي بلغ من العمر 48 عاماً إلى أفغانستان بعد أن حصل على ما يكفيه من المال من كتاب مور. لكنه عاد هذه المرة ومعه فريق من الموظفين الذين استأجرهم. ومن بينهم إد كاربالو المصور المخضرم في محطة سي بي أس، وبرنت بينيت، وهو جندي سابق، وكان يعمل نادلاً في مطاعم روبي تيوزدي في مدينة فاينتفليل. وبعد أن حط رحاله في أفغانستان، استأجر إديما منزلاً وسيارة، واستعمل عدداً من الأفغان لتقديم الدعم المحلي. وأطلق على هذه المجموعة من المرتزقة اسم «الوحدة الحربية سيف 7» وهي تحريف للاسم الرسمي الأصلي لحملة القوات الخاصة الأمريكية في أفغانستان المسمّاة الوحدة الحربية خنجر. وكانت مجموعة إديما ترتدي زياً عسكرياً موحداً على نمط الزي الأمريكي، مخيطاً عليه العلم الأمريكي، وغالباً ما

كانوا يحملون السلاح، وهو المظهر الذي دفع كثيراً من السكان المحليين إلى الاعتقاد أنهم عناصر وحدة سرية من المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. ومن منزله الكبير في كابول، بدأ إديما وفريقه بتصوير ما يمكن وصفه بأنه فيلم واقعي غريب عجيب. ويملك إديما قدرة عجيبة على المحاكاة والتقليد. وقام بإنشاء ما يمكن الاعتقاد بسهولة أنه عملية شبه عسكرية لوكالة الاستخبارات المركزية بكامل عناصرها، بما في ذلك مقرها المحلي الآمن، ومجموعة الأعوان الأفغان، واتخاذ موقف متكتم تجاه من يستفسر أو يسأل عن نشاط المجموعة. ولكنه كان مع ذلك يحب الظهور الإعلامي حين يكون ذلك ملائماً لأهدافه. وكانت المحطات الإخبارية تدفع مبالغ طائلة لأي قصة تحتوي على عنصر الإثارة حول الإرهاب في أفغانستان، وبدا أن إديما كان عازماً على استغلال هذا الطلب في السوق الإعلامية.

وسرعان ما زعم أنه كشف النقاب عن مؤامرة تقوم على وضع المتفجرات في سيارة تكسي ومهاجمة أهداف أمريكية وأفغانية، وتمكن من إقناع قوات حفظ السلام الأجنبية التي صدّقت كلامه بكل سذاجة في ثلاث مناسبات بتوفير مزيد من الحماية في أثناء جولاتها ومداهماتها، وكان جاك يتولى قيادة هذه الحماية الإضافية بمنتهى الإثارة الدرامية والبطولة الاستفزازية المصطنعة فيما كانت عدسة كاربالو تسجل تلك المشاهد. وحين تيقن إديما أن بحوزته مفتاح الحظ، عرض شريط الفيديو الذي يصوّر «الإرهابيين» الذين قبض عليهم للبيع بربع مليون دولار، غير أن المحطات الإعلامية قد بدأت تشك في صدق إديما، ولم تشتر أياً من تلك الأشرطة.

وقامت الوحدة الحربية سيف 7 بإمطار المصادر المحلية بالأسئلة وجمع المعلومات، وشرعت «باعتقال» أو الأحرى باختطاف الأفغان الذين اعتقد إديما أنهم تابعون لطالبان أو القاعدة. وجرى حجز المعتقلين، واستجوابهم وتعذيبهم في منزل الرعب الذي اتخذه إديما مقراً له في كابول. وفي 3 أيار/ مايو، قام جاك وعصابته بتسليم أحد الأفغان المعتقلين إلى السلطات الأمريكية، وقاموا بتصوير عملية التسليم في باغرام. ووصف جاك ذلك الأفغاني الذي تعرض للتعذيب بأنه «هدف ذو قيمة عالية»، غير أن الجيش الأمريكي أخلى سبيله دون توجيه أي تهمة إليه. أما أشهر سجناء إديما على الإطلاق فلم

يكـن معتقلاً بسبب علاقاته بالإرهاب، بل بسبـب منصبه بوصفه أحد كبار الشخصيات البشتونية، وقاضياً في المحكمة العليا الأفغانية.

لم يكن جاك يعلم أن التهديدات المتهورة التي كان يطلقها برعونة، والقضايا التي رفعها في المحاكـم، وأعمـال الغدر والخيانة التي ارتكبها بحق كثير مـن الناس، قد أوجدت شبكة متنامية من معارفه وأصدقائه السابقين الذين عقدوا عزمهم على وضع حد له. فهو لم يعد يحتج بوجود مؤامرة تستهدفه؛ لأنه هو الذي أوجد هذا الوضع الجديد بصنع يديه.

مـن بين هـؤلاء، محقق خاص غمطه جـاك حقه بنسبة 15% مـن عوائد قضية نجح فيها إديما، وشخص آخر يعمل في حقل الإغاثة الإنسانية احتال عليه جاك، ومؤلف قضى على سمعته، وضابط في الجيش استخدمه، والقائمة تطول. كوّن هؤلاء شبكة سرية لجمع وتبـادل المعلومات والوثائق بهـدف الكشف عن حقيقة إديما. كمـا أن عدداً من الوكالات الحكومية الأمريكية، والجيش، إضافة إلى أجهزة الإعلام، كانت تقوم بالتحقيق في نشاط جاك. مع العلم أن جاك لم يكن يعلم أي شيء عن هذه التحقيقات التي تحوم حوله.

كمـا أن جاك لم تكن لديه أدنى فكرة عن وجود جاسوس داخل منظمته، وهذا الرجل كان مهندسـاً يعمـل مع إديما في أفغانستان، وكان معجبـاً بشخصية جاك الجذابة وحبه لأعمـال الإثـارة. وبعد مضي بعض الوقت في التعامل معه، بـدأ هذا الرجل بإدراك جنون إديمـا وأخذ يلتقط صوراً لجاك وهو يعذب سجناءه الأفغـان، ويرسلها سراً إلى عدد من النـاس. والحقيقـة أن هـذا الجاسوس لم يكن بحاجـة إلى توزيع صور جـاك؛ لأن جاك نفسه كان يرسل تلك الصور وأشرطة الفيديو حول عملياته في محاولة منه لإقناع وسائل الإعـلام بشرائها. ومع ذلـك، لم يكن هنـاك من يريد اعتقال جـاك أو إيقافه عند حده. وطلـب جاك إلى وسائل الإعلام الدخول في مزاد لشـراء أشرطة الإرهاب الجديدة التي صنعهـا بنفسـه كاملة مع مشاهد الإثارة وهـو يرفس الأبواب ويعتقـل الأفغان. وشاهدت وسائل الإعلام تلك الأشرطة بذعر ولكنها لم تقل شيئاً.

أصبـح جاك يمثل جيشاً خاصاً بنفسه، يعاونه عدد مـن المتعاقدين المستقلين في هذه المهمة الجديدة لجني الأرباح من وراء التعذيب. أدى كاربالو دور المصور لمشاهد الإثارة،

ثم ترك الكاميرا تعمل لتسجيل التحقيقات. هل كان هذا العمل من قبيل العمل الصحافي، أم الترفيه، أم أنه توثيق للأدلة؟ يعتقد كثيرون أن قيام جاك بتلك الأعمال وعلى تلك الصورة من الجرأة والتهور قد دفعت إلى الاستنتاج أن إديما لا بد أنه كان يؤدي عملاً مهماً وسرياً، وبموافقة المسؤولين في الدوائر العليا من الحكومة الأمريكية. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة استخبارات الدفاع تستخدمان فعلاً ما يظهر أنه علاقات غامضة غير محددة مع جنود سابقين تحولوا إلى متعهدين أمنيين في أفغانستان، ولهذا السبب بدت عملية جاك منسجمة مع هذا النمط.

استغل جاك هذا الانطباع أيما استغلال، وربما حاول أن يرقى بنفسه إلى موقع الشخص الذي يتمتع بالحصانة الرسمية. ومع عدم وجود أي دليل يشير إلى أن إديما حقق ذلك، إلا أن اتصالاته بمكتب الفريق جيري بويكن نائب وكيل وزير الدفاع لشؤون الاستخبارات وإسناد العمليات العسكرية، تدل على أنه كان يحاول ذلك.

ويشتهر بويكن بإيلائه أذناً صاغية للأفراد الذين سبق أن خدموا في وحدات القوات الخاصة ويقومون بمهمات وطنية. وبدأ إديما بسلسلة من الاتصالات مع مكتب بويكن، وأضفى هدفهما المشترك في اجتثاث الإرهابيين طابعاً إيجابياً على الحوار، وشجّع المسؤولون الحكوميون في المراتب المتوسطة والدنيا جاك على تطوير معلومات استخبارية راسخة، ووعدهم جاك في رسالة إلكترونية مبهمة بأنه كان على وشك القيام بعملية دهم مهمة. وليس من المستغرب أن جاك كاربالو سجل المكالمات مع مكتب بويكن. وفي أثناء واحدة من تلك المكالمات، رد شخص يدعى جورغ شيم على الهاتف وأكد أنه نقل المعلومات إلى بويكن وأنهم سيراجعونه بشأنها، وهذه المكالمة على غرابتها، استخدمها جاك لإثبات ارتباطه بالجيش الأمريكي مع أن المكالمة تثبت أن جاك اتصل بمكتب بويكن وحسب. وكما يحب إد آرتيس أن يوضح ذلك بقوله: «هناك دوماً خيط من الحقيقة في كل ما يفعله جاك، ولكنه ينسج بساطاً كاملاً حول ذلك الخيط». وقد نفى كل جهاز من أجهزة الجيش الأمريكي نفياً رسمياً أي علاقة لهم بإديما. وأي اتصال بالمكتب الإعلامي في البنتاغون سيثير الرد القوي والحازم الآتي: «لا وجود لأي علاقة- وأكرر لا وجود أيٍّ علاقة من أي نوع مع إديما». والإجراء الاعتيادي المتبع في البنتاغون هو نفي أي ارتباط له مع أي شخص

مكلف بالقيام بعملية سرية لحسابه. ولا سيما إذا كان هذا الشخص قد أثار فضيحة كبرى. أما في حالة إديما، فإن البنتاغون كان يقول الحقيقة؛ لأن إديما كان يحرص على تصوير كل حركة يقوم بها، ولا سيما تلك التي كان يظهر فيها وكأنه يقوم بعمل مهم. ولو كان يعمل حقاً بموجب تفويض رسمي، لكان بيده دليل أقوى من الأدلة التي قدمها على وجود علاقة رسمية بالحكومة الأمريكية. ولو كان بويكن قد اتصل بإديما لكان في حكم المؤكد أن يكون كاربالو قد سجل تلك المكالمة. إضافة إلى ذلك، فإن قيام إديما بتسجيل الأشرطة ومحاولة بيع الأفلام التي تصور عملياته تجعل من المستحيل تصور أنه كان يدير برنامجاً بعلم وموافقة الحكومة الأمريكية.

والمفارقة العجيبة التي تبرز من هذه القضية هي أنه لو كان هناك متعهد أمني يعمل لحساب الحكومة الأمريكية لتمكن من تطوير علاقة حميمة مع وسائل الإعلام وكان يحاول الاستفادة المادية من المشاهد التي التقطها في عملياته المفترض أن تكون سرية، ولكان الجيش الأمريكي أسرع في إنهاء عقده، وأعماله، وإغلاق مقره. ومع أنه كان من الواضح أن إديما لم يحصل على تمويل أو دعم الحكومة الأمريكية، إلا أن قيام جاك بإدارة سجنه في عنوان ثابت في كابول عدة شهور على مرأى ومسمع المسؤولين الأمريكيين، يشير إلى أن هؤلاء المسؤولين كانوا على دراية بنشاطات وحدة سيف - 7، وأنهم ربما أقروا ضمناً باستمرار نشاطها وعدم إعاقتها. ومع كون ابن لادن حراً طليقاً، ومع وجود عناصر من طالبان والقاعدة تجوب شوارع كابول، فإن وجود عملية قابلة للإنكار التام، يديرها عسكري سابق تتطابق أهدافه مع الأهداف الأمريكية، لا بد أن تكون من الموارد التي تخدم أهداف الحكومة الأمريكية في أفغانستان. لكن هذه النتيجة تكون صحيحة لو استطاع إديما أن يحقق نتائج ملموسة. وفي ضوء غياب أي انجاز ذي شأن، إضافة إلى الفضائح المتصاعدة حول الأسلوب الذي كانت تتبعه وحدة سيف - 7، تعني أن إديما وأعوانه لم يستمتعوا بحرية عملهم مدة طويلة.

وحالما انتهى إلى علم أحد العاملين الأصليين في العمليات السرية -بيلي واه- ما يفعله إديما في أفغانستان، بدأ من فوره بإطلاق تحذيرات الإنذار: «أخبرت الجنرال براون من مركز قيادة العمليات الخاصة (سوكوم) أن إديما يقوم بضرب الناس ويدير

معتقلاً لسجناء الحرب... وقامت سوكوم بتوزيع ملصقات ومنشورات إلى وحدات الجيش الأمريكي تنصحهم بعدم التحدث إلى ابن الفاعلة. ووزعت هذه المنشورات والملصقات في باغرام، وطشقند، وفي كل مكان. كما قامت وكالة الاستخبارات المركزية بتوزيع تلك التعليمات. وقبل إلقاء القبض على إديما، كنت أحرص على إيصال التحذيرات إلى الجميع. لكن حين يأتي إديما ويقول للناس، مثلما قال لبويكن، بأنه يقوم بعمل مجاز من الحكومة الأمريكية، فهذا منتهى الذكاء». حتى إن الوزير الأفغاني يونس قانوني اعترف أن إديما خدعه حين دفعه إلى الاعتقاد بأنه يمثل الحكومة الأمريكية.

وفي 15 أيار/ مايو من عام 2004، وبعد سنتين ونصف من قيام إد آرتيس بتحذير المسؤولين الأفغان والأمريكيين من وجود رجل محتال، مسلح، منفلت، يجوب أنحاء أفغانستان، بدأت السلطات الأمريكية بتوزيع منشورات وملصقات تحمل صور إديما مرفقة بأمر «القبض عليه أينما وجد». ومع ذلك، فإن إلقاء القبض على إديما وأعوانه لم يتحقق إلا في الخامس من تموز/ يوليو حين اقتحمت قوة من الشرطة الأفغانية منزله في كابول.

وكما هو متوقع، فقد أصر إديما على أنه يقوم بعملية في غاية السرية، وأنه يعمل بموافقة السلطات العليا. وقدم جاك أدلته، وهي المكالمات التي أجراها مع مكتب بويكن، إلا أن بويكن لم يكن على استعداد للقول: إنه يقر جاك على نشاطاته. وأصر إديما أيضاً أن بحوزته سجلات لمكالمات أجراها مع مكتب رمسفيلد وغيره من المسؤولين. وتبين أن السجلات كانت صحيحة، إلا أنها تثبت أنها كانت مكالمات استعلامية من طرف واحد.

وبعد محاكمة قصيرة- وهَزْلِيّة بكل المعايير- دانت الحكومة الأفغانية كلاً من إديما، وبنيت، كاربالو بجرم إدارة سجن غير مشروع وتعذيب مواطنين أفغان. وحكم على إديما وبنيت بالسجن عشر سنوات لكل منهما، وعلى كاربالو بالسجن 8 سنوات. غير أن العقوبة خفضت إلى 5 سنوات لإديما، و3 سنوات لبنيت، وسنتين لكاربالو.

وعلى الرغم من إيداعهما في أكثر السجون الأفغانية شهرة، وهو سجن بوليتشاركي، إلا أن وحدة سيف 7 تمتعت فيه بأفضل ما هو متوافر من وسائل الرفاهية والأبهة. ويقال:

إن إديما قام برشوة آمر سجن بوليتشكاري، وهو لواء طاجيكي اسمه فهيم، للسماح له بوضع سجاد وكنبات في غرفته، إضافة إلى هاتف يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، ونقطة اتصال بالإنترنت. وأفرج عن كاربالو في ربيع 2006 بعد أن أصدر الرئيس الأفغاني كرازاي عفواً بحقه بمناسبة السنة الأفغانية الجديدة، في حين استمر إديما الذي يمضي في السجن بقية المدة التي حكم بها عليه، في نشر موقعه الإلكتروني، وإجراء المقابلات مع المتعاطفين معه، والمجاهرة بأنه بريء من كل التهم التي نسبت إليه، ولعن المؤامرة التي تحول بينه وبين شن حربه الخاصة على الإرهاب.

يفترض الذين قابلوا إديما في أفغانستان أن ثمة شيئاً أكثر أهمية في هذه القضية، وأن شخصاً قوياً يقف خلف واجهة هذا الشخص الشديد. أما الذين يعرفون إديما حق المعرفة، فيرون فيه شخصاً محتالاً، وضيعاً، فضح نفسه في سعيه المستميت نحو الشهرة والمال. أما مالك فندق مصطفى في كابول، فينحو منحىً تهكمياً هزلياً تجاه إديما بقوله: «إن الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يسمح لجاك أن يهاجم هو فاتورة الحانة التي كان يرتادها في الفندق». وقد تكبد آخرون خسائر مالية، وعاطفية، ومهنية بسبب الدعاوى القضائية المتكررة، وحملات التشهير، والإساءة إلى السمعة، والحملات العدوانية المفرطة التي اقترفها جاك في حق أصدقائه السابقين.

إن السهولة التي تمكن بها شخص مجرم واضح الإجرام في الظهور بمظهر المتعاقد الأمني، وقيامه بتمثيل عملياته شبه العسكرية، هو نذير خطر حول تزايد انتشار المتعاقدين الأمنيين المستقلين. وينحو بيل هاغر، وهو محقق خاص سبق له أن تعامل مع إديما، بالمسؤولية على العالم الغامض للعمليات السرية «إنه العالم الذي لا يمكن فيه للجيش أن يثبت أو ينفي ارتباطه بالقائمين بهذه العمليات. وهذه أرض خصبة للأشخاص المحتالين من أمثال إديما».

الفصل العاشر

أساس النموذج العصري للمرتزقة

«أنا أساس نموذج الجنرال العصري،

لدي معلومات النباتات، والحيوانات، والمعادن،

وأعرف ملوك إنجلترة، وأروي أحداث المعارك التاريخية والملاحم،

من معركة الماراثون إلى واترلو، بترتيب قطعي؛

وأظن أنني بمعلوماتي العسكرية مقدام مغامر،

ومع أنني لم أسقط إلا في بداية القرن؛

إلا أنني في قضايا النباتات، والحيوانات، والمعادن،

لا أزال أساس نموذج الجنرال العصري».

- غيلبيرت وسوليفين في «قراصنة بينزين»

في ليلة باردة من شتاء لندن القارس، وبعد أن أغدف الظلام، وصل مايكل غرونبيرغ إلى المطار ليحملني بسيارته الجديدة من طراز بنتلي المجهزة بمحرك ذي اثنتي عشرة أسطوانة إلى بيته. كانت أضواء إنارة الشوارع تنحني ثم تنساب على غطاء محرك السيارة الأسود اللامع. وكانت رائحة الجلد الثمين تنتشر داخل السيارة، وتسطع فيها الأضواء الباهته من خلف مفاتيح لوحة التحكم الأمامية. يملك غرونبيرغ منزلاً فارهاً من المنازل الأثرية في ضاحية من الضواحي المترفة في لندن. وله أيضاً منازل في غرينزي[1] وباريس. وقد حقق غرونبيرغ، وهو ابن لصانع ألبسة، قدراً كبيراً من الثراء ليس من

1- جزيرة صغيرة تقع في القناة الإنجليزية إلى الشمال الغربي من فرنسة.

مهنة المحاسبة التي ينتمي إليها وحسب، بل من كونه مؤيداً حذراً لتصدير وبيع الخدمات العسكريـة الخاصة. لقد أدى مايكل دوراً مهمـاً في خلق فكرة الحروب المخصخصة على مدى السنوات العشر الماضية والترويج لها، مع أنه لا يمت إلى العسكرية بصلة. وقد كان عميلاه توني بكنغهام وسيمون مان هما اللذين صاغا في الأصل رؤية وضع أعمال المرتزقة في قالـب شركاتي عصـري، إلا أن الفضل يعود إلى غرونبيرغ في وضع التفاصيل الهيكلية للعقود الراسخة المحكمة، والدعاية الإعلامية الإيجابية من وراء الكواليس لهذه الفكرة.

وبعـد أن تخطينا تماثيـل زعماء سياسيين، وقادة عسكريـين، وتحفاً تذكارية لحروب وقعـت في أماكـن بعيدة، شرع غرونبيرغ بشـرح الخطوط العريضة لتاريـخ نشأة شركتي النتائـج التنفيذية وساندلايـن، وهما المحاولتان الأوليان الأصيلتـان في تسعينيات القرن الماضـي لخلق هيكل شركاتـي لبيع الخدمـات العسكرية المخصخصة وأعمـال المرتزقة بطريقـة علنية وبارزة. إن فهم ارتقاء وأفول هذين المثالين القديمين للشركات العسكرية الخاصة، وبواعـث وطموحات اللاعبين الأساسيين وراء هذيـن المشروعين سيفتح نافذة تكشـف أمامنا الاحتمـالات المستقبلية لهـذه الصناعة غير الخاضعـة للتنظيم والرقابة التـي تقوم على بيع الخدمات العسكرية وتأجير الرجال المسلحين. إنها معاينة ترينا كيف قـام مزودو العنف المنظم بإتقان وشحذ هذه الخدمـة في الوقت الذي كانوا يخدمون فيه الرب والوطن، واستغلالها لتحقيق مصالح شركاتية أو غيرها من المصالح الأخرى. قلت لغرونبـيرغ بأنني مهتم على نحو خاص بالدور الـذي أداه تموثي سبايسر الرئيس السابق لشركـة ساندلايـن؛ لأنه خرج من فضائـح المرتزقة في التسعينيـات بأقل قدر ممكن من التشويـه في سمعته، ثم حقق بعد ذلك نجاحاً باهراً بعد أن أعاد تشكيل نفسه على صورة مزوّد محترم لخدمات الأمن الخاص.

تعـد بريطانية أفضل مكان لفهم الجنـود المرتزقة والجوانب الخفية الدقيقة والمعقدة للحروب المخصخصة. وتعج مدينة لندن بالمعالم التي تذكرنا بقدرة الحروب على تشكيل العـالم وبالمنافـع التجارية المنبثقة عـن السيطرة علـى إمبراطورية استعماريـة شاسعة متراميـة الأطراف. وهنا في لندن، ساعدت المساعي لتحقيق الأهداف القومية والتجارية والتجنيـد الدولي، في دفع هيمنة الإمبراطورية البريطانية علـى العالم. وأفضت النظرة

الفيكتوريـة للحروب التي تشن بالإنابـة إلى تدريب مواطني الأمم الأخرى لخوض حروب امتـدت من أفغانستان إلى بورينو، وإلى ارتقاء جنـود المستعمرات السابقة كالغورخا إلى صفـوف جيشـ جلالة الملكـة، وإلى استئجار الضبـاط الإنجليز لتقـديم المشورة للحكام الأجانـب في عُمَان. وتعد مهارات خوضـ الحروب وأدواتها من أهم الصادرات الأساسية للمملكة المتحدة. وقد نُسجت الثقافة العسكرية في إنجلترة من تصدير القوة، وإخفاقات النبـلاء، والاكتشافـات المثـيرة، واستخدام المرتزقـة في الأماكن النائيـة، والانتصارات المشهورة، من الحبشة إلى بلاد ما بين النهرين، ومن ساروواك[1] إلى أمريكة. وليس هناك شيء يماثل الثقافة العسكرية البريطانية في تعقيداتها وألوانها وتاريخها.

أوجـد القراصنة والمغامـرون الأسطوريون البريطانيون من أمثـال السيد وولتر راليه وراجـاه جيمس بـرووك، الصورة المتفاخـرة المتهورة لرجـال أعمال القرصنـة المرتزقة المدعومـين من الحكومة، الذين كانت تـزداد ثروتهم وتنقص بمقدار تلبيتهم لاحتياجات الملـك. ولكنهـم كانوا أيضاً خاضعين لتوجيـه التاج البريطاني. وكانـت عبارة «المرتزقة» غالباً ما تستخدم من قبل الأطراف الواقعة تحت الاحتلال استخداماً لا يخلو من التحقير والازدراء؛ لأن الرجـال الذيـن يقاتلـون من أجل المـال وليس من أجل قضيـة ما، يعدون أشخاصاً منقادين بمصالحهم المادية الشخصية الضيقة. وترتبط كلمة «المرتزقة» اليوم بعبارة «الإجرام» في نظر الأمم المتحدة وكثير من الحكومات. مع أن هذه الحكومات تقوم بتوظيف المرتزقة ودعم الجيوش التي تقاتل بالإنابة في عمليات سرية.

ولا يـزال المرتزقـة الأوروبيون وجيوش العـالم الثالث التي تقاتـل بالإنابة تمثل أدوات للسياسة الخارجية في أمريكة اللاتينية، وإفريقية، والشرق الأوسط. ومن بين أبرز جنود المغانم من عهد الحرب الباردة بوب دينارد، ورولف ستاينر، و«بلاك جاك» شرام، ومايك «المجنون» هوار، وجميعهم ينحدرون من خلفية عسكرية، وجرى توظيفهم من قبل أجهزة الاستخبـارات أو حـكّام أجانـب لتدريب أو قيـادة قوات مسلحة في «حـروب قذرة». قاتل مايـك هـوار في الكونغو أوائل ستينيـات القرن الماضي، ثم أفلـت في اللحظة الأخيرة من محاولة مخفقة للانقلاب في جزر سيشل. أما ستاينر فقاتل في بيافرة في بداية ستينيات

1- جزيرة صغيرة تقع في القناة الإنجليزية إلى الشمال الغربي من فرنسة.

القرن الماضي، ولكنه سجن وتعرض للتعذيب في السودان على مساعدته ثوار الجنوب الانفصاليين. ومنذ عام 1968 وحتى عام 1988، كان دينارد هو الحاكم الفعلي لجزر القمر بعد أن أطاح بالحكومة السابقة بانقلاب عسكري. وتجري الآن محاكمته في باريس على محاولته العودة ثانية إلى جزر القمر عام 1995 للقيام بانقلاب آخر.

ربما لم يكن الرجال الذين كانوا يقفون وراء شركتي النتائج التنفيذية وساندلاين هم أنفسهم من المرتزقة بالمعنى التقليدي، غير أن أشخاصاً مهمّين في تلكما الشركتين كانوا يسعون إلى استغلال الفرص التجارية التي تتطلب قتل الناس والقيام بعمليات عسكرية، بغض النظر عن التسميات الزائفة التي أطلقت عليها «كالبرامج التدريبية»، أو «الأدوار الاستشارية»، و «عمليات المحافظة على الاستقرار». وعلى العكس من أكثر العسكريين الذين يعدون الحرب نشاطاً مدمّراً، ومؤذياً نفسياً، ينظر مايكل غرونبيرغ المحاسب المستأجر إلى الحرب نظرة مجردة من العاطفة، بوصفها نشاطاً تجارياً- أي الاستعمال المربح للمكونات الأساسية الرخيصة مثل جنود جنوب إفريقية، وأسلحة أوروبة الشرقية، وإدارة من أوروبة الغربية، ضمن حزمة إنجاز كامل محكمة السبك. إنها مشروع تجاري استفاد منه مايكل أيما استفادة، بالنظر إلى الحياة المترفة التي يعيشها. أما بقية اللاعبين في تلك التجارب الأولية للشركات العسكرية الخاصة، فكان مصيرهم كالآتي: يقبع سيمون مان في الوقت الراهن في سجن في زيمبابوي بسبب دوره في «المحاولة الفاشلة» لتغيير نظام الحكم في دولة غينية الاستوائية الصغيرة الغنية بالنفط؛ أما توني بكنغهام فمنشغل بإدارة موارده النفطية الآخذة بالتصاعد يوماً بعد يوم، التي اكتسب أكثرها من مشروعات استثمارية في مناطق تسودها الحروب والنزاعات؛ وأما تموثي سبايسر فيرأس شركة إيجيس للخدمات الدفاعية التي تُعَدُّ المزود الرئيس للخدمات الأمنية في دوّامة الاضطراب الهائل التي تسمى العراق. ومع أن كل واحد من هؤلاء سار في درب مهني مختلف في الألفية الجديدة، إلا أنهم جميعاً خرجوا من رحم النتائج التنفيذية/ساندلاين أو من «الشركة العسكرية الخاصة» في تسعينيات القرن الماضي.

أسس بكنغهام، في مطلع تسعينيات القرن الماضي، شركة سمّاها هيريتج غروب (مجموعة التراث)، وهي شركة مخصصة للتنقيب عن النفط والموارد الطبيعية الأخرى

في باطن الأرض. ويصف توني نفسه بحسب ما نشره في الموقع الإلكتروني التابع للشركة بأنه «رجل أعمال حر، وله اهتمامات تجارية دولية واسعة، ولا سيما في إفريقية». وكانت بداية نشاط بكنغهام في القطاع النفطي حين عمل غواصاً في بحر الشمال في عمليات التنقيب عن النفط، ثم عمل وسيطاً مفاوضاً في عقود امتياز النفط لمصلحة عدد من الشركات النفطية من بينها رينجرز أوبل ليميتد، وبرايمر أويل بي إل سي. وفي تسعينيات القرن الماضي عمل توني مفاوضاً لإبرام صفقات تجارية في عُمان، وأوغندة، وناميبيا، وأنغولا، وحتى في العراق- وهو عمل تحوّل بفضله إلى واحد من أثرياء النفط. وكان بين سيمون مان وتوني صداقة بحكم هواية الطيران التي جمعت بينهما؛ وقادا سيارة من نوع آستون مارتين دي بي 4 موديل 1964 في سباق للرالي، وأبحرا معاً في يخت توني، ودار بينهما حديث حول المال الذي يمكن جمعه في دول العالم النامي. وكانت نظرة سيمون وتوني إلى تقديم الخدمات الأمنية تختلف عن نظرة كثير من المستثمرين، فهما يعدان الخدمة الأمنية منصة قفز نحو جمع الثروة من الموارد القابلة للاستغلال مثل الماس، والنفط، والمعادن النفيسة.

وفي عام 1992، ساعدت علاقات سيمون مان في أنغولا في تسهيل حصول توني على عقد امتياز نفطي قبالة الشواطئ الأنغولية في المياه غير العميقة لاستغلال حقل يسمى بلوك 4، وقام بكنغهام بالتفاوض بشأن مشروع مشترك بين شركته هيريتج غروب وشركة أخرى مقرها كالفاري تدعى رينجر أويل وست آفريكة المحدودة واختصاراً روال. واستثمرت شركة رينجر 2 مليون دولار؛ لكي تقوم شركة هيريتج ببناء منصات نفطية وقبلت أن تكسب شركة توني 10% من عوائد المشروع المشترك. ومع حلول عام 1993، واجه مشروع توني بكنغهام مشكلة عويصة، إذ استولت عصابات يونيتا على ميناء تصدير النفط في مدينة سويو واحتجزت معدات التحكم الثمينة التي تستخدم في تشغيل منصة حفر بحرية عائمة في عملية استخراج النفط من الحقل يطلق عليها نورث سي بايونير. ودون هذه المعدات الموجودة في الميناء فإن نورث سي بايونير تتحول إلى صفيحة حديدية ضخمة غالية الثمن عديمة الفائدة تطفو قبالة الساحل الأنغولي. كان توني يدفع قرابة 20 ألف دولار في اليوم الواحد أجرة المعدات البحرية التي تستخدم في استخراج

النفـط وضخه إلى الميناء، وكل يوم يتوقف فيه العمل يعني خسارة كبيرة لبكنغهام تتمثل في الأجرة التي يدفعها لتلك المعدات والخسارة في الدخل الفائت.

حاول توني والحكومة الأنغولية التفاوض مع قوات يونيتا، ولكن لما كانت عائدات النفط ستثري حكومة دو سانتوس، فإن الثوار رفضوا الدخول في تلك المفاوضات. وفي هذا الظرف العصيب، اتصل توني بريتشارد بيثيل (اللورد ويستبري) الذي كان وقتها يرأس شركة أمنية تدعى دي إس إل. وطلب توني بيثيل إن كان باستطاعة هذا الأخير تدبير عملية لإغراق المعدات؛ كي يتمكن من تحصيل مبلغ التأمين، ولكن بيثيل رفض الفكرة وقال لتوني»،إن غرق منصة استخراج نفط مصممة للعمل في المياه العميقة قبالة شاطئ ضحل لا يمكن أن تنطلي حتى على أبلد المحققين العاملين في شركات التأمين». ثم حاول توني حث سانتوس على تكليف جيشه بتحرير الميناء. لكن كان من الواضح أن الجيش الأنغولي المنهك لم يكن يملك القدرات التي تمكنه من تنفيذ تلك المهمة. ولمّا كان سيمون مان هو الذي ورط صديقه بكنغهام في أنغولا، وبعد أن أدى الاقتتال إلى تكبيل استثمارات توني في ذلك البلد، شعر سيمون مان بالمسؤولية تجاه مساعدة صديقه في الخروج من تلك الورطة. وعرّف سيمون مان توني إلى صديقه إيبين بارلو الذي ينحدر من جنوب إفريقية، وهو مؤسس شركة النتائج التنفيذية في بريتورية عام 1989. وعمل بارلو في السابق لدى وكالة التعاون المدني (سي سي بي) وهي الذراع الاستخباراتي لحكومة التمييز العنصري في جنوب إفريقية، وعمل أيضاً قائداً مساعداً لكتيبة الجواميس- 32. وأطلق على هذه السرية لقب الجواميس؛ لأن أكثر عناصرها (70%) منهم كانوا من السود، غير أن الضباط كانوا من الأفارقة البيض ذوي الأصل الهولندي. وتتخصص سرية الجواميس- 32 في الحروب غير التقليدية وسط الأدغال. وفي عهد الحكم العنصري، كانت هذه السرية تنفذ عمليات بعيدة المدى في مطاردة الثوار وتعقب الإرهابيين والثوار الشيوعيين إلى قواعدهم عبر الحدود مع أنغولا وناميبية. وكانت وكالة التعاون المدني أساساً وكالة «للحيل القذرة»؛ إذ كانت تقوم بعمليات اغتيالات للأعداء في دول أجنبية، وتقوم بنشر الدعاية الإعلامية المضللة، والتقارير الإعلامية التي تهدف إلى تلميع صورة نظام الفصل العنصري. وبحكم عمله وخبرته في تنفيذ العمليات السرية

في جهاز مخابرات جنوب إفريقية، كان بارلو يعرف تمام المعرفة الجانب الأسود من الحروب، والاغتيالات، والحرب النفسية، والإنكار، ومنظمات الواجهة. وكان يعلم أيضاً أن باستطاعة رهط من الرجال المدربين تدريباً جيداً، المسلحين بالأسلحة الحديثة أن يقدموا خدمات ثمينة إلى رجال الأعمال والقادة السياسيين. ويمكن التعرف إلى الهدف من مشروعه التجاري الجديد بنظرة واحدة إلى الشعار الذي اتخذه لشركته: وهو قطعة حصان من لعبة شطرنج وتحته عبارة «خذ بندقيتك، سوف نسافر».

بعض أوائل عملاء بارلو كانوا من بين أصحاب المزارع الكبيرة الذين يعانون من تعدي الصيادين غير المرخصين على مواشيهم وأملاكهم، إضافة إلى بعض العقود المحلية الصغيرة -بما في ذلك عقود تدريب لقوات دفاع جنوب إفريقية- مع أنه كان دوماً يتحسس ويسعى إلى تأمين مشروعات جديدة. وضع بارلو مطوية دعائية تتحدث عن برنامج متكامل للتدريب في مجالات أعمال التخريب، والعمليات التي تنفذ خلف خطوط العدو، والأسلحة - وهي تلخيص لما كان هو وأعوانه يقومون به في أثناء خدمتهم العسكرية. وحين اتصل سيمون مان ببارلو نيابة عن صديقه بكنفهام بخصوص المشكلة الصغيرة التي يواجهها في أنغولا، كان بارلو مستعداً لاقتراح حل يقوم على استخدام جنود مرتزقة.

قدمت الفرصة التي لاحت لشركة النتائج التنفيذية لخوض القتال لمصلحة سانتوز ضد عصابات يونيتا دليلاً على أن المرتزقة يضعون المال فوق الاعتبارات الأخلاقية؛ لأن بارلو وجنوده السابقين من الكتيبة - 32 الذين أمضوا حياتهم المهنية في القتال إلى جانب ثوار يونيتا ضد نظام سانتوز والحركة الشعبية لتحرير أنغولا (إمبالا)، سيقاتلون الآن في صف عدوهم اليساري السابق ضد حليفهم السابق المدعوم من الولايات المتحدة.

خاطب سيمون وتوني شركة النفط الحكومية سونانغول للتعاون أو بعبارة أكثر تحديداً – طلباً للدعم المالي– ولوضع خطة لتحرير معدات توني المحتجزة واستئناف ضخ عوائد النفط إلى جيب الحكومة. وحين سئل توني بكنفهام عن تكلفة تحرير ميناء سويو، اقترح مرتجلاً رقماً لا يستند إلى أي حسابات وهو 10 ملايين دولار. استفسر المدير الأنغولي عن معلومات حساباتهم المصرفية. ويتذكر أحد الذين حضروا الاجتماع أن البهجة كانت تطغى على المهتمين بهذا المشروع؛ إذ إن مجرد ذكر الملايين رفعت من مستوى تحفزهم

للعمل. وبعد ذلك، كان سيمون يجلس في المقعد الخلفي لطائرة ميغ أنغولية في مهمة استطلاعية وجمع المعلومات اللازمة للقيام بالعملية».

في البداية، كانت الخطة أن تقوم شركة النتائج التنفيذية بتقديم التدريب، والمعدات، والمساندة للجيش الأنغولي لتحرير ميناء تصدير النفط. غير أن العجز الظاهر في الجيش الأنغولي في أن يكون قوة مقاتلة دفع القائمين على الشركة إلى أن يكونوا هم رأس الحربة في العملية. وباستخدام بضع عشرات فقط من مجندي النتائج التنفيذية- أغلبهم مقاتلون أفارقة من أنغولا وناميبية وجنود سابقون من كتيبة 32 – تولى لافراس لوتينغ قيادة مرتزقة النتائج التنفيذية على متن سفينة من المحور البحري، كما استخدمت الطائرات المروحية، إضافة إلى كتيبتين أنغوليتين لتقديم الإسناد والدعم. وبعد أن دفع الهجوم ثوار حركة يونيتا إلى التراجع والانسحاب من الميناء، استعادت الحكومة الأنغولية سيطرتها على الميناء وعلى معدات توني. لقي ثلاثة من المرتزقة من جنوب إفريقية حتفهم في معركة سويو، وجرح عدد كبير منهم. وسحبت شركة النتائج التنفيذية بقية العتاد بعد انتهاء المهمة بنجاح. ومع وقوع الميناء تحت حماية الأنغوليين، أعادت قوات يونيتا الكرة بهجوم جديد وتمكنت من استعادة السيطرة على الميناء بعد عدة أشهر.

أدرك سانتوز بعد أن أعجب بالنجاح الكبير والسريع للعملية التي نفذتها شركة النتائج التنفيذية أنه سيحتاج إلى دعمهم مرة أخرى في مواجهة تقدم ثوار يونيتا ووضع حل طويل الأمد لهذه المشكلة. أرسل دو سانتوز طائرة خاصة لإحضار توني من لندن إلى أنغولا لمناقشة عقد طويل الأمد لتدريب الجيش الأنغولي. وانتهى المطاف بالاثنين إلى الاتفاق على صفقة تلبي حاجة أنغولا إلى قوة أمنية فاعلة وسريعة الحركة وحاجة النتائج التنفيذية إلى العائد المالي. كان الثوار يسيطرون على المناطق التي تحتوي على مناجم الماس، وكان أحد الأهداف الأساسية من السيطرة عليها هو حرمان سافيني من الدخل المالي الذي توافره تلك المناجم. لم يكن صعباً توقع من سيكون أول المساعدين في استغلال وتطوير المناطق المحررة.

وإدراكاً للحاجة المستقبلية لجيش مؤسسي خاص جاهز وقادر على تقديم الأمن والحماية في المناطق التي تعاني من عدم الاستقرار، قام الشركاء الجدد بتسجيل شركة

جديدة تحت اسم النتائج التنفيذية في بريطانيا للقيام بتنفيذ العقد الأنغولي بوصفه عملية مشتركة بينها وبين شركة النتائج التنفيذية التي تتخذ من جنوب إفريقية مقراً لها. ومع أن الوثائق التي استخدمت في تأسيس الشركة الجديدة تدرج اسم إيبين بارلو وزوجه سوزان بوصفهما المالكين للشركة، إلا أن جميع الحسابات تشير إلى أن سيمون مان وبكنغهام كانا هما القوة الحقيقية وراء الشركة الجديدة. ومع وجود مكاتب لها في جنوب إفريقية والمملكة المتحدة وعقود مجزية في أنغولا، لم يكن ينقص النتائج التنفيذية سوى عملاء ثابتين لتحويل نفسها إلى مؤسسة تجارية متعددة الجنسيات، متكاملة النمو. وبدأ العمل بتجنيد المتعاقدين على الفور، لكن ليس قبل اتصال سيمون بصديقه في الحرس الاسكتلندي، تم سبايسر؛ كي يعرض عليه منصباً تنفيذياً في الشركة الجديدة. ولما كان سبايسر مستمراً في الخدمة العسكرية ويطمح في حصوله على ترقية وشيكة، فإنه اعتذر عن عدم تلبية دعوة صديقه بحجة أنه على وشك تقلد منصب قيادي طال انتظاره.

وفي حين كان مان وعصبته في النتائج التنفيذية يتصورون أنفسهم أنهم طلائع هذه الصناعة الجديدة، فقد تحتم عليهم تحقيق نجاح في أول عملية لهم قبل الإعلان عن العصر الذهبي الجديد للمرتزقة العصرية. كانت العقبة الأولى التي واجهتهم تتمثل في تدريب جيش حكومي منهك القوى، سيئ التسليح، سيئ الانضباط، عديم الخبرة، وإلى حد ما غير مبال. ومع أن العقد الأولي نص على أن تقوم شركة النتائج التنفيذية بتدريب وتسليح الجيش الأنغولي، إلا أنه سرعان ما تبيّن أن ذلك وحده لا يمكن أن يحوّلهم إلى قوة مقاتلة فاعلة. قام مان وبكنغهام بإعادة التفاوض بشأن العقد بحيث يسمح لهم -وللمرتزقة التابعين لهم- بالتحرك في عمليات قتالية كاملة، رافعين قيمة العقد إلى 100 مليون دولار لمدة سنة واحدة، ثم مدد العقد إلى ثلاث سنوات بقيمة 300 مليون دولار.

وكما هي حال الجنود السابقين الذين يتحولون إلى متعاقدين أمنيين، فإن المتعاقدين الذين وظفتهم شركة النتائج التنفيذية يتلقون أضعاف ما كانوا يتقاضونه في مهنتهم السابقة في الجيش. كان يدفع للذين يعملون على خط المواجهة، وهم في أكثرهم من الأفارقة السود من أنغولا، وناميبية، والجنود السابقين في كتيبة 32 الجنوب إفريقية راتباً يبلغ ألفي دولار أمريكي في الشهر، أما الأوكرانيون والطيارون الأجانب الآخرون،

فكانوا يكسبون عشرة آلاف دولار في الشهر، أما معدل ما يتقاضاه الضابط فكان زهاء 4 آلاف دولار، وهذا المبلغ يعادل أربعة أو خمسة أضعاف ما كانوا يتقاضونه في جيش جنوب إفريقية. ولسنا هنا أمام جزء من جيش من المرتزقة البيض على غرار بوب دينارد أو مايك هوري، بل أمام إعادة تشكيل مخصخصة للهيكل الكلاسيكي في مكافحة الإرهاب المؤلف من الأفارقة البيض يقودون ويقاتلون جنباً إلى جنب مع رجال القبائل الأنغولية والناميبية. ونتيجة لقرار حكومة جنوب إفريقية حل وتسريح كتيبة 32، فإن ما تتطلبه تعبئة المقاتلين للعمل مع شركة النتائج التنفيذية هو إجراء مكالمتين هاتفيّتين فقط.

لما كان أكثر أفراد كتيبة 32 قد سبق لهم أن شاركوا في عمليات قتالية ضد الأمم والدول التي يحملون جنسيتها في المدة الممتدة بين السبعينيات والثمانينيات، فقد وجد هؤلاء الجنود أنفسهم لاجئين دون موطن يمكنهم العودة إليه دون الخوف من الملاحقة القضائية بعد أن استغنت عنهم قوات الدفاع في جنوب إفريقية. وفي خطوة هي جزء من عملية تحوّل جنوب إفريقية إلى حكم الأغلبية، وافقت حكومة جنوب إفريقية على منح جميع الأجانب الذين قاتلوا ضمن كتيبة - 32 جنسية الدولة؛ كي يتمكنوا من توفير عيش كريم لأنفسهم ولأولادهم. وفي خطوة تعكس تنكر المجلس القومي الإفريقي (إي إن سي) واستياءهم من دفاع الجنود السود عن النظام العنصري، فقد عمدت الحكومة الجديدة إلى توطين هؤلاء الجنود السابقين في قاعدة عسكرية مهجورة كانت تابعة لقوات الدفاع، وقد جاء قرار التخلي عن هذه القاعدة بسبب المخاطر الصحية التي تسببها مناجم الإسبست في المنطقة. تقع مدينة بومفرت في منطقة جدباء على طرف صحراء كالاهاري، على بعد 100 ميل من أقرب مدينة مأهولة. وفي ظل عدم وجود أراض زراعية تصلح للفلاحة، أو مناطق صناعية توافر فرصاً للعمل، فقد وجد الجنود السابقون أنفسهم في حالة من البؤس وانعدام الفرص في مواجهة مستقبل قاتم من الفقر والجوع. وكانت المشاركة في حروب الآخرين هي الوسيلة الوحيدة لتوفير لقمة العيش لأسرهم، وكانت أعداد المتحفزين للمشاركة أكثر من الطلب.

قد تُعَرِّض عمليات النتائج التنفيذية حياةَ الجنود السابقين للخطر، إلا أن ذلك يمكن أن يكون مخاطرة محسوبة. فحروب الأدغال الإفريقية عادة ما تبدأ بإطلاق نار حاد

لمدة قصيرة إلى أن يقرر أحد الطرفين أن الطرف الآخر على وشك اكتساحه، فيقرر الانسحاب ليعيد ترتيب صفوفه ويعاود الكرَّة مرة أخرى في اليوم اللاحق. أما المخاوف الأكثر خطورة، فهي احتمال الإصابة بجراح مقعدة، أو أسوأ من ذلك الوقوع في الأسر. وفي حين أن بعض المرتزقة أو قادة الثوار الأفارقة قد سمعوا من وقت لآخر عبر تاريخهم الطويل في القتال بعبارة «اتفاقية جنيف»، إلا أن الجماعاتِ المسلحةَ وجيوشَ المرتزقة ليست بحاجة إلى عدّ نفسها ملزمةً بنصوص معاهدة مصممة لوضع قواعد تحكم الحروب بين الدول الموقعة عليها وعلى الرغم من الأخطار التي يواجهونها، إلا أن رجال بومفرت كانوا في أمسّ الحاجة لكسب لقمة العيش لأسرهم، وكانت النتائج التنفيذية قادرة على نشر جيشها الصغير المكوَّن من عدة مئات من الجنود في وقت قصير.

وساعد الدعم الجوي المتوافر لشركة النتائج التنفيذية، والتكتيكات غير التقليدية، واستخدام الأسلحة المتطورة مثل القنابل المتصة للأوكسجين من الهواء، ساعدت في ترجيح كفة ميزان القوى في النزاع. وقد قام المقاتلون من النتائج التنفيذية والجيش الأنجولي بدحر قوات حركة يونيتا من جميع المناطق المنتجة للماس. وقد أدى الهجوم السريع إلى دفع مقاتلي حركة يونيتا إلى طاولة المفاوضات. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1994، وقع طرفا النزاع على بروتوكول لوساكا، منهيين بذلك حرباً دامت ثلاثة عقود من الزمن.

ومع أن يونيتا أضافت مطلباً محدداً إلى اتفاقية السلام ينص على أن تغادر النتائج التنفيذية البلاد، إلا أن الأمر احتاج إلى تدخل حكومة الرئيس الأمريكي كلينتون وتهديدها بمنع وصول مساعدات الأمم المتحدة إلى أنغولا لكي يقطع سانتوز علاقته بشركة النتائج التنفيذية، فاضطرت إلى الانسحاب في كانون الثاني/ يناير من عام 1996 قبل انتهاء مدة العقد المبرم بينها وبين الحكومة الأنغولية. لم تكن حكومة كلينتون ترغب في إجبار سانتوز على التزام أحكام اتفاقية لوساكا بقدر ما كانت ترغب في أن تستبدل الحكومة الأنجولية بشركة النتائج التنفيذية شركة عسكرية خاصة أكثر انسجاماً مع الحساسيات السياسية اللائقة: وهي شركة المصادر العسكرية المهنية، واختصاراً (إم بي آر آي)، وتضم مجموعة من الجنرالات الأمريكيين المتقاعدين والمتعاقدين الأمنيين يقومون

بتدريب الجيوش الأجنبية بما يخدم السياسات الأمريكية. لم تكن فكرة أن يقوم جنود مرتزقة بدعم نظام دكتاتوري غني بالنفط فكرة مستساغة. وكانت الولايات المتحدة تفضل أن تقوم شركة أمريكية خاصة من عندها بتدريب الجيش الأنجولي ودعم النظام الدكتاتوري الغني بالنفط مقابل مبلغ أقل مغالاة في الأجر هو 2 مليون دولار في السنة.

ومع أن الصفقة الأنجولية المربحة للنتائج التنفيذية انتهت نهاية مفاجئة وسريعة، فلم يكن لدى مان وبكنغهام أسباب للقلق بشأن الفرص المستقبلية؛ إذ نجحت النتائج التنفيذية نجاحاً باهراً في تقديم خدمة قوتها المقاتلة المؤلفة من جنود محترفين في حل النزاع الأنغولي المزمن، وقدمت نموذجاً عملياً جديداً لحروب المرتزقة المعاصرة. وبذلك ولد نموذج جديد تقوم بموجبه الشركات الداعمة بدفع المال لتقديم الخدمات الأمنية مقابل حصولها على ضمانات وتأكيدات بالحصول على نسبة محددة على استثمارها. وبذلك يمكن لزعيم دولة ما، ورئيس شركة نفطية الاستفادة من العلاقة التوءمية التي يستفيد منها الاثنان من التدفق غير المنقطع للنفط، أما السياسة، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، وغيرها من الاعتبارات الدافئة والغامضة التي ينعم بها، ويتوقعها الناس في الدول الغربية ويكنون لها الاحترام، فإنها تأتي في مرتبة ثانوية من الحساب في السعي نحو تحقيق الثروة عن طريق استغلال الموارد الطبيعية. لقد قامت النتائج التنفيذية بسلخ البعد الأخلاقي عن الحرب وحولتها إلى مشروع تجاري مدر للأرباح.

يمثل كل من بكنغهام، ومان، ولوتينغ، وبارلو الجوهر المركزي لشركة النتائج التنفيذية في أيامها الأولى. ولكن وبعد توسع المشروع، تضاءلت مشاركة بارلو ونمت نواة الشركة لتشمل المستشار التجاري مايكل غرونبيرغ. انبهر مان من مهارات غرونبيرغ الذي كان يعمل في السابق محاسباً لدى ستوي هاورد، وقام غرونبيرغ بمساعدة مان في إعادة هيكلة ترتيبات الصفقة المالية مع سانتوز حين كان يقضي عطلة استجمامية في أنغولا مع سيمون. وبحكم كونه ابن عم الفتاة التي سيتزوجها مان، فقد كان لدى غرونبيرغ أكثر من مجرد أسباب مهنية في إدارة مشروعات مان الأكثر حساسية. لقد قام غرونبيرغ بإصلاح العورات المالية في تلك الصفقة واضعاً عقوداً محكمة السبك- باذلاً قصارى جهده في حماية زبائنه من أي مسؤولية قانونية قد تنشأ عن تلك العقود. وبدأ غرونبيرغ

يتولى مسؤولية الإشراف المالي على المشروعات المتنامية التي يطورها مان وبكنغهام باستخدام الأموال التي حصلوا عليها من الصفقة الأنجولية. وفي مرحلة ما، كان هناك ثمانية عشر مشروعاً تجارياً تتخذ من مكتب غرونبيرغ بلازا مكتب 107 في تشيلسا عنواناً بريدياً لها. ويتراوح نشاط المشروعات التي جرى تطويرها تحت مظلة النتائج التنفيذية من شركات النقل الجوي، ومشروعات السياحة، إلى منتجات برامج الحاسوب الأمنية، وهي واحدة من الخبرات الخاصة التي يتمتع بها مان. وفي حين تبدو برامج الحاسوب الأمنية والسياحة مشروعات عادية بريئة، إلا أن أكثر المشروعات الجديدة -مثل شركة آيبس للنقل الجوي- كانت مصممة للقيام بخدمات مزدوجة للشركة الأم. وفي حين أن النشاط المعلن لشركة آيبس هو أنها مؤسسة تجارية عادية تقوم برحلات جوية للنقل المدني لعملاء من غير المرتزقة، إلا أن امتلاك تلك المؤسسة يمكن شركة النتائج التنفيذية من وضع ترتيبات اقتصادية للنقل الجوي دون أن يكون لديها أدنى قلق حول أمن وسلامة العمليات الأكثر حساسية من نشاطها. والشيء الذي أدهش العالم السري للمتعاقدين الأمنيين هو الجرأة العلنية التي أبدتها النتائج التنفيذية حين نشرت على صفحات موقعها الإلكتروني قائمة مفصلة بالخدمات العسكرية التي تقدمها، عارضة صوراً للدبابات، والطائرات النفاثة، والعمليات العسكرية، بأسلوب يجعل من أعمال بيع العنف خدمات عادية كخدمات القضاء على الحشرات في المنازل والمتاجر.

وبصفتها شركةً شرعيةً ذات هيكل مؤسسي، وبعد حصولها على تدفق مفاجئ درامي في الدخل، أخذت شركة النتائج التنفيذية تتصرف بمثابرة وطموح كأي شركة حديثة النشأة تسعى إلى توسيع عملها ونشر أخبار نجاحها. فقامت بتوظيف صحافيين مثل آل فينتر وجم هووبر للعمل لحسابها. وقام الاثنان بإجراء المقابلات التي تفرعت عنها مقالات تحمل عناوين مثل «جيش مملوك ملكية شخصية». ويبدو أن الحملة التسويقية لقيت بعض النجاح. فبعد انتهاء عملية أنغولا، كانت النتائج التنفيذية قد وقعت عقداً جديداً، وقامت بنقل مئة وخمسة وعشرين من مرتزقتها مباشرة من أنغولا إلى دولة صغيرة في غرب إفريقية في طائرة بالية من نوع بوينغ 727. وعلى متنها مجموعة من مواطني جنوب إفريقية البيض ورجال سود من قبائل أوفامبو الذين لم يبلغوا عن

وجهتهـم النهائية إلا قبل هبـوط طائرتهم بوقت قصير؛ إذ جاء هـؤلاء المرتزقة لإنقاذ سيراليون.

سيراليـون هي دولـة صغيرة في غرب إفريقيـة مشهورة بكونها ملجـأ ومركزاً لإعادة توطين الرقيق البريطانيين أكثر من كونها دولة تملك ثروة غير مستغلة من الماس والمعادن النفيسـة. دخل زعيم الثوار فودي سانكوه المدعـوم من رئيس ليبريا الجشع تشارلز تيلور ومعـه مئة مـن الجنود المرتزقة من ليبريـا في آذار/ مارس من عـام 1991، وبدأ بحملة سفـك للدماء امتدت علـى مدى أربعة أعوام في تقدم بطيء نحـو العاصمة. وفي نيسان/ إبريل من عام 1995، ظهر أن الحرب تتأرجح على أعتاب نهاية دموية حين كانت عساكر سانكوه تخوض معارك ضارية على مشارف فريتاون عاصمة سيراليون.

كان زعيم سيراليون في ذلك الوقت النقيب فالينتين ستراسر، الذي وصل إلى السلطة عـام 1992 وعمره آنـذاك 25 عاماً بعد أن قامت مجموعة من ضباط الجيش بطرق باب قصـر الرئيـس للمطالبة برواتبهم التي لم تدفع منذ زمن. فـر الرئيس من البلاد، فقرر الضباط تنصيب ستراسر رئيساً للبلاد مكانه في انقلاب فعلي على السلطة في البلاد.

وفي مطلـع عام 1995، وبعـد أن قامت الجبهة الثورية الموحدة التـي يتزعمها سانكوه بتحقيـق انتصـارات مهمـة على جيشـ سيراليون، قـام ستراسـر بالتعاقد مـع المرتزق الأمريكي صاحب الشهـرة الواسعة بوب ماكينزي ليتولى قيادة مجموعة مؤلفة من أربعة آلاف جندي من قوات الغورخا جرى استئجارهم من شركة جزيرة القنال تدعى مجموعة غورخا الأمنية (جي سي جي). وفي غضون شهرين، نجحت قوات الجبهة الثورية الموحدة في قتل ماكينزي وعددٍ من جنود الغورخا في كمائن نصبتها لهم، وسحبت الغورخا ما بقي من جنودها. وواصل الثوار زحفهم نحو العاصمة.

بعد ذلك، لجأ ستراسر إلى شركة النتائج التنفيذية التي أنهت لتوها عملية ناجحة في أنغـولا. ويفيد مصدر قريب من المفاوضات التي جرت قبـل توقيع العقد أن فريق النتائج التنفيذيـة كان متحمساً وقادراً على تنفيذ المهمة، ليس ذلك وحسب، بل اكتشفت الشركة حيلة تمكن ستراسر من جعل صندوق النقد الدولي يدفع المصاريف الأمنية. وكان العقد مبدئياً لسنة واحدة،ولكنه زيد في النهاية إلى 35 مليون دولار لمدة 21 شهراً.

وفي حزيران/ يونيو من عام 1995، قاد الطيار نيل ستايل طائرة بوينغ 727 حاملاً معه 125 رجلاً يعملون في شركة النتائج التنفيذية من أنغولا إلى فريتاون، وبعد أيام قلائل، بدأ الجنود المرتزقة عملياتهم العسكرية ومهاجمة الثوار. وبعد تسعة أيام من القتال الشديد، تراجع الثوار عن المناطق المطلة على العاصمة ولاحقهم مقاتلو شركة النتائج التنفيذية إلى الأدغال. لم يكن باستطاعة قوات الجبهة الثورية الموحدة أن تصمد أمام نيران المدفعية المنطلقة من طائرة هند التي كان يقودها طيارون مهرة، ولا تكتيكات الكمائن والشراك التي كان ينصبها المرتزقة المحترفون. وخلال أسابيع، نجحت قوات النتائج التنفيذية في استعادة مناطق شاسعة من البلاد؛ وجرى تأمين مناجم الماس ووضع حراسة مشددة عليها. وفي هذه المرة، لم يكن هناك حاجة إلى التظاهر بأن المهمة كانت للتدريب أو لتقديم خدمات الدعم والمساندة، فكل ما في الأمر أن رجال النتائج التنفيذية قاموا ببساطة «بمعاقبة» المرتزقة، خصمهم المقابل، الذين يعملون مع الجبهة الثورية الموحدة.

وفي أعقاب احتجاجات شعبية، وافق ستراسر على إجراء انتخابات ديمقراطية هي الأولى في البلاد منذ ثلاثين عاماً، وهي الانتخابات التي أوصلت أحمد تيجان كاباه إلى السلطة في آذار/ مارس من عام 1996. وافق كاباه في مفاوضات السلام التي عقدها مع الثوار على إلغاء عقده مع شركة النتائج التنفيذية. وقام غرونبيرغ بإرسال فاتورة بقيمة 35.2 مليون دولار إلى حكومة سيراليون ولكنها حصلت على 15.7 مليون دولار فقط قبل أن تغادر البلاد بسبب عدم حصولها على مستحقاتها المالية بموجب العقد في كانون الثاني/ يناير من عام 1997. ومكث عدد من المرتزقة تحت اسم لايفغارد، وهو اسم لإحدى الشركات الجديدة التي أنشأتها شركة النتائج التنفيذية وذلك لحماية مناجم الماس والمعادن النفيسة. ومع ذهاب النتائج التنفيذية، وقع انقلاب على نظام حكم كاباه في مايو من عام 1997. وتحالف الحاكم العسكري الجديد مع الجبهة الثورية الموحدة وعادت الفوضى لتسود البلاد مرة أخرى. وفي هذه المرة لم تأت النتائج التنفيذية لإنقاذ الموقف.

على الرغم من الصعوبات التي واجهت القائمين على شركة النتائج التنفيذية في تحصيل مستحقات الشركة في ذمة حكومة سيراليون في عمليتها الثانية، إلا أن أصحاب الشركة حققوا فوائد مالية كبيرة. وبعد نجاحهم في أنغولا وسيراليون، انتهى وجود

النتائج التنفيذية نهاية طبيعية. وبحسب ما يقوله غرونبيرغ، فإن «إيبين أخذ عشرة ملايين دولار وذهب في سبيله، وجنى جميع الشركاء أرباحاً مجزية، إذ حصد سيمون 60 مليون دولار، وحصل توني على 90 مليون دولار». ولم يذكر غرونبيرغ شيئاً عن نصيبه هو، غير أنه بالأخذ في الحسبان أنه يملك عدة منازل فخمة، وعدة سيارات فارهة، وغيرها من مؤشرات الثراء، فإنه لا بد أن يكون قد حصل على حصة كبيرة. إضافة إلى ذلك، فإن الدخل المباشر الذي حصلوا عليه من العملية لم يشمل العوائد المحتملة من الاستغلال المستقبلي للمعادن والمناجم.

ومع أن شركة النتائج التنفيذية شقت طريقها عبر الحدود مع أنغولا لدحر الثوار وإعادة الأمن إلى المناطق التي توجد فيها مناجم الماس، إلا أن غرونبيرغ يزعم أن الربط بين المرتزقة والماس كان بمحض المصادفة. «كان الهدف هو إخراج الثوار من المنطقة ودحرهم إلى الوراء، واستعادة السيطرة على المدن. هل كان هناك مناجم للماس جرى تأمينها؟ بالطبع. ولكن الهدف كان تأمين المدن؛ لأنها الأماكن التي يقطنها السكان المدنيون وليس المناجم». ويبدو منطق غرونبيرغ المثير مقنعاً وربما كانت حجته هذه أثبت لولا أن القائمين على شركة النتائج التنفيذية لم يغادروا الدولتين. وما قاله مايكل صحيح، لأنه بعد أن خسرت يونيتا التابعة لسافيني المناطق التي يوجد فيها الماس، فقد القدرة على دفع أجور جيشه وإعالة نفسه. غير أن شركة برانش إنيرجي التي يملكها بكنغهام (وكان اشتراها من إيبين بارلو عام 1995) حصلت على امتيازين للتنقيب عن الماس في أنغولا عام 1996. وقامت شركة برانش إنيرجي بدمج ممتلكاتها في أنغولا وسيراليون ضمن شركة واحدة أطلق عليها دايموند ويركس (أعمال الماس)، وهي شركة مساهمة عامة تباع أسهمها في سوق فانكوفر المالي، ويملك تم سبايسر وسيمون مان أسهماً ممتازة فيها.

ومن المنصف القول: إنه لم يكن هناك مقابل مباشر بين تقديم خدمات الجنود المرتزقة والحصول على امتيازات التنقيب عن المعادن؛ فالموارد الطبيعية تحتاج إلى قدر كبير من التطوير والإدارة، إلا أن تورط أشخاص بعينهم في كلا المجالين يثير بعض القضايا الشائكة. ويجد كوبس كلاسنز، وهو أحد المتعاقدين الذين عملوا مع شركة النتائج التنفيذية وشاركوا في القتال في سيراليون، أن من الصعب تصديق مقولة أن

السعـي وراء الموارد الطبيعي لم يكن القوة الدافعـة وراء النموذج التجاري للشركة. فبعد قتـال شرس لتحرير حقـول الماس في سيراليون، يتذكر كلاسنز اللحظات التي وصل فيها تـوني بكنغهام في منتصف صيف عام 1995 ويقـول: «لقد كان يجلس على مقدمة سيارة لاندروفر لابساً قبعة عسكرية وفي يده علبة بيرة في الساعة العاشرة صباحاً، في حين كان جميـع الجيولوجيين الذيـن جاء بهم يعرضـون عليه عينات من التربـة تظهر مدى غنى المنطقـة بالماس». وبعد مشاهدة ذلـك المنظر، ترسخت العلاقة بين السيطرة على الموارد الثمينة واستخدام الحرب المخصخصة في ذهن كلاسنز. إضافة إلى ذلك، خلص تقرير سـري غير منشور صدر عام 1995، عن قسم الاستخبـارات في وزارة الدفاع البريطانية إلى أنه: «يظهر أن الشركة والقائمين عليها كانوا قادرين على مقايضة خدماتهم الأمنية مقابل حصص كبيرة في استغلال الموارد الطبيعية والسلع في الدول التي تعمل فيها».

لقد أسـدى مان وبكنغهام خدمات كبـيرة لدولتي أنغولا وسيراليـون، وجنيا أرباحاً كبـيرة مـن شركـة النتائـج التنفيذية. غـير أن مـن سوء طالعهمـا أن انطبـاع «احمل بندقيتك، سوف نسافر» الذي يبعثه شعار الشركة أدى إلى الإسراع في إصدار تشريعات مناهضـة لأعمال المرتزقة في جنوب إفريقية، وهو أمر يقلق أي عميل مستقبلي محتمل. وكان الحـل الـذي رأوه هو تأسيس شركة جديدة تتمتـع بسمعة عالية، وقيادة عالمية من الطـراز الأول، علـى أن تعهـد بالأعمال الثقيلة مـن نشاطها إلى الجنـود السابقين من جنـوب إفريقية الذين كانوا عماد شركة النتائـج التنفيذية. ومرة أخرى اتصل سيمون مان بصديقه القديم المقدم تم سبايسر.

ساندلاين

منـذ الوقـت الذي طلب فيه مـان إلى سبايسـر أن يشاركـه العمل في شركـة النتائج التنفيذيـة، أحيـل سبايسـر إلى التقاعد من الجيش وبدأ العمـل في مهنة مملة في السوق الماليـة. وفي لقائهما الأولي، استطاع مان أن يقنـع سبايسر برؤيته الجديدة حول تأسيس «شركـة عسكرية خاصة»، بحيـث تضيف هذه الشركة طبقات جديدة من أساليب الإدارة التنفيذية الغربية وأن تعهد إلى أطراف ثانية مهمة تنفيذ الجوانب التي تحتاج إلى الجنود المرتزقة على غرار النتائج التنفيذية.

اعترف لي سبايسر بأنه ربما كان ساذجاً بعض الشيء حول إنشاء الشكل الجديد من النتائج التنفيذية. «لم يكن قد مضى على خروجي من الجيش سوى أحد عشر شهراً. لم يكن لدي أي إدراك متأخر... كانت مخاطرة، وكنت أمام عرض للعمل في قطاع الأمن الخاص». وكان عرض العمل الذي قدمه سيمون لسبايسر يقدم أجراً يعادل ضعفي الراتب الذي كان سبايسر يتقاضاه في الجيش، إضافة إلى ترتيبات لتقديم قرض لسبايسر يمكنه من شراء سيارة جديدة من طراز آستون مارتن. قبل سبايسر العرض وبدأ على الفور بتأسيس الشركة الجديدة: «توجهت لزيارة شركة النتائج التنفيذية في سيراليون. كان المفترض في الشركة الجديدة أن تكون منظمة منفصلة. كان واجبنا أن نؤسسها، وكان مفترضاً فيها أن تكون على الشاطئ. ولقد ثارت نقاشات حول الجوانب الأخلاقية في عمل الشركة. وكان جميع الذين تحدثوا عن ساندلاين متفقين على أن تكون الشركة مشروعة». ومع أن الرواية الرسمية للمؤسسين تقول: إن ساندلاين هي من بنات أفكار بكنغهام، ومان، وسبايسر، وأن الفكرة عرضت لهم أول مرة في أثناء تناولهم الغداء في مطعم تشيلسا لافاميليا في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1996، إلا أن مصادر مطلعة تقول: إن تم سبايسر قد شرع فعلياً بالدخول في مفاوضات بشأن ما أصبح فيما بعد أول عقد تنفذه شركة ساندلاين في أيار/ مايو من عام 1996، أي قبل سبعة شهور من اجتماع مطعم تشيلسا لافاميليا.

وفي ربيع عام 1996، كان ريتشارد بيثيل (اللورد ويستبري) وشركته دي إس إل يعملان في بابيوا غينية الجديدة[1]، لكنه لم يكن مبهوراً بقدرة الحكومة هناك على دفع المستحقات المترتبة في ذمتها بموجب عقود تأمين المناجم، ولا بعزمها على فعل ذلك. كانت الحكومة تعاني من أزمة مالية منذ عام 1989 حين قام سكان جزيرة بوغينفيل ذوو النزعة الانفصالية بإغلاق منجم النحاس الضخم في الجزيرة تعبيراً عن سخطهم من تدفق عوائد الموارد الطبيعية في جزيرتهم إلى جيوب الحكومة المركزية بدلاً من معالجة الفقر والبؤس الذي يطغى على الجزيرة. وقد أدى سوء معالجة الموقف إلى اندلاع حرب

1- الجزء الشرقي من جزيرة غينية الجديدة، وهي الجزيرة الثانية في العالم من حيث المساحة، وتقع في المحيط الهادئ شمالي أستراليا وشرقي إندونيسة.

أهليـة دامت عشر سنوات. ولما كان منجـم بانغيونا هو مصدر نصف العملات الصعبة الواردة إلى بابيوا غينية الجديدة حين يعمل بكامل طاقته الإنتاجية، فقد كانت السيطرة علـى المنجم هدفاً إستراتيجيـاً لجيش بوغينفيل الثوري الانفصـالي. وحين استفسرت الحكومـة عن قدرة دي إس إل علـى حل المشكلة، قام ريتشارد بتحويـل الاستفسار إلى صديقـه سيمـون مان. وكانت أول مهمة يكلف بها تم سبايسـر رئيس ساندلاين الجديد هي إنجاز هذه المهمة.

وبـدأ سبايسر على الفـور بالاتصال بحكومة بابيوا غينية الجديـدة التي كانت تعاني مـن ضائقة مالية بخصوص المشكلات الأمنية التي تعانيها. وبالأخذ في الحسبان القدرة الإنتاجية لمنجـم بانغيونا في حالة تشغيله، فإن المفاوضات الصحيحة يمكن أن تدر دخلاً يمكـن أن تطغـى على أي صفقة يمكـن لتوني أن يعقدها في أنغـولا أو سيراليون. ولم تكن مطالـب سكان الجزيرة بالاستقلال، ولا المشكلـة الناتجة عنها وهي التي أدت إلى إغلاق المنجم وتخريبه داخلة في الاعتبار.

وفي مناقشاتـه المبكـرة مع حكومة بابيـوا غينية الجديدة، استخـدم سبايسر الأوراق المروسـة للشركـة التـي تحمل عنوان بـلازا 107، وهـو عنـوان شركة غرونبـيرغ لإدارة العقارات والاستشـارات العقارية. ولم يبدأ الشركاء بالتفكير في أفضل الطرق لاستغلال هـذه الفرصـة إلا بعد أن اتضحـت احتمالات تحوّل المفاوضات في بابيـوا غينية الجديدة إلى إبـرام عقـد ذي شأن. وتوجـه سبايسر ومـان إلى مكتب للتصميم الفنـي في البناية نفسهـا التي يوجد فيها مكتب غرونبيرغ ووضعا معاً عناصر بطاقة أعمال وترويسة أوراق الشركـة الجديدة مستخدمين اسم ساندلاين. ولم يكن الشعـار الذي صمماه لساندلاين سـوى خطين متعرجـين، وهو أفضل ما يعكـس السرعة التي يمكن إنشـاء الشركات فيها لاقتناص الفرص المجزية.

وعلـى الرغم من أن الأدلة تشـير إلى أن الجهود التي بذلت في إنشاء ما أصبح يعرف فيما بعد بعملية ساندلاين قد بدأت قبل لقاء الغداء في تشرين الأول/ أكتوبر 1996 بوقت طويل، وهو اللقاء الذي يزعم سبايسر في مذكراته الشخصية أنه نقطة البداية في تأسيس ساندلايـن، أقول: إن هذا لا يعني أن الاجتماع الـذي انعقد في مطعم لافاميليا كان عديم

الأهمية. ذلك أن أول ظهور لمصطلح «شركة عسكرية خاصة» في وسائل الإعلام كان بعد عدة أسابيع من لقاء الغداء في المطعم. وهذا يرجح أن الحديث الذي دار في الاجتماع ربما كان يدور حول وضع إستراتيجية للعلاقات العامة لتلميع صورة دور المرتزقة في حين سيصبح واحداً من أكثر التطورات التي طرأت في هذا المجال أهمية في مئات السنين من الحروب المخصخصة. لقد حاولت النتائج التنفيذية أن تطور نموذجاً مؤسسياً جديداً لتأجير الجنود، غير أن وصمة عهد التمييز العنصري والمخاوف من انفلات الجيوش الخاصة تبقى قائمة. ومن الحلول المقترحة: إعادة تسويق الفكرة عن طريق إلباس شركة النتائج التنفيذية قناعاً براقاً زاهياً من القيادات المحترمة تحت مسمى جديد هو ساندلاين. وتتطلب هذه المبادرة الكبيرة إستراتيجية قوية للعلاقات العامة بحيث تغير من الانطباع حول مفهوم المرتزقة. وفي حين قد يبدو التحوّل مقتصراً على دلالات الألفاظ، إلا أن التغيير المتعمد في الاستخدام اللغوي إما أنه يمثل تطوراً نظرياً مهماً في المفهوم، أو أنه تحوير متعمد لفكرة تأجير خدمات الجنود المرتزقة.

بدأ القائمون على الفكرة الجديدة نشاطهم في إعادة تسويق خدمة تأجير الجنود تحت مسميات متوافقة مع حساسيات النهج السياسي الصحيح بوصفها «شركة عسكرية خاصة» واستخدام عبارة «متعاقد» بديلاً عن عبارة «جندي مرتزق». وكان من المفترض أننا أمام عهد مستنير من المرتزقة. وكانت نقطة ارتكاز الدعاية لتسويق خدمات ساندلاين هي قصص نجاح شركة النتائج التنفيذية في أنغولا وسيراليون، مع تركيز غرونبيرغ جهوده في الحفاظ على انطباع عام بوجود جدار فاصل بين ساندلاين والنتائج التنفيذية. وفي مسعاهم للحصول على وصف الشرعية وتوسيع مجال نشاطهم التجاري، قامت النتائج التنفيذية في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1996 بتوظيف بيرني مكوبي وهو عقيد متقاعد من القوات الخاصة الأمريكية ليرأس فرع شركة ساندلاين في الولايات المتحدة. ونظراً لما يتمتع به العقيد من سمعة مرموقة بصفته قائداً سابقاً لقوات الدلتا، فإن بإمكان مكوبي استخدام معارفه وموقعه وشبكات اتصاله لتوفير فرص جديدة لشركة ساندلاين لدى العملاء الأمريكيين. وقبل أن تبدأ ساندلاين بقطف ثمار عملها في الولايات المتحدة، كان يتحتم على رجالها أن يثبتوا جدارتهم.

وأخيراً أثمرت جهود سبايسر في البحث عن فرص محتملة للعمل في بابيوا غينية الجديدة في كانون الأول/ ديسمبر من عام 1997، حين تلقى عرضاً بقيمة 250 ألف دولار للقيام بدراسة مسحية حول أفضل السبل لدحر الثوار واستئناف حكومة بابيوا غينية الجديدة تشغيل مناجمها. عاد سبايسر إلى الحكومة ومعه تقدير بقيمة 36 مليون دولار لتغطية مصاريف النقل والإمداد والأسلحة والقوة البشرية، وهو مبلغ لم يكن بوسع حكومة بابيوا غينية الجديدة دفعه.

وفي السادس من كانون الثاني/ يناير عام 1997، اجتمع سبايسر مع رئيس وزراء بابيوا غينية الجديدة يوليوس تشان بهدف إقناعه بأن عملية سرية وخاطفة لاستعادة منجم بانغيونا سيفضي إلى نتائج إيجابية في الانتخابات المقبلة. ومع أنه لم يكن هناك فصل في الميزانية لتغطية عملية المرتزقة التي أطلق عليها «عملية المحار» إلا أن غرونبيرغ أوضح لتشان كيف يمكن لهذا الأخير تجاوز عرض المسألة على البرلمان للتصويت وذلك بكتابة سلسلة من الشيكات بمبالغ قليلة لا تتطلب موافقة البرلمان. وجاءت أكثر الدفعات من تخفيضات فرضت على الميزانيات القائمة، ودفع أكثر من نصف المبلغ مقدماً. وجاء في العقد أن الهدف هو «تدريب وحدة القوات الخاصة في البلاد على المهارات التكتيكية المخصصة لخدمة أهدافها: وجمع المعلومات الاستخبارية لدعم الانتشار الفاعل لعملياتها؛ والقيام بالعمليات الهجومية في بوغينفيل بالتعاون مع قوات دفاع بابيوا غينية الجديدة بهدف شل حركة وفاعلية قوات حركة جيش بوغينفيل الثوري الانفصالي واستعادة السيطرة على منجم بانغيونا، وأن تقدم خدمات دعم وإسناد بعد انتهاء العملية، على أن تحدد لاحقاً باتفاق الطرفين وأن تخضع الخدمات الجديدة لأحكام اتفاق خاص يحدد مستواها وقيمة أجورها». ووقع تم سبايسر على العقد إضافة إلى عضو سابق آخر من شركة النتائج التنفيذية هو نقولا فان دن بيرغ بصفة «مستشار» للشركة. لقد كان اللاعبون الذين يقفون خلف شركة النتائج التنفيذية والشركة التي تسمى ساندلاين مندمجين بعضهم ببعض تعاقدياً وفكرياً على الرغم من أنهم منفصلون بعضهم عن بعض أمام الرأي العام.

وفي الوقت نفسه، بدأت المفاوضات مع توني بكنغهام لشراء الأسهم المتردية لمنجم بانغيونا المغلق الذي سيحرر عما قريب. وأرسل بكنغهام رسالة إلى وزير دفاع بابيوا غينية الجديدة يفيده فيها بأنه يملك حالياً ما قيمته 200 مليون دولار من الاستثمارات. وذكر بالتحديد سيراليون وأنغولا، قائلاً بأن «جميع استثماراته موجهة نحو استخراج الموارد المعدنية (النفط، والنحاس، والماس، والذهب) وكلها تتعلق بأوضاع ذات مخاطر أمنية وعسكرية عالية». ومرة أخرى تظهر أمامنا المحاور المتوازية بين الموارد المعدنية والمرتزقة في دولة أخرى. ودون ساندلاين لن يكون هناك أي احتمالات لإعادة تشغيل المنجم، ودون العرض الذي قدمه توني للاستثمار المباشر واحتمال استمرار تقديم الخدمات الأمنية، فإنه لن يكون هناك أي فائدة للطرفين.

في السابع من شباط/ فبراير، وصل فان دن بيرغ ومعه أول فوج من مرتزقة جنوب إفريقية للبدء في تنفيذ المرحلة العملية الأولى من الاتفاقية الخاصة بالتدريب، وفي مدة قصيرة وصلت بقية عناصر الوحدة المكونة من 44 رجلاً. وفي 19 شباط/ فبراير، ذكرت حكومة بابيوا غينية الجديدة للحكومة الأسترالية أنها وقعت عقداً لبرنامج تدريب قواتها المسلحة مع شركة هي في الأصل شركة النتائج التنفيذية. وتسرب الخبر إلى الصحافة الأسترالية، وتعالت صيحات الاحتجاج والاستنكار، ثم قامت الحكومة الأسترالية – التي تعد بابيوا غينية الجديدة من ضمن مناطق نفوذها- بالضغط على حكومة بابيوا غينية الجديدة من أجل التخلص من المرتزقة.

وبدأ الجيش الذي أصابته الدهشة من قيام الحكومة التي تعاني من ضائقة مالية بدفع 36 مليون دولار إلى مرتزقة أجانب أجر عملية يستغرق تنفيذها ثلاثة أشهر، بدأ بالتخطيط بهدف التخلص من تشان. وقرر قائد قوات دفاع بابيوا غينية الجديدة جيري سينغارونك أن يجمع المتعاقدين العاملين في ساندلاين والنتائج التنفيذية لإعادتهم إلى أوطانهم. على أن يلقى القبض على قائدهم تم سبايسر ويوضع في السجن. وفي السادس عشر من آذار/ مارس، بدأ الجيش في تنفيذ الخطة. وسيق المرتزقة الذين كانوا يقيمون في قاعدة عسكرية إلى طائرة نقل لتغادر بهم خارج البلاد. ودعي تم سبايسر إلى حضور اجتماع وأخذ بالقوة إلى الاعتقال. وطلب سينغارونك من تشان ووزير دفاعه ونائبه تقديم

استقالاتهم، تلقيهم رشى من الصفقة. فرد تشان بفصل سينغارونك من منصبه. غير أن سينغارونك قدم استقالته أملاً في تهدئة الموقف. ونتيجة لذلك، خرج الجنود المؤيدون لسينغارونك إلى الشوارع في مظاهرات مؤيدة لقائدهم العسكري في وقت كان الموقف يسير نحو التفجر. وتكون ساندلاين قد دفعت البلاد إلى حافة انقلاب عسكري.

وعلى الرغم من قيام الحكومة بعمليات دهم واعتقالات واسعة لبسط سيطرتها على الموقف في أعقاب الفضيحة، إلا أن جماهير الشعب الغاضبة بقيت مصرة على استقالة تشان وحكومته. حتى إن الحاكم العام لبابيوا غينية الجديدة نشر إعلاناً في الصحف المحلية يتهم فيه الحكومة بالفساد. وهددت الحكومة الأسترالية بقطع كل مساعداتها، وأخيراً، وفي 25 من آذار/ مارس، قدم تشان استقالته دون إطلاق رصاصة واحدة. وهكذا تكون ساندلاين قد تسببت من الناحية الفعلية في خلع الحكومة التي تعاقدت معها لتقديم الحماية لها.

أفرج عن سبايسر من السجن، بعد وصول مايكل غرونبيرغ ومعه صرة كبيرة من المال، وبعد أن تدخلت الحكومة البريطانية. وأسقطت حكومة بابيوا غينية الجديدة التهم السطحية التي وجهتها إلى سبايسر بحيازة مسدس و30 طلقة. وخرج سبايسر من البلاد بسرعة قبل أن تنعكس حظوظه مرة أخرى. وبعد أن أنهى النائب العام في بابيوا غينينا الجديدة سيمون بينتانو تحقيقاته بالفضيحة، وصف قرار التعاقد مع ساندلاين بأنه «عمل إجرامي» صدر عن «قادة مجانين».

وعلى الرغم من هذا الإخفاق الدرامي الذريع الذي لحق بالمشروع، لا يزال سبايسر يدافع عن «مشروع المحار» ويقول: إن المشروع قد أسيء فهمه، ويزعم أن العملية التي اتفق على تنفيذها في بابيوا غينية الجديدة لم تكن عملية منظمة للمرتزقة، بل برنامجاً لدعم وتدريب وإسناد مشروع كان يفترض أن تقوم بعمليات القتال فيه قوات دفاع بابيوا غينية الجديدة، وأن ساندلاين كانت ستزودهم بالمهارات والموارد لضمان نجاح العملية. ومع أن الشركة لم تكمل العملية، إلا أنها قامت باتخاذ إجراءات قانونية للحصول على كامل مستحقاتها المذكورة في العقد. وبحلول شهر مايو من عام 1999، توصل المحامي الذي يمثل ساندلاين واسمه ريتشارد سلو ومعه شركاؤه المحامون في مكتب جي إس

بروين للمحاماة، إلى تسوية مع حكومة بابيوا غينية الجديدة بحيث تدفع الحكومة كامل المستحقات على دفعات مقسطة.

لم يثن هذا الإخفاق في بابيوا غينية الجديدة من عزم تم سبايسر عن المضي قدماً في هذا الدرب. وتحرك بسرعة نحو مشروع آخر، وهو مشروع أفضى إلى فضيحة أكبر من فضيحته السابقة، وكاد يطيح بالحكومة البريطانية الجديدة.

كان راكيش ساكسينا مدير العمليات المالية الهارب من وجه العدالة، البالغ من العمر خمسين عاماً، ذي الأصل الهندي وحامل الجنسية التايلندية، على خلاف مع حكومة سيراليون؛ إذ كان رئيس الوزراء السابق أحمد كاباه قد وعد ساكسينا بمنحه امتيازات مجزية لاستغلال مناجم المعادن. ويعتقد ساكسينا أن لديه حلاً بسيطاً: خلع حكومة الانقلاب الجديدة برئاسة جوني بول كاروما وإعادة السلطة إلى الحكومة المنتخبة ديمقراطياً برئاسة أحمد كاباه كي يتمكن ساكسينا من استغلال امتيازاته في المناجم. وكان ساكسينا قد سمع بنشاطات ساندلاين من وسائل الإعلام بعد فضيحة بابيوا غينية الجديدة، وظن أن هذه الشركة يمكن أن تكون الأداة التي يمكن أن تساعده. فاتصل بسبايسر ووقع معه عقداً بقيمة 70 ألف دولار لوضع خطة حول سبل تحقيق أهداف ساكسينا.

كان واضحاً منذ البداية أن هذا الموضوع سيكون مثيراً. وحين وصل سبايسر إلى فانكوفر في مقاطعة بريتيش كولومبية في كندة لحضور اجتماعه الأول مع ساكسينا، تعرض سبايسر للاعتقال والمساءلة على يد الشرطة الكندية حول الهدف من زيارته. وحين وصل سبايسر إلى شقة ساكسينا المطلة على المحيط، استرعى انتباهه وجود حراس شخصيين من الصرب يتقاضى الواحد منهم أجراً يساوي 10 آلاف دولار في الأسبوع. ويبدو أن ساكسينا كان تحت حكم بالإقامة الجبرية في منزله يسمح له بتوفير حماية خاصة على نفقته.

ومع أن ساكسينا لم يكن مجرماً من الناحية الفنية، إلا أنه قبض عليه في اجتماع ضم عدداً من رجال الأعمال في واحد من منتجعات التزلج على الجليد الفخمة في مدينة ويستلر في كندة، في السابع من تموز/ يوليو من عام 1996. وأفرج عنه بموجب كفالة مقدارها مليونا دولار. وكان يخوض معركة قانونية تحول دون ترحيله من البلاد إلى

تايلاند حيث يواجه هناك تهماً بالاحتيال على مصرف تايلندي. ويشكو ساكسينا من أن جميع أرصدته جمدت، وهو السبب الذي زاد من تحفزه لوضع يده على المناجم المعدنية في سيراليون. وعلى الرغم من الصعوبات التي يواجهها، تعهد ساكسينا بدفع 10 ملايين دولار لحكومة كاباه في المنفى، على أن يدفع منها كاباه أتعاب ساندلاين لإعادته إلى السلطة. ولم يتمكن ساكسينا أن يأتي إلا بمليون ونصف المليون من هذا المبلغ. ورأى سبايسر أن هذا المبلغ كان كافياً للشروع في تنفيذ الخطة.

ومن حسن الحظ أن شركة النتائج التنفيذية كان لديها بعض الرجال داخل سيراليون، حيث دخلوا البلاد عام 1995 وبقوا هناك لحماية سد بامبونا ومنجم الروتايل بعد الانقلاب. وتحوّل هؤلاء المرتزقة إلى متعاقدين أمنيين، وكان موكولاً إليهم مهمة جمع المعلومات الاستخبارية، والتدريب، لقرابة أربعة آلاف عنصر من مؤيدي كاباه. وهم في الغالب من ميليشيات كاماجورز المحلية، وهي ميليشيات ينحدر أفرادها من قبيلة ميندي التي يتزعمها هينجا نورمان. وكان لدى ساندلاين طائرة مروحية روسية الصنع يمكنها نقل الجنود إلى العاصمة فريتاون، ونقل الجرحى، وإخلاء الجنود، ونقل المعونات الإنسانية. وقامت ساندلاين بوضع ترتيبات لشحن قرابة ثلاثين طناً من العتاد الحربي إلى ميليشيات الكامجاروز التي تقاتل بالإنابة.

في ذلك الوقت، كان قرار الأمم المتحدة رقم 1132 ساري المفعول، وهو القرار الذي فرض حظراً على دخول الأسلحة إلى جميع أطراف النزاع في سيراليون. إضافة إلى ذلك، قامت الحكومة البريطانية المحافظة علناً بتبني سياسة خارجية «تقوم على احترام الأخلاق» ولا يفترض في هذه السياسة أن تساعد أو تقر أموراً كإيصال شحنة من الأسلحة إلى مجموعة مسلحة في سيراليون. ولكونه لا يعرف اليأس أمام الظروف العصيبة، ظن سبايسر أن بإمكانه أن يلتف على قرار حظر توريد الأسلحة؛ إذ سيختلط رجاله الموجودون على الأرض في سيراليون مع القوات النيجيرية المرابطة في سيراليون ضمن قوات غرب إفريقية لحفظ السلام، وهي قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة. وكانت الحجة تقوم على أنه لما كانت هذه الأسلحة ستتوجه إلى الجنود النيجيريين العاملين ضمن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، فإن هذه الشحنة لا تخالف قرار الحظر الصادر عن الأمم

المتحدة. وناقش سبايسر القضية مع مكتب الخارجية البريطانية، وشعر أنه حصل على موافقة الحكومة البريطانية على الخطة. وعلى هذا الأساس تابع العمل.

أخفقت الخطة حين قررت القوات النيجيرية وبمبادرة فردية الدخول إلى فريتاون وإرهاب الثوار في آذار/ مارس من عام 1998. وقد أدت هذه الخطوة إلى فضح الخرق الذي حدث لقرار حظر إرسال الأسلحة على يد الشركة البريطانية. وتفجرت فضيحة عالمية حول قضية «الأسلحة الأفريقية». أنكرت الحكومة البريطانية أي علم لها بشحنة الأسلحة مع أن سبايسر و غرونبيرغ أحرجا الحكومة البريطانية بإصرارهما على أن مكتب الخارجية البريطانية كان على علم بالخطة. ثم سرعان ما انتشرت صور تظهر طائرة مروحية تابعة لشركة ساندلاين وهي تتلقى أعمال صيانة في القاعدة البريطانية في سيراليون، وهو ما زاد من حدة التكهنات بوجود موافقة رسمية للعملية. أدت الحكومة البريطانية دور الحريص على تطبيق القانون وذلك بدعوتها إلى إجراء تحقيق رسمي في الحادثة ودهم مكاتب ساندلاين ومنازل كبار المديرين فيها. وفي النهاية، قدم كبير المفوضين البريطانيين اعتذاره عن عدم إدراكه أن حظر الأسلحة قد وسع ليشمل الأسلحة التي ترسل إلى مؤيدي رئيس الحكومة في المنفى أحمد كاباه المنتخب ديمقراطياً. وهذا بدوره يوضح كيف يمكن للحادثة الواحدة في المنطقة الرمادية من الانقلابات والانقلابات المعاكسة أن تعد في الوقت الواحد من قبل أطراف مختلفة إما مثالاً على قيام المجرمين المتعطشين لاستغلال الموارد الطبيعية باستئجار جنود مرتزقة لخلع حكومة ما في خرق واضح للقانون الدولي، أو أنها مثال على قيام شركة بريطانية بالمساعدة في إعادة حكومة منتخبة ديمقراطياً إلى السلطة. وفي بعض الأحيان يمكن أن تكون الاثنين معاً.

حوكم قائد ميليشيات كاماجورز سام هينغا نورمان على ارتكاب جرائم حرب في بلده الأم، وما زال ساكسينا يقاوم قراراً بترحيله إلى تايلاند حيث يواجه تهمة باختلاس 73.5 مليون دولار من أحد المصارف التايلندية. واليوم، لا يزال سبايسر متفائلاً في ذكرياته عن تحول مشروع شركته في سيراليون إلى «فضيحة الأسلحة إلى إفريقية». وتحول مشروعه في بابيوا غينية الجديدة إلى «فضيحة ساندلاين». والشيء الوحيد الذي يعترف به هو أن «ساندلاين تلكأت إلى الأمام في تطورها». ولكنه يصر على أسطوانته المعهودة التي ما فتئ

يرددها، وهي أن على ساندلاين «أن تكون لتحقيق أهداف مشروعة، وأنه عليها أن تكون منسجمة مع القانون، وأن الهدف هو أداء العمل بحسب الأصول مع تحقيق ربح من ذلك». وكان سبايسر صريحاً بخصوص إخفاقات الشركة: «لأن شركة ساندلاين في مفهومها كانت سابقة لأوانها، فقد عانت من عدد من الصعوبات في عملها ومشكلات أخرى حول انطباع الناس عنها».

ويلقي آخرون من داخل الشركة بالمسؤولية عن هذه الفضيحة على سبايسر نفسه. ويصف أحد المديرين في الشركة بأنها كانت تعاني «فارقاً كبيراً بين التخطيط والتنفيذ». وعلى العموم، استمرت آثار مشكلات سبايسر حتى بعد تلاشي ساندلاين عن الوجود. وفي السنوات اللاحقة، قام سبايسر بتأسيس سلسلة من الشركات ذات العلاقة بالخدمات الأمنية -سي آر إم، وساندلاين للاستشارات، وترايدنت، وترايدنت 3، وترايدنت البحرية- وكل واحدة من هذه الشركات استطاعت تحقيق شيء هو ما بين النجاح المحدود والإخفاق الكامل. ومع ذلك، شق سبايسر طريقه إلى الأمام.

يرأس سبايسر، الذي تجاوز الخمسين من عمره، واحدة من أكثر شركات الخدمات الأمنية دراً للأرباح هي شركة إيجيس للخدمات الدفاعية. وهي شركة أسسها في نهاية عام 2002 بدعم من حفنة من المولين وسجل حافل بالشبهات. حققت إيجيس عودة دراماتيكية مثيرة لسبايسر إلى عالم الأمن الخاص حين فازت الشركة في آذار/ مارس من عام 2004 بأفضل عقد أمني في العراق بعد أن قرر البنتاغون استخدام شركة إيجيس بعقد قيمته 293 مليون دولار يمتد ثلاث سنوات وفق شرط التكلفة زائد الربح، 62 مليون جنيه إسترليني، أي ما يقارب 130 مليون دولار أمريكي. وقام البنتاغون بتمديد العقد لمدة سنة إضافية، وبذلك أصبحت شركة إيجيس المبتدئة شركة منافسة رئيسة للشركات الأمنية التي تسبقها بأجيال مثل شركة آرمغروب، وهارت، وغيرها. وقد أعربت تلك الشركات عن دهشتها من تمكن سبايسر من إقناع الحكومة الأمريكية بمؤهلاته على الرغم من أسبقياته المشبوهة.

وتحتل شركة إيجيس اليوم أكثر من ثمانية آلاف قدم مربع في البناية الحديثة للمكاتب الواقعة على شارع فيكتورية في لندن. ومكاتب الشركة هي أقرب شبهاً بمكتب استثماري أو

محاسبي منها بشركة أمنية خاصة. وقد انتابني شعور بأن المكتب مستأجر مدة قصيرة وأنا أسير عبر الردهة الطويلة متجهاً إلى مكتب تم سبايسر. وعلى باب المكتب، استقبلني كلبه الذي يدعى داش وهو كلب أسود من فصيلة البلدُغ، وراح يشمني حتى اطمأن واقتنع أنني لا أشكل خطراً على سيده ثم عاد إلى سريره في الزاوية. كان سبايسر يلبس بزة رجال الأعمال، واستبدل بتسريحة شعره الطويل الصبيانية المعهودة تسريحة قصيرة تليق برجال الأعمال، ومع ذلك، بقيت عيونه المنتفخة وحملقته المنحدرة على حالتهما القديمة.

وقبل بدء المقابلة، كان علي الموافقة على عدد من القواعد والشروط التي أعدها محاميه قبل قدومي: لا أسئلة شخصية، لا إجابات على التكهنات والافتراضات أو التعليق على مناقشات طرف ثالث، ولا للخروج عن محور النقاش وهو دور سبايسر بوصفه قائد شركة إيجيس والنجاحات المالية التي حققتها الشركة. وقد جرى الإعداد للاجتماع بحيث يجلس سبايسر خلف منضدة مكتبه قبالتي، وجلس ريتشارد سلو، محامي ساندلاين السابق الذي أصبح الآن المدير التنفيذي لإيجيس، عن يساري، وجلس خلفي رأس جيفري دي، صاحب أكبر حصة استثمارية في شركة إيجيس. وفي كل مرة كان يخرج فيها سبايسر عن موضوع الرسالة أو يبدأ بالتصرف بشراسة، كان شريكاه يتدخلان فوراً بعبارات منمقة لإبقاء الحوار ضمن مساره.

لا يثق سبايسر بالصحافة، ولديه أسبابه الوجيهة لعدم الثقة هذه بسبب كل ما اقترفته الصحافة في حقه من طعن، وتشهير، وإهانة، ونشر للإشاعات، والتكهنات، والإساءة إلى سمعته منذ اللحظة التي انتشر فيها خبر ترؤسه لشركة ساندلاين الدولية. ولم تعانِ وسائل الإعلام من نقص في الأشخاص الراغبين في التحدث بما يسيء إلى سبايسر «لأن دربه المهني مليء بحطام صداقاته السابقة»، على حد تعبير أحد رفاقه السابقين. إن بعض ما جاء عنه في وسائل الإعلام هو روايات مختلقة، وأكثرها كيدية ناقمة، غير أن سبايسر جعل من نفسه هدفاً سهلاً بتكراره التسلق إلى الحلبة مرة بعد مرة، وادعائه بأنه هو قطب المرتزقة الجدد، ورأس حربة قطاع الأمن المخصخص، وطليعة القوة الجديدة في شؤون العالم. وفي إهابه الجديد في شركة إيجيس، يسعى سبايسر إلى إعادة تشكيل نفسه بوصفه حكيم حكماء صناعة الأمن المخصخص.

ويبدي سبايسر بعضاً من أسلوبه القديم حين يقول: «وجهة نظري هي أن الناس الذين تتعامل معهم هذه الشركة ليسوا مهتمين بالقصص الوردية. أما أصحاب الشأن، فهم يعرفون ما حدث. وإنه لأمر مزعج ... إنهم [أي الأشخاص الذين ليس لهم علاقة] كالبعوض». ويرد سبايسر على منتقديه قائلاً بلهجة ساخرة هازاً كتفيه: «إن ما يهمنا هو أن يكون تقويمنا بحسب أدائنا».

وبعد استشعار عودة سبايسر إلى عادته القديمة، تدخل ريتشارد وجفري ليعيداه إلى المسار الصحيح، فقال جيفري مقاطعاً: «وهذه هي معضلة هذه الصناعة- مدى الشفافية التي تعمل فيها، ومدى الشفافية التي ينبغي أن تكون عليها. يجب أن نكون على مستوى من الشفافية يماثل ما تتمتع به الشركات الخاصة الأخرى. إن لدينا موظفين مسلحين يعملون في مناطق محفوفة بالمخاطر. وعلينا التزامات. إننا أمام مزيج غير متجانس من الشفافية، والتعليمات، ونأمل أن يخضع ذلك كله للتنظيم. إنني كنت، وما زلت، وسأبقى من أنصار إخضاع هذا القطاع للتنظيم الحكومي».

تعامل سبايسر بذكاء مع فكرة تقديم الجنود السابقين قيمة إلى القوات المسلحة (محلياً وأجنبياً) وقدم حجته علناً بالتفريق بين عمليات التدخل، وحفظ السلام، والعمليات الأمنية من جهة، والقدرات العسكرية التقليدية من جهة أخرى. وقد دفعه موقعه الجديد، بصفته قائداً لشركة أمنية خاصة تقدر قيمتها بالملايين وتتمتع بعملاء من الدرجة الأولى في العالم، إلى التخلي عن بعض تحمسه القديم لعمليات المرتزقة. ويحسن به الآن أن يلطف من الدعوات التي ما فتئ يروج لها طَوالَ السنوات الماضية إلى التدخل في المناطق الأجنبية، وأن يستبدل بلغته القديمة لغة أكثر توافقاً مع حساسيات النهج السياسي السائد.

لم يكن مستغرباً أن يتخلى سبايسر عن الترويج لاستخدام المرتزقة بعد العقود المجزية التي أبرمتها شركته مع البنتاغون وتدفق الأموال عليه من كل جانب. يقول سبايسر: «من وجهة نظري، هناك فرق بين «المرتزقة» وبين «الشركة العسكرية الخاصة» إنهما شيئان مختلفان، وبينهما فوارق مميزة. والفارق الجوهري هو أن المرتزقة موجود بصفته الفردية. وقد ساعدت بعض الشركات العسكرية في حمل الناس على استخدام

الفارق التحقـيري. وأكثر الشركات الأمنية الخاصة لن تأخذ في اعتبارها القيام بأعمال المرتزقـة. ووجهة نظري كانت تقـول على الدوم: إن هنـاك الكثير مـن الأعمال المشروعة في المجـال الأمنـي الخاص التي تحتـاج إلى من يقوم بهـا». وتابع سبايسـر إصراره على أن سـاندلايـن -مع كونهـا واجهة منمقة لشركة النتائج التنفيذيـة- لم تكن من منظمات المرتزقـة. «جوهـر القضية هو، هل تعمل بطريقة مشروعـة أم لا؟ إن قلب نظام حكم ما، سواء كنت تحب هذا النظام أم لا، هو عمل غير مشروع». وهنا، منعت نفسي من الضغط عليه بالتركيز على قيام ساندلاين بخرق صارخ لقرار حظر توريد الأسلحة وتهريبها إلى مجموعـة كانت تنوي خلـع حكومة قائمة، أو كيـف أدى تورط سـاندلايـن في بابيوا غينية الجديدة إلى احتجاجات شعبية وإسقاط رئيس الوزراء يوليوس تشان.

بـدلاً من ذلك، سـألتـه إن كان حصوله على عقد أمني في العـراق يظهر أن خبرته في «أعمـال المرتزقة» في سـاندلايـن قد آتت ثمارها. والآن بعد أن أصبـح لديه، بقدرة قادر، حساسيـة عاليـة تجاه عبـارة «المرتزقـة»، راح سبايسر يتحـداني حول تفسـيري لماهية «المرتزقـة». وأصـر مرة أخرى أنه لم يرتكـب أي فعل مخالف للقانـون، وأشار إلى سجل الحكومة البريطانية الطويل في «إعارة ضباطها للعمل في دول أجنبية» أو تزكيتها له للعمل في أماكن مثل سلطنة عُمان.

كانـت الشـركات التـي أسسها سبايسـر قبل الحـادي عشر من سبتيمـبر في أكثرها مشروعـات صغيرة تحاول جاهـدة تأمين بعض العقود الأمنية في مجـال الأمن البحري؛ لأن أكـثر الطلب في ذلك الوقت كان منصباً على برامج مكافحة القرصنة البحرية. وبعد أحداث 11 سبتمبر، أدرك سبايسر الانفراج الكبير الذي طرأ على صناعة الأمن الخاص، فتحرك للاستفادة من جهود الحكومة الأمريكية في الحرب على الإرهاب. فأنشئت شركة إيجيسـ عـام 2002. وتمكنت في العـام الأول مـن نشاطها من اكتسـاب 554 ألف جنيه إسترليني، أي ما يقارب المليون دولار من الدخل. ويعترف تم سبايسر أنه كان يضطر إلى العمـل بكل جهد في البدايـة لمقاومة المخلفات العالقة من فضيحـة سـاندلاين «بعد عملية سيراليـون، وهي العملية التـي خرجنا بعدها نظيفين على نحو كامـل، لكننـا مع ذلك كنا نشعـر بآثـار اللكمات. وقد كنـا في غنى عن ذلك». ويدافع تم عـن سجله المثير للجدل في

ساندلاين، ويقدم إيجيس على اعتبارها مؤسسة منبتة الصلة بالسابق، وذلك بقوله: «إننا نعمل جاهدين للتأكيد على هذا الانفصال. ولدينا ما يكفي من الزمان والمكان، وسجل من الإنجازات المؤكدة التي تفصل بين القضيتين. ونظرتنا هي أن علينا أن نتحدى ونتصدى لكل ما يوجه إلينا من سلبيات، وترهات، وسخافات. ونحن نحتفظ بحق الرد في الوقت الذي نختاره».

وفي الوقت الذي فازت فيه شركة إيجيس بعقد العراق، ظهرت مرة أخرى فضيحة على نمط فضائح شركة النتائج التنفيذية وساندلاين، واضعة سبايسر في مركز فضيحة أخرى تتصل بالمرتزقة. بصعوبة نجح سبايسر في تجنب تورطه في مؤامرة لقلب حكومة غينية الاستوائية. وحين انتهى إلى علم الحكومة البريطانية خبر الانقلاب الوشيك، قامت بدعوة سبايسر إلى اجتماع خاص لتعرف منه المزيد عن التفصيلات، ولكي تصدر تعليمات ضمنية لتحذير صديقه سيمون مان.

في الاجتماع الأول بين مكتب الخارجية البريطانية وسبايسر بشأن تورط هذا الأخير في هذه المكيدة الخارجية، لم يقم أي طرف منهما بتسجيل وقائع الاجتماع، وهو ما أفضى إلى حدوث تشويش واضطراب بعد فضيحة «أسلحة إلى إفريقية» حيث شكك كل طرف في صدق المعلومات الصادرة عن الطرف الآخر. وفي المرة الثانية، حرص الطرفان على تسجيل كل تفاصيل الحوار. ويتذكر سبايسر ما حدث: «كنا نظن أننا دعينا للحديث عن بعض العقود الأمنية. لم يكن لدي أدنى فكرة عن الانقلاب، ولا أي اتصال مع سيمون مان منذ ستة أشهر». ويدعي سبايسر أنه اضطر إلى الاستعانة بأطلس كي يتبين على وجه الدقة موقع هذه الجمهورية الإفريقية الصغيرة؛ لأنه أخبر حين دعي إلى الاجتماع بأن موضوع النقاش سينصب على غينية الاستوائية. ويثير هذا الادعاء كثيراً من الشكوك حول زعم سبايسر أنه لم يكن يعلم مقدماً أي شيء عن الانقلاب، إذ من غير المتصور أن شخصاً عمل عدة سنوات في تطوير فرص العمل الأمني الخاص في إفريقية والعالم النامي لا يكون لديه علم بالموقع الجغرافي لدولة سجلت أعلى معدلات في النمو اقتصادي وأدنى معدلات في المجال الأمني. إضافة إلى ذلك، يقول ريتشارد بيثيل (اللورد ويستبري): إنه تناول طعام الغداء ذات مرة مع سبايسر في منتصف عام 2002، حيث ذكر له بيثيل بأنه

سيدخل في عطاء لتقديم حماية بحرية في غينية الاستوائية، ثم قام سبايسر بالاتصال بعد ذلك بوقت قصير بريتشارد بيثيل ليخبره بأنه هو الآخر يفكر في السعي للحصول على عقد لتقديم الحماية البحرية في غينية الاستوائية، وسأل ريتشارد إن كان لا يمانع من وجود هذه المنافسة له. وليس من الواضح لماذا احتاج سبايسر إلى أطلس لتنشيط ذاكرته حول موقع تلك الدولة.

وبعد بدء الاجتماع، يدعي سبايسر أنهم «سألوني إن كنت أعلم أي شيء عن انقلاب غينية الاستوائية. وقد كنت ورفاقي في غاية الدهشة من توجيه هذا السؤال إلينا». واعتذر سبايسر عن أنه لا يملك أي معلومات لهم في هذا الشأن. ثم قيل له: إن الحكومة البريطانية لديها معلومات تفيد أن أعضاء سابقين في شركة ساندلاين وشركة النتائج التنفيذية متورطون في التخطيط والإعداد لانقلاب يطيح بحكومة غينية الاستوائية.

وبعد عدة أسابيع من ذلك اللقاء، وبعد أن ألقي القبض على سيمون مان في زيمبابوي، وهو يحمل الأسلحة متوجهاً إلى غينية الاستوائية، حاولت الحكومة البريطانية في البداية أن تدعي أنه ليس لديها أي علم سابق عن محاولة الانقلاب. ومرة أخرى، ظهرت الحقيقة في النهاية، ونشرت وقائع الاجتماع بين سبايسر ومكتب الخارجية. وعلى الرغم من تورط واحد من أعوان سبايسر السابقين، وتواتر الإشاعات بأنه كان يعلم بما يحدث، ما زال سبايسر، يصر على أنه «لم يكن لنا أي ضلع بالانقلاب، ولم يسبق لنا أن كنا هناك». ومرة أخرى برئت ساحة سبايسر على الرغم من أن مكتب الخارجية البريطانية أجبر في المرتين على «توضيح» ذاكرته الأولية.

وبعد فضيحة «أسلحة إلى إفريقية»، وبأمر من السيناتور الأمريكي جيمس هيلمز حجز جواز سفر سبايسر، وخضع للاستجواب في مقابلة شخصية قبل أن يسمح له بدخول الولايات المتحدة. وقد نقلت التقارير أن سبايسر كان مقيداً على المقعد حين كان المسؤولون الأمريكيون يستجوبونه حول الهدف من زيارته. ولم يرفع الحظر عن سبايسر بصفته سمسار أسلحه إلا بعد أن تدخل صديق لصديق سبايسر وصف بأنه يتمتع بنفوذ في واشنطن. وقد وجدت كل من وزارة الخارجية الأمريكية والبنتاغون أن من مصلحتهما

التغاضي عن الجوانب المشكوك فيها من سجل سبايسر؛ وذلك لتأمين مسعاهما لنشر جنود مستأجرين في العراق.

وحتى مع وجود هذا السجل الحافل لتاريخ سبايسر المهني والقائمة الطويلة من الأعداء الشخصيين والمهنيين الذين يشحذون خناجرهم للقضاء عليه، بقي الرئيس السابق لشركة ساندلاين يعيش حياة وضاءة. ولا يوجد هناك شخص، ولا حتى سبايسر نفسه، يمكنه أن يفسر تفسيراً شافياً كيف استطاعت شركته المبتدئة أن تفوز بأكبر عقد أمني في العراق.

وكما فسر لي سبايسر في أثناء المقابلة، أنه في أثناء تصفحه صفحات بعض المواقع في الإنترنت بحثاً عن فرص عمل في العراق، وقعت عيناه على نموذج لتقديم العروض. إلا أن عدداً من المصادر المطلعة ذكرت لي أن رئيس مكتب إدارة المشروعات الأمنية في العراق العميد جيمس إلري ساعد في وضع تفصيلات ومحددات مقترحات العروض بحيث تأتي على مقاس شركة إيجيس. ويزعم بعض المطلعين في مجال الأمن المخصخص أن سبايسر يرتبط بعلاقة شخصية مع العميد جيمس تعود إلى أيام الخدمة في الجيش البريطاني. غير أن آخرين يرون أن حصول إيجيس على العقد نشأ من الرغبة الأمريكية في منح المزيد من الفرص للشركات البريطانية للاستفادة من عقود إعادة إعمار العراق. وليس من المستغرب أن ينكر سبايسر بكل قوة كل الإشاعات والأقاويل والاتهامات والادعاءات قائلاً: «إن هذه العروض هي نماذج قياسية في الولايات المتحدة، وقد صدرت هذه من المنطقة الشمالية. وهم الذين وضعوا تلك المواصفات المحددة».

والشرط الوحيد في نموذج تقديم العروض الذي لم تتمكن إيجيس من تحقيقه يبدو أنه الشرط الأكثر أهمية من بين كل المؤهلات المطلوبة، ألا وهو الخبرة، ويعترف سبايسر أنه لا يتمتع بأي خبرة سابقة في العمل في العراق، ومع أن نموذج تقديم العروض يشترط تقديم إثبات على أداء أعمال من وقت قريب تشابه الأعمال التي ستؤدى في العراق، إلا أنه يطرح ذلك جانباً بوصفه مشكلة: « إن الأهمية المعلقة على كل جزء تختلف عن الأخرى. لقد وضعوا أهمية كبيرة على الأجزاء الأخرى». وعلى ذلك، إذا كانت شركة سبايسر تملك فكرة للرد تتطابق مع التوقعات المنصوص عليها في طلبات العروض بدلاً

مــن الخبرة الفعلية، فإن القائمين على تقويم العروضـ سيعطونه الأفضلية على شركات دينكـورب وأولـف، وسي آر جي، وغيرها من الشركات التـي كانت تتنافس على الحصول على ذلك العقد، وتتمتع بخبرة كبيرة في العمل في العراق.

وإذا لم يكـن سبايســر يعلم سلفــاً، أو على الأقـل لم يكن يملك تأكيــدات داخلية بأن إيجيســ سيقع عليها الاختيــار لتنفيذ العقد، فإنني أتساءل لمــاذا قام بنشر إعلانات عن حاجتــه إلى توظيف أشخاص لديهــم خبرة عسكرية سابقة ويتحدثــون العربية للعمل في الشركة قبل شهر من حصوله على العقد؟. وحول هذا السؤال، انهال علي سبايسر بوابل من الإجابات: «لقــد قمنا باتخاذ بعض التدابير التي تنسجم مع توقعاتنا للفرص المتاحة أمامنا. ولو وقع علينا العطاء، فكيف سنتصرف؟ وهذا الاحتمال يتزايد مع مرور الوقت. كانــت معــدلات الاستفسار تزداد يومــاً بعد يوم. فهل من الغباء اتخــاذ تدابير لها علاقة بالفــوز. لقد كنا على أهبة الاستعداد، لقــد كان لدينا قائمة بالأعمال المطلوب تنفيذها». ويتابــع سبايسر لائحته الطويلــة للأسباب: «لقد كنا نتحسس الأخبار لدى مكاتب توظيف العامليــن في هذا القطاع وكنــا نعلم من قبل أنها ستكون علنية، لأننا كنا في غاية الحرص على وضع الأمور في نصابها».

مــن الممكن تفهم رغبة إيجيســ في تبسيط الفهم العام لكيفيــة حصولها على العقد. غــير أن الرواية التي تروج لها إيجيســ تأخذ منحنى أكثر التواءً وتعرجاً بعد التحدث إلى المطلعين على عملية اتخاذ القرار وقت صدوره في بغداد. وفاجأني أحد المسؤولين من وزارة الخارجية الأمريكية كان يعمل في بغداد وقت صدور القرار، بصراحته حين قال: «لم يكن سبايسر يستحق الحصول على ذلك العقد. لقد حصل عليه بوساطة هنتر تشوات».

كمــا فاجأ حصــول إيجيس على العقد تجمــع العاملين في القطــاع الأمني الخاص في بغــداد، وأفضــى إلى نقاش حــاد حول الفارق الكبــير في الخبرة بين إيجيســ والشركات الأخرى التي تقدمت بعروض مشابهة، وكيف يمكن اختيار شركة إيجيس بوصفها الشركة الأنســب مــن غايرها في تحمل هذه المسؤوليــة الجسيمة برغم الفــارق الكبير في الخبرة بينهــا وبين الشركات الأخــرى التي تقدمت بعروض. أما فيمــا يخص أحد موظفي وزارة الخارجيــة، فقد كان الأمر واضحاً جداً: «لقد شربت البيرة مع هنتر تشوات وأعتقد أنني

أعرفه حق المعرفة»، وتابع الموظف المسؤول حديثه حول عملية اتخاذ القرار التي وقعت في بغداد: «إذا وضعت هنتر تشوات في غرفة مع أربعة من صغار العسكريين، فكن على يقين بأنه هو الذي سيقود وجهة القرارات. لقد وضع الشروط المؤهلة، وكان يعرف سبايسر، وكان الأجدر به أن يتنحى عن اللجنة. كان الذين راجعوا العروض هم هنتر تشوات، وستيف بارتون، وشخص من سلاح الجو، وثلاثة من صغار العسكريين».

وحين ألححت عليه للكشف عن أسرار حول العلاقة المباشرة بين التأثير المزعوم لهنتر تشوات ورسو العرض على إيجيس، وسألت هذا المسؤول في الخارجية الأمريكية إن كان لديه أي برهان على هذا الادعاء، فرد قائلاً: «كلا، الدليل هو دليل سلبي». وضحك من سذاجتي في طرح هذا السؤال: «إننا نفترض أن هنتر تشوات سيلتحق بالعمل مع إيجيس بعد تقاعده، ولدينا مقولة تشابه الشعارات التي تجدها في مدينة لاس فيغاس: ما يحدث في بغداد يبقى في بغداد».

لا يوجد دليل على أن هنتر تشوات استفاد من العقد الذي منح لشركة إيجيس، غير أن رفيقه في مكتب المشروعات والعقود العميد جيمس إلري، قد استفاد. كان إلري مسؤولاً عن إدارة الأمن في مشروعات إعادة إعمار قطاع الكهرباء. وعلى الأغلب أنه لم يكن موجوداً في الاجتماع الذي صدر عنه قرار منح العقد لشركة إيجيس. ومع ذلك، ذكر أحد العاملين السابقين الذين كانوا يعملون مع إلري في مكتب إدارة المشروعات أن إلري كان يقدم النصيحة لسبايسر طَوالَ مدة عملية طرح العطاء. وبعد انتهاء خدمته في العراق، تحوّل إلري مباشرة إلى الإشراف على مكتب إيجيس في بغداد. وبدأ يواجه المشكلات منذ يومه الأول في علمه الجديد. ويقول موظف وزارة الخارجية الأمريكي: إنه وجد إلري يكذب حول تقدم مراحل العقد أكثر من مرة. وبحسب ما يقوله المسؤول الأمريكي، فإن مسؤولين من قوات التحالف حذروا إلري في أكثر من مناسبة، ولكنه رفض تنفيذ تعليمات محددة صادرة من مكتب الأمن الإقليمي التابع للسفارة الأمريكية تنصحه بعدم السفر، ونقلت التقارير أن وزارة الخارجية استخدمت تلك المخالفة سبباً في فصل إلري من عمله. غادر إلري بغداد، ولكن سبايسر بدلاً من تسريح إلري قام بترقيته إلى عضوية مجلس الإدارة. وحين سألت مصدري من وزارة الخارجية إن كان إلري قد عمل مباشرة

بعد انتهاء خدمته العسكرية في مكتب إدارة مشروعات إيجيس أم لا، فكر لحظة وقال: «الحقيقة أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي».

إذاً، حصل إلري على ترقية على الرغم من طرده من بغداد، وعلى الرغم من تعرض العملية التي وضعها لانتقادات واسعة على أكثر من مستوى. ولما كانت شركة إيجيس بدأت عملها في بغداد دون أن يكون لها جهاز قائم على الأرض في العراق، فإن من المتوقع أن تواجه مشكلات جمة نتيجة لحاجتها الطارئة إلى أكثر من ست مئة من الحرس المدربين المسلحين وأسطول من العربات المصفحة، وعشرات من مراكز الاستخبارات، وغيرها الكثير للوفاء بالتزامات العقد الذي فازت به. وللإنصاف، ننقل هنا ما قاله أحد المطلعين من داخل الشركة: «كانت المقاومة في مرحلة الغليان، ولم يكن بالإمكان العثور على سيارة مصفحة في العراق؛ ولم يكن الحصول على السلاح بأسهل من الحصول على السيارات المصحفة، وكان الوضع الخاص بالعمليات اليومية عبارة عن سلسلة عنقودية من الفوضى. لم يكن لديهم حتى مكتب للعمل ... لقد كانت إيجيس من الناحية الفعلية كمن يريد صنع الطائرة في أثناء طيرانها».

ومع كل هذا الضغط المسلط على إيجيس لكي تبدأ العمل بتنفيذ عقدها، فإن افتقار وزارة الدفاع إلى عدد كافٍ من الموظفين للرقابة ورصد تقدم تنفيذ العقد قد جعل من الصعب الوقوف على الحقيقة. «كان الناس يروحون ويجيئون، وكانت الأمور تتسم بالصخب والشدة، وكان مديرو المشروعات يشرفون على ما معدله ستون أو سبعون مشروعاً للواحد منهم.... وكان يشرف على عقد إيجيس امرأة في الثانية والخمسين من العمر لا تميّز بين فوهة المسدس من كعبه. لم يكن لدى مكتب المشروعات والعقود أي مسؤول أمني لإدارة تلك العقود».

وعلى الرغم من إخفاق الرقابة الرسمية، فإنه أصبح شائعاً أن إيجيس كانت تواجه مشكلات كبيرة في اللحاق بمتطلبات عملها، وبدأت وزارة الخارجية الأمريكية بالتحقيق في الأمر. وبزيارة واحدة برزت بوضوح مشكلات إيجيس. «كانت الشركة غير مهيأة حين دخلت عليهم.... لم يكن لديهم أي شيء. لم يكن لديهم موظفون، ولم يكن لديهم معايير،

... وكان العاملون فيها يفتقرون إلى المهارة، وإلى التكتيكات، بل وحتى أدنى معايير التمحيص والانتقاء. كانوا يأتون بالأشخاص إلى مرمى لإطلاق النار، ثم يطلبون منهم إطلاق بعض الرصاصات دون أي حكم على مهارات الرماية. وبدأت إيجيس بتوظيف العراقيين وإعطائهم البنادق وتصاريح الدخول إلى المنطقة الخضراء. لقد أصبنا بنوبة قلبية مما وجدناه». ثم ضحك المصدر وأردف يقول: «لقد كنا نفعل كل ما بوسعنا للإبقاء على العراقيين المسلحين بعيداً عن المنطقة الخضراء، وكانت إيجيس تأتي بهم إليها». ونتيجة لذلك، طلب ضابط الأمن الإقليمي إجراء عملية مراجعة وتدقيق للشركة.

أما رواية سبايسر للأحداث فتقول: إن مكتب المفتش العام لإعادة إعمار العراق، وبحسب الأصول المتبعة، يقوم بمراجعة وتدقيق أعمال المتعاقدين من الأكبر فالأصغر وصولاً إلى قاعدة الهرم. «حصلت إيجيس على العقد في الخامس أو السادس من يونيو وخضعت للمراجعة في أكتوبر». ويعزو سبايسر التقرير السلبي الذي حصلت عليه إيجيس إلى السرعة التي حاولت فيها الشركة أن تباشر فيها العمل في العراق. «جاءنا شخصان [من مكتب المفتش] ومعهما بيان بالأعمال المطلوب أداؤها في العقد، وقالا بأنهما يريدان معاينة سجلات التدريب على الأسلحة. وفي مثل تلك البلبلة لم تكن السجلات كاملة. أرني أي جيش في العالم يحتفظ بسجلات كاملة».

ويتناقض ادعاء سبايسر بأن المشكلة كانت تقتصر على مجرد الاحتفاظ بالسجلات مع ما ذكره موظف في الخارجية الأمريكية ومع التقرير الصادر عن المفتش العام؛ إذ يشير تقرير التدقيق الذي نشر أواخر عام 2005، أن شركة إيجيس لم تحسن اختيار موظفيها ولم تقم بتدريب القسم الأكبر من منهم. وأكد التقرير علانية ما كان يقوله المتشككون في جلساتهم الخاصة- من أن إيجيس كانت تختصر الإجراءات وتتجاوز الأصول المتبعة بغية وضع العاملين في مواقعهم في الموعد المحدد، وأن موظفيها كانوا يؤدون عملهم باستخدام سيارات الأجرة ومرافقة حراس أمن عراقيين بدلاً من العربات المصفحة والحرس من الدرجة الأولى. ويسخر أحد المنافسين لشركة إيجيس قائلاً بأنه تأسيساً على المعايير المهنية التي شاهدها في المتعاقدين مع شركة إيجيس، فإن سبايسر لا بد أنه «نظّف السجون العراقية»؛ لكي يستكمل نصاب العاملين عنده.

كمـا تنامت مشاعر السخـط والمعارضة داخل الشركة حتى وصلـت إلى حد دفع أحد الموظفـين السابقين في الشركة إلى إنشاء موقع إلكتروني لنشر الشكاوى من الإدمان على الخمـور، والعجز وعدم الكفاءة، وإهمـال شركة إيجيس، وممارستهـا الإدارة من بعيد. وظهرت أحدث القضايا المثيرة للجدل حول سبايسر أولاً بعد أن نشر شريط فيديو في الموقع الإلكتروني لذلك الموظف، وظهر فيه عدد من المتعاقدين غير المحددين- والمفترض أنهم جميعـاً من المتعاقدين مع شركة إيجيسـ- في قافلة أمنية وهم يطلقون النار على مدنيين عراقيين، ليس من المستغرب أن يقوم أحد أفراد فريق الحراسة الشخصية بإطلاق النار علـى السيارات التي تقترب كثـيراً من القافلة الأمنية، غـير أن المتعاقد الجنوب إفريقي الـذي يعمل لدى إيجيس وظهرت صورته في ذلـك الشريط المثير للجدل لم يظهر أنه قام بالخطـوات التي يجب أن يقوم بها مـن إطلاق رصاصات تحذيرية قبل أن يمطر السيارة المقتربـة بالرصاص. كما أن الخلفية الموسيقية لأغاني إلفيس برسلي في ذلك الشريط لم تضف أي نوع من اللباقة والحشمة هي الأخرى على المشهد.

يقـول سبايسـر، معلقاً على قضيـة الشريط: «ظهر شريط الفيديـو، وكما تعلم يمكن جمـع أي شـيء وإخراجه في شريط للفيديو. لم يكن ذلك جيداً»، ومع أن سبايسر لم يعلن رسمياً نسبة الشريط إلى شركته، ولكنه مع ذلك كان حريصاً على عدم التبرؤ منه. «إننا بحاجـة إلى إثبـات الحقائـق حول ما حدث، ويجـب علينا أنَّ نعرف ما الـذي كان يجري بالضبط، وعلينا أن نفعل ذلك بمنتهى الموضوعية».

ويؤكـد سبايسر لي أنـه «سيكون هناك تفسير علني لما حدث بحسـب الأصول. يتألف المجلس الداخلي للتحقيق في إيجيسـ من محامٍ رفيع المستوى وأمـين السجل في محكمة التـاج البريطاني، ومسؤول أمني كبـير متقاعد من بريطانيا عمل أيضـاً مستشاراً أمنياً في العراق، وضابط صف متقاعد كان يعمل في سلاح الجو. وقام الفريق بتحليل الشريط صـورة فصورة: هل الذين ظهـروا في الشريط من إيجيس؟ وما هي الظروف والملابسات التي وقع فيها الحادث؟ وما هو النظام أو الإجراءات التي ينبغي تطبيقها؟ أمضى الفريق أسبوعـاً أو عشـرة أيام في العراق في كتابة تقرير استغرق مئة صفحة وملحق بمئة صفحة أخرى». ويبدو تم فخوراً بالطريقة التي تعامل فيها مع آخر خلاف يثور حوله وبدأت أشعر

أنه يحاول بناء توقعات في ذهني تقول: إن نتائج التحقيق ستعفيه هو وشركته من أي خطأ أو مسؤولية عن تلك الحادثة. لذلك كان مما يثير الفضول أن ينهي سبايسر نقاشه بعبارة مفاجئة «إنك لن تطلع على ذلك التقرير؛ لأننا متعاقدون مع الولايات المتحدة، وكذلك المعلومات الواردة في التقرير موسومة بالسرية عند عميلنا. وقد لا ينشر التقرير ألبتة. وفي العاشر من يونيو عام 2006، قرر قسم التحقيقات الجنائية في البنتاغون أنه «لن يلاحق أحد بأي جريمة». وأن تقرير التحقيق لن ينشر.

بدا واضحاً أن التحقيق في تلك الحادثة قد أغلق، وهو ما يدفعني مرة أخرى إلى التركيز على قضية انعدام المساءلة والمسؤولية عن أعمال المتعاقدين الأمنيين في العراق، هذه المسؤولية التي يحجبها درع كامل من انعدام الشفافية في العمل. وبحسب ما ذكره لي أكثر المتعاقدين الأمنيين الذين تحدثت إليهم في العراق، أن أكثر الحوادث التي تتعلق بإطلاق المتعاقدين الأمنيين النار على المدنيين العراقيين تبقى طي الكتمان ولا تخضع لتحقيق أو مساءلة. وحين كشفت وسائل الإعلام النقاب عن وجود شريط فيديو للمتعاقدين الأمنيين العاملين في إيجيس، ظهر وقتها أن الجدل الذي ثار في الرأي العام مباشرة بعد عرض الشريط سيؤدي إلى التحرك لوضع حلول لهذه القضايا. ولكن يبدو أن سبايسر قد أتقن فن العلاقات العامة منذ أفول ساندلاين إذ بادر إلى إصدار بيان يقول بأن شركة إيجيس قد سارعت إلى إجراء تحقيق فوري وشامل في الحادثة. وعلى الرغم من التملق والوعود الكاذبة التي يبديها تجاه المساءلة والمسؤولية، إلا أن الظاهر هو أن سبايسر ربما يكون آخر من سيحض البنتاغون على إصلاح النظام القائم. فهو يملك قرابة 40% من شركة قد حققت لتوها دخلاً مقداره 120 مليون (75% منها من عقود العراق) ويملك جيشاً خاصاً مؤلفاً من تسع مئة شخص في العراق. ومع احتمال ارتفاع قيمة عقده مع الولايات المتحدة إلى نصف مليار دولار وتمديده لسنة أخرى، فليس من مصلحته فعل أي شيء يمكن أن يزعزع موقفه الراهن.

ربما يكون لإيجيس مستقبل وردي إذا استمرت في عقودها مع الأمم المتحدة وتوسعت في أعمالها الأخرى. ومع ذلك، يبدو أن أكبر العقود التي أبرمتها الشركة والتي يفترض أن تنتهي في مايو من عام -2007 تواجه خطراً محيقاً. ويذكر مسؤول سابق في

الخارجية الأمريكية أن «وزارة الدفاع الأمريكية تفكر في التخلص من إيجيس في أسرع وقت ممكن». لقد أوجد سبايسر كثيراً من الأعداء، ونقلت التقارير أنه بدأ يظهر وكأنه مصدر للتبعة والمسؤولية بالنسبة للأشخاص الذين يمسكون بخيوط المحفظة. وبعد أخذ كل شيء في الحسبان «يبقى سبايسر شخصية غير مستساغة. إنه [أي سبايسر] ثعبان غادر. وتتردد هنا نكتة حين نتحدث عن ذلك العقد- «ألم يخطر ببال أحد أن يكتب بحثاً عنه في موقع غوغل؟»

ويذهب الموظف السابق في الخارجية الأمريكية إلى أبعد من ذلك ملخصاً وجهة نظره حول هذه الزيادة حديثة العهد في الطلب على خدمات الشركات الأمنية الخاصة بقوله: «إن المتعاقدين الأمنيين في نهاية الأمر هم من المرتزقة، فهم يسعون إلى تحقيق مصالحهم الشخصية الصرفة، وهدفهم الأول والأخير هو المال. بإمكانك أن تلبس الخنزير بزة حسنة ولكنه يبقى مع ذلك خنزيراً.... وسبايسر في نهاية اليوم سيبقى ثعباناً».

استطاع سبايسر تحقيق درجة غير عادية من النجاح بصفته مزوداً شرعياً للرجال المسلحين وذلك على الرغم من ارتباطاته القديمة بالفكرة المثيرة للجدل حول تقديم الشركات العسكرية الخاصة خدمات قتالية هجومية. ويمكن القول: إن سبايسر قد سلك في النهاية الطريق المحترم، حيث أنشأ شركة إيجيس ديفنس، في حين عاد شريكه السابق سيمون مان ليسلك الطريق التقليدي للمرتزقة. ومع ذلك، فإنك حين تستمع إلى سبايسر وغيره من القادة في قطاع صناعة الأمن الخاص وهم يتحدثون عن المستقبل، فإن من الصعب ألا يخطر في بالك إن كانت محاولاتهم المتكررة بعد أحداث 11 سبتمبر هي محاولات للعثور على نقطة المتعة –التوازن بين العدوان السافر وبين حفظ السلام السلبي- المرتزقة الجدد إن شئت.

يمكننا التحدث إلى مالا نهاية عن الدور الذي يدعيه سبايسر لنفسه، وهو دور الناطق الرسمي المنادي بفكرة تنظيم هذا القطاع وتحديد مسؤولية العاملين فيه، وتحديداً بخصوص الطريقة التي تعاملت فيها شركته مع حادثة الفيديو المثيرة للجدل. غير أن سبايسر يشعر بالسعادة من قدرته على القول: إنه أجرى تحقيقاً شاملاً، ويزعم في الوقت نفسه، وبقدرة قادر، أن هذا التحقيق لن ينشر على الملأ، وقد شعرت بشيء

في عيون سبايسر وكأنه على عادته القديمة يقول لي: «اذهب إلى الجحيم، واغرب عن وجهي» وهو ينظر إلى ساعته في إشارة إلى أن وقتي معه قد انتهى.

ومن غريب السلوى أن نشاهد سبايسر في شكله القديم. ولعل ذلك برهان على وجود مسار عند بعض الناس لا يقبل التحول عنه. ويصعب على المرء أن يقرر إن كان نجاح سبايسر جاء نتيجة لتغير المعايير في نظرة الحكومات إلى المتعاقدين الأمنيين أم نتيجة تخليه عن الدرب الذي أرشده إليه سيمون مان. وإذا تمكن سبايسر هذه المرة من تجنب الأضواء، وأبقى على مستشاريه الماليين والقانونيين متأهبين حوله، فإنه يمكن أن يخرج من هذا التزاحم على الذهب العراقي شخصاً أكثر لطفاً، ونبلاً، ومالاً.

الفصل الحادي عشر

بين السيد والأمير

«باستطاعتي تجهيز ألف من الرجال المدربين والمسلحين»

- إريك برنس، مالك شركة بلاك ووتر وشركة غريستون

«نعم،... إلى الجحيم أيها الجنجاويد»

- مدير تطوير الأعمال في شركة بلاك ووتر

بلهجة مفعمة بالحماس والتوقد قال لي غاري جاكسون، رئيس شركة بلاك ووتر: «إننا نسعى إلى أن نصبح شركة عسكرية خاصة»، مشيراً إلى أن بلاك ووتر أسرع الشركات الأمنية الأمريكية نمواً لديها طموحات تتجاوز كثيراً الوظائف التي تؤديها بموجب عقودها الحالية مع الحكومة الأمريكية. لقد كان للسجل الفاضح المثير للجدل لشركة النتائج التنفيذية وخليفتها ساندلاين تأثير مشوّه في مصطلح «الشركة العسكرية الخاصة» بربطه بانطباع بغيض عن المرتزقة الأجانب الذين يستولون على ثروات المناجم بعد نزعها من سيطرة جماعات المقاومة المحلية. ويبدو أن هذا الانطباع لم يمنع غاري من الافتتان بالفرص التوسعية المستقبلية المحتملة في نشاط بلاك ووتر.

أتيت إلى المقر الرئيس لشركة بلاك ووتر ومركز تدريب المنتسبين إليها في مدينة موي-كوك، في ولاية كارولينا الشمالية، للاجتماع بغاري جاكسون ومدير تطوير الأعمال، جيروم ماكلولي؛ كي أعرف منهما المزيد عن التطورات السابقة والخطط المستقبلية لبلاك ووتر. غاري جاكسون هو رجل ناهض الهمة في بداية الأربعين من العمر، عريض المنكبين مفتول العضلات، له لحية كعثنون التيس يتخللها الشيب، وله حضور يطغى على المكان الذي يوجد فيه. يصف غاري نفسه بأنه مدرب سابق في وحدة قوات سيل ويفتخر بأنه عضو في جمعية المتعافين من إدمان الكحول. أما جيري ماكلولي فهو طويل القامة

ضامر الجسم، وسبق له أن خدم ضمن قوات سيل، وهو هادئ متحفظ على النقيض من غاري المتقد المنفتح.

وبعد الاعتراف المفاجئ الذي صدر عن غاري حول طموح بلاك ووتر، فإن كلمة «المرتزقة» وليس «العسكرية» هي أول ما يخطر بالبال. وذكّرت غاري بأنه لو ذهب إلى وسائل الإعلام بهذا العرض المتفائل، لإنشاء جيش كامل التسليح من المرتزقة يقدم خدماته مقابل أجر، لأصيب الإعلاميون بالصدمة والذعر. ويبدو أن غاري قد نسي السلبية العالقة في انطباع الرأي العام عن الجنود المرتزقة الذين يقاتلون بالأسلحة النارية مقابل أجر معين، وهو أمر في حَدٍّ ذاته مدهش؛ لأن بلاك ووتر أصبحت الآن عضواً في جمعية عمليات السلام الدولي. وتقوم هذه الجمعية بتنظيم المحاضرات، وعقد الندوات والمؤتمرات، وغيرها من النشاطات الإعلامية لنشر الوعي وتعزيز استخدام الشركات العسكرية الخاصة في دعم جهود الأمم المتحدة في حفظ السلام. وهو أمر بعيد الاحتمال وإن لم يكن بعيد المنال.

ولتقويم قابلية هذه الفكرة للتطبيق في الواقع العملي، قمنا بمناقشة أشهر العمليات التي قام بها المرتزقة من القطاع الخاص، واتفقنا على أن أنغولا عام 1994، وسيراليون عام 1998، وبوغينفيل عام 1997 كانت أسوأ الكوارث التي خلفت أضراراً جسيمة لا يمكن التلطيف من حدتها. ويرفض غاري فكرة احتمال وجود أي شيء غير أخلاقي أو مشكوك فيه من الناحية الأخلاقية أو الفلسفية في ممارسات الجنود المستأجرين، ويركز بدلاً من ذلك على أن إدارة تم سبايسر في المثالين الأخيرين المذكورين آنفاً هي السبب وراء ما حدث من إخفاق. ويشير غاري إلى أن جيشاً محرراً من القيود في الميدان يمكنه أن يغيّر مسار التاريخ حين يخلع الحكّام الطغاة، ويحقق الأمن، وينعش الحكم الديمقراطي.

«يمكننا نشر جيش كامل أو مجموعة عملياتية على مستوى كتيبة في أي مكان في العالم. ويمكننا تقديم الإسناد الجوي، والنقل والإمداد، وكل ما يلزم لتحقيق الاستقرار والأمن في أي منطقة... وسنملك القدرات الكاملة للحلول محل الجيش النظامي في بعض العمليات».

ويستشهـد غاري بدارفور بوصفها أحـدث عروض بلاك ووتر للعمل. وقد وصف كولن بـاول مـا يحدث في السودان بأنه جريمـة إبادة بشرية، لكن في ظـل انشغال أكثر القوات الأمريكيـة في العراق، فإن الولايـات المتحدة ليس لديها القوة الكافيـة من الرجال لنشر جنودهـا لتغيير الأوضاع هناك: «والأمم المتحدة تحتاج أبد الدهر لفعل شيء ما، في حين أننـا جاهزون للتحرك رهن الإشارة. ويمكننا إرسال مئة شخص لاستكشاف الأمر أولاً»، ثم انهـال غاري عليّ بأفكاره المتفائلة كالمدفع الرشاش: «ثم نرسل الرجال والمعدات». ثم أشـار بيده إلى صورة حديثة التقطت في العراق لثلاث طائرات مروحية صغيرة من صنع شركـة بوينـغ تطير في خط متتابع خلف رتـل من الآليات المصحفـة، وفي المقدمة ثلة من الرجـال شـاهرين أسلحتهم، ويرتـدون دروعاً واقية من الرصاص، ويحملون مزيداً من مخازن الذخيرة.

«لقـد قمنا بتجهيز طائرة كاسـا 212 بمدافع رشاشة، ويمكننـا الآن التحليق والالتفاف بزاويـة 38 درجـة - وراح غاري يحاكـي بكفه حركة الطائرة وزاويـة طيرانها- «وحين نعثر علـى الأشـرار، فسننقض عليهم هكذا». ويبتسم جيري ويقـول متعاطفاً بابتهاج: «نعم، إلى الجحيم أيها الجنجاويد». وانفجر الاثنان بالضحك الشديد غير المتكلف على تلك النكتة.

والجنجاويد هم قوات الميليشيا التي تستخدم الجمال في تنقلها، وتقوم بعمليات القتل، والاغتصـاب، وحـرق القرى في دارفور. ونظـراً إلى تلكؤ المجتمع الـدولي في التجاوب مع هـذه المحنة، وفي الوقت الذي تواصل فيه ميليشيـات الجنجاويد عمليات القتل الجماعي لسـكان جنوب غرب السـودان، فإن قلة هم الذين سيعارضون الفكـرة القائلة: إن شركة أمنيـة خاصة ستجعل من التدخل الإنسـاني خياراً أسهل، وأسرع، وأقل كلفة، أمام القوى الغربيـة. لكـن مع ذلك، وعلى الرغم من النوايا الحميدة التـي يظهرهـا المتحمسون لهذه الفكـرة في هذه المرحلـة الأولية، فإن تمكـين القطاع الأمني الخاص الـذي يملك القدرة والإرادة علـى شن هجوم عسكري مقابل أجر مالي متفق عليه يمكن أن يكون قفزة كبيرة في اتجاه خطير. ذلك أن 15% من تعاقدات بلاك ووتر الحالية، وبحسب ما يقوله غاري، هي عقود تتعلق «بعمليات سرية» لحساب وكالة الاستخبارات المركزية، فليس من الصعب تصـور العودة إلى الأسلوب الذي كان متبعاً قبل إصـدار قانون تشيرتش- بايك في تنفيذ

العمليات السرية في الخارج. ومع انعدام الشفافية في هذه القضايا، فإن الصك الذي يكتب للشركة الخاصة بدواعي الضرورة الطارئة والملحة» يمكن أن يغطي أي شيء. والواقع هو أن أكثر العمل السري ببساطة عمل ثابت ويتصل بأمن الموظفين.

ويصرح غاري بكل ثقة: «سوف ننشر قوة لحفظ السلام بحجم لواء، ويمكنك أن تنقل هذا الكلام عني بالحرف الواحد».

إن فكرة نشر جيش خاص ليست بالفكرة المستهجنة في الولايات المتحدة لسبب بسيط هو أن الميليشيا المدعومة من القطاع الخاص ساعدت في قيام الثورة الأمريكية وتحقيق الاستقلال. والشيء الوحيد المثير للجدل هو فكرة قيام شركة خاصة بإنشاء قوة شبه عسكرية ونشرها في الميدان مقابل أجرة معلومة. غير أن غاري وجيري يؤكدان أن نظرتهما إلى الدور الحالي الذي يؤديانه هو امتداد للالتزامات المترتبة في ذمتهما بصفتهما جنديين سابقين في قوات سيل، وبصفتهما مواطنين أمريكيين. وللإنصاف أقول: إن جاكسون لم يقل إن بلاك ووتر مستعدة لنشر جيش لمصلحة أي زبون وفي سبيل أي قضية. وقد فاته أن يقيّد عباراته الطنانة ومبالغاته في تسويق خدمات شركته، فنسي أن يضيف عبارة «في خدمة الحكومة الأمريكية»، ونظراً لكونه من الجنود السابقين في قوات سيل، وأنه محاط بجنود سابقين من الجيش الأمريكي ومن قوات الشرطة، فإن ذلك القيد يكون مفهوماً ضمناً. وليس لدي أي شك في أن غاري وجيري لن يوقعا عقداً يتعارض مع ما تعتقده القيادة الأمريكية أنه من المصالح الاقتصادية والأمنية للولايات المتحدة. لكن إذا أخذنا في الحسبان سجل وكالة الاستخبارات المركزية في الانفلات والعدوانية في الأيام التي سبقت تشريع تشيرتش - بايك والرقابة النيابية، فإن ممارسة النشاط وفق أوامر القادة الأمريكيين سيكون على القدر نفسه من المشكلات المعقدة والمشينة. وهنا في أرض كارولينا الشمالية السبخة، يصر غاري جاكسون- وهو محق في اعتقاده هذا- على أن الجيش الخاص يمكن استخدامه لتحقيق أهداف خيّرة.

قلة هم الذين يملكون الموارد الكافية لتجنيد وتدريب، ونشر جيش خاص، غير أن صاحب شركة بلاك ووتر، إريك برنس لديه تلك القدرات والموارد. ويعمل برنس هذه

الأيـام علـى نشر هـذه الرسالة حين يتنقـل بين ردهات المبـاني الحكوميـة في العاصمة واشنطن، وفي لانغلي، والبنتاغون، ووزارة الخارجية.

أرباب الصناعة الجديدة

يعـد بار الرؤسـاء الرياضي الواقع في فنـدق رينيسانس في واشنطـن العاصمة مكاناً غريبـاً لعقـد لقاء عمل بين سيّد وأمـير[1]. وقد قام كل من اللورد ويستـبري أحد مؤسسي شركة هارت الأمنية؛ وجورج سيم مدير العمليات في الشركة؛ وإريك برنس بالإعداد لهذا اللقـاء في العاصمـة الأمريكية بغية التحـاور بشأن العمل والتعاون المشـترك. وصلت أنا، وويستـبري، وسيم قبل الموعـد وجلسنا في زاوية فارغة من البـار حرصاً على خصوصية وسرية الحديث.

بلغ اللورد ويستبري، أو ريتشارك نيكولاس بيثيل كما كان اسمه قبل أن يرث لقب أبيه، منتصـف خمسينيـات عمره، وهو أحد الرمـوز البارزة في صناعة الأمـن الخاص، وأحد أقدم المؤيدين المتحمسين للتوسّع في نشاطها. وهو ضابط سابق في القوات الجوية الخاصة البريطانية «ساس» ، ويغلب عليه الهدوء وراحة البال، ويستخدم عوينات مخططة الإطار، وتبدو عليه أبهة الرجل الإنجليزي الثري بقميصه المفصل يدوياً ومعطفه الصوفي الأزرق الداكـن، ويتدلى شعـره الفضي إلى أسفل كتفيه، ويتحدث بلهجـة طبقة النبلاء، غير أن مسلكه يعكس تصرفات المراهق الداعر.

أمـا جورج سيم فهو الشخص المسؤول عن العمليـات في شركة ريتشارد، وهو شخص يحـب المبـادرة، وتحقيق الإنجـازات، وصاحب خـبرة طويلة في القـوات الجوية الخاصة البريطانية. وهو رجل أنيق، منفتح، جاد لا يعرف الهزل، وتبدو عليه سمات رجل الشرطة في بلدة صغيرة، ويتحدث بفخر واعتزاز عن نشأته ابناً لعامل في مناجم الفحم الحجري، ولا يخفي إعجابه باللورد ويستبري، ويصفه «بالأسطورة»، ويعزو جورج الفضل إلى اللورد ويستبري في وضع الإستراتيجية التي أرغمت جيش التحرير الإيرلندي على الجلوس حول

1- الاسم الأخير من مالك شركة بلاك ووتر هو برنس أي الأمير، أما الشخص الآخر في الاجتماع مؤسس شركة هارت فيحمل لقب لورد في بريطانية ويعني السيد.

طاولة المفاوضات، مع أنه لم يقدم مزيداً من التفصيل حول هذا الادعاء. ويقع جورج وريتشارد على طرفي النقيض في الجيش البريطاني- فريتشارد ضابط ومن طبقة اللوردات، في حين أن جورج، واسع الاطلاع والقراءة، وحاد الذكاء من الطبقة العاملة.

أنشأ اللورد ويستبري عدداً من الشركات الأمنية الخاصة، وهو الآن يعد القوة الدافعة وراء شركة هارت. ويرأس هذه الشركة شخص سويدي حاذق اسمه أولي صندبيرغ، ويتمتع بخبرة في إدارة وكالة للدعاية والإعلان وشركة شحن. ويعد ريتشارد نجمهم الساطع الذي «يخلق لهم فرص العمل» مستخدماً شهرته في أوساط الجيش البريطاني لحشد الدعم وتوفير عقود جديدة للشركة.

بدأت الشركات الأمنية نشاطها في المملكة المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، حين قام مؤسس القوات الجوية الخاصة البريطانية السير ديفيد ستيرلنغا بإنشاء خدمات كيلو ألفا (كاس) اختصاراً؛ وهي منظمة تهتم بجمع المعلومات عن الجنود السابقين في القوات الجوية الخاصة، بغية الاستمرار في تقديم الخبرة والخدمات الأمنية للعملاء المحليين والأجانب. وما زالت شركات بريطانية مثل شركة أوليف، وكرول، وبيغرام، وأي كي إي، تقدم خدمات متكتمة للجنود السابقين من القوات الجوية الخاصة. ويبقى «التخفي» هو أسلوب العمل المتبع لدى الجنود السابقين في قوات ساس.

قال لي اللورد ويستبري، بعد أن نفض الرماد من «سيجاره» ماركة روميو جولينا في المنفضة أمامه: «إن أفضل العاملين في هذا القطاع هم فتية هارتفورد»، أو ساس. إن باستطاعة القوات الجوية الخاصة ... الانتشار فرادى إذا دعت الضرورة إلى ذلك. وإذا طلب إليهم أن يبقوا عيونهم على هذه المجموعة أو تلك، فإنهم يؤدون التحية، ثم ينطلقون تنفيذاً للأوامر». ويتميّز الأفراد السابقون في القوات الخاصة البحرية بالقدرة على القيام بعدد من المهام في آن واحد، وبالمرونة في تعاملهم مع المشكلات المعقدة، وهذه نتيجة لأربع وستين سنة من الخبرة العملية في ساحة المعركة وفي العمليات المضادة للإرهاب».
والمصدر الآخر للمتعاقدين العسكريين البريطانيين هو أسطول القوارب الخاصة، وهم من سلاح البحرية الملكي حتى النخاع. غير أن ويستبري يعدهم مربعاً مثبتاً في حفرة

مـدورة حـين يحاولون العمل في مجـال المتعاقدين الأمنيين؛ لأنهم يفتقـرون إلى المعدات اللازمـة للمشهد المعاصر «ويجب ألا يتركوا وحدهـم من دون رقابة». ويضيف ويستبري: «إن قصص نجاحهم يمكن أن تكتب على جلد خصيتي الهمستر[1]».

وبعـد تقاعده من الخدمة في القـوات الجوية الخاصة، التحق ريتشـارد بيثيل بشركة ديفينسـ سيستمز المحدودة عام 1991، وهـي شركة أسسها أليستر وريسون، وهو جندي سابـق في القـوات الخاصة البريطانية ساسـ- 22 وشغل أيضاً منصـب ضابط سابق في قـوات الحرسـ الإسكتلندي. ومع أن مؤسسـ القوات الجوية الخاصـة البريطانية ديفيد ستيرلينغ قد أقام شركته الصغيرة للاستشارات في لندن، إلا أن الهيكل المؤسسي لتقديم المهـارات العسكريـة لم يظهر إلا بعد إنشـاء ديفينس سيستمز المحـدودة. وقامت شركة البـترول البريطانيـة باستخـدام تلك الخدمـات في المناطق التـي تكون فيهـا عملياتها، وموظفوهـا أهدافـاً مقصودة للثوار، والمجرمـين، والجماعات المسلحـة، وفي الدول ذات الموارد المحدودة أو التي لا تستطيع توفير الأمن.

ومع أنه يمكن عدّ ديفينس سيستمز ليمتد أول شركة أمنية خاصة في العصر الحديث، إلا أن النمـوذج الـذي قامت عليـه يشابه إلى حد بعيـد استخدام «الحواجـز» أو الجنود المحليـين تحت إمرة ضباط أجانب لتوفير الحمايـة للممتلكات الاستعمارية في مناطق ما وراء البحار. وأصبحـت ديفينس سيستمز نموذجاً للشركات الأخرى التي أدركت أن ثوار المقاومـة يمكنهم تحقيـق أهدافهم بسهولة عـن طريق مهاجمة الشـركات غير المحمية، بديـلاً عن الأهداف العسكرية. ووجـه بعض المراقبين تهمة الارتزاق إلى بيثيل؛ لأنه يقوم بتدريب حراسـ محليين من أجل حماية حقول نفط الشركـة البريطانية للبترول في دول العالم الثالث من هجمات الجماعات المسلحة، غير أن كلاً من بيثيل وموريسون أكدا بكل وضوح أنهما قدما التدريب اللازم فقط، وأنهما لم يكونا متورطين في العمليات.

وفي عام 1997، باع بيثيل وموريسون حصتهما في دي إس إل التي سجلت دخلاً سنوياً تجـاوز خمسة ملايين جنيه إسترليني إلى شركـة آرمور هولدينغز مقابل 26 مليون جنيه

1- الهمستر حيوان من القوارض يشبه الفأر والجرذ، ولكنه أقصر ذيلاً وأنظف طبعاً من الفأر؛ ولذلك يتخذه بعض الناس في الغرب حيواناً أليفاً، ويسمى في العربية أيضاً قداد.

إسترليني، وهي شركة لصناعة العربات المصفحة في مدينة جاكسون فيل بولاية فلوريدة الأمريكية. ثم تحولت شركة آرمور هولدينغز إلى شركة آرمورغروب وأصبحت تقدم خدمات عسكرية في العراق وحول العالم. ثم شرع مؤسسا شركة دي إس إل بالبدء في تأسيس شركات أمنية جديدة.

أسس بيثيل في يوليو من عام 1999 شركة هارت وشركة أخرى أطلق عليها اسم شركة غلوبال مارين سيكيوريتي (شركة الأمن البحري العالمية) وهذه الأخيرة متخصصة في تقديم خدمات الأمن والحماية البحرية. ومن أوائل المشروعات المبكرة التي نفذتها شركة هارت هو العمل لدى الرئيس الصومالي؛ إذ تعد الرسوم التي تحصلها الحكومة الصومالية من سفن صيد الأسماك في مياهها الإقليمية شريان الحياة للصومال. واستخدم أرباب شركة هارت روابطهم الشخصية بالرئيس الصومالي لعرض برنامج يهدف إلى منع تعرض مناطق الصيد الصومالية لأعمال القرصنة البحرية.

ويفسر جورج الموقف قائلاً: «كانت الصومال هي مشروعنا الأول الكبير، وكانت مهمتنا الأساسية هي إصدار تصاريح الصيد لسفن صيد الأسماك التي تعد مورداً مالياً مهماً للحكومة الصومالية. والصيد الرئيس هو سمك التونة- وهو صيد ثمين. وأسماك التونة ذات الزعانف الزرقاء هي أرقى أنواع التونة. ويمكنك الحصول على عشرين ألف دولار من سمكة تونة واحدة. لذلك قمنا بعملية حسابية بسيطة. أمامك المصاريف الثابتة، وهناك الدخل الإجمالي المشترك بين حركة السفن القادمة والغرامات، ولكن عليك أن تكون حذراً في موازنة الأمور؛ لأن الزيادة في التشدد تؤدي إلى زوال الصيادين وتوجههم إلى أماكن أخرى. وبالمثل فإن التساهل يؤدي إلى زوال الأسماك. وقد خولتنا الحكومة الصومالية بحجز السفن المخالفة ومصادرتها. إن هذه الفكرة لو طبقت تطبيقاً صحيحاً لجلبت الملايين من الأرباح».

«كانت مهمتنا هي تنظيم هذا القطاع والتثبت من حسن إدارته، وعليك توخي الحذر في تعريف من هم القراصنة. كنا نجلس على رأس القرن الإفريقي ونشاهدهم وهم «يشفطون» الموارد البحرية. لقد قمنا ذات مرة باحتجاز قارب أسباني كان يمارس الصيد

دون ترخيص. وهذه الممارسة تعود إلى مئات السنين. احتج الأسبان وقالوا: إننا قراصنة إنجليز. كان العمل ممتعاً. ثم اندلعت الحرب الأهلية، وانهارت الاتفاقية».

هناك مشروعات كثيرة قام بها جنود سابقون كان مصيرها الإخفاق من جراء فساد الحكومات المحلية. ففي سيراليون، أخفق مشروع مشابه قام به مرتزقة سابقون من شركة النتائج التنفيذية لسبب بسيط هو أن شركات الصيد وجدت أن رشوة المسؤولين الحكوميين أقل تكلفة من دفع الرسوم، وبذلك تمكنت من الالتفاف على دفع الرسوم أو التهديد بتوقيع الغرامة.

كانت المهمة الأولية لشركة هارت في العراق هي توفير الأمن والحماية لوسائل الإعلام. ويوضح جورج قائلاً: «حين بدأت هذه الحرب، كنت أتولى حراسة محطة الـ «بي بي سي». وهناك مجموعة أمنية خاصة داخل «بي بي سي» تسمى مجموعة كريون».

ولما بدأت الفوضى وحالة عدم الاستقرار بالانتشار في العراق، فازت هارت بسرعة بعقد لحماية خطوط الكهرباء. «كنا في أوقات مجنونة، وارتفع عدد الموظفين العاملين في الشركة من خمسين إلى سبعين شخصاً إلى مئة وسبعين في شهر واحد. وكان كثير من الأشخاص يأتون ويذهبون، كنا نبحث عن المتقاعدين العسكريين، لكننا كنا نفضل توظيف الأشخاص الذين نعرفهم. كانت الأخبار تنتقل من شخص لآخر. كانت هارت تتمركز قريباً من مدينة آيانبا في جزيرة قبرص؛ لذلك كنا ندرك خفايا العمل في المناطق البعيدة». ويدرك جورج أيضاً أن المتعاقد الأمني الذي يعمل بعيداً عن الشاطئ يكسب راتباً أكثر من الأمريكي الذي يدفع جزءاً من راتبه للحكومة عن طريق الضرائب.

لم تستفد الشركات الأمنية الخاصة البريطانية من العراق وحسب، بل عملت على خلق توليفة أمريكية بريطانية للاستفادة من الحرب العالمية على الإرهاب. وقد عملت خبرة بيثيل الواسعة في القوات الجوية الخاصة البريطانية بدءاً من أفغانستان إلى جزر الفوكلاند إلى عُمان وإيرلندة الشمالية إلى العراق، مضافاً إليها خبرة جورج سيم المشابهة بصفته قائد فوج برتبة رقيب أول في قوات ساس 22، على تعزيز موقع شركة هارت في أماكن عجيبة. وقد تعلم جورج من عمله في ساس أن الإفراط في إنفاق المال أو العنف لا

يحقق سوى القليل. ويبين أن استخدام الحد الأدنى من القوة يجب أن يكون مصحوباً بذكاء إنساني جيد: «إن لدينا طريقة محددة خاصة في أداء العمل. إن ما يحفزنا في أي يوم من الأيام هو التهديد والانطباع الذهني عن التهديد. ونحن نستخدم الحد الأدنى من القوة اللازمة. إذا كنت تتنقل بين الناس طوال اليوم شاهراً سلاحك في وجوههم ومطلقاً عليهم النيران، ألا تعتقد أن هذه النيران سترتد عليك عاجلاً أم آجلاً؟

ثمة فارق شاسع بين طريقة عمل الشركات الأمنية البريطانية والشركات الأمريكية مع أنهما يعملان في حقل واحد. فالحارس الشخصي الذي يعمل في شركة بلاك ووتر يحاول تحقيق السلامة والأمن عن طريق السير بعدوانية وإظهار القوة، في حين يتجه الأسلوب البريطاني إلى الاعتماد على مزيد من الأعوان المحليين والتشبه بالسكان المحليين والاختلاط بهم والحرص على عدم تمايزهم؛ كي لا تلحظهم عيون المجموعات التي تسعى إلى مهاجمتهم. وتستدعي هذه الفلسفة أن تعمل هارت مع العراقيين الذين يجندهم الزعماء العراقيون المحليون -وهم المصدر الحقيقي للسلطة والتأثير في المنطقة المكلفون بحمايتها- وطبعاً هذه المعلومة حول من هو صاحب الأمر والنهي لا تتطابق دوماً مع آراء جيش الاحتلال. وقد قامت أجهزة الاستخبارات العسكرية الأمريكية بالتحقيق مع أحد شيوخ القبائل حول احتمال تعاونه مع المقاومة العراقية، ولكن في النهاية كانت نهاية هذا الشيخ على يد المقاومة التي دبرت عملية اغتياله بسبب تعاونه مع الأمريكيين. وبعد سجل طويل في حكم إمبراطورية كانت تواجه التمرد والعصيان في بعض الأحيان، أتقن البريطانيون التفريق بين درجات اللون الرمادي الموجودة في طبقات مجموعات المقاومة. وتعهد شركة هارت إلى أشخاص أجانب، وهم في العادة جنود وضباط سابقون من بريطانية، وجنوب إفريقية، والولايات المتحدة، بمهمة قيادة فرق الحراسة الشخصية في شركة هارت التي تستخدم حراساً عراقيين. يقول جورج: «لدينا ألفان وخمس مئة عراقي يعملون في شركتنا، ويتقاضى كل منهم أجراً مقداره عشرة دولارات في اليوم. وهذا الإجراء له جانب إيجابي دوماً، وهذا من شأنه أن يحسن أوضاعهم الاقتصادية، لكنّ هناك آثار سلبية؛ فالأشخاص الذين لا يحصلون على الوظيفة سيشعرون بالغضب». ويستخدم الفريق سيارات محلية مستأجرة أو مشتراة، ويبقون أسلحتهم أسفل النوافذ.

ويتحركون بأقل قدر من الصخب والجلبة. ويضيف جورج: «وهذا شيء تعلمناه في إيرلندة الشمالية. ولا يختلف الأمر عنه في العراق».

واستخدام هارت لأفراد عراقيين يعطيهم فهماً أفضل للأوضاع، غير أنه لا يخلو من جوانب خطيرة؛ ذلك لأنه ليس من المستبعد على «الجيش الكبير» مهاجمة واحدة من القوافل الأمنية الصغيرة. وفي أحد الحوادث، أقدمت قافلة عسكرية أمريكية على إطلاق النار على قافلة أمنية تابعة لشركة هارت، فأودت بحياة فتاة عراقية كانت تعمل مترجمة للفريق وكان ذلك في أول يوم من عملها في الشركة. وبعد أن فرّت القافلة الأمريكية، جاءت قوة رد سريع أمريكية لتهاجم قافلة هارت مرة أخرى. وربما كانت هارت تواجه خطر إطلاق النار عليها من الأمريكيين، إلا أن من الواضح أن قوافلها الأمنية تفوت أنظار المقاومة العراقية، مما يجعل هذه الشركة تتمتع بأدنى معدلات القتل والإصابة في صفوف العاملين فيها مقارنة ببقية الشركات الأمنية الغربية في العراق.

وصل إريك برنس إلى الاجتماع متأخراً، وكان يبدو أصغر من عمره الحقيقي الذي توسط الثلاثين. وكان يلبس بذلة محافظة أنيقة، ويضع دبوساً يحمل العلم الأمريكي على طية صدر معطفه. وكانت قصة شعره القصير جداً أكثر ملاءمة لضابط في سلاح البحرية منها لرجل ثري من أرباب الصناعة. وكما ذكرت من قبل، إريك هو المالك الوحيد لشركة بلاك ووتر. وتنتشر إشاعة هنا تقول: إن شركته تدر دخلاً سنوياً قدره 800 مليون دولار. ويقول النقاد: إن الدخل الإجمالي لشركته في أحسن الأحوال هو 600 مليون دولار. وثمة تكهنات تقول: إن عدد كبيراً من العمليات التي تتولاها شركته لا تدر ربحاً نظراً لإصراره على العقود ذات السعر الثابت. ويشعر إريك اليوم بالنشوة والحبور؛ لأنه فاز بعقد بعدة ملايين لتقديم الدعم لبرنامج القضاء على المخدرات في أفغانستان، وحل محل شركة تربل كانوبي في عقودها مع وزارة الخارجية الأمريكية في شمال العراق. وتعد الموازنة بين اللورد ويستبري المتئد الحذر وبين إريك برنس المتقد المندفع أمراً مدهشاً يعكس الفارق في الثقافة والأسلوب الذي يتبعه كل منهما في ممارسة العمل الذي يؤديه.

ينحدر إريك برنس الذي سبق له أن خدم في قوات سيل من مدينة هولاند بولاية ميتشغان الأمريكية، وهو مثال نادر على وريث ثري التحق بالجيش لسبب وحيد هو خدمة

الوطـن. فتح أبوه، إدغر برنس، متجراً صغيراً عـام 1965 لصب السبائك المعدنية أطلق عليـه اسـم برنس مشين كوربس. وبعـد بضع سنوات من ممارسة العمـل في هذا المتجر، ازدهـر العمل وتطورت تجارته وبدأ المتجـر الصغير بتطوير قطع غيار ومكونات تدخل في صناعـة السيارات. واستثمـرت الشركة قسماً كبيراً من أرباحها في تشييد مراكز للتسوق وفي قطاع العقارات، وتوسعت في النهاية حتى أصبح لديها موجودات تتجاوز مليار دولار. وبهـذه الثروة الجديـدة، قام إدغر بتأسيـس مجموعة برنـس لإدارة إمبراطوريته المالية المتنامية من العقارات، والمصانع، والاستثمارات.

كان إدغـر وزوجه يشاركان بفاعليـة في النشاط الاجتماعي والقضايـا المحلية، وكانا من الأتبـاع المخلصين للمذهب الكالفيني المسيحي، وأسهمـا في تعزيز مصالح المسيحية المحافظـة. بدأ إريـك عمله في الخدمة العامة مـن قبل حين هيأ له أبـوه فرصة للتدريب العملـي في مجلس أبحـاث الأسرة، وهذا المجلس هو جماعة ضغـط تعمل في سبيل تعزيز القيـم الأسرية، وتتلقى تبرعات سخية من أبيه، وفي عام 1992، أمضى إريك ستة أشهر مـن العمل التطوعي في حملة جورج بوش الأب للرئاسة، لكنه غيّر ولاءه وتحوّل إلى العمل في حملة بات بيوكانون للرئاسة.

التحـق إريك بكلية هيلسيلديـل الخاصة ذات التوجهات المؤيـدة لمذهب حرية الإرادة (ليبريتيرينزم) قبل أن ينتقل إلى الأكاديمية البحرية، ولكنه قدم استقالته قبل أن ينهي متطلبـات تخرجـه في الكلية، ولكن ليـس قبل أن يتعرف إلى جوان، الفتـاة التي أصبحت زوجتـه في المستقبل. انتسب إريك بعد تركـه الأكاديمية إلى سلاح البحرية، وحصل على رتبـة مـلازم أول، وخدم برنـس مدة أربع سنـوات في قوات سيل فريـق- 8 (المتمركز في مدينة ليتل كريك بولاية فيرجينيا) قبل التغير المفاجئ والمثير الذي طرأ على حياته.

أصيب إدغر برنس عام 1995، بنوبة قلبية حادة توفي على إثرها، ووجد إريك برنس، الذي كان يبلغ من العمر وقتها سبعة وعشرين عاماً، أن قيمه الأسرية، وأخلاق العمل التي يؤمن بها، تلزمه أن يتولى إدارة العمل اليومي لمجموعة برنس. وزيادة في محنته، اكتشفت زوجـه أنها مصابة بالسرطان. فاضطر إريك إلى ترك سلاح البحرية للقيام بمسؤولياته الجديـدة، واتخذ الورثة قراراً ببيـع القسم المتعلق بصناعة السيارات إلى شركة إس سي

جونسون كونترولز مقابل 1.35 مليار دولار، واضعاً بذلك أسرة برنس في قائمة الأسر الأكثر ثراءً في أمريكة. وبعيداً عن نطاق التجارة، تحوّل برنس إلى المذهب الكاثوليكي واستمر في المؤسسات التي تهتم بالقضايا الدينية، وحقوق الإنسان، والقضايا السياسية، كمنظمة التعاضد المسيحي الدولية، ومعهد السياسات العالمية، والحزب الجمهوري.

وفي منتصف عام 1997، بدأ إريك بأعمال الحفر في قطعة شاسعة من الأرض تبلغ مساحتها ستة آلاف اكر في مقاطعة مويوك بولاية كارولينا الشمالية، وهو المكان الذي أصبح فيما بعد مقراً لشركة بلاك ووتر. كانت فكرة إريك الأصلية هي إنشاء ميدان للتدريب على الرماية لتلبية احتياجات العمليات الخاصة في المجتمع المحلي. وأسس شركة بلاك ووتر تارغت سيستمز، التي تتخصص في صناعة أنظمة مبتكرة من الأهداف المعدنية التي يمكنها العودة تلقائياً إلى وضعها القائم بعد سقوطها جراء الإصابة. ثم جاءت 11 أيلول/ سبتمبر، وساعد الاندفاع نحو أفغانستان في مولد شركة بلاك ووتر سكيورتي، وبعد أن أصبح نشاط الأمن الخاص من أكثر مشروعات إريك دراً للأرباح، بدأ إريك بإنشاء المزيد من الأقسام المساندة لهذا النشاط، مثل قسم بلاك ووتر للمناطيد، وقسم كلاب الأثر، إضافة إلى قسم خاص بالطيران في ميلبورن بولاية فلوريدة. ويضم قسم الطيران في بلاك ووتر شركة برزدنشال إيرويز (كانت في السابق شركة طيران مفلسة) وشركة إس تي آي. وقام برنس بتصميم مجموعة متكاملة من اللباس الموحد والأجهزة الخاصة بالمتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في شركته، بل قل: زياً موحداً شبه عسكري لجيشه الخاص به. وهناك مئات من الرجال في العراق يلبسون شعار الشركة المكون من براثن دب داخل دائرة، وتسديد هدف بندقية قناص على صدورهم.

عمل إريك بمثابرة وعزم على تطوير تقنيات جديدة، وهو يحب الطائرات كثيراً، بل يقود هو شخصياً طائرته الخاصة من طراز مولي كرافان في التنقل بين مدينة تايسون كورنز في فيرجينيا الشمالية ومقر بلاك ووتر في مويوك في كارولينا الشمالية. أما أحدث ابتكارات بلاك ووتر في حقل الطيران فهو طائرة كاسا 212 التي أضيف إليها مدفعان رشاشان من نوع إي - 12، ويمكنها إطلاق أربعة آلاف ومئتي طلقة عيار 50 ملم في الدقيقة. وهذه القدرة النارية على إطلاق سبعين طلقة في الثانية توجد تياراً متصلاً من

النـار المصاحبة لإطلاق قذائـف اليورانيوم المنضب الكفيلة بتحويـل عربة مصفحة إلى شيء يشابه قطعة الجبن السويسري.

قـال لنا إيريك: إنـه يستثمر الآن في تطوير عربة مصفحة لنقل الأفراد خاصة ببلاك ووتر مصممة على غرار عربة كاسبر التي تصنع في جنوب إفريقية، وهي عربة مصفحة ذات سرعـة عاليـة، وستكون العربـة الجديدة مزودة بمحرك توربينـي أكبر من المحرك الأصلي ويعمل بالديزل، أما نوابض العربة التي تحمل الهيكل والعجلات، فستكون من صنع شركة دنيس أندرسون صاحبة السمعة الأسطورية في مجال تصنيع الحافلات المتوحشة. وحـين كان برنس يصف حافلته المصفحـة المتوحشة، وطائرته المزودة بالمدفعية، وغيرها من الألعاب، بدا كطفل متحمس في الثانية عشرة من عمره في عيد الميلاد. ويوضح برنس ببهجـة غير مقيدة: «سنقوم بتعديل العربات المصفحة من جنوب إفريقية، وسيتولى هذا التعديل الشخص الذي صنع حافلة غريفديغر (حفار القبور). وستقوم [أندرسون] بوضع النوابضـ، وهي لا تبعد كثـيراً من هنا». ولما كانت أندرسـون في العادة تصمم الحافلات المتوحشـة بقوة ألف وخمس مئـة حصان بهدف وحيد هو تحطيم صفـوف من السيارات والقفز في الهواء برعونة وتحد، فإن الجمع بين هذه العربات والرجال المسلحين يبدو كأنه بعـث غريب مستقى مـن مسلسل الإثارة الرديء الذي ظهـر في ثمانينيات القرن الماضي بعنوان فريق- الألِف.

مـن بين عقـوده الأمنية المقدرة بملايين الـدولارات، يقدم إريك قـوة عمليات بحرية لمراقبـة نشاطات التهريب، وأعمال الإرهـاب في المناطق الغنية بالنفط لحساب الحكومة الأذرية، ويرتبط بعقود مع وكالـة الاستخبارات المركزية في أفغانستان وباكستان، ويقدم كذلـك حماية لوزارة الخارجية الأمريكية في العـراق، وإسرائيل، وهاييتي. ونمت شركته مـن لا شـيء إلى مراتـب الشركات الأقـدم منه في الوجـود والأكبر منـه في الحجم مثل دينكـورب، وكي بي آر، وكرول، وآرمغروب، وكونترول ريسك غروب. ونجح في دمج تركيز سياسـي، وعسكري، وأيديولوجـي، في أعماله، وهي خصيصة ميـزت شركته - كما يرى النقاد- عن نظيراتها من الشركات الأمنية المنافسة مثل إم في إم، وتربل كانوبي، ويو آي أسـ، وغيرها من الجهات المشهورة المختصـة بتقديم خدمات الجنود المسلحين. وتحتوي

النشرة الأسبوعية التـي تصدرها بلاك ووتر على تقارير عن الأخطار العالمية المستقبلية المحتملـة، وعلى تحليلات تعكس الآراء اليمينية المتشددة، ومقـالات داعمة للحرب على الإرهـاب. وتضم الصفحة الأخيرة مقالاً بقلم قس مسيحي. ويعد موقف بلاك ووتر من الحرب على الإرهاب أكثر تشدداً من موقف حكومة بوش. إن ما يتمتع به إريك برنس من ثروة، ومن المعارف والأصدقاء، وتأثير، وتفان في سبيل القضايا التي يؤمن بها، يجعل من بلاك ووتر الوحيدة التي ينبغي تركيز الأنظار عليها.

يحتفـظ إريك برنس بمكتب له في ولايـة فيرجينيا؛ لكي يبقى على مقربة من الخيوط التـي توصله إلى خزينـة الدولة عن طريق فرص العقود. وقد عاد لتـوّه من عرض أمام المسؤولـين في الحكومة الأمريكيـة. ويتطلب نشاطه التجاري خليطـاً دقيقاً من الزيارات حول واشنطن العاصمة. ويعرض باستمرار شرائح باور بوينت أمام أعضاء الكونغرس من الحزب الجمهوري، وأمام المسؤولين في وزارة الخارجية، وكبار ضباط البنتاغون، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وذكر لي أحد أصدقاء إريك أن الطموح الحقيقي لإريك هو أن يجعل من بلاك ووتر الطابور الخامس للمؤسسة العسكرية الأمريكية.

وقـد فرغ إريك اليوم من عرضٍ أحدث عرض قدمه للحكومـة الأمريكية حول تعقب الخلايا الإرهابية في العراق، ويرى إريك أن استهداف الجنود المشاة من عناصر المقاومة هـو تضييـع خطير للوقت والمال والجهد. وقال بتحمس متقـد: «إنني أرغب في وضع خطة لتعقب صانعي القنابل... بدلاً من تعقب عناصر المقاومة، تعقب التقنية، استأصل المراكز الحقيقية للمنظمات». ثم عرض ملخصاً لخطته التي تقوم على تطوير شبكة مستقلة من الاستخبـارات لاستهـداف صانعي القنابل، ثم انتقل فجـأة إلى الحديث عن أفكار أخرى كالإسـراع في تشكيل جيش عراقي فاعل عن طريق وضع رجاله بين العراقيين في التدريب وفي المعارك.

وفي غمرة تحمسه المتقد وحيويته المفعمة حول فوائد الخصخصة، يطفح إريك بالأفكار الجديـدة، ولا يتوقـف عـن ترديد عبـارات «أفضل، أسـرع، أكثر، فاعليـة». وتأتي جميع الأفكار التي يعرضها على الحكومة الأمريكية بسعر ثابت ودون أي مخاطر على الحكومة، وتتشابك مع جهود حكومة بوش في خصخصة كل شيء بدءاً من الضمان الاجتماعي إلى

تسيير الحرب في العراق. ولا يملك إريك أن يمنع نفسه من الترويج لأفكاره حتى أمام المخضرمين من أصحاب الخبرة في هذا الحقل مثل ريتشارد وجورج. ووضح إريك كيف أنه جلب الفاعلية إلى ساحة المعركة: لقد حل عشرون شخصاً من بلاك ووتر محل مئة وثمانية وثلاثين شخصاً في وحدة تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وأضاف بفخر: «لقد كان الجيش بحاجة إلى الدعم من ذلك العدد من الجنود لتقديم القدر نفسه من القوة التي قدمناها بعشرين شخصاً».

لا يعبأ إريك، وجورج، وريتشارد، كثيراً بالنقد الذي يوجهه أساتذة الجامعات إلى قطاع الأمن الخاص. ويقول إريك: «لقد حاولنا دعوة بيتر سينغر [من معهد بروكينز، مؤلف كتاب عساكر الشركات] لزيارتنا في العراق. ولكنه يرفض الذهاب، وحين سألته عن رأيه في نقد سينغر المستمر لاستخدام المتعاقدين الأمنيين المستقلين غير الخاضع لتنظيم الدولة، فكر إريك قليلاً، وقال ساخراً: «دعني أقلْ لك: إن بيتر سينغر يداه ناعمتان جداً».

أما شركة هارت، فأكثر خيبة أملها ليست من النقد النظري للتنظيم الذي يخضع له نشاطها، ولا من العقبات التي تعترض حصولهم على عقود عمل في المناطق التي مزقتها الحرب في إفريقية. يعبر جورج عن ارتياب شديد من قيام الولايات المتحدة بمنح عقد بملايين الدولارات لشركة مبتدئة مثل شركة إيجيس التي يرأسها شخص معروف من المرتزقة هو تِم سبايسر، ولمجموعات ثبت بالدليل العملي عدم كفايتها كمجموعة كستر باتلز التي تخضع لتحقيق بسبب عدد من المخالفات.

وحاول جورج تلخيص الفكرة غير المتصورة لحصول تم سبايسر على عقد بقيمة نصف مليار دولار بقوله: «إنني أسمي ذلك هرطقة تِم» ومجرد التفكير في ذلك يكفي لإصابة جورج بالسكتة القلبية. «إنه شخص فارغ أجوف، يحاول أن يصنع لنفسه شيئاً مهماً، لقد حاول الانتساب إلى القوات الجوية الخاصة البريطانية ولكنه أخفق، إنه بحاجة إلى من يختبر قدراته .. يجب أن نتخلص من الأدعياء، وتِم هذا هو على رأس القائمة».

وعـادة ما يلتزم العاملون في الأمن الخاص الصمت حيـال الانتقادات التي توجه إلى الشـركات الأمنيـة الأخرى والعاملين فيها، انطلاقاً من الاعتقـاد بأن التقليل من تسليط الضوء على إخفاق أفراد في هذا القطاع فيه فائدة للمجموع. ويعكس أحد أشد الانتقادات التـي يوجهها ريتشـارد إلى سبايسر البيئة الكتومة لهذه الصناعـة حين قال: «لقد أفسد وأساء حين توجه إلى الصحافة لعرض قضيته. ولا تحل الأمور بهذه الطريقة».

وبالنظـر إلى الموقف الدفاعي المشترك الـذي يتميز به المنتمون إلى هذا القطاع، فإن استمـرار جورج في ذكـر تم سبايسر جدير بالملاحظة، حتى في ضـوء الأخطاء الواضحة التي ارتكبها سبايسر: «إنه – أي تم سبايسر- شخص بذيء غبي، تافه، حقير، لم ينجح قط في شبابه. لقد ترك أثراً سلبياً كبيراً في هذه الصناعة». وهز رأسه ممتعضًا.

أمسـك اللورد ريتشـارد لسانه عن فاحش القـول في وصف سبايسـر، ولكنه مع ذلك عبر عن ازدرائه لوسائل الإعلام على قولها: إن سبايسر كان عنصراً في القوات الخاصة البريطانيـة: «لقـد أخفـق تم في اجتياز متطلبات الالتحـاق بقوات ساس، ومـع أنه يتمتع باحترام في الجيش البريطاني، إلا أنه لم يكن يعد من المبرزين في الميدان».

وربمـا تأتي نظـرة ريتشارد المتسامحـة تجاه سبايسر مـن معرفته السابقـة له. «إنه شخصـ يعمل بجـد ومثابرة. وحين طلب إلى سبايسر العمل مـع شركة النتائج التنفيذية وشركة ساندلاين جاء إلي يستشيرني. وقلت له وقتها محذراً: «إنك إذا دخلت هذا الباب، فلن تستطيع الخروج منه».

يعشـق إريك هالـة الجاذبية والغموض التـي تحيط بالمرتزقة، والشـركات العسكرية الخاصـة، والأشخاصـ المؤثريـن في هـذا المجال، مثل ريتشـارد وجـورج؛ الرجال الذين تعقبـوا القراصنة في الصومال، وقدموا الاستشارة إلى سلطان عمان، وقاتلوا الإرهابيين في شوارع بلفاس، وقدموا الحماية للأسرة المالكة في بريطانية. أما ريتشارد وجورج فهما معجبـان بالتحمس غير المحـدود والحميّة الوطنية التي يتمتع بهـا إريك التي تختلف عن النمـط الهادئ والمحافظ الذي يطغى على القـادة السابقين في قوات ساس. وتثير المبالغ الكبـيرة التـي تنفقها الولايات المتحدة في العراق لإعادة اخـتراع العجلة اهتمام ريتشارد

وجـورج. فهما يريان أن محاولة الولايات المتحـدة الدخول في صراع مع المقاومة، وحماية أعمال البناء في البنية التحتية، وحماية موظفي الحكومة والعمال في الوقت الذي تعزز فيه مصالحها التجارية؛ هو عمـل فعله جنود الإمبراطورية البريطانية، ومفوضو الاستعمار، والقراصنة التابعون لها قبل مئات السنين.

وتختلف ذاكـرة التاريخ البريطاني حول استخدام المرتزقـة والقراصنة عن نظيرتها الأمريكية؛ إذ يعود التقليد الإنجليزي في استخدام الشركات العسكرية الخاصة إلى عهد الحروب الصليبية، حين كان الأثرياء يؤلفون الجيوش الخاصة للقتال في الأرض المقدسة. ثـم ظهـر فيما بعد القراصنة أصحـاب البطولات الملحمية، والإثـارة والمغامرة من أمثال السـير فرانسيس دريك[1] والشركات الاستعمارية التي تتمتع بامتيازات ممنوحة من التاج البريطاني الذين قاموا بتوظيف جنود محليين لفتح مناطق جديدة لمصلحة الإمبراطورية البريطانيـة. وكلمة «مرتزقة» في التقليد البريطاني تثـير انطباعاً من الحيوية والاعتماد علـى الذات. أما في أمريكة، فللكلمة شعور قبيح يحيي في الأذهان واقع البطش في أنغولا، وأنباء قبائل النمغ، وعصابات الكونترا، وفرق الموت في أمريكة اللاتينية، ولا تفوت مفارقة العاملين في قطاع الأمن الخاص قيام الأمريكيين وشركائهم البريطانيين بتوظيف المرتزقة في العـراق وأفغانستان. وفي حين أن الحكومة الأمريكية لديها تاريخ محدود في استخدام المرتزقـة في الخـارج لأغراض محددة بالـذات عن طريق وكالة الاستخبـارات المركزية، عملـت الحرب في العراق علـى تقديم تسويغ عصري لوضع النظـام بصيغة رسمية، وهو شيء تعلّمه الإنجليز قبل عدّة أجيال.

إن أحـد أسبـاب اللقاء بين هارت وبلاك ووتر هو رغبـة الطرفين في معرفة نوع العمل الجماعـي الـذي يمكنهما تطويـره معاً. وتأمـل هـارت في الدمج بين الخـبرة التاريخية

* مستكشف وبحار إنجليزي (1540 - 1596)، قام بنهب السفن الأسبانية في أمريكة الجنوبية بأمر من الملكة إليزابيث الأولى، وبعد ذلك عبر مضيق ماجلان الذي يفصل المحيط الأطلسي عن المحيط الهادئ أسفل القارة الأمريكية الجنوبية وتوجه بسفنه شمالاً ليرسو في خليج صغير بالقرب من مدينة تعرف اليوم باسم سان فرانسيسكو، وأعلن خضوع تلك المنطقة للتاج البريطاني. ولا يزال الشاطئ الذي رسا فيه يحمل اسمه حتى هذا اليوم. وقام بعدها باستكشافات بحرية أخرى، وكان أول إنجليزي يدور حول العالم عن طريق البحر. أنعمت عليه ملكة بريطانية بلقب فارس على إنجازاته في خدمة الإمبراطورية. (موسوعة إنكارتا بتصرف).

البريطانية ونمطها المحافظ باستخدام الخبرات المحلية تحت قيادة ضباط من الطراز الأول وبين الروح الأمريكية الشركاتية المثابرة التي تتمتع بها بلاك ووتر. وقد شجع مشروعهما المشترك باختيار العميل شركة هارت بوصفها المتعاقد الرئيس. ويسعى إريك الآن إلى توسيع مجال نشاط شركته، وتسعى هارت إلى تصدير ثقافتها القائمة على العمل الكتوم والاستيعاب إلى ثقافة بلاك ووتر المقتحمة والمتخوفة من الأجانب، المستقاة في الأصل من ثقافة قوات سيل.

ذكر إريك في أثناء اللقاء أنه يريد أن ينشئ قوة لحفظ السلام والتدخل في إفريقية، مع التركيز تحديداً على منطقة دارفور جنوب غرب السودان. وعبر جورج وريتشارد عن شعورهما بالإحباط من انعدام الاهتمام لدى الحكومات ومنظمات الإغاثة من الاستفادة من خبرات جيش خاص لحل مشكلاتهم المتعلقة بالأمن والاستقرار في إفريقية. ويوجه جورج تركيزه على الكونغو، حيث مات الملايين من البشر هناك دون استثارة اهتمام يذكر من المجتمع الدولي، وحين أخفقت قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في التخفيف من معاناة السكان على الرغم من طول مكثها هناك.

ويزعم جورج أن «الكونغو تحتوي على كل شرور التفسخ الاجتماعي: الإيدز، وتجنيد الأطفال، والأمراض والأوبئة، والحروب، والجريمة، والقائمة تطول. كل شيء في كل قسم من الدراسات العلمية والإنسانية جرت الإساءة إليه في تلك المنطقة. ومع ذلك، يمكن لقوة صغيرة لحفظ السلام أن توافر الحماية الكافية للسكان بأقل قدر من الصعوبات».

ويرى إريك أن قيام الحكومات والأمم المتحدة باستئجار الجيوش الخاصة هو التطور النهائي لاستثماره التجاري في شركته الخاصة بلاك ووتر، التي تنمو بسرعة كبيرة، ولديها الاستعداد الكامل للاستفادة من توجهات حكومة بوش في خصخصة الحرب على الإرهاب. وحتى لا أنسى، راح إريك يذكرني مرة أخرى قائلاً: «إننا جاهزون لنشر كتيبة في أي مكان في العالم».

يمكن لشركة هارت بنشاطها الخارجي، ووضعها المالي الرفيع، واتصالاتها الحكومية حول العالم، أن تقدم الكثير لثقافة بلاك ووتر المصبوغة بالصبغة الأمريكية. وأعاد

جـورج أهم درس تعلمه في أثنـاء سنواته في ساس: «لكي تهزم عدوك، ليس بالضرورة أن تقتل. هناك أثر سلبي وحتمي للقتل. وحتى حين كنا ننصب الشراك في إيرلندة الشمالية، كان هدفنـا هـو القبض على المشتبه بهم وليس قتلهم، وخـبرة جندي القوات الخاصة في تلك اللحظة هي في غاية الأهمية. إنها شيء فطري. هذا ما نقدمه لهذا العالم. إنه شيء مقيت أن تطلق رصاصة تحذيرية. وليس من الكياسة ألبتة أن تطلق النار من سلاحك».

يريد برنس من هارت أن تساعده في تطوير معرفته وصقل مهاراته في العمل في المناطق الأجنبية، وهو أمر سيفيد منه كثيراً في أحدث مشروع تجاري له: شركة غريستون. وتمثل غريستـون نقطـة تحوّل لإريك؛ لأنها ليست هيئة أمريكيـة في الظاهر؛ بل شركة عسكرية خاصـة خارج حدود الولايات المتحدة، وستقوم بتوظيـف موظفين محليين بحسب التقليد الإنجليزي- فرقة أجنبية بقيادة غربية، على غرار ما كانت تفعله شركة النتائج التنفيذية، وساندلاين، وإرينز، وهارت.

يشعـر إريـك بالسعادة خصوصـاً أنه ينوي إقامـة حفل استقبال كبـير للإعلان عن فكـرة غريستـون بعـد أسبوعين. وسيقـام الحفل في فنـدق ريتز كارلينتـون في واشنطن العاصمـة، ويتوقع برنس أن يشمل الحضـور قائمة طويلة من الدبلوماسيين الذين يمثلون قطاعـاً عريضاً من الأمم، إلى جانـب رؤساء الشركات النفطية، وخبراء المال، ومصنعي الأسلحـة، وغيرهم ممـن يمكنهم الاستفادة من خدمات القـوات المسلحة المخصخصة. وسيلقي خطـاب الافتتاح كوفر بلاك الذي عمل في السابق مديراً لمركز مكافحة الإرهاب التابـع لوكالـة الاستخبارات المركزيـة الأمريكية، ويشغل الآن منصـب نائب المدير العام لشركة بلاك ووتر.

لا تبـدو رسالـة غريستون في أن تكـون شركة عسكرية خاصة متاحـة ولديها القدرات لحـل المشـكلات الأمنية علـى مستوى العـالم، كما كانت تفعـل شركة النتائـج التنفيذية وخليفتهـا ساندلايـن، رسالة غامضـة أو خافية. والهدف المباشـر في الوقت الراهن، هو تقـديم خدمات الأمن الثابـت للزبون الذي لا يمكنـه تحمل تكلفة استخـدام الأمريكيين والبريطانيين. فأجرة الجندي السابق في الجيش الأمريكي، والجيش البريطاني، أو جيش جنـوب إفريقية، تتراوح ما بـين 400 إلى 600 دولار أمريكي في اليوم الواحد. في حين أن

عناصر الغورخا، والتشيليين، والجنود السابقين من الدول النامية سعداء بتقاضي نصف أو حتى عشر ذلك المبلغ. ومع أن سوق المتعاقدين الأمنيين ذوي المهارات العالية يشهد نقصاً في العرض وزيادة في الطلب، إلا أنه يوجد وفرة في جنود الصف. وسيكون من بين الذين سيستمعون إلى الحجج التي سيعرضها كوفر بلاك لجدوى هذه الشركة في الاحتفال رفيع المستوى، الذي يتطلب لبس زي رسمي هو معطف أسود وربطة عنق فراشية الشكل، ممثلون حكوميون من الفلبين، واليمن، وإندونيسيا، وأنغولا، وروسية، وكينيا، وتونس، ودول أخرى. وربما يمكّن الجمع بين احتياجاتهم وبين عشق إريك برنس للعمليات شبه العسكرية السرية، وأفكاره المحافظة الهجومية، وفلسفته الشركاتية التوسعية في العمل، شركة غريستون من إقصاء الحدود المفروضة على الأمن الخاص.

وتقدم النشرة التعريفية بمشروع غريستون والموقع الإلكتروني الخاص بالمشروع عرضاً لخدمات التدريب، وتقويم الحالة الأمنية، وخيارات الحماية التي يمكن توقعها من الشركة. وربما فات الناظر غير المهتم ملاحظة هذه الفقرة التي صيغت بعناية:

فرق اشتباك سبّاقة:

إن عناصر غريستون جاهزون لإعداد قدراتهم بما يتناسب مع المتطلبات الأمنية القائمة، أو الطارئة لاحتياجات الزبون في الخارج. إن فرقنا مستعدة للقيام بجهود فرض الاستقرار وبسط الأمن، وحماية الممتلكات واستعادتها، وإخلاء الموظفين والعمال من أماكن الخطر في أوقات الطوارئ.

باختصار: ستقوم غريستون ببيع الخدمات نفسها التي كانت تقدمها شركتا النتائج التنفيذية وساندلاين؛ إذ كانت أولى عمليات النتائج التنفيذية تقوم على استخدام المرتزقة «لاستعادة ممتلكات توني بكنغهام، وتحديداً معدات التنقيب عن النفط؛ أما عمليتها الثانية فكانت شن حملة هجومية لدحر ثوار حركة يونيتا، بعد ستر تلك العملية بوصف عمليات تدريب؛ أما مشروعها الثالث فكان القيام «بجهود بسط الاستقرار والأمن» في سيراليون. وبالنظر إلى فرص التعاقد المتاحة أمام غريستون، فإن المستقبل يعد بزيادة الغموض حول الخط الدقيق الذي يفصل بين العمليات الأمنية الخاصة وبين

العمليات العسكرية الخاصة. ومن المستحيل التنبؤ بالوجهة التي سيقصدها جيش إريك، ولكنها بخصوص الزعمـاء الأجانب، ستقدم حتماً إضافة تحسينية كبيرة ومشروعة إلى المؤسسة العسكرية التقليدية والعمليات السرية.

بات واضحاً لي من ذلك الاجتماع أن ثمة جداراً عالياً لا يزال يفصل بين نظرة هارت الإنجليزيـة للأمن وبين نظرة الشجاعة الجديدة في عالم المحافظين الجدد. وفي حين لم يـزل حلم إريـك بِنَشر جيش خاص ينتظر التحقـق، إلا أن القائمين على شركة هارت قد سبـق لهم أن ساروا في ذلك الطريق من قبـل. وقد وضعتهم مهنتهم العسكرية في أماكن مثـل عُمـان و أفغانستان حين كانوا يقودون وحدات كبيرة مـن الجيوش المحلية، وقد طوّر كل مـن ريتشارد حـين خدم برتبة نقيب في قـوات ساس، وجورج حين خـدم برتبة رقيب أول في وحـدة سـاس 22، وعلى مدى عقدين مـن الزمان مهـارات في التعامل مع أعمال المقاومـة، والحروب القذرة، والعمليات السرية، ليس من السهل اكتسابها. وفي حين يروج برنـس لصورة زاهية للشركـة العسكرية ذات التقنية العاليـة، والفرسان الذين يجوبون الشـوارع، التي يمكنها حـل أي مشكلة أمنية للزبون عن طريـق استخدام القوة الكاسحة والأسلحـة المتقدمة، يقوم ريتشـارد وجورج بهدوء بالترويج لفكـرة الحلول الهادئة، التي تراعـي الثقافة المحلية. وكرر جورج مرة ثانية عبارتـه الشهيرة أمام إريك برنس قبل أن ينفض الاجتماع: «إنها تطبيق الحد الأدنى من القوة».

الفصل الثاني عشر

شركة خليج بنين

«علينا أن نتوقع سلوكاً سيئاً، وخيانة، وتفشياً في الجشع والأثرة الفردية، وتصرفات رعناء (كتصرفات الصبي غير المؤدب في محل بيع الألعاب)، وغيبة ونميمة، وأفعالاً دونية لا تليق بالأشخاص المحترمين»

- وردت هذه العبارة في خطة سيمون مان لتأسيس شركة خليج بنين.

«يبدو أن إخراجنا من هنا يتطلب مبلغاً كبيراً من المال»

- وردت هذه العبارة في رسالة كتبها سيمون مان من السجن

كانت أصوات انفجار قذائف الآر بي جي القادمة من الأدغال، وما تبعها من طلقات البنادق الرشاشة هي بداية الهجوم القادم من الأدغال المحيطة بمدينة فوينجاما شمالَ ليبيريا. أخذ ثوار اتحاد الليبيريين للمصالحة والديمقراطية أسلحَتهَم وبدؤوا يتجهون نحو مصدر إطلاق النيران، في حين كانت وحدة من الأطفال المجندين ذوي الثياب الرثة يرقصون ويهتفون. وسارع سكان القرية الذين طغى عليهم الخوف إلى جمع أمتعتهم وبدؤوا بالفرار من القرية.

لم يُخِفْ حارسي الشخصي نقولا دو توا - وهو جندي مرتزق يبلغ من العمر 46 عاماً وضابط متقاعد برتبة عقيد من كتيبة - 32 من جنوب إفريقية - انزعاجه من هذا الحدث الذي قطع عليه قراءته في شرفة المنزل المضعضع الذي كنا نقيم فيه. وتنبعث من هذا الرجل الجسيم عريض المنكبين ذي الشعر البني القصير والأنف المعوج، مهابة الحرس الشخصيين، غير أن مظهره هذا يتناقض مع طبيعته السهلة وسلوكه الهادئ. ولما رآني

حاملاً آلة التصوير متوجهاً نحو مصدر الجلبة، وضع الكتاب الذي بيده وحمل بندقيته الرشاشة وتبعني على مضض. وحين وصلنا إلى ساحة القتال، كان ثوار اتحاد الليبيريين للمصالحة والديمقراطية (لورد) يرقصون حول جثة شخص منبطح على الأرض. ثم قاموا بقطع رأس الجثة ورموه نحوي تعبيراً عن ازدرائهم بمصير الرجل الهالك أمام الكاميرا. لم يتأثر نقولا بمشاهدة احتفال الثوار بانتصارهم؛ لأنه في الغالب شاهد أسوأ من ذلك كثيراً في حروب الأدغال التي شارك فيها على مدى أكثر من عشرين عاماً. ولاحقاً في ذلك اليوم، جاء الثوار إلى منزلنا ليقدموا لنا الرأس هدية تذكارية بعد أن ربطوا أذنيه بسلك ليسهل حمله. وهذه المرة لم يحرك نقولا رأسه عن الكتاب الذي كان يقرأه.

وفي مساء ذلك اليوم من صيف عام 2002، أخبرني نقولا عن مهمته القادمة حيث قال: إنها شيء عظيم. وقد أضفى ضوء الشموع في منزلنا الخالي من الكهرباء جواً تآمرياً على حديثنا حين كان يصف خطة لقيادة مئة رجل واجتياز البحيرة بالقوارب من بوجومبورا في دولة بورندي إلى شرقي الكونغو لبدء حرب مع الرواندين الذين احتلوا المنطقة. وسيقدم هذا التصعيد ذريعة لجيش حكومة الكونغو لدخول المنطقة الواقعة تحت إشراف الأمم المتحدة واستعادة حقول الماس ذات الأرباح المجزية. وكان على نقولا أن يحضر معه حفنة من الماس ويقتسم العوائد مع كابيلا الأصغر رئيس الكونغو المدعوم من الولايات المتحدة. وقد تبدو هذه القصة في أحوال مختلفة ضرباً من أوهام رجل خرف من المرتزقة، غير أننا كنا في أدغال إفريقية، وهذا المتحدث هو نقولا دو توا.

تمتع نقولا في مقتبل عمره، إذ كان يشغل منصباً قيادياً في قوات دفاع جنوب إفريقية، وكتيبة 32 المعروفة بكتيبة «العجول»، وكان يقوم بمهمات مطولة في العمق الأنغولي لمحاربة الثوار المدعومين من الشيوعيين، وذلك في المدة الممتدة من منتصف السبعينيات وحتى نهاية الثمانينيات، ثم انخرط في احتراف الارتزاق، وعمل في عدد من الشركات الأمنية، منها شركة النتائج التنفيذية. وقد طلبت، في معرض الحديث، أن يتصل بي إذا كتب لتلك الخطة أن ترى النور. وحين غادرت ليبرية، كانت تخامرني شكوك حول احتمال سماع أي شيء من نقولا أو حتى رؤيته مرة أخرى، غير أن التحول الذي انتهى إليه مصير هذا الرجل دفعني في النهاية إلى الخروج في طلبه بعد أربع سنوات من ذلك اللقاء. ففي

آذار/ مارس من عام 2004، ألقي القبض على نقولا، وحوكم، وأدين بجريمة محاولة تدبير انقلاب على رئيس غينية الاستوائية. وفي ربيع عام 2006، سمح لي الرئيس أوبيانغ أخيراً بزيارة نقولا في سجنه.

أمر أوبيانغ بهدم سجن الشاطئ الأسود ذي السمعة السيئة الواقع في جزيرة بي- أوكو، وإقامة سجن جديد أكثر تحصيناً لوضع نقولا ورفاقه المرتزقة الذين ألقي القبض عليهم معه. وحين كنت أنتظر على بوابة سجن الشاطئ الأسود الجديد في ضواحي مدينة مالابو قبيل الغروب، كان باستطاعتي رؤية رجل نحيل، أشيب، مقيد بالسلاسل يسير سيراً متثاقلا نحوي. عرفت الأنف المكسور، ولكنة السكان البيض في جنوب إفريقية. غير أن نقولا الذي أراه أمامي يختلف عن نقولا الذي قابلته في السابق. كانت السلاسل والأغلال التي لا تفارق أطرافه مغطاة بطبقة ثخينة من المطاط لمنع انسلاخ جلده من أثر الحديد. قال لي: إن هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها من سجنه منذ ستة شهور. كما لقي أحد أعوانه وهو غيرهارد ميرتز حتفه في السجن - بسبب ملاريا الدماغ كما قيل- كما أن نقولا نفسه يعاني سرطان البروستات، ويعاني الباقون الإصابة بالملاريا العادية، وما زال أمام نقولا الذي بلغ الخمسين من عمره قضاء ثلاثين سنة في هذا السجن المنتن لاستكمال مدة عقوبته، وقد ظهر لي أن من المستبعد أن يعيش تلك المدة نظراً لهيئته الرثة وصحته المتردية. وكان إلقاء القبض عليه في غينية الاستوائية نهاية مذلة لمهنته، كما تعلمت منها دروساً بليغة في محاولاتي اكتشاف المناطق المشتركة بين نطاق الأمن «المخصخص»، وبين نشاط المرتزقة.

في خضم الجدل القائم اليوم حول عدّ المتعاقدين الأمنيين من المرتزقة أم لا، يصر يسار الوسط على أن «المتعاقدين الأمنيين من القطاع الخاص» الذين يعملون في أماكن مثل العراق هم مرتزقة أقحاح، في حين يصر اليمين السياسي على أن كلمة «مرتزقة» هي تعبير مهين مشين ولا ينطبق إلا على الاستخدام الواضح للجنود السابقين في الحروب الأجنبية. والخط الفاصل الأسهل بين الاثنين هو الدفاع في مقابل الهجوم، غير أن الطبيعة التعاقدية وحاجة الجنود السابقين إلى كسب المال تجعل من التنقل بين هذين العالمين أمراً ممكناً، بل شائعاً. وقد كان نقولا يقفز بين هذين الخيارين المنفصلين، وغير

المحددين من الخيارات المهنية. فحين كان يخطط لقيادة جيش من المرتزقة إلى الكونغو، كان يتولى مهمة تقديم حراسة شخصية لي. وتذكر التقارير كذلك أنه عمل بعقد في تدريب جيش غينية الاستوائية قبل محاولته الانقلاب على نظام الحكم هناك. ويظهر نقولا دي توا أن الجندي المرتزق والمتعاقد الأمني الخاص يمكن أن يكونا شيئاً واحداً.

ومن الجوانب المثيرة في محاولة الانقلاب في غينية الاستوائية هي أن المتآمرين الذين شاركوا في محاولة الانقلاب كانوا يرون تطابقاً بين خطتهم التي وضعوها بداية عام 2003 وبين الاحتلال الأمريكي للعراق. فبعد سقوط الادعاءات الأمريكية بشأن الخطر الداهم لأسلحة الدمار الشامل العراقية، وقيام حكومة بوش باللجوء إلى حجة أن صدام حسين كان حاكماً ظالماً يمارس التنكيل بشعبه قتلاً وتعذيباً، ولذلك فإن الحاجة قائمة إلى وقفه وخلعه. قام الذين دبروا للانقلاب بالتخطيط لحملة علاقات عامة، كما فعلت حكومة بوش، بحيث يجري تقديم الانقلاب بوصفه إزالة لحاكم ظالم مستبد يضطهد شعبه، وطمس الأسئلة المحرجة حول الأدلة المنحازة، والشرعية الدولية، والدعم الشعبي. وتبنى مخططو الانقلاب في غينية الاستوائية الغنية بالنفط هدفاً عالياً، مع أنه سيكشف في النهاية أنهم كانوا يسعون إلى المال، وليس حماية المثل الإنسانية، وأن الإطاحة بهذا الحاكم المستبد بهذه الطريقة العنيفة وغير الشرعية هي أفضل وأسهل طريقة للسيطرة على دولارات النفط في ذلك البلد.

غينية الاستوائية

تتألف دولة غينية الاستوائية الصغيرة من قطعتين منفصلتين من الأرض أسفل إبط غرب القارة الإفريقية. وتشكل المساحة الرئيسة للبلاد من كتلة مثلثة من الأرض الساحلية المنتنة المليئة بأشجار المنغروف الاستوائية والأدغال بين دولتي الكاميرون والغابون، في حين تتمركز الحكومة والنشاط التجاري في الجزيرة البركانية بي-أوكو.

حصلت غينية الاستوائية على استقلالها عن الاستعمار الأسباني عام 1968، وكان أول حاكم لها هو مارسياس إنغيوما، الذي أطلق على نفسه لقب المعجزة الفريدة. وقد استحق مارسياس بجدارة وصف طاغية إفريقية. وفي سنوات حكم إنغيوما التي بلغت

11 عاماً، جرى حظر اصطياد الأسماك، وسمح بالعودة إلى ممارسة الرق للاستمرار في إنتاج محصول الكاكاو، وجرى طرد الأجانب من رعايا أسبانية ونيجيرية، وحكم على قائمة طويلة من أعضاء حكومته بالإعدام بعد محاولات مخفقة للانقلاب أو الاشتباه بالتآمر على النظام. ويقدر أن زهاء خمسين ألفاً من رعاياه قتلوا، وأن أكثر من مئة ألف فروا من البلاد في عهده، وهو ما أضعف أي محاولة لخلق اقتصاد قابل للحياة.

وفي عام 1979، قام ثيودورو أوبيانغ إنغيوما البالغ من العمر 37 عاماً -وكان آنذاك حاكماً لمقاطعة بي-أوكو، وهو أيضاً ابن أخي إنغيوما- بتدبير انقلاب على نظام حكم عمه. واستغرقت حكومة أوبيانغ أربعة أيام في محاكمة وإدانة، وإعدام إنغيوما. وورث أوبيانغ الدولة التي كانت تعرف بكونها أفقر دولة إفريقية، إلا أن التغيير الذي طرأ على القيادة كان فاتحة خير على البلاد بعد أن قام النظام الجديد بعدد من الخطوات لتشجيع نمو المشروعات الصغيرة واستعادة المستثمرين الأجانب. وكانت معاملة أوبيانغ لشعبه أفضل من استبداد عمه، لكنه بقي محافظاً على سيطرة مطلقة على اقتصاد البلاد وإحكام قبضته على الحكم عن طريق أبناء عشيرته وأسرته.

وتحت ضغوط المجتمع الدولي، أجرى أوبيانغ استفتاءً شعبياً عام 1991، ليرى إن كان شعبه الموالي يرغب في تطبيق نظام متعدد الأحزاب في البلاد. ولم يعارض هذا الاقتراح سوى 1800 ناخب من مجموع 148 ألف ناخب شاركوا في هذا الاستفتاء. وسمح الدستور التعددي العام 1992 بإنشاء المنظمات السياسية، مع أن أوبيانغ واصل ملاحقته وتعقبه لأحزاب المعارضة، للمحافظة على قبضته على الحكم. وكانت غينية الاستوائية تعيش على المساعدات التي تتلقاها من المنظمات الدولية ومن الأمم الصديقة إلى أن توقفت هذه المساعدات واحدة تلو الأخرى بعد ما تبين أن تلك المساعدات كانت تذهب نهباً لأوبيانغ وأعوانه بدلاً من استخدامها في تطوير الاقتصاد وتوزيعها على المحتاجين. وفي عام 1993 توقف حتى المصرف الدولي عن تقديم الأموال لهذا الدكتاتور الشره.

عثر على أول مورد طبيعي في غينية الاستوائية عام 1984 بعد أن ثبت وجود حقول للغاز الطبيعي قبالة السواحل الغينية. وبدأ حقل ألبا إنتاجه من الغاز الطبيعي عام 1991 مؤذناً بتغيير أحوال تلك الدولة الفقيرة التي كانت تعاني الفقر والعوز، واكتشف حقل

زافيرو للنفط والغاز قبالة الساحل في آذار/ مارس من عام 1995. ولقد قفز إنتاج حقل زافيرو في العقد اللاحق من 17.000 برميل في اليوم إلى 350.000 برميل في اليوم. وتملك غينية الاستوائية احتياطياً مؤكداً يبلغ 1.28 بليون برميل من النفط، في الوقت الذي تتواصل فيه عمليات التنقيب والبحث عن حقول جديدة. وتنتهي عقود تأجير الحقول القائمة عام 2007، وستكون الشركات المستثمرة قد استعادت مصاريف ونفقات التطوير والتنقيب مع انتهاء تلك المدة، وهو ما سيضع غينية الاستوائية في موقع أفضل للتفاوض على نسبة أعلى من العائدات المستقبلية. وستبدأ البلاد ببيع نفطها الخاص، وهو ما سيزيد من ثروتها. وتبلغ وارداتها الحالية 1.5 بليون دولار في العام، ويتوقع أن تزيد هذه الواردات. وعلى الرغم من صغر حجم هذه الدولة، إلا أنها تحتل المرتبة الثانية في إنتاج النفط والغاز الطبيعي في إفريقية بعد نيجيريا التي تعاني المتاعب.

تدرك الشركات النفطية الاحتمالات الكامنة في المناطق الاقتصادية الحصرية أسفل خليج غينية الاستوائية، وتعي الأمم الأوروبية المتعطشة للنفط مثل أسبانية وفرنسة الفوائد التي تعود عليها من السيطرة على الدول الغنية بالنفط. بيد أن أوبيانغ اختار التوجه إلى أمريكة متخطياً أسبانية التي كانت تستعمر دولته. وليس من العجيب أن يستهلك السوق الأمريكي ثلاثة أرباع إنتاج غينية الاستوائية من النفط، وأن تكون لأمريكة مصلحة راسخة في ضمان استمرار تدفق هذا المورد الثمين وعدم تعرضه للتقلبات. ومع بداية عام 2000، استمرت الشركات الأمريكية في العثور على حقول نفطية جديدة قبالة سواحل غينية الاستوائية. وقامت شركات هس وماراثون بالإضافة إلى ترايتون إنرجي، وإكسون موبيل، وجنرال إليكتريك للبترول وغيرها من الشركات، بتحويل غينية الاستوائية إلى «كويت الغرب الإفريقي».

ولتوضيح الأمور بمعيار نسبي، نجد أن تعداد سكان غينية الاستوائية يعادل واحداً على خمسين من تعداد سكان العراق، ويستهلكون كمية ضئيلة من النفط تبلغ ألفي برميل يومياً، مع أنها تنتج من النفط ما يعادل ربع إنتاج العراق. غير أن النفط الذي يخرج من قاع الخليج الغيني هو نفط حلو يتمتع بقابليته السهلة للتكرير، عدا عن أن المسافة التي يقطعها إلى السواحل الأمريكية هي أقصر جداً من المسافة التي يحتاج إليها النفط

العربـي للوصـول إلى السـوق الأمريكيـة. وتغطي حقول نفـط غرب إفريقيـة (في غينية الاستوائيـة ونيجيريا وغيرهـا) قرابة 15% من استهلاك السـوق الأمريكية من النفط، ويتوقع أن تتجاوز واردات أمريكة من النفط من هذه المنطقة ما تستورده من السعودية في الأعوام القليلة القادمة.

وبعـد ما تبين أن غينية الاستوائية تتربع على مخزون ضخم من الموارد غير المستغلة، أصبحـت قيادتهـا الغنية أهدافاً ثمينـة لانقلابات مدبرة. وليس مـن المستغرب أن تكون إفريقيـة أكـثر قـارات العـالم اضطرابـاً على وجـه الأرض. وهي قـارة تتغـير في دولها الحكومـات بسبـب الانقلابات أكثر من أي وسيلـة أخرى للوصـول إلى الحكم. وفي المدة مـا بين عام 1965 وعـام 2001، شهدت القارة السوداء 80 انقلاباً ناجحاً، و180 انقلاباً مخفقـاً، و139 محاولـة انقلاب. وثـلاث دول فقط هي التي لم تشهـد أي انقلاب. وهي: بوستوانـة، وكيب فيردي، وموريشوس. وفي عام 2003، زعمـت بعض التقارير أن فرنسة دعمت محاولة انقلاب في غينية الاستوائية تحقيقاً لمصالح شركة الطاقة الفرنسية توتال فاينـال إلف، وتعزيزاً لموقـف جمهورية الغابون المدعومة من فرنسـة في نزاعها الإقليمي بشـأن جزيرة إمبين وعقود إيجار حقول النفـط التابعة لها. واليوم يقوم أوبيانغ بتوظيف أفـراد من الحرس الملكـي المغربي للتخفيف من فرص الأعـداء في اختراق كتائب حرسه الخاص، غير أن هـؤلاء الحراس لا يشكلـون سوى عائق بسيط أمـام محاولات خارجية عازمة على الإطاحة به.

المتآمرون

أدرك إيلـي خليـل، ذو الثمانيـة والخمسـين عاماً، قيمـة نفط الغـرب الإفريقي. ولد خليـل في مدينة كانو في نيجيرية، لأسرة من المهاجريـن اللبنانيين الشيعة. ويعرف خليل الطـرق المتبعة في غـرب إفريقية، ونجح في جمع ثروة كبيرة مـن عمله في حقل الوساطة والسمسـرة. وكان خليـل يمثـل الوسيط (تاجـر شنطة) في عهد ما بعـد الاستعمار، وهو الشخـص الذي يرافق رجال الأعمال إلى مكاتب المسؤولين، ويقوم بدفع الرشى، ويساعد في إبـرام الصفقـات التجارية بين رجال الأعمـال الغربيين والحـكام الأفارقة. ويحصل الوسيـط علـى نسبة مئوية من قيمـة تلك العقود، وهو مـا جعل أشخاصـاً مثل خليل من

أثرى الأثرياء في البلاد. ومثل هذا النشاط الذي يبدو للمراقب الغربي ضرباً من ضروب الفساد، وهو ممارسة شائعة شيوع الأعراف في إفريقية. وفي عام 2002، دخل خليل في ورطة كبيرة بسبب مهنته هذه؛ إذ قامت شركة توتال فاينال إلف بتكليف خليل بمهمة إبرام عقودها النفطية مع الطاغية النيجيري السابق ساتي آباتشي. وفي عام 2002، قامت الحكومة الفرنسية باعتقال خليل في باريس بسبب العمولات التي حصل عليها من عقود إيجار حقول النفط بين توتال فاينال إلف والحكومة النيجيرية. ومع أن الفرنسيين أفرجوا عنه مع استمرار التحقيق، إلا أنهم جمدوا ممتلكاته وأرصدته في فرنسة، وهو ما أنضب السيولة المالية الموجودة بين يديه. وبعد أن أصبح يوصف في الإعلام بالسمسار القذر، وبعد صفقته الرابحة مع نيجيرية، تحوّل خليل نحو طرق أكبر لكسب المال.

كانت خطته الجديدة بمنتهى البساطة: خلع الرئيس أوبيانغ، وتنصيب حاكم مقبول مكانه بحيث يضع هذا الحاكم تحت يد خليل موارد البلاد دون أن يتحمل هذا الأخير مسؤولية إدارة البلاد. ولتنفيذ هذه الخطة، كان خليل بحاجة إلى ثلاثة عناصر أساسية: حاكم مقبول طيّع، وجيش صغير مرن، وتدفق هادئ للأموال من المستثمرين الكبار المهتمين بجني ثمار موارد غينية الاستوائية. وجد خليل العنصر الأول في شخص سفيرو موتو إنسا، وهو طالب سابق في كلية لاهوتية، وينتمي إلى قبيلة الفانغ في غينية الاستوائية.

كان موتو يتخذ من مدريد موطناً له منذ عشر سنوات فاراً من عقوبة صدرت بحقه بسبب محاولته الأولى للانقلاب على أوبيانغ. وقد قامت السلطات الأنغولية تحديداً بالتقاط موتو من شواطئ شمالي أنغولا في قارب صيد روسي محمل بالأسلحة والجنود المرتزقة وتوجهت به إلى موطنه الأصلي. وبعد طرده من أنغولا، هرب موتو إلى أسبانية وتقدم هناك بطلب للجوء السياسي ليقي نفسه من عقوبة السجن. وفي عام 1995، أصدرت محكمة في غينية الاستوائية على موتو حكماً غيابياً بالسجن مدة 101 عاماً بتهمة الخيانة العظمى والتآمر لقتل الرئيس.

ولما كان أكثر من عشرين حزباً سياسياً معارضاً للرئيس أوبيانغ يتخذون من أسبانية قاعدة لنشاطاتهم المعارضة للنظام الحاكم في غينية الاستوائية، فإن موتو سرعان ما استقر في حياة المعارضة من الخارج. وانطلاقاً من منزله في مدريد، كان موتو يشن

حملات تشهـير بالرئيس أوبيانغ عبر وسائل الإعلام، وقام بإنشاء موقع إلكتروني وصف في صفحاته أوبيانغ بأنه «من أكلة لحوم البشر الحقيقيين». وقال موتو: «إنني لو عدت إلى غينية الاستوائية، فإن أوبيانغ سيأكل خصيتي». بدأ خليل بتقديم الدعم المالي لنشاطات موتـو في تمـوز/ يوليو من عام 2002، واستخدم موتو تلك الأمـوال في تشكيل «حكومة في المنفى» في أسبانية.

ووجـد خليل العنصر الثاني للانقلاب في شخـص سيمون مان. ويتمتع سيمون بسجل ناجـح في شركة النتائـج التنفيذية، وهو يعي الأخطار المصاحبـة لتوظيف، ونشر الجنود المرتزقة في العمليات السرية.

ومع أن سيمون مان ينحدر من أسرة نبيلة، إلا أن أسرته لم تكن ثرية. تلقى تعليمه في إيتون، وعمل في الحرس الإسكتلندي، وتقاعد برتبة نقيب في القوات الخاصة البريطانية. لم يتبنَّ مان الحياة المدنية حتى بعد تقاعده من الجيش. وتمكن من كسب 60 مليون دولار من العقود التي أبرمتها شركة النتائج التنفيذية في أنغولا. غير أن البذخ الذي طغى على أسلـوب حياتـه- بل بالأحرى حياة زوجه- كان يهدد بالإتيان على ثروته. ولو نجح مان في عملياتـه الجديدة، فإن مجموع الأرباح الشخصية التي سيحصل عليها سيكون 15 مليون دولار، وهذا المبلغ يمكنه هو وزوجه من العيش حياة مريحة بعض الوقت.

يوجـد لـدى مان نفقات كبـيرة: منزل ريفـي ومزرعـة في إنجلترة، ومنـزل ريفي في تشيلسـا، وبيـتٌ فارهٌ مستأجر في جنوب إفريقية على مقربة مـن الشارع الذي يقطن فيه ابن مارغريت تاتشر وابن أوبيانغ، في ضاحية راقية من ضواحي مدينة كيب تاون. واعتاد مان وزوجه أماندا (التي يطلق عليها لقب «الدوقة») إقامة حفلات العشاء الفارهة ثلاث مرات في الأسبوع يشرف على إعدادها شيف مشهور، إضافة إلى شراء الملابس الفاخرة، والاستجمـام في منتجعـات جنـوب فرنسة، والعيش علـى طريقة الطبقـة الارستقراطية الإنجليزيـة. اتخذ مان من جنوب إفريقيـة موطناً له بعد أن ضيّقت الحكومة البريطانية الخناق عليه في أعقاب عمليات قامت بها شركة ساندلاين في سيراليون و أوغندة. ولم تنجح كثير من استثماراته التي وظفها في حقول النفط والمناجم، وبدأت ثروته بالتلاشي.

ويقول أصدقاؤه: إنه مع حلول عام 2002، كان سيمون بحاجة إلى تحقيق صفقة كبيرة ليس للمحافظة على مركزه المالي، بل للبقاء داخل اللعبة. كان لدى مان خطط كبيرة؛ والخطط الكبيرة تحتاج إلى دعم مالي كبير. لم يهجر مان الفكرة التي قامت عليها شركتا النتائج التنفيذية وساند لاين؛ لذلك أمضى السنوات الفائتة في تفحص خريطة القارة الإفريقية تحسباً لاقتناص فرصة ما لإعادة ترتيب وتغيير بعض الأنظمة الاستبدادية. وكان مان يحب الطيران، ومن تحليقه على ارتفاع آلاف الأقدام، كان باستطاعته الاستمتاع بجمال إفريقية، وبمنظر الأراضي التي تنتظر «التمدن والزحف الحضاري».

يقول مان في إفادته بعد إلقاء القبض عليه، إن الوكيل العقاري الذي يعمل لدى زوجه واسمه غاري هيرشام، عرفه على خليل في كانون الثاني/ يناير من عام 2003. وفي ذلك اللقاء، تجاوب مان مع خطة خليل في خلع أوبيانغ عن الحكم، وأبدى دعمه الكامل لها، وجرى استبدال عبارات ملطفة بالعبارات العنيفة التي دارت في الحديث. وبحسب إفادة مان، فإن خليل طلب إليه المساعدة في مرافقة سفيرو موتو في أثناء انتقاله من أسبانية إلى غينية الاستوائية في موعد محدد، في الوقت الذي تشهد فيه البلاد انتفاضة عسكرية ومدنية.

قدر سيمون تكلفة العملية التي ستنفذ على غرار عمليات النتائج التنفيذية بما يتراوح ما بين 2.5 إلى 5 ملايين دولار أمريكي، بحيث تقوم مجموعة من الرجال بدخول البلاد، والاستيلاء على مساحة صغيرة من الأرض ريثما تأتي «كتائب الفرسان». وبحسب اعترافات مان اللاحقة، أسرّ له خليل أن الحكومة الأسبانية قطعت وعداً لموتو بأنه سيكون لها قوات في وضع الاستعداد للسيطرة على جزيرة بي-أوكو إضافة إلى منطقة باتا التي تشكل الجزء الرئيس من البلاد ويقع فيها مركز الحكومة. ومع أنه لا يوجد دليل قاطع- باستثناء إفادات المتآمرين في محاولة الانقلاب- لإثبات دعم الحكومة الأسبانية في عملية تغيير الحكم في غينية الاستوائية، إلا أن تغيير القيادة في غينية الاستوائية لا شك أنه سيخدم المصالح الإستراتيجية لأسبانية. فأسبانية لديها طلب متزايد على النفط؛ لذلك فإنها ستجني كثيراً من المنافع الاقتصادية لو استطاعت أن تستعيد نفوذها على ثروات مستعمرتها السابقة. إن عدد المجموعات المعارضة لنظام الحكم في غينية الاستوائية وحده يعكس بوضوح رأي الحكومة الأسبانية في نظام حكم أوبيانغ.

كان سيمـون يدرك أنه سيكون بحاجة إلى أناس داخل غينية الاستوائية للتمهيد لتلك العملية قبل وقت طويل من القيام بالعملية وإن صح أن الأسبان كانوا على استعداد لتقديم الدعم له بعد نجاح الانقلاب. لقد كان بحاجة إلى شخص ثقة ينسق الجهود على الأرض في الداخل، شخص كتوم يتمتع بخبرة كبيرة في عمليات الجنود المرتزقة، وقد وجد ضالته هذه في شخص جوهان سيفراس نقولا دو توا.

تعـود المعرفة بين نقولا وسيمون إلى عـام 1989 حينما قصد نقولا مان بشأن استثمار في منجـم ماس في دولة الكونغو. كمـا عمل نقولا في شركـة النتائج التنفيذيـة في أنغولا وسيراليون. وتتضارب الروايات التي ترددت حول عمق وطبيعة تورط نقولا في خطة غينية الاستوائية. وأفادني مصدر مسؤول في حكومة غينية الاستوائية بأن نقولا قدم إلى البلاد عـام 2003 لتدريـب الجيش، غير أن نقولا رفض الإجابة عـن الأسئلة التي طرحتها عليه حـول هذه النقطة. ولعـل سبب هذا الرفض هـو حماية أصدقائه الذيـن عرفهم في تلك المـدة. والشـيء المعلوم يقيناً هـو أن نقولا انتقـل إلى غينية الاستوائية عـام 2003، وبدأ علـى الفور بإنشاء ما بدا من الظاهر أنـه مؤسسة تجارية مشروعة. وفي معرض اعترافه بعـد إلقـاء القبض عليه، أقر نقولا بأمور تتطابق مـع الاعتراف الذي صدر عن مان. غير أن نقـولا، مع ذلك، يدعي بأنـه حصل على تمويل مشروعه التجاري مـن أموال اكتسبها بموجـب بوليصـة تأمين تعود لصديق له توفي في حادث سقـوط طائرة. وزعم أنه لم يكن يعلـم شيئاً عن الانقـلاب إلا بعد أن شرح له غريغ ويلز الخطة في اجتماع ضمهما في أحد فنادق جنوب إفريقية في 3 كانون الثاني/ يناير من عام 2004. ومع ذلك، تشير السجلات المصرفيـة لشركة لوغو لوجستكس أن مان بـدأ بتحويل الأموال إلى مشروع نقولا الجديد المسمى تربل أوبشن تريدنغ في حزيران/ يونيو من عام 2003. ولما كان أحد شركاء نقولا في مشروعـه الجديد هو آرمندو أوندو إنغيوما، الأخ غـير الشقيق للرئيس أوبيانغ، رئيس الجهاز الأمني في البلاد، الذي عاد إلى رأس عمله بعد احتجازه مدة وجيزة بعد اكتشاف محاولـة الانقـلاب، فإن من مصلحـة نقولا ألا يدلي بـكل ما يعرف عـن الخطط الأولية للانقـلاب. ومع استمرار احتمـالات إسكاته من جهات قوية، فـإن نقولا ربما اختار عدم إغضاب شريكه الذي لا يزال يتمتع بسلطة قوية في الحكومة.

تعود أقدم الوثائق التي تظهر الدور الذي أداه مان في التحضيرات التي سبقت محاولة الانقـلاب إلى مدونة سجل الاجتمـاع الذي انعقد في 12 شبـاط/ فبراير بين سيمون مان ومحاسبه وصديقه ومستشاره غريغ ويلز. وواضح مما جاء في الملحوظات أنه كان أمام ويلز ومان قائمة طويلة من الأشياء التي تسترعي انتباههما: فقد كانا بحاجة إلى تطوير شفرة للاتصـالات السريـة، وبحث عقود «مـا قبل، وما بعد» الانقـلاب، والحصول على خريطة لحقـول النفط في غينية الاستوائية. وناقشا أيضاً مخـاوف «تدخل قوات المارينز» والجهة التـي ينبغي التعاقد معهـا للقيام بحملة العلاقات العامة في واشنطن. وأظهرت الوثيقة أن ويلز كان ينوي حضور الاجتماع الذي ستعقده جمعية عمليات السلام العالمي في 19 تشرين الثـاني/ نوفمبر مـن عام 2003، في العاصمـة الأمريكية واشنطـن، واستشعار احتمالات الدعـم للانقلاب القـادم. ومنظمة عمليات السـلام العالمي هي منظمـة تضم الشركات العسكريـة الخاصة والمتعاقدين الأمنيين الذين لديهـم مصلحة خاصة في دعم استخدام الشركات الأمنية الخاصة في إفريقية في عمليات حفظ السلام والتدخل السريع.

وفي أثناء وجوده في المؤتمر، التقى ويلز تيريسا ويلان، نائب وكيل وزارة الدفاع للشؤون الإفريقيـة، واستمـع إلى الخطاب الذي ألقتـه أمام المؤتمر، وتحدثت فيـه عن استخدام الجيـش الأمريكي للشركات الأمنية الخاصة في عمليات النقل والتدريب بموجب ترتيبات أفريـكاب الشبيهة بخطـة لوغكاب. وختمت ويـلان كلمتها أمام المؤتمـر بالعبارة الآتية: «مـن وجهة نظرنا، أعتقد أن المتعاقدين باقون لدعـم أهداف الأمن القومي الأمريكي في الخارج، وأعتقد أنهم -في المحصلة النهائية- قد أضافوا بُعداً من المرونة للعملية لم يكن متاحـاً أمامنـا من قبل، وهـو بُعد نحن في أمس الحاجة إليه في عالم اليـوم الذي يتميز بسرعـة التغيير ومرونـة الحركة». وهذه التعليقـات الصادرة عن السيـدة ويلان هي في منتهـى السذاجة إذا أخذنا في الحسبان أن الهدف الأول والأخير لمنظمة عمليات السلام الدولية هو تعزيز أفكار شركات مثل النتائج التنفيذية وساندلاين في استخدام الشركات الأمنية في عمليات التدخل وحفظ السلام.

ويتذكر الذين حضروا المؤتمر أنهم شاهدوا ويلز يتبادل الحديث مع ويلان في المؤتمر. ومـع أنـه لا توجـد أي مؤشرات تـدل على أن ويلز أثـار موضوع العمليـة القادمة في غينية

الاستوائيــة، إلا أنــه حاول الاستفادة من إضافة ويــلان إلى قائمة معارفه في نطاق مهنته، وهــذا أمر مثير للفضول لشخصــ يفترض أنه محاسب ومستشار مــالي. وتشير سجلات الحسابــات المصرفيــة التي كشف عنهــا في غينية الاستوائية أن مان دفـع إلى ويلز مبلغ 8 آلاف دولار في تشريــن الثــاني/ نوفمبر من عام 2003، ويفترض أن هــذا المبلغ له علاقة بنفقــات زيارة ويلز إلى الولايات المتحدة. ويبدو أن سيمون أعجب كثيراً بنتائج زيارة ويلز بعد عودته إلى المملكة المتحدة، بدليل أنه طلب إليه أن يعود ثانية إلى واشنطن، وأودع مبلغ 35 ألف دولار أمريكي في كانون الثاني/ يناير من عام 2004 في حساب مؤسسة شيربورن التي يملكها ويلز.

رجع ويلز إلى الولايات المتحدة في شباط/ فبراير لحضور اجتماع مع ويلان في التاسع عشــر، وهو التاريخ الذي كان مقــرراً أن يحدث فيه الانقلاب. وجاء في تصريح صدر عن البنتاغون بعد محاولة الانقلاب أنه على الرغم من أنه جرى نقاش موسع بين ويلز وويلان حول عدد من القضايا المتعلقة بالقارة الإفريقية، إلا أنه لم يحدث أي نقاش محدد بشأن جمهوريــة غينيــة الاستوائية. وصــرح مسؤول أمريكــي في جلسة خاصــة أن ويلز دوّن في ملاحظاته معلومات أكثر كثيراً من المعلومات التي أدلى بها إلى ويلان.

وفي أثنــاء زيارته الثانيــة في شهر شباط/ فبراير، قام ويلــز بعدد من الخطوات التي تهدف إلى تعزيز فرص موتو في توطيد علاقاته مع الحكومة الأمريكية بعد الانقلاب. ودفع مبلغ 40 ألف دولار إلى موظف سابق رفيع المستوى في وزارة الخارجية الأمريكية اسمه جو سالا، يعمل في مجال العلاقات العامة، وذلك لإعداد برنامج عمل يستغرق أربعة أيام يقدم فيه الرئيس الذي سيتقلد الحكم عما قريب في غينية الاستوائية إلى الكونغرس، ومعاهد الفكــر، والمؤسسات الأكاديمية، ووسائل الإعلام في واشنطن. وفي اللقاء الأول الذي جرى بين سالا ووزارة الخارجية الأمريكية قال له أحد المسؤولين الحكوميين: إن موتو حضر إلى واشنطن العام الفائت يرافقه إيلي خليل الداعم الرئيس له، وأنه استقبل استقبالاً بارداً. ويدعــي ســالا أنه لم يكن يعلم شيئاً عن الداعم الرئيســ لموتو، ولكنه سرعان ما أدرك أن خليــلاً وموتو لن يلقيا الترحيب المنشود في واشنطــن. وتلاشت جهوده التي كان يقوم بها نيابة عن موتو كالهباء المنثور. وزعم سالا أنه لم يتلقَّ أي مبلغ من المال من ويلز. ولم يكن

سيمون مان يعلم أن موتو وخليلاً شخصان غير مرغوب فيهما في العاصمة الأمريكية، ولم يكن يعلم أن ويلز لم يبذل جهده في عرض القضية على الحكومة الأمريكية أو في الحصول على أدنى درجات القبول من الحكومة الأمريكية.

وفي الوقت الذي كان فيه ويلز منهمكاً في إقامة نقاط اتصال في واشنطن، كان مان يعمل على جمع الأموال اللازمة للقيام بالعملية. استخدم مان شركة لوغو لوجستكس في تصريف الجوانب التجارية من الخطة، وهي شركة أسسها في تشرين الثاني/ أكتوبر من عام 2000 بعد شهر واحد من مغادرة تم سبايسر شركة ساندلاين. لم تأت جهود التمويل الأولية بالنتائج المنشودة، وعانى مان في إقناع معارفه بتقديم الأموال والاستثمار في هذا المشروع على الرغم من قناعته بأنهم سيحصلون على أرباح تعادل خمسة أضعاف إسهاماتهم. وبحسب إفادة بعض المصادر المقربة منه، اضطر سيمون مان إلى زيادة حصته في العملية. وكأي مجازفة تجارية مضطربة، تحوّل الحلم الكبير في العثور على ممول واحد ثري إلى مجموعة ممولين تقسم إسهاماتهم على أسهم بقيمة نصف مليون دولار للسهم الواحد، على أن يسعى كل شريك إلى جمع ما يقدر عليه من مال لتعويض النقص الحاصل في التمويل. وبذلك تحوّلت هذه المجموعة الصغيرة المتعاضدة الكتومة المنغلقة المؤلفة من رجال تبلغ قيمة سهم الواحد منهم نصف مليون دولار إلى مجموعة من السماسرة المتجولين بأسهم قيمتها دراهم وقروش.

ومع أن خليلاً وعد في البداية أن يقدم 1.8 مليون دولار، إلا أنه اشتكى بعدها من أن الحكومة الفرنسية جمدت أكثر أمواله. وتمكن خليل من جمع 750 ألف دولار، ولكنه أحال مان إلى مجموعة من الأصدقاء يمكنهم أن يقدموا له المزيد. وفي الخامس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2003، وقعت شركة لوغو إنفستر على اتفاقية استثمار مع شركة آسيتن تريد إنفستمنت (مجموعة الاستثمارات الآسيوية) التي تتخذ من لبنان مقراً لها، ويديرها كريم فلاحة، أحد أصدقاء خليل. ويقال: إن نصف المليون التي قدمتها تلك الشركة جاءت من استثمارات أصغر، مع أنه لا توجد أي إشارة تدل على أنهم كانوا يعرفون الهدف الذي ستستخدم فيه تلك الأموال.

ومـن بين المستثمرين الكبار الذيـن تعهدوا أو قدموا مبلغ نصف مليـون أو أقل ديفيد تريمـين، وهـو رجل أعمال مـن جنوب إفريقيـة، وهذا بـدوره يمثل مجموعـة من صغار المستثمريـن؛ وديفيد هارت، وهو مستشار سابق لمارغريت تاتشر؛ و جي إتش آرتشر، وهو سياسي مفضوح وضيع تحول إلى مؤلف للروايات السوقية، وغاري هيرشام، مدير إحدى شـركات الوساطة العقارية في لندن، وهو وسيط المعرفة بين مان وخليل. وفيما بعد، أنكر كل هؤلاء علاقتهم بالانقلاب وقدموا أدلة على عدم تورطهم في العملية، ولم توجه الإدانة إلى أي واحـد منهم. ويقـول هيرشام: إنه قد عـرّف مان بأحد سماسـرة العقارات بغية تحصيل قرض عن طريق رهن عقاري على منزله الذي يقدر بأكثر من مليون دولار ويقع علـى شارع بورتوبولو في منطقـة نوتينغ هيل. وزعم ويلز فيما بعد أنـه ببساطة كان يقوم بـدور الوسيـط نيابة عن إيلي خليل، وأنه ناقش عدداً من المشروعات المحتملة مع مان ولم يكن أي منها على علاقة بأي انقلاب على نظام حكم سياسي. وكان ويلز يعرف مان منذ عدة سنوات، ونقلت بعض التقارير أنه كان يتردد على مكاتب شركة ساندلاين في تشيلسا من أجل أن «يحصل على بعض فتات المائدة» على حد وصف أحد العاملين في الشركة.

أما المستثمران اللذان تحملا أكبر الخسائر في تورطهما في هذه المجازفة، فهما جيمس كيرشـو و مارك تاتشر، وكلاهما يخضعان لأحكام قانون مكافحة نشاط الجنود المرتزقة الـذي سنته جنوب إفريقية في عهد قريب. يعمل كيرشـو البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، في مهنة المحاسبة وله خبرة في الحاسوب، ويقطن في جنوب إفريقية. وأسهم بمبلغ 90 ألف دولار من أمواله الخاصة، واضطلع بمهمة مدير مكتب المشروع، حيث تولى ترتيب دفع رواتب الجنود المرتزقة والقيام بمهمات أخرى.

وكان تاتشـر المستثمر الذي جلب أكبر قدر من الاهتمـام الإعلامي بدوره في العملية بسبب أن أمه هي رئيس وزراء سابقة في بريطانية. قام تاتشر بدفع إسهامه البالغ نصف مليـون دولار على دفعتين، ومـع ذلك فقد ادعى فيما بعد أن إسهامـه كان لشراء طائرة إسعـاف. وهـذه القصة التي جاء بهـا تاتشر يصعـب تصديقها؛ ذلك أنـه كان صديقاً مقربـاً من مـان، وكانا متجاورين في المسكن، وتشير سجـلات الحسابات المصرفية إلى

أن الأمـوال التـي قدمت لشراء طائرات إسعاف سلكت طريقـاً ملتوياً لتستقر في حساب شركة لوغو لوجيستكس.

درس مـارك، وهو الابـن الوحيد لمارغريـت تاتشـر، المحاسبة، ولكنـه أخفق ثلاث مـرات في اجتياز الامتحان الذي يمكنه من ممارسة المهنة. وفي هارو اكتسب مارك لقب «البليـد»، ويصفـه الأشخاص الذيـن يعرفونه جيداً بأنه «ليس علـى درجة من الفطنة». وحـين شارك في رالي باريس- داكار بصفته من هواة السباق، ضـل مارك طريقه وتاه ستة أيام في ذلك السباق.

عمل مـارك عام 1981 ممثلاً لشركـة إنشاءات بريطانية، واستطـاع إقناع الحكومة العمانيـة بتوقيـع عقد لإنشاء جامعـة، بقيمة 600 مليون دولار في الوقـت الذي كانت أمه تقـوم بزيـارة لعمان بهدف تشجيع التجارة هناك (...)، كمـا نجح فيما بعد في التوسط لإبرام صفقـة أسلحة أخرى مع سلطان بروناي. وقد جلبت أعماله التجارية ووساطته ما يكفـي من النقد العـام، بوصفها من الفضائح الصغيرة بحسـب المعايير البريطانية، مع العلـم أنـه لم توجه إليه أي تهمة بالقيام بعمل غير مشـروع. وبغض النظر عن ذلك، فإن تاتشر لا يتورع في استخدام أمواله بطرق مبتكرة وإن كانت ملتوية بعض الشيء.

لم يكن سيمون مان، ولا مارك تاتشر جزءاً من المجتمع المهذب في بريطانية، غير أنهما كانـا في جنوب إفريقية من النجوم المحليين. مان بسبب ارتباطه بالمرتزقة، وتاتشر بسبب كونـه طياراً، ومن هواة السبـاق، وحبه للمرح واللهو، إضافة إلى أنـه ابن شخصية عالمية مشهـورة. وكان يجمع بين الاثنين أمور مشتركة، منهـا حبهما للطيران. وفي أثناء حفلات العشـاء المتبادلة بحكم الجوار، كان الاثنـان يناقشان مغامراتهما ومشروعاتهما التجارية. ومـع أن تاتشـر التزم علناً بالقول إنه لم يكن على علـم بموضوع الانقلاب، إلا أنه من غير المعقـول أنهما لم يناقشا مهمة مان الجديـدة في غينية الاستوائية، ولا سيما بعد الأخذ في الحسبان عدد اللقاءات التي جرت بين تاتشر وبقية الأشخاص المتورطين في العملية.

وفي يوليـو من عام 2003، جمع لقاء بـين تاتشر، وسيمون مان، ونقولا دو توا في مطار لانسيريـا قرب جوهانسبـيرغ. والظاهر أن الاجتمـاع كان لمناقشة شـراء نقولا طائرتين

مروحيتين من صنع روسي من طراز مي - 8 وذلك لاستخدامها في عمليات المناجم في السودان. وجمعت أربعة لقاءات بين نقولا وتاتشر في أثناء الأشهر التي سبقت الانقلاب، ولكن تاتشر يزعم أنه لم يناقش أي شيء له صلة بعملية انقلاب. وفي كانون الأول/ ديسمبر من عام 2003، اجتمع كل من مارك تاتشر و غريغ ويلز إضافة إلى طيّار الانقلاب كروز ستايل في مطار لانسيريا، وفيما بعد جمع لقاء آخر كلاً من تاتشر وسيمون مان وكروز ستايل في مدينة كونستانشا في جنوب إفريقية. ويقول تاتشر إنه وافق في النهاية على الاستثمار في شركة تربل إيه للخدمات الجوية (وجاءت عبارة كلمة تربل إيه وتعني الحرف الأول من الأبجدية الإنجليزية مكرراً ثلاث مرات من اختصار عبارة طائرة الإسعاف الإفريقية)[1]، وقام بتمويل شراء طائرة إليوت 3 المروحية فرنسية الصنع التي يمكن استخدامها طائرة إسعاف أو طائرة مدفعية في الانقلاب.

أنشئت شركة تربل إيه الجوية، وكان كروز ستايل أحد الشركاء المؤسسين في كانون الثاني/ يناير من عام 2004 لتلقي إسهامات تاتشر، ولكي تكون قناعاً لتغطية دوره في العملية إذا ما افتضح الأمر. قام تاتشر بتحويل 275 ألف دولار لشركة تربل إيه في 8 يناير، ثم حوّل دفعته الأخيرة وقيمتها 255 ألف دولار في 16 من الشهر نفسه. وتشير سجلات المصارف إلى أن 100 ألف دولار حوّلت من حساب تربل إيه إلى حساب شركة لوغولوجستكس التي يملكها مان. ومن هناك وجدت طريقها إلى مصاريف استثمار الانقلاب.

وبعد افتضاح المؤامرة، ادعى تاتشر أنه لم يكن يعلم بخطة الانقلاب، وأصر على أنه كان ينوي الإسهام في شراء طائرة إسعاف. ومن الممكن أن يكون مان، وويلز، وستايل، قد أخفوا عن تاتشر الوجهة النهائية التي ستنتهي إليها أموال استثماره لو لم تعبر المراسلات التي عثر عليها في حاسوب جيمس كيرشو بعد احتجازه عقب الانقلاب صراحة عن القلق من احتمالات الكشف عن أن (م.ت) بصفته أحد داعمي الانقلاب. وركزت على اتخاذ أقصى درجات الحيطة والحذر لحماية سرية دوره في العملية.

1- Air Amulance Africa

وليس من الواضح لماذا أصر مان على سعيه في الحصول على أموال تاتشر؟ لأنه في الوقت الذي قرر فيه تاتشر أن يسهم بنصف مليون دولار، كان سيمون مان قد تلقى قرضاً بقيمة 5 ملايين دولار من فيرونا هولدينغز التي تتخذ من إقليم فود في سويسرة مقراً لها. وربما أنه كان قلقاً من احتمال نكول بعض المستثمرين، أو أنه كان يخطط للقيام بمغامرات أخرى. ويوضح العقد الذي أبرم مع فيرونا هولدينغز الذي جاء في خمس صفحات أن لوغو لوجستكس تسعى إلى تطوير مشروعات استثمار في حقول التنقيب عن المناجم، وصيد الأسماك، والطيران، وتأجير الطائرات المروحية، وخدمات الأمن الخاص في الدول الآتية: جمهورية غينية، وسيراليون، وليبيريا، وأنغولا. ولم يرد ذكر لغينية الاستوائية. ويبدو توقيع سيمون بوضوح في آخر صفحة من العقد. غير أن توقيع شركائه التجاريين الجدد جاء على نحو خط عشوائي ينتهي بنتوء في آخر السطر. وحتى هذه اللحظة، لم يتم الكشف عن هوية الأشخاص الذين يقفون وراء فيرونا هولدينغز.

ومع تدفق الأموال، بدأت الأيام تبتسم في وجه المتآمرين. وتتويجاً لهذا التفاؤل الذي صادف نهاية السنة الميلادية، أقام تاتشر احتفالاً كبيراً بعيد الميلاد في منزله في كونستانتشا. وأحضر مارك أمه البالغة من العمر 75 عاماً لحضور هذه المناسبة، وكان من بين الذين حضروا الاحتفال سيمون مان، وغيريغ ويلز، وغيرهم من قادة الانقلاب. ويتذكر بعض الضيوف أن ويلز ومان كانا يناقشان موضوع الانقلاب كما لو كانا يتحدثان عن سباق للخيول.

أفضل الخطط الموضوعة

تحتاج أي مؤامرة محكمة إلى طبقات متعددة من المكايد والتضليل الإعلامي. ويتمتع مان بخبرة راسخة في خلق القصص المضللة التي يسهل تصديقها، وهي خبرة اكتسبها من تجربة شركة النتائج التنفيذية وشركة ساندلاين. ولغايات الدعاية العامة، انتشر القول: إن نشاطات شركة لوغو لوجستكس التي يملكها مان تقوم بتنفيذ عقود أمنية لحماية المناجم في الكونغو. وكانت قصص مشابهة أخرى رددها بعض الداعمين تشابه هذه القصة. حتى إن الجنود المرتزقة الذين تعاقد معهم مان لتنفيذ خطته قيل لهم: إنهم سيقومون بحماية مناجم أنغولية.

ربمـا كان مـان قد روّج لعدد مـن القصص المضللـة، لكن الوثيقة التـي نشرها في الثـاني والعشرين من يوليو عـام 2003 بعنوان «المساعدة في تغيير النظام» توضح على نحو جلي نوايا المخططين للانقلاب. والوثيقة هي واحدة من مجموعة من الوثائق التي ظهـرت في طيات محاكمات عدد من الذين شاركوا في محاولة الانقلاب ولكنها جميعاً تعكس خطة المتآمرين. ولما كانت هذه الوثائق قـد وصلت إلى الإدعاء العام عن طريق الصحافـة، ولم تحتجـز مباشرة مـن حيازة سيمون مـان، فإن احتمـال أن تكون هذه الوثائق مزورة يبقى قائماً.

وتدرج وثيقة «المساعدة في تغيير النظام» هدفها الأول بأنه «تغيير الأجهزة المسيطرة في البلاد في أقصر وقت ممكن»، وتفصّل الخطة التي جاءت في أربع صفحات أهم الخطوات التـي يجـب اتباعها في استبدال هيكل السلطة في البـلاد. وتوصي بتوظيف برنامج عملي للعلاقـات العامة لتسويق القيـادة الجديدة بصورة محسنة ومقبولة في الداخل والخارج، بالتـوازي مع برنامج آخـر للتضليل الإعلامي والطعن في النظـام القديم، ووضع برنامج رسمـي بهدف التخلص من مؤيدي النظام السابق. وينبغي البدء بتنفيذ هذه البرامج في غضون أربع وعشرين ساعة من إنجاز الانقلاب.

ونصـت وثيقة أخـرى مؤرخة في الثاني والعشرين من تمـوز/ يوليو على فصول اتفاق أولي بـين «السيـد إم» و «النقيب إف» وواضح أن السيد إم هـو سفيرو موتو، والكابتن إف هو النقيب السابق في القوات الخاصة البريطانية «ساس» سيمون فرانسيس مان. ويظهر في نسخـة العقـد التي اطلعت عليهـا توقيع سيمـون ولكنها لا تحمل توقيـع موتو. وتوضح الوثيقة الترتيبات التجارية المنشودة، والفوائد المالية التي سيقدمها قادة الحكومة المؤقتة الجديدة إلى مؤيدي الخطة ومنفذيها. ولو وقّع موتو على هذه الوثيقة، فإنه سيكون ملتزماً بإعطاء أربعة أشخاص لم تذكر أسماؤهم (ويحتمل أنهم كروز، ونيل ستيل، ونقولا دو توا، وسيمون ويذرسبون) مليون دولار لكل واحد منهم، وأن يدفع لستة أشخاص مبلغ 50 ألف دولار لـكل واحد منهم (وهؤلاء هم فريق الطليعة بقيـادة نقولا)، وسيحصل 75 شخصاً علـى مبلـغ 5 آلاف دولار لكل واحـد منهم (وهؤلاء هم المرتزقة من الجنـود المشاة). أما النقيـب إف، فسيتلقى مكافأة مجزية تختلف عن مكافـآت الآخرين تبلغ 15 مليون دولار

علـى دوره في العمليـة. ولو نجح الانقـلاب، فسيحصل جميع المشاركـين فيه على جنسية غينيـة الاستوائية، وجواز سفر، ورسالة تقول: إنهم أعضاء في القوات المسلحة في الدولة، إضافـة إلى منحهم حصانة تحول دون تسليمهم إلى دول أجنبية. وسيحصل النقيب إف علـى عقـد يتولى بموجبه مَهمـة تقديم الحراسـة الشخصية للرئيسـ الجديد. ويحصل كذلـك علـى جواز سفر دبلوماسي، ويختار الرتبة التي يريدهـا، إضافة إلى حصة كبيرة في «نيـو كو» وهي لفظة شائعة لوصف شركة تجارية لم تؤسس بعد. وستتولى «نيوكو» أكثر الصفقـات التجارية مع الحكومـة الجديدة التي ستحوّل لمصلحـة مؤيدي الانقلاب. ولم يكـن موتو يدرك أنه لو وافق على منح النقيب إف الحق في تعيين وتدريب، وقيادة حراسة الشخصيـين، فإنـه يكون قد حكم على نفسه بالهلاك؛ إذ تشـير وثيقة أخرى صادرة عن مان إلى أن القوة التي تقف وراء الرئيس الجديد لغينية الاستوائية لن تتلكأ بعد الانقلاب في التخلص من موتو إذا تبين لها أنه لا يبدي قدراً كافياً من التجاوب.

وتعـد وثيقة شركة خليـج بنين (بي بي سـي) المكتوبة بأسلوب غامضـ يماثل أسلوب طلبـة المدارس، وهو الأسلـوب المعهود في سيمون مـان، خطة ميكافيليـة تتضح بالجشع وجنـون الارتياب. وتفصل الوثيقـة فصول خطة تتحول فيها غينيـة الاستوائية إلى شيء شبيـه بشركة الهنـد الشرقية. وتفصح عـن نية مؤيدي الانقـلاب في أن يكون لهم الحق الحصـري في إبرام العقود والاتفاقيات مع الحكومة الجديدة، أي أن من الناحية الفعلية مجلسـ إدارة يملي القرارات والمبادرات وخطط العمـل على الشخص الذي يحكم غينية الاستوائيـة أيـاً كان هـذا الشخص. وتوضح وثيقـة «شركة خليج بنين» بمـا لا يدع مجالاً للشك أن موتو يمكن الاستغناء عنه في أي لحظة، وأن مؤيده الرئيس «إيلي خليل» ليس في محل ثقة.

وتسـرد الوثيقة تسعة أسباب لعدم الاعتمـاد على موتو من وجهة نظر قادة الانقلاب. وهـذه الأسباب تتراوح من تدخل عناصر قبيلته «المتحفزيـن للتدخل في شؤون الحكومة» إلى القلـق مـن احتمالات وفاتـه، أو فقدانه الأهليـة في أي لحظة غـير مواتية». وشرعت الوثيقـة في وصـف الحلول، وأولها هو أن القوة نفسها التـي جلبت موتو إلى السلطة يمكن استخدامهـا في إزاحة الطاغية الجديد عن الحكم. ويجب كذلك عزل موتو لحرمانه من

الحصول على أي دعم شعبي وإبقائه تحت المراقبة أربعاً وعشرين ساعة، وجمع المعلومات عنه، أو اختلاقها بحيث تستخدم في ابتزاز الرئيس أو تشويه سمعته. كما أن خطط تلميع أي رئيس جديد كانت تحتل موقعاً مهماً في تفكير سيمون مان.

لم يكن موتو الشخص الوحيد الذي أعد له بعناية حبل مشنقة وباب مسحور؛ إذ نصت وثيقة شركة خليج بنين على ضرورة مراقبة «إي كي» أو «إيلي خليل» مراقبة لصيقة. وتتراوح مخاوف المخططين من خليل من ناحية تأثيره الكبير في «إم» ومن احتمال أن يكون لديه «دوافع مبطنة». وكان الشك يدور حول احتمال أن يكون خليل «يعمل لمصلحة الفرنسيين، وأنه جزء من المؤامرة اللبنانية، التي تضم الاتجار بالماس، وغسيل الأموال... ونظرة مفرطة في المدى الذي يمكن أن يصل إليه ابتزاز مزيد من الأموال من شركات النفط، وهو أمر من المرجح أن يثير غضب الحكومة الأمريكية. ونظراً لسجله الثابت في الوساطة لحساب المصالح النفطية الفرنسية والنيجرية، فإن نجاح الانقلاب على النحو الذي يتمناه خليل، سيجعل منه لاعباً رئيساً في تحويل المفاوضات القادمة المتعلقة بعقود استئجار حقول النفط من عصابة هيوستن إلى شركة توتال فاينال إلف الفرنسية. وكما أن رجل الأعمال اللبناني الأصل حسان هاشم الذي يعمل الآن مستشاراً أعلى للرئيس أوبيانغ، فإن خليلاً سيمارس تأثيراً في موتو من وراء الكواليس. وأول نصيحة له ستكون اعتقال أو طرد المرتزقة، وتحويل ميزان القوى لمصلحة الفرنسيين بمنحهم عقوداً جديدة وشراكة آمنة.

ويبدو من تلك الوثيقة أن سيمون مان لا يثق حتى بنقولا دو توا. وتتعلق الشكوك التي تحوم حول نقولا دو توا باحتمال أن يكون يعمل لمصلحة أوبيانغ، أو أن يكون له خطته الخاصة. ولما كان نقولا دو توا شريكاً في أعماله مع الأخ غير الشقيق للرئيس أوبيانغ، مستشار الأمن القومي، وهو شخص يعرف عنه أن لديه طموحات بالوصول إلى منصب الرئاسة في غينية الاستوائية، فإن من الوارد أن يكون نقولا دو توا قد أبرم صفقة منفصلة خاصة به تقوم على خلع موتو، ومان، وبقية المجموعة.

وفي أي مؤامرة يتطلب تنفيذها أموالاً طائلة، فإن عنصر الخديعة فيها يثير مخاوف حادة مع قيام كل متآمر بتوجيه مجرى الأحداث إلى الوضع الذي يحقق له أفضل المكاسب

الشخصية الأنانية. ومع ذلك، يواصل جميع المتورطين في العملية إظهار واجهة من الثقة والتعاون وحسن النوايا إلى أن يتم إنجاز الانقلاب.

اعتاد سيمون مان الاعتماد على المجموعة نفسها التي استخدمها في عملياته السابقة، وفي هذه المرة طلب المساعدة من قائد سابق في كتيبة – 32، كان قد عمل معه في شركة النتائج التنفيذية مثل سيمون ويذرسبون، والطيارين الأخوين نيل وكروز ستايل. هؤلاء الثلاثة إضافة إلى نقولا كان يطلق عليهم وصف «رجال المليون»؛ لأن كل واحد منهم كان سيكسب مليون دولار من العملية؛ نقولا على دوره داخل غينية الاستوائية وعلى استخدام علاقاته مع صناعة الدفاع الزيمبابوية لوضع ترتيبات شراء الأسلحة، وسيمون على قيادته الطائرة إلى غينية الاستوائية، وكروز على قيادة الطائرة التي ستنقل موتو من أسبانية إلى مالابو. وقام مان بإضافة رماة من مدينة بومفرت في مقاطعة أوفامبو في جنوب إفريقية، وهو تقليد راسخ منذ أيام شركة النتائج التنفيذية، جرى تجنيدهم على يد نقولا، وتولى جيمس كيرشو الإشراف عليهم. إن تجنيد المرتزقة ليس أمراً عسيراً في مدينة مثل مدينة بومفرت، وهي مقر قاعدة عسكرية مهجورة، وموطن الجنود السابقين في كتيبة – 32. وبإمكان أي شخص يملك ما يكفي من المال أن يجند جيشاً مؤلفاً من ألف رجل خلال أربع وعشرين ساعة، وهو ما جعل هذه القرية النائية المكان المفضل الذي تقصده شركة النتائج التنفيذية وشركة ساندلاين في الأوقات التي تثور فيها الحاجة إلى الرجال المسلحين.

يذكر كروز ستايل، وهو الشخص المكلف بتنسيق عمليات النقل الجوي، أن خطة مان الأصلية وضعت في اجتماع عقد في منتجع سياحي قرب بريتوريا في جنوب إفريقية، وضم غريغ ويلز، وستايل، ونقولا دي توا. وطلب إلى نقولا أن يستأجر طيارتي نقل أرمينيتين لاستخدامهما في العملية، على أن تصبغ الطائرتان باللونين الأزرق والأبيض ويطبع عليهما عبارة: «بناك» وهذا الشعار هو الأحرف الأولية من عبارة «بان آفركان كارغو». إحدى الطائرتين كانت طائرة نقل ركاب تتسع عشرين راكباً من نوع أنتونوف ذات محرك مروحي، والأخرى طائرة نقل كبيرة من طراز إليوشن 76 ذات أربعة محركات نفاثة.

وفي ليلة الانقلاب، كان يفترض أن يقوم الثوار بمهاجمة المطار الموجود في منطقة كولوازي والسيطرة عليه. وهذا المطار موجود في جمهورية الكونغو الديمقراطية. وأن تقوم طائرتا نقل من طراز دي سي 3 بنقل ستين جندياً أو أكثر من المرتزقة مع المعدات التي تستخدم في حماية المناجم من جنوب إفريقية إلى نقطة انطلاق في إندولا في زامبيا أولاً، ومن ثم إلى كولوازي بعد وصول إشارة بأن المطار قد أصبح آمناً. وكان يفترض أن تطير طائرة الأنتونوف القديمة أولاً إلى مالابو ثم إلى هراري في زمبابوي، لتحميل الصناديق الخشبية من الذخيرة والأسلحة، ومن ثم تتوجه إلى كولوازي في الوقت المناسب. وفي حين قد تبدو هذه الخطة ملتوية ومعقدة، إلا أنها كانت مصممة لتجنب رؤية قيام رجال غير نظاميين بتحميل أسلحة وعتاد في الطائرة. وبعد وصول طائرات الدي سي - 3 والأنتونوف، يجري تحميل الرجال والعتاد والأسلحة كلها في طائرة إليوشن العملاقة.

وستقل طائرة إليوشنِ أكثر من مجرد رجال مسلحين؛ إذ سيكون فيها أيضاً مجموعة من السيارات الفارهة رباعية الدفع الهدف منها هو استمالة أوبيانغ للخروج إلى المطار. وسيطلب من الرئيس أوبيانغ تقبل هذه الهدية من نقولا وشركاه. وحين يصل أوبيانغ إلى مدرج المطار هو وحراسه المغاربة، يقوم المرتزقة في الطائرة بمهاجمته و«اعتقاله».

وبعد تأمين المطار، سيقوم الرجال باستخدام السيارات ذات الدفع الرباعي إضافة إلى حافلات نقل ركاب من مكتب خدمات سيارات الأجرة العائد لنقولا في نقل المرتزقة لتأمين القاعدة العسكرية ومراكز الشرطة. وستكون الطائرات المروحية التي دفع ثمنها من إسهامات مارك تاتشر في شركة تربل إيه للطيران في وضع الاستعداد في الجزيرة لكي تستخدم بوصفها طائرات مدفعية للتعامل مع أي وحدات عسكرية تتصدى لجنود الانقلاب وطائرات إسعاف في نقل أي جرحى من المجموعة. ومع وجود قرابة الستين من المرتزقة في مواجهة جيش غينية الاستوائية المكون من عدة آلاف بالإضافة إلى قوات الشرطة، فإن المخططين للانقلاب كانوا إما أغبياء سذجاً، أو متمادين في التفاؤل، أو أنهم كانوا معتمدين على شبكة داخلية من الأعوان والمؤيدين لضمان مقاومة ضعيفة.

في أثناء ذلك، ومع البدء بعملية الانقلاب، سيسافر سفيرو موتو بمرافقة غريغ ويلز، وديفيد تيرمين، وكريم فلاحة في الطائرة الخاصة المسجلة في جنوب إفريقية من نوع بيتش

كرافت، التي تعود ملكيتها لسيمون مان، ويقودها كروز ستايل متوجهاً من جزر الكناري إلى مدينة باماكو في جمهورية مالي. وبعد أن تصلهم الإشارة، سيقلع موتو وبطانته من المستثمرين بعد نصف ساعة من إسقاط أوبيانغ. وإذا سارت الأمور على ما يرام، فإن سكان غينية الاستوائية سيستيقظون في اليوم اللاحق على عهد جديد من القيادة المستنيرة التي أقامها الجنود المرتزقة.

وبحسب شهادة خليل، كان يفترض أن تنتظر قوة أولية مؤلفة من 600 جندي أسباني قبالة الشاطئ بحيث تنزل من السفن لتكون طليعة قوة أسبانية لحفظ السلام يبلغ قوامها ثلاثة آلاف جندي، ولقد كان موتو ينوي استدعاءها للمساعدة في «استعادة القانون والنظام» في البلاد. وأن يعلن موتو عهداً جديداً من حقوق الإنسان والديمقراطية، بينما ينعم إيلي خليل وأعوانه بالغنى الفاحش من وراء خططهم لتأجير حقول النفط.

كان سيمون مان مبتهجاً من بساطة الخطة وأرباحها الموعودة، وسارع في توسيع الفكرة الأولية إلى رؤية أكبر حول إمكان تغيير القارة الإفريقية بجيش صغير خاص. وثمة تقرير استخباراتي مفصل وضعه ضابط سابق في جهاز مخابرات جنوب إفريقية اسمه جوهان سميث، يشير فيه إلى أن المتآمرين، وفي مرحلة ما في أثناء التخطيط للانقلاب، ربما خططوا لعدد من الانقلابات المتتابعة- بدءاً بإسقاط القيادة في جزيرة سو تومي قبل التوجه إلى غينية الاستوائية. وقبل ذلك، جرى نقاش في منزل سيمون مان شارك فيه غريغ ويلز مستشاره المالي ووكيله العقاري غاري هيرشام حول السودان والغابون- وهما دولتان منتجتان للنفط وفيهما احتمالات إيجابية لمستثمر مغامر يملك جيشاً خاصاً. وقد اجتمع مان فعلياً مع أحد الأشخاص لمناقشة تصوير عملية الانقلاب بهدف إصدار برنامج للعلاقات العامة لخدمة الخطط المستقبلية.

وقبل التحرك إلى دول أخرى، كان على سيمون مان أن يحقق نجاحاً مؤكداً في غينية الاستوائية، وكان هناك على الأقل رجل واحد يمكنه أن يضع العراقيل في وجه الانقلاب. وهذا الشخص هو جوهان سميث، وهو ضابط سابق في كتيبة – 32 وصديق لنقولا دو توا، يقطن في مالابو ويعد غينية الاستوائية من مناطق نفوذه. وكان يقدم نفسه بوصفه

مستشـاراً أمنياً للرئيس أوبيانغ، مع العلم أن أوبيانغ ينكر هذه المزاعم. وسميث هو واحد مـن بين عدد كبير من الضباط العسكريين مـن جنوب إفريقية الذين يعرضون خبراتهم ومهاراتهـم لمن يدفـع ثمناً أعلـى، وكان أول علمـه بالعملية التي ينوي مـان تنفيذها من اثنـين مـن رفاقه الجنود من كتيبة – 32 حين تحسرا على فوات فرصة مجزية من أعمال المرتزقـة. وأخبرهما سميـث بأنهما إذا حاولا الحصول على العمل مرة أخرى وقبلا فيه، فإنه سيكافئهما عن أي معلومات يوصلانها إليه.

ونجـح الرجلان من إيصـال ما يكفي من التفاصيل إلى سميث ليكتشف تورط صديقه نقـولا دو توا في العملية. واجه سميث نقولا دو توا ليحذره من المشاركة في العملية. ومع أن تحذيـرات سميث دفعت نقولا إلى مراجعة نفسه وحساباتـه، إلا أنه وسيمون قررا المضي في العمـل بحسب الخطة. وربما كان قرارهما مختلفاً لـو كانا يعلمان بأن سميث كان يعد ملفاً مفصلاً حول الانقلاب الوشيك. وقد دفع سميث بذلك الملف إلى الدول التي ظن أنها تهتـم بالأمر. يقول سميث إنه أرسل نسخاً مـن تقريره المفصل إلى المسؤولين الحكوميين في الولايـات المتحدة، وبريطانية، بمن فيهم مسؤول من البنتاغون اسمه مايكل ويستفال. وتضمـن التقرير التحضيرات المعدة للانقلاب، وقائمة بالأشخاص الذين قدموا التمويل المالي (مع أرقام هواتفهم)، والتاريخ المتوقع لحدوث الانقلاب وهو منتصف آذار/ مارس من عام 2004.

تسلمـت الحكومـة البريطانية تقرير سميـث في 29 من كانون الثـاني/ ينـاير، ووصل إلى يـد وزيـر الخارجية جاك سترو. وصرح سـترو فيما بعد في بيان رسمـي جاء فيه إن المعلومات «لم تكن على درجة من التحديد يجعلنا نقول: إن وقوع الانقلاب هو أمر مرجح أو حتمـي. لقد وصلت إلينـا المعلومات من حكومة أخرى مشفوعـة بالشرط المعهود بعدم نقلهـا إلى طـرف ثالث .... فنظـرت في القضية وأوعزت إلى مكتـب الخارجية بالتحدث إلى شخـص كان له ارتبـاط بشركة عسكرية بريطانية خاصة، وذلك من أجل التثبت من صحـة المعلومات الواردة في التقرير والتأكيـد بما لا يدع مجالاً للشك أن مكتب الخارجية يعارض بشدة أي عمل غير دستوري كالإطاحة بأنظمة الحكم». ولما كانت خطة الانقلاب

تحمـل معـالم عمليات شركة النتائـج التنفيذيـة أو ساندلاين، لم يكن مـن المستغرب أن يستدعـي جاك سترو تم سبايسر للحصول على مزيد مـن المعلومات منه. وبحسب رواية أحـد موظفي الخارجية البريطانية عن وقائع الاجتماع، فـإن «الأشخاص المعنيين زعموا أنـه لا يوجـد لديهـم أي معلومات تتعلـق بخطط الانقـلاب». وفي حـين أن مستوى تورط سبايسـر في الانقلاب غير معـروف، ولا يوجد دليل على أنه كان فعلاً طرفاً في الانقلاب، إلا أن الأشخاص الذيـن يعرفون سبايسر وسيمـون مان يرون أن مـن المستبعد ألا يكون هـذان الرجلان اللذان يرتبطان بمصالح متوازية، وعلاقـات اجتماعية، ومصالح مالية مشتركة، قد تحدثا عن هذه الفرصة الكبيرة. ولم يكن مستغرباً في تلك الدائرة أن يكون أول شخص يستدعيه جاك سترو هو تم سبايسر.

وجاء في البيان الرسمي الصادر عن مكتب سترو حول الاجتماع، بأنه طلب إلى سبايسر أن يبلغ صديقه القـديم سيمون مان باستياء الخارجية البريطانية وشجبها للعملية. غير أن مصدراً مقرباً من سيمون مان يذكر أن سيمون مان تلقى إيجازاً مختلفاً عن الاجتماع. وتقـول هـذه الرواية: إن سبايسر أخـبر مان بأنه أوضح تفاصيـل خطة الانقلاب ووصف سـترو بأنه كان مسروراً بما سمع: «حين جمع اللقاء بين سبايسر ومان في شباط/ فبراير من العام الماضي، عقب اجتماع سبايسر بمكتب الخارجية البريطانية، ذكرت التقارير أن اجتماعاً إيجابياً جرى بين تم سبايسر وسيمون مان وأن سيمون مان كان أبعد ما يكون عن الإحبـاط من الاجتمـاع الذي حضره تم سبايسر في الخارجيـة البريطانية، وكل ما ذكره سبايسر له كان مصدراً للابتهاج والحبور». ولكن سبايسر ينكر أنه قدم إيجازاً عن وقائع اجتماعه في مكتب الخارجية البريطانية.

ادعـى جـاك سترو أولاً أن الحكومة البريطانية لم تكن تعلـم مقدماً بالانقلاب، ولكن بعـد سنة من التغطية الإعلامية للحدث تجعل من الصعب التمسك بهذا الموقف، وأخيراً اعـترف سترو أنـه كان يعلم بخطة الانقلاب قبـل خمسة أسابيع من تاريـخ وقوعه. وأنه قـد وضع خططاً طارئة لإخلاء الرعايا البريطانيـين من جزيرة بي-أوكو تحسباً لانتشار العنف والفوضى من الانقلاب.

لا بـد أن شخصـاً ما قد قدم لسيمون مان انطباعاً يعكـس الموافقة الضمنية للحكومة البريطانيـة علـى خطة الانقلاب، وهو انطباع يعزز المشاعر التـي نقلها له غريغ ويلز عن دعـم الحكومة الأمريكية له. ولو قامت أي حكومة ذات شـأن بإبلاغ مان وعصابته بعدم المضي قدماً بخطته، فإنه سيكون من الواضح عدم الجدوى من السير في تنفيذ الانقلاب. والحقيقـة هي أنه لم يتدخل أحد بخطوات جادة لإحبـاط العملية، وأن حكومتي الولايات المتحـدة والمملكة المتحدة اكتفتا بالجلوس والمراقبة عن كثب ما ستتمخض عنه الأحداث. وبعد نجاح العملية، ستنطلق حملة للعلاقات العامة بحيث تجعل من الصعب إعادة أوبيانغ إلى السلطـة والمجادلة بأن موتو ليس بحاكم أفضل للبلاد. ومع ذلك، قُدّم الانقلاب على أنـه عودة لحكومـة مستنيرة مضطهدة من المنفى وتخليص للبـلاد من أكثر طغاة القارة الإفريقيـة وحشية. ولـن تجرؤ أي حكومة علـى معارضة ذلك. ولم يفصـح مان لأحد أن الخطة لم تكن سوى مؤامرة من مجموعة من المستثمرين الذين قاموا بتوظيف متعاقدين أمنيين للسيطرة على دولة غنية بالنفط.

وبحلول شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2004، كان شركاء مان الذين استثمروا في خطته جاهزين لأداء تعهداتهم وحصل منهم على الأموال المطلوبة أو على تعهدات بدفعها. وكان خليـل يلح على مـان أن يجعل موعد الانقلاب في الأسبـوع الثالث من شهر شباط/ فبرايـر مـن عام 2004، لئلا تفسـد الانتخابات المزمع عقدهـا في البلاد خطة الانقلاب التـي وضعوها بعناية. وكانت أسبانية هي الأخرى على موعد مع انتخابات مقبلة، وناقش المتآمرون احتمال أن يخسروا دعم رئيس الوزراء المحافظ خوزيه ماريا أزنار إذا ما أخفق في الانتخابـات. كما أن الانتخابـات القادمة في غينية الاستوائيـة يمكنها هي الأخرى أن تأتـي بزعيم جديد منتخـب ديمقراطياً، وهو ما سيجعل مـن الصعب وضع وجه إعلامي إيجابـي على الانقلاب. كمـا أن البلاد شهدت في كانـون الأول/ ديسمبر الفائت محاولة فاشلة للانقلاب علـى أوبيانغ، وهذه المحاولة قام بها الجنرال أوغستن إندغوغ أونا، الأخ غـير الشقيق لأوبيانغ والذي كان يتولى قيادة الجيش. كما أن تعرض أوبيانغ لموت مفاجئ أو لانقلاب ناجح على نظام حكمه يمكن أن يحبط فرص موتو بتسلم قيادة البلاد. لذلك

عزم مان على جعل الأسبوع الثالث من شباط/ فبراير الموعد المحدد للانقلاب وشرع في وضع خطة العمل لتحقيق ذلك.

المحاولة الأولى

مع نهاية شهر كانون الثاني/ يناير، تم توظيف خمسة وخمسين رجلاً وكانوا يمارسون تدريبات على إخلاء المنازل وعلى تكتيكات الاقتحام والهجمات الجماعية في مزرعة في جنوب إفريقية. وقاموا بالتدريب على إطلاق النار واقتحام الأبواب باستخدام أسلحة خشبية ضمن مجموعات من خمسة أو ستة أشخاص. وربما كانت هذه التمارين أكثر مما هو مطلوب من عمليات حراسة المناجم التي قيل لهم: إنها هي الهدف من توظيفهم، ولكن الجنود لم يطرحوا أي تساؤلات عن ذلك خوفاً من فقدان الوظيفة.

وفي بداية شباط/ فبراير من عام 2004، سافر سيمون مان ونقولا دو توا إلى هراري لشراء كمية من الأسلحة. فيما بعد، ذكر المسؤولون في هيئة التصنيع العسكري في زمبابوي أن الرجلين أثارا شكوكهم؛ لأن بطاقات العمل التي قدمها لهم الاثنان تحمل العنوان نفسه: مان بالنسبة لشركة لوغو لوجستكس ودو توا لشركة خدمات التقنية العسكرية، وهي شركة أسسها عام 1989. إضافة إلى ذلك، بدا من اللافت للنظر أن يسعى الرجلان لشراء الأسلحة من زيمبابوي مع أن شركتيهما موجودتان في جنوب إفريقية- الدولة الإفريقية الأولى في صناعة وتصدير السلاح- كما أن شركة خدمات التقنية العسكرية هي وكيل مرخص لبيع الأسلحة. ولعل المسؤولين لم يصدقا أن الرجلين كانا يريدان دعم الرئيس روبرت موغابي في استعادة مناجم الماس ذات القيمة العالية في منطقة كولوازي من الكونغو، غير أن سماسرة السلاح لا يكثرون من الأسئلة. ويبدو أن المسؤولين في وزارة الدفاع الزيمبابوية لم يكترثوا بالدوافع الحقيقية لمان ودو توا ورفض 180.800 دولار أمريكي مقابل 61 بندقية كلاشنكوف ومعها 45.000 طلقة، و20 بندقية رشاشة خفيفة من نوع بي كي إم مع 30.000 طلقة من الذخيرة، ومئة قاذفة آر بي جي مضادة للدبابات مع 1000 قذيفة، و500 قنبلة يدوية، و10 مسدسات من نوع براونينغ مع 500 مخزن للذخيرة عيار 9 ملم، ومدفعي هاون عيار 60 ملم مع 80 قنبلة مدفعية. وطار جيمس كيرشو إلى

هنـاك من جنوب إفريقية ومعـه 90 ألف دولار أمريكي لتسديـد الدفعة الأولى من فاتورة السلاح. وكان يفترض أن تصل شحنة الأسلحة بكاملها في غضون أسبوع واحد.

وصـل نقولا وسيمون مطار هراري في 18 شباط/ فبرايـر وبحوزتهما 90.800 دولار، هي الدفعة النهائيـة من ثمن الأسلحة. وكان يفترض أن يتسلما الأسلحة، ويذهبا لملاقاة المرتزقة والتوجه معاً لتنفيذ خطة الانقلاب، إلا أن العملية واجهت عقبة لم يكن بالإمكان تخطيهـا؛ إذ اصطدمت الطائرة التي كانت تقل المرتزقة بطائرة أخرى على أرض المطار ممـا أدى إلى تعطـل عجلاتهـا الأماميـة، فتعطلت عن الحركـة وتحولـت إلى كومة من الحديـد في إندولا. وبقي المرتزقـة الخمسون الذين طاروا وصلـوا إلى إندولا قادمين من مطـار ويندوربرووم في بريتوريـة محصورين هنـاك وكان عليهم تدبـير أمر عودتهم إلى وطنهـم. وتحتم على سيمون مان أن يوقف شحن الأسلحة ويتوجه إلى هراري ومن هنـاك إلى إنـدولا لكي يدفع مصاريف إصلاح الطائرة، ثم العودة إلى موطنة في حالة من الهلع والخـوف. وفي غمرة اضطرابه وقلقه من هذا الإخفـاق، أنحى مان بالمسؤولية على كروز ستيلي بسبب الخطـة المغالية في التعقيد، وعزله واستخدم مكانه إيفان باينار، وهو طيار مـن جنـوب إفريقية وجندي مرتزق سابق عمل مع حركة يونيتـا، وطلب إليه تطوير خطة جديـدة للإمدادات الجوية. وقد كلّف هـذا القرار بالذات سيمون مـان ثمناً باهظاً؛ لأن الخطـة الجديدة تسربت مباشرة إلى أعلى المستويات في الحكومة الأنغولية، وأفضت إلى فضح خطة الانقلاب.

المحاولة الثانية

أراد مـان مـن الخطـة أن تكون أقلّ تعقيداً، وهـذا بالضبط ما فعله إيفـان باينـار- لا للخـدع الفاخـرة والسيـارات الفارهـة، ولا لتعـدد الرحـلات الجويـة ونقـاط الانطلاق والهبـوط. وستستخدم الخطة الجديدة طائـرة واحدة، تقلع من نقطة واحدة بعد تحميل الجنود المرتزقة من جنوب إفريقية، ثم يقوم سيمون بتحميل الأسلحة والعتاد في هراري، ثـم تتوجه إلى مالابو لتنفيذ الانقلاب. وبدلاً من توجيه الدعـوة إلى أوبيانغ للحضور إلى المطـار، يقوم نقولا- عن طريق أحد شركائـه، آرمنغول- بدعوة أوبيانغ إلى تناول العشاء

ليلـة الانقلاب. ثم يجـري احتجاز أوبيانغ بالقـوة حتى يصل المرتزقة بعـد عدة ساعات ليسيطروا على البلاد.

ودون السيـارات الفارهة، تـزول الحاجة إلى طائرة النقل العملاقـة إليوشن، كما أن طائـرة الأنتونوف لا يمكنها استيعاب الجنود والعتـاد لصغر حجمها. لذلك، قام سيمون بإجـراء عدد من المكالمات الهاتفية وانتهى أخيراً إلى تحديد الخِيَار الأفضل لهذه العملية في دودسـون آفييشن في ولاية كانـزاز- وهي طائرة بوينغ 100-727 عمرها أربعون عاماً، جـرى تحويلها من طائرة مدنية إلى طائرة نقل تابعـة للحرس الوطني الأمريكي. وكانت تلك الطائرة مزودة بحجرة نقل مضغوطة وتبلغ سعتها ضعفي سعة طائرة أنتونوف لمسافة ثلاثة آلاف ميل. وهي أيضاً تحمل العلم الأمريكي على ذيلها.

سـاوم مان مساومة شديـدة مع دودسن آفييشـن ووافق في الأسبـوع الأول من آذار/ مارس أن يدفـع 400000 دولار ثمناً للطائرة. وكلفت شركة دوبسون فريقاً من الطيارين الأمريكيـين بنقـل الطائـرة إلى جنـوب إفريقيـة. وصلت الطائـرة البيضـاء إلى مطار وندربرووم إلى الشمال من بريتورية في الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد، في السابع مـن آذار/ مارسـ، وخرج الطاقم الأمريكي إلى المدينة، وبـدأ الجنود المرتزقة بالصعود إلى الطائـرة على الفور. والشيء الذي كانـوا يجهلونه هو أن أحد الأشخاص الذين كانوا علـى اطلاع جيـد بنشاطات طيرانهم قام بإبلاغ الرئيس الأنغـولي إدواردو دو سانتوز في الرابـع مـن الشهر نفسـه بالتفاصيل الكاملة خطـة الانقلاب. وفي يـوم الجمعة، الموافق للخامسـ من الشهر، قامت الاستخبـارات الأنغولية بالاتصال بوزيـر الداخلية في غينية الاستوائية وطلبت إليه الحضور فوراً إلى لواندا. استقل مانيويل إنغوميا إمبا -الذي ترقى بعدهـا إلى منصب وزير الأمن القومي في حكومـة أوبيانغ- طائرة فالكون متوجهاً جنوباً ليستمـع إلى تفاصيـل خطة الانقلاب من دو سانتوز. ثم بـدأ مانيويل ببث المعلومات على الفـور إلى مالابو. ولو نجح الجنود المرتزقة بالوصـول إلى غينية الاستوائية، فإنهم كانوا سيلاقون مقاومة شرسة وعنيفة.

أمـا في جنـوب إفريقيـة، فقد كان الجـو مفعمـاً بالحبـور. وكان أول الصاعدين إلى طائـرة بوينـغ 727 الطيـار نيل ستيـل، وهو أحـد العاملـين السابقين المهمـين في شركة

النتائـج التنفيذية.، وأحـد رجال «المليون دولار». واستقل هندريـك هامّان مقعد مساعد الطيـار، وتولى كـن بايان مهمـة مهندس الطـيران، وسيتولى طاقم الطائـرة مهمة نقل ستـة وأربعين جندياً، وكومة من الإمدادات، ومبلـغ 30.000 دولار ثمن وقود، و100.000 دولار مصاريـف. وبعد تحميل العتاد، أخـذ الجنود المرتزقة مواقعهم ممسكين بالمقابض الجانبيـة مـن الطائرة؛ لأنها كانت خلواً من المقاعد المعدة لنقـل الركاب. كان من بينهم ثلاثة وعشرون أنغولياً، وثمانية عشر ناميبياً، وسبعة وعشرون من جنوب إفريقية، واثنان من كونغولا، وواحد من زمبابوي.

وكان أحـد المرتزقـة من جنوب إفريقية قد أنهى لتـوه مهمة في هاييتي ولم يمض على وصولـه إلى جنـوب إفريقية سوى يومين. وهذا الشخص هو ريمونـد ستانلي آرتشر، وهو عامـل سابق في شركـة النتائج التنفيذية، وكان يعمل مع مؤسسة ستيلي حين خلع الرئيس الهاييتـي آرستيد في 28 شبـاط/ فبراير. وكان يعمل ضمن فريـق الحراس الشخصيين الذين رافقوا الرئيس المخلوع آريستيد إلى منفاه في جمهورية وسط إفريقية. وبعد اعتقاله في زمبابوي، ذكر آرتشر أمام المحكمة أنه وصل إلى موطنه في جوهانسبيرغ في الرابع من آذار/ مارس، وأنه حين كان يتنـاول الغداء مع زوجته السابقة بعدهـا بثلاثة أيام، تلقى مكالمة هاتفية من جيمس كيرشو. «قال لي إذا كنت تستطيع التوجه إلى المطار في غضون ساعـة، فإنك ستحصل علـى الوظيفة». وحين صعد المتعاقد الأمنـي إلى الطائرة، عرف عشـرة من الأشخاص الموجودين فيها. وبدا كأنه في اجتماع لمّ شَمْلٍ لأفراد جيش الدفاع الجنوب إفريقي في عهد النتائج التنفيذية.

لم يكـن المقاتلون يعلمون أنهم متوجهون إلى غينيـة الاستوائية مروراً بزمبابوي، غير أنهـا ليسـت المرة الأولى التـي لا يعرف فيها المتعاقـدون والمرتزقة العاملـون مع مان عن وجهتهم النهائية. وعلى الرغم من أن المجموعة كانت مدربة على أعمال القتال في المعركة وإخـلاء المنازل- لا أحد منهم لـه علاقة بحماية المناجم- كان المتعاقـدون سعداء بعدم معرفة الكثير عن مهمتهم؛ لأنهم سيخبرون بعد هبوط الطائرة.

في غضـون ذلـك، وصل سيمون مان، ولورينس هورن، وجيكبسـ «هاردي» كارلس إلى زمبابـوي للتوثق من وجـود الأسلحة وجاهزيتها. أما الجنـوب إفريقيان، هورن وكارلس،

فقد كانا شريكين مالكين في شركة متيوورك تاكتيكال سيستمز، وهي شركة أمنية خاصة طرف في عقود أمنية في العراق - أحدها لحماية البعثة السويسرية، والعقد الآخر لتدريب الجيش العراقي. حضر الاثنان من العراق، بعد أن أخبرا عملاءهما في العراق أنهما ذاهبان في نزهة تستغرق أسبوعين لصيد الجواميس في إفريقيا. ولكنهما أمضيا تلك النزهة في سجن زمبابوي بدلاً من ذلك.

في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً، هبطت طائرة البوينغ 727 التي لا تحمل أي علامة مميزة في مطار هراري واتجهت إلى القسم العسكري من المطار للتزود بالوقود. ويذكر بيان الطيار أن في الطائرة ثلاثة طيارين وأربعة عمال للتحميل وأنها ستتوجه بعد التزود بالوقود إلى بوجومبورا في بورندي، ومن ثم إلى إمبوجي ماي في جمهورية الكونغو.

وبحسب بيان صادر عن حكومة زمبابوي، صدر فوراً عقب تلك الحادثة، أن أحد حراس المطار انتابه شك من أن جميع نوافذ الطائرة كانت مغلقة. وحين سأل الجندي من الطاقم السماح له بإلقاء نظرة داخل الطائرة، رفض طلبه بكل فظاظة ووقاحة. فرجع الجندي وزملاؤه إلى قائدهم فجاءت مجموعة مسلحة من الحرس واقتحموا الطائرة، وتمَّ إلقاء القبض على الجنود المرتزقة وطاقم الطيارين على الفور. وبعد دقائق عدّة، اقتادت قوات الأمن سيمون مان، وهورن، وكارلس إلى الاعتقال، وجرى استدعاء فريق تصوير من التلفاز لتصوير «الحمولة العسكرية» الموجودة في الطائرة.

ومع أن التقارير الأولية بشأن اعتقال مان وجيشه الصغير قد أظهرت أول وهلة أن اكتشاف العملية كان بمحض المصادفة السعيدة، إلا أن المسؤولين الزيمبابويين أصروا -فيما بعد- على أن الكشف كان جزءاً من عملية ضبط محكمة أعدت بعد أن وصلتهم تقارير من جهاز الاستخبارات في جنوب إفريقية تحذرهم من خطط مان. ومع أن هذا الاحتمال وارد، إلا أن من المحتمل أيضاً أن تكون الحكومة الزيمبابوية كانت تحاول التغطية على فضيحة قيام وزارة الدفاع فيها ببيع أسلحة كانت ستستخدم في انقلاب مسلح في جمهورية غينية الاستوائية، ومن قبل ثوار من الكونغو.

وقبل إلقاء القبض عليه، نجح مان مستخدماً هاتفه الخلوي الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية أن يجري بعض المكالمات أو إرسال بعض الرسائل ليقول لنقولا: «من

الضـــروري أن تلغي كل العمليـات بسبب صعوبات ظهرت في الدقائـق الأخيرة». ثم سارع بإرســال رسالة إلى أشخاص آخرين في الطائــرة ذات المحركين التي تنتظر في باماكو في مــالي وعلى متنها موتوومرافقوه. اقتيد مان والمجموعة المرافقة له إلى سجن تشيكوروبي علــى مقربة مــن هراري. وأخذ الجنــود المرتزقــة - وأكثرهم من الأفارقــة السود - إلى السجن، ووُضِعَ كل ثمانية في غرفة، في حين وضع مان في سجن انفرادي.

كان ذلك كافياً لتشتيت الإوزة البرية؛ إذ قفل موتوومن معه راجعين إلى جزر الكناري، حيـث احتجــز لبرهة من الوقت وخضــع لمساءلة من موظفي الهجــرة صبيحة الثامن من مارســ. ويبدو أن كروز نجح بطريقة أو بأخرى في دخول أسبانية من جنوب إفريقية دون أن يكــون بحوزته جواز سفر، وحتى مع ذلــك، فقد جرى الإفراج عن جميع أفراد الطاقم بعــد أن تدخل أحد أفراد الاستخبارات الأسبانية، وهو ما يزيد من الشكوك حول التورط الأسباني في العملية.

وفي يــوم الثلاثاء الموافق للتاسع من مارس، ألقــي القبض على نقولا ومعه أربعة عشر شخصــاً في غينية الاستوائيــة، واقتيدوا إلى سجن بلاك بيتش. وقــال اثنان منهم: إنهم تعرضوا للتعذيب والضرب وجــرى تعليقهم من أرجلهم إلى السقف وصعقهم بالكهرباء. وفي اليوم اللاحق، عرض التلفاز اعترافات نقولا. وفجأة تحوّل أحقر طاغيتين إفريقيين، وهما الرئيس الزيمبابوي روبرت موغابــي، ورئيس غينية الاستوائية أوبيانغ إنغوميا، إلى بطلين مخلصين لإفريقية في حقبة ما بعد الاستعمار.

إن مشاركــة عــدد كبير مــن اللاعبين السابقــين من شركــة النتائــج التنفيذية جعل العمليــة تبدو كأنها خطة قديمة بالية. وأشارت كثير مــن التقارير الإعلامية إلى التشابه بين محاولة الانقــلاب تلك، وبين رواية فريدريك فورسيث التي نشرت عام 1974 بعنوان «كلاب الحــرب». كتب فورسييث روايته المشهورة في فندق باهيا الواقع على قطعة مشرفة من الأرض تطل على مدينة مالابو، وكانت الدولة الخيالية التي تدور فيها أحداث الرواية التــي سمّاها زانغورا هي في الحقيقة غينية الاستوائية. وكانت الشخصيتان الواردتان في الرواية وهما كات شانون وداعمه السير جيمس مانسون مبنيتين على شخصيات حقيقية حاولــت فعلاً تدبــير انقلاب على حكومــة ماسياســ إنغوميا عــام 1972. وبحسب رواية

فورسييث الخيالية، قامت مجموعة من رجال الأعمال وذوي المصالح التجارية بالتخطيط للقيام بانقلاب على نظام الحكم؛ كي تتحقق لهم السيطرة على موارد المعادن الثمينة في البلاد (وهو قياس مثير إذا ما قورن بمحاولة الانقلاب الأخيرة التي كانت تستهدف السيطرة على حقول النفط في البلاد). وفي تلك المحاولة، استقل الجنود المرتزقة سفينة صيد من أسبانية عبر لانساروت في جزر الكناري باتجاه غينية الاستوائية. ونظراً لتسرب بعض المعلومات الأمنية، والمشهد الغريب للأجانب المبحرين من أسبانية في مركب صيد، فقد ألقي القبض على السفينة ومن فيها لدى وصولهم إلى الميناء. ووجهت وسائل الإعلام التهمة إلى فورسييث، وهو الآن من أصحاب الأسهم في شركة إيجيس، بدعم محاولة الانقلاب عام 1972، على الرغم من أنه بقي مصراً على نفي تلك التهمة.

كانت المحاكمات التي جرت في زيمبابوي ومالابو ذات نتائج معدة سلفاً. ففي زيمبابوي، تلقى المرتزقة من بومفاير حكماً بالسجن سنة واحدة على مخالفات متعلقة بقانون الهجرة، وأعيدوا إلى موطنهم بعد محاولة الانقلاب. وحكم على طاقم الطائرة بالسجن سنة ونصف السنة وأفرج عنهم باكراً. وحوكموا مرة أخرى في جنوب إفريقية، وغرّم نيل ستايل 25.000 دولار، ووافق في الصفقة التي عقدها مع الادعاء العام على المساعدة في التحقيق.

وحكم على مان بجريمتين متصلتين بحيازة الأسلحة في 22 تموز/ يوليو 2004، بالسجن سبع سنوات، مع أن المحكمة العليا في زيمبابوي خفضت الحكم إلى أربع سنوات وتخفيض المدة المحكومة بمقدار الثلث على حسن سلوكه. ويذكر مصدر مقرب من أسرة مان أن حكومة زيمبابوي عرضت عليه دفع غرامة باهظة مقابل الإفراج عنه. وكانت حريته تتوقف على بيع منزله، غير أن زوجه أماندا مان البالغة من العمر 39 عاماً الحامل في ذلك الوقت بطفلهما السابع، رفضت بيع المنزل.

بعد عدة أسابيع من إلقاء القبض عليه، كتب سيمون مان رسالة إلى زوجه من السجن والتقطها جهاز الاستخبارات في جنوب إفريقية وتسربت في النهاية إلى وسائل الإعلام. كانت الرسالة التي كتبت بأسلوب طلبة مدارس إيتون، تناشد بإنفاق «المال الكثير» لتأمين الإفراج عنه. وأصر على أنه تعرض للتعذيب وأن اعترافه قد انتزع منه بالقوة. أما عبارات

«سميلي» وعبارة «سكراتشر» الواردة في الرسالة فهي شيفرات فظة يقصد بها إيلي خليل ومارك تاتشر. وطلب مان من زوجه أن تطالب بقوة بمبلغ 200 ألف دولار من غيانفرانكو سيسكوغنا، ومبلغ مماثل من «سكراتشر (ذي البزة المكشوطة)»، ونصف مليون دولار المتبقية من غريغ ويلز. وكتب مان: «هل يظن هؤلاء أن بإمكانهم أن يكونوا جزءاً من شيء كهذا في الجانب الإيجابي وحسب، دون تحمل أي صعوبة أو مخاطرة من إخفاق هذه العملية. إن كل شخص في هذه العملية هو جزء منها- في السراء والضراء. والآن نحن في الضراء وعلى كل واحد أن يقف بكل وزنه خلفها. لقد كانت الخطة تقضي بأن يُدَّخر إسهام غريغ ويلز إلى المرحلة الأخيرة من العملية وهذه هي المرحلة الأخيرة».

عمّقت الفضيحة الناتجة عن هذه الرسالة من الفجوة بين داعمي الانقلاب والمنفذين الموجودين الآن في السجن. وفي إفادة أخرى تحت اليمين، حاول مان أن يبعد نفسه عن مؤازريه السابقين، قائلاً: «إنه لمن دواعي أسفي الشديد أن بعض أصدقائي ومعارفي، مثل السير مارك تاتشر، وإيلي خليل، وتوني بكنغهام، وجهت إليهم الاتهامات ... بالتآمر معي ... إنني ما زلت مصراً على القول بعدم وجود خطة أو تفاهم أو مؤامرة كنت طرفاً فيها».

سعى غريغ ويلز إلى النأي بنفسه عن الخطة على بالرغم من ارتباطه القديم بسيمون مان، وصرّح للصحافة البريطانية بأن «أي شيء اقترفه سيمون مان كان في منتهى الغباء. أن يجد المرء نفسه في هاراري، برفقة زمرة من المرتزقة، وطائرة، ويقوم بشراء كميات كبيرة من الأسلحة والعتاد- ثم يظن أن بإمكانه أن يفعل ذلك دون أي مشكلة، فإنه يكون في منتهى السذاجة». لم يقبض على ويلز ولم توجه إليه أي تهمة، وأصر على نفي أي صلة له بالعملية، على الرغم من أنه كان على اطلاع مباشر على مجريات الأحداث لدرجة أنه على وشك تأليف كتاب حول الانقلاب بعنوان: «القوة والتضاريس».

وفي الخامس والعشرين من آب/ أغسطس، قامت قوات سكوربيون باعتقال مارك تاتشر في الوقت الذي كان يتهيأ فيه للطيران إلى دالاس مع بداية العام الدراسي لأطفال المدارس. وألقي القبض كذلك على جيمس كيرشو ولكنه تفاوض مع الإدعاء العام على حكم مخفض، ودفع غرامة مقابل إدلائه بشهادة ضد مارك تاتشر. أقر مارك بالتهم

الموجهة إليه مقابل الحكم عليه بعقوبة مخفضة هي السجن أربع سنوات مع وقف التنفيذ ودفع غرامة قدرها نصف مليون دولار.

وفي غينية الاستوائية، حكم على نقولا دي توا بالسجن أربعة وأربعين عاماً (وهو حكم بالموت من الناحية الفعلية لشخص بلغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً). واشتكى نقولا قبل بدء محاكمته من أن اللاعبين الكبار في خطة الانقلاب قد تخلّوا عنه. وقال: «إنني أشعر بالمرارة أكثر من أي شيء آخر».

أما الطيارون الأرمينيون الستة الذين قبض عليهم مع نقولا، فقد حكم عليهم بالسجن لمدد تتراوح بين أربعة عشر عاماً وخمسة وعشرين عاماً، غير أنه أفرج عنهم بطريقة غامضة بعد سنة من صدور الحكم، وأعيدوا إلى موطنهم الأصلي، وحكم على أربعة آخرين من جنوب إفريقية بالسجن سبعة عشر عاماً لكل منهم.

لم توجه السلطات الأسبانية أي تهمة إلى سفيرو موتو، ولكنه طرد من البلاد. وصدر بحقه حكم غيابي بالسجن 65 عاماً (مضافة إلى حكم سابق بالسجن 101 عاماً) في غينية الاستوائية. ويدعي موتو أن الرئيس أوبيانغ يحاول استخدام طرق غير قانونية للثأر منه، وادعى أنه نجا بأعجوبة من محاولة اغتيال على يد رجال من البلقان استأجرهم أوبيانغ. وعلى الرغم من عدم وجود أي دليل يثبت صحة هذه القصة، إلا أنه ليس من المستبعد أن يحاول أوبيانغ القضاء على موتو بوصفه مصدر خطر على نظام حكمه بعد محاولته الثالثة للاستيلاء على الرئاسة. وحتى لو ذهب موتو، فإن من المرجح أن حكم أبيانغ لن يدوم طويلاً في هذا العالم؛ إذ لا يمكن لأي شخص بذلك القدر من الضعف أن يجلس على ذلك الكم من الموارد الطبيعية إلى ما لا نهاية. قال لي نقولا: إنه كان هناك على الأقل ست محاولات للانقلاب منذ دخوله السجن.

النهاية

لو كان هناك عظة من هذا كله، فهي أن تجارة الأمن حين تخرج عن إطارها المؤسسي أو تعاملها الحكومي، فإن مؤيديها يمكنهم التحول إلى تجار للفوضى وانعدام الأمن. فالمرتزقة هم -بعد كل شيء- رجال أعمال انتهازيون. ومن المنطقي، بل ومن الضروري، أن نسأل أنفسنا أين سيجد هؤلاء الرجال دخلاً مالياً، وشعوراً بالمهمة، تضاهي الفرصة الذهبية التي حققتها لهم العراق والحرب على الإرهاب؟ وكما يمكن تشكيل جيش بمكالمتين هاتفيتين إلى مجموعة الجنود المتقاعدين في مدينة بومفرت في جنوب إفريقية، فإن الجيل الثاني من المرتزقة يمكن العثور عليهم في المقاهي والحانات الموجودة داخل صالات المعارض والمؤتمرات الأمنية التي تقام في ولاية تكساس، أو حتى على صفحات المواقع الإلكترونية التي تنشدها شبكات استئجار الجنود المسلحين بحثاً عن الفرصة القادمة.

لو تمكن إريك برنس من إقناع الحكومة الأمريكية بأن جيشه الخاص يمكنه أن يجلب السلام إلى المناطق التي تمزقها الحروب، فإن المتعاقدين العسكريين من القطاع الخاص يمكنهم أن يصبحوا مهنة محترمة، مثلها مثل مهنة الطب أو التعليم. وأما لو استغل مؤيدو القطاع الأمني الخاص هذا الاحتياطي الكبير من المهارة المتوافرة في خدمة أغراضهم وغاياتهم الشخصية، فإن العالم سيشهد مزيداً من شركات «خليج بنين»، ومن طائرات 727 المحملة بالرجال المسلحين. والوجهة النهائية لهذه السبل المتلاقية تقريباً في وجه المتعاقد الأمني والمرتزقة يمكنها أن تماثل خليطاً من الاثنين.

إن ما تعلمته من نقولا بشأن النقاش بين المتعاقدين الأمنيين والجنود المرتزقة، هو أن الأمر في النهاية يعود إلى الفرد. فحين كان نقولا دو توا يتولى مهمة حراستي الشخصية، رأيت فيه رجلاً مستقيماً، مخلصاً، يمكن الاعتماد عليه في تقديم الأمن والحماية في منطقة كانت تعدّ أكثر بقاع الأرض خطراً. أما الآن، وبعد أربع سنوات، فهو مجرم يقف خلف القضبان بقية عمره.

وفي سجن الشاطئ الأسود، سألت نقولا دو توا لماذا يصر على رفض الصفقة التي عرضها الادعاء العام عليه وعلى سيمون مان؟ وبموجبها سيقف نقولا شاهداً للادعاء العام على المخططين والممولين للانقلاب كافة. وعلى الرغم من توقيعه على اعتراف خطي قبل المحاكمة، رجع نقولا إلى التمسك بقصته الأصلية، وهي أنه رجل أعمال وأنه لا يعلم أي شيء عن الانقلاب. ويصر على أنه لا يعلم بوجود صفقة معروضة عليه من الادعاء العام، وقال: إنه لا يسمح له بزيارة سفارة جنوب إفريقية ولا باستخدام خدمة البريد.

وحين بدأ ضوء النهار في التلاشي، راح السجانون يقرعون بأصابعهم على ساعاتهم في إشارة لي أن وقتي قد انتهى مع نقولا. بدأت بحزم أشيائي. وتركت لنقولا بعض الهدايا البسيطة، ورجوت الحرس أن يسمحوا له وللآخرين بتناول بعض الفاكهة والخضراوات الطازجة، وقضاء بعض الوقت في الهواء الطلق، وفك القيود عن أقدامهم. كان المدعي العام الذي رافقني في هذه الزيارة ينتظر خارج السجن في الجو الحار، ولما عدت إليه، هز رأسه وتساءل مستغرباً بصوت مرتفع عن سبب تمسك نقولا بقصته. فقلت له: إن نقولا جندي، وهو جندي محترف، وسيبقى موالياً لمذهبه حتى النهاية.

الخاتمة

«تتخلل هذا البلد غابة كثيفة من القوانين تمتد من ساحله الشرقي إلى ساحله الغربي ... هل تظن أنك لو قطعت هذه الأشجار من أصولها ... ستتمكن من الوقوف منتصباً في وجه الرياح العاتية التي ستعصف بك؟ نعم، إنني أقبل بمنح الشيطان فائدة القانون في سبيل توفير الحماية لنفسي»

- وردت هذه العبارات على لسان شخصية توماس مور في كتاب رجل لكل العصور، للكاتب روبرت بولت.

تتناثر البيوت الصغيرة الرائعة على ساحل كاليفورنية إلى الجنوب من مدينة سانتا باربرا- وكان هذا الشاطئ منتجعاً تقصده الأسر ذات الدخل المتوسط في عطلة نهاية الأسبوع قبل عدة عقود، ولكنه أصبح الآن ضاحية تضم منازل تبلغ مساحتها ألف قدم مربع ويباع الواحد منها بمليون دولار، وتسكنها أسر من الطبقة الوسطى ذات الدخل المزدوج من عمل الزوجين. وعند كل تقاطع والتفاف، كنت أجد أمامي شارعاً غريباً ظريفاً سطرت على جانبيه بيوت ذات طابق واحد وألوان زاهية جذابة، وأحياناً تتناسب ألوانها مع ما يحيط بها من مناظر طبيعية خلابة ذات بهجة. وحين أوقفت سيارتي أمام المنزل الذي أقصده، تضاربت الأفكار في ذهني وأنا أتأمل الواقع أمامي. وتساءلت في نفسي هل يسكن هنا حقاً في هذا المنزل الصغير الجميل المحاط بسياج خشبي واحد من المتعاقدين الأمنيين «الحاذقين المهرة» الأشداء الذين كنت أرافقهم في المسير على الدرب الإيرلندي في بغداد؟ وكما لو كان ينتظر قدومي، خرج «مياغي»، الشرطي السابق في مدينة لوس أنجلوس وقائد فريق المهبة، ليستقبلني أمام منزله.

تلقاني مياغي بالمصافحة المصحوبة بعبارته المشهورة «مرحباً، أخي» ولكن قبضة يده الآن تبدو أضعف مما كانت عليه حين التقيته في العراق. وقد ظهرت على ساعده آثار جرح وردي اللون وامتدت على جانب الجرح علامات الغرز الجراحية الكبيرة على طول ساعده، غير أن تلك لم تكن أسوأ إصاباته. قال لي مياغي: «ما زلت أعاني من جرحٍ كبيرٍ في مؤخرتي»، وأومأ بيده إلى ردفه حيث اخترقت شظية بحجم قبضة اليد عجزه الأيمن وخرجت من منفرج فخذيه محدثة ثلماً في عضوه التناسلي. كادت الإصابة أن تودي بحياته. لكن الأطباء قالوا: إنهم يتوقعون له شفاءً كاملاً: «قالوا لي بأن عضوي التناسلي سيكون على ما يرام». وأضاف مازحاً ضاحكاً: «آه، ليتني طلبت إجراء الإضافة التحسينية بقيمة 500 دولار». وراح مياغي يصف اتجاه انفجار القنبلة ليوضح كيف طارت الشظية المعدنية وأحدثت شقاً في قبعة توول ثم استقرت في الجانب الحديدي لعربة الممبة.

كان مياغي في اليوم الذي وقع فيه الحادث، 21 نيسان/ إبريل 2006، يقود العربة الأمامية في قافلة مؤلفة من ثلاث عربات ممبة وشاحنة واحدة متوجهة إلى الرمادي. «كنا نسير على الطريق، وكان على يميننا موقف للسيارات، وكان بعض الأشخاص خارج سياراتهم يتحدثون. وكنت أنظر عبر منظار التسديد لرشاش بي كي إم. وكنا نسير بسرعة ثمانين إلى تسعين كلم في الساعة. تركز انتباهي على سيارتين جاءتا من الطريق الترابي. وفكرت في نفسي: «يا إلهي. أشعر أنهما يبطّئان حركتنا» أطلق توول التنبيه الهوائي مرتين أو أربع مرات ولكن النفر لم يتحركوا يميناً ولا شمالاً، وفي أثناء ثوانٍ -بوووم- انفجرت عبوة ناسفة فجرت من بعد. كنت أعلم أنهما كانا يبطئان سرعتنا بغية حصرنا في نقطة العبوة الناسفة.

«توقفت قافلة الممبة توقفاً كاملاً بسبب تعطل أنبوب الهواء في المحرك بعد أن تضرر بسبب الانفجار. ثم طلب توول عبر جهاز اللاسلكي إلى عربة الممبة الثانية أن تدفعنا إلى الأمام ريثما نخرج من منطقة الخطر، وحاولوا جاهدين دفعنا بعربتهم ولكن دون فائدة. لم نكن نعلم أن إصابة أنبوب الهواء يؤدي تلقائياً إلى انحباس العجلات بحسب تصميم هذه العربات، وأعتقد أن ذلك من خصائص احتياطات السلامة فيها.

«علمت على الفور أن يدي اليمنى قد أصيبت إصابة بليغة، ولكنني كنت أنتظر ناراً ثانوية، كانت قدماي تلتهبان، فتفحصتهما سريعاً، وشعرت بالحرارة. حركت يدي اليمنى قليلاً. وأتذكر أنني كنت أطلق الرصاص بيدي اليسرى، وأصرخ فيهم: «ما زلت قادراً على القتال يا أبناء الفاعلة!» كان توول يطلق الشتائم واللعنات واحدة تلو الأخرى، ثم نظر إليّ قائلاً: «كيف حالك؟» وكنت وقتها أنزف بشدة. فقلت له: «إنني أستطيع مواصلة القتال. لدي يد واحدة جيدة». ثم انحنيت ونظرت إلى الخلف. يا للهول! كان سباركي مطروحاً فوق الشخصين الآخرين هناك. كان طريحاً ميتاً. لم أشاهد آثار إصابة في وجهه أو في صدره. لقد أصيب في أُربيّته[1] إصابة مزقت وريد فخذه. لقد كانت إصابته من فوق ركبته. وفي التواء معهود في حوادث الموت، لم يكن من المفترض في سباركي أن يرافق القافلة في ذلك اليوم. بل كان من المقرر أن يسافر إلى وطنه ليقضي بضعة أيام مع أسرته، غير أن سأمته من تكرار تأخر رحلته جعلته يتطوّع للذهاب مع القافلة. ويتذكر مياغي: «أنَّ سباركي كان من أفضل الرماة، وكان رجلاً فوق العادة، دمث الأخلاق- أحد الأصدقاء المحببين». وأصيب متعاقدان آخران كانا في المقعد الخلفي لعربة الممبة بجراح من الشظايا المتطايرة. كانت مؤخرة الممبة كشريحة الجبنة السويسرية: مليئة بالفجوات والثقوب العشوائية. وكل ما كان في القنبلة اخترق ألواح العربة المصفحة».

بدأ مياغي الذي كان طريحاً وسط العربة المدمرة يشعر بأن عناصر المقاومة ربما تنوي العودة لقتل المزيد: «توقفت حركة السير خلفنا بإيعاز من عربة الفريق الخلفية. وشاهدت صبياً يركض على بعد 180 متراً من مكاننا، وكان يحمل بيده علماً أبيض كبيراً. ولو نظرت إلى ما هو أبعد من تلك النقطة، لشاهدت السيارات المتوقفة عن الحركة في الشارع. وأتذكر أنني شاهدت ذلك الفتى الذي كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره. فناديت قائلاً: «نريد أن نخرج من هذا المكان. ومنذ الوقت الذي تعرضنا فيه للإصابة وحتى الوقت الذي بدأنا نتحرك فيه- كنا خارج المكان، فالسيارات والعربات تُحرق، ويعاد تحميلها وتخلى في أقل من 15 دقيقة».

1- المنطقة بين أسفل البطن وأعلى الفخذ.

ويصف مياغي حظه السعيد في بقائه على قيد الحياة بقوله: «إنها عناية الرب يا أخي». وتبدو زوجه أكثر جزعاً وتأثراً منه بتلك التجربة التي شاهد فيها الموت بأم عينه، وأفضل عبارة تشجيعية بصيغة التفضيل أتت بها لوصف أهم نجاح لزوجها في العراق هو قولها عنه إنه «المتعاقد الأمني الأكثر خبلاً على الإطلاق الذي لم يُقتل في العراق». نجا مياغي من تلك الحادثة، وأفلت من براثن الموت، ولكنه لم يكن يشك في مدى قربه من الموت في تلك اللحظة: «لو لم يكن توول مائلاً إلى الخلف بمقدار 2.5 سم، لكان في عداد الموتى بلا شك. ولو كنت زائحاً عن مكاني بمقدار 2.5 سم في أي وضع آخر غير الذي كنت فيه، لذهبت الشظية بوريد فخذي». وبينما كان مياغي يتحدث إلي، كانت في يده كرة مطاطية صغيرة عليها وجه كاريكاتيري، وكان يضغط عليها بقبضة يده بانتظام، وقال: «أسوأ ما حدث لي حين عدت إلى البيت، هو أن ابني الصغير حين شاهد الجبيرة الملتفة حول يدي، بكى وقال: «لقد وعدتني أنك ستلعب معي كرة البيسبول، وتقذف الكرة إليّ». لقد كانت تلك الكلمات أشدَّ إيلاماً في نفسي من جراحي».

كان مياغي يتحدث بعبارات موغلة في الفلسفة حول المخاطر الكامنة في المهنة التي اختارها لنفسه: «سمّها عقيدة. سمّها ما شئت. فأنت تدرك هذه الأمور حين تسلك هذا الطريق». وعلى الرغم من جراحه البليغة، وموت عدد كبير من رفاقه، إلا أن مياغي ما زال يصر على العودة إلى العمل بوظيفة متعاقد أمني: «إما أنك تحب ما تعمل، أو أنك لا تحب عملك. وأنا أحب هذا العمل، إنه العمل الذي يدر علي دخلاً يعفي زوجي من العمل في دوام كامل. إننا بحاجة إلى إضافة غرفة إلى المنزل. ولا أريدها أن تعود إلى العمل كي لا تجهد نفسها. لقد كانت تعمل مدونة لمحاضر جلسات المحكمة، وكان هذا العمل مرهقاً لها. لقد نشأت زوجي في هذا المكان (بلدة يبلغ تعداد سكانها أربعة عشر ألف نسمة، وتبعد ربع ميل عن الشاطئ). ويستطيع ابني الصغير ذو تسعة الأعوام أن يذهب إلى الشاطئ على دراجته الهوائية. وهذا المكان هو أشبه شيء بمسلسل ميبري آر إ ف دي لكن مع إضافة الشاطئ». وهذه اللازمة لطالما سمعتها تتردد كثيراً في السنوات القليلة الماضية. ومع أن النقاد يتهمون المتعاقدين الأمنيين بالعمل «سعياً وراء جمع المال» لكنني وجدت في رحلتي التي رافقت فيها المتعاقدين الأمنيين أن من الأدق القول: إن الغالبية

العظمى منهم تعمل «لإعالة أسرهم». ولن يكون باستطاعة مياغي أن يدفع أقساط بيته لو عاد إلى العمل مع شرطة لوس أنجلوس بالراتب الذي يعطى لأفراد الشرطة. غير أن مياغي يدرك أنه يتمتع بمهارات تشهد طلباً متزايداً عليها حول العالم، وليس من الواضح حتى الآن أين سيكون عمله بعد تماثله للشفاء.

أسفر الهجوم الذي تعرضت له قافلة مياغي عن وفاة متعاقد وإصابة آخرين. ولكنه لم يكن الهجوم الأشد الذي تعرضت له بلاك ووتر في ذلك اليوم؛ إذ نقلت التقارير أن المقاومة أسقطت بصاروخ طائرة نقل مروحية من طراز مي- 17 كانت تستأجرها شركة بلاك ووتر، وقتل كل ركابها باستثناء واحد فقط. وكانت أدوات الدعاية الإعلامية جاهزة للعمل لدى المهاجمين، وبدؤوا على الفور بتصوير المشهد بعد سقوط الطائرة. وحين اكتشفوا وجود الناجي الوحيد من الحادث، وهو الطيار، أجبروه على الوقوف قبل أن يعدموه بوابل من الرصاص، ليصنعوا من تلك الحادثة فيلماً آخر يوضح جلياً المصير الذي ينتظر المتعاقد الأمني في العراق. ستة متعاقدين من شركة بلاك ووتر، ومعهم ثلاثة من بلغاريين هم طاقم الطائرة، واثنان من الحراس الشخصيين من جزيرة فيجي، لقوا حتفهم جميعاً في الهجوم على مروحية مي- 17. وكانت حصيلة خسائر بلاك ووتر في 21 نيسان/ إبريل من عام 2005، سبعة قتلى، وأربعة جرحى، وإحراق عربة ممبة، وإسقاط طائرة نقل مروحية.

توصل موقع (icasualties.org) عن طريق رصده لعدد الهجمات التي ترد في وسائل الإعلام كالهجوم الذي وقع في نيسان/ إبريل، إلى إحصاء غير رسمي لعدد المتعاقدين الأمنيين الذين قتلوا في العراق حتى ربيع عام 2006، بقرابة 314 قتيلاً. في حين تلقت وزارة العمل الأمريكية أكثر من 400 طلب للحصول على تعويضات الوفاة استناداً إلى التأمينات التي يقررها قانون الدفاع الأساس، ويشمل هذا الرقم الأكبر الطلبات التي يقدمها ذوو العراقيين الذين يقتلون في أثناء عملهم في الشركات الأمريكية، ولكن الرقم يشير أيضاً إلى أنه ليس كل وفيات المتعاقدين الأمنيين تستحق اهتمام الإعلام.

ليس مستغرباً عدم احتفاظ الحكومة الأمريكية والحكومة العراقية بأي إحصاء رسمي لأعداد المتعاقدين الذين قتلوا في العراق؛ لأنه يبدو أنه ليس لديهما تقدير لعدد

الشركات الأمنية التي تعمل الآن في منطقة الحرب، ولا لأعداد المتعاقدين العاملين لديها. وفي ربيع عام 2006، كان 730 عضواً في الحكومة العراقية يطلبون خدمات فرق الحراسة الشخصية الخاصة، وكلها تعمل دون سيطرة مباشرة من نظام الاحتلال ولا من الحكومة العراقيـة العميلة لهـا. إن انتشـار الأفراد المدنيـين المسلحين الذين يقومـون بالحراسة الشخصيـة بالإضافة إلى وجودهـم في بيئة تفتقر إلى حكم القانون وشهدت توسعاً كبيراً في هذا القطاع، قد أفضت إلى ترعرع وازدهار الميليشيات الخاصة، وقامت كثير من هذه الميليشيات بأداء دور فرق القتل.

ولمواجهـة هذا الاتجـاه، تأسست منظمة أطلقت على نفسهـا جمعية الشركات الأمنية الخاصـة في العـراق، وذلـك لمحاولة تنظيـم الشـركات المشروعة والضغـط باتجاه سن القوانـين والتشريعـات لملاحقـة الشركات غير المشروعـة. وكانت المشكلـة التي واجهتها جمعيـة الشركات الأمنية الخاصة في العراق هي أن الحكومة العراقية ليس لديها القدرة ولا النية لتنظيم المتعاقدين الأمنيين. ويوضح عدد من الوثائق الداخلية غير المخصصة للنشـر التـي نوقشـت في جمعية الشركات الأمنيـة الخاصة في العراق يعـود تاريخها إلى بدايـة عام 2006، ردّ وزارة الداخلية العراقية بعد أن تقدمت أول مجموعة من الشركات الأمنيـة الخاصة بطلبات تسجيلها في الـوزارة. وذكرت الوثيقة أن خمسين شركة من بين الشـركات التـي تقدمت بتلـك الطلبات رفض طلبهـا أو أنها لم تسمـع أي رد من الوزارة بعـد، في حين ما زالت ثمـانٍ وأربعون شركة من الشركات المتقدمـة تنتظر حصولها على تصاريـخ حمـل السلاح بعد أن مضـت أربعة أشهر على تقديم طلباتهـا. واعترفت وزارة الداخلية العراقية بوجود ما لا يقل عن أربع وخمسين شركة أمنية خاصة لا تملك الوزارة أي معلومات عنها. ويمكن للمرء أن يجد معلومات أكثر إزعاجاً في الملحوظات التي نوقشت في اجتماعات جمعية الشركات الأمنية الخاصة، حيث تركز النقاش فيها على ما توصلّوا إليه من أن 14.600 فرد عراقي يعملون في فرق حراسة شخصية خاصة في العراق، وهم موجـودون خارج نطاق التنظيم الواهن القائـم حالياً لهذا القطاع. أضف إليهم 19.120 عامـلاً أجنبياً في هذا القطاع غير مسجلين، ليتجـاوز المجموع العام للرجال المسلحين في العراق الذين يحملون رخصة في القتل 33.720 شخصاً. وتناقش وثيقة داخلية أخرى في

الجمعية قضية المسؤولية القانونية لهذه الهيئات غير المسجلة قائلة: «إن كل فريق حراسة شخصي هو في واقع الأمر كيان مستقل بذاته، ويخضع لسلطة الشخص الذي استأجر الفريق» والمفهوم من ذلك أن الوضع الأمني يدفع العراق نحو عهد جديد من سيطرة زعماء الحرب. وتشير أفضل تقديرات جمعية الشركات الأمنية الخاصة إلى وجود أكثر من 70 ألف رجل مسلح من القطاع الخاص في العراق. وهذا الرقم لا يشمل الميليشيات ولا عناصر المقاومة.

حين كنت أنتظر في مطار بغداد الدولي برفقة فريق المبة في أثناء زيارتي عام 2004، تحدثت إلى اثنين من المتعاقدين الأمنيين الأمريكيين كانا يعملان مع واحدة من كبرى الشركات العراقية الأمنية في ذلك الوقت. كان القلق يظهر عليهما، وقالا لي: إن مالك الشركة ذا الأصل الكردي كان يعتاد مغادرة المقر الآمن للشركة، ويذهب لتنفيذ عمليات ثأر لأقاربه الذين قتلوا في عهد صدام حسين. «لقد رأيناه أكثر من مرة خارج المقر قبل الفجر»، ولعل من الصعب - إن لم يكن من المحال - التثبت من صدق روايتهما، وإذا صحت، فإنها تتطابق مع كل ما تعلمته من رحلتي في البيئة الخالية من القانون التي يعمل فيها المتعاقدون الأمنيون في العراق.

وأخبرني شريك أمريكي في شركة أمنية عراقية أن شركته قد تخلت عن النمط الغربي للحرس الشخصي بعد أن تبين لها أن توظيف عراقيين سُنَّةٍ من الحرس الرئاسي السابق يجلعها أكثر فاعلية ونجاحاً في أداء عملها. وقال لي: إن أثر هذا التحول في سياسة الموارد البشرية هو «إذا أطلقت علينا النار أو تسببت في مشكلة ما، فإن الحل سيكون على مستوى الأسرة» ومع أنه لم يفصل لي ما الذي يستتبعه هذا القول، إلا أنه يفهم منه أن المتعاقدين الجدد لديه يستخدمون الثأر والانتقام أداة لردع أي هجمات مستقبلية. وتقوم الشركة الأمنية العراقية الروافد بتوظيف عدد كبير من الحرس السابقين من عهد صدام حسين، وهي شركة يملكها شيخ سني مشهور، وهو عضو في البرلمان العراقي. وفي آذار/ مارس من عام 2006، قام رجال مسلحون يلبسون زي الشرطة العراقية بخطف خمسين موظفاً من موظفي شركة الروافد. وقالت وزارة الداخلية العراقية: إن المهاجمين كانوا من عناصر المقاومة الذين نفذوا الهجوم وهم يلبسون ملابس مسروقة من زي الشرطة العراقية.

وذكـرت قناة الجزيـرة الفضائية أن الشرطة العراقية لديهـا شكوك قديمة حول أسلوب شركة الروافد في تقديم خدماتها الأمنية، ومع ذلك يزاد الغموض كل يوم في العراق حول مَنْ يعمل لمصلحة مَنْ ولأي هدف؟.

والشـيء الوحيـد الذي بـات واضحاً هـو أن المتعاقديـن الغربيين يطلقـون النار على السيارات العراقية وعلى المواطنين العراقيين على نحو اعتيادي. وقد أدى شريط الفيديو الـذي عرض خـارج سياقه وأصدر الـرأي العام حكمـه عليه جزافاً وسـط فهم محدود لأصـول العمل المتبعة، وبيئة العمل التي يمارس فيهـا فريق المرافقة الأمنية نشاطه، أقول أدى هـذا الشريط إلى توليد انطبـاع لدى العامة بأن فرق الحراسـة الشخصية يطلقون النـار عشوائيـاً على العراقيين برادع هـو أشبه ما يكون بالرادع الـذي يردع الطفل الذي يلعـب لعبة عنيفة على جهـاز الحاسوب. والحقيقة هي أن ذلـك الشريط يعرض مشهداً لمتعاقـد خائف مرتعـد يفتقر إلى الخبرة ولا يـدري إن كانت السيـارات التي تسير خلف القافلـة هي عدو أم صديق. ويمكن عقد تشابه بين تلك الحادثة وحوادث إطلاق الشرطة النـار دون قصد. فالشرطي في تلك المواقف عليـه أن يتخذ قرار حياة أو موت في أقل من الثانيـة، فإذا كانوا في وضع غلب على ظنهم فيه أنهم في خطر، فإن التوتر الشديد يسهل ارتـكاب خطأ يصعب قلب نتائجه. إن أخطر بيئة يمكن أن يعمل فيها الشرطي الأمريكي، مضاعفـة إلى مئة ضعف، ربمـا تبدأ بإعطائنا تصوراً عن الضغـوط الشديدة والظروف العصيبـة التي يعمل فيها عنصـر الحراسة الشخصية في العراق. نعم، قد تقع الأخطاء، لكن انعدام المساءلة حتى في حالة إطلاق النار العرضي المسوّغ سيفسح المجال أمام المزيد من التجاوزات والتعسف.

لا يحتفـظ البنتاغون ولا الحكومة العراقية بإحصاء -أو على الأقل هذا ما يصرحون به في العلن- لأعداد المدنيين الذين جرحوا أو قتلوا برصاص المتعاقدين الأمنيين. غير أن البنتاغـون نشـر أربع مئة تقرير في بداية عـام 2006 لأربع مئة حادثة خطيرة تغطي مدة تسعـة شهور بين عامي 2004 و2005. وتوصّل الصحافي جي برايس من صحيفة نيوز آند أبزيرفـر التي تصـدر في مدينتي راليه ودورهام - وتوصّل بعـد أن حلل تلك التقارير إلى أن المتعاقدين الأمنين في بغداد قد أطلقوا النار على 61 سيارة في مدة تسعة الشهور. وفي

هــذه الحــوادث لم يصدر رد بإطــلاق النـار إلا من سبع من السيــارات التي أطلقت عليها النـار. وفي أكثر الحالات لاذ المتعاقدون الأمنيون بالفرار بعد وقوع الحادثة.

ولا تمثـل التقاريــر الـ 400 سوى جزء يسير من الحوادث التــي تقع على أرض الواقع. ويفترض أن يقوم المتعاقدون بملء نموذج يوضح أسباب إطلاق كل رصاصة من بنادقهم، بمــا في ذلك الطلقات التحذيرية. وطــوال الوقت الذي أمضيته مع المتعاقدين الأمنيين في العراق، لم أشاهد قطُّ متعاقداً يقوم بتعبئة تقرير واحد، مع أن إطلاق النار على المدنيين كان يحــدث كل يوم بمعــدل ثلاثة إلى ستة عيارات نارية تحذيريــة في كل جولة، وعليّ أن أضيــف أنني لم أشاهد قــط أي أحد من الرجال الذين رافقتهم يتصرفون تصرفاً خارج حدود قواعد الاشتباك المتبعة، ولكن مرة أخرى، لم يكن أحد من العراقيين الذين أطلقت عليهم النار من عناصر المقاومة؛ بل من المسافرين العاديين.

وحــين سألت شانون، أحد المتعاقدين العاملين في بــلاك ووتر الذي يتمتع بخبرة عمل مديــدة في العــراق، عن رأيــه في مدى عظــم مشكلة الضحايــا المدنيين، فــكان ردّه: «إن المتعاقديــن يطلقون النار علــى النـاس في كل الأوقات، ولكننــا لا نتوقف لنعرف إن أصيب أحــد منهــم أو قتــل». وحين ضغطــت عليه لتقديم مزيد مــن المعلومات مــن ذاكرته حول أحــداث معينــة وقعت بحضوره، بقــي شانون الذي يعشق الثرثرة حــذراً على غير عادته. ثــم غيّرت زاويــة الحديث، وسألته عن نظرتــه لسيناريو أسوأ الاحتمــالات التي يمكن أن تحدث لصناعة الأمن الخاص في العراق، فأجاب عن هذا السؤال بقوله: «أن يأتي مكتب التحقيقات الفدرالي فجأة باحثاً عن جماعة خارجة على القانون. ولا أحد يعرف إن كانت الإشاعــات الصادرة عن خدمات الاستخبــارات الأمريكية حول قيام المتعاقدين الأمنيين بعمليــات هجوميــة صحيحــة أم لا. وثمة كثير مــن القصص التي يرويهــا العراقيون عن حوادث إطلاق نار عشوائي صادر عن سيارات عابرة، غير أن الحقيقة هي أن عدداً كبيراً مــن السيارات رباعيــة الدفع تستخدمها المقاومــة». وربما يكون من العســير على شانون بصفتــه عضواً في قبيلة المتعاقديــن الأمنيين التي يرتبط أفرادهــا بروابط قوية، ويلتزم كل فــرد فيها الدفاع عــن المجموعة، أن يعترف بأن رفاقه وأقرانه يمثلون مشكلة أكبر من

مجـرد مجموعـة خارجة على القانون، أو ربما كان يحـاول في تلك الإجابة أن يضع قناعاً إيجابياً على الممارسات الدراجة في مهنته التي اختارها.

كان ردّ أكثر المتعاقديـن الذيـن سألتهم عن هـذه القضية إما بالضحـك أو بعبارات ساخـرة. ولكـن الـرأي المتفق عليه فيمـا بينهم عمومـاً هـو أن أشد الحـوادث وأكثرها خطـورة- التي تسفـر عن موت المدنيين- هـي الأقل تداولاً في وسائـل الإعلام. والجانب السلبـي الوحيد الذي علق عليه شانون يتعلق بقضيتـين جرى التعامل معهما بنجاح: «كنا نواجه مشكلة السوق السوداء لبيع الأسلحة، وقد أغلقت هذه الأسواق. وكان هناك قضية المنشطـات، ولكـن الدولة لاحقـت تلك القضيـة. ومع أننـي أمضيت سنـوات في مرافقة المتعاقديـن الأمنيـين والتحدث إليهم، ونشأت بيني وبينهم علاقـات صداقة دائمة وذات معنى من تلك التجربة، إلا أن الواضح أن عالمهم متعدد الطبقات والمستويات سيبقى عالماً مغلقـاً حتى في وجهي. وتـبرز بوضوح للمراقب القريب للممارسـات والمعايير التي يتبعها قطاع الأمن الخاص في العراق قضيتان هما: أن بعض الشركات الأمنية العراقية تعمل في الغالب كأنها قوات ميليشيا خاصة، والثانية أنه ينبغي إجراء إحصاء لحالات الوفاة التي تسبب فيها المتعاقدون- الأشخاص الذين لا يزالون يحملون معهم رخصة بالقتل.

وحتـى ربيع عـام 2006، لم يحدث أن وجهت إلى متعاقد واحـد تهمة بأي جرم حدث في العـراق، مع أن مئات الجنود النظاميين حوكموا عـن جرائم تتراوح ما بين المخالفات البسيطة للقانون العسكري إلى القتل العمد. وحتى لو كشف النقاب في الإعلام عن هجوم متعمد أو غير مقصود على مدنيين عُزّل، فإن من غير الواضح معرفة السبل القانونية التي ستستخدم في تحديد مسؤولية الفاعل. والمتعاقد الوحيد الذي حكم عليه بالإدانة بجريمة ارتكبـت في أثناء الحرب على الإرهاب ستتم محاكمته بموجب قانون الولاء الوطني، على الرغـم من أن الواقعـة التي حوكم بخصوصها حدثـت في أفغانستان. وهذا الشخص هو ديفيـد بسـارو، وهو متعاقد أمني مستقـل كان يعمل في مهمة سرية شبـه عسكرية، وقام بحسـب ما هو مدعـى، بالاعتداء على سجين في أثناء اعتقاله. وهـو الآن ينتظر البدء في إجراءات محاكمته في موطنه الأصلي في ولاية كارولينة الشمالية.

لقد بات واضحاً أن المشكلة بأبعادها وعمقها لم تبحث حتى الآن بحثاً وافياً، على الرغم من وجود حاجة واضحة لفهم تأثير الجنود المستأجرين في الناس وفي البيئة التي يعملون فيها، وليس في الحرب الحالية على الإرهاب؛ بل في المستقبل.

لقد أدى بروز الشركات الأمنية الخاصة في مناطق الحرب وفي المناطق المحفوفة بالمخاطر إلى ولادة صنف جديد من الجنود الخاصة، والمرتزقة المسلحين، وحراس الأمن، والشركات التي تملك ترخيصاً باللجوء إلى العنف الشامل إذا تعرضت للهجوم وهي صنف يمكن وصفه بأنه طبقة من المحاربين تعمل تحت قيود قانونية مبهمة. لقد أصبح تقديم القوة العسكرية في قالب تجاري طريقة قياسية في العمل، وأداة مكملة من أدوات السياسة الخارجية. والشيء الذي ينبغي مراقبته في المستقبل هو هل سيتحوّل الرجال المسلحون المستأجرون بعقود إلى عنصر جوهري في السياسة الخارجية أم لا؟

بعض أفراد فرق الحراسة الذين يلبسون الكاكي في العراق يكتشفون بعد أن يقضوا تسعين يوماً في الخدمة، أن حياتهم تستحق أكثر من الخمس مئة دولار في اليوم. في حين تولّد لدى آخرين منهم إدمان هذا النمط من الحياة، واستحكمت في نفوسهم رغبة ملحة قائمة للبقاء «داخل اللعبة». لقد جلبت الحرب ضد الروس في أفغانستان أفواجاً من المرتزقة للمشاركة في الجهاد، فنشأ عن ذلك رابطة تضم جحافل مكونة من آلاف الرجال الذين اكتسبوا خبرة قتالية في ساحة المعركة، جند خاصٌّ لا يخضعون لسلطة دولة معينة بل تربطهم شبكة محكمة من العقائد والقدرات المتشابهة. وبعد انسحاب الروس، بقي الجهاديون بلا عمل. بعضهم عاد إلى وطنه، لكن الغالبية منهم التحقوا بالقاعدة أو ذهبوا للمشاركة في القتال إلى جانب المقاومة الإسلامية. إن العمل في مناطق يسودها العنف وحمل رخصة مفتوحة للقتل قد يكون أمراً مخيفاً لبعض الناس، ولكنه يقدم لبعضهم الآخر جرعة مطلوبة من هرمون الأدرينالين تشبع إدمانهم. إن من المستحيل التنبؤ كيف سيعود آلاف المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون الآن في العراق إلى أوطانهم، وكيف سيندمجون بنجاح في الحياة المدنية الطبيعية بعد نضوب نبع توظيفهم.

إن معاينة متفحصة لمحاولة الانقلاب في غينية الاستوائية تقدم لنا خير نموذج يبيّن كيف يمكن استغلال القوة العسكرية الخاصة من قبل زبائن أثرياء بنية حسنة كانت أم

سيئة لتحقيق أهدافهم الشخصية والمالية. وليس لدى القوى العسكرية القائمة ما تخشاه مـن خطط بضـع عشرات من رجـال مسلحين يستقلـون طائرة بوينـغ 727، لكن لو كان الانقـلاب في غينية الاستوائية ناجحاً، لتحتم علـى أمريكة أن تتحرك لحماية مصالحها النفطية من أن تباع أو تتحول إلى الطرف الذي يقدم أفضل سعر أو الطرف الأكثر فساداً. إن مـن شـأن مجموعة صغيرة مستأجرة من الرجال المسلحـين ذوي الخبرة أن يكون لها تأثـير كبـير مضاعف متـى كانت الفرصة مواتيـة. وكما كان بيلـي واه يرسل إلى الخارج لتدريـب واستئجـار المرتزقة الأجانب في جنوب شرق آسيـة في سبعينيات القرن الماضي، وفي أفغانستـان مـن وقت قريـب، فإن الأمر لا يتطلـب سوى عدد محدود مـن المشاركين العازمين على القيام بدور المحفز أو الشرارة لإشعال عمل عسكري كبير.

لقد أثبتت شبكات الأصدقاء والرفاق القدامى ومؤازريهم من أرباب المال قدرتها على العمل ضمن ثغرات واضحة محددة ثم الاختفاء بعد انتهاء المهمة. ويمكن لأشد المناصرين لنـادي تأجـير الجنود مثل سيمون مـان، وتم سبايسر، وحتى كيث إديمـا، أن يعودوا ثانية تحـت مسميات جديدة، وأن يضعوا أنفسهم في مواقـع جديدة تتناسب مع ما تمليه عليهم الفرص. إن هـذا العمل فيه من الثغرات الواسعة المربكة التي تمكن المسيئين من الاختفاء فيهـا، لكي يعودوا مـرة أخرى تحت شعار شركة جديدة وأهـداف جديدة بعد عدة أشهر. لقد قابلت أشخاصاً كثراً، منهم من كان يتولى فرض سياسة التمييز العنصري في جنوب إفريقية، وحراسة حكام طغاة، ومنهم الباحثون عن الجوائز، ومنهم جنود مرتزقة، كلهم يعملـون الآن في شـركات أمنية غربية كبيرة. كما لقيت أفـراد شرطة محنكين، ومحاربين قدامـى، ومفكريـن متعلمين، يعملون معهـم في فريق واحد. وقد لا تـتردد الفئة الأولى في المشاركة في عمليات كالتي وقعت في غينية الاستوائية، ولكن يبقى من المثير أن نرى إن كان أي من المتعاقدين الغربيين «المحترمين» سيقفزون إلى الجانب المظلم تحت تأثير المال.

لم أشاهـد قـط في سنواتي العديدة التـي أمضيتها مع الجنـود المستأجرين أي مثل علـى شخص شرير صرف، يقـدم على ارتكاب أفعال شريرة بصفتـه التعاقدية. كانوا جميعاً يؤمنون بأسبابهم الأخلاقيـة، والمهنية، والعقلية لما يفعلونه. إن طبيعتهم القبلية تعمـل على إقصـاء الفاسدين منهم إلى خـارج المجموعة وتنتشر أخبـار ذلك بسرعة.

ويـرى كثير من الداخلين الجدد في هذا القطـاع أن واجباتهم التي يلتزمونها في عملهم الجديـد هـي امتداد لما كانوا يقومون به حين كانـوا في الجيش أو الشرطة. وهناك عدد منهم ينتقل بين النطاقين وكأنه لا توجد حدود فاصلة بينهما، كما فعل المتعاقدان اللذان قبض عليهما في زيمبابوي برفقة سيمـون مان حين غادرا العراق لقضاء «إجازة صيد» في إفريقيـة. ويرى أكثرهم خبرة أن الأوقـات والمسوغات يمكن أن تتغير بسرعة محوّلة «المنقذ» إلى «مجرم» شرير.

أمضـى المحامـي هنري بيج المستشار القانـوني للرئيس أوبيانغ، وقتـاً طويلاً في تأمل المعضلة الأخلاقية المتصلة باستئجار شركة عسكرية خاصة بهدف «تغيير نظام الحكم». ولديه آراؤه الشخصية حول مستقبل صناعة الأمن الخاص. وقد عقد مقارنة بين «رخصة القتل» السارية بعد 11 أيلول/ سبتمبر وبين حوار ورد في رواية بعنوان «رجل لكل الأزمان» وفي هـذا الحوار يقف توماس مور مع حرفيـة نص القانون التي تتعارض مع رغبات الملك الـذي كان يرغـب في ليّ القواعد القانونية من أجل أن يطلّـق زوجه. وبلهجته البريطانية الأرستقراطيـة لخص هنري بيج من عنـده رد توماس مور على الملـك بقوله: «إذا كانت قوانـين البـلاد كالأشجار التي تحميك من الشيطان، ثم قطعـت هذه الأشجار لكي تصل إلى الشيطان، فما الذي سيحميك إذا عاد الشيطان في طلبك؟».

تقدير وعرفان[1]

أود أن أعبر عن عميق شكري وتقديري لعدد لا يحصى من الأشخاص الذين ساعدوني طَوالَ رحلتي في هذا الكتاب، وأخص منهم وكيلي للنشر السيد بول بريزنك على رؤيته الثاقبة وإخلاصه؛ والسيدة كريستينا ديفيدسن على حرصها وعنايتها في تحرير هذا الكتاب بدقة؛ وكريس جاكسون، وريك هورغان من دار كراون للنشر، وهما اللذان أدركا الحاجة إلى نشر هذا الكتاب في السوق. وكما في جميع كتبي التي ألفتها، يبقى هذا الكتاب شيئاً لا يذكر لولا الثقة غير المحدودة، والمساعدة، والبصيرة لدى كل الأفراد، والجماعات، والمنظمات الذين سمحوا لي بالدخول إلى عوالمهم الخاصة. كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الأشخاص الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب، المسمَّيْن منهم والمُغْفَلِين الذين يشاطرونني التفاني من أجل الحقيقة.

1- والشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور محمود عبيدات الذي راجع النسخة العربية من هذا الكتاب ودققها بعناية.

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

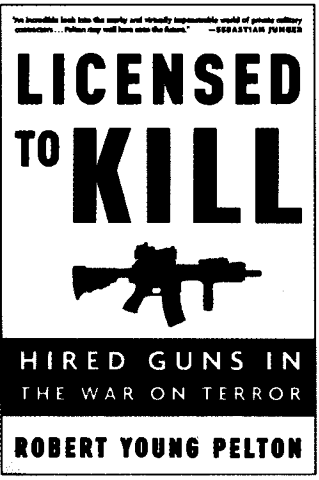

تنبه روبـرت ينغ بيلتون إلى ظاهرة الجنـود المستأجرين في الحرب على الإرهاب حين قابل فريقاً من المتعاقدين الأمنيين الذين كانوا يقومون بمهمة سرية على الحـدود الباكستانيـة الأفغانية في خريف عـام 2003؛ فعقد بيلتون عزمه على القيام برحلة ملحمية طويلة للولوج في هذا العالم الغامض وكشـف أسـراره، ليرجـع إلينـا بفهـم مذهـل لطريقـة استخـدام الجنود الخصوصيين.

فتعـال معنـا لتستكشـف عالمـاً ملطخـاً بالدمـاء مـن الجنـود المرتزقة والمقاتلين القبليين من جنوب إفريقية، تموله طغمة غاشمة من أرباب المال. توقـف في المنطقة الخضراء في بغداد، والبسـ درعك الواقية من الرصاص وضـع خوذتك على رأسـك؛ لكي ترافق فريقاً مـن المتعاقدين الأمنيين وهم يسـيرون بسرعة عاليـة، وينعطفون بشـدة تجنباً للسيـارات الملغمة ونيران القناصة وهم في طريقهم لإيصال عملائهم إلى المطار. شارك أصحاب الجيوش الخاصة الأثرياء كأساً من الراح في أحد الفنادق الفخمة، وهم يناقشون أفضل سبل المحافظة على الحياة في مناطق الحرب.

امتـدت رحلـة هذا الكتـاب فوق أربع قـارات، واستغرقت على مدى ثـلاث سنوات، لتأخذنـا إلى داخل الحروب القـذرة للسـي آي إيه؛ وإلى القتـل العنيف الذي لقيه المتعاقـدون الأمنييون في الفلوجـة، إلى الحصار الذي فرض عليهـم في النجـف والكـوت؛ إلى معسكرات تدريـب المتعاقديـن في جنوب الولايـات المتحدة، حيـث يتلقى الجنود السابقـون من العمليات الخاصة وحتى أفراد الشرطة في المـدن الصغيرة تدريباتهم الأساسية في هذا الحقل؛ إلى مؤتمـرات ومعارضـ المتعاقدين حيث يتبادل الحضور قصص مغامراتهم العسكريـة وينقاشون مهماتهم القادمة؛ إلى السجـون الكئيبـة في وسط إفريقية، حيـث دفع متعاقدون أمنيّـون تحولوا إلى جنود مرتزقة فيهـا ثمنـاً باهظاً لقيامهم بمحاولات انقلاب كان مصيرها الإخفاق.

لقـد شجعت الولايات المتحدة استخدام القطاع الخاص في كل نواحـي الحرب على الإرهاب، واضعة المتعاقدين خارج نطاق القانون وقيوده، وبوضوح مذهل لا يتأتى إلا بمعاينة مباشرة، يحلل لنا هذا الكتاب بدقة عالية اللاعبين الأساسيـين؛ ولعـل أكثر ما يثير القلق في هذا الكتاب هو أنه كشف عن وجود آلاف من المتعاقدين الأمنيين– إضافة إلى مئات غيرهم يدخلون هذا القطاع كل يوم– يحملون رخصة بالقتل، ويعرضون خدماتهم لمن يدفع الثمن الأعلى.

روبـرت ينـغ بيلتـون: صحافي، ومنتج أفـلام، ومستكشف؛ له عدد مـن الكتب، أهمها: أكـثر الأماكن خطورة في العـالم، وعد إلينـا حياً، و المغامر، و ثلاثة عوالم أصيبت بالجنون. عمـل في محطة ناشونال جيوغرافيك، ومحطة ديسكفـري، وبرنامـج (ستون دقيقـة)، وفي قسم التحقيق والتقصي في محطة إي بي سـي، و سي إن إن. وهو أيضاً كاتب مشارك في مجلة ناشونال جيوغرافيك أدفنتشر.

ISBN:978-9960-54-971-2
9789960549712

موضوع الكتاب: الحراسة الأمنية

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com